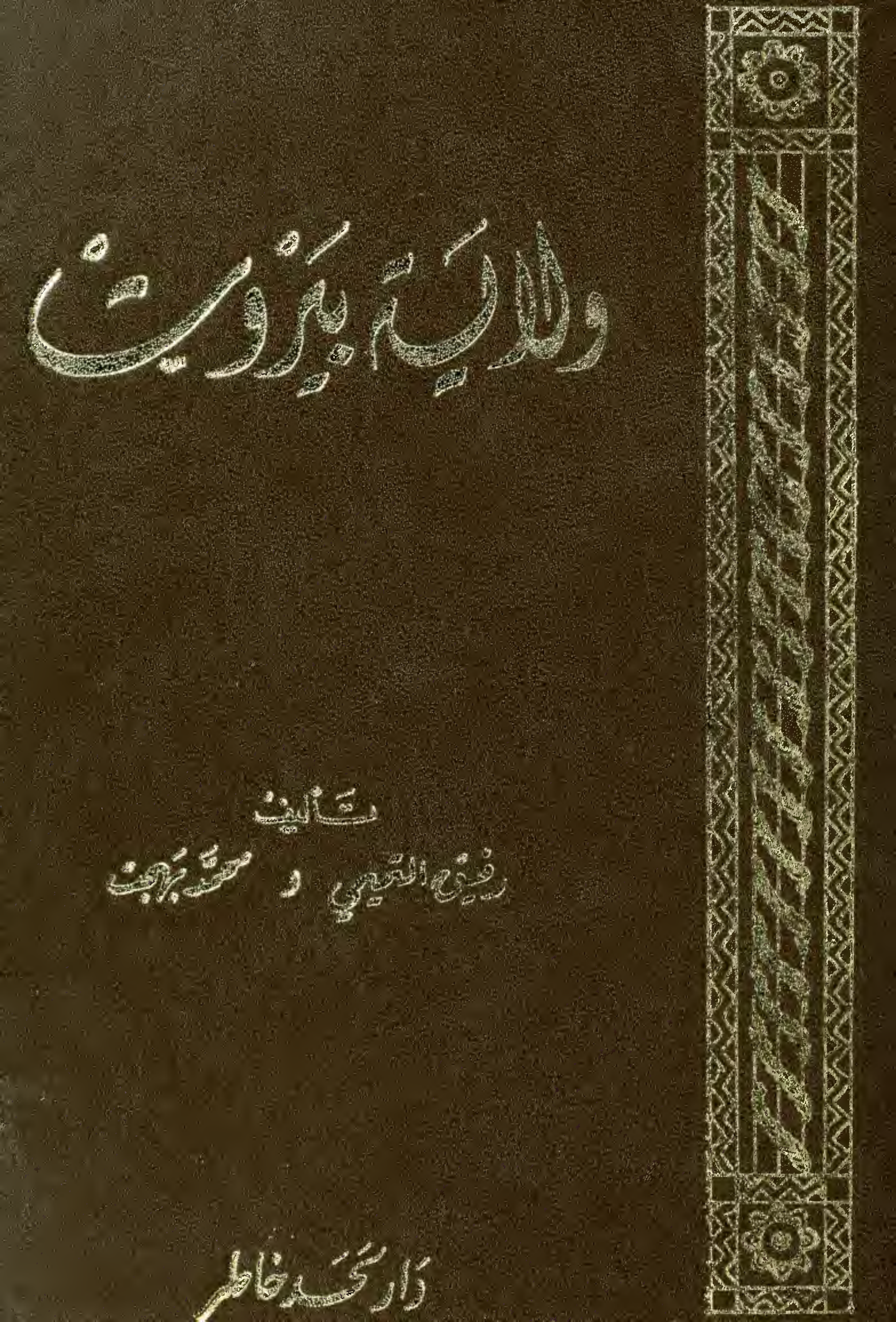
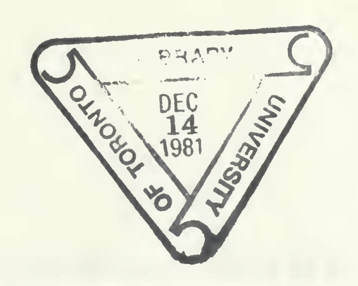

ولاية بيروت
تأليف
رفيق التميمي و محمد بهجت
دار محمد خاطر



دار لحد خاطر

للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب : ٩٠٢٩٢

جديدة المتن - لبنان

هاتف : ٣٢٧٧٢٥

تتبعات علميه وادية

Vilayat ...

ولاية بيروت

— ١ —

القسم الجنوبي

الوية بيروت . وعكا . ونابلس

تتناول المشاهدات والمباحث، من طبقات الامم، وطبقات الارض والجغرافيه، والتاريخ والآثار العتيقه، والاحوال الروحيه، والاخلاقيه، والاجتماعيه، والصحيه، والدين، واللغات، والآداب، والصنائع النفيسه، والمعارف والزراعه، والتجارة، والطرق، والصنائع

مطبعة الاقبال — بيروت

١٣٣٥ ه — ١٣٣٣ م

المقدمة

ان من الحقائق التي لا تنكر شدة احتياجنا لمؤلفات مفيدة تأتي بها التتبعات والتفحصات من وجهتي العلم والمدنية في احوال بلادنا العمومية . لنعرف منها ماهية وطننا المقدس . ولا ريب ان اهمال القيام بذلك ناشيء عن ضعف في العزيمة وفقدان الجرأة والعمل . واذا عطفنا نظرنا الى تقاويم الولايات « السالنامه » التي كانت تنشر حتى الآن وعرفنا انها كانت عبارة عن جداول رتب واسماء مأمورين تحقق لدينا ان الدوائر الرسمية لم تكن خالصة من وصمة الاهمال والتسامح في هذا الامر

ولقد نظر حضرة والي الولاية العالي عزمي بك افندي الى هذا الامر بعين الاهتمام وعرف شدة الحاجة الى املاء هذا الفراغ بوضع دليل علمي ومدني يستفيد منه موظفو الحكومة وطبقات الاهلين . وينير مستقبل البلاد العلمي فانتخب لهذه الغايــة رفيق بك التميمي مدير المكتب التجاري في بيروت . ومحمد بهجت بك المدير الثاني في المكتب السلطاني . وارسلهما الى القسم الجنوبي من الولاية

ورغماً عن فقدان الوسائط العمومية وعن لزوم تحديد مدة السياحة للمنتدبين بمدة شهرين فقد طاف المومى اليهما مناطق (سلفيت . نابلس . طول كرم . ملبس . جنين حيفا . عكا . صور . صيدا . نباطيه . جديدة . مرجعيون . الجاعونه . صفد . طبريا . الناصره . بيسان) واخذا من تتبعاتهما في تلك الجهات ومن مقتبساتهما من الآثار العلميه والادبية التي يشار الى اسمائها في نهايــة هذا المؤلف ماوجدا حاجة الى نشره فكتب رفيق بك المباحث (الجغرافية والتاريخية . والآثار العتيقة والمعارف والزراعة والتجارة والنافعة . والصناعة وطبقات الارض . وطبقات الامم والحالات الدينية في الطوائف « الدرزية . والمسيحية . واليهودية » وكتب بهجت بك عن « الاحوال الروحية والاخلاقية والاجتماعية والصحية » ومباحث « الالسنة والآداب والصنائع النفيسة » وعن طوائف « المتاولة والبابيه والسامريه » وعن « المؤسسات الاجنبية » وعن « المشاهد العامــة » وبذلك تم للاثنين تأليف هذا الكتاب بالاشتراك عن القسم الجنوبي من ولاية بيروت

ان هذا هو (تجربة قلم) ظهر لاول مرة في عالم الوجود و بالطبع ستتمم بعض المواد التى يعسر عليها وسيظهر ايضاً لعالم الوجود على هذه الخطة مؤلف تام عن القسم الشمالي حسب ما هو متصور لدى مقام الولاية العالي فيزول بذلك في زمن قليل ما نشعر به من الاحتياج لدليل علمي ومدني



ولاية بيروت

مباحث عامة

— ١ —

موقع ولاية بيروت وحدودها

تقع ولاية بيروت بين الدرجة ٣٥ . ٣٢ و ٣٤،١٠ طولاً والدرجة ٣١،٥٠ و٣٥ ،٣٥ عرضاً وهي عبارة عن القسم الاعظم من سواحل سوريه . وتتبع ولاية بيروت كافة السواحل السورية ماعدا القسم الشمالي الملحق بولاية حلب والقسم الوسطى الملحق بلواء جبل لبنان والقسم الجنوبي المرتبط بلواء القدس الشريف . ولقد امتدت حدود ولاية بيروت الى الداخل في الجهة الجنوبية فضم اليها لواءاعكاونابلس حتى نهر الشريعةوحدود لواءالقدس الشريف . وعلى هذا فان ولايةبيروت يحدهاشمالاً ولايةحلب وشرقاً ولايتا حلب وسوريه وجنوباً لواء القدس الشريف وغرباً البحر الابيض

قسمت ولاية بيروت بواسطة متصرفية جبل لبنان الى قسمين متساويين تقريباً فالقسم الجنوبي وهو الممتد من الحدود الجنوبية في ناحية جاعين الى نهر الاولي في قضاء صيدا ويبلغ طوله ١٦٥ كيلومترًا والقسم الشمالي منها وهو الممتد من مدينة طرابلس الشام الى الحدود الشمالية من قضاء صهيون التابع للواء اللاذقيةويبلغ طوله « ١٩٠ » كيلومترًا . ورغماً عن ان طول الولاية يبلغ « ٣٥٥ » كيلومترًا فان عرضها يتراوح في القسم الجنوبي ما بين ٣٠ و ٩٠ كيلومترًا وفي القسم الشمالي منها ما بين ٣٠ و ٥٠ كيلومترًا

— ٢ —

مساحتها السطحيه ونفوسها

يقدرون المساحة السطحية العمومية في ولاية بيروت بـ « ٣٠٥٠٠ » كيلومتر وتقسم بنسبة الالوية على الوجه الآتي

كيلومتر ومربع		
٤٥٣٠	لواء	بيروت
٧٥٢٧	«	عكا
٥٩٦٩	«	طرابلس الشام
٥٨١٠	«	اللاذقيه
٦٦٦٤	«	نابلس
٣٠٥٠٠		

ان القطع بصحة هذه الارقام صعب . وبسبب اهمالنا اصول المساحة (القادسترو) وعدم تطبيقنا اياها في بلادنا وهي تلك المسئلة المهمة . فقدلاقينا اثناء سياحتنا صعوبات بتعيين مساحات الاقضية والالوية حتى ان النفس لا تسمح بادخال الارقام التي اخذناها عن ذلك في تقريرنا هـذا لبعدها عن الحقيقة

ان مسئلة المساحات ذات علاقة بحياة البلاد وبقائها . وبقدر احتياج الدولة الغنية باراضيها الوسيعة لمعرفة حدودها ومساحاتها . فان الامة العثمانية محتاجة لمعرفة حدود اراضيها وحدود بلادها المتنائية الارجاء الغنية بمعادنها والمفتخرة بكونها مهبط المدنيات الكثيرة . ولقد اقتبسنا الارقام المذكورة آنفاً من كتاب (سوريه ولبنان وفلسطين) الذي نشره في باريس عام ١٨٩٦ (*Vital Gunet*) احد ارباب الاختصاص بفن الجغرافيا . وبالنظر لاهمال المؤلف ذكر مآخذ هذه الارقام مع ان الضرورة تقضي بذلك فاننا نضطر لايقاظ القراء الى تتبع الحقيقة عن مساحة الوية بيروت وعكا ونابلس التي تكلمنا عنها

النفوس = نذكر هنا عدد النفوس حسبما اخذناه من دوائر النفوس الرسمية

١٥٠٠٠٠	قضاء بيروت	لواء بيروت	١٨٦٦٣٩
٤١٢٤٠	« صور		
٥٤٢٨٤	« صيدا		
٣١١١٥	« مرجعيون		
٤١٢٩٠	« عكا	لواء عكا	١٣٨٨٧٣
٣٠٧٣٧	« حيفا		
٢٠٧٩٢	« الناصره		
١٣٧١٧	« طبريا		
٣٢٢٣٧	« صفد	لواء نابلس	١٣٧٥١٨
٥٦٥٧٥	« نابلس		
٤١٩١٥	« جنين		
٣٩٠٢٨	« بني صعب		
٥٦٣٠٣٠	مجموع نفوس الالوية الثلاثة		٥٦٣٠٣٠

يؤخذ من البيانين اللذين ذكرناهما آنفاً ان مساحة الوية بيروت وعكا ونابلس تبلغ ١٨٧٢١ وان نفوسها تبلغ ٥٦٣٠٣٠ وعلى هذا الحساب يصيب كل كيلومتر مربع منها ٣٠ شخصاً و ٨ في المئة

— ٢ —

الاهـالي

تقسم اهالي سوريا من حيث الشعوب الى عرب وسريان واتراك وجراكسه ·ويهود وفرانك · ومن حيث الاديان الى اسلام ومسيحيين (ما بين روم ارثوذكس · وكاثوليك · ومارونيين · ولاتين· وارمن كاثوليك· وارمن قدماء · ومسريان · وكلدانيين · وبروتستان) وموسويين وسامريين « * »

١ — العرب السوريون

لما انتشر الدين الاسلامي هاجرت اسر من شبـه جزيرة العرب واستوطنت سوريا وهي منقسمة الى قسمين حضر وبدو

اما الحضريون الذي استوطنوا المدن واستبدلوا قيافتهم العربية تدريجاً بقيافات الامم الاجنبية وثياب الاوربيين اخيراً فهم الاسرات الكبيرة المعروفة اليوم في المدن السوريه · ويزيد هذا القسم اضعافاً مضاعفة على السريانيين الذين ليسوا من العرب مطلقاً · اما العرب المتحضرون اليوم فليس في كثير من عاداتهم وموروثاتهم ما يشبه عادات اسلافهم العرب وطباعهم بشيء · واما البدو فهم العشائر التي فضلت حالة البداوة على الحضارة وظلت سيارة تتنقل في البلاد تحت خيامها · فالقسم البعيد منهم عن البلاد المتمدنة من سوريا ما لبثوا محافظين على اخلاقهم العربية صغيرهـا وكبيرها فهم يحترمون الضيف وينشدون اشعار الحرب والحماس · وهم مفترقون الى عشيرتين

الاولى — منهما عنزه وهؤلاء يرحلون ايام الشتاء الى اواسط البلاد العربية ويعودون ايام الصيف الى حدود سوريا · وتنقسم عشيرة عنزه الى اربع قبائل وهي: ولد علي · حسنا · رواله ·بيشر· وتتراوح نفوس العشيرة من ٢٥ الى ٣٠ الفاً

والثانية — منهما عشائر البدو القاطنون في اراض معينة من سوريه ولا يفارقونها في مواسمها الاربعة واهم هذه العشائر (بنو صخر) القاطنون لواء الكرك · وعلاوة على هذه العشيرة فانه يوجد حوالي الحولة عشيرة (الغوارنة) وفي غوربيسان (البشاتوه)و (البواتيه) و (الغزاويه) و (الصقاوره)

وتشتغل هذه العشائر بالزراعة والحراثه اكثر من اشتغالها بالماشيه وتربية الحيوانات (١)

---

(١) وسنشرح حالة السامريين العموميه حين الكلام عن نابلس

٢ — السريانيون

يحسبون اليوم سكان سورية من ابناء العرب بسبب انتشار اللسان العربي وتعممه بين القسم الاعظم منهم ولكننا اذا نظرنا بعين الحقيقة نجد ان ابناء سوريه هم احفاد السريانيين الذين كانوا يقطنون سوريه قديماً . ولما ظهر الدين الاسلامي المبين واستولى العرب على القسم الشمالي من سوريه لم يتبع الفاتحون سياسة الافناء والامحاء لسكان البلاد ولم يجبروا اهلها على اعتناق الديانة الاسلامية . ورغماً عن تمايل فريق كبير من سكان سوريه القدماء للديانة المسيحية حين استيلاء البزانسيين عليهم . ورغماً عن تخليهم عن دينهم القديم وتشرفهم بالدين المبين الاسلامي حين الفتوحات الاسلامية فأن قسماً منهم مازالوا محافظين على عاداتهم الصنمية القديمة . ومن ذلك الاماكن المقدسة المعروفة بـ (المقامات) التي لم تكن سوى (الماقومات) التي رفضتها الشريعة الموسوية بشدة ونفرة . واذا نظرنا في الامر بامعان نجد ان تلك المقامات التي يدعي اولئك انها مراقد الانبياء والاولياء هي عبارة عن قبور الآلهة المتخذة قديماً والموسومة باسماء اعزة النصارى . وان ذبح القرابين في تلك الاماكن وطلاء مشاهد القبور بالحناء . وربط الخرق الصغيرة بنوافذ المراقد وايقاذ الشموع والزيت في حجراتها واخاف في تلك الاماكن المقدسة والاعتقاد بهلاك الحانث بيمنه واستحكام تلك المعتقدات — انما هي آثار تعيد الينا ذكري عبدة الاصنام الذين كانوا يقطنون سوريه قديماً

ويطلق اسم السريانيين على اليهود وعلى كافة الاقوام القديمة التى كانت تقطن سوريه وتتكلم باللغة (الاراميه) المحرفة عن العبرانية . ولما ظهرت المسيحية تنصر قسم من هولاء وحافظ قسم منهم على وثنيتهم القديمة . وحينما انتشرت الاسلامية في سوريه اخذ اللسان العربي يقوم مقام اللغة السريانية وانتهى الامر بتعمم اللسان العربي تماماً . ولم يبق اليوم من المتكلمين بالسريانية الممزوجة بالعربية سوى سكان قرية او قريتين في (انتى لبنان)

— ٤ —

الاديان والمذاهب

ينقسم المسلمون في سورية الى سنيين وشيعة ومتاولة ودروز ولما كان امر السنيه والشيعه

(١) وسننشر في الآتي الحالة العمومية عن عشائر ولاية بيروت

معروفا لدى المعتنقين للدين المبين الاحمدي والبحث عنهما عائد للتاريخ الاسلامي فلا نرى لزوماً للتكلم عنهما او عن احداهما . ولكننا نتكلم هنا عن البابية والدوزيه (١)

١ — البابيون والبابيه

(١) — تاريخ البابيه — البابيه (BABISME) دين اسسه في ايران عام ١٨٤٣ م شخص معروف يسمى (السيد علي محمد) وهو من تلامذة (الشيخ احمد زين الدين الاحسائي) الشهير الذي كان يمزج الشريعة الاسلامية بالتصوف والفلسفة . ولقد كان (الشيخ احمد) وتلامذته يدعون ان المهدي المنتظر هو قائم في عالم غير جسماني وبعبارة اخرى انه قائم في علم روحاني يسمى (جابلقا) و (جابرسا) . اما (السيد علي محمد) فانه وافق شيوخه على معتقداتهم ولما عاد من مكة المكرمة ادعى انه هو (باب المهدي) وتدرج بعد قليل بالامر فاسس ديناً جديداً ايضم ابناء الاسلامية والنصرانية واليهودية والوثنيه . وسمى نفسه اولاً (باب الدين) ثم ترك هذا اللقب وسمى نفسه (النقطة) و (خالق الحق) ثم اعلن انه ليس نبياً او رسولاً عادياً ولكنه (هيكل آلهي) ومنح احد مريديه لقب (باب) وارسله من قبله الى جهات مختلفة

ثم عاد الى قول قدوته (الشيخ الاحسائي) وادعى للمرة الثانية انه هو (المهدى) المنتظر ولقد كان الاعتقاد بالرجعة اي رجوع فريق من الائمة السابقين وتابعيهم وانتشار مذهب (الاماميه) المؤيد لذلك باقياً في ايران وكذلك كانت اعتقادات الطائفة الباطية بتناسخ الارواح متبعة ايضاً في تلك البلاد . وظهر في الوقت ذاته اعوان (السيد علي) ومريدوه يدعون احياناً ان شيخهم هو الحسن واحياناً انه الحسين واحياناً انه احد الائمة . وكان (السيد علي محمد) يسمي نفسه تارة بحسن وطوراً بحسين وبامثالهما من الاسماء . وكان يسعى بنشر الدعوة القائلة بان الشخصية الانسانية التي تميز الافراد عن بعضها انما هي مجموعة صفات واخلاق . فاذا وجدت هذه المجموعة الاخلاقية على وجه التام تمثل ذلك الشخص بذاته في اي زمان ومكان فلهذه الاسباب ولقرب هذه المعتقدات من معتقدات الطائفة الشيخية احد فروع الشيعية ظهرت دعوة (علي محمد) وانتشر امرها

ولما راجت بضاعة دعواه ادعى هذه المرة انه نبي مرسل وان الكتاب الذي انزل عليه يسمى (البيان) وان القرآن الكريم اشار اليه بقوله (خلق الانسان علمه البيان) وان المقصود من الانسان (محمد) وان المقصود من البيان هو كتاب (البيان) المنزل على السيد علي

---

(١) وسنتكلم عن الاحوال الاجتماعية والادبية للمتاولة في حينه

اما كتاب البيان فهو عربي مسجع وفيه شيء من الكلمات الفارسية · واقب السيد علي نفسه مدة من الزمن (بالذكر) وادعى انه هو المقصود من الذكر الوارد بالآيتين الشريفتين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (فاسألوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) وازداد المتدينون بدينه في مدة قليلة وابتدأ يلقى الرعب في القلوب لأن الذين كانوا يطعنون بالدين الجديد يقتلهم اتباعه · فاهرق بسبب ذلك دماء كثيرة ومع هذا فانه لم يكتف بذلك بل سار البابيون على الحكومة في ثلاث جهات وهاجموها · ولم تتمكن من اطفاء الفتنة الا بعد مشقات عظيمه والقى القبض على (السيد علي) واعدم في سجنه رمياً بالرصاص بفتوى من علماء تبريز وذلك عام ١٨٥٠ بعد ان سجن ثمانية عشر شهراً ثم القيت جثته في خندق · ويدعي مريدوه ان جسده عرج الى السماء ولكن الايرانيين يقولون ان الكلاب اكلت جسده

وبعد ثلاث سنين من مقتل (على محمد) اراد ثلاثة من اتباعه الايقاع بالشاه فاهرقت بسبب ذلك دماء قليلة

وقد ذكر (محمد علي) في احدى رسائله ان أحد مريديه (يحيى) سيكون خليفته من بعده ودعاه (صبح الازل) فبدأ شاه ايران بتعقب المتدينين بهذا الدين · ولما لم يجد (يحيى صبح الازل) وسيلة للنجاة فر الى بغداد مع اخيه الميرزا حسين الملقب بـ (البهاء) · وباشارة من الاخ الاكبر اختفى (صبح الازل) عن الاعين واخذ اخوه (بهاء) يدعي ان (صبح الازل) اختفى عن الاعين ولكنه حاضر في كل مكان ولا تراه الاعين · وبحسب الاتفاق المنعقد بين الحكومة العثمانية وحكومة ايران نفت الدولة العثمانية هؤلاء الشرذمة الى ادرنة · وفي اثناء ذلك بدأ الشقاق بينهم فانقسموا الى قسمين احدهما اتبع (صبح الازل) وسموا (الازلية) والقسم الآخر اتبع (بهاء الله) وسموا (البابيه) وقد اتم (بهاء الله) قواعد الديانة البابيه واجتهد ليجمع بين ديانته والمدنية الحاضرة · وجمع معتقدات البابيين في كتابه المسمى (الكتاب الاقدس) ويقال ان لصبح الازل كتاباً خاصاً ايضاً · وعلى كل فان الشيعتين يرجعان بمعتقداتهما الى قواعد الديانة البابية

وبعد قليل من الزمن احست الحكومة العثمانية بشيء من مقاصدهم فنفت (صبح الازل) الى جزيرة قبرص وهناك توفي · ونفت « بهاء الله » الى عكا · وبقي « بهاء الله » معتقلاً في قلعة عكا الى ان توفي فخلفه ابنه (عباس افندى) وقد عمد « الشيخ عباس » لنشر البابية طوراً بزيارته اوربا واميركا وطوراً بارساله مبشرين للدعوة

٢ — قواعد الديانة البابيه — بعد ان حصل لدى القارئ اجمال عن تاريخ البابيـة ننتقل

الى البحث عن معتقدات البابيين . فالدين البابي يرجع باعتقاده مثل سائر الاديان الى وجود مبدأ فرد . ويصدق بسائر الانبياء والمرسلين . ويقرب من معتقدات النصارى بحلول اللاهوت بالناسوت رغماً عن قوله بان الارواح حين مفارقتها للاجساد تثاب او تعاقب ولكنه يقول بان الثواب والعقاب هو عبارة عن تلذذ او تألم بتذكر مامضى من الخير والشر . ويدعي ان الارواح الشريرة تعود الى العالم الجسماني مرة ثانية فقط بعد تخلصها من الاخلاق السيئة . ولا ريب ان هذا الاعتقاد هو من التناسخ . ويفرض الدين البابي صلاة ركعتين فقط كل صباح ولا يأمر بغير هذا وقد كانوا بنوا مسجداً في شيراز واتخذوه قبلة في صلاتهم . ويعتبر البابيون عدد ايام الشهر تسعة عشر يوماً لانهم يعتبرون العدد ١٩ مقدساً لزعمهم ان الوحدة في عالم اللاهوت مؤلفة من تسعة عشر اقنوماً . ويترأس العالم اللاهوتي « الباب » ويدعي البابيون ان الباب اكبر من « محمد » وان محمداً اكبر من عيسى . وتفرض الديانة البابية صيام شهر فقط وتنتهي مدة صيامهم يوم عيد النوروز . وعيد الفطر عندهم يوم النوروز . وتقضي الديانة البابيه بهدم مكة والقدس وسائر مقامات الانبياء والاولياء وجميع الاماكن المقدسة والمباركة . وقد كان الباب منع الخمر والتبغ في زمنه ولكن اتباعه حللوه بعده . وقد قال « الباب » ان في شرب الشاي ثواباً عظيماً واوصى باستعماله . وتجيز الديانة البابية تعدد الزوجات الى اثنتين فقط . اما الزواج بالشراء او بالمتعة فغير محصور بعدد ويقال ان البابية تجيز التزوج بالاخت . . . اما الكذب او نداء احد من خلفه فحرام . وكفارته اعطاء ثلاثة مثاقيل من الياقوت الى اربابه . فاذا لم يجد ياقوتاً فيكفر بصيام ثلاثة ايام . ومن قواعدهم الدينية بناء مراقد مرصعة بالجواهر لرفقائهم الذين استشهدوا في طهران . وقيام كل شخص يمكنه الاستقلال من ابناء دينهم بالدعوة فيخير العالم اما باتباع الديانة البابية او بالقتل ولا تقبل الجزية عندهم . وتقضي الديانة البابية ان يقتني كل فرد منهم قدح فضة وثياباً نظيفة فيشرب بالقدح ماء صافياً ويتزين بثيابه النظيفة حين الفراغ من عمله . ويعتقدون انه من الممكن ظهور مرشد كامل بعد الفي سنة وكسور من وفاة الباب . وحاصل القول ان الديانة البابية لا تستقر على نظام معين فهي كالرمال المتنقله فتارة تحدث تلالاً وتارة تنتقل الى محل آخر فتصبح ركاماً صغيرة ولا تجيز الديانة البابية الزواج بالمستفرشة ولا يجوز الطلاق عندهم كما ان التستر غير جائز في البابية

ومن تعاليم هذا الدين عدم الاباحة للمعلم ضرب تلامذته . ولا يجوز اعطاء الزكاة والصدقة لغير البابيين واذا لم يكن من البابيه فقير فان الصدقة والزكاة تعطى للفقراء من الطائفة الشيخيه ولما كان الانتساب « للاباحية » من قواعد دينهم فانهم يحلون هدر دماء المخالفين لدينهم .

ويقال ان الديانة البابية تبيح المشاركة بالاموال

٣ — المقاصد المدنيه من البابيه — ارسل «الشيخ عباس» الشيخ الحالي لطائفة البهائية من الديانة البابيه كتاباً فارسي العبارة الى المجلة الشرقيــة في لوندره THE ASIATIC (QUARTER BY REVIEW) فنشرت المجلة في عددها الصادر في شهر نيسان سنة ١٩١٣ صورة الكتاب بالتصوير الشمسي وترجمتــه الى الانكليزية . ولما كان الكتاب محرراً بحرية مطلقة وبدون تضييق اواجبار فانهُ يمكننا اعتبار ما تضمنهُ وان نتلقاه كوثيقة تاريخية عن المقاصد الدينية للديانة البابيه

ويرى القارئ فيما يلي في اجتماعاتنا مع الشيخ المومى اليهِ ان الافكار والاراء التى صرح لنا بها غير مخالفة او مناقضة لما جاء في الكتاب ولهذا يمكننا الاعتماد على ما ورد فيهِ واعتبار صدقه وصحته . وها اننا نترجم الكتاب حسب ما يأتي :

مدير مجلة الشرق المحترم في لوندره

هو الله

صديقي المحترم

تناولت كتابكم . وقد اوجبت سروري تلك الروابط الروحانية المنبعثة عن الروح والوجدان ولقد تبين لي من هذه السياحة ان العالم الغربي قد رقي جداً في المدنية المادية ولكنه نسي تماماً المدنية الآلهية . ولقد غاصت عقول البشر في بحار العالم الطبيعي الذي يشو به كثير من النقائص فاصبحت المدنية الآلهية ضئيلة لا ترى . وما دام تنازع البقاء هو القاعدة الاساسية في عالم الطبيعة . فمشاكل بني البشر والبغضاء والشحناء والحرب والخصام لا تفارق هذا العالم لانها منبعثة جميعها عن تنازع البقاء . وما دام الظلم والانانية وحب الاعتداء على حقوق الآخرين من لوازم العـالم الحيواني فان هذه الصفات المنفورة لا تزال سائدة ومحكمة بين بني البشر . ولهذا فالفلاح والنجاح بعيدان عن بني الانسان . لان النجاح والفلاح متوقف حصولهما على الفضائل والخصال التى تزدان بها الحقيقة الانسانية وهذه مخالفة للطبيعة . لان الطبيعة ميالة للحرب سفاكة الدماء . مملوءة بالبغض والشحناء . وكلها بعيدة عن حضرة الخالق . وان الخالق العالم باتصاف الطبيعة بالوحشة والافتراس تفضل علينا بارسال الانبياء وبانزال الكتب لطفاً منهُ تعالى وكرماً ليتخلص العالم الانساني بفضل التربية الاساسية من فساد الطبيعة ولينجو من ظلامة الجهل وليقرب من الكمالات المعنويه

والعواطف الوجدانية وليتحلى بالفضائل الروحانية فيصبح مصدراً للسنوحات الرحمانية . وهذه هي المدنية الآلهية

ان المدنية المادية في العالم الانساني اليوم لطيفة كالزجاج . ولكن ويالاسف قد فقد هذا الزجاج الشعاع وحرم من شعاع التجليات الآلهيـة ولم ينل حظاً من المدنية الربانية. نعم ان هذا العصر عصر النور . عصر ظهور الحقائق . عصر الترقي ولكن ويالاسف ان العصبية الجاهليه والمنازعات الطبيعية والخصومات والعداوات لا تزال اطنابها ضاربة بشدة عظيمة بين بني البشر . ولو امعنا النظر لوجدنا ان كافة الشرور ناشئة عن فقدان المدنية الآلهية وعن نسيان التعاليم التي جاء بها الانبياء . فالتورات نصت على ان الحق تعالى خلق جميع بني البشر . وانهم جميعاً تحت ظلاله . و نطق الانجيل بان شمس الالوهية تطلع على المطيع والعاصي وتضيء على الجميع سواء . وورد في القرآن الكريم (لا ترى في خلق الرحمن من تفاوت)

هذه هي قواعد المظاهر المقدسة الآلهية ولكن ويالاسف ان سوء التفاهم العام هدم مابناه الانبياء، ولهذا اصبح الدين سبباً للعداوة والبغضاء عوضاً عن ان يكون سبباً للمحبة والالفة ومداراً لوحدة العالم الانساني واتفاقه

لا تزال خصلة سفك الدماء الحيوانيه مستحكمة بين بني البشر منذ ستة الآف سنة فاهلكت العالم الانساني وافنته فالف الآف من الاسف على هذه الحالة . ولقد خطر ببالي :

ان اطوف البلاد الغربية وادعو في المنتديات الكبرى وفي الكنائس الى وحدة العالم الانساني حسب تعليم حضرة بهاء الله واروج فكرة الصلح العام وارفع عقيرتي على قدر استطاعتي واقول للعالم : الحمد لله لقد طلعت شمس الحقيقة من افق الشرق وارسلت اشعتها على جميع العالم ، وان اشعتها هي تعاليم السماء فهي تدعو العالم باجمعه الى الاتحاد والسلام العام . والى التحري عن الحقيقة وتأسيس التآلف والمحبة بقوة الدين وتحكيم العلم والعقل والدين في المعاملات . والى نبذ التعصب الديني والتعصب الجنسي والوطني والسياسي . والى تعميم العلم والعرفان والى انشاء محكمة عامة كبرى تفصل الخلافات التي تحدث بين الشعوب والدول وتزيل ما يطرأ من المشاكل . والى تربية بنى البشر على الفضائل الانسانية والى تشييد القواعد الاقتصادية وتأسيس لغة عامة فذهبت لدعوة العالم الى مثل هذه الخصال التي تدعونا اليها شمس الهداية

فيتخلص العالم الانساني بفضل ذلك من الظلم والضلالة ويقرب من مطلع الانوار فيزول النزاع والجدال والخصام من بين بني البشر ولا يبقى سوء تفاهم بين الاديان لان اساس الاديان الالهية واحد وهو وحدة العالم الانساني . ولقد وجدت ولله الحمد في اميركا كثيراً من بني الانسان

يرمون الى ايجاد وحدة بين الشعوب فينهضون بهذه الواسطة بالعالم الانساني . وانني ارجو ان تنتشر هذه الافكار العالية . فلا يبقى حينئذ جدال او نزاع بين الاديان والاقوام هذه . هي العزة الابدية وهذه هي السعادة الروحية وهي هذه جنة العالم الانساني (١)

٢ — الدروز

١ — تاريخ الدروز — يعرف المشتغلون بالتاريخ ان كثيراً من قبائل العرب العاربة هاجرت بعد (سيل العرم) من اليمن الى شمالي البلاد العربية والى الشمال الغربي منها والى الجهة الغربية . ويدعي الدروز اليوم انهم من (آل تنوخ) الذين هاجروا ذلك الحين من اليمن واسسوا في الحيرة دولة (المناذره) ولما قتل كسرى (ابرويز) نعمان الاكبر هاجر (لحم النعمان) الذي جلس على كرسي (المناذره) من العراق الى الديار الحلبية مع اثنتي عشرة اسرة من اشراف الدولة فاستوطنوا قصبة (المعرة) ثم تزوج بابنة الامير معن احد ملوك الايوبيه الذين كانوا يحكمون ما بين النهرين . وكان الحاكمون في عشيرة النعمان (بني هاشم التنوخي) . ولما ظهر الدين الاسلامي واتسعت دائرة فتوحاته تشرف (التنوخيون) بالدين المبين الاسلامي وانضموا الى جيوشه القائمة وشاركوا جيش الاسلام بفتح سورية واتخذوا حينئذ (جبل لبنان) وطناً لهم . ولما ظهرت الدولة الفاطميــة في القرن الهجري الرابع هاجر التنوخيون من وطنهم سوريه واستوطنوا الديار المصرية . وارتقوا هناك الى المراتب العاليه واصبحوا اصحاب املاك واراض واسعة . وحين جلس (الحاكم بامر الله) على كرسي المملكة الفاطميه جاراه التنوخيون على ارائه واعتقاداتهِ الدينية واصبحوا حزبهِ الخاص الذي يدافع عنهُ وعن سياستهِ بكل ما بهم من القوة والاستطاعة وفي ذلك الحين عهد الحاكم بامر الله بادارة شؤون التنوخيين في سوريه الى احد اتباعهِ المسمى (محمد بن اسماعيل الدرزي) فانقلب اسم التنوخيين الى الدروز نسبة لاسم اميرهم . ولقد ظهرت مناقشات ومخاصمات شديــدة بين (الدرزي)والتنوخيين حتى ان التنوخيين قتلوا واليهم (الدرزي) . ولما دالت الدولة الفاطمية جاء القسم الذي بقي من التنوخيين في الديار الحلبيــه الى وطن اقربائهم في جبل لبنان وانضموا الى ادارة امراء بني معن واختاروا الاقامة في جبال الشوف . ومنذ ذلك الحين اصبح التنوخيون وبعبارة اخرى الدروز ذوي شوكة ونعمة واقتدار ولقد نال التنوخيون اعلى المناصب واسماها في زمن نور الدين الشهيد وفي زمن هلاكو . ولما فتح

(١) وسنذكر حين الكلام على حيفا قواعد البابية العمومية في الحالة الحاضــرة

السلطان سليم خان سوريه كافأ الحاكم الامير (فخر الدين معن الاول) رئيس الدروز في ذلك الحين على مساعداته الفعلية فعينهُ والياً على ايالة صيدا التي كانت تمتد حدودها من غزه حتى اللاذقيه . ومنذ ذلك الحين انتقلت السلطة والامارة من التنوخيين الى آل معن ولهذا سمي جبل لبنان ايضاً بجبل معن

يقطن الدروز جبل لبنان وحوران بكثرة ويقطن قسم قليل منهم صفد وعكا ومرجعيون ودمشق ومنطقة حلب ولكن احوالهم الاجتماعية تختلف اختلافاً زائداً عن بعضها بنسبة الاقاليم والمناطق التي يقيمون فيها . فالدروز الساكنون في لبنان مطيعون للحكومة في الوقت الحاضر بكل معنى الكلمة ويظهر عليهم الميل للراحة والرغبة بالعلم والتربية . وبالعكس فان دروز حوران قد اعتادوا على الجسارة وحب الحرب حفظاً لانفسهم من التعدي والغارات ورغماً عن قلة نفوسهم فقد اشتهر امرهم بحب الانتقام واخذ الثار

عرف الدروز كسائر البدو باكرام الضيف ورعايته وبابتعادهم عن الرفاهية ومظاهر الزينة والفخفخة . واشتهروا بصلابة الاخلاق وبحسن المنطق . ولقد اصبح عدم الاسراف والمحافظة على صحة البدن وسلامته طبيعة ثانية في نفس الدرزي بل هي وظيفة دينية عنده اكثر مما هي طبيعة معتادة

ولما تكلم (ويتال كينه) في كتابه « سوريه ولبنان وفلسطين » عن الدروز قال ما يأتي :

« يبلغ عدد الدروز القاطنين حوران تسعة في المئة من نفوس ولاية سوريه ويقيم فريق قليل منهم في لواء عكا . ولقد كانت هذه الطائفة تسكن جبل لبنان وتقيم في سواحل فينكيا وفلسطين . كانت حالة الدروز في ايام الامير الشهير فخر الدين حسنة ومنتظمة . ولكن الجزار احمد باشا شدد عليهم فانسحبوا زرافات زرافات الى حوران وهاجروا اليها . ويؤمن الدروز بالحاكم بامر الله احد ملوك الفاطميين ويعتقدون بانتقال الارواح من جسد الى جسد ويقولون بحلول القدسية الآلهيه في اجسام معينه حتى انهم يعتقدون بان الآله الذي يؤمنون به متى حل بجسم راق وعال فان الطائفة الدرزية تصبح الحاكمة المطلقة في العالم . ويعتقدون ان كل فرد يملك في هذه الدنيا ويثرى فيها بنسبة حسناته وسيئاته . ومن جملة معتقداتهم ان كل فرد مكلف بخدمتهم

ولقد قام الوزير « حمزه » الوزير الخاص للدولة الفاطمية بنشر الدعوة وتعميم هذا المذهب في انحاء العالم منذ سلطنة الحاكم بامر الله . حتى ان الوزير « حمزه » ارسل مبشريه الى اصغر الجزر ويقال انهُ ارسل مبشريه الى اوربا واسقوجيا ونجح فيها . ومن المحتمل ان تكون محافل

(الدرزي الموحد) و « متولى لبنان » القائمة في فرانسه ناشئة عن تأثير هذه الفكرة · والعلامة الدينية للدروز هي شجرة (الاقاسية) التي استعملها ملك الفينيقيين « حيرام » فالدروز يغرسون في بيوتهم وفي مكاتبهم شجرة « الاقاسية » · وحين الخطبة يزرعون شجرتين من الاقاسية باسم الزوج والزوجة حتى تنمو المحبة المتقابلة بين الزوجين كنمو « الاقاسية »

ويقسم الدروز الى عقال وجهال · فالعقال هم العالمون بالامور الدينية وتختلف درجاتهم بنسبة علمهم · ولا يجوز لاي جاهل كان ان يترك صنفه دون ان ينال مساعدة خصوصية من رئيس العقال في ناحيته او في قريته · ويعتقدون ان اكبر العقال هو الشخص الذي يصعد الى درجة تمكنه من الاطلاع على كتابهم الذي يحرصون عليه ويمنعون كل فرد من قراءته والاطلاع عليه · ويذهب جميع العقال ليالي الجمعة الى خلواتهم « المعابد » لسماع قراءة الكتب الدينية · وينسحب العقلاء من هذه الاجتماعات اما في مبدأها او في وسطها او في منتهاها على حسب درجاتهم من الرفعة والتقدم في المراتب · وبحسب مدة الاجتماع قلة وكثرة تظهر درجة العاقل · اما الجهال فيحق لهم الاشتراك في هذه المراسم الدينية في عيدي الفطر والنحر

ولا يمكن لكل درزي ان يكون عاقلاً فان الصعود الى تلك المرتبة الرفيعة متوقف على ان يكون الرجل هادئاً عفيفاً بعيداً عن بذائة اللسان غير متأنق بانتقاء الثياب غير سكير ولا شارب دخان ولا مرتكب ما لأ حراماً وعلاوة على ذلك فانه يجب على العاقل ان يكون متعماً ومكتسياً طاقية وعباءة ويشترط ان يكون ذا لحية ايضاً

٢ — دين الدروز واعتقاداتهم — من الصعب الخوض في هذا البحث بصورة صريحة وواضحة فان الدروز الذي عوملوا معاملة الخوارج من حيث الظلم والتشديد عليهم اعتادوا على الكتمان والاخفاء الشديدين · ولا نرى سبباً لاصرار العقلاء الذين رغبنا اليهم ان يطلعونا على شيء من معتقداتهم سواء كان في سياحتنا هذه او في غيرها من الاوقات على الامتناع عن اطلاعنا على الحقيقة — سوى اعتيادهم على تلك العنعنة المظلمة المتوارثة بينهم

ويدعي الدروز ان الدرزية ليست مخالفة للاسلامية التي يعرفها كل فرد · وانه ليس لهم علاقة او رابطة مطلقاً مع طائفتي الاسماعيلية والقرامطة · ومع اشتهار بعضهم للصنمية فانهم يقولون بتناسخ الارواح ويؤمنون بوجود الاله ويغلب على الظن ان القائلين بعبادة الدروز للعجل مخطئون في اعتقادهم · ولكن ليس من الخطأ القول بان الدروز يعتقدون بحلول الحق تعالى شأنه في شخص الحاكم بامر الله احد الملوك الفاطميين وبتمثله به وبتجليه فيه

ويصر الدروز على ادعائهم بانهم يقولون بالوحدانية الآلهية وبعدم نهايتها وبابدية الارواح

وعدم فنائها وبالحشر والنشر وبـ « التقمص » اي انتقال الارواح من جسم الى جسم وبالكتب الدينية وبحرمتهم لجميع الانبياء.

ورغماً عن جميع هذه التصريحات فان عدم التردد والشك بالمذهب الدرزي غير ممكن لاننا نرى الدروز يؤمنون على العمياء بالكتب التي وضعها « حمزه بن علي » احد الرجال المقربين من الحاكم بامر الله . وترى الرسائل التي تسمى (الحكمة » والتي يقال انهم يتوارثونها بطنا بعد بطن ويحافظون عليها بكل اعتناء واحترام ويتلونها في خلواتهم بكل خضوع وخشوع — مملوءة بالمعتقدات المخالفة للتوحيد . ومن اعظم الادلة على صدق مدعانا رسالة (ميثاق ولى الزمان) المدروجة ادناه وهي من وضع حمزة المذكور :

(توكلت على مولانا الحاكم الاحد الفرد الصمد المنزه عن الازواج والعدد اقر فلان بن فلان انهُ قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والاديان والاعتقادات لها على اصناف اختلافاتها وانه لايعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره والطاعة هي العبادة وانهُ لايترك في عبادته احداً مضى او حضر او ينتظر وانه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ورضي بجميع احكامه له وعليه غير معترض ولا منكر لشيءٍ من افعالهِ ساءه ذلك ام سره ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره او خالف شيئاً من اوامره كان بريئاً من الباري المعبود واحترم الافادة من جميع الحدود واستحق العقوبة من الباري العلي جل ذكره ومن اقران ليس له في السماء آله معبود ولا في الارض امام موجود الا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين)

فاذا قرأنا كتاب (ميثاق ولى الزمان) وجدناه مملوءاً من اوله الى آخره بما يخالف الوحدانية والصمدانية ومفعماً بالافكار الباطلة . ويدعي مؤرخو الاسلام والافرنج ويصرون على دعواهم بان الدروز يقدسون مثل هذه الرسائل ويؤمنون بما جاء فيها . ويظهر بين معتقدات الدروز الظاهرية وبين الاعتقادات الكفرية الواردة في مثل هذه الرسائل تباين مدهش . ولقد رغب كثير من العلماء المتنورين الوقوف على الحقيقة من عقلاء الدروز ولكن عبثاً حاولوا فان التعصب والجهالة المستولية في الوقت الحاضر على البلاد الدرزية تحول دون تصريح (عاقل) من عقلائهم بالحقيقة . وعبثاً استعمال الوعد والوعيد معهم ليقروا بحقيقة دينهم

ولا يمكنني ان امسك نفسي بهذه المناسبة عن التصريح بما يأتي : اعد من النقص المعيب ان تعجز المدنية الحاضرة التي جاءت بالاعاجيب من الاختراعات الفنية والاكتشافات المدنية في القرن العشرين عن النفوذ في العقيدة الدينيه لطائفة الدروز التي عاشت زمناً مديداً بين المسلمين والمسيحيين

وقد علموها وامتزجوا معها امتزاجاً تاماً وان لا تكتب معتقداتهم بصورة صريحة وقطعيه . ولنا وطيد الامل ان ينتشر العلم الصحيح والمدنيـة الراجحة في بلادنا فيكشف ارباب العلم من الطائفة الدرزية حقيقة هذه المسئلة المهمة خدمة للعلم والفن . وهذا رجاؤنا !

٣ – المسيحيون

[١] الروم الاورثوذكس – يتبع القسم الاعظم من مسيحي الشرق الكنيسة الرومية ولكنهم يستعملون اللسان العربي في عباداتهم . غير ان الرهبان اصحاب المراتب العاليـة واكثرهم من اليونانيين الاجانب يستعملون اللغة الرومية في عباداتهم . وللروم بطركيتان احداهما في القدس والاخرى في انطاكية (وهي اليوم في دمشق) . ويقيم المطارنة التابعون لبطركية القدس في اديرة القدس الشريف . اما مطرانا عكا وبيت لحم فيقيمان في مركزى ابرشيتيهما . وابطركية القدس رؤية مصالح الكنائس عموماً في فلسطين . اما بطركية انطاكية فترى مصالح كافة الكنائس من صور حتى اسيا الصغرى . ويلحق هذه البطركية ابرشيات الشام وبعلبك وحلب . وعرف الاروام ببغضهم وعداوتهم للطائفة اللاتينية اكثر من بغض البروتستانت لهـا . وترى الاروام شديدي التعصب ضد اللاتينيين . وبسبب التشويقات التي كانت تقوم بها الجمعية الفلسطينية الروسية حتى اعلان الحرب الحاضرة اصبحت الطائفة الرومية ذات نفوذ عظيم

[٢] – اللاتين الكاثوليك – يقيم في بيروت رئيس مطارنة هـذه الطائفة الحائز على الوكالة من البابا ويديرشؤون الادارة الروحية لكنائس حلب والشام وبيروت . ولطائفة اللاتين اليوم جمعيات مذهبية معروفة باسماء الفرانسسكين . الجزويت . اللازاريست . اخوة القديس يوسف . اخوة الناصره . وقد ظفرت هذه الجمعيات منذ القديم بالتحكم والنفوذ على الطوائف النصرانية في سورية وخصوصاً الكاثوليكيين منهم حتى ان سلطتها نفذت في حياتهم الادبية والمادية . ولقد كانت هذه الجمعيات حتى اعلان الحرب لحاضرة قائمه بايقاع الدسائس السياسية والاجتماعية ضد العثمانية والاسلامية ببذر بذور الشقاق والنفاق بين افراد الامة العثمانية وذلك بفضل ما كانت ترسله اليها الحكومات الكاثوليكية الكبرى في اوربا من المبالغ الجسيمة

[٣] – الموارنة – تقيم طائفة الموارنة النصرانية بشكل كتلة متكاثفة في السطح المائل الغربي من لبنان ما بين نهر الكلب ونهر البارد ويوجد قسـم منها في لواء بيروت والقسم القليل منها في لوائي طرابلس الشام واللاذقية . ولقد اجتمعت الطائفة المارونية التي تقدر نفوسها بثلاثمائة وخمسين الفاً في المحلات الصخرية والمنيعة من جبل لبنان في اواخر القرن السادس الميلادي بفضل

الراهب « جان مارون » وحافظت بفضل مناعة مواقعها على استقلالهـا تقريباً حتى القرن الثاني عشر من الميلاد رغماً عن مجاورة الدروز لها . واقد بدأت الحكومة العثمانية في العصرين الاخيرين بايقاف الموارنه على بأسها وقوتها فأسست في مناطق البلاد التي يقطنونهـا كثيراً من القرى للدروز

ولا يمكن في وقت من الاوقات ان يصل الموارنة الى الدرجـة التي وصل اليها غيرهم من عشائر العرب من حيث الرعاية والحرمة للضيف . ولقد كانت المرأة المارونية حتى النصف الاخير من العصر التاسع عشر لا تخرج الى الاسواق الا متزرة ولكنها تخلصت اخيراً من هـذا الاسر واخذت تتقرب في حياتها ومعيشتها من حياة المرأة الاوربية

ويملك رجال الدين في الطائفة المارونية اكثر من ربع الاراضي في لبنان ولهم اكثر من مأتي دير في المنطقة ذاتها وللخوري الماروني الحق بالازدواج ولكن لا يحق له الزواج ثانية اذا توفت امرأته

وينتخب خورة القرى الذين هم في الدرجة الثانية الخورة الذين ينتخبون بطريرك الموارنة الذي يصدق عليه البابا . ويؤدون عباداتهم باللغة السريانيـة التي لايفهمها احد من الموارنة

وقد اخذت في السنين الاخيرة الجمعيات الكاثوليكية وفي مقدمتها الجمعية الجزويتيه بانشاء مئات من المكاتب في المناطق التي يقطنها الموارنة واجتهدن بتعميم اللغة الفرنساوية ونشرها . وترى اليوم ان القسم الاعظم من الشبان من ابناء الطائفة المذكورة في الوقت الحاضر سواء كانوا في المدن او في القرى يتكلمون ويكتبون اللغة الفرنساوية بسهولة اكثر من لغتهم الاصلية . ولقد فطر شبان هذه الطائفة على حب التجارة والتشبث الشخصي وفضلاً عن ذلك فان الاستفادة التي يحرزونها من دراستهم في المكاتب سبع سنين او ثمانيـة واستحصالهم الشهادة هي لاتتعدى على الاكثر تعلم اللغة الفرنساوية ونمو الجسارة المدنيـة في انفسهم وكـثرة ميلهـم الى التشبث الفكري والشخصي . والدليل على ما نقول هو نجاح تجار الموارنة ونهوضهم في مصر وفي اميركا وفي البـلاد الكبرى من اوربا وفي بيروت

« ٤ » — الاروام المتحدون — يطلق هذا الاسم على العرب العاربة الذين هاجروا من اليمن قبل ميلاد عيسى واستوطنوا جنوبي الشام وغربيها وتنصـروا حين ظهور الديانة المسيحيه فهؤلاء المتحدون لاعلاقة لهم مطلقاً لابالاروام ولا باليونانيين وهم يؤدون عبادتهم باللغة العربية غير ان مرجعهم البابا ولرئيسهم المقيم في الشام عنوان بطريق انطاكيه والاسكندريه والقدس . ولقد انتشر العلم والعرفان بين هؤلاء الاروام المتحدين المدعوين بالروم الكاثوليك او بعبارة اصرح المسيحيين العرب الذين امتازوا بذكائهم وبحسن اخلاقهم بين كافة المسيحيين في اسيا . وليس بين جميع نصارى الشرق الادنى من ينطق بلغته الاصلية بطلاوة وحلاوة مثل هؤلاء . ومما يوجب الحيرة والعجب

قيامهم بالتشبث الشخصي وشدة وقوفهم على المعاملات التجارية

(٥) — مؤسسات الكاثوليك الاجانب — يتوقف استحصال فكر خاص عن المؤسسات الاجنبية في القطعة السورية وخصوصاً في ولاية بيروت وعن اعمالها الدينيه والتعليمية وعن تأثيراتها السياسية في نتيجة الامر — ان ننظر قبل كل شيء في ادوارها السياسية والتاريخية ونرتقي بالبحث حتى نصل الى العصر العاشر الميلادي

اذا نظرنا سطحياً في تاريخ الكنيسه في القرون الوسطى نجد ان الكنائس الكاثوليكية قد فسد امرها واختل نظامها في القرون المذكورة . ولذلك بدأ ارباب النظر باصلاح الاديرة واخذ رجال الكهنوت يتشبثون بالاعمال والمبادئ الثابتة بين درجاتهم ومراتبهم فأسسوا في اول الامر طريقة (القديس بنوا) ثم وضعوا طريقة دير (قلوني) تلك الطريقة الخشنة . ثم ظهرت في اوائل العصر الثاني عشر طريقة (سيسترسيهن) CISTERCIENS وهي التي تمنع متبعيها عن مخالطة احد وتوجب عليهم الاشتغال بالزراعة في الاحراج الخالية . ثم ظهرت بعد ذلك طريقة الناسك (برهمونتره) BREMONTRÉS وهوالآمر بالانزواء والمعيشة في المحلات المنفردة ثم ظهرت بعد ذلك طريقة (شارترو) CHARTREUX وهي التي تأمر متبعيها بمعيشة الانفراد في حجرات صغيرة وتوجب عليهم الصمت وعدم الاختلاط

وقد انتجت الحروب الصليبيه تزايد هذه الطرائق الدينية حتى انه ظهرت بين قواد الحروب الصليبيه طرائق جديدة توجب على المنتسبين اليها الارشاد والدعوة الى محاربة المسلمين وكل من ليس مسيحياً .

وفي العصر الثالث عشر ظهرت طرائق جديدة للاختلاط بالناس ووعظهم وارشادهم الى النصرانية . ويمكننا ان نشير الى « الفرانسيسكين » FRANCISCAINS والى الدومنكيين DOMINICAINS من بين الطرائق الحديثة التي ظهرت . ثم ازدادت عدد الطرائق المذهبيه في النصرانية حتى بلغت المئات في عدة اعصر . وظهرت بعد ذلك طرائق اخرى للراهبات

ولقد كان مؤسسو هذه الطرائق يبدأون بتأسيس اديرتهم ومعابدهم في فرنسه وايتاليا واسبانيا ثم يتدرجون الى باقي الممالك الاوربية ثم يفتتحون مراكز لطرائقهم في البلاد الاجنبية وخصوصاً في سوريه مهد ظهور النصرانية ويعتقدون ان اعتنائهم بنشر طرائقهم فيها هو من اهم وظائفهم

ولا يخفى ان الغاية من الحروب الصليبيه هي استخلاص الارض المقدسة من ايدي المسلمين ولما انهزم العالم النصراني وآب بالخيبة بعد تلك الحروب الدموية الفجيعة ثبت لديهم ان استخلاص الارض المقدسة بالحرب غير ممكن مطلقاً ومتعذر عليهم . فرجع العالم النصراني الى فكرة الاستيلاء

على القلعة من داخلها فاخذوا يرسلون الجمعيات والبعثات التي لم يمكنهم الصبر عليها ولم يقدروا على احتمالها في بلادهم ويقذفون بها الى الارض المقدسة لتقوم بادارة الحركة التي توصل الى الغاية المقصودة . وقد اصبحت هذه الفكرة واضحة ومعلومة لا تخفى على احد

وجدت الجمعيات الكاثوليكية التي اخذت على عهدتها نشر المسيحية وتعميمها انها تفوذ بغاية اخرى غير غايتها الاولى فاخذت تبذل كافة قواها وجميع ما في وسعها في ذلك السبيل ايضاً حتى انها اصبحت في زمن قليل من دعاة الحكومات ومبشريها

ووجدت الحكومات الاجنبية خدمة جليلة من هذه العناصر الدينيه التي احست بضررها في بلادها فاتخذتها آلة لمقاصدها السياسية واخذت تعينها بالمبالغ الكلية من الاموال وتوالى ارسال التعليمات المقتضية اليها بواسطة مأموريها السياسيين في البلاد الاخرى

ولا يمكننا انكار ما احرزه الرهبان والراهبات الذين يظهرون امام العالم بازيائهم الدينية البريئة من الدنس من النجاح بانارة الافكار بواسطة مدارسهم ومكاتبهم التي لا يحصى عددها في كل جهة وخصوصاً في سوريه كما انه يجب علينا الاعتراف وعدم الانكار بانهم سمموا الافكار بهذا القدر حتى انهم قلبوا البسطاء من الاهالي الى الصبغة الاجنبية الصرفه وجعلوهم اشباحاً بلا ارواح فى جانب دولتهم وامتهم

ولقد جنى العنصر النصراني في بلادنا ثمرات طيبة بفضل الحركة التي قامت بها المؤسسات الاجنبية حتى انه احدثت فيه طرائق دينية ورهبنات جديدة واخذت هذه تقلد الطرائق الاجنبية وتتبع اثر المؤسسات الاجنبية والغريب فيهم ان رهبان العرب اخذوا يتمثلون باشكال الرهبان الاجانب . ومن الضروري الاعتراف بان المكاتب التي كانت خاصة بتدريس اللسان الاجنبي في بلادنا هي من ذلك النوع من المكاتب

ولا يمكننا نسيان الاشارة الى مؤسسات الرهبان والراهبات الاورثوذكس والبروتستان من بين تلك المؤسسات الدينية الاجنبية فانها تعمل بجد واجتهاد ولكنها لم تبلغ شأو المؤسسات الكاثوليكية من نوعها

نمت الطرائق الكاثوليكيه في سورية والارض المقدسة وخصوصاً في العصر الاخير حتى انك لتجد في كل قرية حتى في القرى الصغيرة من لواء القدس وفي اكثر سواحل سوريه وفي ولاية بيروت اديرة ودور ايتام ومستشفيات ومكاتب ليلية ونهارية . ولا تلقى خطوة في ناحية من هذه الانحاء حتى يظهر امامك كثير من الرهبان والراهبات بازيائهم الدينية

ويمكن القول بان الطرائق الكاثوليكيه التي تعمل اليوم في محيط سورية تبلغ الثلاثين .

ورغماً عن ان قسماً منها يعمل بهدوء وسكينة في لواء القدس الشريف تحت ستار الدين فان القسم الاعظم من تلك الطرائق بعمل بجد ونفوذ في كافة انحاء سوريه كما يظهر من البيان والارقام التي نذكرها فيمايلي :

جاء في الرسالة (L'UNIVERSITÉ ST. JOSEPH) التي تنشرها سنوياً (الكلية اليسوعية لطائفة الجزويت (LA CIE DE JESUS) في بيروت (صحيفة ١ — ٥) علاقة هذه الطريقة بالحكومة الفرنساوية وجاء في فصل النصرانية من مقدمة كتاب فلسطين (LA BALASTINE) الذي نشرته الهيئة العلميه التي تشتغل بالمسائل التعليميه في القدس الشريف بيان عن المؤسسات والمباني الكاثوليكيه في القدس ويلى ذلك جدول عن عدد الرهبان والراهبات والتلامذة في المؤسسات المذكورة وقد اشارت الجمعية في كتابها هذا الى اعمال المؤسسات وخدمها وانا ننقل هنا صورة الجدول عيناً

عدد	
٧٦٠	الرهبان في الاديرة
٤٢٠	الراهبات في 〃
١١٨٠	يكون
٢٤٠٠	الطلبة الذكور في المكاتب
٢٨٠٠	〃 الاناث 〃
٥٢٠٠	يكون
٣٦٠	الاولاد الذكور في دور الايتام
٤٣٠	〃 الاناث 〃 〃
٧٩٠	يكون
٦٠٠٠	المرضى الذين يدخلون المستشفيات ويخرجون منها
٣٠٠٠٠٠	〃 〃 يراجعون دور المعاينة والصيدليات
٣٠٦٠٠٠	يكون

فاذا تصورنا ان كل فرد من هؤلاء الذين تحدث لهم علاقة مع المؤسسات الكاثوليكيه يقبل مايلقى اليه مرة في العام من الافكار والدسائس وتوسعنا بهذه النسبة نعرف درجة نماء الافكار والاراء المضرة التي يبذرها هؤلاء في الارض المقدسة وفي سوريه

اذا ذكرنا للقارئ بعد هذه الارقام شيئاً من التفاصيل عن احوال هذه الطرائق يحصل عنده فكر خاص عن تأثير المؤسسات الكاثوليكية في بيروت . وسنذكر للقارئ فيما يلي تاريخ مجيء هذه الشيع الى محيط سوريا

[١]ـ الجزويت LES CIE DE JESUS اسمها ايغناس دولو يولا JGNAS DELOYOLA احد امراء اسبانيا . ومركز الجزويتيين Les Jesuites في الوقت الحاضر روما . ولقد جاء الجزويت قبل عصرين او ثلاثة الى سورية فأسسوا الاديرة التي يشغلها اليوم رهبان (اللازاريست) ثم غادروا البلاد السورية وفي عام ١٨٣١ عادوا الى بيروت وانشأوا مكتبهم في غزير من اعمال قضاء كسروان في جبل لبنان وبقي الجزويت منذ ذلك الحين في البلاد السورية وفي عام ١٨٧٦ افتتحوا كليتهم اليسوعية وديرهم الكبير في بيروت . وللجزويت اليوم اديرة ومكاتب نهارية في بكفيا والمعلقة وزحلة وغزير والشام وحلب وتعنايل وجزين . غير ان مكتبهم في بيروت ليلي ونهاري وفيه درجات التعليم الثلاثة وقد اضافوا اليه في الايام الاخيرة شعبة تعليم الالهيات والطب والحقوق والهندسة فاصبح بشكل دار الفنون . ويعرف الجزويت في سورية (بالاباء اليسوعيين)

[٢] — الفرنسيسكان Les Pères Franciscains . تأسست هذه الرهبنة عام ١٢١٠ ميلادية . وهم لا يزالون في محيط سورية وفي الاراضي المقدسة منذ الحروب الصليبية وقد جدوا بالعمل كثيراً منذ عام ١٨٤٨ فزادوا عدد اديرتهم وانشأوا ملاجئ للزوار في القدس وللرهبنة الفرنسيسكان ستة ملاجئ فقط في القدس الشريف . ولهم علاوة على ذلك اديرة وملاجئ في المحلات الاتية (١) بيت لحم (٢) عين كريم (٣) طبريا (٤) جبل الطور Mont TALOR (٥) الناصرة (٦) قانا (٧) عكا (٨) صور (٩) صيدا (١٠) بيروت (١١) حريثة لبنان «١٢» طرابلس الشام «١٣» اللاذقية «١٤» الشام «١٥» حلب «١٦» اسكندرونه «١٧» عنتاب «١٨» نصيبين «١٩» يكي قلعة «٢٠» مرعش . وللفرنسيسكان مكتب يديرونه في حلب . ويعرف هولاء الرهبان الذين يعملون بجد في انحاء سورية « بالاباء الفرنسيسكان »

[٣] — رهبان الكرمل Les carmes يسمى هولاء الرهبان باسم جبل الكرمل المتصل بقصبة حيفا . ولقد كان هولاء تركوا جبل الكرمل المقدس في النصرانية مع القافلة الاخيرة من الصليبيين . ثم عادوا الى جبل الكرمل في اواسط القرن السابع عشر سنه « ١٦٣٦ » وبنوا ديراً ومحلاً للضيافة في الجبل . ولرهبان الكرمل اديرة في حيفا وفي طرابلس الشام وفي قرية القبيات من قضاء عكار . ورغماً عن ان هؤلاء الرهبان لا يشتغلون بمسائل التعليم فانهم افتتحوا مكتباً في قرية « بشرى » في لبنان ويعرف هولاء الرهبان في سورية باسم « الاباء الكرمليون »

٤ ـ راهبات القديس يوسف Les sœurs de saint Joseph de L Apparition . جاءت هذه الراهبات من مرسيليا الى القدس الشريف عام ١٨٤٨ وقد اسس جمعيتهن الراهبة املي دي فيالرد Emilie de Vialard في قصبة كياك Gaillac من فرنسا . ومركز جمعيتهن العام في مرسيليا ولهن شعب في اميركا . وللراهبات المذكورات ٣٠ ديراً ويطلق على هذه الراهبات في سورية اسم « الراهبات اليوسفيات » . ولهن في فلسطين ثلاث عشرة مؤسسة وثلاثة مستشفيات « الاول » في القدس « والثاني » في يافا (والثالث) في الناصرة ولهن في المحلات المذكورة ثلاثة دور للايتام تضم ٩٠ ابنة صغيرة . ولهن مكتبان نهاريان يضمان ١٨٠ طالبة وخمسة مكاتب دينية يتعلم فيها اكثر من الفي تلميذ وعلاوة على ذلك فقد افتتحن المكاتب الآتية «١» مكتب ليلي ونهاري في بيروت «٢» دير فى صيدا ومكتب نهاري فيها «٣» دير فى دير القمر ومكتب «٤» ديران ومكتبان ليليان ومستشفى فى حلب «٥» دير ومكتب فى اسكندرونه

[٥] – راهبات الناصرة Les Dames d Neazareth . اسست هذه الراهبات جمعيتهن فى مبدأ الامر لتكون الناصرة مركزاً لها ثم انشأن المكاتب الآتية فى غاليله La Galilée «١» مكتب نهاري فى حيفا «٢» مكتب فى شفا عمر «٣» مكتب فى عكا . وعلاوة على ذلك فقد انشأن (دير الناصرة) القائم فى احسن نقطة من بيروت وتعرف هولاء الراهبات في سورية باسم (راهبات الناصره) وقد جئن الى سورية عام ١٨٥٥

[٦] – الكارمليت Les Carmélites اسست هذه الجمعية (الاخت ترزا) وينتهي تاريخ تأسيسها لعام (١٨٧٠) ومركز هذه الجمعية روما وقد جاءت راهبات هذه الجمعية الى القدس الشريف عام ١٨٧٣ واشدن في جبل الطور او فى جبل الزيتون Mont olivier القريب من القدس ديرهن المعروف . ولهن دير في بيت لحم وآخر في سفح جبل الكرمل بالقرب من حيفا . وفي الاديرة الثلاثة اربعون راهبة ويعرفن باسم (الراهبات الكرمليات)

[٧] – الفرير Les Fréres des écoles Chretienes تأسست هذه الجمعية في فرانسا عام ١٧٢٤ ميلادية ومؤسس هذه الجمعيات (جان باتيست دولاسال) ومركز الفرير باريس . وقد جاءت الجمعية الى البلاد السورية عام ١٨٧٨ وللفرير مؤسسات واسعة في سورية ولهم المكاتب الآتية (١) القدس (٢) حيفا (٣) الناصرة (٤) بيت لحم وفي هذه المكاتب اكثر من الف تلميذ (٥) بيروت (٦) طرابلس الشام (٧) اسكندرونه والمكاتب الاخيرة ليلية ونهارية ويعرف الفرير في سورية باسم (اخوة المدارس اليسوعية) ووظيفتهم الاساسية التعليم

[٨] — اخوة سن جان ده ديو Les Fréres de Saint de Jean Dieu
اسست جمعية هؤلاء عام (١٥٧٢) في مدينة غرناطه من اعمال اسبانيا ومركزها في روما وقد اخذ الاخوة على عهدتهم معالجة المجانين والمعتوهين وافتتاح المستشفيات ولجمعيتهم مستشفيات في ايتاليا وفرانسا وبافاريا وبروسيا والمجر واسبانيا ويؤخذ من الاحصاء الاخير الذي نشر عام ١٨٩٧ ان رهبانهم بلغوا ١٧٨١ وهم يمرضون ١٣٤٨٣ مريضاً وقد جاء هولاء الاخوة الى القدس عام ١٨٧٩ فاسسوا مستشفى في طنطور على طريق بيت لحم . ولهم مستشفى آخر ودار للمعاينة في الناصرة ويعرف هولاء الرهبان في سورية باسم (رهبان مار يوحنا الآلهي)

[٩] ـ راهبات سنت قلر Les Religieuses de saint claire اسست الراهبة (قلارا) جمعية هذه الراهبات في مدينة ازيس Assise من اعمال ايتاليا عام « ١٢١٠ » ميلاديه وقد جئن الى محيط سوريه عام ١٨٨٤ واسسن ديراً على طريق بيت لحم بجوار القدس الشريف ولهن دير آخر في الناصره وفي الديرين ما يقرب من ٣٠ راهبة ولا يشتغلن بالتعليم مطلقاً

« ١٠ » — راهبات الفرنسيسكان Les soeurs Francisscaines : جاءت الراهبات المذكورات عام ١٨٨٥ الى القدس وانشأن بناية تربي ٦٠ يتيمة فقط . ويدرن اليوم مكتباً يعلم ١٠٠ ابنة في يافا . وقبل عدة سنين جئن الى الشام وانشأن مكتباً فيها وليس لهن في سوريه سوى هاتين المؤسستين

« ١١ » لاسور دى شارتيه Les sœurs de Charité اسس جمعية هذه الراهبات في فرانسه الآب دو پول عام ١٦٣٢ وقد جئن الى القدس عام ١٨٨٦ وهن ينظرن باحتياجات كافة طبقات البشر من اطفال الرضاعة الى الايتام والعميان والعجزة ويخدمن في مستشفيات البلديات . ولهن مستشفى ودار للايتام في بيت لحم ومستشفى ومكتب في حيفا ومستشفى في الناصره ولهن في بيروت مستشفى عظيم ودار للايتام ودار للصناعة للذكور والاناث ولهن في بيروت علاوة على ذلك ثلاثة مكاتب صغيرة وقد انشأن في طرابلس مكتباً للصنائع خاصاً بالايتام واشدن محلات للنقاهة « سناتوريوم » في « اهدن » وفي « بجنس » ويدرن مكتباً في « برج البراجنه » ويعرفن في سوريه باسم « راهبات المحبة »

« ١٢ » اخوة باويرا Les sœurs Bavaroise de saint charles ومركز هذه الراهبات باويرا . وقد اشتهرت الراهبات المذكورة وعرفن بادارة المستشفيات . حتى انهن يدرن اهم المستشفيات فى برلين وقد اسسن في سورية المحلات الآتية « ١ » مكتبين وداراً للايتام في القدس « ٢ » مستشفى ودار للمعاينة فى حيفا « ٣ » مستشفى ومكتب ليلي ونهاري للاناث فى

بيروت « ٥ » موءسسة فى الشام « ٦ » ومثلها فى حلب وقد جائت الراهبات المذكورات الى القدس عام ١٨٨٧ ويعرفن فى سوريه باسم « الراهبات الالمانيات»

[١٣] —راهبات رهباراتريس [Les Religieuses de Marie Reparatrice] مركز الراهبات المذكورات فى رومة وقد جئن الى القدس عام ١٨٨٨ واسسن فيها ديراً كبيراً ثم جئن الى بيروت وفتحن محلًا للعبادة ويعرفن بين السوريين باسم « راهبات السجود »

[١٤]— اللازاريست [Les Lazaristes] يقسم اللازاريستيون الى قسمين احدهما رهبان اللازاريست وهم المان وقد عهدت اليهم الجمعية المسيحية فى قولونيا عام ١٨٩٠ بالمجيء الى القدس فجاءوا اليها واستوطنوها واسسوا فيها مكتباً بالقرب من الباب الشرقي

والقسم الثاني رهبان فرنساويون قد تأسست جمعيتهم عام ١٦٣٢ وجاءوا الى سوريه نبل عصرين تقريباً واحتلوا الاديرة التي كان الجزويت بنوها قبلًا ومركز اللازاريست الفرنساويين باريس . ولهم موءسسات فى المحلات الآتية « ١ » ازمير « ٢ » طرابلس الشام « ٣ » عنطورا فى جبل لبنان « ٤» اهدن فى جبل لبنان « ٥ » دمشق « ٦ » ريفون في جبل لبنان ولهم مكتب في الشام وآخر في عنطوره . ويشتغل اللازاريستيون بالانشاء والتحرير ويعرفون بين السوريين باسم « العازاريون »

[١٥] — رهبان الساليزين Les Pères Salesiens اسس جمعيـة هؤلاء الرهبان (الدون يوسقو) الايتالي عام ١٨٦٥ ثم جاءوا الى القدس عام ١٨٩١ بتشويق (الدون بالموني) راهب كنيسة Saint Spulere وللاباء الساليزيين اربع موءسسات (١) دار للايتـام في بيت لحم (٢) دار للايتام زراعيه في بيت جمال (٣) مثلها في قرهميزان (٤) مثلها في الناصره وفي الموءسسات المذكورة ٢٢٠ طالباً . ويدير شأن هذه الموءسسات ٤٠ راهباً ولهم في بيت لحم مكتب ابتدائي يضم ٢٢٠ طالباً ويعرف هؤلاء الرهبان في سوريه باسم (الاباء الساليزيون)

[١٦]—الراهبات الساليزيات Les Religieuses Salesiennes اسس هذه الجمعية للراهبات (الدون يوسقو) ايضاً وقد جئن مع الاباء الساليزيين الى القدس عام ١٨٩١ ويشتغلن اليوم مع الرهبان الساليزيين ويعرفن في سوريه باسم (الراهبات الساليزيات) .

ولقد ذكرنا حتى الآن موءسسات الرهبان والراهبات في ولاية بيروت . وتوجـد شيع اخرى قد اشادت موءسساتها في لواء القدس الشريف فقط فنكتفى هنا بذكر اسمائها وتاريخ تأسيسها

١ — Les Dames de Sion انشأن هؤلاء موءسسة في كنيستهن المسماة (اكس هومو) Ecce Humo . وقد جئن الى القدس عام ١٨٥٦

٢ – Les pére blanc – تألفت هذه الجمعية عام ١٨٧١ وجاء رهبانها الى القدس عام ١٨٧٨ وقد اسسوا كنيستي «سنت آن» و«به تسدا» ويعرفون هناك باسم «الاباء البيض»

(٣)–اباء القلب المقدس Les péres du Sacré Coeur de Bétharram جاء هولاء الرهبان الى القدس عام ١٨٧٩ واشادوا موسسة بالقرب من بيت لحم

(٤)– Les soeurs de Rosair الف هذه الرهبنة الكاثوليكية (دوم طنوز) راهب (سن سه بولقرل) عام ١٨٨٠ وتعرف الراهبات باسم (الراهبات الورديات)

(٥)– Les péres de Notre Dames de Sion جاءت هذه الرهبنة الى القدس عام ١٨٨٤

(٦)– Les péres Dominicains جاء هولاء الرهبان الى القدس عام ١٨٨٢ويعرفون هناك باسم (رهبان مار عبد الاحد) او (الدومنيكان)

٧ – Les Augustins de l'Assomption جاء هؤلاء الرهبان عام ١٨٨٧ واسسوا في القدس مأوى نوتردام دوفرانس . ويعرف هؤلاء الرهبان باسم (الصعوديون)

(٨)– Les Péres Trappistes . جاء هولاء الرهبان عام ١٨٩١ واشادوا ديرًا لهم في العترون بجوار (Emmaus) ويعرفون باسم (الاباء الترابيون) المشتهرون بمعرفة فن الالبان والزراعة

(٩)– Les Benedictins du Calvaires جاءت الراهبات المذكورات الى القدس سنة ١٨٩٦ وهنَّ اثنتا عشرة راهبة قصدالسكنى في جبل الطور بالقرب من القدس الشريف

(١٠)– Les Riligieuses de l'Hortus Conclusus جاءت هذه الراهبات الكاثوليكيات الاميركانيات الى القدس عام ١٩٠١ واسسن ديرًا لهن في بيت لحم

فهم من الايضاحات السالفة ان عدد الجمعيات الكاثوليكية في سورية يبلغ الستة والعشرين ويظهر لاول نظرة مقدار التلامذة والمرضى والايتام الذين يأوون الى مكاتبهم ومستشفياتهم ودور الايتام عندهم

(٦) –البروتستانت . تألفت هذه الجمعية التي بلغ افرادها عددًا اقل من القليل بواسطة الجمعية الدينية المؤسسة في لونده لتنصر اليهود في سورية وقدتم امرها بمساعي المبشرين الاميركان والانكليز ومصارفهم المادية والمعنوية واتعابهم التي لا تكل ولا تمل . ورغماً عن صرف الملايين بل المليارات لنشر البروتستانتية وتعميمها في سورية فان اتباع هذا الدين الجديد لا يزالون عددًا قليلًا

٤ — اليهود والصهيونيون (١)

عرف من الكتب المقدسة ان اليهود قضوا اياماً جيدة وحياة طيبة في الارض المقدسة ثم اصيبوا بالفشل والخيبة فمزق اعداؤهم شملهم وفرقوهم ايدي سبا فى انحاء الدنيا الاربعة . اما اليهود القاطنون اليوم فلسطين فهم اما من اليهود الذين هاجروا اختياراً من انفسهم وجاءوا من الديار الاجنبية حباً بسكنى الارض المقدسة واما انهم من اليهود الاجانب الذين جاءت بهم من روسية ورومانيا شركات الاستعمار اليهودية الغنية واسكنتهم فى القرى التى انشأتها على احسن طرز واجمله . ومن المحتمل ان يكون يهود دمشق من احفاد الموسويين الذين لم يتركوا فلسطين منذ القديم

اما يهود فلسطين فهم من المغاربة والاسبانيولين اليهود الذين طردوا من اسبانيا فى اوائل العصر التاسع عشر اذا اخرجتهم منها مظالم الاينكيزيسيون فى زمن فردينان الكاثوليكي وفيليب الثاني . ويسمى هؤلاء « سه فارديم » *Sephardim* اي اهل الكتاب . وفى النصف الآخر من العصر التاسع عشر اخذت قوافل ثانية كثيرة من يهود البلاد الروسية تهاجر الى الارض الموعودة ويسمى هولاء (اشكنازيم) اي يهود اوربا الشرقية . وقد ظهر من الاحصاء الذي اجرى عام ١٨٤٠ ان مائة الف روسي من روسية اعتقدوا بقرب الموت العام فركبوا من الطريق واخذوا يهاجرون الى فلسطين) ولهجرتهم هذه اسباب وعوامل دينية فانهم يعتقدون ان الذي يدفن فى الارض المقدسة لا يلاقي صعوبة بالبعث والنشور فى يوم الدينونة والحساب . وان الذين دفنوا بعيداً عن الارض المقدسة فانهم يضطرون لحفر طرق طويلة تحت الارض حتى يقدروا على اجابة نداء الحق تعالى والوصول الى الارض المقدسة

ويعتقد يهود المانيا وروسيا ورومانيا اعتقاداً تلمودياً ان السيد المسيح يضع فى مدينة صفد تحت ملكه حين هبوطه ولهذا نرى ان قسماً عظيماً من اليهود (الاشكناز) يتخذون قصبة صفد وطناً لانفسهم . و يعتقد الوف من يهود اوربا ان السيد المسيح سيظهر ثانية فى طبريا ولهذا يرجحون المدينة المذكورة ويرجع الوف منهم القدس ويقطنونها

ولما ظهرت المظالم الروسية فى اواخر القرن التاسع عشر وجرى القتل العام فى اليهود الروسيين ازدادت المهاجرة اضعافاً مضاعفة عن القديم ولكن خطة المهاجرة تبدلت قليلاً فان المهاجرين مالوا الى ارض [يهود] واتخذوها وطناً لهم وابتاعوا اراض وسيعة فيها

(١) سنشرح الاحوال الاجتماعية والادبية عن اليهود حين الكلام عن نابلس

لا ريب ان شدة المهاجرة والقيام بها لم تكن منبعثة عن التشبث الفردي في الامة اليهودية فبدأت صغيرة ثم نمت تدريجاً حتى وصلت الى هذه الدرجة. ولكن الرؤساء اليهوديين (لواونتن ووانبرغ) الروسي و (فرايمن) البولوني و (هابسمن) الروسي و (هابغمن) الذي لا يزال حياً يرزق في مستعمرة ريشون لوزيون قد اسسوا عام ١٨٨٠ جمعية لترويج فكرة المهاجرة وبعد سنين من تأسيس الجمعية جاءت اول قافلة من مهاجري روسية اليهود فبنى هولاء المهاجرون قرية (ريشون لوزيون) في منطقة يهوذا وفي عام ١٨٨٣ الف يهود رومانيا جمعية جديدة للغاية ذاتها فجمعوا كمية من الدراهم واقنعوا مقدار عشر عائلات جاءوا بها الى هذه البلاد واسكنوها في جوار حيفا واسسوا هنا قرية (زمارين) او قرية (زيكرون جاقوب) حسب التعبير اليهودي في الاراضي التي توفقوا لاشترائها

واخذ اليهود الذين قطنوا الجهة الغربية من فلسطين بمساعي الجمعيتين المذكورتين يشتغلون بالزراعة والفلاحة . ولكن جهل هولاء المهاجرين وعدم معرفتهم ادى بهم الى الفشل وعدم النجاح فاصبحوا بحالة يرثى لها واصيبوا بالجوع والفاقة ولحقت بهم الامراض السارية وحاصل القول ان جميع البلايا صبت على هولاء المهاجرين من اليهود حتى اضطر هؤلاء المهاجرون الذين جاءوا الى الارض المقدسة ليعيشوا فيها براحة وهناء ورفاه ان يتسألوا ويطلبوا من الاهلين صدقاتهم . وهلك قسم كبير منهم حتى ان الحكومة العثمانية اضطرت الى اعادة عدة قوافل منهم الى المحلات التي جاءوا منها

واحس عدة من نبهاء اليهود بهذه الحالة الرديئة فنظروا في الامر نظرة تفكر وامعان وقرروا ارسال المستعمر (واينبرغ) الذي جاء اسمهُ قبلًا الى اوربا ليطلب شيئاً من الاعانات من اغنياء اليهود فيها او ان يعقد قرضاً بمبالغ طائلة لتلافى هذا الامر وفي عام (١٨٧٧) توصل اليهودي واينبرغ الى المثري الشهير (ادموند روتشلد) اليهودي بمعرفة كاهن اليهود في باريس فشرح لهُ حالة اخوانه اليهود بلسان يجرح الفؤاد ويدمي القلب فهيج بطلاقة لسانه وعذوبة بيانه عواطف البارون روتشيلد فادى به الامر اخيرًا الى النجاح في مسعاه فارسل البارون (روتشيلد) الى قرية ريشون لوزيون مندوباً خاصاً من قبله مع حوالة مالية غير معينة فكانت هذه الحادثة واقعة مهمة فى تاريخ الاستعمار اليهودي فانهم لم يقفوا على حد صرف مئات الالوف من الليرات بل انهم ضاعفوا ذلك واخذت الاموال تدفق كالسيل من باريس الى سوريا . ولم يكتفِ البارون بارسال الدراهم بل انه ارسل رجالاً من ارباب الفن فوضعوا له التقارير الكافية عن طبيعة الاراضي وعن القابلية الزراعية في هذه الجهات وهكذا كان يصدر امره باشتراء اراضٍ جديدة حتى ان

اراضي قرية (ريشون لوزيون) اصبحت بعد زمن قليل ملكاً صرفا للبارون

فاساء اليهود الاستعمال امام هذه الاحسانات والانعامات واخذوا يسرقون ويبذرون حتى ان البارون اضطر لان يعلن لهم بانه لا يدفع سوى مصارف الماء والمكاتب والامور الصحية والمباني العمومية في البلدة اما المصارف الزراعية فلا يدفع منها شيئاً واصدر امره من طرف آخر الى رجاله بان يبيعوا اراضي (ريشون) الى القرويين ببدل مقطوع وقدره (سبعة فرنكات) ثمن الدونم ولكنه تفضل على ابناء جنسه بعناية اخرى عظيمة وهي اقراضهم المبالغ الكافية لمدة عشرين سنة بلا فائض . ورغماً عن اعلانه عام (١٩١٠) بانه عازم على استيفاء واحد او اثنين في المئة فائضاً عن امواله فان اليهود المهاجرين قابلوا هذا الاعلان والانذار بالسخرية والاستهزاء لان الذين دفعوا باوقات المهاجرة الاموال التي استدانوها من البارون بلا فائض هم عدد قليل ومعين

كانت منطقة الاستعمار التي سكنها يهود حيفا واسسوا فيها زمارين (زيكرون جاكوب) جبلية تقريباً وقد ابتاعت جمعية الاستعمار الرومانية اراضي هذه القرية ودفعت ثمن الدونم عشرين فرنكاً واسكنت فيها المهاجرين الرومانيين . ولكن عدم النجاح الذي اصابهم في منطقة يافا قد اصيبوا باعظم منه في هذه المنطقة . وحينما احسوا بالضيق والشدة رجعوا الى البارون (روتشيلد) كما فعل اخوانهم يهود روسيا فاخذوا منه الوفاً من الليرات وبفضلها ابتاعوا عدة اراض في جوار زمارين فامنوا بذلك حالتهم الزراعية واصلحوا شيئاً من شأنهم واخذ البارون روتشيلد يقرض هؤلاء اموالاً كلية جديدة على ان يستردها منهم في المستقبل ولما وجد اليهود انفسهم اغنياء دفعة واحدة بعد ان كانوا لاشيء اخذوا يتفننون بصرف الاموال فصرفوا نظرهم عن غرس المزروعات الموقتة وبدأوا يحرثون احراجاً من الاشجار المثمرة . واشادوا معملاً لصنع الخمور من الكرمة التي انشاؤها ولكن هؤلاء المستعمرين اكلة الميراث لم يكلفوا انفسهم في حينه زحمة النظر بانه لا يمكنهم مراقبة الاجانب في مثل هذه الاعمال فصرفوا مبالغ طائلة بدون جدوى ولما لم ينجحوا بعملهم هذا اخذوا يقلعون الكرمة ويغرسون عوضها اشجار اللوز والبورتقال والليمون

وعوضاً عن ان يتأثر البارون من كل هذة التبذيرات فانه امر بتأسيس معمل للزجاج في (طنطوره) فصرف ملايين من دراهمه التي لا تنفد تسلية لابناء وطنه ورغبة بايجاد اشغال لهم . ومن الغريب ان وكلاء البارون يدفعون منذ عشرين سنه خمسين ليرة سنوياً تحت عنوان رسوم متنوعة بسبب هذا العمل الزجاجي الذي صرف البارون على تأسيسه اكثر من نصف مليون فرنك ثم اغلق لانه بني على غير فكرة وامعان

واصيب معمل العطور الذي انشئ في الجعونه وصرف عليه من ٣٠٠ الى ٤٠٠ الف فرنك بالعلة ذاتها . وقد اشتغل المعمل المذكور مقدار سنة او سنتين بين ايدي اولئك اليهود المختلة ثم اغلق بعد تسلية هذه الامة التي (لم تروجه الشمس) منذ سنين

ورغماً عن عدم النجاح بهذه الالعاب الثمينة فان مثرى اليهود في اوربا لم يصرفوا نظرهم عن مسئلة المهاجرة بل انهم رغبوا بقلبها الى حالة ثابتة على وجه حسن فجرت بينهم مناقشات وبمذاكرات مديدة وانتهى بهم الامر الى تأليف جمعية في لوندره تحت عنوان (جويشين قولونيزيشين) وذلك عام ١٨٩٠ وغايتها تخليص اليهود الذين كانوا يأنون تحت مظالم روسيه المتواليه . وقوام هذه الجمعية المتمولون (نارسيس لووهن) و (فرانسيس فيليسون) و « ادمون لاهمن » و « سالامون راينااق » و « هارى فرانق » وامثالهم من الاغنياء المختلفي التابعيه وكان مسعى هذه الجمعية اشتراء اراض واسعة في فلسطين وكندا والارجانتين والبرازيل واسكان مهاجرى اليهود فيها

وقد عرف اعضاء هذه الجمعية في اوربا بثرائهم ومراكزهم . ومن جملة اعضاء هذه الجمعية البارون هرش الذي كان اخذ امتياز السكة الحديدية في الروم ايلي ويقال انه وهب كافة ثروته البالغة ٤٠٠ مليون فرنك الى جمعية J. C. A

و كان « نارسيس لووهن » احد اعضاء هذه الجمعية رئيساً لجمعية « الاليانس الاسرائيلية » وظل محافظاً على رياستها الى حين وفاته . وتوفى « لوون » اثناء الحرب العمومية . ولهذا لا يعرف موظفو هذه الجمعية في فلسطين اسم الذي خلفه في الرياسة بسبب انقطاع المخابرات بين الطرفين

[٢] — الصهيونيه — هي كناية عن جبل « سيون » القائمة عليه القدس وغاية الصهيونية السياسيه تأسيس دولة يهودية مستقلة في فلسطين

كانت هذه الفكرة غير متعممة بصورة واضحة بين اليهود الذين كانوا يأنون من مظالم روسيا ورومانيا حتى عام ١٨٨٢ ولما ظهر القتل العام بين اليهود في روسيا اخذت هذه الفكرة تظهر وتتجلى بصورة صريحة

فكان البارون روتشيلد يُسكن بملايينه المهاجرين من اليهود في القرى الجديدة التي يؤسسها في فلسطين . وكان البارون النمساوي هرش Hirsch يرتأي ان المفيد لليهود هو اسكانهم في بلاد الارجانتين وكان يؤسس لمهاجري اليهود مستعمرات ومستملكات زراعية في الاراضي المذكورة . ولما كان عام ١٨٩٦ نشر « هرتزل » Herzel المجري الشهير كتابه « الحكومة اليهوديه » الذي جمع فيه بين المقاصد السياسيه لكافة الصهيونيين ولهذا فان اليهود يعتبرون كتاب «هرتزل» تلموداً ثانياً لهم

ومن الامور الجديرة بالاعتبار ان فكرة الصهيونية ليست مسئلة عنصرية خصوصيه بل ان مؤلفي (التلمود) كانوا يتسلون بهذه الخيالات ويتفكرون بها . وعلى كل يهودي متعصب ان يعيش متسلياً بهذه الاوهام بل هو مجبور على قرائة عدة آيات من التلمود تتضمن رجوع اليهود الى فلسطين

ويكفينا لاثبات مدعانا ذكر المراثي التي يتلوها اليهود امام جدران النواح وهم باكون . وهذا انموذج من المزامير التى يقرأها اليهود بصوت عالٍ :

«نضرع اليك ان ترحم صهيون ! اجمع ابناء القدس في محل واحد ! يامنقذ صهيون ! استعجل ! وقل لقلب القدس ان ترحم صهيون وتمتلأ عظمة وسروراً . انظر الى القدس بقلب شفوق ! وليؤسس الملك في سيون باقرب آن »

اذا نظرنا بعين الامعان في الحياة التاريخية للامة اليهوديه التي انتهت حياتها السياسية واجبرت على اخلاء ارضها الموعودة منذ ايام الرومانيين وتبعثرت في انحاء الدنيا الاربعة — نجد ان المفكرين الذين ظهروا بينها في العصر الاخير يسعون سعياً حثيثاً وراء جعل التعصب الديني عندهم في قالب مملوء بالمنعنات في الامة اليهوديه

نهض المفكر اليهودي موئيز مندلسون Mendelshon عام ١٧٦٠ ميلاديه فوضع في برلين اساس اليهوديه الجديدة واستقر رأيه اخيراً على اتخاذ النظرية الآتية : على اليهود ان لايكونوا ذوي عنصرية منفردة فاليهودي مجبور على اتخاذ البلاد التي يسكنها وطناً له ففرنسا وطن لليهودي الذي يسكن فرانسه والمانيا وطن لليهودي الذي يقطن المانيا

وقد اثرت فكرة مندلسون في الحياة السياسية للامة اليهودية وبقيت متبعة عندها حتى اواسط القرن التاسع عشر وفي عام ١٨٦٢ نشر يهودي الماني يسمي (مونيزهس) كتابه المسمى روما القدس فتكلم فيه عن تشكل العنصرية اليهودية بلغة يفهمها الميالون للعنصرية في العصر الحاضر ولكن مساعيه لم تحدث تأثيراً مطلقاً . غير ان هجمات الروسيين الدموية على اليهود في زمن اسكندر الثاني قيصر روسيا وايقاعهم القتل العام بهم جعلت مسئلة المهاجرة حديث الخاص والعام في افواه اليهود قاطبة فنهض حينئذ اليهودي بنسكر Pinsker ونشر كتاباً توسع فيه بشرح اراء (مونيزهس) . وكان بنسكر يتسأل من الامة اليهودية عن الوطن الجديد الذي يجب عليهم اتخاذها هو فلسطين وسوريه ام اميركا ؟

وبعد زمن قليل من نشر الكتاب المذكور هاجرت بضع عائلات روسيه الى فلسطين وانشأت قرية ريشون لوزيون

فرقت مسئلة المهاجرة المتفكرين من اليهود الى قسمين مهمين فاخذ قسم العملة من اليهود

الذين لايفتكرون بغير الربح وتأمين المعيشة يهاجرون الى اميركا· واخذ اليهود المتفكرون بالمسائل العنصرية وبامر الاستقلال وتأسيس دولة مستقلة يهاجرون الى فلسطين فقطع البحر المحيط خلال عشرين سنه ثمانمائة الف عامل هاجروا الى اميركا . وتأسست في المدة المذكورة عدة شركات صغيرة لاستعمار فلسطين . وقد صرف (البارون) هرش ملايين من ثروته فانشأ مستعمرات لليهود في الارجانتين ولم يتعرف على الفكرة العنصرية الثانية مطلقاً

وقد كانت الانباء التي تصل الى اوربا عن سفالة المهاجرين الى فلسطين وعن فقرهم سبباً لايقاظ الموسويين في اوربا وداعياً لاستلفات نظرهم

فظهر عام ١٨٩٦ شخص عظيم جداً على مرسح اليهوديه وهو الدكتور (هرتزل) المجري فاريد ان اتكلم عنه ؟

احرز الدكتور [هرتزل] الذي احيا الفكرة الحاضرة للصهيونية ووضع بصورة محكمة الخطة السياسية للمتفكرين والمتعصبين من كافة ابناء الامة اليهودية في الحاضر والمستقبل — مقاماً سامياً في العالم اليهودي حتى ان كل يهودي يزين اجمل غرفة في داره برسم [هرتزل] وقد رسم الصهيونيون على اوراقهم البريدية الخاصة التي يستعملونها في فلسطين صورة [هرتزل]

كان الدكتور (هرتزل] عالماً ذا قدم راسخة في الادبيات الالمانية· ولكنه بدل خطته العلميه منذ عام ١٨٩٦ وصرف كافة اقتداره وعلمه وذكائه الى حل المسئلة اليهودية . ولم يبدل الدكتور خطته لغير سبب من العوامل الخارجية بل كانت الاحوال في ذلك الحين داعية الى ذلك فان التيارات السياسية كانت مندفعة بصورة مدهشة ضد اليهود في البلاد الوسيعة ما بين انهر السن والتايمس ونوا . حتى ان الصحف والمجلات في ذلك الحين كانت تملأ اعمدتها بالمقالات المهينة للامة اليهودية وكانت حكومات اوربا تتخذ التدابير المضرة بحق افراد هذه الامة . فلما احس الدكتور بحرج الموقف لامته تهيجت عواطفه العنصرية فاندفع الى ساحة المجادلة عن امته وقرر الدفاع عنها بلسانه وقلمه وعزم على انقاذها من هذا الاسر . فلم يتكلم عن فلسطين في كتابه (الحكومة اليهودية) لانه كان في ذلك الحين متردداً بانتخاب الوطن الجديد . ثم اتفق مع شركات الاستعمار والقى عدة خطابات في مؤتمر الصهيونيين الذي عقد في (بال) عام ١٨٩٧ فتكلم فيها عن العلائق والغايات التي يجب ان تكون بين بلاد الاجداد وبين العواطف الروحية في الامة اليهودية في العصر الحاضر)

عقد هذا المؤتمر الذي ظل من ٢١ آب الى واحد ايلول عام ١٨٩٧ بدعوة من العالمين الدكتور (هرتزل) وماكس نورداو Max Nordau وكلاهما من مشاهير الصهيونيين وقد ضم المؤتمر

اكثر من مائتي مندوب من فلسطين واميركا وروسية وبعد مناقشات وخطابات عديدة عن الوسائط المؤثرة التي يجب ان تتخذ للنهوض بالصهيونية تقرر وضع الاسس الاصلية لبرنامج الصهيونية الذي يجب تطبيقه فاتفقوا على ان الغاية من الصهيونية هي انشاء قرى خصوصية تكون حائزة للحقوق العمومية في ارض فلسطين . وللنجاح في تطبيق هذه الخطة قرروا اتخاذ التدابير الآتية .

١ً المثابرة على استعمار فلسطين بواسطة الزراع وارباب الصنائع الاختصاصيين

٢ً ايجاد وحدة مليه ضمن القوانين المحلية بين اليهود المنتشرين في انحاء الدنيا الاربعة

٣ً ارشاد الموسويين الذين ينظرون الى اليهودية التي تفهم ابناءها سمو الفكرة العنصرية بنظر الاستهجان والانحطاط وافهامهم ان مبدأ العنصرية امر مقدس ومحترم

٤ً اتخاذ الوسائط المقتضية لافهام كافة الحكومات غاية الصهيونية واساساتها العامة وعلاوة على ذلك فقد قرر المؤتمر انتخاب هيئة ادارية دائمة مؤلفة من ٢٣ شخصاً على ان يكون مركزها (ويانه) وقرروا في مؤتمرهم ان تكون هيئة الادارة تحت رئاسة الدكتور (هرتزل) وان يستوفي من كل صهيوني فرنك واحد في السنة . وان يكون لكل مائة صهيوني يدفعون الاشتراك السنوي حق بارسال مندوب من قبلهم الى المؤتمر العام

وبفضل هذا المؤتمر انتقلت الصهيونية من النظريات الى الاجرآت

الوسائط المؤثرة للصهيونية — قال الدكتور (هرتزل) في كتابة (الحكومة اليهودية) : وعلى اليهود ان يهاجروا من الممالك المتمدنة التي تظهر فيها العداوة لليهود الى حيز الوجود . ويجب ان تتألف شركة رأس مالها مليار فرنك فتبيع الاموال المنقولة وغير المنقولة لهؤلاء المهاجرين وتبتاع لهم عوضاً عنها في البلاد اللاغة لهم وعليهم ان يؤسسوا هناك مزارع ودوراً حسب الاصول الجديدة وان يبتاعوا الآت زراعيه جديدة

ولم يغفل الدكتور الذي وضع هذه الخطة عن نظريات (السوسياليست) الراقين بل اوجب على اليهود الذين ينتقلون الى الاوطان الجديدة ان يتبعوا الخطة (السوسياليستيه) حرفياً فقال : وعلى ابناء ملتي ان يتبعوا في حياتهم خطة (السوسياليست الديموقراطيين) الميالة للترقي والتجدد والمشبوعة بالمدنية الغربية

ولقد صادف اليهود صعوبات عظيمة بتطبيق هذه النظريات فاسس الاغنياء المتفكرون منهم بنكاً يهودياً رأس ماله مليونا ليرة انكليزية . ولم يتمكنوا من تأسيس البنك ايضاً الا بصعوبات ومشاكل شديدة

نعم ان النجاح الذي احرزه الصهيونيون في الوقت الحاضر حقيقة لاتنكر . وان ترتيباتهم

ومؤسساتهم وخصوصاً في رومانيا وروسيه متقنة جداً . وهم يجبرون المستعمرين منهم في فلسطين على تعليم اولادهم اللغة العبرانية . ولقد وجدنا لغة التعليم في كافة المكاتب اليهودية التي زرناها هي العبرانية . حتى ان اللغة الاسبانية والاشكنازية لايتكلم بهما الا الشيوخ منهم

ظهر من هذا ان العاطفة الملية ثابتة في المكاتب وان الصهيونيين وعاشقي العصبية هاجون بكل قواهم لاحراز الغاية والفوز بالمقصد الاصلي . ولكننا لا نعلم هل تتمكن هذه الاقلية القليلة من الامة اليهودية المبتلاة بالاسراف والغطرسة من ان تصل الى «الغاية اليهودية» بفضل ملايين البارونات واصحاب الثروة التي لاتعرف النفاد ؟ !



« الاحوال الطبيعية في ولاية بيروت وعكا ونابلس »

١ — الجبال

ولاية بيروت جبلية بوجه العموم . وجبالها التي تمتد فيها من الشرق الى الغرب حتى ساحل البحر متوسطة الارتفاع ماعدا عدة جبال في حدودها الشرقية . والجبال في شمالي الولاية هي اكثر من جنوبيها . ويحيط بالجهة الشرقية من الولاية سلسلة الجبال الممتدة الى الجهة الجنوبية منها وهي جبال لبنان ويفرق ولاية بيروت عن ولاية سوريه في الجهة الشمالية جبل النصيريه الممتد من الشمال الشرقي في لواء اللاذقية حتى جبل لبنان ويبلغ ارتفاع جبل السواد بالقرب من طرابلس الشام ٣٠٥٠ متراً كما ان جبال عكار التي تصل جبال النصيريه بجبال لبنان يبلغ ارتفاعها ٣٠٧٤ متراً وتعتبر جبال عكار من سلسلة جبال (النصيرية) القائمة في شمالي الولاية

تختلط هذه السلسلة الجبلية في جبل لبنان وتمتد حتى الجنوب ثم تتصل باراضي الولاية في قضاء صيدا ثم تمتد الى الجهة الغربية حتى تصل الى قضاء صور . يتألف من هذه السلسلة الجبلية في هذا القضاء الساحل العلوي من نهر الليطاني ثم تمتد الى الجنوب قليلاً فتشكل الساحل العلوي ايضاً من نهر القاسميه وهو نهر الليطاني نفسه وتمتد على الساحل حتى تنتهي بمصب نهر القاسميه

وليست حفرة القاسمية التى يتألف منها القسم السفلى من نهر الليطاني سوى حادثة عاديه بنظر فن مباحث الجبال وقد سميت بهذا الاسم لتشكيلها الحدود الجنوبية من جبل لبنان . واذا نظرنا بحسب الظاهر الى سلاسل الجبال الممتدة من ضفة النهر اليسرى نحو الجنوب والى داخل فلسطين نحسبها من سلسلة جبل لبنان ولكن عدم انتظام او تخالف ارتفاعها وتباين وضعياتها منحها

شكل سلسلة جبال مستقلة . وتشكل جبال صور وعكا والناصره وصفد وسائر اقضية فلسطين المنطقة الممتدة مابين البحر الابيض ووادي الشريعه : واعلى نقطة من سلاسل الجبال في الجهة الشرقية لا تتجاوز الالف متر وهي تشكل الجهة اليسرى من وادي نهر الشريعه ويقوم على هذه السلسلة الشرقية خط عمودي من الشرق الى الغرب مؤلف من ذروات مرتبطة بذروات اخرى صغيرة على الساحل مما يدل على صحة قول القائلين بوجود سلسلة جبال موازية للساحل قبل هذا

وخلاصة القول انه يبدأ من الجهة الجنوبية في مصب نهر القاسمية سلسلتا جبال تمتدان الى داخل فلسطين احداهما تبدأ من رأس الابيض والاخرى من رأس الكروم وتتألف من السلسلة الاولى جبال بلاط . اداثير . جرموق . طابور . داهر . جبلوع وبعد جبل (عربه) الذي يبلغ ارتفاعه ٦٩٦ متراً في الجهة الغربية تنتهي هذه السلسلة برأس الاقرع المستند على جبال عيبال التي هي من اهم شعبات سلسلة الكرمل الجبلية . ويفصل بين هاتين السلسلتين الممتدتين من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وادي عكا ومرج بني عامر المشهورين بالخصب والاتساع

واعلى جبال (غاليله) في الجهة الشمالية من منطقه فلسطين جبل الجرموق وارتفاعه ١١٨٩ متراً وهو على موازاة الذروات القائمة على السطح المائل ما بين نهر الشريعه والبحر الابيض في الشمال الغربي من قصبة صفد . اما جبل الطابور وعلوه ٥٦١ متراً فهو غير ممتاز بارتفاعه بين الجبال القائمة في جنوبي جبال الناصره ولكنه ارفع نقطة مشهورة في منطقة (غاليله) المقدسة ورغماً عن عدم ارتفاع هذا الجبل فانهُ قائم في ناحية متسلطة على مرج عامر ولهذا فانهم ينظرون اليه بنظر موقع مستحكم . ويؤيد نظريتنا هذه ما نشاهده في مستوى . هذا الجبل من بقايا الاستحكامات التي اقامها العبرانيون والرومانيون ورجال القرون الوسطى في جهات مختلفة منه ولجبل الطور (وهو تعريب الطابور) موقع مهم في تاريخ النصرانية وسنشرح اهميته التاريخية حين الكلام عن تلك الانحاء

تتبدل العوارض الطبيعية في جنوبي جبال (غاليله) دفعة واحدة ويبدأ من هناك مرج بن عامر او صحراء (جزر ائهل) او (اسدرالون) Esdraelon حسب تعبيرها الفني وتمتد مابين البحر الابيض ووادي نهر الشريعه ويظن ان هذه الصحراء كانت ممراً للانهر التي كانت تصب بكثرة نحو الجنوب من الجبال الشمالية والغربية . ويوجد في انحاء مختلفة من تلك الصحراء تلال منفردة اقامتها فيها الاتربة التي نقلتها اليها الانهر من الجبال المجاورة لها . ولا ريب ان القوة الانباتية التي توجد في تلك الانحاء الصحراء ناشئة عن كثرة المواد البركانيه التي انتقلت اليها في ذلك الحين . ويبلغ ارتفاع المرج بالقرب من قرية (زرين) ١٢٠ متراً ويتضاءل ارتفاع المرج

افقياً في الجهة المتقدمة الى البحر الابيض . واما القسم الثاني وهو القائم في الجهة الشرقية النازلة الى وادي الشريعة فان ارتفاع المرج فيها يتناقص مائلياً حتى ينتهي الي ماتحت البحر

يقسم مرج بني عامر القطعة الفلسطينية الى قسمين مستقلين عن بعضهما . ولقد حدث في المستوى الوسيع من الاراضي كافة الحروب اليهودية والكنعانية في الازمنة القديمة ووقع فيها قسم مهم من الحروب الصليبية . وحدثت هنا وقائع شديدة بين الجيش العثماني وجيش الجنرال الفرنساوي بونابرت الذي نهض في مبداء العصر التاسع عشر من مصر قاصداً فتح سورية والاستيلاء عليها

وسلسلة جبال الكرمل الكلسية الصخور التي تبدأ من راس الكروم في جوار حيفا وتمتد من الجنوب الشرقي منها هي اكثر جبال فلسطين انتظاماً . وبعد ان يتألف من هذه السلسلة ذروات يتراوح ارتفاعها من ٤٠٠ الى ٦٠٠ متر تفقد ارتفاعها دفعة واحدة في جهة الشمال الشرقي وتنتهي باتصالها في تلك الجهة بمرج بني عامر . وتتصل في الجهة الغربية بصحراء صارونه وفي الجهة الجنوبية بصحراء ساماريه . وفي هذه المنطقة الاخيرة يتكون من السلسلة المذكورة جبلا عيبال وغاريزيم المطلين على مدينة نابلس وهما اعلا جبال السلسلة المذكورة

٢ — الانهر

قسمت وضيعة الجبال الطبيعية في ولاية بيروت اراضي الولاية الى سطحين مائلين ووزعت مياهها الى مصبين مختلفين احدهما البحر الابيض والثاني بحيرتا الحوله وطبريا

واننا نذكر هنا انهر الالوية الثلاثة الداخلية في منطقة تدقيقاتنا : فيصب في البحر الابيض انهر : بيروت . الاولى . الزهراني . القاسميه . الكابره . نعمين . المقطع . دغله . زرقه . المعجز . اسكندرون ويصب في البحيرة انهر الشريعة وادي السلامة وادي السمك

فنهر بيروت يجيء من جهة حمانا في جبل لبنان ويفصل بيروت عن جبل لبنان ويصب في البحر بجوار مقام الخضر عليه السلام . ويخرج نهر الاولى من محل الباروك في جبل لبنان ويصب في البحر بجوار صيدا . اما نهر القاسميه فمنبعه الاصلي في محل يدعى (الليتاني) او *Séntes* حسب التعبير القديم شمالي قصبة بعلبك وهو بعيد عن منبع نهر العاصي مئات من الامتار في الجهة الجنوبية منها . اما منبعه الذي يرى بالعين فهو وادٍ في (انتي لبنان) يبعد ٢٥ كيلو متراً في جنوبي بعلبك ويصب في نهر الليطاني اعتباراً من هذه الجهة عدة جداول فيقذف النهر المذكور في الدقيقة ١٤٣ متراً مكعباً . ويجري نهر الليطاني من الشمال الى الجنوب على

استقامة جبل الشيخ ويظل سائرًا في واديه القائم فيه بعض المواقع الطبيعية من صخور وامثالها حتى يصل الى نقطة تبعد مقدار ثلاثة كيلو مترات عن قلعة الشقيف في طريق مرجعيون من الجهة الجنوبية فيبدل مجراه ثمت دفعة واحدة ويجري نحو الجهة الغربية فيطلق عليه اعتبارًا من هذه النقطة اسم (نهر القاسميه) وتبلغ المسافة بين هذه النقطة وقصبة صور سبعة كيلو مترات او ستة · ويبلغ طول مجرى نهر الليطاني ٣٦٠ كيلو مترًا منها (٥٠) كيلو مترًا في اقضية مرجعيون وصيدا وصور

نهر الكابره —: يخرج هذا النهر من قضاء صفد ويسقي كثيرًا من الجنائن والبساتين ويؤمن احتياجات الاهالي في عكا

ويخرج نهر النعمين في قضاء عكا ويصب في البحر بجوار المدينة المذكورة

نهر المقطع — يتشكل هذا النهر من فخذين احدهما يخرج من جبل جلبوع والثاني يخرج من جبل طابور في جوار الناصرة فيجري الفخذ الاول من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ويجري الثاني من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ويلتقيان بفخذ ثالث في نقطة تبعد مقدار عشرة كيلو مترات وبعد ان يقطع النهر المذكور مسافة ٥٠ او ٧٠ كيلو مترًا في مرج بني عامر اعتبارًا من جبل جلبوع يصب في البحر بين عكا وحيفا · ولا يتجاوز مجرى نهر المقطع قضائي الناصره وحيفا · ويخرج من السطوح المائلة في جبال عيبال وغاريزيم جداول مياه كثيرة تمرّ في سامارية وتسقي صحراء صارونه · ويحسبون نهر الازرق ونهر الاخضر ونهر ابو زابوره من جملة هذه المياه

نهر الشريعة — يبلغ الانحطاط درجة تذكر في مجرى نهر الشريعة الذي يفصل ولاية بيروت عن ولاية سورية من حدود متصرفية جبل لبنان الجنوبية حتى متصرفية القدس الشريف· وبسبب هذا الانحطاط في المجرى كان نهر الشريعه موضوعاً للكلام عند علماء الجغرافيا وفن طبقات الارض يتكون نهر الشريعة من ثلاثة فروع اساسيه وهي الحاصباني وبانياس ودان اما فرع الحاصباني فيخرج من موقع يبلغ ارتفاعه ٦٦٠ متراً بالقرب من قصبة حاصبيا غربي السطح المائل من جبل الشيخ · ويخرج فرع بانياس من فوهة يبلغ ارتفاعها ٤٦٠ متراً بالقرب من قصبة بانياس في السطح المائل من الجهة الجنوبية الشرقية لجبل الشيخ · واما فرع دان فيخرج على بعد ٢٦٠ متراً من جنوبي بانياس · وتتحد الفروع الثلاثة على مسافة عشرة كيلومترات من شمالي بحيرة الحوله البالغ ارتفاعها مترين و١٠ سانتياً وتجري نحو الجنوب تحت اسم نهر الشريعة ورغماً عن قلة هذه المسافة فان الارتفاع بين منبع نهر الحاصباني وبين الموقع الذي يصب منه نهر الشريعة في بحيرة الحوله ظاهر الاختلاف تماماً ويقدر بـ ٦٥٨ متراً فيصيب كل كيلومتر انحداراً في مجرى نهر الشريعة ١٣ متراً و٦

سانتيمات بسيره نحو الجنوب

وبعد ان يقطع نهر الشريعة بحيرة الحوله ويسير نحو الجنوب يزداد انحداره . وحينما يصل الى بحيرة طبريا البعيدة ٤٠ كيلو متراً عن بحيرة الحوله جنوباً يبلغ انحطاط مجرى نهر الشريعة اي في الغور ٢٠٨ امتار عن سطح البحر ويزيد الانحطاط بين البحيرتين على ١٢ متراً في كل كيلومتر

واذا عرفنا ان طول مجرى نهر الشريعه من منبعه حتى مصبه في بحيرة طبريا يبلغ ١٩٠ كيلو متراً ولاحظنا درجة انحطاط بحيرة طبريا عن سطح البحر — وجدنا ان الدرجة الوسطى لانحدار مجرى نهر الشريعه وهو الغور تبلغ ٥ امتار و٥٨ سانتيماً في كل كيلو متر . ولا ريب ان التمكن من اسقاء الاراضي واروائها من مثل هذا النهر الكثير الانحدار سعادةٌ عظمى لاتنكر وان من السهل اقامة الحواجز والسدود لمياه نهر الشريعه التي تنحدر من الشمال الى الجنوب قبل وصولها الى بحيرة طبريا . فهل يظهر المستقبل هذه السعادة للوطن ؟

٣ — البحيرات

ليس في ولاية بيروت بحيرات ذات اهمية غير بحيرتي الحوله وطبريا

اما بحيرة الحوله فهي الحفرة التي كان يسميها العبرانيون « مياه مدروم » وهي متكونة من المياه التي تفيض من نهر الشريعه الجاري من الشمال الى الجنوب . ويؤخذ من التدقيقات الفنية التى قام بها بعض المدققين من الانكليز ان ارتفاع البحيرة عن سطح البحر يبلغ تقريباً من مترين وجاء في التدقيقات التي اجريت عام ١٨٨٥ ميلادية ان عمق البحيرة يتراوح من مترين الى خمسة امتار وهي بشكل مثلث منتظم . وفي الجهة الشمالية منها صحراء منتظمة بشكل حوض ويبلغ عرضها ساعتين . اما الجبال القائمة في الجهة الشرقية من البحيرة فهي منخفضة عن الجبال القائمة في الجهة الغربية منها . ورغماً عن وجود مستنقعات في وسط صحراء الحوله فان عشيرة (الغورانه)[١] يقطنونها اليوم . وقد تأسست قبل الحرب الحاضرة شركة من اغنياء بيروت المعتبرين لتجفيف المستنقعات المذكورة واصلاحها وجعلها قابلة للزراعة

بحيرة طبريا — يؤخذ من التدقيقات التي قام بها اللازم لينش LYNCH ان طول بحيرة طبريا من الشمال الى الجنوب يبلغ ٢٦ كيلو متراً و٨٢٤ متراً وعرضها الوسطى من الشرق الى الغرب يبلغ تسعة كيلومترات و٢٥٥ متراً . وتبلغ مساحتها السطحية ١٩٢ كيلو متراً مربعاً . اما عمقها فيبلغ ٤٥ متراً في الجهة الغربية . وتنحط عن سطح البحر ٢٠٨ امتار ويقال ان

« ١ » وسنتكلم بالتفصيل عن هذه العشيره حين الكلام عن التدقيقات المحلية

انحطاطها عن سطح البحر يبلغ ٢١٢ متراً · ويوجد في مياه طبريا الصالحة للشرب انواع كثيرة من السمك اللذيذ · ويصرف اكثره في قصبة طبريا

وان بحيرة طبريا التي كان يسميها بنو اسرائيل كزنت KEZNETH او كنه زارت GENESARETH تفرق بين ولاية سورية وولاية بيروت · ويتبع منها الثلثان لولاية بيروت في الجهة الغربية · ويظن ان حفرتها كانت في عداد الحفرات البركانيـة · وان سطحها كان في الازمنة القديمة اوسع من الوقت الحاضر بكثير · ويؤيد هذا القول حالة الصخور القائمـة على ضفاف البحيرة ·

ويظهر ان بحيرة طبريا كانت متصلة بالبحر الابيض بواسطة مرج بني عامر فقذف احـد البركانات التي كانت ملتهبة بحممه عليها فسد طريق الاتصال بينها وبين البحر الابيض ويقيمون الدليل على ذلك وجود مواد بركانية في طبقات المرج السفلى · ومن الادلة على ان حفرة البحيرة حفرة بركانيه وجود الحمامات المعدنيه في اطرافها وتكاثف طبقات البازالت في قعر البحيرة وتوالي الزلازل في انحائها

٦ — احوال طبقات الارض

يتشكل القسم الاعظم من جبال فلسطين من طبقات كلسية (تباشير) ويصادف قليـل ان اقسام المستودعات الصخرية المختلفة الالوان. وليست صخور فلسطين القديمة المتبلورة او لتا كسدة سوى آثار البركانات القديمة وتبدلاتها · ولا يوجد من هذه الصخور في الوقت الحاضر في غير الضفة الجنوبية الشرقية من بحيرة لوط وفي الساحل الشرقي من الغور · ويستر الصخور طبقات مؤلفة من حبات الكلس الفحمي الجامع للكلس والمانغـانز · ويرجع اصلهما الى دور الكلس والفحم

اما الطبقات العليا من هذه الاراضي فهي (تباشيرية) وهي كثـيرة التباشير والجفصين ذي الفحم الكلسي المتضمن للمغانز ويوجد هذا النوع كثيرًا في الساحل شرقي بحيرة لوط. ويرى بين هذه الطبقات كثير من الحيوانات البحرية كالاستريديه وامثالها وعلاوة على ذلك فانه يوجد بين الطبقات المذكورة كثير من الحيوانات الناعمة المستحثة· ويوجد من الحيوانات الناعمة المستحثة في فلسطين وفي المنطقة الشرقية من وادي نهر الشريعة وفي الجهة الغربية من القدس

وعلاوة على هذا فانه يوجد تلال من التباشير والفحم الكلسي المانغنزي والرمال حتى انهُ يوجد من هذه التلال في نفس مدينة القدس· ويوجد في جبـل الزيتون صخور تباشيريه اللون

مائلة الى الصفرة مخلوطة ببقايا الحيوانات الناعمة ذات صوت كالمعادن اذا تحركت وتستعمل فوق القبور . ويوجد بكثرة في اراضي غاليله صخور تباشيرية صدفية وهي نادرة الوجود في ساماريا ومفقودة في الأراضي الجديدة . وفي مقابل ذلك فان الاراضي الراسبة تشكل القسم المهم من سواحل ولاية سورية وتتشكل هذه الانواع من الاراضي من ترسب الرمال التي يقذف بها البحر ويشاهد بكثرة على ضفاف الانهر الكبيرة كثير من الطبقات المتشكلة من الجفصين

٧ — الإقليم والهواء

١ — الاقليم

لم يمكن الحصول على معلومات كافية وصريحة بهذا الخصوص حتى اواخر العصر الاخير. الا انه تألفت عام ١٨٩٥ جمعية فنية المانية واخذت تعمل في هذا الموضوع بطريقة علمية فاوقفت العالم على اقليم هذه المنطقة المهمة من المملكة العثمانية

ويمكننا ان نقسم الالوية الثلاثة التى طفنا فيها الى ثلاثة اقاليم من حيث حالتها الطبيعية فالساحل اقليم بحري ومناطق الجبال اقليم بري ووادي الشريعة اقليم حار

ويمكننا القول بوجه عام ان موسم الشتاء في هذه المنطقة هو ايام المطر وموسم الصيف هو ايام الجفاف فلا يهطل المطر فيها . فيبدأ الريح عقب انقطاع الامطار ويمتد شهراً ونصفاً (من ١٠ مارت الى اوائل مايس) ثم يبدأ فصل الصيف . وتنقطع الامطار تقريباً تام الانقطاع في النصف الاخير من مايس. وينقضي حزيران بدون مطر تقريباً . اما تموز فيكون جافاً تماماً . ويشبه شهرا اغستوس وايلول شهر حزيران تمام المشابهة . ويبدأ نزول المطر في اواخر تشرين الاول واوائل تشرين الثاني فتسقي الاراضي اليابسة وتصبح صالحة للزرع بما ينزل عليها من الامطار الغزيرة . وبعد فاصلة قليلة يحل فصل الشتاء بعد نصف كانون الاول .ويهطل المطر بكثرة في كانون الثاني ثم يأخذ بالانقطاع في شباط . وتسعف امطار مارت ونيسان المزروعات على النشوء والنماء . وبين نزول الامطار بقدر كاف او نقصها في اشهر السنة وبين نجاح المواسم والمحاصيل وعطلها — تناسب متلازم

اما درجة الحرارة التي ترتفع في الساحل وفي المناطق المنحطة من الولاية فانها تعتدل جداً في مناطق الولاية العالية . وفي ايام مارت التي تهبط فيها درجة الحرارة ليلًا الى ما تحت الصفر في الصحراء الشرقية من وادي نهر الشريعة فانها لا تقل ارتفاعاً في كثير من الاوقات عن الدرجة

الخامسة والعشرين فوق الصفر في وقت الظهر من اليوم التالي

ورغماً عن ان درجة الحرارة في القسم الساحلي من الولاية هي اعلى منها في المناطق الجبلية فان الهواء البحري الذي يصل تأثيره حتى منطقة القدس يخفف شدة الحرارة في السواحل

وتوقف الجبال العالية هواء البحر وتمنع وصوله الى مدينتي حلب والشام فتكون الحرارة شديدة في المحلين المذكورين . وتعدل درجة الحرارة بالحساب الوسطي ٢٤ فوق الصفر في اشد مناطق الولاية حرارة وهي وادي الشريعة ولكن وصولها احياناً في منطقة الحوله ايام الصيف الى الدرجة (٥٠) غير نادر مطلقاً . وبوصول الحرارة الى هذه الدرجة يصبح وادى الشريعه شبيهاً بصحراء (النوبه) ويبدأون في وادي الشريعة بحصاد المواسم في شهر نيسان فيسبق الحصاد هنا المناطق المرتفعة او الساحلية من الولاية بعشرة او خمسة عشر يوماً

٢- الاهوية

يتبع الهواء الجنوبي (Monsoon) الذي يهب من الهند بتبدلاته هواء البحر والبرّ . ولا يخفى ان الهواء الشمالي بارد والهواء الجنوبي حار والهواء الغربي راطب والهواء الشرقي يابس . يمتد حكم الهواء الراطب في فلسطين ٥٥ يوماً في السنة . والهواء الجنوبي والجنوبي الشرقي ٤٦ يوماً . اما الاهوية التى تهب من الشمال ومن الشمال الشرقي وتكتسح مناطق سوريه وفلسطين فتخفف درجة الحرارة فيها وتجري حكمها فيها ١١٤ يوماً على التعديل الوسطى . وتمر الاهوية الجنوبية او الجنوبية الشرقية على المناطق اليابسة والحارة فتورث اضراراً جمة حين وصولها الى سوريه ويشعر السوريون على الغالب بهذه الاهوية الخالية من الجسم المسمى (اوزون) في النصف الاخير من مايس وتهب احياناً في المنطقة السوريه قبل حلول موسم الشتاء فتوصل درجة الحرارة الى ٤٠ بحساب سنتغراد

— ٨ —

المعادن

لا يوجد في ناحية من انحاء الولاية البيروتية معدن قد كشف واستثمر بصورة منتظمة . ولا يمكننا الادعاء في الوقت ذاته بان كثيراً من تلك المعادن ظلت مجهولة لدى المتفننين . وهذا بيان بالمعادن المعروفة في الالوية الثلاثة من ولاية بيروت :

لواء بيروت — توجد في قضاء صيدا معادن الحديد والنحاس والعنبر والكهرباء . وتوجد عروق مهمة ذات كميات جسيمه جداً من الخشب المتفحم LIGNITE والقسم الاعظم من هذه الثروة الطبيعية قائم في قرية « نيها » شرقي صيدا المبعدة عن الساحل مقدار ١٣ كيلو متراً . ويمكن نقل هـذه الخيرات الطبيعية بسهولة الى الساحل بواسطة خط حديدى ضيق (ده قويل) .

ويوجد في دنه يبلغ ارتفاعها ٧٥٠ متراً بالقرب من محل يدعي (المراه) جنس من معدن «ليغنيت» الاسود البراق المتحجر اي غير المنقلب الى شكل ناعم وهو موجود بكثرة على سطح الارض . وتبدأ عروق هذا المعدن من هذه الجهة وتمتد حتى قرية « عين التاجورة » المرتفعة ٩٠٠ متر ويظن انها تمتد ايضاً الى مابعد ١٢٠٠ متر نحو الجنوب ما بين قرية « كَركبا » و « زحلتا » وهناك ينقطع اثر هذا المعدن ويظهر بصورة موكدة ان عروق هذا المعدن المذكور تمتد ايضاً الى مسافة ٩٠٠ متر بعد تلك الجهة ولكنها مدفونة تحت الارض وغير ظاهرة للعيان . وقد استخرجت في بعض المحلات عدة قناطير من الليغنيت على عمق ستة اوسبعة امتار وثخن الطبقة من هذا المعدن مابين ٥٠ سانتياً ومتراً و ٦٠ سانتياً

ويوجد معدن « الشيست » بين طبقتين من « التباشير » فوق عروق الخشب المتفحم على بعد ٣٠٠ متر تقريباً من شمالي «عين تاجورة» وثخن الطبقة من هذا المعدن مابين ٧٥ سانتياً و٣ امتار و٥٠ سانتياً ومساحة محل المعدن ١٠٠٠ متر

ويوجد الخشب المتفحم في الجهة المقابلة لهذا الجبل في قرية «بيرته » البالغ ارتفاعها ٨٠٠ متر والقائمة بين قريتي (نيها) و (مشغره) على بعد ١٦ كيلو متراً شرقي صيدا . ويوجد في قرية (حيتوره) التابعة لمتصرفية جبل لبنان معدن الخشب المتفحم ومعدن الكهرباء . ويوجد معدن العنبر في المحلات التي توجد فيها هذه المعادن

ويوجد في مدينة بيروت مقالع الاحجار الرملية التي بنى منها ملوك الفنيكيين المباني الجسيمة بالاحجار التي استخرجوها منها . ويستعمل الاهلون هذه الاحجار حتى اليوم في بناء بيوتهم

ويوجد معدن البتوم في قرى (عين ابل) و (عيديب) و (هريقه) التابعة لقضاء صور

لواء عكا — لا يوجد في هذا اللواء الذي يتشكل من غالبه القديمة معادن مستقلة . ولكن يوجد في جبل جرماق المطل على قرية صفد معدن الرخام الاصفر . ويوجد في محلات متفرقة من اللواء معادن البتوم ويتألف الجبل الذي تستند عليه مدينة الناصره من صخور تباشيريه شديدة البياض ولينة ولكنها فاقدة [للسيلكس)

اما لواء نابلس فيظهر ان المعادن مفقودة فيه . واكثر جباله وتلاله من الصخور التباشيريه البيضاء

المياه المعدنيه — لا يوجد في داخل الولاية مياه معدنيه مفيده ومجربة سوى حمامات طبريا ونكتفي هنا بذكر تركيبها المعدني ونترك التفصيل عنها الى محلها المخصوص حين الكلام عن قضاء طبريا وقد اخذنا الارقام الآتية من سالنامة الولاية الصادرة عام ١٣٢٦ هجرية .

الحرارة : ٦٠ — ٧٠

الثقلة الاضافية ٢٣٤٣ و١

التلورور	٤٦ و١٨	قلورور دوسوديوم	٧٤ و١٧
حامض الكبريت	٩٠ و١	〃 مانغانزيوم	٧٨ و٢
مانغانز	١٣ و١ وهذه بنسبة اقسام الالف	〃 قاليسوم	٩٤ و٨
حامض القالسيوم	٩٦ و٤	كبريتيت القالسيوم	٠٨ و١
السودا	٤١ و٩		٥٤ و٣٠
حامض الفحم	٠		
بروميت	٠		
	٨٦ و٣٥		

ومن تحليل منابع الحمامات على حدة تظهر النتيجة الآتية :

قلورور	٨٠٠ و١٧	قلورور دي سوديوم	٨٦٠ و١٨
اوكسجين	١١ و٤	〃 دي منغانزيوم	٢٨ و١
اسيدسولفوريك	٦٣٤ و٠	〃 قالسيوم	٨٫٧٣٤
حامض قاربون	٤٥ و٠	كبريتيت قالسيوم	٧٩ و١
مانغانز	٤٣٣ و٠	قابورنات دي قالسيوم	١٠٠ و٠
سودا	٩٩٤ و٩		٨٠١ و٢٩
حامض قالسيوم	٩٠٦ و٤		
	٨٠١ و٢٩		

- ٩ -

الاحراج

١ - الاحراج

يوجد في اكثر الالوية والاقضية من الولاية محلات حرشيه مابين صغيرة وكبيرة ولكن الاحراش الصالحة للاستعمال والاحتطاب هي داخل لوائي طرابلس الشام واللاذقية فنصرف النظر عن البحث عنهما لان اللوائين غير داخلين في منطقة تتبعاتنا . ويوجد في الجهة الجنوبية من مدينة بيروت وعلى مساواة الرمل حرش من شجر الصنوبر يبلغ وسعه الفي دونم تقريباً وعلو الشجرة يتراوح فيه من خمسة امتار الى ستة ومحيط الشجرة ما بين ٤٠ و ٥٠ سانتيماً ويعتني بامر المحافظة عليه وخصوصاً من قبل الشركة التي تألفت حديثاً لهذا الغرض . ويروى انهم بدأوا بزرع هذا الحرش عام ٧٦٧ هجرية منعاً لتوسع الرمال التي اخذت تهاجم بيروت من غربها الجنوبي حتى انها استولت على اراضيها المزروعة . وقد زرع تدريجياً حتى وصل الى هذه الحالة . وطريقة التحريش طريقة حسنة جداً حتى انهم يزرعون اليوم في اوربا احراشاً صغيرة بالقرب من المدن الساحلية المعرضة لخطر استيلاء الرمال عليها

وفي قضائي صيدا ومرجعيون من ملحقات مركز الولاية احراش صغيرة متفرقة وهي لا تكاد تكفي للاحتطاب حسب الاحتياج المحلي

اما قضاء صور فيوجد فيه اراض حرشية تبعد عن قصبة صور ثماني ساعات بالحساب الوسطي وهي احراش وادي النصارى . وشمل علمان . ووادي الخنازير . واراضي حلت غير ان الاشجار في هذه الاحراش من جنس السنديان فلا تعلو اشجارها على خمسة امتار او ستة ولا يزيد محيط الشجرة على متر مهما بلغت من الكبر ولهذا عدمت الفائدة من اتخاذ هذه الاحراش للاعمال الخشبيه واصبحت الفائدة منها منحصرة بالاحتطاب وصنع الفحم . وفي الجهة الجنوبية من القضاء احراش صغيرة تدعي وادي كركر . وادي البالون . وادي النهور

اما الاحراش في لواء عكا فهي في الجهة الشمالية من ناحية شفا عمر على بعد خمس ساعات بالحساب الوسطي ما بين عكا والاسا كل المجاورة لها وتسمى هذه الاحراش باسم الغربي . مرج . عاد الموالى . الزيب . ويبلغ اتساعها تقريباً اربعين الف دونم وكافة اشجارها من السنديان .

وارتفاع اشجارها يتراوح مابين ٤ و٦ امتار ومحيطها مابين ٥٠ سانتيماً ومتر. ولا تصلح هـذه الاشجار للاعمال الخشبيه ولذلك جعلت احراشها للإحتطاب

وفي قضاء حيفا احراش قائمة على التلال والجبال المرتفعة عن سطح البحر مقدار ٤٠٠ او ٥٠٠ متر ويبلغ اتساعها اربعين الف دونم وتسمى احراش الكرمل · وادي العسل · عضامه · حارى · باجور· والاشجار في هذه الاحراش صغيرة وقصيرة ولهذا خصصت للاحتطاب اسوة بامثالها من الاحراش في قضائي صيدا وصور

٢ — ملاحظات على الاحراج

بدأ التخريب منذ الازمنة القديمة في احراش الارض الفلسطينية التي يقال انها تدر لبناً وعسلاً وقد احدث التخريب المذكور النتائج الآتية

١ — عريان الجبال

٢ — حدوث الاكثبة الرملية

٣ = حدوث المستنقعات

[١] عريان الجبـال = من المحقق ان عريان الجبال وفقدان اراضي السطوح المـائلة للاشجار يسبب شدة التأثيرات الهوائية وحصول الانتكالات المعروفة · فحينما يقع فصل الشتاء وتسقط الامطار بشدة تحصل سيول قوية وشلالات متعددة فتقذف الى الاراضي القابلة للزراعة بالاتربة التي تحصل خلال سنه من تفتت الصخور ولهذا نرى اكثر جبالنا قاحلة عارية تشبه الهياكل العظمية وبسبب عراء هذه الجبال يضيع على البلاد اكثر من ثلثي الاراضي القابلة للزراعة

(٢) تشكل الاكثبة المتحركة = ان تخريب الاحراش وبعبارة اصح انحاء الاشجار يسبب حدوث الاكثبة الرمليه المتحركة · ويؤيد هـذا القول روايات المؤرخين فيذكر ارباب المعرفة والوقوف من المتتبعين للتاريخ انه كان شـرقي قيساريه محلات للاستراحـة على مسافة ستة كيلو مترات او ثمانية فكانت النساء الرومانيات يخرجن اليها ويمضين مدة القيلولة فيها ويلتجئن الى تلك الظلال اتقاء من الحر وقوارص الشمس . وكم للادباء من المدائح والتخيلات في تلك الظلال · ولو نظرنا اليوم الى تلك الجهة لا نجد فيها الا اكثبة رملية متجمعة · ويؤخذ من المنقولات التاريخية ان الاكثبة الساحلية الممتده على عرض ستة او ثمانية كيلومترات على طول السواحل الفلسطينية هي نتائج الفين من السنين · وقد ثبت بالارقام المحققه ان المساحة السطحيه للاكثبه السياره في فلسطين يبلغ مليون دونم وتبلغ مساحة الاراضي التي تستولي عليها الرمال سنوياً وتحرم الزراعة منها لا اقل من خمسة الآف دونم

ولهذا فان تخريب الاشجار وقلعها من سواحل فلسطين افقد البلاد اكثر من مليون دونم من الاراضي ولا يزال يفقد زراعة فلسطين نحواً من خمسة الآف دونم في كل عام . ويجب على الحكومة ان تجعل من اهم مشاغلها تجديد الاحراش وتنمية الاشجار حتى تتمكن من ايقاف هذه الاكثبة المتحركة

وهل ذلك يمكن ؟ ونجيب على ذلك بان مدينة بوردو كانت معرضة في الازمنة الاخيرة لاستيلاء الاكثبة الرملية المتحركة . اما اليوم فترى في جوارها حرشاً واسعاً جداً من شجر الصنوبر المسمى (شجر الذهب) وقد حصل هذا الحرج الذي غرس حسب الاصول الفنية في نصف عصر تقريباً

(٣) حدوث المستنقعات — يرى غريباً لاول وهلة ان نجعل حدوث المستنقعات متسبباً عن تخريب الاحراش ولكن الفن اثبت هذه النظرية في الايام الاخيرة واليك البيان :

حينما يسقط المطر على الجبال المستورة بالاحراش تقع حبات ماء الشتاء بين الاوراق والاغصان فتنقسم وتتجزأ وبهذه الواسطة تقع على الارض ببطء . فتمتص هذه المياه طبقة متكونة من بقايا الاوراق والاغصان وهي قابلة النفوذ وسريعة الامتصاص . وبهذه الصورة تسيل المياه المذكورة تدريجاً من الطبقات السفلى في السطوح المائلة حتى تظهر بصورة مفيدة وصافية في الصحارى فتوافق منفعة الاهلين ثم تنحدر الى مجاري الانهر والوديان بصورة صافية وبراقة . ولها دخل كبير بتطهير المجاري والانهر المذكورة . اما المياه التي تسقط على جبال فلسطين فانها لا تلاقي امامها شيئاً يعرقل صدماتها فتنحدر عن الصخور العارية التي لا تنفذ فيها وتجري دون توقف وحينما تصب المياه في المراعي والاراضي الخالية تنقلب فيها الى سيول عظيمة . ولا تمضي ساعات قليلة على هذه السيول التي تتراكم في الاراضي المشبعة بالمياه حتى تتكون في الاراضي اوحال كثيرة . وعوضاً عن ان تتكون من هذ الاوحال تربة مفيدة (صلصال) ينتفع منها الزرع فانها بالعكس تضر بها وتوسع مجاري المياه وبهذه الواسطة يتكون في تلك الصحارى خلال مدة قليلة مستنقعات تجف بسرعة ولكن اضرارها تبقى مدة طويلة . واذا بدأت اضرار المستنقعات في جهة من الجهات فان زوالها صعب ولا تزال بازدياد حتى النهاية . ولهذا يقول ارباب الاختصاص في الاحراش ان تخليص الصحارى من المستنقعات يتوقف على محافظة الجبال ووقاية احراجها

وحينما تجري هذه الانهر المتبدلة المجرى البطيئة السير نحو البحر وقد ازدادت كميات مياهها بسبب الاوحال النازلة عليها من الجبال تجد بالقرب من مصباتها صعوبة بسبب حيلولة الاتربة

السيارة ووقوفها امامهافتأخذ مياهها حينئذٍ بالتشعب يمنة و يساراً فتنشأ بسبب ذلك ايضاً المستنقعات

وحاصل القول ان المستنقعات الناشئة عن عريان الجبال وعن اتساع مساحة الاكثبة الرملية السيارة كانت من اعظم الآفات على زراعة فلسطين . والواجب يقضي بان تدخل مسئلة المستنقعات وتجفيفها في عداد اصلاح الاحراج واحيائها

وبسبب خراب الاحراش عندنا اضطررنا لاخراج اموال طائلة الى الخارج فاذا عرفنا اننا ندفع كل عام ثمن اخشاب تدخل الى مرافئ بيروت وحيفا ويافا ٤٠٠ الف ليره عثمانية لا نكون قد تعدينا الحقيقة مطلقاً

ولقد كانت صناديق البورتقال التي ترسلها بلادنا الى الخارج لا تتجاوز بضعة آلاف قبل ثلاثين سنة فاصبح اليوم عدد الصناديق التي ترسل من ميناء يافا فقط اكثر من مليون . ومن المنتظر ان تصل الى ثلاثة ملايين بعد خمس سنين . ويستحضر ابناء البلاد الصناديق التي يضعون فيها البورتقال من روسيه والنمسا . واذا عرفنا ان ثمن الصندوق ثلاثة غروش وجدنا اننا نخرج الى البلاد الاجنبية سنوياً ثلاثين الف ليره عثمانية ثمن صناديق لنقل البورتقال . واذا امعنا النظر قليلاً في هذه المسئلة نجد اننا ندفع رسماً معيناً عن كل صندوق بورتقال نرسله الى اوربا وهذا الرسم يزيد عدة اضعاف على الويركو الذي تستوفيه الحكومة العثمانية عن ثمره . فهل من نظرة اعتبار الى هذه الحالة التي تنتقم الطبيعة بواسطتها من بلادنا ؟

(٤) — الوسائل لايقاف تخريب الاحراش — عرفت الحكومات التي تشتغل بمنع تخريب الاحراش وبمسئلة تجديدها واحيائها — من التجارب الخصوصية ان هذه المسائل المهمة لا تتم الا بقوانين مستوفاة وبتوزيع المخصصات الكافية بصورة مرتبة ومكفولة وبانتخاب اناس اكفاء وارباب اقتدار . وبتتبع هذه المسئلة وتدبيرها بصورة حكيمة

فعلى الحكومة التي تحب الدخول في كل هذه المسائل الحياتية ان تجعل مسئلة الاحتطاب وقطع الاخشاب وتصدير مثل هذه المحاصيل الطبيعي ضمن شروط معينة ومحدودة . وان تمنع قطع الاشجار في زمن نموها وان لا تجيز القطع الا في الاوقات التي تشتد فيها الحرارة

وفضلاً عن ذلك فانه يجب ان تمنع قلع اصول الاشجار وان تجعل المراعي ضمن نطاقات معينة ومرتبة وان تأخذ رسوماً باهظة عن الماعز التي يحسبونها من اهم العوامل المضرة في الاحراش . وان تصرف النظر عن رسوم الاغنام وهذا من اهم التدابير لحفظ الاحراش ووقايتها

ولقد نشر قانون يقضي باعفاء الذين يشجرون الجبال بالزيتون من رسوم الويركو من

ثلاث سنين الى عشرة ولكن الذين استفادوا من هذا القانون قليلون جداً . واذا نظرنا في الامر نجد ان مدة الاعفاء التي جعلت للتشويق وهي عشر سنين قليلة جداً . فالواجب يقضي بان يعفى الذين يشجرون الجبال باشجار الزيتون خمس عشرة سنة على الاقل من الرسوم . ويليق بنا حين الكلام عن هذا البحث ان لا ننسى تعديات الظلام من متعهدي الحطب لادارة الخطوط الحديدية فانهم يقطعون الاشجار اليابسة والطرية المثمرة وغير المثمرة ولا ينصفون في عملهم مطلقاً

— ١٠ —

حياة النبات

تتبدل حياة النبات العمومية في الالوية التي عهد الينا التدقيق فيها حسب الاحوال الاقليمية في المناطق الثلاثة المنقسمة اليها تلك الالوية . فالقسم الساحلي منها وهو منطقة البحر الابيض منبتة وتمتاز بكثرة اشجارها ذات الاوراق الزمردية والثابتة وبنباتها الربيعي الذي يزول بسرعة . فتشبه سورية بنباتاتها هذه اقليم الساحل في اسبانيا وفي الجزائر وفي سجليا . ومما يجعل مشابهة بين مدينة بيروت والبلاد الحارة كثرة شجرة (الزندرخت) في جوارها ووجود شجر (الجميز) في محلات متعددة من الساحل . اما حياة النبات في الساحل المائل شرقي لبنان وفي جبال فلسطين فانها تشبه تمام المشابهة حالة النبات في الشرق . فيخرج في تلك الاراضي في فصل الربيع نباتات سنجابية اللون مختلفة الاشكال ولا زهر لها . وتكثر الحشائش الربيعية ايضاً . وعلاوة على ذلك فانه يخرج في هذه المنطقة كافة النباتات الخضراء واشجار السنديان والفستق ذات الاشواك بشكل احراش صغيرة ويوجد فيها احياناً اشجار من الفصيلة الصنوبرية

والمشابهة تامة بين وادي الشريعة بخصبه الاقليمي وبين بلاد النوبة والحبشة القائمة في حدود المنطقة الحارة فيوجد في ذلك الوادي نبات يدعى (اوشر) وهو من النباتات التي تخرج في المنطقة الجنوبية من الصحراء الكبيرة . ويخرج منه نوع من الاقاسيا يشبه بشكله (المظلة) ويخرج في هذه المنطقة ايضاً شجر غريب الشكل يسمى (شجر الباز) **Maringa Apera** . وينبت في ضفاف بحيرتي الحوله وطبريا شجر (بايدوس)

اما من جهة المحاصيل الزراعية فانه يمكننا اعتبار هذه البلاد من المنطقة الكثيرة المحاصيل الكافية لمعيشة اهاليها هذا اذا لم نعتبرها من المناطق المنبتة جداً . وكثيراً مايعطى القمح في اراضي يافا وحيفا ثمانية مقابل واحد والشعير ١٥ مقابل واحد . ولقد احب مهاجرو الاجانب في الازمنة

الاخيرة زراعة الكرمة التي كانت ذات اهمية عظمى في سوريه خلال القرون القديمة والوسطى حتى الزمن الاخير ثم اهمل شأنها وكادت تتلاشى . وقد اقام المهاجرون من الاجانب مزارع متقنة للكرمة في لبنان وحيفا ويافا

ولقد اشتهر اخيراً قضاء حيفا بنجاح الكرمة حتى انه صنع من العنب الذي خرج فيه قبل بضع سنين نحو من اربعة ملايين كيلو من الخمر . وفي عام ١٣١٣ انشأ البارون روتشليد معملاً للخمور في قرية زمارين وهم يصنعون فيها حتى اليوم الخمر . والعرق . والكونياك

امتاز العنب الذي يخرج في حيفا بحسنه وبكثرة محصوله ولكنهُ اصيب قبل بضع سنين بعلة (الفيلوكسرا) فاتلفت العلة المذكورة قسماً عظيماً منه . ويبذل الاهلون الهمة كل عام بغرس الكرمة الاميركية منعاً لمرض (الفيلوكسرا) وتلافياً للخسائر التي اصيبوا بها وقد خصصت جمعية (ايقا) الموسوية في قرية زمارين مقدار خمس دونمات لتجربة زراعة الكرمة الاميركية . وهم يجربون في نموذج (عتليت) الزراعي كافة انواع الكرمة الاميركية فيعرفون كل جنس منها ويفرقونه حسب التربة والاقليم في بلادنا ثم يوزعونه ليغرس في المحلات التي تصلح له

ويبلغ المقدار الاصغر — من (المادة الكلسيه) في المواقع المختلفة من التربة ٨ في المئة والمقدار الاعظم من ٢٥ — ٣٠ والمقدار الاوسط من ١٠ — ١٨ في المئة . ومن الضروري الاعتناء جداً بغرس الكرمة وتجربة زرعها في التلال والذروات الصالحة لزراعة هذا النوع حسب تربتها وبمقتضى طبيعتها وذلك بتوزيع المشاتل الاميركية التي تستحصلها الحكومة في مشاتلها

كانت العناية والهمة متوجهتين اكثر من اللزوم الى موسم الشرانق واشجار التوت التي دخلت الى البلاد السورية في العصر الرابع الميلادي حتى ان ولاية بيروت كانت تحتوي على ٠٠٠و ١٧و٩ شجرة من التوت تشغل ٤٥٠٠ هكتار من الاراضي . وكان في لواء عكا فقط ١٢٠ الف شجرة

ومن الاشجار التي تشغل دوراً مهماً بين الاشجار السورية شجرة الزيتون . فان صحاري الالوية الثلاثة ومزارعها مملوءة بالزيتون حتى كادت اشجار الزيتون تستر اراضي لوائي عكا ونابلس باجمعها ولا يعتني الزراع بخدمة شجر الزيتون بل يتركونها لطبيعتها . ويوجد بينهم فريق من اصحاب الاعتناء فانهم يجعلون على اطراف الشجرة شيئاً من الاحجار في ايام الشتاء حفظاً لها من الآفات السماوية ويستر بعضهم اطرافها بالتراب على طول ٥٠ الى ٦٠ سانتياً وعرض ٧٠ الى ٨٠ سانتياً وحينما يذهب فصل الشتاء يرفعون عنها الاتربة ويكشفون اصولها . اما المستعمرون الالمانيون والروسيون فانهم علاوة على العمليات المذكورة يحرثون اراضي الزيتون في كل عام ويخدمونها الخدمة اللازمه ويسمدونها في كل سنتين او ثلاثة مرة واحده

اما محاصيل الزيتون فيستخرجون زيت القسم الاعظم ويتركون القسم الجزئي منه للاكل : ويؤخذ من التقرير الذي وضعه مركز التجارب الزراعية الموسوى في قرية عتليت من قرى حيفا انه جرب ٢٥ نموذج من الزيتون الوطني فظهر ان مقدار الزيت في احسن شجرة منها لا يتجاوز ٨٦ و٣٦ في المئة . مع انه لم يتجاوز ويا للأسف مقدار الزيت في اشجار اخرى بالقرب منها ٥٤و١٩ في المئه فيظهر من هذا ان مقدار الزيت يحصل من تأثير التربة فقط كما كان يظن

اما التجربتان المذكورتان فقد اجريتا في اثمار شجرتين مجاورتين لبعضهما فى جبل الكرمل : وقد تبينت النتيجة الآتية من تجربة اثمار ٢٥ شجرة :

فمقدار الزيت كان في ٧ منها اكثر من ٣٠ في المئة

وكان في ١١ " " : ٢٥ : :

وكان في ٧ وهي الحد الاصغر ٥٤و١٩ : :

وقد زرعت في اراضي زمارين ثلاث شجرات من احسن انواع الزيتون الاجنبي ثم عصرت اثمارها فتبين بعد التحليل النتيجة الآتية :

	ا	ب	ت
فمقدار الزيت في المئة	٤٩: و٢١	٠٠و: ٢٦	٥٩و: ٢٤

و يؤخذ من التجارب التى اجريت في معاصر الزيتون انه اذا مزج الزيتون البلدي بالزيتون الاجنبي تكون نسبة الزيت الخارج من عصرهما سواء من ١٦ — ١٨ في المئة . اما اذا عصر الزيتون البلدي على حدة فان نسبة الزيت منه تتراوح ما بين ٢٣ و٢٥ في المئة ويبلغ احياناً (٣٠) في المئة . ومن هذا يظهر ان الزيتون الوطني اكثر فائدة من الزيتون الاجنبي

و يعتني الاهلون بالاشجار ذات الاثمار مثل اهتمامهم بشجر الزيتون ومن اهمها شجر البورتقال والليمون حتى انهم يقدرون الحاصلات الوسطى في السنة من نوع الليمون والبورتقال بثمانية وعشرين مليون كيلو في عموم الولاية . ولقد اشتهرت قصبة صيدا باشجار البورتقال ذات الروائح المسكية المفرحة للقلوب والمنعشة للافئدة

— ١١ —

حياة الحيوان

يوجد الحمار الوحشي في الجهة الجنوبية من الولاية و يوجد في وادي الشريعة الجاموس المستعمل في الحراثة والفلاحة . و يكثر في الجبال وجود الذئاب التائهة فتلتجأ ايام الشتاء الى الصحاري المرتفعة قليلًا فتخرب الزرع وتهاجم الانسان احياناً و يكثر وجود الخنزير البري احياناً في

المحلات التي يمكن المرور والعبور منها من وادي الشريعة بسبب الاعشاب والنباتات المتلاحمة فيها . وتعيش الضباع الموجودة في جبل الطابور بما تصطاده من الارانب والغزلان ويكثر وجود طيور الماء والكنار البري والوز في بحيرة الحولة كما ان الافاعي السامة والحيوانات السامة الزاحفة توجد بكثرة في وادي الشريعة وفي الغور . ويدعي كثيرون وجود التمساح في نهر الزرقة وفي نهر المقطع اللذين يصبان في البحر بجوار مدينة قيسارية القديمة ويؤخذ من تتبعات الدكتور لورنهل انه لاتوجد مشابهة بين التماسيح في هذين النهرين و بين تماسيح النيل المدهشة . ويقال ان التماسيح المذكورة التي لا يزيد طولها عن متر ونصف تخرج من النهر الى البر في شهر مارت فتبيض ثمت فيجب على الانسان اجتنابها في ذلك الحين . ومن ينظر بامعان يجدان حياة الحيوان في فلسطين هي مصرية اكثر منها آسيوية ويقول (تريسترام) احد المتخصصين بفن التاريخ الطبيعي حين كلامه عن وجود التمساح في نهر (الجوده) : الم يكن في التاريخ القديم اتصال بين لنهر الجودة ونهر النيل ؟

ويوجد شبه تام بين حياة الحيوان في منطقة الغور وحياته في افريقيا نظراً لوجود المشابهة في الحالة الاقليمية . وقد تبين حتى الان ان الثلاثمائة واثنين وعشرين نوعاً من الطيور التي عرفت في فلسطين يشبه منها ٥٨ نوعاً طيور منطقه النيل في افريقيا الشمالية

— ١٢ —

المحاصيل الصناعية

لم يبق اثر للصنائع في ولاية بيروت غير ان الصنائع الزراعية لم تفقد اهميتها القديمة و يمكننا ان نقول انها ترقت قليلاً و يوجد في انحاء متفرقة من الولاية معامل للطحين ولزيت الزيتون ولكنها لاتزال في الدور الاول من الرقي اي انها تدور على الماء او بواسطة الحيوانات ويوجد في كافة الولاية مئة مصنع للطحين تشتغل على الماء ومقدار عشرة مطاحن تشتغل على الهواء وقد ترقى صنع الصابون في مدينتي نابلس وطرابلس ولكن الصنائع المذكورة لاتزال ابتدائية جداً لعدم وقوف اربابها على المدنية الحديثة تمام الوقوف وسنشرح هذه المسئلة بايضاح كاف حين الكلام عن نابلس

ومما يستلفت النظر ان الفرنساويين ادخلوا في المدة الاخيرة صنع صفار البيض والالبومين فانتشرت هذه الصناعة بين الاهلين في مدة قلية وبسبب قلة مصرف هذه الصناعة وسهولة تعلمها

فقد سرق الاهلون سرها من الاجانب ونجحوا فيها بل اصبحوا يراقبون الاجانب رقابة مدهشة حتى ان رجحان الوطنيين ظهر تمام الظهور قبل سنين (اي قبل اعلان الحرب بالطبع) وقد بلغ مقدار الالبومين الذي اخرجته المصانع الوطنية وارسلته الى اوربا ٤٢٧و١٠ كيلو غراماً بسعر ٣ فرنكات و٥٠ سانتياً الكيلو. واصدرت المصانع المذكورة من صفار البيض ٥٨٦٤٥ كيلو غراماً بسعر فرنك واحد الكيلو ويؤخذ من الاحصاآت الدقيقة ان الكيلو الواحد من الالبومين والصفار يخرج من ستين بيضة وعلى هذا الحساب تستهلك بلادنا المقادير الآتيه من البيض :

عدد	
٧٠٠و٥١٨و٣	لاستخراج الالبومين والصفار
٨٠٠و٣٣٤و١	يرسل عيناً الى اوربا
٥٠٠و٨٥٣و٤	

فقد ظهر من هذا ان ولاية بيروت تخرج في كل عام الى اوربا ٥٠٠و٨٥٣و٤ بيضة عدا عن البيض الذي تصرفه في بلادها وقد كانت هذه الصناعة سبباً لتشويق الاهلين على تربية الدجاج والاستفادة منه

اما الصنائع النسجيه فرغماً عن افول نجمها فانها لاتزال محافظة على موقعها الممتاز ولا تزال بيروت وعكا وطرابلس معروفة بمنسوجاتها القصبية وقد اختصت طرابلس بمنسوجاتها الحريرية الممتازة وتستحضر مصانع النسيج المواد الابتدائية التي تحتاجها من جبل لبنان حتى ان جبل لبنان يبيع كل عام ٣٥٠ الف كيلو غرام من الشرانق لمصانع طرابلس و٢٠٠ الف كيلو غرام لمصانع بيروت

اما الحرير الذي يصنع في مصانع بلادنا فيرسل قسم منه الى مارسيليا وينسج القسم الباقي منه على الطراز العربي. وينسجون في مصانع بيروت وطرابلس وصيدا نوعاً من المنسوجات الحريرية والقطنية التي تسمى (الاجه) وقد اظهرت مشاهر اوربا العظيمة رغبتها واعجابها بالمنسوجات الحريرية المصبوغة باللون الاحمر

ونالت مصنوعات مدينة بيروت الفضية والذهبية التي تستعمل للزينة رغبة واقبالاً في اوربا حتى ان صياغة نوع من الاقفاص المصنوعة من الخيوط الذهبية والفضية قد احرزت نوط الافتخار من الدرجة الاولى فى معرض ويانه

ولا يمكن تقليد مثل هذه الزينات اللطيفة الرقيقه التي تصنع في البلاد العثمانية في بلاد غير

البلاد البورتغالية . وان الصياغة في مدينة جنوره من البلاد الايتالية بعيدة جداً عن الذوق السليم في صناعتها وانتظام ترتيبها وحسن تركيبها . و يصيغون في بيروت وصيدا والناصره من البلاد الكبيرة في الولاية اوان خشبية مطعمة بالصدف وهي من اجمل المصنوعات التي تستجاب انظار ارباب الذوق السليم وتنال رغبتهم

—١٣—

الحالة الزراعية

ننشر هنا فصلاً خاصاً كتبه حضرة الفاضل المحترم حسين كاظم بك افندي المعروف بوقوفه واختصاصه بالامور الزراعية :

١ — كلمة عن الزراعة في سورية

اذا اجلت نظرك في اي ناحية من انحاء سورية تجد الحالة الزراعية بدائية لم تفارق طبيعتها الاولى . بل لم تتبع سير التكامل في الصنائع ذات العلاقة بالعلم . وقد اوجبت هذه النقيصة جمود الفائدة من الزراعة على درجة معينة . بل اقصتها الطبيعية عن النتيجة التي ينتظر الحصول عليها بفضل جودة التربة وتأثير الاقليم والهواء الفياضين كما هي الحالة في كثير من البلاد الاناضولية . ويرى المتتبع في البلاد الاناطولية ان ابسط صحاريها واوسع مزارعها واجمل جبالها لا تزيد حاصلاتها الشتوية على خمسة او ستة في المئة . وان الاستفادة من اراضيها التي تنضب عناصرها المغذية سنة بعد اخرى بما تؤخذ منها من المحاصيل سواء كانت حسنة او رديئة انما هو بفضل الصدفة وحسن الطالع . مع ان الحالة خلاف هذا في البلاد السورية فانه رغماً عن جمود الاصول الزراعية فيها على حالتها الابتدائية فانها تأتي على قدر الامكان بحاصلات شتوية جيدة بفضل هوائها الجيد وتربتها الفياضة . ويمكننا اجمال القول حسب فن الزراعة الاقتصادي عن الحالة الزراعية في الاناطولى بانه يمكن الحصول فيها على موسم قليل بعمل كثير ومصرف جزئي . اما الحالة الاقتصادية في سورية فانها تأتي بارباح على قدر الامكان . وقد ظهر ان الزراعة فى هذه البلاد عامل مؤثر كبير . ولا ريب ان الاقبال الزراعي هو اثر من آثار الاقليم والتربة . ولا يوجد فرق علمي بين اصول الزراعة فى الاناطول وفى سورية . ونرى ان المقابلة بين زراعة سورية القديمة والحديثة والمقارنة بينها وبين المغروسات التى جاء بها الزمن بحث مفيد جداً . فنرى ان المحاصيل الزراعية ناقصة جداً عن مثلها فى الازمنة الماضية مع ان الامر بالعكس فى البلاد الاخرى . ولا يخفى على احد ان التربة فى جميع الانحاء تفقد بصورة دائمة شيئاً من موجوداتها وان الحاجيات الاقليمية والزراعية قد تغيرت وتبدلت فى جميع الانحاء من اكثر البلاد عمراناً حتى اقصى البلاد بعداً وجفاء فقد

كان القسم الأعظم من العالم مملوءاً بالاحراش المتفرقة او المتلاصقة فى الازمنة السالفة فكانت ولا ريب الحاجيات الاقليمية والزراعية فى تلك الاحيان خلاف الوقت الحاضر تماماً . ثم تبدلت الحالة بسبب تخريب الاحراش وقطع النباتات الطبيعه فتجرأ البشر على العمل بما نالوه من جودة المحاصيل والمواسم في السنين الاولى من المزارع التي قلعت احراشها وقطعت نباتاتها . واتسع نطاق الاحراش عاماً بعد عام . ولم تكن مسئلة تعويض التربة التي تفقد قواها بقوى اخرى امرًا معروفاً في العالم . فاخذ قطع الاحراش بلا عدل ولا انصاف دوراً مهماً وكانت المزارع الجديدة تزداد بسبب ذلك حتى ان المزارع التي حصلت زادت عن احتياجات الخلق اضعافاً مضاعفة في كل البلاد . وفي مقابل ذلك قلت الاحراش ولما زادت الاراضي التي فقدت قواها احس العالم حينئذٍ بالحاجة الزارعية . ولكن ظهر آنئذ في بعض البلاد ان العلم والصناعة يعيدان للتربه مافقدته من القوى وينهضان بها واظهر علم الزراعة الكيموي بصورة واضحة ما تسلبه النباتات من قوى التربه وان اعادة هذه العناصر الحياتيه الى التراب ممكن بفضل المواد الكيموية والمعدنيه والصناعيه حتى يمكن بذلك الاستفادة من التربه في اي زمن كان سواء كانت تلك الاستفادة قليلة او كثيرة

لم تكن العلاقة بين التراب والنبات ظاهرة ومعروفة تماماً حتى الادوار الاخيرة وكانوا لايعرفون فائدة للتربه سوى امساكها اصول النبات والشجر . وكان الاعتقاد سائداً بان النبات يعيش بما يأخذه من الهواء بواسطة اغصانه واوراقه . ولكن بعد ان عرفت العلائق والروابط بين مركبات النباتات وعناصر الاتربة قويت الآمال بامكان انقاذ الحياة الزراعية من الصدفة والطالع . واخذت نظريات الفن الزراعي شكل المسائل الفنيه التي يمكن فحصها وحل معضلاتها في دار الاستحضارات الكيموية . فحلل العلماء النباتات التي نغرسها وعرفوا خاصة كل نبات وما يحتاج اليه من العناصر الترابية . ثم اعملوا ذهنهم بطريقة غرس النباتات العنصرية في الاتربة التى يتعلق بها . ووجدوا حينئذٍ طريقة حفظ التراب من فقدان قواه فعرفوا الطريقة العلمية المفيدة وهي طريقة (الزراعة المتناوبه) . وقبض الانسان بفضل العلم والصناعة على زمام التحكم والسلطة على التربة . ثم فتشوا على الطريقة الممكنه لمنع العوارض الاقليمية والهوائية فاوجدوا طريقة لتشغيل الاراضي على غير الطريقة المعروفة وذلك بالآلات الزراعة الميكانيكية وبتنويع المواسم وباستعمال المحاريث العميقه والخفيفة . وبحرث الارض او قلبها وباصول التفجير والاسقاء فتمكنوا بتلك الواسطة من تعديل التأثيرات الاقليمية على حسب منفعة الزراع وتمكنوا حسب الامكان بواسطة فن الزراعة الراطبه واليابسه من التغلب على الطبيعة . . . فاخذت الزراعة في البلاد التى تقدم فيها فن الزراعة هذه الاشكال والطرائق التى ذكرناها واصبحت الزراعة فنا وصناعة حقيقية بكل

معنى الكلمة · ولا ريب ان سوريه نحسبها في عداد تلك البلاد · ولكننا قلنا ان التربة السوريه هي اكثر جودة واقبالاً من غيرها من البلاد ولا يخلو من الفائدة بيان اسباب ذلك · فقد قص علينا التاريخ ان سوريه كانت ملأى بالاحراش من ساحلها حتى داخليتها فكانت تجارة الفنيكيين البحرية رائجة قائم الرواج ويعرف ان البلاد الحورانية كانت اعظم الاراضى اخراجاً للذخيرة في ايام الرومانيين ولا نشك ان المدن العظمى التى قامت فيهـا كانت تعيش بفضل منتوجات تربتها · · · ولكن الحاجيات الاقليميه في تلك الازمنة قد تبدلت وتغيرت تماماً عن الحاجيات المذكوره في الاعصر التى وصلنا اليها حتى لم يبق من نسبة او اضافة بين الدورين · فالاحراش قلت وقوة التربة ضعفت · والبحيرات والمستنقعات كثرت بسبب فيضان الانهر وارتفاعها وتبدل مجاريها · ومع ذلك فقد بقيت التربة وظل الهواء جيداً ومباركاً في سوريه · ولم تفقد حوران خصوصيتها المعروفة بانها بلاد القمح · ولهذا لم ينقطع رجاؤنا بان تصبح هذه البلاد في المستقبل بلاداً زراعية على مقتضى الطريقة العلميه المعقولة · ولطمأننا بان رؤس الاموال التى تصرف هنا في هذا السبيل لا تضيع ولا تذهب سدى · · ·

ان البحث عن زراعة ولاية بيروت وبعبارة اعم عن زراعة سورية من الوجهة العلمية غير مفيد مطلقاً · فلا ريب ان الآلات التى تعمل في تربة هذه البلاد لا تزال ابتدائية وعلى غاية من البساطة المطلقه · ولا تزال الفائدة التى تستحصل من الزراعة محدودة جداً · ولا ينتظر استحصال المواسم والارباح العظيمة التى تأتي بها اصول الزراعة المتناوبه او المتكاثفة او العناصـر المنبتة الكيماوية منها او المعدنيه · ولكن يجب علينا ان ننظر بعين الدقة والاعتبار الى تأثير الحاجيات الاقتصادية في الزراعة السوريه · ولا ينكر ان سواحل الولاية البيروتيه الممتدة على البحر الابيض جامعة لقسم كبير من حاجيات الزراعة الاقتصاديه مثل طرقها المعبده وخطوطها الحديدية ووسائطها النقليه في البحر · ولا يخفى على احد ان الزراعة تأتي بارباح وفوائد كثيرة اذا توفرت لها مثل هذه الاسباب فمن هذه الجهة نرى ان زراعة البلاد تأتي بارباح لا تنكر وفضلاً عن ذلك فان الحاجيات الاقليميه مسعفة لزراعتها ايضاً :

فالرطوبة والجفاف مبذولان في هذه البلاد وهما شرطان مهمان في الحياة الزراعية · ولا ينقص هذه البلاد شيء من انتظام الاقليم واطراد سيره وانتظام التعاقب في المواسم والفصول · وكثرة الامطار حتى ان بدائع الحياة الارضية ونضرتها المباركة تظهر في كل ناحية من ارجاء هذه البلاد ماعدا الجبال القاحلة والعقيمة في جبل لبنان وترى الطبيعة ضاحكة باسمة في وجه انسان · فالبلاد السوريه بحالتها اليوم بلاد زراعيه · فلستخدموا آثار العلم والصناعه الكاملة في هذه التربه ·

وجددوا غرس الاحراش على قدر الاستطاعة . واذمشوا العناصر المغدية الكثيرة حسب الطبيعة في تربتكم . وامنعوا هجمات البحر على سواحلكم . وجففوا البحيرات والمستنقعات . واوجدوا طريقة الاسقاء لمزارعكم . واعتنوا بالبذار واستنبتوا المراعي الصناعية . وفتشوا على طرق الاستفادة من الاحراش والمراعي التي هي القوى المطيعه للطبيعه — تصبح بلادكم السورية في اقرب وقت في عداد البلاد الزراعية الراقيه . ولا تغفلوا عن تحسين طريقة الزراعة وخصوصاً طريقة الزراعة المتناوبة . فاذا عملتم ذلك تؤسسون في هذه البلاد طريقة الزارعة العلمية المتقوله

يخرج في ولاية بيروت بالوقت الحاضر القمح والشعير والفول والذرة والعدس وامثالها من الحبوب الكثيرة . غير ان الطريقة المتبعة باصول الزراعة المتناوبة هي لاتزال على شكلها الابتدائي وهي زارعة الارض سنةواراحتها سنة اي تطبيق قاعدة (النطس) . ولو اتبعت طريقة الزراعة المتناوبة لثلاث سنين اواربعه لاصبحت الاستفادة من التربة عظيمة جداً . ولا تفقد الارض حينئذٍ قواها . بل كانت تتحسن اجناس الحيوانات الزراعيه بفضل ايجاد المراعي . وبفضل طريقة الزراعة المتناوبه تعاد الى الارض عناصر الانبات التي تفقدها زراعة الحبوب التي تتنوع مرة في الثلاث سنين اوالاربعه حسب قابلية الارض وذلك بما يزرع فيها من المحاصيل المختلفة وعما يطرح فيها من الماء . وبهذه الواسطه ايضاً تعم زراعة البطاطا والشمندر والجزر وامثالها من النباتات ذات الجزوع التي تكون اغذية عظيمه ومفيدة للانسان والحيوان ويتهيأ بهذه الواسطة حشب طرى وحشيش يابس وهو غذاء مفيد كثيراً للحيوانات — ولا نبعد بالقول لنشرح المنافع التي تأتي بها طريقة الزراعية العلمية فانظر الى النموذجات الزراعية التي انشأها المهاجرون الاوربيون في حيفا وفي عدة محلات من بلادنا تظهر لك نجاح الطريقة الزراعية العلمية في القرى . ولنا ثقةبان اتباع الطريقة الفنية التي نسميها — الزراعة الاستعمارية — وان تطبيقها ينهض بالزراعة السورية نهوضاً محموداً . وان هذه الطريقة تعيد الى التربة بواسطة الوسائط الصناعية والطبيعية وبتنويع الزراعة وبالسماد العادي والكيموى ما تأخذه المحاصيل الزراعية من القوى المغدية . ولا وسيلة لانقاذ بلادنا من انحطاط الزراعة ولاحياء تربتنا واعاشة سكانها سوى هذه الطريقة الزراعية الفنية وانني ارى ان قرى المهاجرين في سورية هي مكاتب زراعية — بل نموذجات زراعية علمية — ولقد ازالت التدقيقات العميقة التي اجريت في اقليم هذه الارجاء في تأثير اهويتها وفي تركيب تربتها — فكرة الترددوالخوف من التجدد . واثبتت طريقة الزراعة المتناوبه المتبعه في المزارع القريبة من حيفا الفوائد العظيمه التي تأتي بها الاصول الزراعية المستندة على قواعد العلم والفن . ولا ننسى هنا ان الانقلاب والتجدد التدريجي في الزراعة يمكن ويبقى ويدوم . فلا

يمكن الانتقال دفعة واحدة في البلاد من الطريقة المتبعة في الزراعة منذ اعصر الى طريقة المناوبة الزراعية التى هي احسن طرز علمي بل هي الغاية المقصودة من الفن الزراعي · بل يجب ان تأخذ طريقة الزراعة المتناوبة اشكالاً مختلفة حسب احتياجات الاقليم والتربة وحاجيات البلاد اقتصادياً وتجارياً وعلينا ان ننظر قبل كل شيء في الاسباب التى توصلنا الى معرفة الاشكال. ولقد روعيت الشروط المقتضية في الزراعة الاستعمارية وهي التجارب الزراعية التى اجريت في بعض انحاء الولاية وفقاً لاصول الزراعية الاوربية فنظر اصحابها في قابلية التربة من جهة وبتأثير الاقليم من جهة اخرى · وخلاصة القول ان تطبيق هذه الاصول في الانحاء الاخرى من الولاية ممكن · ولا ريب ان الزراعة الاستعمارية هي اعظم اساس لترقي الزراعة في ولاية سورية وبيروت

يعرف ارباب الاختصاص بالفن الزراعة معنى الزراعة المتوسعة او المتكاثفة ويعرفون مدلولها وما يؤدي الى معناها من الحاجيات · وكل طريقة من هاتين الزراعتين اسباب وعوامل وللاستفادة والربح من الزراعة يجب التدقيق والامعان في الاسباب والعوامل المذكورة

— فالزراعة المتكاثفة — هي علم وصناعة يؤخذ بها ما يمكن من المحاصيل برؤس اموال كبيرة من اراضٍ قليلة ويمكن تطبيق هذه الطريقة في البلاد التي توجد فيها بكثرة رؤس الاموال الزراعية والمواد الكيموية والمعدنيه المنبتة وفي البلاد التي يتمكن فيها اصحاب المحاصيل من اخراج مواسمهم من ايديهم بسهولة وبشروط مفيدة لهم · وفي البلاد التي يمكن لكل فرد منها الاستفادة من تسهيلات العلم والصناعة · نعم ان هذه الطريقة هي الغاية المقصودة من الزراعة كما سبق لنا القول وعلى كل زارع ان يسعى ويجد ليصل الى هذه الغاية في كل مكان

واما الزراعة المتوسعة — فهي بالعكس صناعة استخراج المحاصيل قليلة كانت او كثيرة بمصارف جزئية من اراضٍ واسعة · وهذا الفن زراعي يناسب حالتنا الاقتصادية والاجتماعية · ولقد انتقلت الغاية الزراعية في كل البلاد من الزراعة المتوسعة الى الزراعة المتكاثفة · وان تتبع الاسباب وبيان العلل التي تسهل التكامل في هذه الخطة او تعرقله والبحث في شروط ذلك — يبعد بنا عن الغاية التي نتكلم عنها الآن · ولكننا نحب ان نقول اننا نحتاج للتفكر والامعان في امور كثيرة حتى نتبع السبيل المؤدي الى هذه الغاية فاذا نظرنا في هذه الامور ووضعنا نصب اعيننا ناموس التكامل التدريجي ومراعاة العوامل والاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية حسب مقتضى الزمان والمكان — امكننا حينئذٍ ان نسير بخطى ثابتة في سبيل هذا الفن · غير انه توجد اسباب عديدة توجب علينا المحافظة على اصول الزراعة القديمة المتبعة في كثير من انحاء الولاية · وما دامت هذه الاسباب والدواعي موجودة فان الانتقال الى طريقة الزراعة المتناوبة فضلًا عن

طريقة الزراعة المتكاثفة يضر عوضاً عن ان ينفع ويفيد . ولكن علينا اولاً ان نهيئ الاسباب ونستحضر الحاجيات وان نكتفي بتقليد اصول الزراعة المتناوبة والمتكاثفة المتبعة في مستعمرات المهاجرين الاروبيين . فاذا تم الاستعداد المطلوب بين الاهلين ظهر التقليد الذي نسعى اليه من حد نفسه . ويمكننا تلخيص المسائل التى يجب علينا اتباعها بما يأتي :

ا — التتبع في زراعة الولاية من الوجهة العلميه

ب — النظر في الحاجيات الاقتصادية ذات العلاقة الشديدة بالزراعة

پ — الاعتناء بتدريس فن الزراعة في دار المعلمين وفي المكاتب الاعدادية . ووضع كتب زراعية عمليه

ت — وضع رسائل يفهمها الخواص والعوام عن ابسط نظريات العلم الزراعي واكثرها فائدة وتوزيع هذه الرسائل في كافة انحاء الولاية

ث — تأسيس مشاهر زراعية مرة في السنة في القصبات الكبيرة من الولاية واعطاء جوائز

ج — تأسيس بنك لاقراض الزراع اموالاً على محصولاتهم الزراعية لمدة جزئية وبفائدة قليلة

چ — تأسيس شركة التعاون الزراعي في محل او محلين على سبيل التجربة

فاذا تم استحضار هذه المسائل وظهرت الحالة الزراعية بشكلها وحاجياتها الحاضرة تأخذ حينئذٍ زراعة البلاد دوراً جديداً وتأخذ شكل المسائل المعتد بها

ويمكن الاستفادة من تربة سوريه بطريقة واسعة النطاق جداً وهي استحصال الاثمار والفواكه منها . فان ساحل الولاية من اوله الى آخره قابل لزراعة البورتقال والتين والزيتون والنخل والموز والعنب وامثالها من الفاكهة ولا ينقصه شيء لزرع قصب السكر . على ان زراعة اشجار هذه الفواكه والاشجار واجتناء المنافع الكبيرة منها ليس بالامر الصعب مطلقاً . وفي تربة الولاية قابلية كبرى ايضاً لزراعة الخضرة والاثمار . ولزراعة الكرمة وللتحريش . ولصناعة الحرير ولامثالها من الصنائع الزراعية

وفي صناعة توليد الحيوانات والدجاج وعمل السمن ارباح طائلة وهي صناعات ذات علاقة قريبة او بعيدة بالفن الزراعي

ولا يخفى ان فن الزراعة علم نظري وعملي . فالعمل الذي لايتعدى حدود عادات التقليد لايأتي بارباح طائلة . واما النظرى الذي يعتمد على العلم الصحيح وعلى فنون النباتات وطبقات الارض والحيوانات والحكمة الطبيعيه والكيميا والميكانيك فهو الذي يمكن وصوله الى الغاية الكاملة من الزراعة . وهو الفن الذي يمكن تهيئة عوامله واسبابه التى يستمدها من الاقليم والهواء

ومن الحاجيات الاقتصادية والاجتماعية ومن قواعد الحماية في الرسوم الكمركيــة فنحن اليوم في حاجة كبرى الى العلم في زراعتنا كما هي الحالة في كل شيء . وهــذا هو النقص الذي نشعر به في جميع امورنا.

نعم ان البلاد تنتظر اشياء كثيرة من الزراعة ومن الصنائع الزراعية ولكننا لانزال في الوقت الحاضر بعيدين جداً عن دور الانتقال من الزراعة الى الصناعة وخصوصاً بعد ان قطعت البلاد التي ترقت في صنائعها شوطاً مهماً في زراعتها وربحت منها ارباحاً طائلة

الزراعة ذات علاقة شديدة بالقوى الصادرة من الطبيعــة والانسان . وهي اعظم معاصر للحياة الانسانية بل هي النقطة الجامعة للطبيعة والبشرية كما يقول الاصطلاح الزراعي لان العامل هو الانسان والمعمول هو التراب وقد امتاز الانسان بتسليط عقله على الطبيعــة وتحكمه عليها وباستحصال حياته وسعادته من قوى الطبيعة وخزائنها . ولاتحصل تلك المجاهدة وهذه المبارزة الشريفة الا في تربة المزارع والكرمة والجنائن . وبعبارة اقصر ان عمل الانسان وتأثيره يظهر باجلى مظاهره في الزراعة والفلاحة واذا نظرنا بعين الامعان الى العلائق والمناسبات بين الدماغ والمعدة وقابلناها بعلاقة الانســان والتراب نعرف ان دورة التكامل في العالم الانساني بدأت بتحكمه وتسلطه على الزراعة والطبيعة وبتأمين منفعته وفائدته منها ومن قواها . ولا ريب ان الزراعة التي هي السائق والدافع للعمل في الحياة هي اساس المدنية

٢ — التشكيلات والمؤسسات الزراعة (١)

لم يكن قبل اعلان الدستور تشكيلات زراعيــة في ولاية بيروت اسوة بسائر المحلات . وقد بدأت نظارة التجارة والزراعة الجليلة تهتم بهذا الامر العظيم منذ عام ١٣٢٥ فيوجد اليوم في الميزانية العمومية تخصيصات لمدير الزراعة ولمعلمي الزراعة في حيفــا وعكا وطرابلس واللاذقية وبيروت . وقد وجد حضرة عزمي بك افندي والي الولاية العالي ان وجود بضع مأمورين غير كافين لترقي الحالة الزراعية في الولاية فامر بتنظيم ميزانية خصوصية للولاية عن عام ١٣٣٢ بصورة اوسع وشكل اكمل . فقرر مجلس عمومي الولاية الذي اجتمع في بيروت في كانون اول سنة ١٣٣١ ادخال ٧٠٠ ٤٣٠ ٢ غرش لتنظيم الامور الزراعية في الولاية وتقررت عام ١٣٣٢ ميزانية الزراعة الخصوصية لولاية بيروت . ويفهم من النظر في هذه الميزانية انهُ تقرر تأسيس مكتب زراعي في كل لواء من الوية الولاية وقد ابتاعت الولاية الاراضي اللازمة لهذه المكاتب

(١) اخذنا هذه المعلومات من مديرية الزراعة في بيروت

وقد بدئ باشادة ابنية مكتبي صور وطرابلس وهما على اهبة الخلاص. وبسبب الاحوال الحاضرة لم يباشر باشادة ابنية المكاتب الاخرى. وقد افتتح حضرة عزمي بك افندي في تشرين الثاني سنة ١٣٣١ نموذجاً زراعياً وداراً للحليب في بيروت وادخل لهذا المكتب ١٢١ الف غرش تخصيصات سنوية في ميزانية سنة ١٣٣٢ ولما رأى دولة المشار اليه تأخر صناعة الالبان والجبن في البلاد اصدر امره بافتتاح مكتب الالبان في شهر نيسان سنة ١٣٣٢ احياء لهذه الصناعه وترغيباً لاربابها وقد ظهر هذا الامر من حيز القوة الى حيز الفعل وتقرر قبول عشرين تلميذاً في كل عام يعلمون على نفقة الحكومة وهكذا تم. ويتعلم الطلاب المذكورون في المكتب ضمن دائرة العلم والفن صناعة اللبن والزبدة والجبن بانواعه كالكشكوان والابيض والحلوم والجبن الارناودي. وانواعاً من الجبن الاوربي ويتعلمون صنع القشدة. وبفضل هذه المؤسسة العلمية سترتقي صناعة الجبن الابيض المعروف في هذه البلاد ويتعمم صنع الكشكوان وامثاله من الاجبان الاوربيه

ويوجد في بيروت دار للحرير يصرف عليها من الميزانية العمومية منذ عام ١٣٢٦

وتتولى مديرية الزراعة في بيروت ادارة المؤسسات الزراعية سواء كانت عائدة للميزانية العمومية اوالموازنة الخصوصية ويرجع اليها امر النظارة ايضاً على كافة مأموري الزراعة

اما مقدار المخصصات التي ادخلت في الميزانيــة العمومية لادارة الزراعة في بيروت عن واجب عام ١٣٣٢ فهي كما يأتي :

سنوياً	
٦٩٦٠٠	رواتب سنة لمدير الزراعة ولخمسة معلمين ولكاتب وخادم
٠٣٠٠٠	اجار سنة لادارة الزراعة في بيروت
٠٠٠٩٠	مصارف تنوير وتسخين
٠٠٧٨٠	قرطاسيه
٠١٢٠٠	متفرقه
١٣٠٠٠	مصارف طرق ويوميات
١٧٤٠٠	رواتب دار الحرير
٠٦٧٠٠	اجار ابنية ومزارع توت
٠٥٠٠٠	متفرقة ومحروقات ومفروشات وغيرها
٠١٨٠٠	يومية صناع القز (مصرف نفر للقز وعاملين عن ثلاثة اشهر)
١١٨٥٧٠	يكون

-١٤-

امور النافعة

الطرق والمعابر

قدم رئيس المهندسين في ولاية بيروت عام ١٣٣٢ تقريراً الى المجلس العمومي في الولاية بين فيه الاعمال الفنيه والاداريه التى اجريت خلال عام ١٣٣١ فننشر من هذا التقرير القسم العائد لالوية بيروت وعكا ونابلس وهو كاف ببيان شيء من غرضنا في هذا الموضوع قال :

ان مجموع طول الطرق التي انشئت حتى الآن داخل الولاية هي عبارة عن ٥٥٠ كيلو متراً منها ٣٢١،٢٠٠ طرق عموميه ومنها ٢٥١،٨٠٠ طرق خصوصية وقد تبين من التدقيقات الفنيه ان الطرقات التي انشئت لم تكن موافقة للفن كما هي الحالة في سائر الولايات · ولما كانت الاقسام التي انشئت لم يهتم بامر تعميراتها المتمادية في الحال وبقيت متروكة اصبحت غير قابلة للمرور بما حصل فيها من التشعث ولذلك صرفنا النظر عن انشاء طرقات جديدة عدا الطرق اللازمة قبل اكمال اصلاح الموجود تماماً · وانني اعرض لكم الايضاحات عن مندرجات ميزانيــة عام ٣٣١ وعن الذي حصل من الاحوال بخصوص العمليات التى اجريت والتي لم تجر وعن الانشاآت والعمليات التي اجلت والتى لم تؤجل

١ = طريق اطراف بيروت = ادخل في ميزانية السنة الماضية مع الزيادة ٢٢٠٠٠٠ غرش لاكمال انشا آت هذه الطريق وبوشر بالعمل وقد تم حتى الآن فيها ٢٩٠٠ متر بالتسوية الترابية و ٨٦٢٥ بالاملاء و ٩١٩٥ بالحفر و ٥٧١ متر مكعب بالتسويه الترابيه الناعمة و ٥٩٧ متراً مكعباً بالاحجار غير المشغولة واقيم من الاعمال الصناعيه عشرة جدران وهي ٣٢٥ متراً مكعباً بالحجاره المنحوته وقد صرف مقابل ذلك جميعه ٢١٩١٤٠ غرشاً فبقى من تخصيصات هــذه السنه ٨٦٠ غرشاً ومع هذا فان المبالغ التى خصصت لم تكن كافية لاكمال العمل فاذا نقل من ميزانيــة الطرق الاخرى التى لم تصرف بسبب الاحوال الحاضرة مقدار مائتى الف غرش وخصصت هــذه المبالغ لاكمال الطريق المذكورة فانهُ يمكن اكمال عملياتها حتى نهاية السنه وقد وضع في ميزانية سنه ٣٣٢ مبلغ مائة الف غرش لتمديد الطريق المذكورة وتأمين اتصالها وان اوراق كشفها بيد العمل وفي الوقت ذاته تجري العمليات من جهة اخرى

٢—اما طريق اطراف قصبة صور فقد اكمل فرش منها بالشوسه خلال سنة ٣٣١ بمعرفة المتعهد ١٤٠٨٤ متراً مكعب على طول ٣٤٣ متراً ودحات وتم ٥٥ متراً بتكسير الاحجار و ١٨ متراً بتهيئة الاحجار العادية . وقد اجريت جميع هذه العمليات بـ ٩١٨٩٤ غرشاً وبقي من الطريق المذكورة ٥٢ متراً وسينتجز عملها على كل حال في نهاية السنة وبذلك يكون المتعهد قد اوفى تعهده

٣ — اما طريق صيدا — مرجعيون فقد احيل للمتعهد واكملت عملياته وجرى قبوله الموقت بنقص خمسة في المئة ولكن المتعهد لم يقم بعد مضي سنة من العمليات باجراء التعميرات المتمادية المكلف باجرائها بين القبولين ولهذا لم تكن الطريق المذكورة صالحة للقبــول القطعي فخسم بامر النظارة الجليلة ١٣٤٢٧ غرشاً من استحقاق المتعهد مقابل قطع الحساب ونواقص العمليات وحبس عليه ١٤٥٩٩ غرشاً فتممت بها العمليات المقتضية باسم المتعهد فاذا بقي شيء من الاموال المحبوسة بعد اتمام العمليات تعاد للمتعهد . ولقد فهم ان المتعهد لم يدفع لقسم من الفعلة استحقاقهم مقابل عملهم بالطريق المذكورة اثناء الانشاآت ثم ثبتت صحة ذلك بافادة الفعلة وقبول المتعهد فاخذ قسم من العشرة في المئة من الاموال التي حبست على المتعهد لاكمال العمليات والتي لا يمكن صرفها في سبيل التعميرات ووزعت تلك المبالغ بحضور المتعهد على اصحاب الدين من الفعلة

لواء عكا

١ — طريق الناصره = طبريا = خصص القسمين الثاني والثالث من هذه الطريق ٤٦٧٥٧٣ غرشاً في قسم التعميرات من ميزانية ٣٣١ ولقد سبق القول بانه احيل القسم الثاني للمتعهد عام ٣٣٠ فعمل فيه حتى نهاية ايلول وبسبب الاحوال الحربيه الحاضــرة ترك الشغل دون ان يقطع حسابه فاتمت الجهة العسكرية القسمين المذكورين. اما القسم الثالث فلم تعمل اوراقه الكشفيه ولقد اهملته النافعة هذه السنة غير ان شدة لزومه للجهة العسكريه قضت بان يعمل تامــاً وبصورة مستعجلة بواسطة طوابير العملة ولهذا السبب فانهُ لم يدخل في ميزانية هذه السنة

٢ — طريق حيفا — الناصرة — : خصص للقسمين الاول والثاني من هذه الطريق ٥٧٩٢١٢ غرشاً في ميزانية ٣٣٠ واحيل امر تعميرها حينئذٍ للمتعهد وبالنظر للزوم الذي احس به مقام الولاية العام فقد فسخت المقاولة وبوشر بالعمليات فيهــا بصورة التعميرات المتمادية من طرف الاهالي حسب القانون الجديد واكمل امره ولهذا لم يدخل في ميزانيــة عام ١٣٣٢ وعلى هذا الوجه فقد اقتصد المبلغ الذي ادخل في ميزانية هذه السنة

٣ — طريق الناصره — عفوله : ادخل في ميزانيــة سنة ٣٣١ مبلغ ٣٠١٤٧٣ غرشاً

لانشاء هذه الطريق بصورة مجددة وقد ثوبر على العمل بمعرفة المتعهد في الطريق المذكورة حتى نهاية عام ٣٣٠ ثم ترك المتعهد العمل فيهـا بسبب عدم التمكن من تسوية استحقاقاته بواسطة الاحوال الحاضرة فاكملت الجهة العسكرية العمل فيها ولم يتم قطع الحساب مع متعهدها

٤ — طريق عكا — صفد : خصص في ميزانية عام ٣٣١ للقسمين الاول والثاني من هذه الطريق ٧١٧٤٥٣ غرشاً مدورة من سنة ٣٣٠ ولكن الاحوال الحربية الحاضرة قضت بعدم انجاز العمليات المدورة في هذه السنة وعلاوة على هذا فان عدم تعيين ممر هذه الطريق قبل المباشرة بعملياتها بصورة قطعية وكذلك التبديلات الكثيرة التي جرت في مبدأ العمليـات قضت بافلاس المتعهد وبتركه الشغل وكانت سبباً لفسخ المقاولة وبناء على هذا فانه لم تجر عمليات ولا صرفيات مطلقاً خلال سنة ٣٣١ ومع هذا فانه من اللازم بل الالزم انجاز هذه الطريق في عام ٣٣٢ ولهذا فقد ادخل في الميزانيه المتقدمه لسنه ٣٣٢ مبلغ ١٧٤٥٣٠ غرشاً وسيبذل الجهد والغيرة لاكمال هذه الطريق حتى نهاية السنه

لواء نابلس

١ — طريق جنين — نابلس — وضع لهذه الطريق مبلغ ١١٢٢٤٨ غرشاً في ميزانية عام ٣٣١ لاتمام العمليات الباقية فيها من سنة ٣٣٠ وبسبب الاحوال الحربية الحاضرة لم يمكن اجراء شيء فيها ولم يصرف عليها شيءٌ في هذا العام غير ان الاحجار المكسرة التي هيأها المتعهد عام ٣٣٠ قد اصبح القسم الاعظم منها مانعاً للمرور ففرشتها الجهـة العسكرية في تلك المحلات حتى اصبحت الطريق صالحة لامرار المدافع . اما النواقص الباقية من العمليات فانني بعد القيام بالتفتيش هناك نجريها اما بطريق الامانة او بطريق المبايعه او بواسطة المتعهد القديم ولهذا لم يدخل شيءٌ لهـذه الطريق في ميزانية عام ٣٣٢

— ١٥ —

شيءٌ من تاريخ القطعة السورية

١ — القرون الاولى

اطلق قبل ثلاثة آلاف قبل الميلاد اسم (سوريه) المشتقه من كلمة « سوري » التي اطلقها البابليون على المقاطعة المحدودة شرقاً بجبال مديه وغرباً بجبـال طوروس وجنوباً بمملكة بابل

وشمالاً بارمينيا . وبمرور الزمن اطلق هذا الاسم على البلاد المعروفة اليوم

ويرجع السوريون المعروفون منذ الاعصر القديمة في التاريخ الى العرق (السامي) ولا تتعدى لغتهم التى انشقت الى عدة شعب اللغة (العبرانية)

ويؤخذ من المخطوطات التى وجدت في خرابات بابل القديمة ان الملوك الكلدانيين هاجموا القطعة السورية مراراً عديدة في الازمنة التاريخية القديمة وادخلوا تحت طاعتهم سكانها الذين كانوا يعيشون بحالة البداوة والتوحش . ولما طرأ الوهن على ملك الكلدانيين هجم الاراميون والكنعانيون الذين كانوا يقطنون جهات العراق وسواحل الخليج العجمي على البلاد السورية فاستولوا اولاً على الجهات الشمالية منها ثم احتلوا سواحلها . ولقد كانت العشائر السورية حينئذٍ اي قبل عشرين قرناً من البلاد تقطن القسم الساحلي من هذه البلاد وهي (فينيقيـا) . وقد سمى المصريون هذه البلاد باسم (پوينا) المشتقة من كلمة (فينكس) اي شجر النخل ثم حرفها اليونانيون القدماء فسموها (فينيـك) . ومن المحتمل ان شجر النخل كان كثيراً في سواحل سوريا في تلك الازمنة

ويؤخذ من الروايات التاريخية ان الساميين نهضوا في ذلك الزمن من داخلية البلاد العربية فهجموا عليها مراراً فتم لهم عقب ذلك الاستيلاء على عدة مناطق من سوريا ولقد كان في مقدمة المهـاجرين (بنو كنعان) وهؤلاء المهاجرون هم اجداد الفينيكيين الذين اتخذوا الجهة الغربية مسكناً لهم . ويؤيد الانجيل الشريف ان الكنعانيين وبتعبير آخر (العموريين) في التاريخ القديم هم القبائل التي استوطنت ما بـين البحر الابيض ووادي الشريعة . وجاء في المخطوطات التي عثر عليها في خرابات (تل عمارنا) في مصر ان آخر المهاجرين الى سوريا كانوا (الخابيري) اي العبرانيين . فاستوطن هؤلاء الجهة الغربية من الشريعة . واستوطن اقرباؤهم (المؤابين) الجهة الجنوبية الشرقية من بحيرة لوط . واستوطن (العمونيون) شرقي نهر الشريعة ثم انتقل قسم كبير من هذه القبائل الاراميه المهـاجرة فاستوطنوا (لبنان) و (بهرنك) اي الجهة الشماليه من (الشام) . ولما كتبت آثار (تل عمارنا) كان (الهيثيون) احد الشعوب الاسيوية الصغرى قد هاجروا الى الجهات الشماليه من فلسطين ولكنه لا علاقه لهؤلاء الاقوام بالساميين

ولقد استلفتت القطعة السوريه انظار الدول الكبرى بالنظر لمركزهـا التجاري الكبير . فافتكرت الفراعنة بضم سوريه الى المملكه المصريه وذلك قبل الميلاد بسبعة عشر عصراً فهاجتها جيوشهم مراراً عديدة فاستولت على قسم مهم منهـا ويؤيد ذلك الرسم المحفور على الصخور في جهات نهر الكلب بالقرب من مدينه بيروت فان الرسم المذكور يمثل رعمسيس الثاني

حد فراعنة مصر بشكل الآلهة

وقد حكمت فراعنة مصر البلاد السوريه والفلسطينية مقدار خمسة قرون. وقد وجدت في خرابات (تل عمارنا) بالقرب من مدينة اسيوط في مصر التقارير التي ارسلها ولاة سوريه المصريين الذين كان لهم شبه استقلال في هذه البلاد الى فراعنة مصر عام ١٨٨٧ قبل الميلاد . وقد كتبت هذه التقارير باللغة الكلدانية وبالخط القديم

ويؤخذ من هذه الآثار العلمية القديمة ان المدنية الكلدانيه كانت مستولية على القطعه السوريه مثل استيلائها على كافه المناطق الاسيويه . وقد جاء في هذه الكتابات شيء كثير عن عدة بلاد في سوريه وفلسطين وعن ملك القدس . وقد ذكر في الكتابة المدونة والمحررة على باب خرابة (قارناق) الشهير في مصر ان (توتموزيس) الثالث كان مستولياً على ١١٨ بلدة وقصبة في فلسطين . وقد تكلم (انا ستازين) الاول في الواحه عن ٣٨ بلدة في سوريه وعن اربع بلدان كانت في شرقي قصبة صور

ولما بدأ العبرانيون يوسعون ملكهم في داخليـة البلاد من الجهة الشرقيه فى وادي الشريعة كانوا عشائر مرتبطة مع بعضها باواصر الايمان بالوحدة الآلهية التي جاءت بها شريعة موسى عليه السلام . وقد انتقل الكنعانيون فى تواريخ مختلفه من الجهة الشرقيه فى وادي الشريعه وامتزجوا بالعبرانيين . وكان العبرانيون في ذلك الحين اثنتي عشرة قبيلة حسبما جاء في الانجيل الشريف ثم انضمت اليهم قبائل اخرى وسموا جميعهم باسم واحد . ومن ذلك انضمام قبيلة (سيمه ون) مع قبيلتي (يهودا) و (لاوي) . ويصعب علينا الآن تعيين المواقع التى كانت تقطنها كل قبيلة على حدتها . وغاية ما يعلم ان سبط (افرايم) وقبيلة (يوسف) المؤلفة من نصف عشيرة (مانا سه) كانت تقطن النقطة المركزية من هذه المنطقة . ويقيم بالقرب منهم اقرباؤهم سبط بنجامين . وكان سبط (يهوذا) المساوي لسبط (يوسف) مستولياً على القسم الجنوبي . وكانت قبيلة (عيساشار) ساكنة في وادي (جزرائه ل) — مرج بني عامر — . الممتد شمالاً من وادى الشريعة . ثم يأتي بالترتيب بعد هؤلاء اسباط (زابولون) و (نفتالي) و (آزر) بالقرب من الساحل . وكان سبط (دان) يقطن اقصى الجنوب . وكان سبط (روبن) يسكن منطقة الجنوبي الشرقي من وادي الشريعة وكان المؤآبيون يعتدون على هذا السبط في اكثر الاحيان

ويؤخذ من مزامير (بوره) التى تحسب من اقدم المنابع التاريخيـة ان اليهود في ذلك الحين كانوا يقدرون بمائة وستين الفاً

ولقد كانت تعديات الفلسطينيين على بني اسرائيل ومقاومـة الاسرائيليين للمعتدين سبباً

لتأسيس الحكومة اليهودية . فاجلس (ساموئيل) احد انبياء بني اسرائيل رجلا من سبط (بنجامين) يدعي (ساوءل) على عرش الملك نظراً لمزاياه وصفاته العالية . غيران (ساوءل) لم يتمكن من تأسيس دعائم الدولة الجديدة بسبب ما ظهر حواله من الرقابة الشخصيه

كان حضرة داود من آحاد الناس ولكنه مملوءاً ذكاء ودهاء فاسس اولاً امارة يهودية تحت حماية الفلسطينيين واخذ بعد وفاة الملك (ساوءل) يناقش عائلة الملك وافراد المملكة الحساب وبعد وفاة (ايزبوزهت) ابن الملك (ساوءل) تمكن داود عليه السلام من الجلوس على عرش المملكة اليهودية باجمعها . فاتسعت حدود المملكة اليهودية في ايام ملكه . وجعل داود عاصمة ملكه « جبوش » وهي القدس باسمها القديم . وضرب الفلسطينيين الذين كانوا يعتدون على الموسويين منذ القديم في واقعة (رهفايم) وادخل (المواببين) و (العمونيين) تحت طاعته وضرب الخراج على البلاد الشاميه . واخمد نار الفتنة التي اذكاها ابنه (آبسالون) في داخلية البلاد وادب العصاة الذين ظهروا في الجهة الشمالية من المملكة . وبعد ان اسكن داود عليه السلام هذه الفتن اشتغل باصلاح البلاد وادارة شؤونها ووضع على البلاد الضرائب واسس جيشاً صغيراً للدولة . وبعد ان حصن حضرة سليمان نجل داود عليهما السلام مدينة القدس اشاد فيها قصراً فخماً ومعبداً عظيماً . وجعل بينه وبين الملوك المجاورين له وخصوصاً فراعنة مصر علائق حسنه . ويغلب على الظن ان المدنيه الكنعانيه ومدنية الملوك المجاورين دخلت في هذا الاثناء الى الشعب اليهودي الذي كان عائشاً في حالة البداوة الوحشية . ثم ادبرت الحالة في الملك السليماني بعد ذلك الاقبال الذي كان يصاحبه في مبدأ تأسيسه فخرجت حكومة الشام عن طاعة الدولة اليهوديه وتملصت من اعطاء الجزيه . وظهرت المفاسد والفتن في عدة انحاء من ايالات الدولة اليهوديه . وبعد ان توفى سليمان عليه السلام انقسمت الدوله السليمانيه نفسها الى حكومتين فقامت في البلاد الجنوبيه (الحكومه اليهوديه) وفي البلاد الشماليه (الحكومه الاسرائيليه) واشتعلت نيران الحروب بين الطرفين

وقد اتخذ (يوربعام) الاول ملك الحكومة الاسرائيلية عرش ملكه في سيشهم (نابلس) ثم نقل عرشه الى تيرزاي (قرية طلوزه اليوم) ثم انتقلت عاصمة هذه المملكة في ايام ملك (اومرى) الى ساماريه (قرية سبسطيه اليوم) وقد جاء انشقاق اليهود بلسماً لجروحات اعدائهم فغلب امراء الشام الحكومة الاسرائيليـة مراراً عديدة واستولوا على قسم مهم من اراضيها . ثم تمكنت هذه الحكومة الموقته ايام سلطة (يوربعام) الثاني من الرجوع الى حدودهـا القديمة واوجدت لنفسها حيزاً . وان اقدم مخطوطات ساميه حفظت حتى الآن هي التي تتكلم عن هـذا الزمن (وهي عامود الملك المؤآبي « مزا » الذي وجد في قرية ديبان في جوار الكرك)

وفي اواسط العصر الثاني قبل الميلاد لم يتمكن ملك اليهود « اشاز » من دفع تعديات يهود الشمال الذين اوقعوا ملكه وتاجه في خطر عظيم الا بمعاونة الاثوريين ومساعدتهم لهُ . وفي عام ٧٢١ « ق.م » هجم الاثوريون الذين كانوا بدأوا باخذ الجزية من يهود الجنوب على المملكة الاسرائيليه فانتصروا على حكومتها ونفوا اهاليها الى الجهة الشرقية واسكنوا ابناء اثور في بلاد فلسطين ولم يأخذ اليهود عبرة من هذه الاحوال فلم يجمعوا انفسهم ولم يؤسسوا فيما بينهم رابطة واتحاداً حتى جاءهم بخت نصر عام ٥٩٧ (ق.م) فانتصر عليهم وبدد شملهم ونفى عشرة آلاف يهودي الى بابل . وبعد عشر سنين ثار يهود القدس وعصوا الحكومة البابلية فهدم البابليون القدس وشتتوا شمل اهلها .

ورغماً عن هذه المصائب فان الحالة العموميه كانت تسعف اليهود وتساعدهم قليلًا . فحينما استولى كيخسرو ملك ايران على مدينة بابل عام ٥٣٨ « ق.م » تم لليهود العودة الى وطنهم المحبوب . فاعاد هؤلاء الذين رجعوا من منفاهم الحكومة الموسويه ولكن حدودها لم تتعد حدود المملكة الجنوبيه القديه

وفي ذلك الحين جدد بناء المعبد في القدس عام ٥١٦ (ق.م) ونظراً لعدم اعتراف اليهود بالسامريين الذين حصلوا من تناسل مهاجري آثور وسكان فلسطين كما اشرنا اليه قبلًا فان السامريين المذكورين انشأوا لانفسهم معبداً ثانياً على ذروة جبل « غاريزيم » المطل على نابلس

وبعد اسكندر الكبير الذي فتح سوريه عام ٣٣٢ « ق.م » حصلت في البلاد وقائع دمويه كبرى بين ورثة هذا الفاتح . وانتهت بدخول القطعة السوريه تحت حكم « سلوقس » احد قواد اسكندر الكبير . فاشتهر القائد المذكور بحسن ادارته وقد اتخذ (افاميه) مقراً لحكمه . ثم اشتغل بالشؤون العموميه . وبسط بساط العدل والانصاف فتحسنت الحالة العمومية بين الشعب وصلح حاله . وقد زين سلوقس مدينة انطاكية بالقصور والمتاحف والاماكن العمومية . واسس مدينتي (انطاكيه) و (اللاذقيه) نسبة لاسمي والدته وزوجته . وتولى ادارة هذه المملكه بعد سلوقس ١٨ ملكاً الى ان جاء (انطيوخوس) الثالث فحارب العجم زمناً طويلًا ثم اتفق مع انيبال عدو الرومانيين الاكبر . فادى به الحال الى الانكسار والاندحار الشديدين في موقعتي (ترموبيل) و (مانيزيا)

ويستدل من الآثار الرومانيه واليونانيه القديمة المنتشرة في انحاء فلسطين وسوريه ان المدنية اليونانية ابتدأت في ذلك الحين بالدخول الى هذه الجهات غير ان اليهود اخذوا على انفسهم معاكستها ومقاومتها بكل قواهم محافظين على اعتقاداتهم وموروثاتهم الاخلاقية القديمة ولكن الشبان منهم

كانوا يتخذون التكلم باليونانيه والكتابة بها عادة مستحسنه . ولما رأى (انطوخيوس) الرابع ملك انطاكيه تعصب اليهود عاملهم بالشدة فاستولى على اورشليم واقام صنم المشترى في معبدهم بالقدس واجبر اليهود على الشرك والصنمية . ولكن اليهود اصروا على عنادهم وبفضل الجسارة التي اظهرها رئيسهم الروحي (ماتاتياس) وابنه (ماقابه) انتصر اليهود على السوريين ودام الحرب زمناً مديداً بين (الماقابيين) واخلاف انطوخيوس الى ان اضطر (ديمتريوس) الثاني لتصديق استقلال (شمعون) احد سلالة « الماقابيين » . وقد كانت ايام السلطنة « الماقابيه » (١٤٣—١٢٥) سعيدة الطالع على اليهود حتى ان ملوك اليهود من (اريستوبول) الاول فما بعد نالوا لقب ملك .

وفي عام ٦٣ (ق . م) بدأ اليونانيون بالتضييق والتشديد على اليهود الذين كانوا يعيشون عيشة سياسية مستقلة ففتح الجنرال (بومبه) الروماني القدس وضرب الجزية على ملوك اليهود . وفي عام (٤٠) قبل الميلاد انتهز (هرود) احد افراد اليهود فرصة الاضطراب الواقع من هجوم (البارتيين) على سوريه وفلسطين فصعد على كرسي الحكومة اليهودية بدون حق مشروع . وبعد ثلاث سنين استولى على القدس وعقد اتفاقاً بينه وبين الحكومة الرومانية وانشأ قصوراً ومعابد عديدة على الطراز الروماني تزلفاً للحكومة الرومانية

وبعد ان توفى (هرود) الذي نال عنوان (الكبير) وحكم في زمن الميلاد العيسوي انقسمت المملكة اليهودية بين اولاده . وفي ذلك الحين تفاءل الرؤساء الروحانيون لليهود بعيسى عليه السلام واعتقدوا بان عيسى هو المنتظر ظهوره وانهُ هو المسيح الذي يبني عرش المملكة المنتظرة فطلب (الناسيوناليست) اليهود من مؤسس الديانة النصرانية ان يشتغل بالمسائل السياسية لابناء جنسه ولما رفض المسيح هذا الطلب غضب اليهود وبسبب ذلك طلبوا من (بيلاث) والى الحكومة اليونانية في سورية ان يصلب المسيح واجبروه على ذلك

ومن ذلك الحين اخذ الرومانيون يثبتون سياستهم تدريجاً في سوريه فاشادوا في القطعه المذكورة قصوراً وحمامات وملاعب وعبدوا الطرق . ويوجد من الآثار الرومانية اشياء كثيرة في مدينة بيروت التي كانت تحسب احدى مستعمرات الرومانيين . وقد عين (اوغست قيصر) صهر (مرقس وسپسيانوس آغريبا) والياً على بيروت وجعل في معيته فرقتين من الجند . وعلاوة على ذلك فقد سمى مدينة بيروت باسم ابنته (جوليا) وضرب بهذه المناسبه عملة جديده . ولما شاهد (هرود) الكبير ملك اليهود محبة الامبراطور (اوغوست) وميله الى مدينة بيروت اخذ يزينها ويزخرفها على طرز يرضى الرومانيين . فوسع طرقاتها . وجعل فيها باحات كبيره . وركز في

انحائها هياكل بديعه فاصبحت تشبه روما بزينتها وزخرفها حتى ان كثيراً من الرومانيين تركوا البلاد الايتاليه واستوطنوا بيروت

ويقدرون انه كان بالقرب من (مينة الحسن) في هذه الايام ساحة لمبارزة الحيوانات وبعد ان توفى (نيرون) في هذا المحل اعلن القومندان (وسپسيانوس) استقلاله وسمى نفسهُ ملكاً . وقد احتفل ابنهُ (تيتوس) في هذا المكان بقتل الوف من اسرى اليهود تبجيلاً وتعظيماً للاستيلاء على (اورشليم)

وقد افتتح الرومانيون في مدينه بيروت مكتباً لتعليم الحقوق الرومانيه . وكانوا يعلمون الحقوق الرومانيه في هذا المكتب الذي اسسوه في اواخر العصر الثاني من الميلاد

كان الملك الجالس على عرش الامبراطورية في ذلك الحين وهو (سبتموس ساديرس) مؤسس السلالة السورية وطنياً . فتزوج بـ (جوليا دومينا) احدى اميرات سوريه وحارب العجم حروباً دامية واستولى على عاصمتهم (المداين) . ومنح ابنه وخلفه «اكركلا» لابناء وطنه السوريين كافه الحقوق الرومانيه وذلك عام «٢١١ — ٢١٧» واتم بناء هيكل المشترى في بعلبك الذي بدأ والده باقامته ولم يتمه

وقد تخرج من المكتب الحقوق المار ذكره مشاهير من ارباب الفضل والاقتدار مثل (اولپياز) الصوري (ويوليوس) الحمصي . واحرز المكتب المذكور شهرة فائقه حتى ان الامبراطور (ديوقلسيانوس) اعفى المتخرجين منه من كافه الرسوم والتكاليف وقد استخدم الامبراطور الشهير (ژوستينيان) الاساتذه (اودكسيوس) و (اناطوليوس) و (دوروناوس) من معلمي المكتب المذكور بوظيفة تعديل القوانين الرومانيه

وبينما الاحوال جارية على هذا المنوال اخذ حكم الامراء اليهود ينتقل تدريجاً من الفعل الى اللفظ حتى ان السلطة والحكم في كافه الامور الادارية حتى في المسائل الفرعية الصغيره انتقلت الى يد الرومانيين . فادت المظالم العظيمة التي ارتكبها الوالي (كسيوس فلوروس) الشهير الى عصيان اليهود وقيامهم بصوره هائلة . فادرك الرومانيون شدة الثورة اليهودية وتأثيرها فارسلوا على اليهود عام (٧٠) م جيشاً تحت قيادة الجنرال «تيتوس» فاستولوا على القدس واحرقوا معبد اليهود فيها . وبعد اثنين وستين سنه ظهرت ثورة ثانية كان يدير دفتها «سيمون باركوجبا» الذي ادعى انهُ المسيح نفسه ولم يتمكن الرومانيون من اطفاء نيران هذه الثورة قبل ثلاث سنين ونصف فاخرجوا حينئذٍ اليهود كافة من القدس وجعلوا مدينة القدس مستعمرة رومانيه باسم (ايلياقاپيتولينا)

ورغماً عن هذه المحن والمشاق التى اصيب بها اليهود فانهم حافظوا على معتقداتهم الدينية وعنعناتهم التاريخيه وبذلوا جهدهم بتوسعتها وعلى اثر هذا التفرق والتشتت اخذت هيئة روحانيه

من بينهم بجمع وتأليف المعتقدات اليهودية التى كانت متناقلة بينهم بالافواه . وليس « التلمود » الذي ظهر بعد ثلاثة اعصر او اربعة من ظهور المسيح سوى مجموع هـذه الرسائل المكتوبة في ذلك الحين .

ولقد كان من اشهر المدن السوريه اعتباراً من مبدأ الدور اليوناني فيها مدينة « انطاكيه » التى انشأها « سه لوقوس نيقاتار » ودعاها باسم ابيه « انطيوس » حرمة وتبجلاً لهُ . وكانت مدينة دمشق مركزاً للقوافل . وكانت « تدمر » مدينة تجارية وهي من اشهر المدن السورية منذ ابتداء التاريخ الميلادي . ولقد كانت الحكومة العربية التى تأسست هنا تابعة بحسب الظاهر للدولة الرومانيه ولكنها مستقلة في الحقيقة . ومن ينظر في الآثار القديمة التى بقيت الى زماننا هذا يجد انها نتيجة الذوق العربي الممزوج بالطرز المعمارى الروماني . وهذه القصور العظيمة والمعابد الجسيمه دليل قائم على حياتهم السياسية الشريفه . ويعتبرون ان هـذا الدور كان من اسعد الادوار واحسنهـا على سورية وفلسطين . ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية عام ٣٩٥ انتقلت القطعة السورية الى حكم الدولة الرومانية البزانسية

قسم الامبراطور (آرقاديوس) القطعة السورية الى ثلاث ولايات : فجعل مركز الولاية الاولى (انطاكية) ومركز الولاية الثانية (اقاميه) وكان والى لولاية الثالثـه المجاورة لسواحل الفرات يقيم في مدينة «منبج» التى كانت تسمى في ذلك الحين (هيرابوليس) . وقسمت قطعة فلسطين الى ثلاث ولايات ايضاً . وكانت مراكز الولايات المذكورة (قيصريـه) (وسينوبوليس) و (بيسان) اما جهات فينيكه التىلم تدخل فيهذا التقسيم فقد جعلت ولايتين ايضاًوكان يقيم والي القسم الاول في صور ووالي القسم الثاني في دمشق . والحقت بالولايه الثانيه تدمر . وحمص وحمـاه والقلعة وامثالها . وسميت جهات حوران باسم (الولايه العربيه) وكان واليها يقيم في قصبة (بصرى) واقد ادت هذه التقسيمات التي كانت مفيدة من الوجهه الاداريه الى ضعف القوة الرومانيه وفقدانها مكنتها وسهلت لاعدائها الفوز والنجاح . فتمكن خسرو الثاني ملك العجم من الاستيلاء على القطعة السورية عام ٦١١ غير ان الامبراطور (هراقليوس) تمكن من استردادها بعد ١٧ عاماً

« العلماء السوريون الذين ظهروا في الدور الروماني » — ظهر في بيروت الاديب اللاتيني الشهير (مرقس ڤاليريوس پرويس) ونال شهرة عظمى في عالم الادب والخطابة وله آثار مفيدة في الفنون الادبية . ومن الذين ظهروا في بيروت (ثاودروس) احد مروجي مذهب افلاطون الفلسفي وكان (مالك) الصوري واسمه الروماني (پورفيرلوس) من عظماء رجال العصر الميلادي . وقد نبغ بالفنون المنطقية فعين استاذاً في مكتب روما ثقـة بفضله واقتداره . وكان مالك

هذا تلميذا للاستاذ «لونجينوس» السوري الذي كان يحسب اكبر رجل في فنون الادب والفصاحة. وعلاوة على هؤلاء فقد نبغ في سورية المؤرخ الدمشقي (نقولا) ومطران غزه (بمفيليوس) الذي اسس مكتبة عظيمة فيها و « كبروتس » راهب بصرى و « يوحنا » الذي لقب بفم الذهب لفصاحته وبلاغته. وغيرهم من العلماء والادباء.

٢ ــ القرون الوسطى

انتشار الاسلام في سوريا — قضى العرب حياتهم صابرين على الفقر والشدة في شبه جزيرة العرب منذ الادوار التار يخيه القديمه وقد اهمل شأنهم في تلك البراديات القاحلة الى ان كان زمن الرومانيين فاسسوا لانفسهم حكومات محميه في حوران والعراق وتدمر. وتنصر فريق منهم. ولقد كان العرب حتى ذلك الحين ينقسمون الى قسمين (قحطانيين) و (عدنانيين) ولكن الشقاق والنزاع لم ينقطعا من بينهما . ولما ظهر حضرة نبينا الكريم محمد رسول الله (صلى الله عليه و سلم) في جزيرة العرب اثناء دور الانحطاط لدولة روما الشرقية دعا العرب للتوحيد فآمنوا به واهتدوا بهداه واصبح العرب حينئذ رقباء مدهشين لحكومة استانبول. وفي وقعة (اليرموك) المشهورة التي حدثت في ايام خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه (٦٣٥ م) انبلج صبح السعادة والاقبال للامة العربية . و بفضل الجهاد الساطع فتحت جيوش الاسلام القطعة السورية في ثلاث سنين وطهرتها من البيزانسيين واصبحت سورية منذ ذلك الحين بلاداً اسلامية عربية

ولقد كانت اسعد الايام واسطعها نوراً على البلاد السورية ايام الدولة الاموية التي اسسها حضرة معاويه فقد ارعبت قواد الجيوش الاسلامية انحاء المعمور الاربعة حتى انهم تمكنوا من الاستيلاء على قسم مهم منها وفي ذلك الحين بدأت حياة الرفاه والرخاء وعيشة القصور وحب البذخ والمباهاة ببناء الجوامع والمعابد — تتأسس في نفوس الامة العربية التي كانت بعيدة عن الفخفخة والابهة

لا يمكن لاي مؤرخ ان ينكر على العائلة المالكة في الدولة الاموية حزمها وسعيها بنشر الدين الاسلامي حتى ان امراءها هم واضعو اسس المدنية الاسلامية . ولكن انهماك الخلفاء الامويين بملذاتهم وشهواتهم وتضحيتهم كل شيء في سبيل منافع انفسهم الذاتية وعملهم لايصال الاذى والضرر لآل بيت الرسول عليه السلام وخصوصاً في حادثة كربلا المؤلمة — اوجب نفرة الامة الاسلامية منهم وفتح في قلوبها جروحات لاتضمد فاصبحت الامة الاسلامية ميالة لزوال هذه العائلة المالكة ولقد زاد تثبيت الامة من اسعافها ثورة تقوم ضد الدولة الاموية — تلك الدماء البريئة التي سفكها الحجاج الظالم فهيأ ابو مسلم الخراساني الثورة المعلومة واظهرها من حيز القوة الى

حيز الفعل فانطفأ سراج العائلة الاموية وظهرت الحكومة العباسية في العراق عوضاً عن الشام

ولقد نبغ في زمن الامويين الشعراء العربيون المشهورون : الاخطل وجرير والفرزدق واشتهر خالد بن يزيد احد الامراء الامويين وصاحب اليد الطولى في علم الكيمياء وظهر الفيلسوفان يوحنا بن منصور وتلميذه ابو قره

اتسع في ايام الحكومة الاسلامية الجديدة نطاق المدنية الاسلامية وازهر غراسها واينعت ثمارها فظهر في عصر العباسيين الذهبي وخصوصاً في دور هارون الرشيد والمأمون علماء متبحرون في كل فن من الفنون واكتسبت الادبيات العربية حلة البهاء والفخر فتجلت بالطف مجالي الحسن الرقيق والفكر الدقيق والذوق اللطيف ولم تكن فنون الطبابة والفلسفة والهيئة والطبيعيات والرياضيات احط درجة عن سائر العلوم بل انها تقدمت واتسع نطاقها

لم ينجح العباسيون في خطتهم السياسية مثل نجاحهم في خطتهم العلمية والادبية فزعزعت سياسة الخلفاء العباسيين العوجاء وخطة القواد الغدارين السفاكين دعائم الخلافة في ذلك الحين فادت هذه الحالة الى النتيجة الطبيعية وهي ظهور التفرقة بين المسلمين عوضاً عن الوحدة فظهرت على الاثر حكومات قوية كالامويين في الاندلس والفاطميين في مصر والهمدانيين في حلب والسلجوقيين في الاناضول وسوريا

ومن الادباء والمورخين المشهورين الذين ظهروا في هذا العصر ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق وابن القلانسي الذي كتب تتمة تاريخ ابن عساكر وكمال الدين صاحب تاريخ حلب والفيلسوف الكبير ابو العلاء

الحروب الصليبية — ظهرت الحروب الصليبية في اواخر العصر الحادي عشر الميلادي فنجح رجال الكنيسة بتهييج النعرة الدينية في شعوب اوربا غير المتمدنة وارسلوا الجيش الاول لاهل الصليب فتولى قيادة هذا الجيش الذي جاء لمحاربة الحكومات الاسلامية المشتتة — القواد رءيمون امير طولون . وروبر دوق نور مانديا . وروبر كونت فلاندر . وغودفرواد وبوييون وامثالهم . فاستولى بودوين شقيق غودفروا على كافة القسم الشمالي من سوريا حتى آسيا الوسطى واستولى بوهمون على مدينة انطاكية وثبتت دمشق في دفاعها وقاومت الاعداء . ولقد سكر المسيحيون بخمرة هذا النصر الاول الفجائي فظهر الشقاق بينهم في ادارة البلاد التي اكتسحوها عوضاً عن ان يقوموا جميعهم باتحاد ووفاق بحسن ادارتها حتى ان هذا النزاع اكتسب دوراً حاداً في بعض الاحايين واعلن غودفروا نفسه ملكاً لاول مرة في القدس التي فتحت في ١٠ تموز سنة ١٠٩٩ ثم تولى بودوين الاول وبودوين الثاني بعد غودفروا ولقد كان عام ١١١٨ من اقوى ادوار السلطة للصليبيين في

سوريا حتى انه تأسست في ذلك الاثناء الجمعيتان الدينيتان Templier و Hospitalier اللتين كان لهما الخدمة الكبرى بانتشار النصرانية في سوريا ولقد انبعت الحكومات الجديدة في ادارتها خطة عدم المركزيه فاحدثت امارات في انطاكية · وطرابلس · وطبريا · ويافا · وعسقلان

كانت تظهر على هولاء الطغمة من النصارى آثار القوة المادية ولكن نظرياتهم وافكارهم السياسية كانت محدودة وضيقة للغاية · فبينما كانوا يضيعون اوقاتهم سدى بهجماتهم التي لم تجدِ نفعاً على الشام ظهر امامهم فجأة الامير « عماد الدين الزنكي » ووقف في وجههم بصولته وقوته · فاستولى الامير عماد الدين حاكم الموصل بشدته وسلطانه على مدينة الرها « ئه دس » وحارب في ذلك الحين « جان قومن » الثاني امبراطور البزانسيين وافتتح القسم الشمالي من سورية ولكنه لم يتوصل لنتيجة مفيدة سوى ازعاج الفرنجة · ولما توفى الامير عماد الدين الزنكي ترك لولده وخلفه « نور الدين » مملكة واسعة تضم القسم الاعظم من الموصل والعراق وسورية

وعلى اثر هذا الانتصار الاسلامي تألف جيش صليبي ثان وهاجم البلاد السورية ولكن الفرنجة لم يفوزوا بشيء في حربهم هذا من عام ١١٣٧—١١٤٩ وفضلاً عن ذلك فان الشاه نور الدين دخل دمشق واستولى عليها · وفي عام ١١٦٤ ارسل نور الدين الى مصر احد قواده المسمى شيركوره مع صلاح الدين الايوبي · فاستولى صلاح الدين بفضل ذكائه وشجاعته الخارقين للعادة على مصر خلال مدة قليلة · ولما توفى الشاه نور الدين الحق صلاح الدين القطعة السورية بملكه عام « ١١٧٣ » م · ولقد كانت انتصارات صلاح الدين الايوبي الباهرة ضربة قاضية على الفرنجة لان الجيوش الاسلامية الباسلة التي قاومت الفرنجة ووقفت امامهم هي الجيوش التي رتبها صلاح الدين وبعد ان هيأ القائد المحترم المشار اليه كافة ما يلزم من الاستحضارات هجم بكافة قواه على جيوش الفرنجة في صحراء « حطين » البعيدة عن طبريا مقدار ساعة فمزق شمل اعدائه وافنى جيوشهم · فاضطر الصليبيون عقب هذا الانتصار للانسحاب تماماً من فلسطين « ١١٨٧ » م · ولا يزال مؤرخو الافرنج يذكرون بالشكر والامتنان آثار الرحمة وعلو الجناب التي اظهرها صلاح الدين الايوبي بمقابلة الصليبيين الذين غلبهم ومزق شملهم

وعلى اثر استيلاء جيوش الاسلام على فلسطين والقدس تألف جيش ثالث لاهل الصليب في اوربا عام « ١١٨٩ » م · وقد انضم الى هذه الحملة اعظم ملوك اوربا واكثرهم اهمية وفي اثناء سفر الجيش غرق فردريك باربادوس الاول امبراطور المانيا في نهر سيحان حين وروده فيه · وقد تمكن الانكليز والفرنساويون الذين جاؤا مع هذا الجيش من الاستيلاء على قلعة « عكا » بعد حصار طويل · غير ان ظهور النزاع الشديد بين « فيليب اوكوست » ملك فرنسا و« رشار »

قلب الاسد ملك انكلتره . وقيام الجيوش الاسلامية سدًّا منيعاً وحصناً حصيناً في وجوه الصليبيين منع هؤلاء عن التقدم والتخطي وبقيت القدس في يد المسلمين . وانتهى الامر بعقد الصلح بين رؤساء النصارى وصلاح الدين الايوبي واتفق الطرفان على اعطاء النصارى قطعة من الاراضي ضيقة جدًّا واطلقت حرية النصارى بزيارة القدس . وبعد مبارحة جيوش الفرنجة لسوريا توفى صلاح الدين الايوبي فلم يقم احد من اخلافه بعمل جدي سوى الملك العادل ولم ينجح جيش الصليبيين الرابع الذي تجمع عام «١٢٠٤» ولكن تجارة ريزا وجنووه وونديك في ايطاليا ربحوا منهم اموالاً طائلة مقابل نقل جيوشهم فى البحر . وبسبب اصرار البابا وتهديده تألف جيش صليبي آخر تحت قيادة فردريك الثاني امبراطور المانيا وهاجم سوريا فاستولى على مدينة القدس بموجب معاهدة عقدت لمدة عشر سنين قضى بها الخلاف الذي كان قائماً بين الحكومات الاسلامية فى القطعة السورية « ١٢٢٩ » . ولم ينل الجيش الفرنساوي الذي جاء لهذه الغاية عام ١٢٤٠ سوى دفن شبان فرنسا فى اراضي فلسطين . لقد اصيب الملك « سن لويس » بالنتيجة ذاتها فى هجومه الذي قام به على تونس بعد ثمان سنين من هذا التاريخ

وفى النصف الاخير من العصر الميلادي الثالث عشر ظهرت مقدمات التبدل الاساسي في عالم السياسة السورية فقد كان امراء المسلمين يبتاعون غلماناً باسم « المماليك » واكثرهم من الاتراك ويستخدمونهم في قصورهم . فاكتسب هؤلاء المماليك تدريجاً قوة وسلطة حتى ادى بهم الحال اخيرًا الى الاستيلاء على ادارة الحكومة في مصر . ثم هاجم « ايبك » مؤسس هذه العائلة المالكه البلاد السوريه مرارًا عديدة فاخذها من يد الايوبيين . وصادف في ذلك الحين تقدم هجمات « المغول » نحو هذه البلاد

ولما استولى هولاكو على مدينه حلب عام « ١٢٦٠ » اطلق النهب والسلب في سوريه لمدة موقته . ثم تمكن السلطان « قوطوز » احد المماليك من استرداد القطعة المذكوره بمعاونة القائد « بيبرس » وبعد مدة قليلة عصى « بيبرس » امر سيده واعلن استقلاله في سوريه واستولى على قيساريه وارسوف . وصفد وبيسان وانطاكيه . وتوفى « ركن الدين بيبرس » الذي نرى اليوم اسمه محفورًا على اكثر الآثار الاسلاميه القديمه عام ١٢٨٧م فجلس ابنه على عرش ملكه . ولكن لم يمض عليه مدة قليلة حتى خلفه القائد المنصور سيف الدين قلاوون . وقد استرد هذا الامير الشهير الذي نقش اسمه على جدران الاثار القديمه في الشام كافة السواحل السوريه من الفرنجه ما عدا بعض القصبات . ثم اجبر الفرنجه على اخلاء هذه البلاد مع قلعة عكا واعادها الى المسلمين عام « ١٢٩١ » م

٣ ــ القرون الاخيرة

لم يشتهر في الحروب الكثيرة التى حدثت اثناء العصر الرابع عشر للميلاد اسم رجال يذكرهم التاريخ او يشير اليهم ولكن هجمات تيمورلنك المدهشة التى استولت على الشرق الادنى فى عام ١٤٠٠ بدلت الحالة العمومية فى سوريا وقذفت بها الى الهوات المهلكة فقد نفى تيمورلنك الى سمرقند قسماً كبيرًا من العلماء والمتفننين وصناع الاسلحة فى الشام

وفي عام ١٥١٦ حصلت وقائع حربيـة بين العثمانيين والمماليك فغلب السلطان سليم جيوش مصر في مرج دابق شمالي مدينة حلب وفاز في مدة قليلة فاستولى على كافة سوريا

وفى اوائل العصر السابق (١٧٩٩) جاء القائد الفرنساوي المشهور «بونابرت» بجيشه من مصر لفتح البلاد السورية فانتصر على العثمانيين فى المحل الذي تقوم به قرية عفولة اليوم فى سفح جبل الطابور وتمكن من التقدم الى مدينتى صفد والناصره و بفضل مقاومة جزار باشا والي ايالة صيدا فى ذلك الحين و بمعاونة الاسطول الانكليزي لم ينجح بونابارت فعاد من حيث اتى

و بسبب سياسة عبد الله باشا نجل جزار باشا والى عكا وعناده هجم محمد علي باشا والي مصر عام ١٨٣١ على القطعة السورية بجيشه المنظم واعلن الحرب على متبوعه الحكومة العثمانية وبمعاونة الامير بشير حاكم جبل لبنان استولى ابراهيم باشا الولد المعنوي لمحمد علي باشا على مدينتي عكا والشام ثم انتصر على الجيش العثماني فى حمص و بيلان ودخل الى البلاد الاناضولية و بمداخلة الدول المعظمة سلمت اداره القطعة السوريه لوالى مصر

وفى عام ١٨٣٩ تراخت العلائق ثم انقطعت بين الحكومة العثمانية ومحمد علي باشا فتلاقى جيشا الطرفين فى صحراء «نزيب» ورغماً عن انتصار الجيوش المصرية فان القطعة السورية اعيدت الى الامبراطورية العثمانية بمداخلة الدول المعظمة وعلى عقب الوقائع التي دون التاريخ وقوعهـا عام ١٨٦٠ اعطيت الادارة الممتازه لجبل لبنان وقد ظهرت اخيراً مضرات الطرز الاداري المذكور فالغي الامتياز تماماً عام ١٩١٦

ــ ١٦ ــ

الآثار العتيقة فى سوريا

اشادت اكثر الحكومات الكبيره التى تمكنت فى القطعة منذ قبل التاريخ مبانٍ عظيمـة ونقشت رسوماً بديعة واقامت هياكل متنوعة فى كثير من المحلات فى القطعة السورية ولكن

تعاقب الحروب وجهل سكان سوريه وعدم اهتمامهم بالآثار التاريخية درس قسماً مهماً من الآثار القديمة فيها . ولا ريب انه اذا بحث احد المتخصصين في انحاء القطعة السورية يجد فيها آثاراً قديمة نفيسه. ويرى القارئ اننا نصنف هنا الآثار العتيقة على حسب ادوارها التاريخيه ونبذل الجهد لبيان ماهيتها التاريخيه :

آثار الازمنة قبل التاريخ — يوجد في جبال سورية كثير من المغارات الطبيعيه والصناعية التى اتخذتها الاقوام القديمة مساكن لانفسها . ويحتمل ان تكون المغارات القائمة في جبال حوران وفي قرية (بيت جبرين) على طريق غزه وخليل الرحمن من آثار الازمنة قبل التاريخ. ويرى في هذه المساكن القديمة الواسعه ان سكانها الاقدمين نحتوا حجارتها بكل مهارة بآلات حديدية . وقد عثر الباحثون في الحفريات التي اجريت في محلات عديدة من سورية على سكاكين ومقصات ومقاطع « بالطه » مصنوعة من الصوان . وفي اكثر متاحف اوربا وفي متحفى الكليتين الاميركيسة واليسوعية في بيروت شيء كثير من هذه الآلات الاوليه

زمن الكنعانيين — تبدأ الآثار التاريخيه من هذا الزمن . فمن هذه الآثار القديمة مدينة (اريحا) القديمة المبنية بالاحجار الجسيمة . وقد قام بكشفها في المدة الاخيرة عدة علماء نمساويين . و يوجد في الجهة الشرقية من وادي الشريعه وفي حوالي الكرك الآن ابنية قديمـة صنعت من الاحجار وكان يقطنها الموآبيون . ويستدل من هذه الآثار القديمة على ان عبادة الاحجار كانت منتشرة في سورية . ومن الادلة الظاهرة على ذلك وجود خوانات مصنوعة من الحجر وهي التى كان القدماء يستعملونها لتقديم القرابين ولعرض موتاهم وتشهيرها . ويوجد في شبه جزيرة سينا كثير من هذه الهياكل . ومن هذه الآثار العتيقة العائدة لهذا الزمن المغارة التى دفن فيها ابراهيم الخليل واسحق ويعقوب عليهم السلام . وكذلك العقد الذي اشاده يعقوب عليه السلام بالقرب من نابلس

زمن المصريين القدماء — لما استولت فراعنة مصر على القطعة المصرية كانت سورية تقلد آثار المصريين وابنيتهم . فاقام السوريون في قصبة جبيل من اعمـال جبل لبنان هيكلين لاعظم آلهة المصريين « ايزيس » و (اوزيريس) ويجد الباحث في انحاء سوريه كثيراً من الهياكل الدينيه والمحفورات العائدة للمصريين . ومن ذلك هيكل « رعمسيس » الثاني احد فراعنة مصر المشهورين القائم بالقرب من مدينة بيروت . فقد حفر هذا الاثر التاريخي في الصخور المطلة على نهر الكلب وهو يمثل فرعون منتصباً بقيافة الآلهة وذلك في العصر الرابع قبل الميلاد . وفي اسفل الهيكل كتبت فتوحات فرعون بالتفصيل

زمن الهيتيتيين — كان الهيتيتيون الذين استولوا على الاناضول في الازمن التاريخية القديمة قد جاءوا

الى سورية في احدى الازمنة واسسوا فيهـا عدة مدن . ومن تلك المدن قصبة « القدس » في جوار حمص « وكوكميش » بالقرب من قرية جرابلس الآن . وقد بحث الانكليز والالمان في المدة الاخيرة في قرية «جرابلس» واخرجوا منها آثاراً قديمة كثيرة . ويظهر من تدقيق هذه الآثار ترقي الهيتيين وتقدمهم في المدنيه . ولكن الكتابات التى عثر عليها الحافرون لم يمكن قراءتها حتى الآن

زمن اليهود — انتقلت الى العبرانيين الصناعة المعارية من الفنيقيين الذين كانوا يقلدون تماماً صناعة المعارين المصرية . وقد استخدم داود وسليمان عليهما السلام البنائين ابناء السواحل حين اقاما القصور والمعابد . فاليونانيون قد اشتهروا باقامة الاعمدة في بناياتهم . اما الفينيقيون فكانوا يخالفون ذلك كثيراً فيستعملون في ابنيتهم الصخور المنقوشة . ولهذا كانوا محكومين في ابنيتهم وفي ترتيباتها لمقادير لوازمها واجناسها . ومن يمعن النظر في الابنية التى اشادها العبرانيون يجد انهـم كانوا يستعملون الاحجار الضخمه و يرتبونها على بعضها بدون كلس او طـين « مونه » ويعتنون بتحديد اطرافها وتسنيمها بصورة منتظمة جداً

ومن آثار اليهود المعروفة اليوم آبار الملك حزقيا . وحوض سلوان واورشليم وحصون سوريه وبرج انطونيا وقبور سلوام المنحوتة في ابيشالوم وبرقيا في جوار القدس

زمن الآثوريين — اقام الاثوريون مثل المصريين نموذجات كثيرة من آثارهم في سورية . ولقد نقشوا على صخور نهر الكلب بالقرب من بيروت عدة رسوم للوك بابل واثور بجانب هياكل الفراعنة . ويعرف من بين هذه الرسوم رسوم الملك (اسرحدون) . وقد اكتشفوا في جبل اكروم في الغرب الجنوبي من قصبة حمص هيكلاً يمثل ملكاً اثورياً يصـارع الاسد . واكتشفوا في وادي (بريسته) على نقوش وكتابات آثوريه كثيرة

زمن الفينقيين — ذكرنا قبلاً ان المصريين والبابليين كانوا اساتذة الفينقيين ولكن لا يصعب علينا ان نجد لهؤلاء صناعة خاصة بهم . ويكفينا لاثبات دعوانا مانجده من الآثار الفينيقيه القديمة في انحاء كثيرة من سوريه ولبنان . مثل هيكل كفور كسـروان الذي يمثل الواقعة الخرافيه التي جرت بين عشتروت وتموز معشوقة (آستارته) ومثل هياكل جبيل وصنين وصيدا الخاصة بعبادة بعل

زمن اليونانيين والرومانيين — كانت علوم اليونانيين والرومانيين وفنونهم معروفة وظاهرة في البلاد السورية قبل استيلاء اسكندر الكبير عليها واذا صح الادعاء بان الشرق اهدى طراز « ايوني » المعاري للبلاد اليونانية . فان هذه البلاد اهدت الشرق التزيينات اليونانية المعارية وصناعة الجفصين . ويوجد في البلاد السورية آثار يونانية كثيرة

ومن آثار اليونانيين القديمة التي اكتشف عليها آثار ام العواميد في (رأس العين) بالقرب من

قصبة صور . والآثار القديمة النفيسة التى اكتشف عليها العالم الشهير المرحوم حمدي بك مدير المتحف السلطاني في قبور الملوك في صيدا فرفع بها درجة المتحف في استانبول وزاد في قيمته (١)

ولقد ترك الرومانيون اثاراً لهم في عدة مواقع من سوريه . حتى ان الطرق العسكرية الرومانية الواصلة لاقصى البلاد لاتزال مشاهدة في بعض الاماكن

وقد زين (هرود) الكبير ملك اليهودية بلاده بالمباني التي كان يقيمها على الطراز الروماني تحبباً للرومانيين وتزلفاً لهم . ولما اخذ الرومانيون باستعمار سورية (وخصوصاً ايام الامبراطور تراجان) اقاموا فيها عدة مدن وقصبات تماثل المدن والقصبات الرومانية . ومن اظهر العلامات الفارقة لهذه المدن — العواميد التي كانت تقام صفوفها من باب المدينة ومدخلها حتى منتهاها . وكانوا يقيمون في انحاء المدينة المعابد والحمامات والملاعب وغيرها من المباني العمومية . وليست تدمر وبعلبك وجرش وخرابات بترا التي نحتت في الصخور سوى مدن رومانية انشئت في العصر الميلادي الثاني حين اخذت الصناعة الرومانية النفيسة بالانحطاط والتأخر

اما بنايات المعابد اليهودية التي اقيمت في غاليلة في العصرين الثالث والرابع الميلاديين فقد كانت خلاف سواها من المباني لانها كانت تقام على قاعدتين مدورتين في منتهى الجهة الشمالية الداخلية . وتسقف بالاخشاب . وكانت رسوم الحيوانات التى تنقش على جدرانها تستجلب الانظار وتستلفتها

وان كنيسة بيت لحم الكبرى وكنيسة القيامة التي تبدل طرازها بعد هذا — هما من آثار الامبراطور البيزانسي (جوستينيان) . وان جامع سبسطيه بالقرب من نابلس . والمعبد الذي اكتشف عليه اخيراً في سوق (البازركان) في بيروت اثناء الهدميات التي اجريت لتوسيع الطرق في المدينة — هما كنيستان اقامهما الملوك البزانسيون في ذلك الحين

زمن العرب — كان طرز البناء في ازمنة العرب الاولى مؤلفاً من الطرز اليوناني . فكانت المشابهة تامة بين بناء العرب وبناء المسيحيين . ويظن انه لما اشيد جامع عمر في القدس نظر بانوه في مصورات كنيسة القيامة وساروا على شيء منها

وبعد اشتغال العرب مدة من الزمن بفتح البلاد ونشر الدين الاسلامي فيها اخذوا يصنعون اشكالاً وطنية جديدة للرسوم والنقوش التى استعاروها من البزانسيين وانتهى الامر بتعديلاتهم هذه الى اتخاذ قواعد اساسية في هذه الصناعة . ولقد اخذ العرب يجعلون القبب التي كانت معروفة

(١) وسنشرح بالتفصيل هذه الآثار النفيسة حين الكلام عن احوال صيدا

حينئذٍ في سوريا وفي اوربا على شكل بصلي برأس محدد متوجه نحو السماء وكانوا يزينونها من الداخل بكثير من الزوايا بصورة المسلات . ثم اخذوا بعد هذا يستعملون في قصورهم وجوامعهم الاقواس التي اخترعوها بشكل النعل البيضوي . واهتم البناؤون العرب في مصر بالفروع اكثر من الهيئات العمومية فكانوا يعتنون بالنقوش والتزيينات . ولهذا لا يمكن ان نجد مشابهة ووحدة تامتين في المعابد والقصور التي زينت تمام الزينة على الطريقة العربية . وان الطراز العربي في البناء هو اختراع شخصي للبنائين العرب لم تسبقهم اليه امة من الامم . وحين استولى العرب على سورية وضعوا يدهم على كثير من المعابد والمباني . وبشيء قليل من التعديل امكنهم استعمالها كيفما يشاؤون ولهذا كانت آثارهم النفيسة التي اشادوها مباشرة في هذه الانحاء هي اقل من آثارهم التي اقاموها في الاندلس وفي غيرها من البلاد الاسلامية المفتتحة . ويحسبون المسجد الاقصى والجامع الاموي اللذين اقامهما الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك من آثار العرب النفيسة . وعلاوة على ذلك فـان مستشفى الشام والجوامع والمدارس المتعددة التي انشأها الفاطميون في الشام ومصر . وقلعتي بعلبك وحلب اللتين انشأهما (بيبرس) — هي من الآثار العربية الجليلة . ومن اراد الوقوف على زيادة تفصيـل في هذا الموضوع فعليه بمراجعة كتاب (تاريخ مدينة العرب) تأليف الدكتور « كوستاو لوبون »

القلاع والكنائس في القرون الوسطى — يوجد في سورية وفلسطين قلاع كثيرة بقيت من ايام القرون الوسطى . وقد انشأها العرب او الصليبيون الذين حاربوا العرب في ذلك الحين . وقد اقام الصليبيون في داخلية سورية وسواحلها اربعين قلعة ومن اشهر تلك القـلاع . قلعة حمص والمرقب وحصن الاكراد وبيروت وجبله والكرك وصهيون

ويمكن تقسيم الكنائس التي اشادها الصليبيون الى صنفين . فالمعـابد التي اشادوها ما بين عام ١٠٩٩ و ١١٨٧ م تؤلف من ثلاثة مداخل متساوية وجناحين وثلاثة محاريب متلاصقة . واما الدوائر البيضية فهي قائمـة في كل ناحية من انحاء البناء وهذا هو الصنف الاول من تلك المعابد . واما الصنف الثاني وهي الكنائس المنشئة في العصر الثالث عشر الميلادي فجميعها مبني تقريباً في السواحل السورية على الاسلوب الفرنساوي في ذلك الزمن . غير ان سقوفها مستوية وغير مدوره ولم يقلدوا طرز البناء الاسلامي بالدوائر البيضية التي كانوا يقيمونها فيها ولكنهم قلدوا طراز البناء المسمى «غوتيك» الذي كان مبتدأ في اوربا

التدقيقات والتتبعات المحليه

— ١ —

نابلس

١ — منظر نابلس . ووضعيتها الخارجية

تقوم قصبة نابلس على وادٍ بين جبلين . وهما جبل العبال او جبل السليميه القائم على جهتي الشمال والشمال الشرقي من القصبة . والآخر جبل غاريزيم او جبل الطور القائم على جهتي الغرب والجنوب الغربي .

اما الجهة الشرقية الجنوبية فانها اكثر ارتفاعاً من بقية اقسام القصبة القائمة في الوادي . واما الجهة الشمالية الغربية فانها منحطة .

لاتتصل الدور القائمة في سفح جبل العبال ببعضها . وبهذا الاعتبار فان بقية دور القصبة يضمها جبل غاريزيم بين جناحيه

ان قصبة نابلس التي تبدأ من الشرق وتنتهي بالجهة الغربية بعد ان تنحط قليلًا في الجنوب الشرقي قد تراكمت على بعضها بشكل منعطف جبلي فشلت شبه القطع الناقص ويمكن ان يقال عن منظرها انها محدودة وضيقة اكثر من كل بلدة . وليس لبلدة نابلس منطلق فسيح سوى جهة الغرب الشمالي فان هناك اراض واسعة وممتدة على طول الوادي

ويمكن للناظر ان يشاهد من هذه الباحة الفسيحة مناظر بديعة جداً فيرى منظر الشمس تندلق من بين اللهيب الابيض ثم ترى عن بعد قرصاً من النار الحمراء . ثم يراها تدفع بنفسها في قلب البحر اللاجوردي القاتم فيتمزق شملها بشكل حرائق ارجوانية

اما جهات (بلاطه) و (عسكر) البعيدة فهي مطلع الشمس البديع . ويمكن ان يقال ان غروب الشمس وطلوعها هما صحيفتان من صحائف الطبيعة التي منحتا لنابلس . وقد جمعت فيهما الطبيعة كافة مظاهرها

حولت المياه التي تجري في الوادي بين الجبلين تلك الاراضي الى حديقه طولانيه الشكل زمردية اللون بلا انقطاع . ولهذا ترى الابصار التي حرمت الاستفادة من التمتع بمشاهدة محاسن الطبيعه في انحاء نابلس تتجه الى هذه الجهة لتتروح قليلًا بتسريح النظر في هذه المروج الخضراء

ومع هذا فان تسريح النظر في مشاهدة بيوت القصبة الحمراء بآجرها . البيضاء بجدرانها . الكثيرة الالوان بنوافذها الممتدة من سفح جبل غاريزيم الى شواهق جبل عيبال المناطح للسماء . مع تلك الاشجار الخضراء — منظر لا يهمل بل يجب ان لا يهمل ويترك

ومن المناظر الجديرة بالاهتمام الانتقال الى الضفة الاخرى من هذا الوادي ومشاهدة جبل غاريزيم من بين الاشجار الخضراء وتسريح النظر في سفوحه وفي هيئة نابلس العمومية . ولا ريب ان كومة من الاحجار المتكاثفة القاتمة اللون لمرور الزمان هي استحالة اشيخم [Sichem] القديمة . ولفلاويانيابوليس [Flavia-Néapolic,] بل هي رمز معنوي لقصبة نابلس منذ مائتي سنه . ولا يتصور ذوق الطف من مشاهدة البنايات الجديدة التي تلمع وسط تيار براق من التجدد في الجهة الغربية . ولا ابدع من تمتيع البصر على ذروة جبل الطور البديعة ذلك الجبل الذي البس تلك الابنية تاجاً زمردياً جميلًا

اذا تسلقت جبل غاريزيم بسرعة الطير واطليت من موقعي (العراق) و (المائده) تشعر بذوق لطيف في مشاهدة انزواء نابلس من عل

واذا خرجت الى ذروة جبل الطور تزول من امامك كافة الموانع والحواجز التي تحبس النظر وتوقفه عند حد . وتفتح لك الجهات الاربعة الشرق والغرب والشمال والجنوب صدرها الرحب فترى من هناك جبل الشيخ والكرمل والبحر وقرى بيت جان ورجيب عورتا وبلاطه وعسكره وتمتع فكرك بمشاهدة مزارعها الزمردية . وتتجلى امامك حينئذٍ قصبة نابلس بشكل قطع ناقص حجري قد قامت فيه الحدائق مقام نقاط المحراق

٢ — داخلية نابلس

[١] اتساع القصبة وابنيتها — ان قصبة نابلس التي تضم اكثر من عشرين الف شخص هي بلدة عظيمة تقريباً تحتوي على خمسة آلاف او ستة آلاف دار . ويخمن طولها من الشرق الى الغرب

ب ١٤٠٠ متر وعرضها ب ٥٠٠ ولا يمكننا ان نحمل التناقض الغريب وعدم الاطراد في الابنية القائمة في هذه القصبة منذ سنين عديدة — الا على مجاورة ذوق التجدد المهيأ للظهور والانكشاف لتلك الفكرة القديمة الراسخة . ولكن الظاهر ان فكرة التجدد ستغلب جارتها القديمة . ومن جميل المناظر ان نرى طفل صنعة لطيف جداً يلد من هيكل عظمى دس في التراب بعد سعال مديد ادى به الى الانحلال

ويمكن ان يقال على وجه العموم ان القصبة لا تزال ظاهرة في دورها القديمه . فالدور القديمة هنا هي عبارة عن منشور حجري . نوافذها قليلة وضيقة . وسقوفها مكلسة على الغالب . قد تلاصقت ببعضها الدرجة ان الضياء والهواء لا يجدان طريقاً للنفوذ فيها . ولهذا لا يمكن ان يوجد بين الدور فسحة صغيرة . او جدار . او سياج . او شجرة . حتى ان الازقة التى تؤدي الى الدور هي عبارة عن انفاق سوداء قذرة متعفنه . ويوجد بعض من الدور ذات طبقتين . وليست الطبقات السفليه سوى خرابات مظلمة ترابية . تتساقط من جدرانها المياه وغيرها من الترشحات المضرة ولا يحسبن القاريء ان الطبقات العلويه احسن من السفليه . ولكن يوجد بين دور نابلس محلات اشادتها الثروة الجديدة بكل اهتمام . وترى هذه الدور القديمه الممتازة قد فرشت الطبقة السفلى منها بالاحجار المالطيه او بالمرمر . واقيم في وسطها حوض صغير يتدفق منه الماء الزلال وقد صنع من المرمر اللطيف . وامام الحوض غرفتان او دائرة ويطلقون اسم « ديوان » على الهيئة العمومية لهذه الحالة

اما الدواوين فهي منفصلة تماماً عن مآوى النساء ومختصة بقبول الزائرين من الرجال . واما محلات النساء فهي اما ان تكون ملاصقة للديوان او فوق غرف الديوان وللنساء مداخل لا يمكن ان يراها القاعدون في الدواوين

ومع هذا فان الدواوين وغرف النساء على شكلها وبناياتها القديمة ليست سوى اقفاص ذات ارواح او سجون خفية جعلت لتسجن فيها اجسام النابلسيين

ومن المسائل التي تستلفت النظر الاستطالة نحو الغرب او الشرق في تلك المغارات الصغيرة والكبيرة التي تشغل المحلات الوسطى من نابلس . وتوجد عدة ابنية على هذا الشكل هي اكبر من السجون ايضاً . فهي اشبه بقلعة كبيره او باستحكام عظيم ناطح السماء بعظمته وغروره فحق ان يكون ملجأ ومأوى لاحد امراء الفرنجة القدماء « شواليه » وقد كان الاعيان من نابلس يقيمون في هذه القصور الثقيلة الشكل المبنية على عدة طبقات والتي يبلغ ارتفاعها من الامتار ما يزيد على مراتب العشرات . وهي تنطق بلسان فصيح ان في كل حجر من احجار اطفالها الدور

القائمة في جانبها صوتاً مرتفعاً يشكو انتهاك حرمته وسلب حقه . وكلما القيت نظرك على هذه القصور تسمع منها اصوات الانين والشكاية الخارجة من اعماق قلوبها ومن بين ضلوعها باسم السعادة التي لا تحل فيها

امتلأت الجهات الشماليه والشرقيه والجنوبية والغرب الشمالي من القصبة بالبيوت المنشأة على الطرز الحديث تماماً . واكثر الدور في هذه الجهات ذات طبقتين . وقد سقفت بالقرميد . ورغماً عن قلة « البانجور » في نوافذ الابنية وعن صغره فانه لطيف جداً . ويغلب ان يفرق بين هذا لانواع من الدور اشجار خضراء لطيفه . ويفرق بين الحدائق جدران مبنية من الحجر الابيض المطلى بالكلس .

وليس شيْ اكثر من الاحجار في قصبة نابلس المحاطة بالجبال من اطرافها وفي المحلات القريبة منها . ولهذا فان البيوت الجديدة مبنية من الاحجار مثل البيوت القديمة . ويوجد بين هذه الدور محلات كبيرة جداً قد صرف عليها الوف من الليرات ولكنها رغماً عن جميع هذه المصارف قد جعلت طبقاتها السفلى على وجه العموم راطبه عفنة قاسية . فالسقف في الطابق السفلى مبني من الحجر على شكل قبة قائمة على عواميد ثخينة وثقيلة . حتى كادت تلك المجالات المنبسطة التي تقوم فيها الاعمدة اشبه بممر كنيسة . او بغرف ارضية لسجن خفي — اكثر مما تشبه باحة داخلية في دار ويظهر من هذا ان النابلسيين لايتضايقون من حبس ارواحهم تحت جدران ثقيلة ومنفوره

ويستثنى من ذلك بعض الابنية التي خففت شيئاً من هذه الثقالة الصناعية ومن ذلك (النزل الالماني) .

وفي نابلس كثير من المباني العمومية رسمية كانت او خصوصية . ومن جملتها دار الحكومة والجوامع الشريفه والكنائس والمعابد والمكاتب الرسميه والاجنبيه . والمستشفيات . ولا ننسى برج الساعة . واذا استطلت في الامر تحسب في عداد ذلك مصانع الصابون والحوانيت ايضاً

يقوم بناء دار الحكومة في وسط المدينة . وبناؤها اشبه بدار غير منتظمة اكثر مما هي دار للحكومة وخصوصاً السجن فانه لا فرق بينه وبين مغارة تحت الارض . وفي نابلس عدة مساجد عدا عن الجوامع التى بقيت من ايام جوستينان مثل (الجامع الكبير) و (جامع النصر) و (جامع الخضراء)

وللشعوب المسيحية التي تعيش في نابلس ولايربو عدد نفوسها على الالف — كنائس خاصة بها في الجهة الغربية من المدينة . وللسامريين في الجنوب الغربي من القصبة معبد خاص بهم

يسمى (كنيسة السمراء) . ومما يستلفت النظر باللطف والظرف بناء (المستشفى الوطني) الذي اشيد في الجهة الشرقية من القصبة باعانة الاهلين . اما (برج الساعة) فهو قائم امام دار الحكومة في باحة صغيرة وضيقة . وهو عار عن التزيينات وعن الصناعة المعمارية

واما مصانع الصابون فليست اكثر من خرابات كبيرة قذرة ليس لها نوافذ . مملوءة من داخلها بالحفر المظلمة والبراميل السوداء . وقد استولت عليها روائح الصابون وزيت الزيتون الحادة

ويبلغ عدد حوانيت القصبة المئات . وهي قائمة في الجهة القديمة من القصبة على طريقين متوازيين بترتيب وهي مطلية من داخلها بالكلس ويغلب ان تكون ابوابها من تراب واغطيتها من خشب . اما قذارتها وانحطاطها فمما يستلفت النظر . ولقد كتب عليها اسماء اصحابها في تعاليق من البلور . واضيف على جميع هذه كلمة (عثماني)

[٢] — اللوازم والامتعة البيتية — من السهل معرفة قواعد الفرش في ابنية نابلس سواء كانت الدور مبنية على الطرز القديم او الحديث ويغلب على الساكنين في البيوت المحافظة على القديم . فهم يحافظون على ما تركه لهم آباؤهم ويرون الاكتفاء به والمحافظة عليه . فطراز الفرش المتبع في عموم الشرق متبع ايضاً هنا . فترى في وسط الغرفة حصير او سجادة . وفوقها طراحة تقوم احياناً مقام الفراش للنوم . ومن وراء ذلك مخدتان او اكثر . واذا كانت الحالة مساعدة زادت مفروشات الغرفة مرآة او خزانة صغيرة . وعدة قناديل وفناجين صينية وصحوناً وكاسات ومبخرة وقمقماً . ويعلقون في الجدران لوحات كتب فيها شيء من الآيات الكريمة بخط كبير ... وهذا كافة ما هو متبع من الاصول بفرش الدور

ومع هذا فان الدور التي فرشت على الطريقة الشرقيه لا تفقد منها آثار التجدد احياناً فترى ان المقاعد مرتفعة قليلاً . وفي الغرفة كرسيان او اكثر . وفي وسطها خوان . وربما يرتقون في الاتقان فيزيدون سريراً على مفروشات الغرفه . ولكنهم لا يتركون القاعدة المتبعة عندهم من حيث النوم والاكل في غرفة الجلوس

ويمكن تلخيص الطريقة المتبعة بتفريش دور نابلس على وجه العموم بقولنا : « ان دور نابلس تحب ان تتفرنج »

ولكن يجب علينا ان نعترف بانها لم تقدر ان تتفرنج بشكل من الاشكال . اذ يظهر لاول وهلة ان النابلسيين يتصنعون ويتكلفون اضطراراً في تفريش دورهم فترى في الغرفة التي تدخل اليها خزانة بمرآة ومزهريات وكراس طويلة ومقاعد هزازة وخوانات ومقاعد على الطرز الحديث حتى انك لتجد فيها ايضاً مقاعد ارضية . واسرة وثريات . وحاصل القول انك تجد

فيها كل شيء . لا تجد الا فرقاً قليلاً بين هذه الغرفة بما فيها وبين مخزن لمبيع الامتعة . وليس الفرق سوى نظافة الموجودات في المخزن ... وعكسه في الغرفة . والاغرب من ذلك انه رغماً عن الكلفة وكثرة المصارف في تفريش الغرف فان كثيراً من نوافذها تبقى بلا ستائر . وزد على ذلك فان مكنسة الدار تعرض شكلها على الزائرين للغرفة وهي واقفة وراء الباب ...

واذا كان يوجد شيء من الترتيب في اصول التفريش في نابلس فهو الطراز القديم المتبع . فترى حوض الماء المبنى من المرمر . ومن حوله مقاعد مرتفعة قليلاً وقد جعلت من المرمر ايضاً فيفرش النابلسيون على هذه المقاعد السجاد . ويعلقون في سقف الديوان فانوساً كبيراً بزنجير . ويجلسون فوق هذه المقاعد ويستعملون (الاراكيل) ذات (النباريش) الطويلة تحت اشعة ضئيلة يرسلها عليهم الفانوس المعلق . فلا ترى في ترتيب هذه المجالس تصنعاً اوكلفة . ونزيد على ذلك ان النابلسيين يتغالون باملاء دورهم بالاشياء والامتعة التى يشترونها وهم ميالون الى ذلك باسراف تام . ولا تقتصر هذه الحالة على الاسر الكبيرة بل هي سارية للاسر الصغيرة ايضاً . حتى انك لتجد في مطابخ افقر الاهلين شيئاً كثيراً من الاواني النحاسيه . وهكذا لوازم خوانات الطعام . اما الاغنياء منهم فقد اصبحت هذه الحالة علةً وداء بينهم

وبهذا الاعتبار فان بيوت الاغنياء في نابلس حانوت نحاس ومخزن بلور ومعمل نجـارة ولايقتصر الاغراق والمغالاة على مسائل المقتنيات البيتيه . بل ترى هذه العلة سارية ايضاً عندهم في جمع الذخيرة والحبوب فانهم يجعلون دورهم انبار مأكولات . وينصرف حرصهم احياناً لجمع الدراهم حتى انهم يتباهون بان دورهم اصبحت حانوت صراف او كنز معادن واحجار كريمة

[٣] — محلات القصبة وازقتها — يوجد في نابلس ستة محلات كبرى وهي (حارة الحبلة) في شمالى القصبة وتحتوي على الدور القائمه في سفح جبل عيبال وفي القسم الواقع في شرقى الوادي . وفي منتهى الشمال من هذه المحـلة تقوم دور نابلس التي بنيت اخيراً على احسن طرز صحي موافق . ويجد الداخل الى نابلس من طريق القدس في الجهة الشرقية والشرقيـة الجنوبية من القصبة (حارة القيسارية) . وهذه المحلة تأتي بعد (حارة الحبلة) باعتبار وسعتها وجسامتها

ويسمون المحلة التي تمتد من محلة الحبلة الى جبل غاريزيم اي في الجهة الجنوبيـة من القصبة (حارة العقبه) ويطلقون على المحلة القائمة في وسط القصبة والملاصقة للوادي اسم (حارة القريون) وسوق نابلس قائم ضمن هذه المحلة . ويسمون القسم الممتد نحو جبـل غاريزيم من هذه المحلة باسم « حارة الياسمينه » . وتقوم هذه المحلة في الجهة الغربية من القصبة . والمحلات الاخيرة هي اصغر من المحلات الاولى . وتقوم دار الحكومة بين (حارة القريون) و (حارة الياسمينه)

ويطلقون على مجموع الدور في الجهة الغربية والشمالية الغربيـة من نابلس اسم « حارة الغرب » او « الشويتره » وفي قسمٍ من هذه المحلة يسكن المسيحيون . اما السامريون فانهم يسكنون « حارة الياسمينه »

واكثر المحلات عمراناً وترقياً محلة « الشويتره » . فان الدور الكبيرة والنزل . والمستشفيات ومحلات العبادة وحديقة البلدية قائمة في هذه المحلة . اما محلات « قريون » والعقبة والياسمينه فانها اصبحت قسماً واحداً بسبب الجدران القديمة التي تصلها ببعضها . ولهذا القسم بابان قديمان احدهما في الشرق والثاني في الغرب . ويسمون الباب الشرقي « الطريق الشرقي » ومنه تبتدأ جادة القدس . ومن الباب الغربي تبتدأ « الطريق الغربية » ومنه يذهب الى قرى «المسعودية » « سباستيه » و « طول كرم » ... الخ . ومع هذا فـان الطريق الشرقى والطريق الغربي يلتقيان ببعضهما خارج البلدة على ضفة الوادي في شمالى محلة « قريون »

وفي داخل نابلس طريقان يقطعان المحلات القديمة في داخل القصبة . وفي هذين الطريقين تتجلى حياة نابلس اليومية بل حياتها الليليه . فسوق نابلس تقوم في هذه الطريق . وحوانيتها في هذه الطريق . وفي وسط هذه الطريق توجد حوانيت بائعي الاقمشة وقـد سقف هذا القسم حتى اصبح كالنفق . وتوجد طرق اخرى بالدرجة الثانية قائمة بشكل عمودي على طريقي نابلس الشرقي والغربي المتوازيين . وجميعها مفروشة ببلاط قديم ولا يزيد عرض هذه الطرق الاوليـة على خمسة او ستة امتار . ويقال ان الطريقين المذكورتين كانتا بحالة قذرة جداً فيما سبق . اما اليوم فقد اصبحتا نظيفتين للغاية بفضل المراقبـة من الجهة العسكرية وخصوصاً على هذين الطريقين

اما الطرق الموصلة للمواقع المرتفعة من القصبة فهي ردئية جـداً . وجميعها صعبة وذات مرتفعات وبلاطها فاسد تماماً . وخصوصاً طرق حارة الياسمينه فانها جميعها عفنة وقذرة وذات انفاق . وحاصل القول ان اكثر المحلات في القسم القديم من نابلس ردئية متلاصقة الدور قذرة الطرق عفنة المواقع . واما القسم الجديد منها فدوره مضيئة ومطلقة الهواء بالنسبة وطرقه متسعة . ولا يعثر السائر في هذه المحلات على القذارة التي يجدها في المحلات الاخرى

[٤) — ماء القصبه — يخرج ماء نابلس من منابع متحدة في جبل غاريزيم . ثم يخرج بعد مسافة قليلة من اثنين وعشرين محلاً بشكل منابع مستقلة . ولكل منبع اسم خاص به فتخرج في محلة الشويترة مثلاً «عين الصيبان » و (عين بتليمه) وفي الغرب من مقبرة السامريه عين (رأس العين) وعين (مرصرصة) وفوق محلة الشويتره (عين الكفير) وفي محلة قريون(عين القريون) وفي جوار

الثكـنه العسكرية (عين الدفنه) وفي محلة بوابه الخضرة بالقرب من الجنائن « عين العسل » وفي الجهة الاخرى « عين الفوأد » و « عين الطيباوي » وهـذه اشهر المنابع . ويوجد قسم من هذه المنابع تتبدل اسماؤها بعد ان تجري مسافة قليلة فمثلًا (عين القريون) يتبدل اسمها الى « عين الصيباط » بعد مسافة قليلة . وبعد ان تجري هذه العيون في قساطل غير منتظمة او في مجاري واسعة مبنية من التراب تصل الى المحلات التى تقسم فيها . ومن هناك توزع على الدور وتنتقل من دار الى اخرى . ويوجد غالباً حوض في كل دار يصل اليها الماء . ويطلق النـابلسيون على الحوض اسم « ران » ومنه يشرب النابلسيون . اما الدور التى لاتجري اليها المياه فان اصحابها يستقون من الحياض العمومية القائمة فيجهات مختلفة من البلدة . وقد انبتت المياه التي تجري في الوادي جنائن الخضر والفاكهة . ولا ريب ان المحلات الخضراء القائمـة في اطراف القصبة وفي وسطها مديونة بالشكر لهذه المياه

وبسبب تعرض ماء نابلس لسائر انواع الترشحات فانه دنس وغـير موافق للصحة ، ويقال ان البلدية تفتكر منذ مدة باستحضار ميـاه القصبة بقساطل من حديد ولكنها لم توفق الى ذلك بوجه من الوجوه

وعلاوة على ذلك فانه يوجد في بعض الدور آبار ولكن مياههـا غير حلوة . وفي بعضها (صهارج) يملأونها بماء الشتاء ويمكن ان يقال ان مياه الصهريج هي احسن ماء يوجـدا في نابلس .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — الموقع والنفوس — مركز اللواء قصبة نابلس وهي بلدة جسيمة ومعمورة بالنسبة . قائمة في واد لطيف يتألف من جبل عيبال وجبل غاريزيم . تبعد عن بيروت ٢٠٠ كيلو متر من الجهـة الجنوبية وعن القدس ٥٥ كيلو مترًا من الجهة الشمالية وعن اسكلتها يافا ٦٨ كيلو مترًا من الجهة الشمالية الشـرقية . مياهها الجارية غزيرة . محاطة بالحدائق وهواؤها معتـدل . ترتفع عن سطح البحر ٥٧٠ مترًا . ارضها منبتة وتكثر في اراضي قضاء المركز اشجار الزيتون ومزارع الحبوب واشجار الفاكهة . حرارتها المتوسطة ١٤ درجة بحساب سانتغراد . وترتفع درجة الحرارة ايام الصيف الى ٢٨ وتهبط في فصل الشتاء الى ٧ . وترتفع درجة الحرارة في عدة ايام من فصل الصيف الى ٣٤ في الظل والى ٥٠ في الشمس

يبلغ مجموع النفوس في نابلس ٢١٠٧٢ هي منقسمة باعتبار العنصرية الى الوجه الآتي:

هذه نفوس نابلس باعتبار التحرير الذي اجرى عام ١٣٢٧

ذكور	اناث		محله	دور
١٠١٤١	١٠٠٢٧	اسلام	٦	٢٢٢٤
٢١٨	٢٠٩	روم		
٥٨	٥٠	لاتين		
٩٣	٨٧	بروتستان		
٩٤	٦٦	سامري		
١٣	١٦	يهودي		
١٠٦١٧	١٠٤٥٥			

[٣] — تاريخ نابلس — عرفت نابلس واسمها القديم سيشهم (اي الذروة) منذ ازمان الانبياء العظام . ولقد ركز حضرة ابراهيم وحضرة يعقوب واولاده خيامهم في صحراء سيشهم . واقام يوشع مجتمعه العمومى الاخير في هذا المحل . ولقد خرجت نابلس في حصة قبيلة (افرائيم) اثناء تقسيم فلسطين . ولما عقد بنو اسرائيل مجلساً كبيراً عاماً اثناء سلطنة (رحبعام) عام ٩٣٣ قبل الميلاد وقرروا فصل عشر قبائل اسرائيليه عن ملك حضرة داود — انتخبت قبيلة (يوربعام) مدينة نابلس عاصمة للدولة الجديدة . وبعد خمسين سنه نقل « اومرى » احد ملوك هذه الدولة عاصمة الملك الى مدينة (سامره) المنشأة حديثاً . ولما نفى الاثوريون قسماً من اليهود عام (٧٢٢) ق . م وجاؤا بالاجانب لاملاء الفراغ الذي احدثه اولئك اخذ هؤلاء الاجانب عقائد اليهود وموروثاتهم تدريجاً ومشوا عليها وهؤلاء هم السامريون . وبعد حادثة الاسر في بابل لم يكتف اليهود بعدم مشاركة السامريين لهم بالمراسم الدينية في القدس بل اخذوا يهينونهم ويحقرونهم فانشأ السامريون حينئذٍ معبداً خاصاً لانفسهم في سفح جبل غاريزيم . وقد هدم « يوحنا هرقانوس » الملك السابع من ملوك سلفكيان هذا المعبد السامرى . وفي عام ٦٧ ميلاديه استولى (وسپاسيۏن) احد ملوك روما على مدينة « سيشهم » وقتل احد عشر الفاً من اهاليها . وبعد انتهاء الحروب جدد بناء المدينة وسميت (فلاويانشابوليس) وتعريبها (نابلس) . وفي عام ٥٢٩ اضطرت جيوش الانبراطور (جوستينيان) لاطفاء نيران الفتنة الهائلة التى ظهرت في المدينة . وعلى اثر ذلك اغلقت الكنائس اليهودية ففر قسم مهم من السامريين الى بلاد العجم وتنصر القسم الآخر منهم . وفي العصر الثاني عشر الميلادي لم يكن في جميع انحاء فلسطين سوى الف سامري فكانت الاقلية

منهم في نابلس والاكثرية في دمشق . واستولى المسلمون على مدينة نابلس عام ٦٣٦ م وبقي الحكم الاسلامي جارياً في نابلس الى عام ١١٠٠ حيث جاء الصليبيون فحاصروهـا واستولوا عليها حتى انهم عقدوا فيها مجلساً روحانياً عام ١١٢٠ وفي عام ١١٨٧ استعادت جيوش المسلمين المدينة بعد واقعة حطين الشهيرة التي قام بها المجاهد المحترم صلاح الدين الايوبي . ولم يتأخر النابلسيون في العصر الاخير عن القيـام ضد باشاوات الشام وعكا . وفي عام ١٨٣٤ اعلنوا عصيانهم ضد ابراهيم باشا المصري والي سوريه فهجمت الجيوش المصريه فجأة على مدينة نابلس فنهبتها ولعبت اهلها وبهذه المناسبة جيء بشيخ البلدة حسين احمد مع اولاده الاربعة واعدموا شنقاً في دمشق

[٣] — المعارف — سنتكلم عن معارف مدينة نابلس حين الكلام بوجه العموم عن معارف لواء نابلس ولهذا نصرف النظر الآن عن بيان ذلك

[٤] — البلدية والمؤسسات الصحية والعمرانية — لا اعلم ما هو السبب ياترى ؟ اننا نحن الشرقيين لا نزال بعيدين عن فهم المعنى الحقيقي لكلمة بلديه . ان المعنى الذين نفهمه من كلمة بلديه هي انها دائرة رسمية جعلت رياستها لتقوية وتحكيم مراكز الاعيان اصحاب النفوذ او لاملاء جيوب البكوات الفقراء . لم نر في محـل من المحلات دليلاً او امارة تثبت انا المفهوم الحقيقي او الرسمي لكلمة بلديه . فرئيس البلديه والموظفون معه يتعرفون لانفسهم بانهم موظفون يقومون بانفاذ اوامر مدير الناحية او القائمقام او المتصرف حرفياً بلا اعتراض ولا توقف . على انه لاتوجد فكرة غريبة او تصور اغرب في بلادنا من انتظار العمل او الخدمة من رؤساء البلديات . ولم نقدر ان نشاهد في كافة المحلات التي طفنا بها تقريباً المعنى المقصود في البلاد الغربيه من كلمة بلديه . ولقد تناسوا ايضاً في كثير من المحلات المقصد القانوني من تشكيلات البلديه وجعلوها مأكلاً صرفاً

ولا حاجة للبيان والتفصيل عن تشكيلات بلدية نابلس فالاقرب للعقل والتصور ان نطوف مدينة نابلس من اولها الى آخرها ونبحث عن اجرآت هذه الدائرة الرسمية وعن اعمالها المعدودة . ولا يتأثر رؤساء بلدية نابلس السالفون واللاحقون فان هذه الحالة مرض عام في الشرق . وانك لتجد هذا الانحطاط وذلك السقوط متجليين بابشع مناظرهما في كل محل وجدت فيه دائرة للبلدية من اكبر المدن الى اصغر القرى . واذا وجد شيء من الآثار المفيدة في احدى البلاد وقد انشئت باسم البلديه فانما تكون نتيجة تصورات رؤساء الادارة الذين وجدوا في تلك المحلات . فقـد كانت قصبة نابلس قبل ست سنين او سبعة سجناً لغير الوطنيين . فلم يكن فيها محل للفرجه . وليس فيها قهوة نظيفة (كازينو) يلجأ اليها او حديقة غناء يستنشق منها الهواء فكانت البلدة غماً وكرباً ثم جاءها متصرف غيور فبذل جهده حتى انشأ حديقة للبلدية في محلة الشويتره في الجهة الغربية من

البلدة . وقد تأسست قهوة (غازينو) بالقرب من الحديقه . ولقد اهتم بمزروعات الحديقة ولكن النظافة فيها تشبه نظافة الازقة المساعدة للتنظيف ولو لم تكن بلوكات التنظيف العسكرية موجودة في نابلس لما كانت القذارة في البلدة تخفى على المدقق . فاذا نظرنا في ميزانيـة البلدية التي عثرنا عليها تظهر انا حالاً الاسباب التى تدعو لفقدان البلديات

ميزانية عام ١٣٣٢

الواردات		مصارف	
١٢٣٩٦٩	اجار العقارات سنوياً	٨٥٣٤٠	معاشات المأمورين والمستخدمين مع الهيئة التفتيشيه
١٠٠٠٠	رسوم الكاز	٥٧٢٠٠	للتنوير والتنظيف
٤٥٦٠٠	〃 الدخولية	٥٠٠٠	مخصصات الصحية
٩٨٩٥٠	〃 مختلفة	٣٠٢٠٠	〃 العجزه
١١٠٠٠	〃 الانشاآت	٦٠٠٠	〃 الزينة والمهرجانات
١٤٠٠٠	〃 الوسائط النقلية	٣٠٠٠٠	تعميرات وانشاآت
٨٠٠٠	〃 التمغا	٤٦٧٠٠	متفرقه
٢٥٨٠٥	〃 البلديه بنسبة ويركو المسقفات والتمتع	٢٥٢٤٤٠	
٣٥٥٠	〃 الرخصة		
٤٧٣٠٠	واردات متفرقة		
٢٨٧١٢٠			

تظهر غرائب كثيرة من التدقيق في هذا الجدول . فالغريبة الاولى زيادة واردات البلدية على مصارفها . وكيف تزيد الواردات على المصارف في زمن تفشت فيه الامراض السارية وفتكت فيه الحاجة والفاقة فاودت بحياة الفقراء وشعرت بلظاها ايضاً الاغنياء ؟ انه لامر لم يسمع بمثله في ناحية من انحاء العالم . فالموازنة مفقودة اليوم في اي بلدية كانت من بلديات العالم المتمدن لان البلديات في كل بلدة هي دولاب الاعمال بين الشعب بل الاب الشفوق على الاهلين . والبلدية ملجأ الاسر الفقيرة التى بقيت بلا رجال ولا معينين بسبب الحرب . ولا ريب ان عدم التوازن بزيادة الدخل في ميزانية نابلس هو دليل على بعدها عن الحقيقة بل هو امارة ظاهرة على ان الارقام التي ادخلت فيها قد وضعت بلا تبصر ولا امعان

والغريبة الثانية في الميزانية هي صرف الثلثين تقريباً من الاموال التي تجبى على الرواتب للمأمورين وللعجزة المنسوبين للاعيان وعلى الزينـة والمهرجانات وقد حرمت البلدية منهـا. فالاقلام التي يجب ان تصرف عليهـا البلدية هي التنظيفات والتنويرات والصحية والتعميرات. وهذه يصرف عليها في السنة ٩٣٢٠٠ غرش فقط . وهذا العمل كاف للاستدلال على ان البلدية في نابلس هي مؤسسة ادارية غير معقولة ولا يمكن التأليف بينها وبين احتياجات الاهلين في نابلس

...

(مستشفى الوطن) — جاء الى نابلس قبل ٢٣ سنة مبشر انكليزي واسس مستشفى في قصبة نابلس واخـذ يعالج المرضى الذين يجيئون اليـه فيأخذ من الفقير ٣ متليكات ومن الغني ١٠٠ بارة . وكان المرضى الذين يجيئون اليه صباحاً يدخلهم الى بهو كبير ويجبرهم على استماع مواعظه الدينية. وكان المقصد من ذلك نشر مذهب البروتستان في نابلس. وكان المبشر يفادي باكثر من ذلك لترويج مبدأه فكان يأوي مجـاناً الفقراء الذين يقيمون في المستشفى ويعالجهم بلا اجرة ايضاً . وكانت الاجرة التي يستوفيها المبشر الانكليزي ايضاً عائدة لتقـديره وميله ومع ذلك فقد كان جزئية ايضاً .واذا توفى قضاء احد المرضى في المستشفى يجري له اولاً جنازاً على الطريقة البروتستانية سواء كان المتوفي مسلماً او مسيحياً ثم يسلمه الى اسرته لتدفنه . ورغماً عن جميع هذه الاعمال خلال ٢٣ سنة فان مرأة واحدة من الاسلام هي التي تركت دينها ودخلت في البروتستانية . وقد وجد الانكليز الذين لا يعرفون الملل والسآمة ولا يتأثرون من مثل هذه الاحوال ان يتوسلوا بوسائط اخرى لترويج مساعيهم مثل زيارة ارباب الثروة والارتبـاط مع ارباب النفوذ وقد نجحوا كثيراً في مسعاهم هذا . ولكن النابلسيين احسوا اخيراً بلزوم الاجتماع ضد هذه الدعوة للديانة المسيحية والمدافعة عن دينهم بالسلاح الذي يحاربهـم به الانكليز فدفعتهم الحمية الوطنية للاتفاق على تأسيس مستشفى وطني . فبدأوا بجمع الاعانات وانتهوا من بناء المستشفى في اربع سنين وتم افتتاحه قبل ست سنوات وثلاثة اشهر من هذا الوقت . وقـد خصصت لمصارفه الدائمة رسوم الدخوليه تماماً ونصف رسوم الذبحيه . وبذلك تم لهم الحصول على ٨٠٠ ليره من المورد الاول وعلى ٢٠٠ ليره من المورد الثاني . وفي اليوم السابع من شهر مايس سنة ٣٢٦ جرت حفـلة الافتتاح للمستشفى فجمعت في ذلك اليوم ٣٠٠ ليرة على سبيل الاعانة . وعلاوة على هذه الواردات الآنفة فان المستشفى يستورد سنوياً من ٨٠٠ الى ٩٠٠ ليرة من الاجور التي تستوفي من المرضى

يقوم بادارة امور المستشفى الادارية لجنة مؤلفة من عشرة اشخاص تحت رئاسة رئيس البلديه

فيقوم بالادارة الفنية للمستشفى احد الشبان المقتدرين وهو نوري الدين بك الكريدي المتخرج من طبية العاصمة وقد استخدم قبلًا في طبابة بيروت وحلب واللاذقية ٠ وفي مستشفى نابلس اليوم ٦٠ سريراً وقد كانوا اوصوا قبل الحرب على ٣٠ سريراً ودفعوا نصف ثمنها سلفاً ٠ وبسبب اعلان الحرب العام لم يمكن وصولها الى نابلس ٠ ان الدكتور نور الدين بك طبيب بكل معنى الكلمة غيور همام ونطاسي ماهر ٠ وبفضل ما ابرزه من الاقتدار والمهارة اصبح المستشفى في حالة حسنة جداً ٠ واصبحت مساعي الانكليز وتبشيراتهم عقيمة منذ زمن مديد قبل اعلان الحرب العامة فكان الذين يرجعون الى المستشفى الانكليزي يومياً للمعالجة من ٣٠٠ الى ٥٠٠ فتنازل عددهم بعد ظهور الانتظام في مستشفى الوطن الى مابين الستين والثمانين ٠ وترى الجميع معتقدين بانتظام المستشفى الوطني واقتدار طبيبه فيرجعون اليه في معالجة امراضهم بلا تردد ٠ ومن الادلة الجلية على اثبات مدعاتنا الاحصاء الآتي :

١ — المرضى الذين دخلوا المستشفى الوطني

العام

	١٣٢٦	١٣٢٧	١٣٢٨	١٣٣٠
نساء	٧٣	١٧٤	١٨٥	٤٣٢
رجال	١٦٤	٣١٣	٤٠٨	٨٨٥
نابلسيون	٦٥	١٥٠	١٩٩	٤١٤
قرويون	١٧٢	٣٣٧	٣٩٤	٩٠٣

٢ — النتائج التي حصلت في المستشفى الوطني

العام

	١٣٢٦	١٣٢٧	١٣٢٨	١٣٢٩
شفاء تام	٨٦	١٦٩	٢٢١	٤٧٦
اصلاح حال	٥٧	١٥٤	٢٢٨	٤٣٩
البقاء على الحالة	٣٠	٤٣	٧٠	١٣٣
وفاة	٧	٢٠	٢٣	٥٠

٣ — عدد الذين دخلوا مستوصف المستشفى الوطني

عدد البطاقات والكشفيات

العـام

	١٣٢٦	١٣٢٧	١٣٢٨	مجموع الثلاث سنين
فقراء	٦٩٠٧	٨٢٤٢	٧٠٦٧	٢٢٢١٦
اغنياء	٥٤٩٣	٦٩٣١	٧٠١٧	١٩٤٤١

[٥] — الصنائع — ان المعروف من الصنائع في نابلس هو صنع الصابون من محاصيل شجر الزيتون التي تملأ القسم الاعظم من اراضيها فيوجد ٢٩ مصبنة منها ٢٣ مصبنة كبيرة وستة صغيرة وهي تصنع في كل موسم ٤٠٠ طبخه

ويكثر صنع الصابون ويقل بنسبة قليلة زيت الزيتون وكثرته . وهم يضعون في كل طبخه ٢٥٠ جرة من الزيت وبالحساب التقريبي يبلغ محصول زيت الزيتون العام في قضاء المركز ١٥٠ الف اقه باعتبار ان الموسم يبلغ مائة الف جرة وكل جرة ١٠ اقة . ويقل شجر الزيتون سنة ويسمى ذلك الموسم (الماسيه) ويحمل سنة اخرى ويسمى (شلتوني) فاذا لم يظهر الجراد ولم تشتد الحرارة في موسم الصيف حينما يكون الزيتون على زهره واذا لم تمطر السماء بصورة غير منتظمة وبدرجة غير كافية قبل تفتيح زهر الزيتون — يكون الموسم في ذلك العام قليـلاً . وفضلاً عن ذلك فان السنة التالية للاقبال لايكون موسم الزيتون فيها بدرجة كافية رغماً عن اسعاف الطبيعة له (ويغلب ان يكون الموسم في تلك السنة بنسبة ربع الثلث من الموسم الجيد)

ويتكرر صنع الاربعمائة طبخه من الصابون في كل عام في نابلس . فيصنع منها ١٦٣ طبخه لاسرة بني النابلسي و(٧) طبخه للسيجانيين و(٢٠) للغزاويين و (٢٥) للشكعويين و(٢٠) للاغوات و (١٢) للتميميين و (٢٠) للعنبتاويين ولاحد الشوام . وفضلاً عن ذلك فان بـني عاشور يصنعون (١٥) طبخه وبني الخياط (٢٠) طبخه وبني كمال (١٥) طبخه

وان الصابون المصنوع مع قلور قالسيوم يكون اغلى واكثر بقاء . ويـتم صنع الطبخه واستحضارها في ثمانية ايام . اما الصابون المصنوع بالنطرون فانه يكون اقل بقاء ويمكن اتمـام الطبخة منه في ثلاثة ايام . وقد كانوا قبل خمسة عشرة سنه لايصنعون الصابون في كافة المصابن الا بماء (القالسيوم) ولكنهم اهملوا هذه المادة الابتدائية تدريجاً واخذوا يستعملون محلها النطرون الرخيص

مصرف طبخة الصابون

ليرة	
٢٥٠	ثمن ٢٥٠ جرة من الزيت (في الايام المعتدلة)
١٣	ثمن خمسة او ستة براميل من النطرون
٢٫٥	اجرة نقل النطرون من يافا
٤	كلس
١٠	بزر الزيتون (الجفت وهو الذي يستعملونه عوضاً عن الحطب)
٦٫٥	اجرة الفعلة
١	مصارف متفرقة
٢٨٧	

فيكون مصرف الطبخة ٢٨٧ ليرة وهي تعمل من ٢٠ — ٢٢ قنطار صابون فاذا قدرنا ان ثمن القنطار من الصابون في الايام العادية ١٥٠٠ غرش تبلغ قيمة الطبخة من ٣٤ الى ٣٥ الف غرش ويكون الربح الوسطى منها من ٥٠ الى ٨٠ ليره · ورغماً عن جميع هذه التقديرات فان ارباح الصابون تزيد وتفيض بنسبة معرفة ارباب المصانع ومهارتهم اوجهلهم بادخار المواد الابتدائية ولا يقل كثيراً من الاوقات ربح بعض الاغنياء عن مائة ليره في الطبخة

ورغماً عن كثرة اشجار الزيتون في نابلس فانــه من الامور التي تستلفت النظر انهم لا يصنعون في نابلس التي يكثر فيها صنع هذا الصنف انواعاً ظريفة من الصابون السهل الاستعمال مثل الصابون ذي الريحة اللطيفة اوالصابون النودروني او الكلسريني وامثــاله من صابون الزينة · ولقد اراد محمد افندي النابلسي احد اغنياء نابلس تجربة ذلك فصنع كمية من الصابون ذي الرائحة وارسلها الى سوق استانبول ولكنه خسر بسبب غلائها وعدم ظرافة شكلها فصرف نظره عن العودة لمثل هذه التجربة

وان الآلات والادوات التي يستعملونها في مصابن نابلس لا تزال ابتدائية وعلى شكلها القديم فلا يمكن ان تجاري مصانع اوربا بصنع صابون الزينة اللطيف وامثاله · ولو افتكر واحد او اثنان من اغنياء تجار الصابون في نابلس الذين تبلغ ثروة الواحد منهم من ١٠ — ١٥ مليون غرش وارسلوا اولادهم الى اوربا ليتعلموا هذه الصناعة ثم سعوا بتحسين حالة المصابن النابلسية وادخلوا فيها الآلات والادوات اللازمة لكانت ثروتهم تزيد مرة او اثنين عما هي عليه · ولقد قمنا

بما يلزم من التشويق اثناء سياحتنا فوعدنا عشرة من الاغنيــاء بارسال اولادهم عقب الصلح الى المانيا وفرانسه وبلجيكا . ولا ريب انه اذا ظهرت هذه الفكرة من حيز القوة الى حيز الفعل وبسبب اعتياد الاهلين والفتهم لصنع الصابون تنمو ثرواتهم وتزيد الثروة العمومية ايضاً بهذه الواسطة زيادة مدركة

٤ — الاحوال الاجتماعية فى نابلس

[١] طبقات الاهالي وطرز المعيشه — يمكن تقســيم اهالي نابلس باعتبار الدين الى ثلاثة اقسام مسلمين ومسيحيين وسامريين . ولكل قسم من هذه الاقسام عادات معروفة . ولكن قلة المسيحيين والسامريين الذين لايتجاوز عددهم الالف لا يجعل تأثيراً لهم في الحيــاة العمومية الا بهذه النسبة . فيجب ان ننظر الى مدينة نابلس بنظر عمومي انها مدينة اسلامية

ومع هذا فان الطبقات التي تتجلى بين المسلمين بخصوصيات معروفة لكل واحدة منها — يمكن جمعها في طبقات ثلاثة : طبقة الخواص . طبقة العوام . طبقة الجباليين

فحين يقال طبقة الخواص في نابلس يتبادر الى الذهن قبل كل شيء « المال والثروة » والاولى ان تسمي اذاً هذه الطبقة « اصحاب الثروة » يدل تسميتهم بالنبلاء « الخاندانات » . وهؤلاء طبقه تفرد اجدادها بالحكم على نابلس بنفوذهم منذ مئات من السنين واقتسموا فيما بينهم اراضي الملحقات حتى انهم اقتسموا البلدة ما بين شرقيــة وغربية وطالما جرت بينهم وقائع ومخاصمات بسبب ذلك . فهؤلاء هم الذين يطلق على اولادهم اليوم عنوان « خاندانات » ومع هــذا فانه يوجد في نابلس اسر كانت درجة نفوذها محدودة بالنسبة لاولئك ولكنها استوطنت نابلس وجعلت انفسها شهرةً ومقاماً وهذا القسم هو اكثر احتياطاً ومحافظة على القديم

ورغماً عن المعاصرة بين طبقة الخواص لبعضهم بسائق محافظة النفوذ وانماء الثروة فانهم انقسموا الى قسمين كبيرين — كما سنأتي على بيانه وشرحه فيما يلي :

ولكن هذا الانقسام ظاهري لانه مرتبط بمنفعتهم . وعلى كل فان الوثوق بعدم تبدل مراكز هذه الاسر بعد مدة لسائق تبدل المنفعة هو من البساطة وصفاء القلب . ويمكننا ان نقول انه لا ريب بان بعض هذه الاسر منحازة لاحد الطرفين حفظاً لمراكزها من الاعتداء والتجاوز

وتتنوع البسة الزعماء في هذه الاسر بنسبة التنوع بينهم فيكتسى احياناً بعضهم الكسوة العلمية ويكتسي القسم الآخر وخصوصاً الشبان منهم على وجه العموم البنطلون والجاكت

وتعتمد طبقة الخواص في معيشتها على الزراعة والتجارة والصناعة فيزرع طبقة الزراع منهم الاراضي التي يملكونها بواسطة (الفلاحين) ويتداخلون كثيراً في مسائل الالتزام . وفي حقيقة الامر انهم يأخذون جميع ما يحصل من الارض وما يستغل منها كثيراً او قليلاً . اما الذين يشتغلون بالتجارة فان القسم الاعظم منهم يشتغلون بتجارة الحبوب وبضائع الالبسة « المانيفاتورة » . وان اغنى الطبقات في نابلس هم التجار الذين يشتغلون بصنع الصابون وبيعه. ويغلب ان يكون المشتغلون بالتجارة والصناعة والزراعة مختلطين فالمشتغل بالزراعة يصنع احياناً الصابون لحسابه ويبيعه . ويشتغل ايضاً في كثير من الاوقات باقراض الاموال . فان الادانة في نابلس مسئلة مؤلمة جداً وان اكثر شكايات القرويين من هؤلاء المرابين . وعلى كل حال فان الذين يملكون الوف الليرات باملاكهم واراضيهم وثروتهم وكذلك الذين تكون وارداتهم السنوية الوفاً من الليرات هم عدد قليل في نابلس وهم على الاطلاق من طبقة الخواص

وبسبب توسع طبقة الخواص في معيشتهم فان كل شيء في دورهم كثير ووافر . ولا يمنعون شيئاً عن انفسهم . غير ان الذين يشتغلون بالزراعه هم اكثر ولا ريب اتساعاً في معيشتهم من المشتغلين بالتجارة . وبالنظر لقلة اشغال هؤلاء فان المحافظين على العادات القديمة في نابلس وهي حياة « الديوان » هم افراد هذه الطبقة من الخواص . فترى دورهم مفتوحة ليلاً ونهاراً لقبول الزائرين والضيوف

ولم تكن التهاوي في القديم معروفة في نابلس ولذلك كانوا يقضون اسمارهم في هذه المجتمعات المسماة (سهره) . ولكن افتتح في الايام الاخيرة قهوتان اوثلاثة . واسست حديقة للبلدية في الجهة الغربية من القصبة في محل ممتاز بنظارته ولطف موقعه فتباعد بعض النابلسيين وخصوصاً شبانهم عن حياة (الدواوين)

ورغماً عن ثراء صنف الخواص بهذه الدرجة فانك لا تزال تجد في طرز معيشتهم احوالاً ابتدائية . ومن العبث ان تجد في داخلية دورهم وفي معيشتهم وفي مآكلهم وفي ملبسهم انتظاماً وترتيباً . حتى ان بعض شبان هذه العائلات الذين يتعلمون خارج نابلس لا يحبون العودة اليها باي وجه كان . واذا عادوا اليها فانهم لا يميلون بوجه من الوجوه لاتباع هذه الخطة في حياتهم ومعيشتهم ولهذا يمكننا ان نخمن عدد الشبان الذين تركوا نابلس لهذا السبب بثلاثمائة شاب

اما نساء هذه الطبقه فانهن يعشن بصورة يحزن لها القلب . فخروج النسوة من ابناء هذه الطبقه الى الازقـة من الممنوعات فهن يقضين كافة اوقاتهن في تلك الدور الراطبة . ولا يزلن محافظات على زينتهن الاولى . ويمكن ان يقـال انصرفيات (البودره) و (الراستيق) عظيمة جداً . ولم تصرف النساء العجائز والشابات نظرهن عن تخضيب ايديهن بالحنـاء حتى الآن . ومن الغريب ان هؤلاء النسوة المخضبات ايديهن بالحناء يملن الى تزيين شعورهن على الطراز الافرنجي . ولا شك ان علاقة نسوة نابلس (بالموده) منحصرة باذواق عدة من خياطات نابلس

اما الطبقه الاسلاميـة الثانيـة — فهي صنف العوام ومدار معيشة هؤلاء على مهن العملة وقلع الاحجار وبيع الخضر وامثالها من الاعمال الصغيره . ودورهم التي يسكنونها وحوانيتهم التى يعملون فيها عبارة عن اكواخ . ويلبس هؤلاء على الغالب نوعاً من الالبسة المسماة (غنباز) وهي مصنوعة من الاقمشة الوطنية مشقوقة الجانبين بشكل مثلث ومفتوحة من امامها وقد التف قسم منها على القسم الآخر . ويلفون فوقها زناراً بعرض خمسة عشر سانتياً . وفوق ذلك عباءة او رداء (جاكت) . ويغلب ان تكون ارجلهم عارية . لا لبس القلشين غير معتاد عنـدهم ويلبسون نوعاً من الاحذية الوطنية تسمى (مداساً) . ويسترون رؤسهـم بالطربوش احياناً وبالعمامة اخرى

معيشتهم ضيقة جداً . وليس لهم عند صنف الخواص اهمية مطلقاً . ويرى الخواص ان من صلاحيتهم وحقوقهم استخدام صنف العوام باي مهنة كانت . ويرى كل فرد من العوام ان انتماءه لاحد الخواص نعمة لاتقابلها نعمة

اما الطبقة الثالثة — فهم الجباليون وهؤلاء يقطنون محلة القيساريه شرقي القصبه واصلهم من محلة « جباليه » في غزه . ولايوجد في نابلس طبقة احط من هؤلاء فنساؤهم لايحتجبن . وبالنظر لالبستهم الممزقة ومهنهم الخسيسة كالتسأل وامثاله فان النابلسيين يسمونهم « نَوَراً » ويرون ان ضربهم وشتمهم مباح لديهم ويقـال ان عددهم لايزيد على ثلاثمائة . وبزيادة الامالة في لهجتهم يمتازون عن صنف العوام

اما المسيحيون القاطنون نابلس — فيشتغل اكثرهم بصناعة الحدادة والصباغـة . وبسبب فقرهم لايوجد في بيوتهم الاشبه ترتيب ونظافة . ومع هذا فلا يمكن ان يوجد بين الناشئين منهم ايضاً نهضة عالية من جهة العلم . ومن الغريب ان نساء هؤلاء المسيحيين يحتجبن حين مرورهن في الاسواق . ولا يرضى النابلسيون بان يخرج نساء سائر العناصر مكشوفات ما لم يكن اجنبيات

واما السامريون — فيجب ان ننظر الى هؤلاء بانهم اتعس خلق الله في نابلس حياة ومعيشه . فقد افسد الفقرة والحاجة بنيانَ الحياة فيهم . حتى ان الاهانة والطعن والتحقير الذي يرونـه من النابلسيين حتى من صغارهم اورثهم في انفسهم حطة صغاراً بعيـدين عن الوصف . ولا تخرج النساء السامريات الى الازقة مكشوفات تبعاً لعقيدتهن (١)

[٢] — العادات والحالة الاجتماعية = « مسائل الزواج » تفترق طبقات المسلمين عن بعضها في مسائل الزواج افتراقاً محسوساً . ولهم في ذلك حالات خصوصيه . ولقد كانت العادة في نابلس ان الاسر المعروفة بشرفها في نابلس لاتزوج الا بعضها ولا يمكن لاحد ان يتزوج بابنة شريفة الا اذا كان من تلك العائلات . حتى لو كان غنياً وصاحب ثروة فلا يحق له ان يأخذ ابنة احـد الاسر المعروفة النسب ما لم يكن هو معروف النسب منذ مائتين من السنين . وكانوا يراعون هذه العادات مراعاة تامة . وكان الغلو يشتد احياناً بينهم حتى ان بعض الاسر كانت تحصر تزويج بناتها بافرادها الذكور فقط فكانوا متمسكين بتقاليدهم ومحافظين عليها شديد المحافظه . ولكن وصف الغنى والثروة قام مقام الشرف في المدة الاخيرة . فاصبح للغني حق بان يأخذ ابنة اية اسرة كانت من الاشراف . ومن غرائب مظاهر الغنى التي تتجلى في نابلس ان بعض الاسر المثرية تمنع تزوج بناتها لاحد اذا لم يكن في الاسر التي يمكن لها ان تتزوج بناتها رجل يليق وذلك خوفاً من ان تخرج ثروة الاسرة الى خارج محيطها العائلي . ولقد حدث كثيراً ان هاته البنات يتزوجن برجال متأهلين من الاكفاء لهن خشية الوقوع بعلة خروج الثروة الى اسر لاتليق بها ان تشاركها بثروتها

ومع هذا فان العادة الظاهرة الاتباع هي تزويج افراد كل طبقة من بعضها فالنابلسيون يراعون هذه التقاليد تمام المراعاة . ولا يلبث المثري ولو كان من طبقة العوام ان يصبح حالاً من طبقة الخواص بفضل ثروته

ولا تظهر طبقة العوام صعوبات في مسئلة الزواج . فـلا يفتكر الواحد منهم باقتداره على اطعام زوجته واولاده بل يسرع حالاً بالتأهل . وقد شوهد كثيراً ان الرجل الذي لا يملك في الشهر اكثر من مائة غرش يتزوج ويطلق ثلاث مرات او اربعة . ولا يخـلو يوماً من اسرة مكلف باعاشتها . ويزوجون احياناً شابة برجل بلغ الستين طمعاً بثروته . فيقتلون حياة البنت ويفقدونها نضارة الوجود

اما طريقة الزواج — فليس لها في نابلس اصول معروفة ومتبعة . فيجري الزفاف في الليلة

---

(١) وسنبين ماوقفنا عليه من التحقيق عن السامريين فلا لزوم لاعادته هنا

التالية لليلة السمر « السهره »

فطبقة الخواص يقيمون ايام العرس اربع او خمس او عشرة مآدب عمومية . وللنساء فوجان من المغنيات المسلمات اللواتي يضربن بالعود والقانون والدف والدربكة . فيغنين ويعزفن على الآلات . ومن العادات ان تتغنى النسوة اللاتي يجتمعن في دار العرس بالمدايح المعروفة ويصرخن عقبها باصواتهن « لو . لو . لو . » . ومن العادات ايضاً ان ترقص الفتيات ليلة العرس

وتبقى قريبات العروسة ثلاثة ايام ضيوفاً في بيت العرس . ومن العادة ان يهدي اقرباء العريس للعروسة هدايا تسمى « نقوطاً » واذا كان للعروسة أب يزورها بعد ثلاثة ايام من ليلة العرس . ويأخذ لها هدايا وحلويات . ومن العادات الاولية ان ترسل للعروسة هدايا في ايام الاعياد

وتزيد مصارف الاعراس العظيمة في نابلس على مئات من الليرات . واذا اضفنا الى ذلك مصارف المهرجانات وغيرها فلا يقل مصرف العرس عن الف ليره

وللنابلسيين ميل شديد للاستيلاد . ومع هذا فانهم يرغبون الصبيان اكثر من البنات . وهم يتزوجون مراراً املاً بالحصول على هذه الغاية . وتجري مراسم الختانة في نابلس بلا جلبة ولا ضوضاء قبل ان يتجاوز الطفل عشرين يوماً من عمره

« حياة العائلة » — اعمل جهدي هنا لاشرح حالة مرض اجتماعي اصاب حياتنا الاجتماعية عموماً في الشرق وقد تجلى لنا تماماً اثناء التدقيقات التي اجريناها اخيراً في نابلس . ولا ريب ان بياناتي هنا ذات ماهية علمية عامة : ان حياة العائلة في نابلس تتجلى بمظاهر مؤلمة جداً فيمكننا ان نقول انه ليس للمرأة هنا حكم او تأثير مطلقاً اسوة بباقي الانحاء من بلادنا فيحبون حرمان كل شيء لهذا المخلوق الذي لا يريدون ان يخرج من بطون الامهات الى هذا العالم . ومن الواجب ان يكون تعليم الابنة ناقصاً . بل اي حاجة تقضي بتعليم المرأة . ولو فرضنا انهم احسنوا اليها وادخلوها احدى المكاتب فانهم يقيمون سداً في وجه تعليمها بعد ان تتم ختم القرآن الكريم . فيخرجونها من المكتب قبل ان تتعلم جمع الاعداد البسيطة بصورة تامة . وتبقى الابنة في البيت الى الخامسة او السادسة من عمرها وليس لها من الاهمية شيء . وينظر اليها بكل اشمئزاز وعدم اعتبار لانها ابنة . وخصوصاً اذا كانت سبباً لدخول ضرة على امها في البيت فان حياة البنت تصبح حينئذ نقمة زائدة عليها . فتضرب وتصفع ولا يمكنها الفرار من الدار الا بصعوبة زائدة وترى البنات اللواتي يفررن من بيوتهن على هذا الشكل يخرجن الى الازقة فيلعبن مع

رفيقاتهن بالطين والتراب وحينما يقبل المساء يجتمعن صفوفاً ويأخذن بالرقص في الاسواق ويترتيل الاناشيد والاغاني . وفي ليالي رمضان يطفن المحلات محلة محلة وفي ايديهن الفوانيس والاضواء . ولا تتخلص البنت في الدار من ضرب اصغر صبي ومن اهانتـه لها . وهي مضطرة لان تتحمل ذلك بالرضاء والقبول . واذا خرجت من الدار تبقى ايضاً محكومة بالصبر على اهانة صبيان المحلة وضربهم وصفعهم لها . وهي تتحمل كافة الالعاب . فاذا ما دخلت في السنة السادسة من عمرها اصبح خروجها لظاهر الدار امراً ممنوعاً مطلقاً . ويحكم عليها بان تتنشق الهواء الراطب المتعفن المظلم وهي في دارها . واذا تيسر لها الخروج من الدار في السنة مرة صحبة والدتها فمن القواعد المتبعة ان تطرق البنت رأسها في الارض ولا تلتفت لجهة من الجهات . وبعد خمس سنين او ستة ترسل هذه البنت المسكينة التي لاتعرف من العالم سوى تعداد احجار الازقة الى دار غريبة عنها تماماً تجهل فيها كل شيء فتصبح هناك آلة للولادة وخادمة للرجل وجارية للحماة . ولابنه عمها . وتجبر تلك المرأة الصغيرة التي القيت بين ايدي الاغراب على ان لاترفع صوتها بالشكوى لا من حالتها ولا من دارها الجديدة ولا من زوجها . ولا سبيل لها الا الرضاء والتسليم بحياتها كما هي . ومع هذا فانه لو فرضنا انها تحملت كافة هذه المشاق . ولم تعرف لنفسها قصوراً او هفوة فانها لاتلبث ان ترى في يوم من الايام ضرة تشاركها في حياتها . فينفد حينئذٍ صبرها وتبدأ بالشكوى والتزمر من حالتها التعيسة فيختلط الحابل بالنابل ما بين حماة وابنة عم وزوجة اولى وزوجة ثانية ورجل واولاد الزوجات المختلفات . فتصبح تلك الدار حينئذٍ دار عذاب . وتبدأ حياة المرأة بالذبول ويذهب عمرها ضحية . ومن العادة في نابلس ان لايهتم بمرض المرأة . حتى انه ليس من العادة عندهم ان يستحضر طبيب او يشتري علاج للمرأة اذا مرضت فان اشتد المرض استحضروا الطبيب مرة او مرتين ولكن الزمن الذي يمكن للطبيب فيه انقاذ حياة المرأة يكون قد مضى فتذهب تلك المرأة المسكينة تاركة وراءها اطفالاً بحالة يرثى لها . على ان تلك المرأة تكون قد تماسكت بالحلقوم مع اولادها وهم اطفال . تموت المرأة فلا يهتم الرجل لوفاتها . وفي اليوم الثاني يذهب فيتزوج ثانية وليس من العادة ان يذكر اسم المرأة المتوفاة على قبرها . ومن الصعب ان يوجد اسم امرأة مسلمة مكتوب على قبور نابلس . ويعتقد النابلسيون انه من المعيبات ذكر اسم المرأة المتوفاة

(مسائل الوفاة) — من المعتاد غالباً تشييع الجنازة في نابلس بالطبل . ولكن يشترط لهذا العمل ان يكون المتوفي من افراد المسلك العملي او ان يكون له ولد محترم . فاذا توفي احد ابناء البيوت يدعي اقرباؤه في ذلك المساء وتقام لهم مأدبة . او انهم يرسلون الى دار المتوفى مائدة

وتبقى هذه الحالة متبعة ثلاثة ايام لان من العادة ان لا يطبخ في دار المتوفي ثلاثة ايام . ويتلون القرآن الكريم في هذه الايام الثلاثة ويختمونه في الليـلة الثالثة من كل بد . وفي ذلك الوقت ينتهي الفصل الاول من الحداد

اما النساء فانهن يلبسن السواد شهرين او ثلاثة او اكثر من ذلك ويسترن رؤسهن بالمناديل والاغطية السوداء . وللنساء امام الجنائز وضعيات ومواقف غريبـة الشكل خارجة عن دائرة التصور . فتمزق النساء خمورهن والبستهن وتندفع امام الجنائز تندب وتعول . ويوجـد في نابلس نساء تستأجر للعويل والصراخ وراء الجنازة وتسمى (نائحات) و (نادبات) . وتقوم مقبرة نابلس في سفح جبل عيبال في الشرق الشمالي من نابلس ومحلهـا كثير الهواء والنور . ويعتنون بان يكون القبر جميلًا وبديعاً . والمقابر هي اكثر المحلات اباحة لزيارة النساء النابلسيات . وان زيارة المقابر من يوم الجمعه الى قبل طلوع الشمس من يوم السبت وجيبة لاتغفل عنها النابلسيات ولا ينسينها . ويكررن ذلك كل اسبوع ويذهبن الى المقابر وفي ايديهن اغصان الآس وطاقات الازهار . فيزين القبور التي يزرنها . ويقال ان شعاع ارواح الاموات تزور اللحود في ذلك الحين وتفارق قبورها قبل طلوع الشمس من يوم السبت . فاذا مررت بالمقبرة في ذلك الوقت تجدهـا ملأى بالنساء والرجال والاطفال . ولا يمكن ان يتصور شيء اعظم في نابلس من زيارة المقبره يوم العيد . ويستصحب النابلسيون معهم حين زيارة المقابر ايام الاعياد شيئاً من الملبس والبقلاوه وامثالها فيأكلون بعضها ويوزعون الباقي على الفقراء عن ارواح الاموات

ولا يمـكن ان يتصور ذوق حسن لدى النابلسيـات اعظم من ذهابهن الى المقابر كلما تسنح لهن الفرص حيث يتنفسن روائحهـا التي تظهر منها الرائحة العضوية الخارجة حتى من نباتها

« المآدب » — يظهر النابلسيون في مآدبهم ما اعتادوا عليه من الذوق الخاص بهم وهو رؤية الاشياء وافرة . فتكون المآدب التي يتكلف ابناء طبقة الخواص لاقامتها مطنطنة . فيقيمون على الاكثر خواناً مدوراً كبيراً ويضعون فوقه الصحون والمعالق والشوكات بدون سكاكين ويصفونها صفاً اولياً . ثم يضعو ن من ورائها صفاً آخر مؤلفاً من اصنـاف الفواكه والمقبلات (الصلاطه) . اما قطع الخبز فتشغل اماكن مختلفة ومتشتته من المائدة . وليس من العادة عندهم ان يكون لكل مدعو قدح ماء خاص فيمكن لكل شخص ان يشرب من قـدح الآخر . ثم يضعون اطباق المآكل في الوسط . ويأخذ كل شخص لصحنه ما يشتهيه . ولكن يغلب ان تبقى الصحون الفارغة امامهم نظيفة كانها آلة للزينة فقط . فتسقط الملاعق جميعها على اطباق المآكل وربما لا يستعملون (الشوكات) اذا كان بين صنوف المآكل شيء يمكن الاخذ منه باليد والاصابع . وتبقى

الملاعق والشوكات هادئة متروية في اطراف المائدة . ولا يستشكل النابلسيون بتصنيف المآكل فيجمعون في مآكلهم وفواكههم بين الاصناف التي لايمكن اجتماعها مع بعضها . وترى الاطباق التي تفرغ في المائدة اشبه بالقوافل المتواردة . يحضرون على المـائدة انواعاً من الحلوى باوقات متقطعة . وهم يكررون مدائح طويلة على ما اشتهر عندهم من حلوى (الكنافة بالجبن) و (التوتيه) . ثم ينهضون بعد ذلك عن المائدة وقد اثقلوا بحمولة مدهشة من الطعام

ويتعاطى الخواص المآدب على سبيل التحابب المتقابل وربما اتخذوا مجيء احد الاقرباء او حضور مأمور الى نابلس وسيلة لاقامة المآدب فيدعون الى المأدبة جميع من يعرفونه . وبعد انتهاء الطعام يشربون القهوة ولفائف التبغ بصورة متواصلة واذا كانت المأدبة في زمن الصيف يجتمعون حول الاحواض واذا كان ايام الشتاء فحول المجامر (منقل النار) وترتفع اصوات (الاراكيـل) ثم تمد سجادات الصلاة ويقدمون للامامة اكبرهم سناً فيأتمون به في صلاة طويلة . وبعد الصلاة يطاف عليهم بالقهوة عدة ادوار . وهناك يبدأون بالمذاكرة اما في مسائل شرعية او يتحادثون حسب العادة باسعار البضائع او بما جرى من الوقائع الغريبة في ذلك اليوم . وفي ختام ذلك يخرجون من دار الضيـافة وقد اوقدت امامهم (الفوانيس) الكبيره ويعودون الى دورهم مارين وسط تلك الازقة القذره الضيقة

[٣] محلات النزهة والسباق — لا ريب ان اعظم محل يستجلب النظر بين محلات النزهة للنابلسيين هو موقع (العراق) الذي يعلو قليلاً عن البلدة في جبل غاريزيم في الجهة الجنوبية من القصبة . ففي ذلك الموقع مغارة كبيره وطبيعية وفي مدخل المغارة وعلى طرفها حفر صغيرة . ويبلغ ارتفاع باب المغاره خمسة عشر متراً تقريباً وعرضه عشرة امتار اما طول المغاره و تساعها من داخلها فيبلغ نحواً من مائتى متر . واما خارج المغارة فقـد حفر على شكل نصف دائره . وقد قسمت بطبقات من الغرانيت ثخن كل طبقـه نصف متر وفصلت تلك الطبقات بنوع من حجر الصوان الاسود

وترى الحمام والعصافير والغربان يطرن على اشجار التين البري القائمة ما بين احجار الغرانيت في محلات مختلفة من فتحة المغارة . اما داخل المغاره فظلم . واذا دخلت اليها تسمع حسيس الرتيلاوات الكبيرة . ويخرج النـابلسيون غالباً مساء ايام الجمعة الى هذا المحل ويجلسون على السطح المستوي امام المغاره الذي تبلغ مساحته مائة متر مربع . ويوجد ثمت ظـل من الشمس بواسطة اشجار الزيتون التي تستر ذلك المحل . فيسرحون ابصارهم بمشاهدة الوادي والقسم القديم من البلده . ويخرجون احياناً من الصباح ويبقون الى المساء حيث يقضون هناك يوم صفاء ونزهة

وعلى بعد دقيقتين من هذه المغاره يوجد سفح مستو على صخرة مرتفعة يسمى (مائده) وهي كرسي التطلع للنابلسيين. وبسبب ان وسط الصخره محفور فان رؤية الصخره ورؤية البلده من الصخرة منظران الطف من بعضهما. ويروون خرافات عديده عن موقع المائده. فيقولون ان (الست سليمه) احدى صالحات مصر جائت بعد وفاتها الى هذه الحفرة واختفت فيها. ويوجد وراء موقع (المائده) مغارة اخرى تسمى (شق النمر) ويقولون انه يوجد في هذه المغاره طريق يوصل الى القدس

وعدا عن هذين المحلين فان النابلسيين يذهبون الى نبع يسمى (كفير) ويجلسون تحت الشجره الكبيرة هناك

وان مقام (عماد الدين) المدفون في جبل (عيبال) في الجهة الشمالية محل للنزهة في ايام الصيف بالنظر لارتفاعه ولطافة الهواء فيه. ويقال ان شيخاً يبلغ الخامسة والثمانين من عمره يقيم ايام الصيف في دار قائمة في اعلى نقطة من هذا الجبل وانه اعتاد الخروج الى هذا المحل منذ خمسة وثلاثين سنة. ويجيء كافة العظماء في نابلس الى هذا المحل فيزورونه فيه وحين عودتهم يضعون شيئاً من الدراهم في صندوق موضوع ثمت. ومن منتزهات النابلسيين اليوميـة خروجهم الى الجنائن في الوادي وتمضيتهم فيها اوقاتاً مناسبة. وسيرهم على الطرق المعبده شرقي نابلس او غربيها وسيرهم عليها مدة قليلة قبل غروب الشمس من كل يوم. ومن المنتزهات التي اعتاد عليها النابلسيون في الايام الاخيرة السير في السوق بين الطريقين المتوازيين في القصبة او الجلوس في حانوت احد الذين يعرفونه او الذهاب الى حديقة البلدية وتمضية وقت مناسب فيها

اما المسابقات = فقد ضعف الاهتمام بما كانوا يعتنون به قبلًا من مطاردة الخيل ومن العاب (السيف والترس) فطبقة المتقدمين في السن من ابناء نابلس لايحبون ان يخرجوا من دواوينهم. وكذلك الشبان منهم فلا يجول بخاطرهم مسئلة الالعاب الرياضية والمسابقات مطلقاً. فيخرج المأمور صباحاً من داره ويذهب الى دار الحكومـة. وكذلك التاجر يذهب الى حانوته. وفي المساء يعود المأمور من دار الحكومـة والتاجر من حانوته فيستلقى كل منهما على ظهره في داره ويبقى فيها الى الصباح كسلان مخدر الاعصاب

مع ان صغار النابلسيين ميالون للعب والحركة فتراهم يتراكضون ويقفزون واذا سنحت الفرصة يلعبون بلعبة الاحجار المسماة (دوش) وبالعاب (فشختين ونطه) و (العميشه) و (دقة الحمام) و (القلة) و (الطابه) وامثالها من الالعـاب. وخصوصاً في الايام الاخيره فقد تعممت فيها على قدر الامكان الالعاب الرياضية في المكاتب وهي من الالعاب المفيدة للاولاد في نماء اجسادهم

ولكن النابلسيين لايبلغ الواحد منهم رشده حتى يبطل كل حركة ورياضة ويندس بين اسوار بلدته وجدران داره المظلمة

٥ — الاحوال الروحية

[١] — المزاج . الاخلاق والطباع — يمكننا ان نقول ان مزاج النابلسيين الميالين المطول بقامتهم صفر الوجوه طوالها وفاقدي الدم منها — هو صفراوي باعتبار العرق . فيلد الولد منهم وهو مملوء ذكاء وفطنة . وتظهر آثار هذه الاستعداد الفطري عليهم منذ الصغر . فيحب الصبي النابلسي وهو في المكتب التفوق على كل احد في درسه ولعبه . ولا يضيع من يده وسيلة او واسطة صغيرة او كبيرة ومهما تكن حتى يتخذها ليفوز بما يريده . والشاب النابلسي يصر على عناده لينال برأيه الصغير كل شيء يمكنه احرازه سواء كان حسناً او قبيحاً في الحياة . وللفوز بما يريده النابلسيون يضطرون احياناً لسلوك طرق منتقدة . او للوقوع بآفة الافتراء والكذب . واذا اضطرهم الامر فانهم يعتمدون ايضاً على سواعدهم . واذا لم يتمكن الشاب منهم من انجاز العمل بنفسه فانه يجمع حوله اثنين او ثلاثة من اخوانه . وهم يعرفون جيداً طرق اقناع الرفقة واستمالتهم لجانبهم وكيفية الاستفادة منهم خاصة . ولهذا ترى مكاتب نابلس تصبح احياناً منبع فساد وتزوير وطوراً ميدان ضرب وطعان ومرة باحة علم ودرس تفوق سواها بصورة حسنة جداً . والنابلسي مجتهد . يزاحم . ويلاكم . ولا يسأم مطلقاً . ولا يُغلب النابلسي لعواطفه فلا يستعجل باجراء ما يجب تأخيره . ولا يخرج عن دائرة التأني والتؤدة . وبهذه الواسطة يثبتون للملأ منذ صغرهم انهم قابضون على زمام ارادتهم

ولم يُر ان الاولاد الصغار يهملون جهة الانتفاع والاستفاده المخصوصة من مخالطتهم لاخوانهم الصغار فيجب ان لا يوثق بما يظهره النابلسيون لبعضهم من التحابب فهو ظاهري ولا يمكن ان يكون خالصاً من المنفعة والفائدة . وخصوصاً حينما يخرج النابلسيون من بلدتهم فانهم يتقربون الى بعضهم جداً . وهم يحسنون التصنع تماماً بايهام بعضهم بعضاً ان المحبة التي يظهرونها لبعضهم انما هي محبة اخوية لاريب فيها . فان النابلسيين يعتبرون التقرب الى بعضهم قوة لهم امام الاغراب عن نابلس ويكون ذلك عندهم وسيلة للطمأنينة والاعتماد

وان هذه الخصال والاوصاف التي تظهر عليهم في صغرهم تظهر باجلى مظاهرها بالنسبة للمحيط الذي يعيشون فيه . فانهم يقتطفون من آبائهم وامهاتهم ومن اعمامهم ومن سائر اقربائهم هذه الخصال ولا يجنون من الذين يخالطونهم من غير اقربائهم سوى هذه الاطباع . ومن

المؤسف المؤلم ان حرصهم على صرف ذكائهم ومقدرتهم في سبيل منافعهم الشخصيه وتغلبهم على كل شيء — يزداد جداً بنسبة واسعة كلما تقدموا في السن . بل يتجلى فيهم اكثر من قبل وهم يرون ان كافة المتاعب التي صرفها من سبقهم للنجاح في مساعيهم وجميع الطرق التي اتبعها اولئك هي الخطة الوحيده التي يجب اتباعها والدليل القويم الذي يجب السير عليه . فتراهم مقلدين تمام التقليد كانهم آلة متحركة بارادة غيرهم يسلكون باسم الفوز والنجاح في الاعمال—خطة ابائهم واجدادهم في معاشهم ومسالكهم وصنائعهم وعقائدهم حتى انهم لايقبلون ان يبدلوا او يغيروا منها شيئاً جزئياً

يسكنون البيوت التي سكنها اباؤهم ويأكلون من انواع مآ كلهم ويقلدون آباءهم في ملبسهم وسيرهم . ويمكن ان يقال ان صفة التقليد في النابلسيين تتجلى في اجسامهم وارواحهم بسائق طبيعي لا صنع فيها ومن السذاجة الاعتقاد بان هذه الافعال الغريزية التي يجرونها ليست مبنية على غاية او قصد او انها غير مقرونة بذكاء . وحاصل القول ان الذكاء والسائق الطبيعي في النابلسيين اخوان لا يفترقان . والاقرب الى الحقيقة والصواب القول بان السوق الطبيعي نفسه هو واسطة ذكية مدركة لنوال المقصد المعين باعتبار الاساس . وهذا الادعاء هو اولى من ان يقال ان ذكاء النابلسيين مغلوب لسوقهم الطبيعي فهم يعملون ولا ذكاء كانهم آلة متحركة بارادة غيرهم

ولهذه الاسباب نرى النابلسيين متمسكين بدينهم لدرجة ان يقال انهم متعصبون والسبب في ذلك انهم وجدوا آباءهم كذلك

والحاصل ان حب المنفعة والاستفادة الشخصية هي حالة روحية اساسية في النابلسيين . حتى انه يوجد في نابلس زمرة من الاهلين لا يتحاشون مطلقاً عن اجراء كافة ما يمكن ان يعمله الانسان لينالوا قصدهم في هذا السبيل فمثلاً نرى افراد هؤلاء الزمرة متمسكين باهداب وظائف صغيرة في الحكومة لا تزيد رواتبها على بضع مئات من القروش مع ان ثروة احدهم تزيد على الوف الليرات فيندسون في اقلام الحكومة ويلازمونها من الصباح الى المساء وهل يظن ان ذلك بلا فائدة او منفعة . ؟ كلا ! فان الرجل منهم ينجز اولاً اشغاله الشخصية التي تقع له باسهل طريقة واحسن وجه . ثم انه يكون محلاً لمراجعة اصحاب الحاجات اكثر من مراجعتهم للمأمورين الاغراب بسبب انه وجه معروف في البلدة . وتراه يقبل الهدايا من جهة . ولا يتحاشى من جهة اخرى عن استعمال كافة ما يمكن اجراؤه من الوسائط بواسطة نفوذ وظيفته لسلب جميع ما بيد القروي وما يملكه . وهم من جهة ثالثة يحلون مشاكل اخصائهم

الاقرب فالاقرب بصورة مستعجلة وعلى احسن طريقة · وبهـذه الواسطة يصبحون من ارباب النفوذ والخواطر المعدودة · وبالطبع فانه تضم الى رواتبهم الظاهرية التي لا تتجاوز المئات من القروش كميات كبيرة من الاموال · ولا يتحاشى امثال هؤلاء الذين يعملون على هذا الوجه عن افشاء الاسرار الادارية احياناً فمثلاً ينتشر خبر امر يصدر باجراء التحقيق عن مأمور ويسمع به كل احد

وهؤلاء لا يريدون ان يزعل المأمور منهم بسائق المنفعة الذاتية فحينما يأتي المأمور الجديد يستميلونه الى جانبهم ويتوسلون بسائر الطرق للاستفادة والربح من المأمور الغريب فيدعونه الى دورهم ويقيمون له المآدب· والحاصل انهم لا يتحاشون مطلقاً عن صرف الفكر والنقد لاخراج ذلك الى حيز الفعل · وبعد ان يستميلوا المأمور الى جانبهم تماماً يستخدمونه حينئـذٍ كيفما يريدون · ولايتسامحون ذرة بان يستردوا ما صرفوه عليه اضعافاً مضاعفة ولا يتأخرون عن الاستفادة والربح على قدر امكانهم

ويتزاحم الخواص من النابلسيـين على استمالة المأمور الى جانبهم وذلكبنسبة نفوذهم· فاما ان تنجح احدى الاسر لحدتها او لا تنجح فاذا لم تنجح تشعرحينئذٍ بالحاجة لتشريك اسرة اخرى معها بالمسعى فتجتمع وقتئـذٍ عدة اسر وتشترك بالربح والاستفادة من المأمور · و كذلك المأمور فانه ياخذ منهم · ولكن الذي يعطونه للمامور ليس من صناديقهم بل هو من دماء القرويين المساكين والفلاحين الضعفاء · ولا يحق للفلاحين ولطبقـة العوام في نابلس مراجعة الحكومة او المداخلة مع ماموري الحكومة مباشرة · فهم مجبورون على الرجوع الى الاغا او الافندى الذي ينتسبون اليه · فان ذلك الاغا او الافندى او البك هو وكيل الفلاح وحاميه وواسطتـه والقوة الاجرائية ايضاً · والحقيقةالصحيحة انه الآمر المطلق على الفلاح وعلى غيره من الخلق

وقد شكل الخواص من النابلسيين شركات انحصارية مؤلفة من عدة اسر للاستفاده والربح بهذه الطريقة ويغلب ان يرأس هذه الشركة الانحصارية المامور الوطني الاكثر نفوذاً · فتعمل هذه الشركة لستر كافة معائب هذا المامور ولاخفاء نقائصه ولاظهاره والنهوض بهِ في نظر الاهلين · وتميل الاسر التى تبقى خارجة عن هذه الشركات الى الدخول فيهـا وتسعى وراء ذلك فان لم تنجح في مسعاها تندفع حينئذٍ بما عندهـا من سلاح العقل والمنطق والحق وجميع ما يمكن الاستعانة به من المقدسات وتاخذ بالصراخ والشكاية من ارتكاب هذا المـامور وتنشر قبائحه وتشهرها · وتعمل كافـة ما يمكنها من القوى والوسائط لاخراج هذا المامور من نابلس ولابعاده عنها

ولقد كانت هذه المشاحنات على النفوذ تؤدى احياناً الى مصادمات دموية فكانت اسرة تستولي على شرقي نابلس واسرة اخرى تستولي على غربيها فتنقطع الطرق حينئذٍ وياخذون باستعمال السلاح ولا تنتهي المسئلة ولا ينحل الاشكال الا بوقوع عدة قتلى . وقد سرت مشاحنات النفوذ الى الملحقات فاشتعلت نيران الفتن الدموية بين الاسر ذاتها التي تقطن ملحقات نابلس

ولم تقتصر استفادة النابلسيين على مدينة نابلس بل انها تعدت الى انحائها فشملت قضائي جنين وبني صعب الملحقين بنابلس . وليس اولاد الاشراف (الخاندانات) هناك سوى وسائط بيد النابلسيين

يصبح موقف الشركات الانحصارية في نابلس مشكلًا جداً امام المأمور العفيف صاحب الناموس فيقبضون على السنتهم ويلتزمون الصمت طويلًا . ولاول فرصة تسنح يعملون كافة جهدهم ويصرفون غاية قواهم لاخراج المأمور الذي لا يوافق رأيهم ولابعاده عن نابلس

قلنا ان فريقاً من الاشخاص المعروفين في نابلس لا يتأخرون عن اتخاذ كافة انواع الوسائط لاظهار مقاصدهم ومآربهم المعينه من حيز القوة الى حيز الفعل . فهم يخرجون احياناً اتباعهم نساء ورجالاً واطفالاً من الطبقة السافلة ويدفعونهم الى المحلات التي يريدونها وهم يصرخون باعلى اصواتهم جعنا . اصبحنا عراة . اليس من رحمة عندكم ؟

او انهم يجمعون هؤلاء الاناس ويدفعونهم على المأمور الذي لا يريدونه فيهينه هؤلاء ويصرخون في وجهه

والحاصل انهم يتوسلون بكافة هذه الطرق حتى انهم اذا وجدوا لزوماً يرضون بترك موروثاتهم وعنعناتهم في سبيل الوصول الى منافعهم . ومن ذلك مايعرف من تعمم المشروبات الكحوليه بين شبان نابلس في الايام الاخيرة

وترى النابلسيين للسبب ذاته على حذر ويقظة في جميع معاملاتهم . فيبيعون ويشترون باحتراز ودهاء اكثر من اللزوم في المعاملات . ومع ذلك فهم يتجنبون كثيراً الضوضاء توصلًا الى غاياتهم ويظهرون مزية خاصة بتسوية اشغالهم بدون صوت . ورغماً عن عدم وجود السلام في طباعهم فان احتياطهم غير الاعتيادي بانتهاز الفرص انقذهم من مهالك مدهشة جداً

فاذا احس النابلسيون بمانع في سبيل اشغالهم يعمدون حالاً الى تسويته وحله على طريقة سهلة بلا صوت ولا صدى . ينزل النابلسيون باعدائهم الضربات الثقيلة بصورة خفية . ولا يظهرون انفسهم في هذه الاعمال مطلقاً . وتتجلى هذه الحالة في اصغر المناسبات والوقائع وقلّ ان تسمع من افواه الاهلين في الاسواق وفي مجتمعات الناس الفاظاً قبيحة او شتائم . ويمكن ان

يقال ان النابلسيين بوجه العموم غير (بذيئي اللسان) ومع ذلك فان القلب يميل الى ان تنمو فيهم تربية روحية خيريه — ويقوم مبدأ اجتماعي مثمر بين النابلسيين الذين جنوا افضل اثمار الذكاء وهي قوة الاستنباط والاستدلال وتجلت فيهم اوفر مظاهر السعي والغيرة وقبضوا على اقوى عوامل الارادة المتينة . ولكن سقوط السوية الفكرة وياللاسف في نابلس اسوة لهـا بباقي المحلات كما سنذكره قريباً مزق اشعة هذه الانوار الثمينة واذهبها هباء منثوراً وباتت نابلس تأن بين مخالب مجتمع ما زال يأخذ بها الى القرون القديمة

[٢] — الحالة الفكريه — حينما ننظر في الحالة الفكرية في نابلس يجب علينا ان لا نغفل عن النظر بالثلاثمائة شاب نابلسي الخارجين من نابلس . فان القسم الاعظم من هؤلاء الشبان قـد اكملوا تحصيلهم في استانبول وعدداً نادراً منهم اكمل دراسته في اوربا . وهم داخـلون اليوم في وظائف المعارف والعدليه والملكية ويوجد بينهم قسم في وظائف ممتازة وجميعهم خارج نابلس ولقد فاز هؤلاء الشبان باظهار استعدادهم الاساسى في محيط بيروت اولاً ثم في محيط الاستانة وعرفوا معنى الحياة ووقفوا على لوازمها ولهذا صعب عليهم بعد ذالك — الامتزاج على اي وجه كان بمحيط نابلس . وبسبب ذلك اصبح من المحال ان نجد شاباً واحداً نابلسياً اكمل تحصيـله وعلمه ثم عاد الى نابلس واختار الاقامة فيها زمناً طويلاً . فان هؤلاء حينما يعودون الى نابلس لا يروقهم شيء من حالاتها مطلقاً فمثلاً يصعب عليهم اخراج (البوتين) من ارجلهـم والجلوس على المطارح . كما انهم لا يطيقون رعاية المراسم الشرقيه التي لا تحتمل . فلا تعجبهم مآكل اهليهـم الثقيلة ولا مسامراتهم ولطائفهم البسيطه . ولا القيل والقال المعتاد في البيوت . ولا يمكنهم تعويد انفسهم على الأكل باكراً والنوم باكراً والتردد ذهاباً واياباً من الدار الى العمل ومن العمل الى الـدار . ويصعب عليهم جداً قطع علائقهم مع العالم وسد آذانهم عن كافة تجليات الكائنات واذواقها حتى عن الشعر والموسيقى . ومن المحال ان يعثروا في نابلس على رفيق لهم قد ارتقت حالتـه الفكرية ولو شيئاً يسيراً . ولهـذه الاسباب نرى اولئك الشبان مضطرين للفرار من دورهم المنحطة سقوفها المتعفنة جدرانها الراطبة اهويتها . ومن طرقهم المظلمة التي تشبه الانفاق وللابتعاد عن الشفاه التي تهمس بالجهل وعن النظرات الخالية من كل معنى . فتنمو في نفس الشاب ضرورة الابتعاد عن نابلس تخلصاً من هذه الحالات ولا يلبث ان يترك وطنه نابلس

ومن الغريب ان اكثر الذين اكملوا تحصيلهم هم اولاد المنتسبين لطبقة الخواص . فان هؤلاء الخواص يحبون ارتقاء اولادهم وتعليمهم وتربيتهم لدرجة عاليه . والغالب انهم يتباهون بذلك . ولكنهم لا يعيرون سمعهم مطلقاً لنداء كثيرين من هؤلاء الشبان ولاشتكائهم . ورغماً عن

حرمان اكثرهم من اولادهم فانهم يجدون لذة بالبقاء على ما هم عليه من الحالات . بل هم يحفظونها ويثابرون عليها . ولا ريب ان مصادمات الغلبة والترجيح التي تقع يوماً بين القديم والحديث يُغلب فيها الشبان بصورة دائمة . فلا يجدون وسيلة حينئذٍ سوى الفرار من بلدتهم

وان العامل الاكبر بتغلب القدماء هو اتباع خطة المحافظين بصورة مفرطه واعتناء النابلسيين جداً بالمحافظة على العادات القديمة بصورة خاصة

اننا لا نشمل في قولنا هذا طبقة العوام في نابلس او طائفة السامرية . فان هؤلاء جميعاً منحطون درجات كثيرة عن طبقة الخواص وليس لاحد منهم حق الكلام مطلقاً في نابلس . وبناء على هذا فان الانقلاب الفكري الذي يقع في نابلس انما يظهر من طبقة الخواص فقط

ان تحصيل الشيوخ من طبقة الخواص وعلمهم ناقص على وجه العموم . بل هو كلا شيء . ورغماً عن وجود عدة منهم واقفين على العلوم الشرعية غير ان هذا غير كـ الطبع . اما الشبان المقيمون في نابلس فقسم قليل منهم قد اكتفى بالتحصيل الاعدادي والقسم الاعظم منهم قد اقتصر على التحصيل الابتدائي ولهذه الاسباب فانك لا تسمع كلمة من افواه طبقة الخواص حتى تتصور تعصباً اعمى مطبقاً . فتعصب هؤلاء الطبقة عبارة عن الوقوف حجر عثرة في وجه كل تجدد وهم لا ينفكون لحظة عن اقامة العراقيل . يعملون ما يرونه فقط . يقلدون الشيء حرفاً بحرف . لا يهتمون مطلقاً ولو اختلطت الكائنات ببعضها . لا يعرفون سوى المعيشة براحة في دورهم . ولا يتخطرون المعيشة على شكل مدني . لا يحبون التعلم . ولا يميلون للوقوف على قواعد الصحة وشروطها

وحاصل القول ان هذا التعصب المظلم هو عِقاب عذاب قد اطلق جناحيه فوق الاستعداد القابل للانكشاف فمزق بمخالبه الفتاكه كافة ما في نابلس من الذكاء . بل فتت اعظم جسد الارتقاء القابل النمو في نابلس

٦ — الحالة الصحية

ليس من الصعب تعيين الحالة الصحية في نابلس بمقتضى ما شرحناه حتى الآن من الحالة الاجتماعية ومن طراز المعيشة فيها ولكن رغبة بان نذكر رأياً صائباً عن ذلك — قابلنا طبيباً قديراً عُرف في نابلس منذ مدة بخدمته الحسنة وقد زار اكثر البيوت النابلسية تقريباً ان لم نقل جميعها وسألناه رأيه في هذا الامر . ويظهر من رأي الطبيب المومى اليه انه رغماً عن ان نفوس نابلس لا تتناقص يوماً بعد آخر ورغماً عن بقائها محافظة على عددنفوسها فان اعتبار ذلك فالاً حسناً

والاعتماد عليه بعدم وجود التناقص في نابلس امر غير صحيح مطلقاً . فانه من الحقائق العظيمة التي لا تنكر تفشي مسئلة تعدد الزوجات في نابلس بصورة مستولية . وتهالك الاهلين عموماً على الاستيلاد الكثير . ولا حاجة لمراجعة قيود النفوس او الاطلاع على الاحصاآت الحقيقية حتى نقف على الاعداد الكبيرة في ذلك . بل يكفي للوقوف على ذلك الخروج مساء اي يوم كان الى ازقة نابلس والسير فيها مدة . فانك تجد فيها اقطاعاً كبيرة مؤلفة من مئات من بني الانسان الصغير . ويستلفت نظرك لاول وهلة الزيادة العظيمة في اولئك نعم ان في كل عائلة نابلسية على الاطلاق خمسة اطفال او عشرة على الاقل . ولكن جميع هولاء الاطفال داخلين تحت تأثير قانون الاصطفاء الطبيعي . فقد حكم بالموت على ثمانين في المئة منهم بصورة قطعية . اما العشرون الباقون منهم فيغلب بحقهم قانون تنازع الحياة ومجادلة البقاء . وباعتبار النتيجة يظهر للمدقق ان المتوفين من الاطفال وبقية الوفيات من الكبار هي مساوية تماماً لعدد التولدات ولهذا فان ابرة المجموع في النفوس لم تتبدل ولم تتغير عن موقعها ومع هذا فانه يجب علينا ان ننظر في الاسباب التي تؤدي الى كثرة الوفيات بين الاطفال وان نشرح اسبابها :

فالاسباب في هذا الامر عديدة : اذا نظرنا اولاً كيف يحصل الولد وكيف تكون حالة ابويه اللذين يجيء منهما نفهم حالاً درجة فقدان الشرائط الصحية في الزواج . فانه من المباح في اكثر بلادنا ان يتزوج الشيخ والد العشرة او الخمسة عشر ولداً بابنة لا يتجاوز سنها الثانية عشرة او الرابع عشرة . ومن المحتمل ان يكون زواجه بها الزواج الثالث او الرابع . ومن الامور التي تستحق الذكر سوء الاستعمالات التي تقع في الصغر والكبر . واذا اضفنا الى ذلك رطوبة الهواء في دور نابلس وسوء التغذي — يحصل عندنا فكر تام عن البحث الذي نتكلم عنه . ويغلب ان يكون اكثر الامهات مصابات بالروماتيزمه او معلولات بسبب سوء التغذي بمرض آخر يسمى (رخيص) . وفي الوقت ذاته يكون البذار فاسداً . وبناء على هذه الاسباب فان الطفل اما ان يسقط من نفسه وهو جنين . او ان يختنق بعسر الولادة التي تحدثها علة (رخيص) اوانهم يضطرون لتجزئة الطفل بالآلات واخراجه

ولنفرض ان الولد يتحمل جميع هذه المشاق ويبرز الى عالم الوجود فانه يقع حالاً في مشاكل الحياة بمعيشته ونموه فيصاب منذ صغره بالروماتيزمه فتتألم اوراكه حتى لا يمكن ان تمس . وحينما يكون الطفل ابن شهر او شهرين يباح له سوء التغذي التي اعتادت عليه والدته فان كانت حالة العائلة مساعدة اصبح الطفل يأكل كل شيء يجده . بل اصبح كل فرد من افراد العائلة يدس في فم الطفل ما تصل يده اليه . واما ان كانت العائلة فقيرة وصادف ان لبن الام قليل فان الام تمضغ

قطعة من الفجل بفمها وتطعمها للطفل . فلا يمضي زمن قليل حتى يمرض الطفل طبعاً . ولا يعتقد النابلسيون بالطب والدواء ليعالجوا اطفالهم . على ان تأثير المعالجة في مثل هذه الاحوال والظروف لايكون مفيداً وينتهي الامر بموت الطفل المريض

وفي دور كثيرين من طبقة العوام في نابلس يقضي جميع افراد العائلة حياتهم في غرفة واحدة فاذا ظهر السل او التيفوس او الجدري في محل اصيب به جميع من تحويهم الغرفة صغيراً كان او كبيراً وربما اتت عليهم جميعهم . ومن العوامل المؤثرة التي تقضى على حياة اطفال نابلس وتطفي زهرتهم طواف الاطفال حفاة عراة في الازقة . وتدنسهم بالاتربة وعدم اكتسائهم جيداً ونومهم في المحلات المكشوفة وامثال ذلك من الاسباب المضرة

ولهذه الاسباب كانت وفيات الاطفال خاصة في نابلس تشكل مجموعاً مؤلماً جداً . وربما تظهر احياناً امراض معينة تفتك فتكاً فجيعاً في الاطفال . ولقد قتلت علة (الحميراء) التي ظهرت عام ٣٢٨ (٥٠٠) طفل

اما الذين لايموتون صدفة فاكثرهم يعيشون وهم مرضى فاما ان يصابوا من الرطوبة بنزلة مزمنة او يصابوا بمرض العيون . . . ولا ننسى القول بانه ليس في النابلسيين رغبة بالنظافة فرغماً عن كثرة المياه في نابلس فان الذين لايغسلون وجوه اطفالهم مرة فى بضعة ايام عدد غير قليل فهذه الاسباب وامثالها تفقد نابلس ثروة انسانية ثمينة جداً

ان صحة الرجال في نابلس مؤلمة جداً فقد توفى منهم في الايام الاخيرة ٦٠ او ٧٠ بالهواء الاصفر و ٤٠٠ او ٥٠٠ بالتيفوس . وعلاوة على هذه الامرض فان الامراض المعتاد وجودها قديماً كثيرة وكذلك المصابون بها فهم عدد وافر

وفي نابلس انواع للسل فيوجد فيها (السل الرئوي) و(السل المعوى) و(السل العظمي) . ويكثر وجود السل العظمي اكثر من سواه وسببه الابتلاء بالروماتيزمه

وتحصل علة (الملاريا) بسبب كثرة المياه وتوزعها في الوادي . والامراض الصدرية بسبب الاوساخ والاقذار . وعلل المعدة والامعاء بسبب سوء التغذي . ولكل علة من هذه العلل تأثيرات وبيلة

وفي بعض الاسر النابلسية علل ارثية خاصة بها . ولقد كان اصرار هذه الاسر على ترويج ابنائها ببعضهم منذ القديم سبباً لبقاء هذه الامراض الارثية فيما بينهم . وفي نابلس اسر تصاب عموماً بامراض القلب او بالامراض البنيوية او الجلدية او بعلة (البله) ويمكننا ان نشير الى وجود مرض (الافرنجي) احد الامراض الزهروية بين العلل والامراض الارثية . اما الافرنجي

الجديد في نابلس فهو اقـل جداً من الافرنجي الارثي . ويخمنون مقداره باربعة او خمسة في الالف

ومن الامراض الزهروية الموجودة في نابلس علة (حرقة البول) فانها منتشرة بكثرة . نعم انه لا يوجد في نابلس محلات عمومية ولكن زيادة وجود المناسبات غير المشروعة بـين الخلق يؤدي الى زيادة (حرقة البول)

ويوجد في نابلس من الامراض الجلدية (الاكزما) ومن الامراض العقلية (البله) وخصوصاً « النورستاني» و«الهستريا» ومن الامراض الروحية المعروفة في نابلس مرض « السير في المنام » (وتعدد الشخصيات) . وان الجهل والظلمة الفكرية تؤدي لزيادة هذه الامراض . وبسبب ما في النابلسيين من الاستعداد للتصديق والتسليم باقل شيء فانهم معرضون للتنويم المغناطيسي « ما نياتز » باسهل الطرق

وحاصل القول انه يمكننا جمع كافة اسباب هذه العلل تحت قاعدة واحدة وهي : (النابلسيون لا يعرفون معنى الصحة) ويجدر بنا ان نضيف على ذلك قولنـا ان صحة المرأة هي احط من صحة الرجل بدرجات . فان حيـاة المرأة كما قلنا قبلًا لا اهمية ولا اعتبار لها في نظر الرجل مطلقاً . حتى انهم يظنون ان كافة النعيم والراحة حتى الغذاء مختص بالرجل دون المرأة . ويمكننا ان نقول ان بعض الاسر وخصوصاً الرجال ارباب الحرص منهم فان الرجل يأكل اللحم وتكتفي المرأة القنوعة بأكل الخضر فقط . ومن الامور المشهوره كثيراً انه بينما تكون المرأة تعالج الروح بعسر الولادة اثناء وضع الحمل — فان زوجها يستلقي على ظهره وينام كانه لا علم له بشيء مما يقع

٧ — اللسان والادبيات

ان اللسان الذي يتكلم به النابلسيون هو العربية العامة التي يتكلم بها السوريون عموماً . ولا يوجد في نابلس لغة قائمة سوى هذه . وبسبب خروج الـذين نشأوا من مكاتب الحكومة الرسمية من نابلس وتركهـم اياها اصبح الذين يعرفون اللغة الرسمية عدداً معيناً من المأمورين ومن الاهلين . ورغمـاً عن عدم افتتاح مكاتب اجنبية في القصبة فانه يوجد للامم المسيحية في نابلس مكاتب خاصة بها فلكل من الكاثوليك والارثوذكس والبروتستانت مكتب . ولا يتجاوز عدد الطلبة في هذه المكاتب الخمسين والستين وذلك بسبب قلة عدد المسيحيين في نابلس . ويتعلمون في المكتبين الاولين الفرنساوية وفي الثالث الانكليزية ويخرجون منها . ولهذا ترى فريقاً من ابناء المسيحيين يعرفون هذين اللسانين . اما المسلمون فانهم لا يدخلون اولادهم

في هذه المكاتب ولكنهم يرسلونهم الى مكاتب القدس وحيفا وبيروت ولبنان . فاذ لم ندخل الذين تعلموا اللغة الاجنبية خارج نابلس فى الحساب نجد ان الذين يعرفون اللغــة الفرنساوية بصورة ضعيفة من المسلمين لا يتجاوز عددهم العشرة او الخمسة عشر . وبهذا الاعتبار فان اللغة المعروفة المعتمد عليها فى نابلس هي العربية

واذا اردنا ان نتصور مركزاً للهجةاللغة العربية التي يتكلم بها ابناء الانحاء الجنوبيــة من بيروت لا نجد محلاً اليق من نابلس لانزاله هذه المنزلة . فالعربية في جنين وبني صعب وبيسان هي عربية نابلس بفروقات قليلة . ويجد ابناء القسم الشمالي من بيروت الذين يحضرون الى هــذه الجهات فرقاً تاماً في اللهجة . فيلفظون هنا الاحرف الاولى من الكلمةمن مخارج ثقيلة ويلحنونها بصوت مرتفع . ويخففون آخر الكلمة بلفظها وبلحنها . وبالوقت ذاته يلتزمون الامالة ومد نهاية الكلمة . كما ان تمديد آخر الكلمات يستلفت النظر كثيراً في اللغة العبرانية

يظهر النابلسيون حرف (ق) ويضيفون خصوصاً حرف (ش) في اواخر الافعال المنفيــه . وهذا الحرف مخفف من كلمة (شيء) فمثلاً يقولون (ماقلتوش) عوضاً عن قولهم (ماقلت له شيئاً) ويحس بتكرر حرف (ش) بصورة ظاهرة . وعلاوة على ذلك فانه يوجــد عدة كلمات مستعملة في نابلس فقط وهي لاتتجاوز الخمسة اوالعشرة . ويفهم من هذا ان اللغة العربية العامية في نابلس ليست الغازاً لايقدر على فهمها الآتون من جهات سوريه الاخرى

اما اللسان العربي الموافق لقواعد النحو والصرف فليس مهجوراً تماماً . فان عــدة رجال من ارباب الوقوف على الامور الشرعية يتكلمون به بسهولة . ومما يستلزم الاشارة اليه وقوف عدة من المنسوبين للمعارف على اللسان العربي الفصيح ومعرفتهــم به . ويتهالك امثال هؤلاء القوم على قرائة الادبيات العربية ويحفظون كثيراً من اشعارها ويعتنون باقتباس شيء من بدائع الشعر العربي القويم ولهم حظ ولذة بالاشتغال بذلك . ولا يعتد المعتنون ببدائع الآثار العربية بادبيات العوام ولا يعتنون بها مطلقاً . اما غير الواقفين على اللسان العربي الفصيح فان مسئلة الادب والآثار العربية لا تشغل حيزاً في اذهانهم مطلقاً . وينظر هؤلاء الى الاغاني التي يترنم بها الاهلون وتتغني بهــا النساء في الافراح والى ضـروب الامثال المتناقلة بين الالسن والى التهاليلات التي تكررها الامهات يومياً — نظرة اغنية وضرب مثل وتهليلة فقط . ولا يحب الواقفون على اللسان العربي الفصيح ان يعرفوا ان لمثل هذه الآثار قيمة واعتباراً . فاذا سألتهم عن اغنية اخذوا يضحكون واذا كان المسئول متقدماً في السن يهز كتفيه ويجيبك بقوله (اغنية بعد هذا السن ؟)

ولو امعنا النظر نجد ان للادبيات العاميه في نابلس تأثيرات كبيرة جداً . وكم من الآثار العاميه

التي لها علاقة وارتباط بالحالة الروحية والحالة الاجتماعية والحالة الفكريه في نابلس

ومما يستلفت النظر الاغاني التي تنشدها بنات نابلس حين اجتماعهن في الازقـة وتسمى (المدحيات) . ويكثر نشيد هذه الاغاني في ليالي رمضان وقد رتبت على شكل محاورات . فتجتمع البنات افواجاً افواجاً وبيدهن الفوانيس . وينشد قسم منهن بلسان واحد قسماً من هذه الغنية فيجيبهن الفوج الآخر بالقسم المقابل لها . وربما قمن بانشاد اقسام المحاورة على الانفراد . ولا ريب ان معرفة المنشد الاول لهذه المقطعات التي تنشدها البنات الضعيفات بكل شوق ورغبة امر غير ممكن . ولكنني ارى انه لايمكننا الاعتقاد بان منشد هذه المقطعات هو شخص معين . بل الاولى الاعتقاد بان تغني البنات بمثل هذه الاناشيد في اشهر رمضان وتكرارها كل عام يؤثر في نفوسهن وينهض بهن شيئاً قليلاً فيضفن على ماينشدنه كلمة في كل عام فتصبح هذه الآثار الادبية نتيجة تأثر عمومي مشترك . وباعتبار ان مثل هذه المقطعات هي النقطة الرقيقة الشديدة الحس في الارواح فيجب التدقيق والبحث فيها . ويمكننا ان نقدر عدد هذه المحاورات المنظومـة بعشرين او ثلاثين . ويوجد بينها التام والناقص الذي لم يكمل بعد : واننا نذكر هنا واحدة من الاناشيد التامة .

— من محاورات البنات —

بنياتي بنياتي

نعم يا امى نعم يا امي

بزوجكم بزوجكم

لمن يا امي لمن يا امي

الى الوالي الى الوالي

تسلم ايدو تسلم ايدو (يده)

بزوجكم بزوجكم

لمن يا امي لمن يا امي

الى الفران الى الفران

مامن ريدو مامن ريدو (ما نريد)

وكثيراً ماتمتد الاسئلة والاجوبة في هـذه المحاورة . فنكتفي بذكر بعض منها : الا ازف ولمن يا اماه ؟ وبعد تكرار هذه الاسئلة يهتفن :

الى البنا · الى البنا

بنكسر ايدو بنكسر ايدو

الى المتصرف الى المتصرف

تسلم ايدو تسلم ايدو

الى البياع · الى البياع

ما من ريدو ما من ريدو ... الخ

فما اعظم المعاني العميقة في هذه الاعترافات التي تتدفق من قلوب هاته المعصومات الصغيرات ؟ وما دام امر الزفاف هو الفكر الوحيد الذي تتصوره البنات وهن صغيرات · فمسئلة الزواج اذن هي مسئلة انتخابية وقد اصبح المتصرف او الوالي انسب زوج يزف للبنات في المحال التي يحدث فيها النفوذ تزاحماً مدهشاً والتى يميلون فيها الى المأموريات · حتى ان الفاعل والبائع والفران اضحى في انظار الشعب مخلوقاً منفوراً يجب كسر يده · فاذا قضى نصيب هاته المسكينات عليهن ووقعن في ايدي بائع ... ، فلاحاجة لتصور مايحدث بعد ذلك ...

ويستجلب النظر في محاورتهن الاخرى مسائل غير هذه · فالبنات اللواتي يرغبن الزواج ينفتح امامهن طريق آخر الزواج اولاً والطلاق ثانياً · ومهما تنمو في نفوسهن آمال ورغائب لاجل فانهن يعلمن جيداً بانه يحكم عليهن يوماً من الايام بالهجران · ولا يخفى على هاته البنات وهن في ريعان الشباب ما سيصيبهن من المضار والاضطراب اذا اخذ ازواجهن امرأة اخرى عليهن · لانهن يشاهدن كل يوم في بيوتهن هذه الحالات · ويشاركن امهاتهن قدر استطاعتهن بالمآتم والاحزان التي يصبن بها · ويعرفن ان الزوج اذا احضر الزوجة الجديدة اساور من ذهب فهو لا يحضر شيئاً مطلقاً للزوجة القديمة · فنصيب الجديدة الضحك ونصيب القديمة البكاء · ولا يفارق هذا النصيب المشؤم النسوة حتى آخر حياتهن · ولو تركن الحياة فان الزوجة الجديدة تلف بالحرير · ويستكثر على الزوجات القديمات اللواتي اهملن وتركن قطعة من الجلد العادي يكفن بها · ولمعرفة البنات بهذه الاحوال فانك تسمع منهن شكايات خارجة من اعماق افئدتهن · ولا يغفلن دقيقة عن تمني الضرر للضرائر والدعاء عليهن · وان الشكايات الآتية هي من هذه القبيلة · فنسمع البنات يكررن بلسان واحد النغمة التالية :

(الوردي ما هو عندي ... الوردي عند الضره ... الله يضر الضره ... واللي نايم عندها) وان هذه الادعية تبقى ملازمة لهاته البنيات حتى النفس الاخير من حياتهن

وتتضمن بعض محاورات البنات احياناً الكلام عن بعض المآكل المعروفة في نابلس او عن فريق من

ارباب الصنائع · ويشير قسم منها للرغبة بالذهاب الى الحج وزيارة الروضة المطهرة · وحاصل القول ان جميع هذه المدحيات قد احدثت تأثيرًا مهماً في حياة نابلس المحلية وهو امر مشاهد

وعدا عن (المدحيات) فانه يمكننا ان نذكر شيئاً من التهاليل التى تستلفت الانظار

تهليلة

نام يا عيوني نام عين العلا ترعاك
نام وانشرح وعليك عمك فلان سهران
سهران بين رجليك ينشد لك الاشعار
يا قمر الحوش يا قمر الحوش يا مؤنس امك من الخوف
لولا جمالك الفتان ما بقى بعين احد نوم
نام يا عيني نام لذبحلك طير الحمام
يا حمام لا ترعلوا اضحكوا على فلان

وربما تكون الام تهز سرير ولدها وليس في الدار معها سوى طفلها · اما والد الطفل فمع زوجته الجديدة ولا ريب ان هذا الطفل يصبح سلوى والدته الوحيد

وفي نابلس تهليلات اخرى تبتدأ بقولهم :

ياهادي الهدايا · يامكسي العرايا · · ·

فنرى من الزائد درجها افرادياً · ولكننا نشير الى انه توجد تهاليل غير هذه معلومة في محلات اخرى ولكنها سارية اليها لقرب هذه القصبات من نابلس لمجاورتها لها · ومع هذا فان ترجيح استعمالها على غيرها ناشيء ولا ريب عن استلفاتها النظر

ولا نهمل الاشارة للاغاني التي يترغون بها في نابلس · وان اعظمها طرباً هي الاغاني التي ينشدها بفم واحد رجال طبقة العوام حينما يجتمعون في محل واحد ويأخذون بالتصفيق بايديهم · وان المعتبر من هذه الاغاني عند هؤلاء هي (المواليات البغداديات) وفاتحتها اي مقدماتها ما يسمونه (بيتات المواليه) ولا يتجاوز عدد هذه الاناشيد الاربعين او لخمسين هذا اذا نزلنا الى ما يقال منها في نابلس · فيأخذ اصحاب الاصوات الجميلة بانشاد افتتاحيه (بيتات) ثم يغني واحد من المجتمعين واحدة من (المواليات البغداديات) ولا يكاد ينهي المصراع الاول وهو قوله :

بدنا الاماجد ياسبع الفلا والغاب ...

حتى يعيد المجتمعون بلسان واحد احد البيتات . وحينئذٍ ترتفع اصوات الحاضرين جميعهم بطرب زائد ويقولون :

تحت هودجها وتعالجنا

صار سحب السيوف ياويل ... الخ

ثم يعودون الى المواليات فينشدون مصراعاً آخر وهو :

بهمتك يا بطل تخشى اسود الغاب

وعلى هذه الخطة يثابرون على نشيدهم

ويمكننا ان نذكر هنا مثالاً من الاغاني الوطنية في نابلس التي قيلت بحق رجل يدعي (طيار باشا) كان حاكماً في نابلس وقد ترك فكرة رديئة باستبداده وهي :

ياويلا ياويلا . ياويلاه المصائب

الله يا الله . محمد رسول الله

خنزير الشيب . عبدناها لصلايب

طيارباشا ويش لك علينا

بارود فينا يازخ المطر

ياويلا ياويلا . ياويلاه المصائب ... الخ

وقد دارت هذه الاغنية على الالسن منذ سنين عديدة . ولا يزالون يكررونها بتأثر وتهيج وتوجد مقطعات اخرى جعلت للمراقص في الليل ومنها

(اغنية)

حس طيره مغربيه

على سور اسكندريه

كلمتني . كلمتها

قالت انا النابلسيه ...

ويشبه ذلك ايضاً :

سروج الخيل ياغاوي

اتقنطر يا المعناوي

او

عبله ياموالينا

اشبه بللي تماشينا

ولا يزالون يكررون مثل هذه الاغاني المبتدأة بمثل هذه المقدمات · وتبلغ هذه الاغاني عددًا وافرًا

ونرى ان كافة هذه الآثار المستعملة في نابلس هي شبه موزونة · وان لم تكن موزونة فان بين مصراعاتها قربًا باعتبار النغم · وتتغنى البنات الصغيرات في الايام الاخيرة مقطعات افرادية تعلمنها خاصة في المكاتب مثل :

يا معشر البنات

هلموا للعلوم

فليس من حياة

الا بها نقوم

اما الصبيان الذين ينشأون في مكاتب الذكور فانهم يتعلمون اغاني الحرية والوطن باللغتين العربية والتركية وينشدونها

واما ضروب الامثال المستعملة في نابلس فانها تبلغ المئات عددًا · ومن الامور السهلة على النابلسيين اقوياء الحافظة والذاكرة اتباعهم طريقة ضرب الامثال المتداولة بين الرجال والنساء في نابلس في كل كلام والاتيان بمثال منها لكل مسئلة وذلك اقناعاً لمخاطبهم · ويوجد بين هذه الامثال قسم معروف بين الامم الاخرى ومستعمل في غير السنة ومنها :

اسمع وطنش

اقل لك يا جاره حتى تسمعي يا كنة

وتوجد ضروب امثال اخرى غير مختصة بنابلس ولكنها مستعملة بين كافة المتكلمين بالعربية ومنها :

عصفور كفل زرزور طلعوا الاثنين طيارين

كل من ركب الخيل ما صار خيال

ويمكن ان يقال ان كافة ضروب الامثال في نابلس هي من هذا القبيل · وكما انه يوجد بين ضروب الامثال هذه شيء يتضمن رموزًا ومعانٍ ثمينة فاننا لا ننكر ان قسماً منها خارج عن حدود الدائرة الاخلاقية · هذه هي الحالة الادبية في نابلس

اما الصنائع النفيسة : فلا شيء منها في نابلس . واذا استثنينا فوجين من المغنين الذين يستخدمونهم في الاعراس . وعدة من العازفين على الآلات الذين ضلوا طرايقهم ورمتهم الصدفة في نابلس فانه يصعب جدًا العثور على اثر للموسيقى فيها . واذا فرضنا وجود واحد او اثنين من الذين يضربون على العود بصورة خصوصية فان هذا الامر لا يكون وسيلة للكلام عن النابلسيين باسم الموسيقى وكذلك حالة العزف على البيانو . وخلاصة القول ان النابلسيين يكتفون بالاغاني التي تتبعناها في قسم الادبيات تطيباً لاذواقهم وتلذيذًا لاسماعهم

— ٢ —

عكا

١ — وضعية عكا · منظرها · داخليتها

تقوم عكا في منتهى النقطة العليا من الخليج الذي يبدأ من حيفا ويمتد نحو الشمال راسماً باعوجاجه علامة الاستفهام · حتى انها ترى عن بعد كانها رأس في البحر او شبه جزيرة صغيرة ملتصقة بالساحل · وقد احيطت هذه الشبه جزيرة بسور قديم محكم الاطراف ومواز للبحر · واحيطت من طرف آخر بجدران مرتفعة قد بقيت من اقسام السور الذي احاط بالمدينة من جهة البر مبتدأ من الشرق وممتداً نحو الشمال ومنعطفاً بعد هذا الى الغرب حتى ينتهي بالبحر على شكل زاوية قائمة · وبهذا الاعتبار فان هيئة قصبة عكا عبارة عن ساحة مساكن مستطيلة الشكل قد تراجعت الزاوية الشرقية الجنوبية منها نحو داخلها · وقد تراكم كل شيء في هذه الباحه فوق بعضه · حتى انك ترى من بعيد مآذن الجوامع وسقوف الدور وقبب الكنائس والقلعة القديمة وسائر الدور متراكمة فوق بعضها وهي القسم الداخلي ضمن السور وما عدا ذلك فان ثلاثين او اربعين داراً فقط متفرقة ذات حدائق · فاذا اضفنا هذه الدور الى مجموع البلدة تعرف حينئذ الوضعية العمومية لقصبة عكا بجميع مشتملاتها

ويستدل بسرعة من الاقسام الخربة من السور الذي ضيق الخناق على القصبة انه قديم منذ اعصر · وقد تهدمت اقسام السور تماماً في الجهتين الغربية والشمالية ولم يكن يجد الداخلون الى عكا منذ القديم سوى مدخل في الجهة الشرقية وهو باب من الحديد · ولكن فتح لها منفذان في الجهة الشمالية منذ ثلاث سنين او اربعة · وبقيت كافة مساكن عكا ضمن هذه الدائرة المحدودة · ولقد كانت عكا وقلعتها قبل اعلان الحرية محلاً لنفي المجرمين وتبعيدهم ولهذا كانوا يرون ان ابقاءها ضيقة متراكمة اوفق · حتى انهم كانوا لا يسمحون باقامة الدور في باحة السور التى يبلغ محيطها نحواً من اربعين متراً مراعاة لخاطر القلعة التي لم يبق لها شيء من الاهمية والاعتبار مطلقاً · وكانوا لايسمحون باشادة الدور ايضاً في ساحة اخرى عظيمة داخل السور بداعي انها محل لرمي المدافع · واما القسم الباقي داخل السور فقد كان ثلثه بنايات عسكرية والثلث الاخرى اماكن خاصة بالاوقاف فاضحت عكا التي تبلغ نفوسها نحواً من عشرة آلاف شخص محصورة في ساحة ضيقة

جداً محرومة من الترقي والظهور . وبسبب ذلك كانت دورها متراكمة ومتلاصقة ببعضها حتى انك لا تجد شبر ارض خالياً . وكانوا ينشئون دورهم على عدة طبقات . وقد اضحت ازقتهم انفاقاً ضيقة كانها مداخل خرابات قديمة . فرشت ازقة عكا باحجار ثخينة مربعة الشكل ولكنها لا ترى وجه الشمس مطلقاً ولهذا لاتنقطع روائح العفونة الخارجة من جدرانهـا . وليس من الممكن الجمع بين السكنى في هذه البيوت والتخلص من العلل والامراض نعم لا ننسى ان الطبقات العليا من الدور تطل على البحر وهي ذات مناظر لطيفة ولكن لا يحرم احـد من الاقامة في الاقسام الباقية من الدور والاختناق من قلة هوائها ورطوبتها وروائحها الكريهة المتعددة

في قصبة عكا سوق ضيقة جداً وحوانيت تفضل عليها حوانيت القرى وبناء قديم لدار الحكومة قائم في احدى الطرق المظلمة المتداخلة . وجامع الجزار احمد باشا . وقد استحضرت احجار هذا الجامع من قيساريه (Cesaré) وبني بها والحاصل ان منظر داخلية عكا مكرب وكانهُ حمل من الاحجار ساقط فوق رأس الانسان

ان البلدة القديمة ذات الاسرار والخفايا هي بكافة وضعيتها بقايا تاريخية . ولا يمكن ان تجد بلدة غنية بوقائعها اكثر من عكا . فكم لاقى الفينيكيون بسبب قصبة (Acco) القديمة وقدسمى اليونانيون اخيراً هذه البلدة (Ptolemaïs) التي هي كناية عن (Ptolémé d'Egyte) . وكم بدلت مستعمرة الانبراطور (قلود) البحرية من المالكين لها . ولما استولى العرب عليها دعوها عـكا . وتحارب الصليبيون وصلاح الدين مراراً في هذه الانحاء . والى هنا دخل ريشارد قلب الاسد . ومنذ هذا التاريخ ننظر الى عكا بانهـا مدخل المسيحيةً في ارض فلسطين حتى ان سان جان سمي هذه البلدة (Saint-jean d'Acre) . ثم انتقلت الى ايدي المسلمين فملكها الملك الاشرف والشيخ ظاهر العمر . ثم انتقلت الى يد الجزار احمد باشا . وحاصر نابليون عكا ثم جاء ابراهيم باشا وهدمها . والقى الاسطولان الانكليزي والنمساوي قنابلهما بالاشتراك على اسوار عكا . ولقد ازالت هذه الوقائع المتوالية جميع ما في عكا من الآثار القديمة

وعلى هذا فان عكا بلدة عرفها الفينيكيون وبنو اسرائيل واليونانيون والعرب والترك والفرنساويون والانكليز والنمساويون والمصريون وغيرهم . وهذه مزية عكا . وعندي اذاً يجب ان لا يبحث في عكا عن وضعية اوعن منظرة اوعن انتظام . واذا غلبت عليَّ عواطفي فانني اقول انهُ يجب ان تغلق الابواب الحديدية الكبيرة في عكا وتترك هذه البلدة لحالها خالية خاوية . يجب ان تبقى عكا شيخة ذات اسرار وخفايا

٢ — الاحوال العمومية في عكا

[١] — قضاء عكا — ان قضاء مركز عكا قائم في الشمال الغربي من اللواء المسمى باسمه ويحده شمالاً قضاء صور وغرباً قضاءآ صفد والناصره وجنوباً قضاء حيفا . ويحيط به من الجهة الغربية البحر الابيض

الاقليم — يعتبر اقليم عكا وحيفا من الاقاليم الحارة المعتدلة . فالثلج لايسقط الا نادرًا جدًا ايام الشتاء . وتمطر السماء امطارًا غزيرة في اشهر تشرين الثاني وكانون الثاني وشباط . وقد سقط (٩٤١) مليمترًا من المطر عام ١٣٣١ . ولم يحدث ان درجة الحرارة تسقط ايام الشتاء الى ما تحت الصفر . فهي تتراوح ما بين الدرجة الخامسة والثالثة فوق الصفر . وقد بلغت درجة الحرارة الحد الاعظم عام ١٣٣١ فكانت (٤٣) ونزلت ذلك العام الى ٥ و ٣ فوق الصفر . اما الحرارة المتوسطة ايام الصيف فهي من الخمسة الى العشرة

[٢] — التشكلات الارضية — ان التشكلات الطوبغرافية في قضاء المركز بل وفي سائر اللواء عبارة عن تلال مؤلفة من اراض بركانيـة محاطة بسهول . وان اكثر الاحجار الظاهرة عبارة عن احجار كلسية ورملية . وفي داخلها مقادير كثيرة من الحوامض الحديدية . ويوجد الكلس في تركيب الطبقات الترابية العميقة القريبة من الساحل . اما قوتها الانباتيـة فكثيرة جدًا حتى انهـم يزرعون الترمس في الرمال . وتوجد قليلًا المواد الاصلية في الطبقـات العليا من المحلات الرملية . ولايوجد اثر للحامض الفوسفوري في هذه الاماكن . وتتألف هـذه الطبقات من ٠٦٥ و٠ من البوتاس و٣٠ و٠من الازوت ومابين ٣٦ و٠ و ٥٦ و٠ من الكاربون

وبفضل مساعدة الاقليم يخرج في هـذه الاتربة الضعيفة بتركيبها عنب ولوز نفيسان جدًا . ويزرعون في هـذه الاراضي التي لا تصلح لزراعة القمح بطيخاً وقاووناً وبطاطة . وكلما يتقرب الباحث الى الجهة الجبلية يجد ان الارض اصبحت حجرية كلسية وربما وجـد اقساماً من الاراضي مغطاة بطبقة من احجار البازلت المدورة

ولون التراب في الاراضي الجبلية احمر وابيض واسود . وتوجد مقادير كثيرة من الحامض الحديدي في تركيب التراب الاحمر الذي يسميهٔ العرب (الارض الحمراء)

وامـا التربة البيضاء التي يكون لونها رمادياً او رصاصياً فهي منبتـة للغاية . الا انه يكثر في مثل هذه الاراضي القديمة البوتاس والحامض الفوسفوري الممزوجان بكثـير من المواد

الضوية · وباعتبار العموم فان القسم الساحلي من قضاء عكا كلسي ·وقسم السهول رمادي ورملي ويغلب ان يكون تباشيرياً

ويخرج الماء العذب غالباً في الاراضي الرملية من الساحل على عمق ٢٠ او ٦٠ متراً واحياناً على عمق ١٠ او ٢٠ متراً . اما طبقة المياه في الاراضي الجبلية فتظهر على عمق ١٠٠ متر

[٣] – نفوس عكا – هذا هو احصاء النفوس في قضاء عكاء :

مقدار النفوس	اسماء الطوائف	العام	مقدار النفوس	اسماء الطوائف	العام
٢٨٢٥١	الاسلام	١٣٢٥	٣٢٢٤١	الاسلام	١٣٣١
٠٣٦٤٨	الروم	«	٠٤٠٠٠	الروم	«
٠٤٠٩٧	الكاثوليك	«	٠٤٣٦٧	الكاثوليك	«
٠٠٣٧٣	البروتستان	«	٠٠٣٣٤	البروتستان	«
٠٠٢١٢	اللاتين	«	٠٠٢٧١	اللاتين	«
٠٠١٣٠	اليهود	«	٠٠١٠٥	اليهود	«
٠٠٠٠٤	الارمن	«	٠٠٠٠٤	الارمن	«
٣٦٧٢٠	المجموع		٤١٣٢٢	المجموع	

ظهر من الجدول المذكور اعلاه ان قضاء عكا زاد في ست سنين حسب القيود الرسمية (٤٦٠٢)

ويؤخذ من القيود الرسمية المقادير الآتية عن المواليد والوفيات في قضاء عكاء :

المواليد	الوفيات	العام	المواليد	الوفيات	العام
٤٥١	٤٥٧	١٣٢٥	٦٢٢	٢١٧	١٣٣١

وان التدقيق في هذا الجدول يستلفت نظر صاحب المراق للبحث عن التحسين الواقع في الاحوال الصحية والولادية ولكن لا يصح لنا مطلقاً الاعتماد على قيود النفوس لانها ليست المرآة الحقيقية للمواليد والوفيات الصحيحة

وفي قضاء عكا (٦٠) قرية . ومنها القرى الآتي بيانها وهي التي تزيد نفوسها على الف شخص : بصه (١٧٢٠) مجد الكروم (١٠٤٤) مغار (١٥١٦) سخنين (١٥٨٢) طمره (١١٠٠) شعب (١٢٤٠) . وفي مركز ناحية شفا عمرو المرتبطة بمركز اللواء ٢٧٢٤ شخصاً والقسم الاعظم منهم دروز

[٤] — تاريخ عكا — ان قصبة عكا هي مركز اللواء . والمسافة من حيفا الى عكا ساعة ونصف بالعربة وعلى بعد عشرين دقيقة منها تمر فوق نهر المقطع البالغ عرضه (٣٠) متراً . ويكثر على سواحل البحر الصدف الذي كان الفينيقيون يصطادونه لاستخراج الصباغ الارجواني منه . ويوجد هذا الصدف بكثرة في نهر نعمين خصوصاً . وبعد ان تقطع هذا النهر تترك على يمينك « تل الفخار » الذي اتخذه نابليون قبلاً مقراً لجيشه . وبعد ان تقطع خمس دقائق تدخل الى البلدة من بابها . كانت تسمى عكا بالقديم عكو او عقو . وقد كانت بلدة تجارية كبيرة ايام الفينيقيين . ويستدل من الآثار القديمة الباقية خارج البلدة ان القسم الاعظم منها كان في تلك الناحية من القصبة

وفي زمن البطالسة الذين تولوا ادارة الحكومة في مصر بعد اسكندر الكبير نسبت بلدة عكا الى اسم احدهم وسميت (بطولاميس) . ويستدل من كتابات مؤرخي روما ومن السكة المضروبة ان الامبراطور « قلود » تولى ادارة عكا ايضاً . وقد فتحت اثناء الفتوحات الاسلامية على يد معاوية بن ابي سفيان والحقت بالبلاد الاسلامية وقد عمرها هشام بن عبد الملك

ان بلدة عكاء قائمة على رأس مثلث داخل في البحر في المنتهي الشمالي من خليج عكا البالغ اتساعه ١٢ كيلو متراً والمغلق برأس الكرمل . وتبعد عن بيروت تقريباً من ١٨٠ كيلو متراً في الجهة الجنوبية . وهي محاطة بثلاثة اسوار داخلة ببعضها . ولكن الاقسام الساحلية منها خربة واما الاقسام البرية فلا تزال مستحكمة ومتينة

استولى « بودوين » الاول بمعاونة الاسطول الجنوي على عكا عام « ١١٠٤ » م واتخذها الصليبيون اسكلة حربية وتجارية . وبعد موقعة حطين المشهورة استرد صلاح الدين الايوبي هذه البلدة واستولى عليها . وبعد اربع سنين استعاد ريشارد قلب الاسد ملك انكلترة هذه البلدة . واصبحت من ذلك الحين طريقاً لانتشار المسيحية في الاراضي الفلسطينية

ونقل (الشفاليه) الروحانيون مقرهم العمومي الى حيفا . حتى ان الشفاليه (سن جان) منح اسمه لقصبة عكا . وعلى عقب الانتصار المسيحي الاخير اجرى القتل العام في المسلمين . ولكن في السنة ذاتها اي عام ١١٩١ م و ٦٩٠ هجرية استرد الملك الاشرف (صلاح الدين جليل قلاوون) احد ملوك مصر مدينة عكا بصورة قطعية فانتهت بذلك الحكومة الصليبية من هذه الديار .

وقد فتح حضرة السلطان سليم ياوز مدينة عكا مع سائر البلاد الشامية والحقها بالبلاد العثمانية وربطها بايالة صيدا

وفي اواسط العصر الثامن عشر الميلادي اعلن ظاهر العمر المشهور عصيانه ضد الحكومة العثمانية فاستقلت جميع انحاء الجليل وعكا وكان متصرف بيروت في ذلك الحين احمد باشا الذي لقب اخيراً بالجزار بسبب ما سفكه من الدماء في محارباته مع العربان · فسار على العاصي ضاهر وغلبه فعين محافظاً على عكا · وفي عام ١٧٩٩ هاجم الجنرال الفرنساوي نابوليون بونابرت قلعة عكا · فلم يقدر على اقتحام المقاومة الغضنفرية التي اظهرها المحافظ احمد باشا الجزار ولم يستطع ان يتحمل ايضاً هجمات حليفتنا في ذلك الحين الدولة الانكليزية من جهة البحر فعاد نابليون خائباً مدحوراً · ويدعون ان عكا هي القلعة الوحيدة التى حاصرها نابليون ولم يستطع فتحها · وعلى اثر هذا الانتصار الباهر عين الجزار احمد باشا والياً على الشام مكافاة له · وفي سنة ١٨٣٢ خرب المهاجم ابراهيم باشا قسماً مهماً من عكا · وبعد ثماني سنين ارسلت اساطيل النمسا وانكلتره فنابلها عليها · وقد خربت هذه الوقائع التاريخية اهم الآثار العتيقة والابنية القديمة في عكا · وللمرحوم الجزار احمد باشا جامع لطيف ومدرسة (وقد استحضر احجارهما من قيسارية) وله حمام ايضاً وثكنة عسكرية جسيمة جداً · وفي الابنية المذكورة صناعة معمارية وخصوصاً التزيينات بالحجر الصيني فانها لطيفة جداً · ويقال ان المستشفى العسكري اليوم قد كان مقراً للشفاليه (سن جان)

وفي داخل الجامع المكتبة الاحمدية وقد بناها الجزار احمد باشا مع بناء الجامع عام ١١٩٦ وجددت عام ١٣٢٣ وصنفت كتبها · ويبلغ عدد الكتب فيها ١١٩٩ منها ٤٨٨ كتب تفسير وحديث وقصص نبوية و٤٦٦ كتب لغة وتصوف وادب واما الباقي فهي كتب تاريخ وجغرافية وغيرها من العلوم والفنون

[٥] — الوضعية العمومية — تبلغ نفوس القصبة ٩٤٧١ منهم ٧١٢١ اسلام و ١٤١٨ روم و٥٩٥ كاثوليك و١٣٣ لاتين و ٦١ موارنة و١٠٥ يهود

البلدة محاطة بسور محكم وبسبب منع البناء قبلاً خارج السور فقد اصبحت الدور متلاصقة متراكمة فوق بعضها · والازقة عبارة عن انفاق ضيقة · فأصلاحها يحتاج لمصارف زائدة · وبعد اعلان الدستور سمح للاهلين بالبناء خارج السور فانشأوا عدة بيوت والمأمول ان تتشكل بعد الحرب في تلك الجهة محلة جميلة على الطراز الجديد

كانت عكا حتى الزمن الاخير مخرجاً لكافة حوران ولما جاورها من البلاد الداخلية فكانت بهذه الواسطة اسكلة تجارية مهمة وكان مرفأها المساعد لدخول المراكب الشراعية الكبيرة فيه خير مسعف لها على المعاملات التجارية

ويدعون انه كان يخرج من مرفأ عكا سنوياً مليونان ونصف مليون كيلة من الحبوب (غير

انه لم يمكن الوقوف على احصاء صحيح في هذا الموضوع بسبب ارسال القيود الرسمية الى الداخلية بواسطة الحرب) ولكن بعد ان ربط الخط الحديدي مدينة حيفا بجهتي جنين والشام اخذت تجارة عكا تضمحل تدريجاً وبدأت واردات الكمرك فيها بالتناقص فكانت كما يأتي :

غروش		
٤٤٧٠٠٠	عام	١٣٢٣
٥٨٣٠٠٠	«	١٣٢٤
٤٥٠٠٠٠	«	١٣٢٥

وقد اضطر الحمالون الذين كانوا يربحون يومياً ستة مجيدية او سبعة لان يتركوا عكا ويذهبوا الى حيفا • واغلقت الخانات الكبيرة التي كانت تأوي مئات الالوف من الجمال والبغال وغيرها من حيوانات النقل — ابوابها واحدًا بعد آخر . ولا يملك الانسان نفسه من التأثر والحزن على مرفأ مشهور منذ القديم بتجارته البحرية وعلى اهاليه الذين اصيبوا بهذه الضربة التجارية . وقبل الحرب الحاضرة بمدة قليلة وصل الخط الحديدي الذي كان ينتظره العكاويون بفارغ الصبر الى بلدتهم التاريخية وما كادت الحركة التجارية التي كانت غارقة في سباتها ان تستيقظ حتى داهمتها الحرب العمومية وفضلًا عن تعطيل القطار الحديدي فقد قلعت خطوطه ايضاً . وان العكاويين الذين ظهر البشر على وجوههم مدة قليلة تراهم ينتظرون بصبر لا مزيد عليه اصوات القاطرات ان تعود اليهم ناقلة البشائر عن حياتهم التجارية وثرواتهم التاريخية

[٦] — المعارف في قضاء عكا — يوجد في مركز اللواء مكتب اعدادي يضم ٧٠ طالباً واربعة مكاتب ابتدائية اثنان للذكور واثنان للاناث . ففي مكتب الذكور الاول ١٨٤ تلميذاً وفي الثاني ٦٨ ولا بأس بالهيئة التعليمية في المكتب الاول . وانها في الثاني ايضاً ليست رديئة . وفي مكتب الاناث الاول ٦٨ طالبة وفي الثاني ١٥٢ طالبه . وعلاوة على ذلك ففي البلدة مكتب ذكور ابتدائي للروم الاورثوذكس . ومكتب للحضانة تديره امرأة مسيحية . وفي كل مكتب منهما من الستين الى السبعين تلميذاً . ولقد اسس في قرى زيب وشفا عمرو وشعب ومجد الكروم وسخنين مكاتب ابتدائية وذلك من اصل ستين قرية ملحقة بمركز اللواء • وان المبلغ المخصص لمعارف قضاء عكا يبلغ ١٧٤٠٢٢ غرش وهو لا يصرف مثل سائر المحلات في الجهات اللازمة ليخفف شيئاً على الاقل من الجهالة المتكاثفة . وان يكن المبلغ غير كثير ولكنه غير قليل ايضاً وهو على الاقل يكفي لافتتاح مكتبين صحيين جامعين للغاية والقصد من العصر الحاضر

٣ — الاحوال الاجتماعية في عكا

ان سبعة آلاف وكسور من نفوس القصبة البالغة تقريباً من العشرة الاف هم اسلام . وما يبقى من ذلك فهو منقسم على المذاهب الآتية بنسبة الكثرة : روم اورثوذكس . روم كاثوليك لاتين . يهود . موارنه . بروتستان . ارمن . وان يكن لاحد من هؤلاء شخصية معينة وحالة معلومة فهم المسلمون . ولكن ما اعظم هذه الشخصية ايلاماً ... وبقدر الانحطاط المؤلم في دور عكا فان معيشة الساكنين فيها اشد انحطاطاً واكثر ايلاماً ... فاذا استثنينا من بين الاهلين عموماً ثمانية او عشرة من الاسلام وخمسة او ستة من المسيحيين الذين يشتغلون بالتجارة والزراعة وهم اصحاب ثروة ويملكون املاكاً واراض بقيمة عشرين وثلاثين الف ليرة فان الباقين من الاهالي لا يشتغلون بغير المهن الفقيرة مثل الصيادة والملاحة وبيع الخضر . يكتسي الاهلون غنبازاً او سروالاً ومن فوقه حزام (زنار) ورداء (جاكت) وطربوش او عمامة (اغبانية) وهم جميعاً فقراء . وان عكا تحسب من جملة البلاد المنحطة جداً بمعارفها . وبسبب حرمان عكا من مكتب منتظم بقي محيطها على فطرته

يمضي الاهلون اوقاتهم في القهوات . ففي خارج السور ست قهوات تراها ممتلأة ليلاً ونهاراً

ليس في العكاويين ذكاء حاد . او حركة زائدة او اجتهاد او شيء يشبه ذلك مثل التشبث والميل الى العمل . والحاصل انهم خالون من كل شيء . وفي الوقت ذاته فانهم يقرون بانهم لا يحبون بعضهم وليس فيهم ميل او رغبة بمعاونة بعضهم بعضاً . ورغماً عن ان قيافة العكاويين الخارجية نظيفة فان داخلية دورهم التي لا ترى النور قذرة . وعبثاً البحث عن الانتظام فيها

يمكن ان يقال ان تعدد الزوجات هنا قليل جداً . والسبب في ذلك اكثر من كل شيء هو الفقر . لا يحسب العكاويون مقتصدين فهم يصرفون ما يجدونه وما تصل ايديهم اليه . ولا يفتكرون بالمستقبل . ومن جهة اخرى فان اهالي عكا متدينون ولكنهم غير متعصبين . وتمتلأ جوامع عكا الستة بالمصلين يوم الجمعة ... وقد انتشرت هنا الطرق الصوفيه مثل الشاذليه والرفاعيه . وتسمع ليالي الجمعة والاثنين من محلات متعددة اصوات الاذكار التي تقام

ويتبع العكاويون في مراسم الزواج وغيرها العادات المتبعة في عموم السواحل . ويتبعون طريقة الزفاف الجارية في بيروت . الا ان الزوج يرسل الى خطيبته بعد عقد النكاح هدية كملائة او ثياب وتسمى (الفطور) ... وليس من المعتاد الختانه قبل ان يصل الصبي الى الخامسة من عمره

ويغلب على العكاويين ان يذهبوا الى حوانيتهم او الى القهوات ومنها يعودون الى دورهم وقد طبعوا على الخمول ولذلك لا تراهم يذهبون الى محل نزهة لأستنشاق الهواء . ومن الصدفة خروجهم للنزهة الى ساحل البحر . ويخرجون احياناً الى محل بعيد عن عكا مقدار ربع ساعة وهو جنينة (الشاحوطه) وهي تقريباً عبارة عن مستنقع ويذهبون الى (البهجه) في الجهة الشمالية . ان اللغة في عكا هي عربيـــة العوام فقط . ويلفظون هنا (القاف) مثل (الهمزه) ويلحقون احياناً حرف (الشين) في اواخر بعض الافعال مثل النابلسيين . غير انهم لايمدون الكلمة

ولا يتكلمون هنا بلسان غير العربية . ولا يتجاوز عدد المتكلمين بالتركية واحداً في المئة . ويقال ان اثنين فقط من المسلمين يعرفون الفرنساوية . ولا يتجاوز عدد المتكلمين بالفرنساوية من المسيحيين الخمسة والعشرين . وليس في عكا اغانٍ خصوصية او ضروب امثال تمثل الحالة الروحية فيها . وحاصل القول ان عكا باعتبار حالتها العمومية ظل متكاثف

٤ — الحالة الصحية في عكا

ان الامراض التي لاتفارق عكا بصورة دائمة هي الملاريا والحمى الراجعة . ولهـذا اسباب متعددة : اولاً — وجود المستنقعات فانه على مساحة ربع ساعة تقريباً من شـرقي عكا يوجد مستنقع مساحته السطحية من كيلومترين الى ثلاثة كيلومترات مربعة وعمقه نحو من متر ويسمى (شحوطه) وهو يتكون من طغيان نهر (النعامين) ايام الشتاء

ثانياً — يوجد مستنقع آخر داخل البلدة وفي الجهة الغربية منها ويسمى (بركة الحمام) وتبلغ وسعته المائتي متر مربع وهو يتكون من تراكم مياه الامطار . ثالثاً — يوجـد مستنقع آخر بالقرب من بركة الحمام مساحته تقريباً من خمسمائة متر ويتكون ايضاً من مياه الامطار . فهذه المستنقعات الثلاثة تفسد هواء عكا فضلاً عن ان هذه البلدة نفسها بعيدة فراسخ كثيرة عن الشروط الصحية . واضف الى هذه الاضرار تلاصق الدور ورطوبتها وعدم نفوذ الشمس والهواء اليها وتراكمها فوق بعضها والروائح الكريهة التي تنبعث من الترشحات المعلومات . وعلاوة على ذلك فانه يوجد في هـذه المساحة الضيقة عدة مقابر وبضع خانات وعدة اصطبلات وعدة مواقد للحمامات فاذا نظرنا الى مجموع ذلك نعلم الحالة الكريهة التي يصل اليها الهواء في هذه البلدة ونقف بسهولة على اسباب وقوع كافة الامراض

ان ماء عكا رديء جداً فان هذا الماء يخرج من قرية (كابرى) في الجهة الشمالية البعيدة نحواً

ثلاث ساعات عن القصبة ويجئ اليها بطريق مصنوعة من الاحجار ويوزع على الدور. الا انهُ معرض لكل انواع الاختلاطات في الطريق ولهذا تراه في عكا عكراً مع انه براق في اصله حتى ان طعمه يفسد. والغالب انه يكون مملوءاً بالميكروبات

ورغماً عن ان الاهالي هنا غير منهمكين بالمشروبات ولكن المناسبات غير المشروعة تزايدت جداً بسبب الفقر والضرورة. ويقال انه يقع يومياً عدة وقائع من حوادث اسقاط الجنين

ان اهالي عكا على الغالب صفراوي المزاج وعصبيون. ويكثر الضعف في الاطفال. صحة النساء مؤلمة جداً ويكثر المرض العصبي (نوارستهني) فيهن. وللاهلين اعتقاد غريب وهو ان الذي يغتسل في مستنقع (عين البقر) يشفى من كل داء. وهذا المستنقع يبعد عن عكا خمس دقائق في الجهة الشرقية وهو مملوء بالاقذار والعفونات. فاذا تصورنا ان الطبيب الوحيد لشفاء العكاويين العوام هو هذا المستنقع وهم لا يراجعون طبيباً سواه — تظهر لنا درجة الصحة في عكا

٥ — الرقابة بين عكا وحيفا

ان مدينة حيفا التي قطعت بخطى واسعة مراحل كثيرة في سبيل المدنية وازدادت اتساعاً عاماً بعد عام وازدانت بقصورها الجميلة ودورها التجارية الكبيرة وبحدائقها البديعة — قد قامت اخيراً تحاول غصب عكا مركز للتصرفية كما غصبتها من قبل حياتها التجارية فيقول اهالي حيفا: «ان القائمقامية لم تبقَ كافية لبلدتنا الجميلة التي اصبح ازدياد نفوسها وترقيها التجاري امراً محسوساً. وان مركز المتصرفية آخذ بالانطفاء تدريجاً. وان الاهتمام باصلاح بلدة اصبحت معطلة تماماً من الوجهة التجارية وهي اقــل من بلدتنا نفوساً والاعتناء بجعلها في حالة مدنية — هو امر غير ممكن وان بقاء مركز المتصرفية هناك امر غير جائز على ان القائمقامية لا تكفي للقيام بحاجيات مدينة حيفا المدنية والعمرانية ولهذا يجب عدم التردد بنقل المتصرفية الى هنا والقائمقامية الى هناك»

وإن العكاويين يدافعون بكل قواهم ليدفعوا هذه اللطخة السوداء عن بلدتهم القديمة التي ارتبطوا بها بروابط تاريخية ويقولون في سبيل المدافعه: «اولاً — ان حيفا بلدة تحسب نفسها وطناً لكل سائح وطواف في العالم وليس لها شكل وطني. وما تشاهدونه من المبـاني الجميلة والحوانيت البديعة والمستودعات العظيمة فانها جميعاً ليست للمسلمين وهي اما ان تكون لاجنبي او ليهودي. ولهذا لا يجب الاعتماد على بلدة ليس لها وجهة وطنية. ثانياً — ان في بلدة عكا ثكنة عسكرية تأوي حين الايجاب عدة طوابير بل فرقة من الجند وفيهـا مخافر ومستشفى عسكري. اما الحيفاويون فانهم يضطرون لايواء من يجيء اليهم من الجند ولو كانوا عدداً قليلاً في النزل وفي الخانات.

وفضلاً عن ذلك فان الاسلام في حيفا هم دائما احط من الالمان ومن اليهود الاجانب حتى ومن المسيحيين المنورين · وفي هذه البلدة عدد معين من المسلمين الذين يمتن الانسان من محادثتهم » ؟

فنصرف النظر عما يقوله العكاويون او الحيفاويون ونشرح رأينا المستقل في هذا الموضوع فنقول: ان انتظام الادارة في حيفا التي اظهرت استعدادها الترقي والتقدم في مدة قليلة وقد اخذت بالاتساع عاماً بعد عام حتى اكتست هذه الحلة البديعة لا يتم الا بمتصرفية او بقائمقامية مرتبطة بمركز الولاية على الاقل · فان القائمقام الذى يبعد عن آمره ساعة من الزمان لا يكون حراً في عمله · الا يمكن للمتصرف ان يلغي قسماً مهماً من التدابير الادارية التي يرى القائمقام امراً مبرماً لاتخاذها · وقد فهمنا ان اكثر القائمقامين في حيفا يشتكون من قرب مركز المتصرفية لحيفا · ومن المناسب حل هذه المسئلة الادارية التي اوجبت كثيراً من الاراء

— ٣ —

من عكا الى صور

كنا مقتنعين حين دخولنا الى عكا ان العيشة في هذه البلدة امر صعب جداً · ولم يطرأ اقل تزلزل على اعتقادنا هذا مدة اقامتنا في عكا · ولقد كنا نسعى للابتعاد قبل وقت عن هذه البلدة فلا نوفق الى ذلك · وخصوصاً ان الطريق بين عكا وصور تشغل يوماً تاماً من سياحتنا وستكون على ظهور الخيل تحت اشعة الشمس المحرقة · ولا ريب انها ستنهك منا القوى فكان ذلك مشغلة لبالنا · ثم استقر رأينا على الخروج من عكا في وقت راطب بعد الظهر وان نثابر على سيرنا في الليل · وبكل جهد ومشقة توفقنا للحصول على عدة حيوانات نقل ضعيفة · ولا ننكر اننا لما فارقنا عكا لم يحب احدنا ان يلتفت الى وراء فينظر اليها · وبعد ان ابتعدنا عن ذلك السور المنهدم انحرفنا قليلاً نحو الشمال وبدأنا نصعد قليلاً

كانت ترى لنا في الجهة اليمنى من الجبال قرى (الجديدة) (المكر) (كفر ياسيف واسمها القديم Achsaph :) وبعد عشرين دقيقه فارقنا (البهجة) . وحينما قطعنا مقسم الماء المرتفع وصلنا الى القصر الذي كان لجزار باشا ثم انتقل اليوم الى عبد الله باشا · وبعد نصف ساعة قطعنا جسراً على وادي السميرية وسرنا على الطريق مقدار عشرين دقيقه فوصلنا الى قصبة بهذا الاسم · وقد كان اسم قصبة (السميرية) قديماً (Simeron Meron) وسماها الصليبيون

(Le Casale Semelaria Templi) ويظهر ان اراضيها المنبسطة تزرع كل عام وعلى الجهة اليمنى تقوم قرى (التويتات) و (عمقا) — وهي القرية المذكورة في التلمود باسم (Amiqo) ثم بدله العبرانيون وسموها (Pethhaemeq) — و (الشيخ دامون) و (الشيخ داود) و (القهوه) و (الكبره) — واسمها القديم El Kabry) — وترى في هذه القرية الاخيرة مياه جميلة جداً . ومن هنا ظهرت لنا عن بعد صخور (رأس الناقوره) البيضاء وبعد مسيرة خمس دقائق اصبح على يميننا مجرى النهر وبعد ١٥ دقيقه اصبحت على يميننا ايضاً قريتا (وادي المجونه) و (المزرعة) . وبعد عشرين دقيقه ظهر لنا الجسر الممتد على (نهر المفشوخ) وبعد مسيرة ٤٠ دقيقه انحرف الطريق نحو اليسار فسرنا فيه نحواً من ربع ساعة فوصلنا الى قرية (الزيب) التي اصبحت بحالة تلة خربة

مضى على خروجنا من عكا اكثر من ساعتين ونصف . ولما وصلنا الى هنا كانت الشمس قد احتجبت وامتلأ الافق ظلاماً . وقد بقي علينا سبع ساعات او ثمانية على الاقل حتى نصل الى عكا ولما اخبرنا الدليل عن صعوبة الطريق فضلنا البيتوتة في (زيب)

***

نهضنا ثاني يوم قبل بزوغ الشمس فركبنا خيولنا من هـذه القرية التى تهف منها روائح تبن محروق ونتن اقفاص الدجاج . وبعد خروجنا بمدة من (Achazib) بلدة بني اسرائيل القديمة او من قصبة (Ecdtppe) حسب اصطلاح مؤلفي الروم واللاتين دخلنا (وادي القرين) وخلال ٣٠ دقيقه قطعنا (وادي القرقره) وبعد ١٠ دقائق قطعنا (عين المشرفه) التى كانت على يميننا وقد كانوا يسمون قديماً هذه المحلات (Misrephath Mayin) وكانت عن يميننا قرية البقه . فوصلنا الآن الى (جبل المشقه) . ويمتد هذا الجبل نحو البحر ويسمون آخر نقطة منه (رأس الناقوره) . وقد كانوا يسمون قديماً هذا المحل (Tyricrum Scala) اي سلم الصوريين . وقد افتتحت هذه الطريق بوطأ اقدام المارين عليهـا . فالطريق ضيقة جداً . غير ان منظرة هذا المحل جميلة جداً اذ تظهر لك من الجهة الجنوبية عكا قائمـة وسط البحر الازرق ومن ورائها جبل الكرمل قد ارتفع نحو السماء . وامتدت هذه الطريق ١٥ دقيقة . ثم انحرفت قليلاً نحو الداخل . وبعـد ٣٥ دقيقه اخذت تظهر قصبة صور من الجهة الشمالية . ولكنها لاتزال بعيدة عنا اربع ساعات . وهنا تقوم (قلعة الشمعة) على محل مرتفع في الجهة اليمنى وبعد ٣٠ دقيقه يمر بخرابة (ام العامود) او العواميد) القائمة على ضفة نهر صغير وقد كانوا يسمون هذا المحل قديما (Touran) اما النهر فيأتي من « حامول واسمها القديم Hammon » وبعـد ٤٠

دقيقه قطعنا نهر (اسكندرونه Alexandaras chene) وخرائبها . ثم اخـذ الطريق الموصل الى (رأس الابيض) يصبح صخرياً وقد كنا نعقب ساحل البحر . كان رأس الابيض معروفاً في القديم باسم « Promen tarium Allum » ويوجد هنـا على الجهة اليمنى في محل مرتفع (برج البياره) وعلى الجهة اليسرى ترى هوة على ساحل البحر يبلغ عمقهـا ٦٠ متراً وبعد تسلق التـلة ونزول ذلك المنحدر المدهش مدة ساعة من الزمن بـدأنا بتعقيب طريق الساحل المستقيم . وهنا تظهر خرابات (شيبريه) على ذروة قائمة في الجهة اليمنى وعلى بعد منهـا (بيوت السيد) و (العزيه) وبعد السير نصف ساعة في (وادي العزية) قطعنا من الجهة اليمنى قرية (كليله) القائمة امام جسر قديم . وبعد عشرين دقيقه قطعنا (نهر المنصوره) وبعد السير ٢٥ دقيقه وصلنا اولاً الى رأس العين وبعد ساعة من هذا المحل وصلنا الى قصبة صور « Tyr » . ان قصبة الصور محاطة من جميع اطرافهـا بالرمال وكانها مدفونة بالرمال . فانحرفنا اولاً نحو اليمين قليلاً ثم وقفنا امام حانوت بالقرب من مدخل البلدة الضيق وقد انتصف النهار . وقـد كنا تعبين منهوكي القوى من سياحتنا هذه التي امتدت نحواً من سبع ساعات او ثمانية . ولمـا طرحنا انفسنا في جهة من جهات بهو النزل الكبير الذي يشبه سوق الدلالين استشعرنا بنيلنا سعادة ولو كانت موضعيه وموقته

— ٤ —

صور

١ ــ وضيعة صور . منظرها . داخلها

ان بلدة صور القديمة (Syr تير) التي بنيت قبل الميلاد العيسوي بالفين وسبعمائة سنة والتي كان يسميها العبرانيون « Zor » والعرب « Sour » لا يمكن ان يستدل من حالتها الحاضرة الصغيرة العارية عن كل اهمية — على ما كان لتلك البلدة من الاهميـة التاريخية . فاذا مادخلت صور يداخلك اعتقاد جديد وهو انه يجب على التاريخ القديم ان يقطع علاقاته مع الزمن الحاضر ويعيش عيشة خالية فقط . ولا يمكننا بغير هذه الواسطة ان ننظر الى هـذه القصبة التي اصبحت حياتها الماضية من الاساطير والتي كانت مسقط راس « آستارته Astarte » ومركزاً دينياً لسلطنة « مه لقارت Melqart » . ولا نزال ننظر في الوقت الحاضر الى هذه القصبة

كانها جزيرتان قد انفصلتا عن بعضها في حينه فاحداهما مركز بحري والاخرى مركز بري واسع يمتد شمالاً من نهر القاسميه الى رأس العين جنوباً . ولا نزال نسرح النظر فكراً في السحن المختلفة التي تحضر اليها وتخرج منها على اختلاف مذاهبها واديانها واجناسها ونحلها ونشاهد ما اقامه اولئك السكان فيها من الاعمال العظيمة كالاسوار والقلاع والدور والحواجز والاقنية والمعابد . وما تتضمنه هذه التربة وتلك الرمال من تذكارات الشجاعة والبسالة الثمينة التي مضى عليها اربعة آلاف سنة تقريباً

اما اليوم فان هذه البلدة الفقيرة ليست سوى كومات من المساكن الصغيرة بين الجهة الشمالية والشمالية الغربية من شبه جزيرة رملية ممتدة نحو الغرب . وباعتبار الوضعية فان القصبة الحاضرة تشغل الضلع الشمالي من الجزيرة القديمة . ولا يزيد طول القصبة من مدخلها في الجهة الشرقية الى طرفها الغربي على مائتي متر . وما زاد على البقعة التي تقوم فيها القصبة فهي سهول قائمة في الجهتين الغربيـة والجنوبية تحرث وتزرع . وفي الجهة الجنوبيـة تقوم مقبرة كبيرة

وتوجد في الجهة الشرقية الجنوبية من صور اعمدة قديمة وانقاض وسدود وحواجز . وتمتد هذه الانقاض الى الغرب والى الغرب الجنوبي من الجزيرة . اما آثار الجهة الجنوبيـة فمدفونة في الجنائن . ويعثر هنا على خرابات حجرات . ويقدرون انها كانت مقابر قديمة

اما الجهة الغربية من صور فقد بقيت فيها آثار القلاع من القرون المتوسطه . ولا يزال كثير من اعمدتها ظاهرة . والحاصل انه لم يبقَ من القديم سوى القليل . وقـد نقل قسم كبير من المواد الابتدائية التي تحسب من الآثار العتيقة الى عكا وبيروت

اما الاثر الوحيد الباقي ويحسب على قدر الامكان من الآثار القديمة فهو الكنيسة العائدة لزمن الصليبيين والقائمة في الجهة الشرقية من القصبة . ولم يحفظ منها سوى القسم الشرقي

امـا مدخل القصبة فلم يبقَ فيه اثر لا للسور الداخلي الذي كان حول المدينة ولا للسد والقناة اللتين اقامهما الاسكندر كما انه لا يوجد اثر للسور الخارجي ايضاً

وفي الوقت الحاضر يوجد رصيف في الساحل الشمالي من قصبة صور وهو يقوم مقـام المرفأ القـديم الذي كان معروفاً باسم الرصيف الشـمالي او رصيف صيـدا . ولا تزال تظهر آثار البنايات القديمة في الساحل

ولصور رصيف آخر كان يسمى قديماً (المرسى المصري) وهو مدفون اليوم تحت الرمال . هذه حالة صور في الوقت الحاضر . وقد اصبحت الحواجز التي هدمت بمرور الزمان وتراكمت حول الدور

سدا مانعاً لتوسيع القصبة . ومع هـذا فانه يوجد مانع آخر وهو (الاراضي المدورة) فهم يريدون ان يبيعوا هذه الاراضي القائمة في الجهة الشرقية باثمان باهظة فيمتنع الاهلون عن اشترائها فاذا لم تبع المأتا دونم المزروعة في ساحل البلدة والاربعة آلاف دونم من الاراضي الرملية الخاليه فان القصبة تبقى على صغرها وانحطاطها

ان سوق صور قائم على الطريق الوحيدة التي تقطع القصبة من شرقيها الى غربيها . وكافة الحوانيت التي لا تتجاوز الاربعـين او الخمسين مبنية على الطرز العتيـق تماماً . وفي هذه الطريقة باحة ضيقة يقوم في وسطها كوخ صغير وفي داخله بقعة صغيرة مغروسة بشيء قليل . ويسمونها حديقة البلدية . وجميع طرق القصبة ضيقة وترابية وعبارة عن مداخل ومخارج معوجة ما عدا هذه الطريق الوحيدة المفروشة باحجار صغيرة قائمة والتي لا يتجاوز عرضها الاربعة او الخمسة امتار . وفي الجهة الشرقيه خارج القصبة يوجد بئر عمومي يسمى (عين) ومنه يستقي الاهلون واذا اضفنا الى قصبة صور حمـاماً تحت الارض باق من الماضي . وقهوتين مبنيتين على الطرز الشرقي في جوار حيفا من الجهـة الشمالية تتجلى الوضعية الداخليـة في صور .

ويروى ان حضرة يسوع زار جوار قصبة صور وان الرسول بطرس اقام فيها سبعة ايام ولهذا ترى المسيحيين لاينسون هذه القصبة . وقد اصبح من المعتاد اشادة مبان نصرانية في المحلات التى قضى فيها المسيح (عليه السلام) حياته ولذلك اقام المسيحيون في صور بنـايات كبيره وكنائس وامثالها . ومن ذلك دير الفرنسيسكان ومكتبهم ودير اخوات القديس يوسف « Sæurs de St. Joseph » وكنيستهن ومكتب لكل من طائفتى الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك ومكتبان انكليزيان احدهمـا للذكور وآخر للاناث ومكتب انكليزي للعميان ايضاً

٢ — الاحوال العمومية

[١] — قضاء صور — يحد قضاء صور شمالاً قضاء صيدا وشرقاً قضاء مرجعيون وجنوباً لواء عكا وغرباً البحر الابيض

ينقسم القضاء الى ثلاث نواحٍ وقد تشكلت مديرية في تبنين وبقيت الناحيتان الاخريتان تابعتين لمركز القضاء

بلغت نفـوس القضاء عام ١٣٣٢ (٤١٢٤٠) مابين ذكور واناث وقد كانت عام ١٣٢٤ « ٣٢٣٠٥ » فبلغت الزيادة في نفوس القضاء خلال سبع سنـين (٨٩٣٥) وان الزيادة في هذا

القضاء توجب الامتنان

يخمنون مساحة القضاء السطحية بخمسمائة كيلو متر مربع وهي منقسمة الى الانواع الآتية :

كيلو متر مربع	
١٦٥	اراض صالحة للزرع
٠١٠	اراض باقية تحت الماء
٠٠٥	« قابلة للاسقاء
١٥٠	احراج ومراع
١٧٠	اراض صخرية
٥٠٠	وهذه مساحة القضاء عموماً

[٢]– الاحوال الطبيعية في القضاء – لاتوجد جبال عالية في القضاء . وتبدأ الجبال المسماة « عامل » في مبدأ نهر القاسمية وتنتهي في المحل المسمى « مشيرفه » وهي من شعب جبال لبنان وارتفاعها الوسطى « ٦٥٠ » متراً . وصخور هذه الجبال كلسية وغرانيت . ولا يوجد سوى نهر القاسمية في القضاء وقد كتبنا عن هذا النهر بياناً كافياً في القسم العمومي

اما درجة الحرارة في القضاء فحدها الاعظم ايام الصيف في الساحل ٤٣ ونصف وفي الجبل ٢٨ وفي الخريف تكون في الساحل ٢٥ وفي الجبل ٢٠ . اما ايام الشتاء فتهبط في الساحل الى ٧ وفي الجبل الى (٢) وتكون ايام الربيع في الساحل ٢٠ وفي الجبل ١٧

الاهوية – يهب ايام الخريف الريح الشمالي وتهب ايام الشتاء الاهوية الجنوبية والغربية . اما ايام الصيف فيصبح القضاء باجمعه معرضاً لهواء الغرب وفي الربيع يكون معرضاً للهواء الشرقي اما الاهوية الجبلية المنتظمة فتهب في شهري حزيران وتموز

[٣] – قصبة صور – مركز القضاء قصبة صور وهي واقعة في الجنوب الغربي من مركز الولاية على بعد ٧٥ كيلو متراً منها ومحاطة من جهاتها الشمالية والجنوبية والغربية بالبحر الابيض ويحيط بها من الطرف الشرقي جنائن واراض مزروعة

اسم القصبة القديم (تير) . ان قصبة صور التي كانت تخرج عدداً عظيماً من السفن في الاعصار القديمة وفي ايام الفنيسكيين فملكت التجارة البحرية في العالم بوسائطها النقلية حتى سميت (ملكة البحار) واحرزت الدرجة العالية في الثروة والمدنية واصبحت مركز انتشار القسم الاعظم

من العلوم والفنون — كانت مبنية على ارض مؤلفة من جزيرتين صخريتين ربطتا بالبر ببرزخ ذي طريق معبدة . ومعنى (تير) في العبرانية والفينيكيه (الصخرة) وقد انشأ اسكندر الكبير الطريق التي تربط الجزيرتين بالبر

اما قصبة صور اليوم فهي مبنية في النقطة التي تربط البرزخ بالجزيرتين . واما صور القديمة فقد كانت قائمة في القديم على شبه الجزيرة . وتبلغ مساحة شبه الجزيرة التي كانت تشغل ثلثها ٥٧٦٥٠٨ امتار مربعة تقريباً

ان منظرة القصبة الحاضرة منحطة جدًّا لفقدان المزروعات منها . غير ان هذا الانحطاط يعدله نوعاً ما اشجار النخيل القائمة في محلات مختلفة ولطافة منظرة البحر والخضرة في السطح المائل من الجهة الشرقية . ولقد سقطت اهمية صور التجارية ومركزها البحري الى درجة الصفر وانحصرت تجارتها بتصدير الحبوب التي ترد اليها من حوران وباخراج شيء قليل من القطن والتبغ . وخرج من مرفأها (اي عام ١٣٢٩ مالية) حبوب واثمار بقيمة ٣٠ الف ليرة . وقد بقي شيء قليل جدًّا من الآثار المهمة في القصبة : ولا تزال بقايا مقبرة صور القديمة التي تأسست وتوسعت في ادوار مختلفة . وعلاوة على ذلك فقد بقي فيها معبد قديم صنع من حجر واحد . وكذلك المجاري التي تنقل المياه من (آبار سليمان) في راس العين

ويبلغ عدد هذه الاحواض (ثمانيــة) ويروى المؤرخون في القرون الوسطى ان ذلك (حيرام) استعان بحضرة سليمان فارسل اليه عمالاً بنوا هذه الاحواض . اما اليوم فقد ظهر من طرز انشاء هذه الاحواض انها من آثار الرومانيين . وتوجد في القصبة خرابة كنيسة انشأها الونديكيون باسم (القديس مارق) ايام الصليبيين . وقد رغب الجزار احمد باشا ان ينقل الاعمدة الحمراء من هذه الكنيسة الى الجامـع الذي اشاده في عكا . ثم صرف نظره عن ذلك لعدم تمكنه منه

[٤] — تاريخ صور — انشئت مدينة « تير » لاول مرة على البر في محل يدعى « عدلون » قبل الميلاد المسيحي بثلاثة الاف سنة . وكانت تسمى في ذلك الحين « سارا » . امـا اصل مدينة صور فقد انشأها الملك « حيرام » الفينيكي على الجزيرة الصغرى من الجزيرتين المذكورتين سابقاً ووصلها بمعبد « هاميلقارت » بطريق معبده . ويؤخذ من مشاهدات هيرودوت ابي التاريخ انه كان في المعبد المذكور عامود من الذهب . ويُظن ان حضرة سليمان ملك بني اسرائيل ارسل هذا العامود الى المعبد الفينيكي مكافاة لحليفه الملك حيرام ملك فينيكيا مقابل ما ارسله من اللوازم والنحلة والعمال حينما انشأ سليمان معبد القدس عام « ٩٦٩ » قبل الميلاد

ولما خرب بخت نصر عام « ٥٨٧ ق . م » مدينة صور التى انشأها حيرام انتقل الاهلون الى الجزيرة الكبيرة «عام ٥٧٢ ق.م » وانشأوا بلدة صور الثانية هنا . وان البلدة الجديدة هي مدينة صور التى راقبت صيدا بتجارتها وهي التى كانت ترسل سفنها التجارية الى اقصى انحاء المعمور في البحر الابيض والبحر الاطلاسي وهي التى احرزت مقاماً نافذاً وحيزاً سامياً في العالم القديم. ورغماً عن تخريب اسكندر الكبير لهذه المدينة عام « ٣٣٢ ق . م » ورغماً عن ظهور مدينة الاسكندرية رقيبة لها فان اهالي صور ما زالوا ثابتين على خطتهم ومقاومين لكل معارض . وقد حافظوا على الدرجة الاولى في صناعة الصباغ الارجواني وعمل الاواني الزجاجية . وقبل الميلاد بثماني عشرة سنة استولى عليها « پومپه » الروماني والحقهامع ايالة صيدا بحكم الملك الاسرائيلي « هرود الكبير » الذي كان محمياً من قبل الرومانيين

ولما افتتح المسلمون سوريه استولوا على مدينة صور ايضاً وفي عام ١٣٢٤ ميلادية إستولى الملك بدوين الثاني الصليبي « **Boudouin** » ملك القدس على مدينة صور وعلى قلعتها الحصينة وبقيت بيد الصليبيين ٨٧ سنة ورغماً عن هجمات صلاح الدين الايوبي فانه لم يتوفق لاستردادها ليد المسلمين . ولكن الملك الاشرف « صلاح الدين بن قلاوون » احد حكام مصر طرد المسيحيين منها واسترد صور وفي عام ١٥١٧ الحق حضرة السلطان سليم ياوز مدينة صور بالدولة العثمانية

ومن العوامل التى اثرت في الاهمية التجارية لمدينة صور هي الآفات السماوية فقد اصابت المدينة عام ١٢٠٢ زلزلة مدهشة خربت القسم الاعظم من البلدة . وفي العصر الحاضر اي عام «١٨٣٧» اصيبت البلدة بزلزال آخر دفع بها مسافات بعيدة الى الامام في سبيل التأخر

ولقد كان للبلدة مرفاآن في الجهتين الشرقية والشمالية . اما اليوم فقد امتلاء الجنوبي منهما تماماً وضاق الشمالي جداً ويظهر ان المرفأ الجنوبي كان محفوظا بمكاسر للامواج من مبدأه حتى رأس الابيض المشاهد من صور ولا تزال آثار قليلة باقية من هذه المكاسر

اما المرفأ الشمالي للجزيرة فان عمق الماء في المحلات الداخلية التى ترسو فيها السفن الصغيره يبلغ قامة واحدة وفي المحلات التى تلقي السفن مرساتها يبلغ ست قامات . ويمكن في الوقت الحاضر لخمس بواخر كبيرة ولخمس عشرة باخرة صغيرة ان تلتجأ الى هذا المرفأ وتجتمع فيه بوقت واحد . وللمرفأ رصيف قديم يبلغ طوله ١٥٠ متراً وسدٌ من مكاسر الامواج يبلغ طوله ٤٠٠ متر وهما من الآثار القديمة

كانوا يستحضرون الماء قديماً الى صور باقنية تحت الارض من خزائن الماء القائمة في تلة

(معشوق) على بعد كيلو مترين ونصف شرقي صور ولا تزال آثار هـذه المخازن التي تأخذ مياهها من رأس العين مشاهدة بالقرب من الصخر الكبير القائم جنوبي الذروة

اما اليوم فان اهالي صور يدفعون احتياجهم للماء بما يستقونه من البئر الوحيـدة القائمة في المدخل الشمالي للقصبة ٠وان ماء هذه البئر صافٍ ولكنه مالح قليلاً

[٥] نفوس صور وبلديتها— نذكر هنا اعداد النفوس في اعوام ١٣٢٤ و ١٣٢٨ و ١٣٣١ مالية

	عام ١٣٢٤	عام ١٣٢٨	عام ١٣٣١
اسلام	٣٤٤٧	٣٦٥٠	٣٧٤٩
كاثوليك	١٦٤٣	١٦٦٩	١٧٥٨
روم	٤٣٢	٤٤٧	٥١٩
موارنه	٤٧٤	٤٨٩	٥١٦
بروتستانت	٣٠	٣٠	٣١
	٦٠٢٦	٦٢٨٥	٦٥٧٣

ظهر من هذا البيان ان نفوس قصبة صور لم تترق ولم تنم مطلقاً في السنين الاخيرة ٠ وقد كانت المهاجرة الى اميركا حتى اعلان الحرب لم تنقطع مطلقاً من جميـع انحاء القضاء ٠ وان من الامور المؤسفة التي تستلفت النظر حالة الفقر والضرورة التي اصيبت بها قصبة صور التي اشتهرت بمعادنها وبقابليتها الطبيعيه لتأسيس الاحراج وجنائن البورتقال وبمركزها التجاري العظيم الذى نالته في القرون الاولى — وقيام الصهيونيين والالمان بتأسيس مستعمرات في فلسطين واستحصالهم النتائج الجيدة منها ٠ ولقد هاجر حتى الآن الى البلاد الاجنبية من جميع القضـاء خمسة آلاف شخص ٠ وعاد الى صور تقريباً من النصف بعـد ان اكتسبوا شيئاً من الثروة

وان بلادة الاهلين وفقرهم وضرورتهم وعطالة المدينه وكثرة مهاجرة الاهلين الى اميركا هي ادوار اجتماعية مهمة يدعو كل واحد منها بـبوائق مؤلمة ارباب العزم والوطنية من المأمورين الى العمل تلافياً لاخطارها

يبلغ طول اسواق صور المنحطة اربعة آلاف متر ٠فخمسمائة متر منها يبلغ عرض الاسواق فيها الستة امتار واما الباقي فيتراوح عرضها من مـتر الى ثلاثة امتار ٠ ولقصبة صور التي يتألم المنتسبون للتاريخ من حالتها الحاضرة بلدية ايضاً وبسبب زيادة الفقر بين الاهلين بواسطة الحرب العامة التى عطلت استيفاء الواردات المهمة التي كانت تؤخذ عن الامتعة التجارية سقطت بلدية صور حتى كانت

الواردات في ميزانيتها لعام ١٣٣٢ (٥٥،٥٠٠) غرشاً مع ان مصارفها في ذلك العام بلغت (٧٣٩٦١) غرشاً منها ٣٦١٠٠ غرش للمعاشات وخمسة آلاف للتدابير الصحية و ٤٠٠٠ لتجهيز الاموات. وقد كان رئيس البلدية يشكو من كثرة مصارف دفن الاموات ويقول انه كان يوجد لهذا المصرف في الميزانية قبل الحرب ثلاثة آلاف غرش. اما اليوم فقد بلغ ما اصرف منهُ خلال ثلاثة اشهر الفي غرش. فهل يعرف الرئيس المسكين ! ان قرى ملبس والمطله وريشون لوزيون وغيرها من القرى اليهودية كانت محاطة من اطرافها الاربعة بالامراض السارية وبقيت سالمة مصانة من كل شيء بفضل التدابير الصحية البلدية التى اتخذوها بجد وثبات ومتانة ؟ لكن معرفتها وعدم معرفتها لديه سواء. وانني ارى بانه لا يمكن العمل بهذه التشكيلات البلدية وبرجال البلدية هؤلاء في هذه البلاد المسكينة

لا يوجد في ميزانية البلدية لعام ١٣٣٢ ارقام معينة للتنوير والتنظيف وتوسيع الطرق وفتحها او لمثلها من الاعمال المنتظرة من البلديات. وقد خصصوا ٢٨٠٠ غرش سنوياً لمصارف حديقة البلدية القائمة وسط القصبة العارية من الاشجار والمملوءة بالاعشاب اليابسة. فاما ان يحسنوا حالة الحديقة ويجعلوها صالحة للنزهة او انهم يهدمونها ويجعلون مكانها باحة وسيعه

[٦] — المعارف — يوجد اليوم في كافة القضاء ١٥ مكتباً ١٢ منها للذكور و ٣ للاناث. ويبلغ عدد الطلاب في المكاتب ٤٠٠ منهم ٢٥٠ في مكاتب الذكور و ١٥٠ في مكاتب الاناث غير ان ٦٠ في المئة من هذين القسمين هو من غير المسلمين و ٤٠ في المئة من اولاد المسلمين. وانها لنسبة تستلفت النظر جداً لان مقدار المسلمين في القضاء يقرب من ثلاثة ارباع السكان. غير ان مسلمي القضاء وهم المتاولة قد اصيبوا بجهالة كثيفه جداً. وقد ظهر بالتخمين ان خمسة في المئة من اولاد المتاولة يذهبون الى المكاتب والخمسة وتسعين الباقين يقضون حياتهم وايامهم بين المزابل وفي الازقة القذرة. ولهذا بات من الواجب على الحكومة المحلية ان تطبق قانون التدريسات الابتدائية بتعميم التحصيل الابتدائي اجبارياً. وليس في الامكان الوقوف على معلومات كافيه بخصوص المكاتب الابتدائية في مركز القضاء او في القرى سواء كانت رسميه او غير رسميه. والسبب في ذلك التعطيل الرسمي للمكاتب وذهاب المعلمين بالأذونيه

[٧] — الاحوال الزراعية والمواسم — تقسم الاراضى المزروعة في قضاء صور عام ١٣٣١ الى الوجه الآتي :

دونم	نوع المزروعات	نسبة المحصول الى البذار المزروع
٣٢٠٠٠	قمح	خمسة لواحد

١٠٠٠٠	شعير	سبعة لواحد
١٠٠٠٠	عدس	〃 〃
٣٠٠٠	فول	ثمانيه 〃
١٠٠٠٠	جلبان	سته 〃
٨٠٠٠	حلبه	عشره 〃
٨٣٠٠٠		
٤٠٠٠٠	الاراضي التي هيئت للمزروعات الصيفيه	
٥٧٠٠٠	〃 〃 تركت بوراً اتباعاً لطريقة المناوبة	
١٨٠٠٠٠		

ظهر من هذا ان مساحة الاراضي التي تزرع في القضاء هي عبارة عن ١٨٠ الف دونم وهي ثلث المساحة العمومية لاراضي القضاء اما الثلثان الباقيان فهما اما اراض غير مزروعه او صخرية . وهذا احصاء المحاصيل السنوية العموميه لعام ١٣٣١ ماليه

اوقه	جنس المحصول
٣٠٠٠٠٠٠	قمح
٠١٠٠٠٠٠	جلبان
٠١٥٠٠٠٠	عدس
٠٠٥٠٠٠٠	ترمس
٠١٥٠٠٠٠	فول
٠٠٣٥٠٠٠	حمص
١٠٠٠٠٠٠	شعير
٠١٥٠٠٠٠	حلبه
٠٠١٠٠٠٠	سمسم
١٥٠٠٠٠	ذرة
٤٧٤٥٠٠٠	المجموع

الاحراج — يؤخذ من المعلومات الرسمية ان عدد الاحراج في كافة القضاء يبلغ ١٥ فيقطع منها في السنه ٥٥ الف اوقه حطب ويصنع منها ١٥٠ الف اوقة فحم ويصدر منها سنوياً الى الخارج ٣٠٠

متر مكعب من الاخشاب ٠ وستة من هذه الاحراج تبلغ مساحتها ٢٢٠٠ دونم وهي عائدة للقرى والقصبات ٠ وتسعة منها تبلغ مساحتها ٥٢٠٠ دونم عائدة للحكومه ٠ ويغلب ان تكون اشجار هذه الاحراش من السنديان والبلوط ٠ وحفظاً لهذه الاحراج من التعدي ارتأى مجلس ادارة القضاء تعيين اربعة محافظين من ابناء القرى المجاورة في اربعة مواقع تنقسم اليها الاحراش باعتبار ان كل اربعة احراج متجاورة تعتبر دائرة مستقلة على ان تستوفي هذ الاجرة حسب النظام من اهالي الجوار ٠ واذا لم يمكن فمن الدائرة البلدية (؟!) ولم يستخدم حتى الآن سوى محافظين فقط

[٨] — الآثار العتيقة في ناحية تبنين — ان تبنين هي ركز ناحية تبنين الملحقة بالقضاء وهي قصبة قائمة على بعد عشرين كيلو متراً شرقي صور ومبنية على تلال مستورة بالاحراج والكرم والاشجار المثمرة وهي ذات منظر حسن ٠ واكثر الاهلين فيها متاولة وقسم منهم مسيحيون ويقيم مدير الناحية في القصر الباقي من الآثار القديمة في هذه القرية الكبيرة ٠ ويقوم في الجهة الشرقية من القصر احجار ذات قطع كبير وخزائن ماء يستدل منها على ان تبنين كانت مستحكمة جداً في ذلك الدور التاريخي وان القلعة التي انشأها (هوك سن اومر) زعيم طبريا والتي بقيت من آثار القرون الوسطى — انما هي منشأة للقيام بالغارة والهجوم احياناً على اراضي صيدا ٠ وفي واقعة حطين الشهيرة استولت الجيوش الاسلامة على قلعة تبنين ٠ ثم هدمها الجزار احمد باشا والي القلعة المذكورة

ويوجد على رأس النبع في قرية « قدس » واسمها القديم « قادوس » القائمة على بعد ثماني ساعات في الجهة الشرقية من مركز القضاء — عدة قبور كبيرة بقطعة واحدة ويوجد في الشمال الشرقي من النبع مخزن كبير مبني من احجار عظيمة ٠ وقد كان مخصصاً لدفن الاموات ٠ ويرى في اطراف القرية معبد خرب وكثير من اللحود المنحوتة والمباني القديمة وهي التي يسميها القوم « العماره » ولا ريب انه اذا بحثوا في هذه الاماكن يخرجون منها كثيراً من الآثار العتيقة المهمة

٣ — الحياة الاجتماعية في صور

تخمن نفوس صور بالوقت الحاضر بستة الاف او بسبعة آلاف ونصف هؤلاء مسلمون والنصف الاخر مسيحيون وخمسمائة من المسلمين من اهل السنة والباقي من المتاولة ٠ اما المسيحيون فالمبعمائة منهم موارنة و ٢٠٠ لاتين والباقون روم ٠ ويوجد في القصبة عدد قليل من اليهود والبروتستان

تفترق في صور محلات المسلمين عن محلات النصارى فيقيم المسيحيون في القسم الشمالي والشمالي الغربي ويقيم المسلمون في الاقسام الباقية من البلدة . وتمتد (حارة المصاروه) شرقي القصبة وهي خاصة بالسنيين من المسلمين

ولما كان عدد السنيين في صور قليلاً جداً فليس لهم خصوصية معروفه في هذه البلدة الصغيرة . ولا فرق بينهم وبين مسلمي السواحل الاخرى في طراز المعيشه واللباس وفي حالاتهم الروحيه والفكرية وفي عاداتهم الاجتماعية . وليس في صور حياة علميه او حياة صناعية . الاهالي يقنعون بالقليل . وهم بطيئو الحركة . اما الدين فلم يصل لدرجة التعصب بين السنيين حتى ان مشايخهم يدعون بان السنيين يتهاملون بدينهم . و يتجلى ضيق المعيشه هنا . ويكاد تعدد الزوجات ان يكون مفقوداً

اما المتاولة الساكنون قصبة صور فان حياتهم الاجتماعيه تكاد ان تكون منحطة تماماً . لان المتاوله مفطورون على الانقياد الاعمى لكبارهم فهم لا يمتنعون عن التسليم بكل موجود عندهم امام اولئك . ولا يضيع كبراؤهم هذه الغنيمة فهم يعرفون طريقة الاستفادة فيمتصون هذه الكتلة البشرية كانهم يحلبون لبن بقرة عندهم . ويضطر رؤساء الدين في هذه الانحاء لترويج آمال الكبراء . ويظهر للمدقق ان للرؤساء الدينيين دخلا بترك المتاولة على ما هم عليه . وبناء على هذا فانه لا يوجد فرق بين معيشه المتاوله في القرى ومعيشة المتاوله في صور . فجميعهم آلات صماء بايدي الكبراء . فقدوا كل شيء باسم الحياة العائليه او تربيه الاولاد او رفاه الفكر وراحته

سلّم المتاوله امورهم التعليمية لايدي المجتهدين فهؤلاء يلقون الدروس في المدارس . ينتقل الطالب منهم من درجة مراهق الى مرتبة فقيه ثم يذهب الى العراق فيكمل تحصيله ثمت ويغدو مجتهداً . يلبس الطالب والمراهق والفقيه والمجتهد الكسوة العلميه التى يكتسيها السنيون . يرجع المتاوله في جميع امورهم الى المجتهدين . وفي كل قرية جامع للمتاوله يسمى (حسينيه) وليس فيه مأذنه او منبر . يدين المتاوله بدين عموم الشيعيين وليس لهم اعمال خصوصيه . يتمسكون بدينهم تمام التمسك . يؤمنون بالله وبالرسول . ويعتقدون بخلافة الامام علي والائمة الاثنى عشر المعروفين . ويقولون ان آخر هؤلاء الائمة هو المهدي الذي اختفى في سامره بالعراق عام «٢٥٥» وانه لا يوجد بعده خليفه . وينتظرون قدوم المهدي بكل تسليم واعتقاد . ويتغنون بقول شاعرهم الذي يدعو الامام بقصيدته التى يقول فيها

اعجل فداك العالمون باثرهم

ويجيز المتاولة نكاح المتعة ولهذا يسهل على المرأة ان تتزوج بعدة رجال على التعاقب فتلد عدة اولاد من آباء مختلفين . لا يصلي المتاولة جماعة الا اذا كان واحد من مجتهديهم اماماً . يجمعون بين الصلوات فيصلون صلاة الظهر والعصر في وقت معين بين الصلاتين ويؤدون المغرب والعشاء في وقت متوسط بينهما . ولا يعقدون ايديهم فى الصلاة . يصلي المتاولة صلاة التراويح فرادى . وليس عند المتاولة صلاة الجمعة . اما صلاة العيد فيجب ان تؤدى بامامة المجتهد

يتلقى المتاولة دينهم من مجتهد حي . وفي صيدا وصور ومرجعيون ثلاثة من كبار المجتهدين . يقيم المتاوله مآتم في اوقات معينه للامام الحسين . واذا اكلوا شيئاً من مسيحي يتمضمضون بماء كثير . ولا يجوز عند المتاولة ان يطلق الرجل زوجته ثلاث مرات في جلسة واحدة . وما يقع من هذا القبيل يحسب طلقة واحدة . ويجوز للرجل الجمع بين نكاح المتعة والنكاح القطعي . وليس في نكاح المتعة طلاق . وينتهي النكاح بختام الاجل . لا يرث الزوجان من بعضهما في نكاح المتعة . اما اذا حصل منهما ولد فانه يرث

يدفع المتاولة زكاة اموالهم للمتاولة الفقراء . وعلاوة على ذلك فانهم يعطون خمس ارباحهم الى السادات . ولا يفترقون بباقي الاعتقادات والخصوصات . ويجدر بنا ان لا نهمل الاشارة الى عاداتهم الغريبة . ففي كل دار حوض يسمونها (جابيه) او (ام كرى) فلا يؤمنون بطهارة شيء من الاشياء الا اذا ادخل الى هذا الحوض واخرج منه . واذا نظرنا الى ان هذه الاحواض تترك مدة على حالها نعرف الضرر الذي ينشأ عن هذه العادة

اما الطوائف المسيحيه في صور فانهم يستجلبون النظر اكثر من سائر الطوائف فهم يشتغلون بالتجارة . ولقد حصل عندهم انتباه في الايام الاخيره بواسطة مؤسساتهم الدينية والعلمية وبسبب اختلاطهم الدائمي بالاشغال مع المسيحيين في بيروت وصيدا وجبل لبنان . ويعدون اليوم ارقى الطبقات في صور من جهة المعيشة والحياة البيتية . ويوجد بينهم من يعرف الالسنة الاجنبية

هذه هي الحياة الاجتماعية بين الصوريين الذين تكلمت عن حياتهم العمومية . غير ان هذه الكتلة الصورية تجتمع طبقاتها وصنوفها في بعض النقاط وتلتحم مع بعضها :

اولاً — مسئلة النفوذ : فانه يوجد افراد ارتفعت رؤوسهم بطريقة من الطرق بين جميع الطبقات من اهالي القضاء سواء كانوا متاوله او سنيين او روماً او موارنة انتقلت اليهم ثروات تزايدت تدريجاً حتى وصلت الى الحالة الحاضرة وقد توسلوا مع طول السنين بكل واسطة لتزيد ثروتهم وانماء ماليتهم كعضوية المجالس والمأموريات . التزموا الاعشار وانتهزوا كل فرصة ممكنة حتى وصلوا الى ما

وصلوا اليه من النفوذ · ويوجد اليوم في صور طبقة من المتنفذين الذين لا يملكون مباشرة رؤوس اموال كافية ولكن ترى الاهلين منضمين اليهم وملتحقين بهم لمزية من المزايا التي تمسكوا بها ·وبين طبقة المتنفذين في صورقسم من رؤساء الشيعه وقسم من مثرى السنيين · وبين المسيحيين اناس ينضمون الى اولئك او الى هؤلاء · ولا يتحاشى هؤلاء المتنفذون عن القيام بالتزويز والمفاسد ضد بعضهم · ولا غاية لهم من ذلك سوى زيادة الانتفاع والاستفاده ·ويؤخذ من روايات بعض ارباب العلاقة ان هؤلاء يتفقون مع بعضهم كل عام ليبقوا بدلات الاعشار على ما كانت عليه في السنين السابقة · ولاريب ان هؤلاء كانون بلاء وضرر يغلي فوق رؤوس فقراء الاهالي المحرومين من جميع اسباب الرفاهية والتمدن · ولهؤلاء موقع ومقام فوق كل جنسية ومذهب

ويوجد في صور حالة ثانية عامة تستوجب الاسف وقد نمت جذورها في صلصال السفالة الاجتماعية الا وهي مسئلة المهاجرة: فيبلغ عدد المهاجرين سنوياً من صور الى اميركا الوفاً من مسيحيين ومسلمين وهؤلاء يتركون اسرهم هنا ويذهبون الى بلاد المهاجرة · ولا يمكنهم ان يرسلوا من اميركا الى اهلهم في صور سوى ما يقتصدونه من ارباحهم · ولكن ذلك لا يكفي اهليهم الذين يصبحون في حالة مؤلمة من الفقر والسفالة · يكبر اطفالهم وهم قطعان لا حامي ولا راعي لها · فتعجز نساء المهاجرين عن اشباع الاطفال وتضطر للسقوط في جميع انواع المهاوي الاجتماعية · وان اكبر الجروح القتالة في صور هي هذه المسئلة · ويدعي بعضهم ان اكثر من نصف سكان صور بالحالة الحاضرة هم النساء الباقيات بلا معين ولا ملجأ · وتدخل في هذا القسم نسوة الطوائف المسيحية والمتاولة · ولقد اضطررن اولاً بحكم الضرورة والاحتياج لسلوك طرق غير لائقة سداً للعوز وربما انقلبت الحالة لطور مرض اجتماعي سري الى القرى ايضاً حتى انه اصبح بدرجة حادة في قرية (جويه) · ولا ريب ان هذه الحالة مهواة مهلكة لقصبة صور

٤ — الحالة الصحية في صور

ان الحالة الصحية في صور يجب مقايستها مع وضعية البلدة وطراز الحياة فيها والشروط الصحية في الجوار · ولقد اشرنا قبلاً الى تلاصق دور البلدة وعدم نفوذ الهواء والشمس اليها فلا لزوم لاعادة ذكرها هنا · اما طراز الحياة فاننا قبل ان نتكلم عنه ننشر هنا جدولاً ببيان الاعمال التي اتخذتها الايدي العاملة مهناً لها وهو دليل بليغ على بيان قصدنا

عدد	
٠٠٣٩	معلم وطبيب وامثاله

٠١٤٣ تاجر
٠١٥٠ نجار
٠٤٠٠ مكاري
٠٤٠٠ حمال
٠١٥٠ خادم
٢٨٠٠ بلا عمل

ومع اعترافنا بان هذا الاحصاء غير حائز لدرجة الوثوق مثل غيره من الاحصاآت ولكننا نعرف منه درجة الفقر والضرورة والانحطاط بالمعيشة المستولية هنا . ويعلم منه انه لا اثر للرفاهية قطعياً في محيط صور

ولا ننسى هنا ان نضيف على ذلك قيام المستنقعات الناشئة عن توزع المياه من انهر (سامور) و (بقبوق) و (راس العين) . وبناء على هذه الاسباب يجب الاعتقاد بوجود مرض شديد الوطأة بين هؤلاء الاهلين المبتلين بدورهم وبمعيشتهم وبهوائهم رغماً عن ادعاء الطبيب بانه لم يعاين مدة وجوده في صور سوى ثلاثة من المسلولين . فان الذين لم يروا لزوما لمراجعة الطبيب وساروا الى دار البقاء بدون صوت ولا خبر لا يعلم عددهم الا الله . ومهما يقولون عن الحالة الصحية في صور فانها ضربة قاضية على اهالى هذه البلدة الفاقدين لجميع انواع الرفاهية والانتظام وحسن التغذى والعيشة والمحرومين من كل شيء حتى من الهواء النظيف

ان اصابات الملاريا هنا تحدث تأثيراً كبيراً فترجع الاحياء الى هياكلهم العظمية . وكذلك مرض العيون فانه شديد . ويقول طبيب القضاء ان ٦ او ٧ مصابون بمرض العيون من بين الذين يراجعونه يومياً وعددهم يتراوح بين ١٠ و ١٢

وقد احدثت علة التيفوس في الايام الاخيرة (حتى شهر تموز سنة ٣٣٢) اضراراً بليغة هنا . فقتلت اكثر من مائة شخص من صور . ولا ارى لزوماً للكلام هنا عن الامراض العادية مثل (حرقة البول) و (الاسهال) العادي وما يشابهها

ولا اترك هذا البحث قبل ان اشير الى تناقص النفوس في المستقبل رغماً عن القيود الظاهرية في دفاتر النفوس وعن التزايد الجعلي المسطر في صحائفها . فان تيارات المهاجرة التي لا تنقطع انزلت ضربات شديدة في هذا المحيط حتى اصبحت كتلة كبيرة من البشر عاطلة مهملة في هذا انقضاء . نعم ان المواليد لا يظهر عليها التناقص المتواصل ولكن لا اقول بصحة احصاآتنا التي نضعها . ومع هذا فان الاحصاآت الصحيحة هي التي تلهينا قليلاً عن الحالة التي لا تمليها علينا

الحقيقة الرياضية . ولقد عثرت على بيان غريب في احصاء عمومي وضع للقضاء لعام ١٣١٨ وهو :

في قضاء صور

٠٧٢٠٠	متزوج
٠٣٥٠٠	ارملة
٠٢٥٠٠	مطلقة
١٩٥٠٠	باكر

ويؤخذ من هذا الجدول انه توجد كتلة بشرية مؤلفة من ٢٥٥٠٠ امرأة عاطلة مهملة لامام مجموع صغير لا يتجاوز الـ ٧٢٠٠ رجل . ولاريب ان الصغيرات غير داخلات في هذا الحساب . لانه جاء في بيان آخران مجموع نفوس القضاء يزيد سبعة آلاف شخص وهذا العدد يجب تخصيصه بالاولاد فاذا اضفنا الى ذلك مسئلة التناقص الحقيقي في المواليد يظهر لنا باقرب ملاحظة الحالة الصحية المؤلمة التى ابتليت بها صور وكيف انها تتدحرج في مهواة خفية من الاضمحلال والسقوط

— ٥ —

في طريق صور — صيدا

كنا نعيش مدة اقامتنا في صور في نزل غريب جداً . فهو ولا ريب مقام واسع ولكنه محروم من جميع وسائل الراحة ولقد كنا نلاقي صعوبات جمة بتدارك احتياجاتنا . ولم يتيسر لنا احد نطلعه على قصتنا . ومع هذه الحالة فان صور لم تكن ثقيلة الوطأة محرجة للصدر مثل عكاء . ولا شبهة ان في تربة صور مزية لا يمكن لغير « Baloetyros » القدماء ان يفهموها . واذا انكرنا انه لما تهيأنا للسفر الى صيدا بنظرنا الى هذه الصحيفة الباقية من تاريخ الادهار نظرة وداع طويلة فاننا نكون ظالمين . ولقد كان ضميرنا يكرر قولنا : « ان هذه المدينة التى عاشت اربعة آلاف سنة لم ترَ على كل حال وجه التدني والاضمحلال قدر الوقت الحاضر »

خففت شمس الظهيرة شيئاً من حرارتها فركبنا عربة . وقد كانت رمال مدينة تير المرمة تتطاير عن يميننا . وفي تطاير هذه الرمال معنى مؤلم وجارح وكانها تقول :

— اتركوا هذه الثروة القديمة تغرق في سباتها الابدي

نعم ان المدينة وجميع ما فيها الآثار كانت في سبات. وليس فيها سوى البحر العنود لا ينفك عن مهاجمة الساحل بكل حدة وهياج

انقضت نصف ساعة على سفرنا فانحرف طريقنا نحو الداخل وبعد خمس دقائق كان عن يميننا قرية (عين بقبوق) وعن شمالنا قرى (طورا) و (بيدياس) وبعد ساعة ظهر لنا خان ثم (نهر القاسميه) وهذا النهر يطلق على القسم السفلي من نهر (الليطاني) . وهو عميق ومياهه تسرع بسيرها لتصب في البحر . وفوق الخان خرابات (برج الحوا) وعلى بعد ربع ساعة نحو الداخل خرابات (قبور الملوك) . ولما اخذنا نتباعد عن هذا المحل كانت الشمس تودعنا عن بعد مرسلة آخر رسل من اشعتها . وكانت طريقنا جميلة للغاية . وقد اخذ نسيم المساء العليل يهب فوق اراضي فينيكية القديمة . وبعد خمس وعشرين دقيقه بدأ القمر يضيء لنا الطريق بصورة لطيفة . فظهرت لنا بعد ذلك خرابات خان آخر على الطريق

وكان على الجهة اليمنى صخرتان بيضاوان كبيرتان وقد تكونت منهما مغارتان قديمتان . وتقربنا بعد عشرين دقيقة من (ابو الاسود) فبدأت من هنا خرابات سور وبناء . وبعد ٢٥ دقيقه كان على يميننا (بني سير) وهي مغارة وعدة اعمدة وبعد ١٥ دقيقه وصلنا الى (عدلون) وقد كانوا يسمون عدلون قديمًا (Ornitopolis) وهنا توجد مغارة تسمى (ام البزاز) ويقال ان ماء يتناقط فيها من بز مصنوع من الحجر

وبعد مدة قطعنا (الانصارية) عن الجهة اليمنى وتركنا نهر (الخزيراني) البعيد نحو اربعين دقيقة وبعد مفارقتنا عدة مغارات امام (السكسيكه) وصلنا الى موقع تقوم فيه عن اليمين خرابات وعن الشمال (سارافاند) المرتفعة . كانت (سارافاند) تعرف قديمًا باسم Zarapta او Larepta ويروى ان ثمت مقامًا للخضر . وبعد قليل ظهر لنا ظل قاتم في جهة الامواج فقيل لنا :

— لو كان الوقت نهارًا لظهرت علينا صيدا . وما ذاك الظل البعيد سوى صيدا ...

قربنا اذن من صيدا . وبعد ١٥ دقيقة وصلنا الى نبع « عين القنطره » وبعد عشرين دقيقه بلغنا نهر « العقبيه » . وكانت تقوم هنا في الجهة السفلى من ساحل البحر قلعة « برج الخضر » وبعد ١٥ دقيقه وصلنا الى « نهر الجزاريه » وبعد ١٠ دقيقه اخرى وصلنا الى « نهر العدسيه » بالقرب من « تل البراق » و « خان البراق » وقد قامت هنا جنائن . وبعد عشرين دقيقه وصلنا الى « نهر الزهراني » وبعد ٢٥ دقيقه مررنا في وادي الطيش وكانت « الغازيه » على يميننا . ومن هنا بدأت

الاراضي المستويه والسهول الواسعة . وبعد اربعين دقيقه قربنا من « نهر الزنبق » . وبعد ان قطعنا « دير بسين » و « ميوميه » عن اليمين وصلنا الى جنائن صيدا .

اخذنا نمشي بين جنائن صيدا فقطعنا بعد عشرين دقيقه « نهر البرغوث » وهو النهر الذي كانوا يسمونه قديماً « Ardupia » وبعد خمس دقائق ظهرت امامنا اول دار في صيدا . وقد انتصف الليل تقريباً . و كانت منظرة صيدا بخضرتها وضوء القمر يتلألأ فوقها منظراً بديعاً يستجلب الاعجاب . وانتهى بنا السير بوقوف مركبتنا امام بناء كبير وهو النزل . فلم نشعر بتعب من سفرنا هذا الذي قضيناه بلطف وخيال شعري .

— ٦ —

صيدا

١ — وضعية صيدا ومنظرها

بنى الفنيكيون مدينة صيدا الحالية او (Sidon) القديمة مثل باقي مدنهم على قسم من راس داخل في البحر (Promontoir) . ولهذه البلدة القديمة التي يسميها الشاعر اليوناني في اشعاره الخالدة (البلدة الغنية بالنحاس الاحمر) — تاريخ ووقائع وحوادث قدر ما لمدينتي عكا وصور . ولكن الغريب ان الشكل الحاضر للقصبة لايزيد تذكارنا بماضيها الزاهر . ولو عاش (هوميروس) في هذه الايام لاعجبته هذه القصبة اللطيفة ولسماها البلدة الزمردية بدل البلدة النحاسية . نعم ان صيدا بلدة زمردية بكل معنى الكلمة . فان السفوح الغربية والشمالية والجنوبية المتجهة نحو البحر الازرق خضراء زمردية على طول القصبة . فالربيع لايفارق صيدا بواسطة جنائنها التي تمتد نحو ساعتين شمالاً وجنوباً وهي مغروسة بكافة انواع البورتقال والليمون واللوز والموز وغير هذا من الفواكه . ان بلدة صيدا الممتدة من الشمال الى الجنوب ونحو الغرب قليلاً غنية بمناظرها . ويزيد في حسن هذه البلدة الخضراء وببديع مناظرها تلال جبل الريحان (Tomat Nhia) القائمة وراء الجنائن من الشرق . وقريتا (الملالية والبرامية) المتلألئتان عن بعد كالماس وخصوصاً قصورهما اللطيفة الملونة التى تشهد لبانيها بالصناعة والاهتمام

ويفصل بين لبنان وهذه الساحة الخضراء (نهر الاولى) الجارى من الجهة الشمالية نحو الجنائن

ويتم هذا الحد الفاصل في جهة الشرق بطريق معبدة منتظمة . ولقد اهدى هذا الاقليم البديع هدية صغيرة من محاسنه الى البحر وهي جزيرة صغيرة في الجهة الغربية من القصبة . وحاصل القول ان البلدة بكثافة ابنيتها وبخضورتها وبجنائنها وببحرها وبساحلها هي احدى المدن الزاهرة البديعة.

٢ — داخلية صيدا

[١] — ابنية القصبة وازقتها — في الجهة الشرقية من قصبة صيدا جادة واسعة تقطع البلدة من اولها الى آخرها اي من الجنوب الى الشمال وهي الطريق الوحيدة فيها . وهذه الطريق تمتد من صور وتنتهي بالقرب من قلعة البحر في الجهة الشمالية على اليمين ويسمي الصيداويون قسماً من بلدتهم حتى قلعة البحر طريق (الشاكرية) . اما القسم الممتد على الساحل فيسمونه (طريق القملة) ومع هذا فانهم يطلقون على قسم من نهاية طريق الشاكرية وهو من جهة قناطر الماء الى جهة بيروت اسم (طريق بيروت) وتمتد طريق بيروت اكثر من نصف ساعة وهي بين الجنائن المتواصلة فيمكننا ان نقول انها بهذا الاعتبار الطف طريق في سورية . ولا ننسى ان الاقسام التي تمتد من جنوبي طريق الشاكرية الى جهة صور هي اطيفة جداً مثل هذه الطريق . اما الطرق الاخرى في صيدا فرغماً عن كثرتها وعن رصفها بالاحجار فانها غير حسنة وكئيبة جداً . وانها لتغرق بظلامها وعفونتها ازقة عكا القديمة . ولا يظن القارئ ان في سوريا ممرات وطرقاً هي اشد رداءة من طرق صيدا

اما الجهات التى هي في اقصى درجة العمران من صيدا فهي القسمان الشمالي والشرقي . فدور على الطراز البيروتي . ونزل كبيرة . ومخازن كبيرة ونظيفة وهي زينة طريق الشاكرية من اولها الى آخرها . وان الدور الجديدة المبنية على الساحل الممتد من الشمال الى الشرق جميلة للغاية فهي ذات طبقتين عموماً واكثرها مصبوغ بالازرق او بالاحمر . وقد سترت سقوفها بالآجر الاحمر . فنظرت من جهة الى البحر واطلقت نوافذها من جهة اخرى على طريق الشاكرية . وليس لها اتصال على الغالب بدور اخري فاصبحت بهذا الاعتبار مطلقة الجوانب الاربعة . ويقيمون على جبهات دورهم المطلة على الجادة اقفاصاً غريبة (شعريات) وستائر عجيبة للتعجب ولكنهم معذورون بهذا القدر . ورغماً عن ان الدور التى بنيت على الطرز البيروتي غير قليلة ولكنها غير مهمة بالنسبة لنفوس صيدا . ويجب ان لا يلفظ باسم ما يبقى من محلات صيدا ما عدا الاقسام الباقية من هذه الطريق والمسلة (الشارع) و (الطاحون)

و (الوسطاني) . فان الدور المنحطة والبيوت الردينة قائمة في الجهة الجنوبية والغربية والوسطى والشمالية الغربية من القصبة. وربما كانت قصبة صيدا منحصرة في ساحة ضيقة وقد بقيت مدة طويلة على هذه الحالة مثل صور وعكا حتى كانت دورها المذكورة شكلاً مصغراً لعكا . ولكنك لا تجد فيها داراً ذات طبقة واحدة. فترى على الغالب فوق القبب التى تستر الطرق في ساحات ضيقة حجارة سوداء يعلوها اخضرار . ونوافذ خشبية سوداء قذرة. وحديداً اكله الصدأ . وتعرف الدور بجدرانها المستورة بالدخان وبداخلها المظلم وبباحاتها العفنة المحرومة من الهواء . هذه هي مساكن الصيداويين . لا يوجد نظير لطرق صيدا الا في محلة السامريين . كما انه لا يوجد نظير لهـذه الدور التى لاسبيل لتنظيمها وتوسعة ازقتها وايصال شيء من النور والحياة لها . ولا يرى الانسان وسيلة ناجعة لاصلاح هذه المحلات سوى الهدم ...

ولاينتظر انهدام هذه الدور بمرور الايام لانها محكمة البناء . ولقد جاءت هذه البنايات لطخة سوداء في هيئة صيدا الجديدة الضاحكة من ظاهرها . وتتألف من هـذه الدور ست محلات واسماؤها ثقيلة مثلها . وفي محلة (الزويتيني) و (المسالخـه) و (كشك) و (كنان) وامثالها اثار عتيقة من قبل العمران الاخير الذي قام في صيدا . ويمكننا ان نذكر من بين تلك الآثار القديمة « قلعة المعزه » او « القلعة الفوقا » في الجهة الجنوبية من القصبة و« قلعة البحر » او « القلعة التحتا » في ساحل البحر والسراي التي انشأها « فاخر الدين » احد رؤساء الدروز في الجهـة الغربية من القصبة

ان صيدا غنية بجوامعها ويؤخذ من المؤلفات القديمة ان فيها تسعة جوامع ولكن لا يعرف فيها بالوقت الحاضر سوى « الجامع الكبير » و « جامع البحر » و « جامع البطاح » و « جامع كتخدا » و « جامع المصلية » و « جامع المجذوب » . وفي صيدا اربع حمامات وهي « حمـام المير » و « حمام الجديد » و « حمام السوق » و « حمام الشيخ » وهي من هذه الجهة غير سيئة الطالع مطلقاً

ولا ننسى ان في وسط القسم القديم من القصبة باحة صغيرة تعرف باسم « ساحة السرايا » وحوض ماء ايضاً

ولو بقيت هذه القصبة على بناياتها القديمة لكانت تحسب خالية من المعنى مثل رفيقاتها مدن السواحل . ولكن صيدا قد ازدهت وزاد رونقها وحسن حالها بمخازنها المبنية على احسن طرز وبناياتها الواسعة وبقهواتها وبنزلها وبمطابعها وبمطاحنها وبمحركاتهـا البخارية المنتشرة بين جنائنها وبياراتها . وخصوصاً بالمباني التى اقامتها الجمعيات الاجنبية للمسيحيين واشادها الموظفون الاجانب وبما فيها من المعابد الكثيرة

ومن البنايات التي يجدر الاشارة اليها مكاتب الذكور والاناث للاميركان وكنيسة الفرنسيسكان ومكتب اللاتين للذكور ومكتب الراهبات « Sœur » ودارهن للايتام وكنيسة الجزويت ومكتبهم وكنائس الموارنة والروم والاورثوذكس والروم الكاثوليك ومكاتب الاليانس الاسرائيليت · ولا حاجة للاشاره للهمة والعناية اللتين بذلتا في اقامة هذه الابنية · كما انه لايصح انكار ان هذه البنايات التي صرف عليها مبالغ عظيمة قد اوجدت روحاً عمرانيه في صيدا

[٢] – ماء القصبه – انمن الاسف ان لايكون لصيدا طالع سعيد بمائها مثل حسن طالعها بموقعها وبمنظرتها فان ماءها رديءٌ للدرجة النهائية · يأتيها الماء من مسافة بعيدة وهو مأخوذ من منبع « الباروك » في جوار « عين زحلتا » في جبل لبنان ·نعم انماء الباروك نظيف وممتاز ولكنه مكشوف في طريقه ومعرض لكل ما يتصور من انواع التلويث · ويزداد تلوثه في المحل المسمى « عماطور » اي حينما يقرب من القصبة ويصب في محل قناطر ماء عاليه تسمى « الطالع » وهناك ينقسم ويجري في قساطل حديدية ويتوزع على جميع انحاء القصبه · ولاينكر ان الماء لايطرأ عليه شيء من التلويث في داخل القصبة ولكنهُ يجيء اليها ملوثاً ·وبهذه الواسطه فان ماء صيدا منبع كثير من الامراض · ففي الماء جميع انواع العضويات وله رائحة كريهة · وقد اتبع في توزيعه العرف الجاري منذ عصور حتى ان الاشتراك به في هذه الايام يكلف مبالغ عظيمه · ولهذا فان قصبة صيدا تعاني مشقات عظيمة من جهة تدارك الماء · ورغماً عن وجود عدة ابار في انحاء متفرقة من القصبة ولكنها لا تسد العوز · وقد حفر الاميركان في الايام الاخيره بئراً (ارتوازيه) فخرج منها ماء وافر وزع على بعض المحلات ولكن الفائدة منه ظلت خاصة · وقد اسيل هذا الماء الى حوض لطيفة اقامها الاميركان على الجادة في القسم الشمالي من صيدا

٣ – الاحوال العمومية في صيدا

[١] – قضاء صيدا – يحد قضاء صيدا شمالاً قضاء جزين من ملحقات جبل لبنان وشرقاً قضاء مرجعيون وجنوباً قضاء صور وغرباً البحر الابيض · ويؤخذ من التخمين الذي وضعه مجلس ادارة القضاء ان المساحة السطحية لعموم القضاء هي ٤٠٠ الف دونم · اما عدد النفوس فهو كما يلي في الجدول :

اسلام	كاثوليك	موارنة	روم	بروتستانت	ارمن كاثوليك	لاتين	يهود	اجانب	الموقع
١١٣٩٨	٩٦١	٦٥٠	١٣١	٧٣	٢	١٧	٨٨٨	٤٧	نفس القصبة
٠٨٦١٤	٠١٧	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	ناحية شومر
٠٩٤٣٨	١٢١٨	٢٤٦٥	٠	٣٧	٠	٠	٠	٠	« جباع
١٧٦٠٨	٠٣٢٧	٣٩٣	٠	٠	٠	٠	٠	٠	« الشقيف
٤٧٠٥٨	٢٥٢٣	٣٥٠٨	١٣١	١١٠	٢	١٧	٨٨٨	٤٧	المجموع

المجموع العمومي

ذكور	اناث
٢٧٥٥٥	٢٦٨٢٩

٥٤٣٨٤

اما مقادير الوفيات والمواليد في عموم القضاء فقدذكرت في الجدول الآتي :

من سنة ١٣٢٥ الى سنة ١٣٣١

مواليد		وفيات
٤٧٥٨	اسلام	١٥١٦
٠٢٧٨	موارنة	١١٠
٠١٥٤	كاثوليك	٠٥٤
٠٠١١	بروتستانت	٠٠٧
٠٠١٣	روم	٠٠٩
٠٠٠٢	لاتين	٠٠٢
٠٠٦٩	يهود	٠٢١
٥٢٨٥	المجموع	١٧١٩

ظهر من الارقام السابقة ان نفوس القضاء زادت في ست سنوات ٣٥٦٦ شخصاً وهي بنسبة نصف الزيادة في قضاء حيفا البالغة هناك ٧٤٣٧ ٠ واذا نظرنا الى الارقام الرسمية التى نعتمد عليها يتبين لنا ان مواليد النساء بين المسلمين زادت ٩٠ نفراً على مواليد الذكور بالنسبة للسنة الماضية وزادت

وفيات الذكور ٣٦٠ على وفيات النساء وبهذا الاعتبار فان عدد الذكور في قضاء صيدا آخذ بالتناقص

ان قصبة صيدا واقعة في الدرجة ٣٣ والدقيقة ٣٤ من العرض الشمالي والدرجة ٣٣ والدقيقه ٢ من الطول الشرقي وهي مربوطة بمركز الولاية بطريق معبدة · وقد قامت صيدا في النقطة المركزية من طريق بيروت — صور فتبعد عن بيروت ٤٥ كيلومتراً جنوباً وعن صور ٤٥ كيلومتراً شمالاً · وتقسم صيدا الى عشر محلات ونفوسها ١٤١٦٧ منهم ١١٣٩٨ مسلماً و ٩٦١ كاثوليكياً و ٦٥٠ مارونياً و ١٣١ اورثوذكسياً و ٧٣ بروتستانتياً و ١٧ لاتينياً و ٨٨٨ يهودياً و ٤٧ اجنبياً

وقد ظهرت في الثماني سنين الاخيرة زيادة في مواليد الطائفة وهي الاسلامية ١١١٥ من الاناث و ١٠١٥ من الذكور وظهر نقص في وفياتها وهو ١٢٥٠ من الاناث و ٣٦٠ من الذكور . فيستدل من هذا على ان عرق الذكور في قصبة صيدا وفي عموم القضاء آخذ بالاضمحلال والتناقص · وان من الواجب اتخاذ التدابير الصحية والاجتماعية لمنع ذلك

[٢] — تاريخ صيدا — ان قصبة صيدا مبنية على رأس جزيرة قائمة امامها مثل سائر المدن الساحليه الفنيكية وهي قائمة مقام مدينة « صيدون » التي كان لها موقع تجاري مهم جداً ايام الفنيكيين · ومعنى صيدون في اللسانين العبراني والفنيكي « صيد السمك Tsidon » · ويروى ان باني هذه القصبة هو صيدون اكبر اولاد كنعان بن حام بن نوح · وقد استفاد اهلوها من موقع بلدتهم اللطيفة فاوجدوا لانفسهم علائق ومناسبات مع كافة الاقوام في السواحل المجاورة وارتقوا بحرفهم وصنائعهم وتجاراتهم وعلومهم وفنونهم · وبسبب ذلك كانت صيدا ارقى المراكز ايام الفينيكيين واهم المواقع التجارية على البحر الابيض · ورغماً عن انتقال المركزية الى صور فان صيدا لبثت محافظة على اهميتها التجارية

كان الصيداويون كما قال عنهم الشاعر اليوناني هومر — ماهرين بارعين فنهضوا بتجارتهم نهضة محسوسة ووسعوا نطاقها حتى انهم اسسوا لانفسهم مراكز تجارية في محيط البحر الابيض وفي البحر الاطلاسي الكبير ايضاً · وعاشوا عيشة مستقلة راضية الى ان كان عام ٨٤٠ قبل الميلاد فاستولى (سالمانصار) الثالث ملك اشور على مدينة صيدا ثم انتقلت بعد قليل الى ايدي الكلدانيين والى اسكندر الكبير · وبعد هذا الفاتح العظيم استولى الفينيكيون على صيدا ولكنها ظلت محافظة على استقلالها · وفي عام ١٨ ق · م منح الانبراطور اوغست الروماني فاتح سورية مدينة صيدا (لهرود الكبير) الحاكم اليهودي

وفي عام ١٤ هجري دخلت صيدا في عداد الممالك الاسلامية اثناء فتوحات الشام ايام حضرة

عمر (رضي الله عنه) احد الخلفاء الراشدين ثم استولى عليها بلا قتال الملك (بودوين) ملك القدس اثناء الحروب الصليبيه

وبعد واقعة حطين وانتصار المسلمين ذلك الانتصار العظيم هدم صلاح الدين الايوبي قلاع صيدا • وبعد عشر سنين استردها الفرنجة عام ١١٩٧ لمدة موقتة • وظلت تتراوح متنقلة بين ايدي المسلمين والمسيحيين الى ان الحقها حضرة السلطان سليم خان بالممالك العثمانية مع جملة القطعة السورية وذاك عام ٩٢٣ هجرية و ١٥١٧ ميلادية • وبقيت مدينة صيدا خربة اثر هذه الوقائع الى مبدأ العصر السابع عشر فاخذت بالنهوض والترقي • ولقد راقت مدينة صيدا للامير الشهير فخر الدين الدرزي باقليمها وبموقعها الطبيعي اللطيف فزينها بالبنايات العموميـة ووسع نطاق التجارة فيها • وقد كانت تجارة الحرير من اهم منابع الثروة في صيدا • وبعد وفاة الامير المذكور سقطت اهمية صيدا التجارية بسبب الاعمال الرديئة التي اجراها الجزار احمد باشا حتى انهـا تنازلت عن مركزها التجاري الى مدينة بيروت • وتهدمت صيدا بالزلزال العظيم الذي حدث اخيرًا ثم اعيد عمرانها ايام سليمان باشا احد الامراء العثمانيين

اتخذت صيدا مركزًا للايالة مدة من الزمن • ثم جعلت مركز قضاء تابعاً للواء بيروت المربوط بولاية سورية • ولا تزال حتى الآن من ملحقات اللواء

ليس في صيدا المحصورة بين جدران السور الخرب مرفأ • حتى ان المرفأ الشمالي المملوء اليوم بالرمال كان حوضاً لتعمير السفن • وقد احيط هذا المرفأ من طرفيه بالصخور والارصفة • وقام في الشمال الشرقي منه جسر بيضي الشكل ذو تسعة قناطر يربط الساحل بقلعة البحر • ويظهر ان باني القلعة هو الامير فخر الدين الدرزي • اما مرفأ المصريين في الجنوب فقد بقيت جدرانه القديمة ومراسيه الصنعية في الجهة الشرقية • وقد كان الامير فخر الدين سده في ذلك الحين • وفي اعلى نقطة من الجهة الشمالية الشرقية من صيدا قلعة يسمونها (قلعة المرد) بناها الملك (سن لوني) ملك فرنسا عام ١٢٥٣ وفي الجهة الشمالية من القصبة مجاري مياه جعلت تحت الارض لاستحضار الماء من نهر الاولى الى المدينة

سقطت اهمية صيدا من جهة الآثار العتيقة سقوطاً بليغا • وان الجامع الكبير القائم امام سراي الامير المشهور فخر الدين في ذلك البلد كان كنيسة بناها قديماً الشواليه سرجان

ان مقبرة مدينة صيدا القديمة التي اضرَّ بها سماسرة الآثار العتيقة لا تزال ظاهرة بين الصخور في محل مرتفع عن سهولها في الجهة الشرقية من القصبة الحاضرة وان اهم القبور في هذه المقبرة التي يمكن زيارتها والتدقيق فيها خلال بضع ساعات هي القبور القائمة في الجنوب الشرقي من المدينة

وقد ظهر في هذا المحل لحد ملك صيدا (اشمونازار) الذي اكتشف عــام ١٨٥٥ ونقل الى متحف باريس . ويغلب على الظن انه لا يوجد في هذا المحل سوى الكنيسة الصغيرة التي اقامها الفينيكيون لعبادة آلهتهم (استارته) . وان كنيسة قرية مغدوشة هي من هذا القبيل

وفي عام١٣٠٣ المصادف لسنة ١٨٨٧ ميلادية قام مدير المتحف السلطاني بحفريات مهمة في جنينة شريف افندي احد الاهلين القائمة في الجهة الشمالية الشرقية من صيــدا فاكتشف واحداً وعشرين لحداً

وقد وجد بــين هذه الآثار لحد مزين بالرسوم النافرة وبالالوان والنقوش البديعــة والعجيبة وقداشتهرباسم لحد اسكندرالكبير ولكن لم يعرف حتى الآنانه لحد اي ملك او انه صنع اي حفار ورسام . وبالنظر لما حواه هذا اللحــد من بديع الصنع العجيب فهو ذو قيمة كبيرة . وقد جاء الاستانة كثيرون من علماء اوربا واميركا لزيارة هذا الاثر الثمين . ولم تبــقَ مجلة من المجلات لم تكتب الفصول الطوال عن وصف هــذا اللحد وتعريفه . وقد وجد على احد هذه اللحود كتــابة فينيكية . ومنها عرف انه لحد احد الملوك الفينيكيين واسمه (تانيت)

[٣] — البلدية — امامي الآن ميزانية البلدية لصيــدا عن عام ١٣٢٤ و ١٣٢٨ و ١٣٣٠ و ١٣٣٢ . ويؤخذ منها ان واردات البلدية كانت عام ١٣٢٤ (١٤٤٩٤٠) فصارت بعد اربع سنين(١٨٧٢٠٧)وبعدسنتين صارت(١٩١٠٠٠)غرش ولكنها سقطت عام١٣٣٢الى (١٥٩٧٠٠) بواسطةالحرب العامة.وتتألف هذه الواردات من رسوم الذبحية والكازوالوسائط النقلية ومن اجور الاملاك. اما قسم المصارف في ميزانية ١٣٣٢ فهو مملوء بالاعاجيب واليك البيان : كانت الرواتب قبل ثمــان سنوات ٤٢٣٠٠ غرش فاصبحت في الميزانية الاخيرة (٨٤٧١٥) غرشاً وخصص لمصارف المواسم والاعياد ١٠١٢٤ غرش ولمصرف الفقراء ١٥٥٠٠ غرش . وان بلدية صيدا التي تعرف ان الواجب يقضي على البلديات ايام الحرب ان تشتغل ليلاً ونهاراً بالاعمال الحقيقية قــد استعملت صلاحيتها فقط بتزييد الرواتب وبتضعيف مخصصات المراسم والاعيان والفقراء. وتقضي الميزانية بان يصرف ١١٠٣٣٥ غرشاً على هــذه الفصول الثلاثة البعيدة عن المقصد الحقيقي من تشكيل البلديات الاساسي. ومابقي من الواردات العمومية وهو ٤٩٣٦٥ فانهاتصرف على التنويرات والتنظيفات وعلى الامور الصحية ولا ريب ان اجوآت البلديةهنا كلا شي مثل سائر القصبات في المملكة

[٤] — المعارف — كان التحصيل الابتدائي في قصبة صيدا يجري حتى مارت من عام١٣٣٣

بمعرفة جمعية المقاصد الخيرية التى اسسها المرحوم مدحت باشا عام ١٢٩٦ وقد بدأت هذه الجمعية حين تأسيسها بفتح مكتب ابتدائي يضم ١٥٠ طالباً ويديره اربع معلمين . وبذلت الجمعية جهدها بتزييد الواردات من جهة وبتكثير عدد المكاتب من جهة اخرى. وقد نجحت هذه الجمعية العالية التى بدأت بالعمل صغيراً فاصبحت ذات واردات مالية حتى بلغ عدد الاملاك التى توجرها الاربعين وكانت وارداتها عام ١٣٢٩ مالية ٨٤٣٧٠ غرشاً

كانت الجمعية تدير بهذه الواردات المهمة اربعة مكاتب وهي مكتب الفيضيه والخيريه الذكور ومكتب الاناث في محلة الشارع ومكتبي الشمعون الذكور والاناث. ولقد كان في هذه المكاتب الاربعة ٦١٨ طالباً و٥٣٢ طالبة و٢٠ معلماً و١٨ معلمة. ولم يكن المعلمون المستخدمون في هذه المكاتب حتى اعلان الدستور سوى قوة اجرائيه للقائمقامين . وقد ارادت الجمعية الخيرية بعد عام ١٣٢٤ ان تسلك سبيل التجدد ولكنها لم تنجح . ولقد كان بالامكان ان يدار شأن هذه المكاتب الاربعة بصورة اوفق ادارة وعلماً وذلك بواردات الجمعية التي تقرب من الف ليره. وفي عام ١٣٣١ الغيت الجمعية بامر من نظارة المعارف الجليلة والحقت اموالها بهيئتها الاصلية لمحاسبة الولاية الخصوصية وربطت مكاتبها بمديرية المعارف

اما المكتب الابتدائي الذي اسس منذ اربعين سنه تحت ادارة مديرية المعارف فقد قلب الى (غونه) قبل بضع سنين وعهد بادارته الى معلمين يجب ان يكونوا اكثر اهلية لخروجهم من دار المعلمين . وفي المكتب اليوم ١٠٠ طالب. وقد وقعت زيارتنا لصيدا ايام تعطيل المكتب ولهذا لا يمكننا ان نذكر شيئاً عن درجة ترقيه او تدنيه

ولقد نظر المبشرون الاميركان نظرة اهتمام بقابلية اهالى صيدا للعلوم والفنون فتوفقوا عام ١٨٨٠ لتأسيس مكتب للصنائع فيها وقد نال المكتب تدريجاً رغبة بين الاهلين . وبقدر هذه الرغبة وسعت ادارة المكتب نطاقه فاشادت له شعبة جميلة على تلة عالية مطلة على جنائن صيدا في جوار قرية (ميوميه). وقد صرفت على البناء بضعة آلاف من الليرات ونقلت الى هذا المكان القسم الابتدائي مع الصنف الاول من المكتب . وفي عام ١٨٩٥ افتتحت شعبة لصنعة النجارة ولعمل الاحذية . وقد كان عدد الطلاب عام ١٩١٣ (٢٩٨) . اما التحصيل في المكتب فبدرجة رشدي

وعلاوة على ذلك فيوجد في صيدا مكتب للاناث انشأه المبشرون الاميركاني ومكتب آخر للاناث ايضاً انشأته راهبات القديس يوسف وفي الاول ٩٥ طالبة وفي الثاني ١٣٠ طالبة . وقد اغلقت في الوقت الحاضر جميع هذه المكاتب الاجنبية

[٥] — الاحوال الزراعية — ان (جنائن البورتقال) في قصبة صيدا هي الطف الجنائن التي تبهج القلب وتشرح الصدر بمنظرها في جميع انحاء القطعة السورية بعد الشام ويافا . فقد احاطت حدائق البورتقال والماندارين (يوسف افندي) بالقصبة وجعلتها بشكل بديع . وان الروائح التي توسلها ايام الربيع حين تفتيح الزهر معطر جميع الارجاء فتنعش الافئدة وتخلب الالباب . احاطت الجنائن بصيدا من الجهة الشرقية . اما حدودها فتنتهي بنهر الاولى البعيد نصف ساعة شمالاً وبطريق الشوسة ونهر (سينبق) الذي يفصل جبل لبنان عن قضاء صيدا شرقاً ويبلغ عدد الجنائن من ٣٠٠ الى ٣٥٠ وهي منقسمة الى: قسمين قسم منها يحسب من الجنائن الكبيرة فتبلغ مساحة الجنينة الواحدة اربعة عشر فداناً (والفدان ٢٠٠٠ متر مربع) والقسم الآخر لا يتجاوز اتساع الجنينة منها الفدانين

وتقسم تربة صيدا من جهة مغروساتها البورتقالية الى نوعين رملية حمراء او بيضاء وترابية حمراء مسودة او بيضاء. فالارض الرملية الحمراء وهي القائمة على ساحل البحر والارض السوداء هما اصلح تربة لزراعة اشجار البورتقال والليمون الحامض وامثالها من الاشجار المثمرة . اما الارض البيضاء فلا تصلح لسقاية الماء ولهذا كانت غير صالحة للزرع . ويقدرون ان ثلث الاراضي في صيدا من التربة البيضاء والثلث الثاني رمل ابيض والثلث الثالث مؤلف من تربة مختلفة

ويقدرون ان جنائن صيدا تخرج سنوياً (٧٠) مليون بورتقالة و (٣٠) مليون ليمونة حامضة . وتباع الالف بورتقالة من ٢٠ الى ١٠٠ غرش والالف ليمونة حامضة بخمسين غرشاً وذلك بشرط الاستلام من الجنائن . وقد اخرج من صيدا عام ١٩٠٢ (٥٠) الف صندوق بورتقال وليمون حامض . وقد اهتم الاهلون في الايام الاخيرة بزراعة شجر (يكي دنيا) ويقدرون محصول هذا الموسم الجميل بستمائة قنطار . ويباع القنطار منه من ١٢٥ الى ١٥٠ غرشاً . ولا تزال الرغبة متزايدة بهذه الفاكهة

وعلاوة على ذلك فانه يوجد في صيدا نحو من خمسين بستاناً تشتغل باستخراج القز . وتسقى كافة الجنائن الشمالية بمياه نهر الباروك والجنائن الجنوبية بمياه الآبار المستخرجة بواسطة (النواعير) ويوجد في واحدة او اثنتين من الجنائن محركات بخارية لاستخراج المياه . اما الحساب الوسطى سنوياً لمواسم قضاء صيدا فهو كما يأتي :

الوسم المستحصل (بحساب الكيلة)	البذار المزروع (بحساب الكيلة)	جنس المزروعات
٣٢٠٠٠٠	٨٠٠٠٠	قمح
٨٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠٠	شعير
٣٠٠٠٠	١٠٠٠٠	ذرة بيضاء
٢٥٠٠٠	٥٠٠٠	فول
٩٠٠٠٠	١٥٠٠٠	عدس
١٢٠٠٠	٢٠٠٠	حمص
٢٠٠٠٠	٢٠٠٠	جلبان
١٢٧٤٥٠٠	٢٠٩٥٠٠	المجموع العمومي

وفضلاً عن ذلك فانهم يستحصلون في قضاء صيدا ٦٠٠٠٠٠ كيلو تبغ و ٤٥٠٠٠ كيلو قز ويجمعون من ٢٥٠٠٠ شجرة زيتون ١٢٥٠٠٠٠ اوقة زيت . ويؤخذ من الاحصاء الرسمي انه يوجد في القضاء ٥٠٠٠ دونم مزروعة بشجر الليمون والماندالين ويكي دنيا وان محصول ذلك جميعه يبلغ ٦٠٠٠٠٠٠ اوقه

الحيوانات الزراعيه — ان الحيوانات الزراعيه في قضاء صيدا هي كما يأتي :

حصان وبغل	حمار	جمل	فدان وبقرة	غنم	ماعز
١٥٠٠	٢٥٠٠	١٠٠٠	٨٥٠٠	٦٠٠٠	٢٥٠٠٠

٤ — الاحوال الاجتماعية في صيدا

[١] طبقات الاهالي وطرز المعيشة — يؤخذ من الاحصاء الاخير ان اهالي القصبة هم (١٤١٦٧) فاثنا عشر الفاً منهم تقريباً مسلمون والف منهم يهود والباقي مسيحيون

والمسلمون هنا سنيون ومتاولة . ومن هؤلاء اصحاب املاك واراض ومنهم من يشتغل بالتجارة كاصطناع الصابون وامثالها من الحرف التجارية ومنهم اصحاب ثروة تبلغ الثلاثين والاربعين الف ليره . ومن المسيحيين من تبلغ ثروتهم هذا القدر . ويمكننا ان نعد عشرة من السنيين واربعة من الشعيين وثمانية من المسيحيين الذين هم اقل ثروة من اولئك . فتتراوح

ثروة الواحد منهم من (١٠٠٠ الى ٥٠٠٠) ليره . ويظهر من هذا الاحصاء الصغير ن الثروة في صيدا بيد المسلمين ومع هذا فانه لا يحسب ذلك مزية لهم اذا نظرنا الى عدد نفوسهم . اما طرز المعيشة بين طبقة الاغنياء في صيدا فاقتصادية تامة ... حتى ان اقتصادهم قد يبلغ درجة الشح . فيمنع الرجل كل شيء عن اهله وعن اولاده وعن نفسه ايضاً ويسعى بكل قواه لانماء ثروته . ولهذا بات من العبث البحث عن وسائل الرفاهية والعيشة الحسنة في دور الاغنياء ومع هذا فانهم يعشقون السكنى في الدور الكبيره ذات الابهة . ولهذا ترى دور الاغنياء كثيرة الزخرف والبهاء من خارجها .. وربما كانوا يميلون لتزيين دورهم لان ذلك ذات قيمة مادية . ولكن لا يوجد في دور هذه الطبقة شيء قليل من لوازم البيوت ... وانهم ليكتفون بالبسيط من الغذاء ... نساؤهم جاهلات . . اولادهم فارغون من العلم طائشون ... وهكذا حالة الاغنياء من المتاولة . ومن الضروري استثناء بضعة اغنياء منهم ولا يحسب القاري ان الايضاحات التى قدمناها شاملة للمسيحيين فان هؤلاء كثيرو الاختلاط بمسيحي بيروت فتعلموا منهم ترتيب الدور وحسن الذوق بفرشها . وعرفوا قدر الرفاهية المعتدلة في معيشتهم

ولا تنقص نساءهم اصول المعاشرة كما انه لا تنقص اولادهم المعرفة والتربية .. حتى ان اصحاب الثروة المتوسطة من المسيحيين لا يعدمون حسن النظر والميل الى الانتظام

ولا فرق بين الطبقة المتوسطة من السنيين والشيعة وبين الطبقة الغنية . وان وجد بين الطبقتين فرق فهو بكمية الثروة ومقدارها

اما الطبقة البسيطة فافرادها تجارة او صيادون او حمالون او باعة خضر او اصحاب حوانيت . والصحيح ان عيشتهم رديئة جداً ولكن اجتهادهم وانتباههم يستر نقائصهم ومسكنتهم

ولنني اريد ان اتكلم عن الحياة العائلية فى هده الطبقات الثلاثة . فالسنيون في صيدا يكتفون بامرأة واحدة ولهذا لا يو اثر بينهم للنفور الذي يظهر في العائلات كما هى العادة في القسم الجنوبي من بيروت . ولما كان نكاح المتعة متبعاً بين المتاولة فلا حاجة عندهم لتعدد الزوجات على ان تعدد الزوجات غير موجود بطبيعته بين المسيحيين . وبناء على هذا فانه يوجد شيء من امارات الصلاح والراحة في حياة صيدا باعتبار عموم السكان

واذكر هنا على سبيل الاستطراد امراً استلفت نظري : وهو الانحطاط في محاسن الوجه والاجسام كلما اوغلت بالسير نحو الجنوب من بيروت ولكن النسل يأخذ بالتحسن اعتباراً من عكا الى صور . اما الملاحة والجمال فانهما يتجليان تماماً بين النساء والرجال في صيدا

واذا اعتبرنا ان محيط صيدا هو محيط حسن وجمال فلا نغفل عن ان في الاهلين ايضاً ميلاً للتزين

في ملابسهم فانك ترى الكبير والصغير والغني والفقير من اهالي قصبة صيدا القريبة من افق مضيء مثل افق بيروت يميل الى تحسين هندامه ونظافة ثيابه ويهتم بترتيب لباسه ·نعم ليس للصيداويين طراز مخصوص في ملابسهم ولكن يظهر عليهم اثر الاهتمام والاعتناء بتلبيق كل شيء على اجسامهم ويظهر هذا الاعتناء على الخصوص في صنف النساء

ويظهر اثر الافتتان بالتزين والرغبة فيها بين افقر المتاولة وافقر المسيحيين حتى القرويين · فلا يأكلون ولا يشربون ويصرفون كل شيء في سبيل الملابس ويميلون لتحسين مشيتهم ولان يظهروا بمظهر النظافة والجمال · وان هذه الحالة هي اكبر عامل في جعل معيشتهم مقتصدة

(٢) — العادات الاجتماعيه — لا يؤلف السنيون ولا الشيعة ولا المسيحيون القاطنون قصبة صيدا كتلات مستقلة ولا هم متبعون في حياتهم طرقاً منفردة ومنفصلة عن بعضها وذلك بسبب اختلاطهم مع بعضهم ولهذا يصعب ان يوجد لكل صنف منهم صفات مميزة وتقاليد خاصة في عاداته الاجتماعية · فامام السنيين مركز كبير وهو بيروت فلا يمكنهم التماس من تأثيره عليهم · والشيعيون مرتبطون بعلائقهم وجامعاتهم مع صور والنباطية ومرجعيون وغيرها من المحلات والقرى والقصبات القريبة فلا مندوحة لهم عن مشاركة اهليها بعاداتهم الاجتماعية

اما المسيحيون فقد اتبعوا في حياتهم تقاليد عمومية · وبغض النظر عن ان معيشة المسيحيين قريبة من بعضها سواء كان في بيروت او في حيفا او في صور فان قرب هؤلاء من مسيحيي بيروت يزيد بالمشابهة بين المعيشتين

وللموسويين في حياتهم عنعنات قديمة متبعة يطرأ عليها شيء من التبدل في بعض محلات من سورية ولذلك كان من العبث البحث عن حالات افراديه بين الموسويين في صيدا

وبهذا الاعتبار فان قصبة صيدا اصبحت في عاداتها الاجتماعية مجتمعاً للعادات المتبعة في الشمال والجنوب والشرق والغرب · ومع ذلك فان للصيداويين عادات افرادية تستلفت النظر فيجب الاشارة اليها رغماً عن معرفة منبتها ومنشئها · وان قسماً من هذه العادات مختص بالسنيين مثل قراءة المولد الشريف . . . . فيتلون غالباً قصة المولد الشريف بعد عقد النكاح وبعد حفلة الختان · اما الشيعيون فيقرأون (مرثية الحسين) ويسمونها (تعزية) ويكرم السنيون الحاضرين بعد قراءة المولد بالشراب · اما المتاولة فيقدمون الشاي · ومع هذا فان الصيداويين يكرمون الزائرين عقيب الولادة بمشروب غريب بجسمه واسمه · ويسمون هذا المشروب (قينار) وربما كان محرفاً عن كلمة (قاينار) التركية اي (المغلى) وهذا المشروب عبارة عن خلاصة القرفة المغلية الموضوع فوقها سكر وصنوبر وفستق

وللصيداويين عادة غريبة عامة بين السنيين والشيعيين وهي ضربهم خيمة فرق مرقد المتوفى بعد دفنه . تبقى ثلاثة ايام او اسبوعاً وربما امتد بقاؤها شهراً ويقرأون القرآن الكريم تحتها ويذهب اهل المتوفي نهاراً الى الخيمة ويبكون ويندبون . وربما كانت هذه العادة منتقلة من المتاولة الى السنيين . وهذه العادة متبعة ايضاً في صور . هذه هي صيدا التي يمكننا ان نذكر بعض عادات صغيرة لها . وكما قلنا قبلاً انها عادات عديمة الاهمية ولا قيمة لها مطلقة

٥ — الاحوال الروحية

[١] — الاخلاق والطباع — اذا اردنا ان نبحث عن وصف اساسي في الحالة الروحية بين اهالي صيدا فاننا نجد فيهم ميلاً خصوصياً للربح والكسب فالصيداوي يتعب ويركض ويسعى ويتحمل كل شيء في سبيل الربح . لا يمل من السعي حتى يربح . نعم ان هذه الطبيعة صفة ممدوحة ومقبولة اذا بقيت ضمن دائرة مشروعة . ولكن يخشى ان يصل هذا الميل الى درجة الحرص وهذا ما يتجلى كثيراً في الصيداويين حتى يصبح الميل الممدوح حرصاً وشغفاً مذموماً يفدي سبيله في كل شيء . وان محبة الصيداويين للمال وعدم اعتنائهم بدورهم واهمالهم مسئلة التغذي ناشئة عن التوسع في هذا الميل وانقلابه لمرض الحرص

ومع هذا فاننا لا ننكر ان هذا الخلق اساسي في كل صيداوي . اما الكسل فلا اثر له في صيدا فالرجل يخرج خبزه من تحت الارض الولد الصغير يعمل حتى انه ليحترف مهنة الحمالة فيركض ويتعب حتى يربح . وهكذا المرأة تجمع ما يمكنها جمعه فتصنع خبزاً او جبناً او لبناً وتبيعه لتربح . ويكفي لمعرفة ذلك المرور في السوق التي تقام في جادة الشاكرية اذا كان الطقس جيداً فتجد هناك الشيخ والشاب والولد والمرأة ينادون باعلى اصواتهم ويتراكضون ويتعبون ليكسبوا

ولهذا ترى الصيداويين متسابقين في اعمالهم فالاولاد يجتهدون في المكتب ليفوزوا على بعضهم والكبار يريدون ان يسبقوا بعضهم بالثروة والحاصل ان وسائل الربح في منازعة الحياة هنا ليست نظرية بل هي عملية

قلت قبلاً ان الحرص موجود في صيدا وان هذا الحرص ينفرهم من كل شيء يجبونه ظاهرياً فالصيداوي يقول «مادام انه لا احد يراني ولا احد يقول فلان اكل كذا او فلانة اكلت كذا فلماذا اذن اتكبد الزيادة بالصرف ؟ » فلا يأكل ولا يصرف بل يضيف على جيبه او على كسبه شيئاً من الثروة المادية . ولم يعتد الصيداويون زيارة بعضهم ولهذا نعتقد ان اهمالهم مسئلة المفروشات وعدم اعتنائهم بها ناشئ عن ذلك « لانه لا يراها احد . »

يخاف الصيداويون من بعضهم . وليس ارتباطهم بالدين قوياً . وان القاعدة الاخلاقية الاساسية في حياتهم هي التملص على قدر الاستطاعة من ملاحظة غيرهم وانتقاده لهم . وحينما يفتكرون بالسوي يجول في ذهنهم الامثال . ولهذه الاسباب ترى ان الاسلام مع بعضهم والمتاولة مع بعضهم حتى ان المسيحيين مع بعضهم لا يحسنون المعاشرة . فالمنازعات والمفاسد والتحريكات قائمة بصورة دائمة فيما بينهم . لانهم لا يهضمون بعضهم ولان طبعهم يدعوهم الى الغلو في الطمع ايضاً . مع اننا اذا نظرنا الى علائق المسلمين مع المتاولة او مع المسيحيين نجدها حسنة جداً لدرجة توجب الحيرة . والسبب في ذلك ان الطمع في صيدا يتكون بين الاقران والامثال ولا يتعدى حدود هذه الدائرة

ومع هذا فان الصيداويين هينون لينون في جميع اعمالهم ما عدا مسائل الطمع والحرص فالصيداوي حليم مطيع مثل الغنمة

ويمكننا ان نجد بسهولة جذور منازعات النفوذ التي لا يقل وجودها في صيدا نا تتهنا ايضاً في هذه المسائل ومع هذا فان التفوق النسبي العام في نهضة الاهلين بالنسبة لباقي البلاد زعزع كثيراً من دعائم النفوذ فيها

[٢] — الحالة الفكرية — لا ريب ان الميل للسعي وطبيعة العمل الظاهرتين في اهالي صيدا ليستا خاليتين من الذكاء . فمن الضروري الاعتقاد بان في الصيداويين رشياً المرقي مستعداً للظهور والانكشاف . فالطلاب الصيداويون في المكاتب راجحون وظاهرون دائماً على بقية الطلاب من ابناء البلاد الاخرى . وبسبب ما فطروا عليه من القابلية للتقليد فانه تظهر عليهم في مدة قليلة آثار الانتباه البينه . ولو لم يظهر الترقي على صيدا بهذه الدرجة فان الحالة الفكرية تشير ولا ريب الى سيرها نحو الصلاح . غير ان المسيحيين هنا هم ارقى حالاً من المسلمين على وجه العموم . والعامل في ذلك تجده في المكاتب التي افتتحتها الطوائف المسيحية والاجانب . لا تجد في صيدا امرأة او رجلاً من المسيحيين لا يقرأ ولا يكتب . استيقظت الامم المسيحية هنا مثل سائر المحلات من سباتها وفتحت عيونها وهي تنظر الى حاجيات الحياة باحداق باصرة

اما المسلمون فليست بينهم حركة فكرية بالدرجة المطلوبة فاذا نظرنا مرة الى النسبة العددية بين المسلمين والمسيحيين في صيدا وحققنا النظر بين عدد الطلاب المسيحيين في مكاتبهم التى لا تتعدى العشرة وبين عدد الطلاب في المكاتب المسلمة ووقفنا على النتيجة نعرف حينئذٍ درجة التراخي والاهمال بين المسلمين

ان المسلمين يدخلون اولادهم في الصناعات قبل ان يأخذوا حظاً ولو جزئياً من العلم بل قبل ان يفتح الولد عينيه . وهذه هي العلة المستولية على الرأي العام في صيدا . . فالصيداويون لا يفتكرون بان

النسل السيف في فكره وعامه لا ينجح في مجادلات الحياة بل هم لا يقدرون قدر ذلك

ومن الجهة الاخرى فان الفرق الواضح بين مكاتب الامم المسيحيه ومكاتب الامة الاسلامية يتجلى بصورة ظاهرة في صيدا كما هي الحالة في حيفا وفي كل محل ناهض . ويمكننا اعتبار هذا من جملة العوامل المؤثرة بسقوط الحالة الفكرية او ارتقائها وهو امر يستجلب النظر

ان سقوط الحالة الفكرية بين المسلمين يتجلى باشكال مؤلمة جداً في نسائهم وبناتهم . وانني اصرف النظر هنا عن ايضاح ذلك وشرحه لانه ظاهر ومعلوم

وبالنظر لقرب صيدا من بيروت فان فكرة المطالعة والميل اليها منتعشة فيها . وان لم يؤدِ بهم الميل والرغبة الى ايجاد مكتبة عمومية او تأسيس نادٍ عام للتعارف والتعاون والارتقاء غير انه يمكننا مشاهدة هذا الميل مصغراً في انصباب الاهلين على مطالعة الصحف. فللصحف الراقية في بيروت والشام مشتركون في صيدا . وكل فرد من اهالي صيدا يميل الى المطالعة والوقوف على احوال العالم. وقد تأسست فيها مطبعة باسم (العرفان) وكانت تصدر تحت العنوان المذكور مجلة اسبوعية علمية سياسية ادبية . ولما كان صاحب الجريدة متوالياً فقد كان غرض الصحيفة تنوير المتاولة والنهوض بهم وقد اضطر صاحبها اخيراً لايقاف اصدارها بسبب فقدان الورق. ونتمنى عودة الجريدة الى عالم الظهور لانها في الحقيقة جريدة جدية وعلمية

[٣] — مسئلة الذوق والحسن — مهما يكن الصيداويون ميالين للطمع والاجتهاد واكتساب الماديات فان محاسن بلدتهم علمتهم قسراً طريقة الاستفادة من جمالها . وحينما يفتح الزهر اكمامه ايام الربيع ويدنو قطاف موسم (يكي دنيا) تنتشر الروائح العبقرية من حدائق صيدا فيتنشقها القادم قبل الوصول اليها بساعتين . وكلما تسنح الفرصة للصيداويين في تلك الاوقات يذهبون الى الجنائن فيطوفون بين اشجارها ويجنون عطايا الطبيعة ومنحها الفائقه . وهو ذوق سنوي لهم . وقد الف الصيداويون ان يخرجوا للنزهة يومياً بعد انجاز اعمالهم . ففريق منهم ينصب الى الطريق في جنوبي القصبة وفريق منهم يسير نحو شماليها ويتنزه حول قلعة البحر . وفريق منهم يتبع الساحل الشرقي فيمشي فوق الرمال البراقه . ولقد اصبحت هذه النزهات الطف مشغلة يومية لهم . وفي الحقيقة ان صيدا البديعة المناظر والمواقع ايام الربيع والخريف بل وفي جميع ايامها — هي منتزه بديع بكل معنى الكلمة . بل هي محل للنزهة وخصوصاً التلال الزمردية القائمة خلفها . فان هواءها العليل ينعش القلب ويحيي الفؤاد. ولقد عرف الصيداويون الذين الفت عيونهم الالوان الزاهرة — معنى الجمال وعرفوا قدر المحاسن . وكما ان اصابعهم تعرف ملاحة الذهب فان اذواقهم تعرف قدر الازهار الجميلة والوجوه الحسنة . وللصيداويين غرام خاص

بالازهار يوجب الحيرة • فلا تخلو دار من غرانس الورد والياسمين والقرنفل والفل والزنبق • ولا يشبع الصيداويون من النظر اليها • ومن الامور التى تستحق الذكر جمال المحيط في هذه البلدة • و يمكننا ان نعتبر صيدا القاعدة السورية في حسن اجسادابنائها وجمال وجوههم • ويتمنى الانسان ان يكون للذوق البديعي حياة في منطقة صيدا البديعة بسمائها وبحرها وبمحيطها وبازهارها وبمياهها. ولقد بحثت و دققت في الامر فعلمت بكل امتنان ان محيط صيدا هو مركز او مسقط رأس لشعبة ادبية بجميع اطرافها وهي الادبيات المتوالية • فما اسعد هذا المحيط ؟ . . .

— ٧ —

ادبيات المتاولة

لا ننكر لطافة الادبيات التي تنشأ في هـذه الانحاء فوق مسرات الطبيعة في صيدا وصور وملحقاتها • ولكننا اذا امعنا النظر نجد ان الشخصيات الرقيقة والناعمة التى يمكن ان تنشأ في هذا المحيط قد اثرت فيها بعض العوامل حتى تبدلت لدرجة انها اصبحت لا تُعرف بل لا يُشعر بوجود اقل علاقة جزئية بينها وبين هذا المحيط

ولا يخفى ان منطقة صيدا وصور ومرجعيون جباية على قدر الامكان ويسكن فيها خاصة نحو من مائة الف متوالي • ولا شبهة ان الوصف المعتبر لهذه المنطقة التي تسمى (جبل عامل) هو الشيعيه • ومن الحقائق الواضحه ان هذه الكتلة البشرية المحاطة من جميع اطرافهـا بالسنيين وبالموسويين وبالمسيحيين قد بذلت غاية جهدها واهتمامها سنين طويلة منذ عصور بعيدة حتى حافظت على كيانها باي صورة كانت

ومع هذا فان جميع هذه المساعي والاعمال مترتبة على رجال الدين لأن الغاية المتبعة بـين سكان جبل عامل هي (المحافظة على كيان الدين) ولا يمكن الحصول على ذلك طبعاً الا بارشاد رجال الدين وتعاليمهم • ومن الجهة الاخرى فان بكوات المتاولة وارباب النفوذ فيهم لا يحبون التجاوز عن سلطتهم ونفوذهم الذي ورثوه عن اسلافهم • اذن كيف يمكن تشتت هذه الكتلة البشرية المجتمعة تحت عنوان (متوالي) ؟ وماذا يجب عليهم ان يعملوا حينئذ ؟ وكيف يعيشون بل كيف يفهمون للخلق نفوذهم ؟ ولهذا فقد اصبح من البديهي التفاف هؤلاء البكوات قبل كل شيء حول العلماء واظهارهم لهم حرمة ورعاية اكثر من اللزوم وادلاءهم اليهم بالعطـايا حتى استجلبوهم نحوهم • وهم لايزالون يعملون كذلك . وهذا هو السر والحكمة باحواز المجتهدين بين

المتاولة هذا النفوذ والاعتبار · ولا ريب ان لهذه القيودات العلمية التي ينحني امامها المتاولة حتى البكوات ويقبلون ايديها ويقدسونها — منزلة عالية · · · وهكذا يضطر الاهلون للاعتقاد كذلك

يخضع البكوات والرؤساء للعلماء والمجتهدين ويركعون امامهم احتراماً وتعظيماً ولكن لا ننسى ان الحرمة بالمقابلة · وما دام سيد (بك) مائة الف من البشر يحترم هؤلاء ويعظمهم هذا القدر فقد وجب على العلماء ان يؤدوا فائض الشكر لما ادانهم اياه البكوات · ولهذا لا تنفك تسمع من افواه العلماء نغمات التثبيت والتأييد لنفوذ العظماء منتهزين فرصة القاء التعاليم الشيعيه على الاهلين · حتى اصبح العلماء مداحين سيارين ذوي نفوذ لبكوات الشيعه · ويعرف من هذا مزية الدروس التي تاتي في المدارس وماذا تكون؟ ومهما تكن فلاتتجاوزحد تعليم القواعد الشيعيه ·

ان البكوات يسرون من هـذه الخطط والاصول · نعم ان رؤساء المتاولة منحطون في مواقعهم الاجتماعية من حيث العلم · ولكن لا اهمية لذلك مطلقاً · فان الكتلة البشرية التي يحكمون عليها هي احط منهم واكثر ظلاماً بمئات من الدرجات · وبناء على هذا فانهم لايخشون هذه الجهة · وباعتبار العلم فان العلماء هم اتباع لهؤلاء ايضاً نوعاً ما · على ان الغايات التي يلقنها العلماء لا تتجاوز حدود اختفاء الخليفة الاخير من الائمة الاثنى عشر في سامره · نعم ان هـذا المهدي لا بد وان يظهر يوماً من الايام مهما تأخر · ولكنه سيأتي من تلك الانحاء · وما دام ان المتاولة لا خليفة لهم اليوم ولا يمكن ان يكون · واذا كان عليهم رئيس فهم اولئك العلماء · فهل يكون بعد ذلك دين او تلقينات احسن من هذه ؟ واذا عرفنا ان الرؤساء يستفيدون من طبقة العلماء على هذا الوجه بكل معنى الكلمة عوضاً عن ان يخشوا منهم لا يبقي عندنا شك بان الحبائل التي تنصب لهذه الكتلة من العوام البالغة نحواً من مائة الف تتم وتظهر لحيز الوجود بدون شريك او رقيب

ويعرف بسهولة جدًا الاشياء التي تنفتح لها قلوب هذه الطبقة من الاهالي القائمة بين انحصار علمي شديد من جهة ونفوذ شديد من جهة اخرى · فهم يحبون ان تكون لهم مؤلفات تصف ببلاغة عظمة الحق تعالى وقداسة الائمة الاثنى عشر · وترحب بقدوم المهدي المنتظر · وتتغنى بمدائح بكواتهم · وتعلي قدر الشرع وخصوصاً شريعتهم · ولا يقوم بهذه الاعمال من بينهم سوى طبقة العلماء · وهذه هي الغاية التي يسعى اليها علماء الشيعة بل ليس لهم صنعة سواها فاذا كسدت هذه الصناعة لايمكنهم ان يجدوا حينئذ شيئاً من النفوذ الذي نالوه لدى البكوات بل انهم يفقدون ايضاً مقامهم العالي بين الامة · وبناء على هذا فان ما يكتبه هؤلاء لايتعدى حدود هذه الدائرة على انه لايوجد غيرهم من يقدر على الكتابة

وهل يجد البكوات مؤلفات وآثاراً تضرب لهم على وتر النقطة الحساسة من غاياتهم — افضل من هذه الآثار ؟ ولا ريب ان العلماء الذين يضعون امثال هذه المؤلفات النفيسة وهم يقصدون المنفعة العامة لا يضيع عليهم شيء من عواطف البكوات واحساناتهم التي تملأ الاكف . ولا ريب ان اولئك يثابرون على هذه الخطة غير ناظرين الى مزية التآليف وقدرها . ولهذه الاسباب فان ادبيات (جبل عامل) المحكومة بهذه العوامل والمؤثرات هي عبارة عن ادبيات (شيخ) وعن ادبيات شرعية

يقسم علماء المتاولة ادبيات جبل عامل الى ادوار مع ان تقسيم الدور الادبي هو نتيجة طبيعية لتبدل اشكال الجمعية الانسانية وتحولها ولهـذا لانرى حاجة للقول بان هذا التقسيم هو شخصي وهو خال من المزية العلمية

يقسم علماء المتاولة الادبيات المتوالية الى ثلاثة ادوار :

الدور الاول — يبتدأ من استيطان المتاولة جبل عامل الى اوائل القرن الحادي عشر الهجري ويقال ان الشيعيين استوطنوا هذه الجهات في خلافة حضرة عثمان . ويجدر بنا ان نقول ان هذا الدور انقضت اكثر اوقاته بالمحاربات المختلفة فظهر فيه شيء من الرقي العلمي كما انه مضت عليه ادوار انحطاط معروفة

ويمكننا ان نذكر من بين الذين اشتهروا في هذا الدور . (الشيخ محمد بن مكي الجزيني) المتوفي عام ٧٨٨ هـ . وقد ولد هذا العالم في جزين من منطقة جبل لبنان الواقعة وراء صيدا . وقد كان هو وزوجته واولاده من العلماء . ويذكر التاريخ ان ابنتـه (ست المشايخ فاطمة) قد اكتفت مقابل حصتها من ارث والدها واملاكه بالكتب التي ابقاها في تركته . ويدعون ان صك المصالحة المخطوط بهذا الخصوص لا يزال باقياً حتى الآن

اشتهر الشيخ محمد في حياته بالعلم والفضل . وله ما يقرب من ستين او سبعين مؤلفاً عربياً واكثرها بالحديث واصول الفقـه . وقد كانت له شهرة عظيمة في عصره حتى ان ملك خراسان (علي بن المؤيد) دعاه الى عنده بكتاب خاص حينما كان الشيخ مسجوناً في دمشق . وقد اهتم الشيخ بالعلم اكثر من الشعر ولهذا لا يوجد له سوى اثنى عشر بيتاً من الشعر بـين جميع مؤلفاته الكثيرة

وممن اشتهروا في هذا الدور (الشيخ زين الدين بن علي الجباعي) . ولد المومى اليه في محل يدعى (جباع) شرقي صيدا وفي الانحاء الشمالية من النباطية . وقد قتل عام (٩٦٦) هـ حين ذهابه الى القسطنطينية . وقد اجرى مفتي القسطنطينية الشريف عبد الرحيم العباسي حكم القصاص بحق قاتله . وللمومى اليه ٧٨ مؤلفاً بالتوحيد والتفسير والحديث والفقه . ويوجد منها مؤلفات منظومة

ومن اركان هذا الدور (الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي) . ولد الشيخ بهاء الدين في الكرك ونشأ في جباع وهاجر الى ايران وارتقى الى رتبة الوزارة في زمان الشيخ عباس الصفوي ثم ترك مقام الوزارة . وفي اثناء سياحته الف كتابين على طرز دوائر للمعارف احدهما (الكشكول) والثاني (المخلاة) . وقد نشأ المؤلف في القرن الحادي عشر الهجري والف الكشكول عام (١٠٠٢) هجرية . ولصاحب الترجمة اشعار ومؤلفات في فني الحساب والهندسة . وله مؤلفات دينية كثيرة ايضاً

تبين مما ذكرناه من تراجم الاشخاص المعروفين ان هذا الدور كان من اهم الادوار الراقية علماً . ويمكننا ان نقدر عدد النابغين في هذا الدور بمائتين او بثلاثمائة

اما (الدور الثاني) لادبيات المتاولة فقد بدأ من القرن الحادي عشر الهجري وامتد الى القرن الثالث عشر وقد اشتهر في هذا الدور (الشيخ محمد بن محمود المشغري) . ويقال انه اعظم شاعر اشتهر في هذا الدور وان شيئاً من اشعاره منشور في مؤلفين يسميان (الريحانة) و (السلافة) واكثر اشعاره غزل ونسيب . وقد نشأ صاحب الترجمة في القرن الحادي عشر الهجري

ومن اركان هذا الدور (الشيخ نجيب الدين العاملي) . ولد في جباع وتوفي في ايران وله (رحلة) واشعار كثيرة . وقد اقتبس ابن (معن) شيئاً من اشعاره في كتابه المسمى (سلافة الدهر) ولصاحب الترجمة مؤلفات دينية ايضاً

ومن مشاهير هذا الدور (الشيخ محمد الحرفوشي) هو من جبل عامل . نشأ في القرن الحادي عشر وله اشعار ومؤلفات في العلوم العربية

ومن علماء هذا الدور (الشيخ حسن بن زين الدين الجباعي العاملي) . وقد انحصرت مؤلفاته بالكتب المدرسية . ويقرأون اليوم مؤلفاته في كافة مكاتب البلاد التي يسكنها الشيعيون اليوم

ومن رجال الدور الثاني (الشيخ علي بن يونس النبطي) وهو من النبطية . وليس له اشعار غير انه الف كثيراً في علم الكلام والتفسير

يؤخذ من هذه الزبدة الصغيرة ان الشعراء الذين نشأوا في هذا الدور الثاني هم اكثر من الدور الاول . وانه يمكن ان يطلق على الدور الاول اسم (دور العلماء)

اما (الدور الثالث) للادبيات المتوالية فهو من مبدأ العصر الثالث عشر الهجري الى الوقت الحاضر . وقد اشتهر في هذا الدور اولاً (الشيخ عبد النبي الكاظمي) . نشأ في اواسط القرن . واصله من قصبة (الكاظمية) في العراق . ثم اقام في قصبة (جوية) بالقرب من صور

ولهذا عد من مشاهير جبل عامل · ومؤلفاته منحصرة بالفقه والعلوم العربية

واشتهر فيه ايضاً (الشيخ حبيب الكاظمي) · وهو من الكاظمية ثم استوطن صور وظهر بها ·ويقيم في قرية (معركة) وهو شاعر فقط· وليس له مؤلفات دينية · ومؤلفاته غير مطبوعة

وممن عرف في هذا الدور (الشيخ علي زيدان العاملي) · ولد في معركة واشتهر فيها · وهو من الشعراء

ومن علماء الدور الاخير (الشيخ علي السبيتي) وهو من علماء اللغة وله مؤلفات عديدة · وتنحصر مؤلفاته بعلم البيان والبديع والتاريخ وامثالها · وشعره راق جداً

ومن الذين اشتهروا اخيراً (الشيخ محمد علي عزالدين) المتوفي عام ١٣٠١ · نشأ في قرية (كفره)ولكنه اشتهر في قرية (حناويه) ·وله مؤلفات بعلم الكلام وقد الف كتاباً سماه (سوق المعادن) وهو اشبه بدائرة معارف · واشعاره راقية جداً

ومن الفقهاء المهمين في هذا الدور (الشيخ عبدالله نعمي الجباعي) المتوفي عام ١٣٠٣ ·وقد كانوا يعتمدون في جبل عامل على اجتهاد هذا الذات في امر الفتوى· اشعاره قليلة جداً · وله مؤلفات فقهيه

ويوجد ما عدا ذلك شعراء من المتاولة لا يزالون احياء · ومن هؤلاء (الشيخ عبد الحسين) المولود في قرية (خيام) من ملحقاء قضاء مرجعيون وهو مقيم في قرية (النباطيه) منذ احدى عشرة سنه · وله ديوان شعر غير مطبوع · ويوجد بين اشعاره منظومات فنيه على طرز (ديداكتيك Didactique) ومقطعات تشبه طراز (ليريك) · وقد نشرت مجلة العرفان اخيراً قصيدة غراء للمومى اليه تكلم فيها عن المخترعات الاخيرة · ويقال ان له شعراً غزلياً ومؤلفات فقهية ولكنها غير مطبوعة

ويمكننا ان نذكر من بين العلماء (الشيخ سليمان ضاهر)من اهالي نباطيه · وله ديوان غير مطبوع ومقالات نشرت فقط في مجلة العرفان وفي جريدة (المرج) التى كانت تصدر في مرجعيون

ومن العلماء الاحياء اليوم (الشيخ احمد رضا)من اهالي النباطيه ولهذا الرجل شعر قليل وآثار طبعت في مجلة المقتطف التى تصدر في مصر · ومن مؤلفاته (رسالة الحظ) و (روضة اللطائف) و(هداية المتعلمين) · اما التأليف الثاني فلم يطبع

ظهر لنا من هذه الخلاصة التى ذكرناها عن ادبيات المتاولة انه لايوجد لهذا النوع من الادبيات اوصاف خاصة بها · كما انه لا يوجد لها مميزات تجعلها مستقلة بذاتها · واذا نظرنا اليها بالمعنى

الذي يقصده تاريخ الادبيات ونزعنا منها الآثار العلمية والادبيـة والتآليف الدينية لا يبقى فيها الا القليل مما يصح ان يطلق عليه مباشرة اسم صناعة (Art) . واذا توسعنا في الامر يمكننا ان نعتبرها على الاكثر شعبة صغيرة من الادبيات العربية العامة . اذا نظرنا الى العوامل الحاكمة على هذه الشعبة من الادب كما اشرنا الى ذلك قبلا يظهر صحة اطلاقنا على الادبيات المتواليـة اسم ادبيات المشايخ او ادبيات الشريعة

اما درجة هذه الادبيات في نظر التاريخ الادبي فهي قريبة من الصفر . ويخطأ من يعتمد على ما فيها من النشيد (ليريك) القليل ويدعي ان للادبيات المتواليه تاريخاً ادبياً . ولا يحسب القاري ان المؤلفات التي يعتمدون عليها مطبوعة بل يمكن ان يقال ان اكثرها غير مطبوع . وبناء عليه فانه من السذاجة اعتبار هذه الادبيات ذكرى ادبيه مثلت الذوق المتوالي او انها راقت لدى الامة المتوالية . ولما كانت هذه الآثار مبنية على مقاصد خصوصية وقد جعلت خطاباً لاشخاص مخصوصين كما اشرنا الى ذلك قبلاً فقد اصبح تأثيرها على طول الازمان في منزلة الصفر . ولهذا يقضي الواجب الادبي بعدم الاهتمام بهذه الآثار التي يلهج بها المتاولة في محيط جبل عامل ويدعون انها الادبيات الشيعيه والادبيات المتوالية بل يقتضي بان تقابل باستهزاء ادبي . ولا ننسى الاشارة الى انه لا يوجد بين المتاولة اغان بسيطة وصغيرة تمثل الروح الطبيعية في المتاوله كما هي الحالة في كل امة . ولما سألت احد ادبائهم عن سبب ذلك اجابني بقوله :

— ليس في المتاولة عصبية قومية بل فيهم عصبية دينية ...

وانني اغض النظر الآن عن اعادة الاشارة لمعنى العصبية الدينيـة التي تجلت من اسطري السابقة . وعلى كل حال فانني ادعي انه لا يوجد بين المتـاولة فن ادبي يمثل اخـلاقهم واوصافهم ومميزاتهم

— ٨ —

في طريق صيدا — الجديدة

١ — نحو النبطية

جعلت سياحتنا الساحلية التي بدأت من حيفا عدم اهتمام وشوق في نفوسنا نحو البحر . وخصوصاً تلك الصحائف الزرقاء التي تنتهي في انحاء صيدا فقد اصبحت في نظرنا اشبه شيء بصحيفة حفظت جيداً

من كتاب شعري نعم كان ذلك الخيال النوراني افضل رفيق عزيز لدينا وكنا نعلم جيدا اننا لا نشعر برابطة الحب الا حين مفارقتنا له وابتعادنا عنه . واي داع للكذب فانه ما عزمنا على السياحة ثانية في داخلية البلاد والا وجالت في ذهني تلك الصداقة اللطيفة . قررنا الابتعاد من البحر المحبوب . ولم يكن يخطر ببالي اننا سنفارق هذه البلدة الزمردية قبل ان نشيع البحر بنظرة اخيرة . ولكن ما افجع الفراق الذي حصل ? كان الافق لا يزال عبوساً فجاءت المركبة ونقلتنا من اهنأ حضن واخذت تدرج بنا . فلم نتمكن من وداع شيْ لا البحر ولا الجنائن ولا صيدا . اختفت تلك المناظر البديعة تحت ستار من دغشة الصباح الطرية . ولم يكن نرى سوى شيء من نجوم السماء التي كانت تطرز صحيفة الوداع بذراتها الفضية . وكانت عربتنا متابعة السير على الطريق المعبدة . وبعد قليل ارتفعت من حوالينا تلك الستور القاتمة وبارتفاعها انتهت جنائن صيدا . ولكن لا يزال صوت يأتي من بعيد وهو صوت البحر ينادينا مودعاً قائلاً

— بالمسرات ... بالمسرات ...

اما نحن فكنا نجيبه بآيات الشكر ونقطع السهول القاتمة والمرتفعات القائمة . وبعد اربعين دقيقة من سفرنا مررنا بقرية دير بسين (Deir bessin) . فاضاء الافق حينئذٍ . وبعد ساعة قطعنا « نهر الزاهراني » وبعدخمسين دقيقة وصلنا الى « خان محمد علي » . فاخذت الشمس حينئذٍ تضيْ لنا الطريق . وبعد مدة قطعنا من الجانب الايمن قرية « زيفتا » ونزلنا في منحدر طريق حتى وصلنا الى قصبة « النبطية » . وهذه مركز ناحية

كانت النباطيه لطيفة بسكر سباتها . وكان يظهر شيء من الدور المنفردة في هذه القصبة الآهلة جميعها بالمتاولة . وتظهر جميلة جدًا بتوسعها وامتدادها على شكل بيضوي حول ذروة منتفخة الطرفين . اقمنا هنا بضع ساعات . فالدور والاهلون والطبائع هي ذاتها . ولكن السحن تستجلب النظر بجمالها

٢— ناحية النباطية

ان قصبة النباطية هي مركز ناحية الشقيف التابعة قضاء صيدا والمؤلفة من اربعين قرية ومن ١٥ الف شخص . ويبلغ نفوس القصبة ٤٠٠٠ وجميعهم اسلام شيعيون ما عدا ٢٠٠ فانهم كاثوليك . والقصبة قائمة في نقطة تجارية مهمة جدًا وتقام فيها ايام الاحاد سوق عمومية لبيع وشراء كافة انواع الذخيرة والحبوب التي ترد اليها من اقضية مرجعيون وصفد وحاصبيا وصيدا وسكانها اقوياء . وشبانهم اليوم اما في العسكرية او في ديار المهاجرة لاميركا . وقد قامت الابنية

التي تزدان بها القرية اليوم بالاموال التي تجيء بها من البر الجديد

ويقدرون عدد الذين هاجروا الى اميركا من ناحية الشقيف بالفي شاب . ويعود قسم من هؤلاء المهاجرين الى مسقط رأسه بعد ان يوفق لجمع كمية من الثروة . غير ان هؤلاء الشباب الذين يعودون الى وطنهم لا يظهرون تبدلاً حقيقياً في طراز معيشتهم

وفي النبطية مائة وخمسون تاجراً يشتغلون بتجارة الحبوب والاقمشة . ولكن القسم المهم وياللاسف لا يميلون لاظهار ارتباطهم التام مع الصدق والامانة وهما الشرطان اللازمان للتجارة . ويقال ان التجار الذين استحضروا اموالاً من تجار الامانة « القومسيونجية » في بيروت بقيمة الف او الفي ليرة ثم ابتعدوا عن وفائها — هم عدد غير قليل

ان المواسم الاساسية في الناحية هي الحبوب ولا يمكن باي صورة من الصور الوقوف على المقادير الصحيحة لذلك . ولكن عرفنا ان اهالي الناحية يعيشون بمواسمهم مقدار اربعة اشهر ثم يضطرون لتأمين الاشهر الثمانية الباقية باشتراء الحبوب والذخيرة من السوق التي تقام عندهم

وتصلح اراضي الناحية لزراعة الموز والعنب . ولكن جهالة الاهلين قضت بعدم رواج هذه المزروعات الثمينة وقد كان قسم مهم من الناحية مغروساً باشجار الزيتون . ولكن تطبيق قانون الاعشار بصورة رديئة ونفور الاهلين بدرجة شديدة ساق الاهلين الى قطع هذه الاشجار واحدة بعد اخرى . وبهذه الواسطة اصبح شجر الزيتون نادراً جداً في الناحيــة حتى انه لم يبق منه سوى شجيرات متفرقة تشير الى ما كان في تلك الانحاء من الثروة الطبيعية . وتعرف درجة التخريب التي اوجبتها قاعدة تطبيق قانون الاعشار في هذه الناحية بمقايسة الحالة هنا بحالة الكرم ومزارع الزيتون في جبل لبنان البعيدة عنها ساعة . وفي مركز الناحية مكتبان ابتدائيان احدهما للذكور والثاني للاناث وفي الاول من ٦٠ — ٧٠ طالباً وفي الثاني من ٣٠ — ٥٠ طالبة . ورغماً عن ميل الاهلين ورغبتهم بالمعارف فان المكتبين المذكورين وياللاسف في حالة من التذبذب والجهل لا يرضى بها كل صاحب حمية . ومن الضروري اصلاحهما وتعيين معلمين مقتدرين لهما . ولم يؤسس في قرية اخرى مكتب . وقد تأسست عام ١٣٠٦ جمعيــة سميت (المقاصد الخيرية في النبطية) اسوة بمركز القضاء . وكانت وارداتها قبل الحرب اربعة آلاف غرش والغيت عام ١٣٣١ وضمت الواردات الى المحاسبة الخصوصية . وفي مركز الناحية دائرة للبلدية وارداتهـا ٦٠ الف غرش ومصارفها كذلك . وقد كان القسم المهم من واردات يجيء من رسوم الحيوانات وهو مفقود في الحالة الحاضرة ولهذا فان اعمال الدائرة المذكورة اصبحت معدومة تقريباً

٣ ـ نحو الجديدة

بقينا في النبطية حتى الظهر ثم ركبنا عربتنا من امام سوقها القديم وجامعها القديم فاخذت مركبتنا توغل في الاراضي المزروعة ولكنها اخذت بعد هذا تصعد تحت اشعة الشمس المحرقة ولم نكن نصادف في طريقنا غير المتواليات اللواتي تظهر على سحنهن المحترقة بالشمس اعظم المميزات لهن وهي التناسب في الاعضاء وخصوصاً احداقهن السوداء فقد كانت تعرف بسحرها الجذاب . كانت النسوة يمشين ضاحكات مسرورات وقد سترن رؤوسهن بمناديل بيضاء او ملونة وعلقن في اعناقهن قلادات من الكهرباء الصفراء او من الخرز . ولقد كانت حالة هاته النسوة دليلاً جديداً على انهماك ابناء هذه الانحاء بزينة الالبسة فانهن كن يرفعن ذيول البستهن (تنانير) الشيت ويربطنها في اوساطهن فتظهر ثيابهن الداخلية بزينتها وبزخرفها . وكنت تراهن وفي ايديهن صرر يمشين الى القصبة مشية لطيفة . ويخرجن منها عائدات الى قراهن . وكان الحر شديد الدرجة لا يحتمل فاستقينا من بئر بيت صادفناه في الطريق وعطفنا نظرنا حينئذٍ على اطرافنا فوجدنا الارض ناراً تتأجج . وبعد مسيرة ساعتين وصلنا الى « ارنون » . وبعد نصف ساعة ظهر امامنا وفي مقابل الجبال المقابلة لنا واد كبير . وظهرت ايضاً (قلعة الشقيف) القائمة في الجهة اليمنى على صخور صعبة ومرتفعة ناهضة عن سطح البحر ٧١٥ متراً . ولا تزال هذه القلعة منذ عام ١١٧٩ . وقد سماها الصليبيون « **Belfort** » . وبعد مدة تقربنا من الوادي وهو مجرى نهر الليطاني العظيم

كان منظر هذا المجرى جميلاً وجاذباً للقلب : ماء ازرق ينساب في تلك الحفرة الطويلة بين الاشجار الخضراء . وامامه مدرجة من الجبال تشبه (انفي تياتر) عظيماً

وكلما كانت مركبتنا تنحدر متلوية في ذلك الوادي كانت المناظر والبدائع تتبدل وتزداد بهاء . ولبثنا على هذه الحالة الى ان صافحنا مجرى النهر . فكانت المنظرة هنا تصويرية « **Pittoresque**) تامة : جبلان شامخان نحو السماء وقد ارتفعا فوق رؤوسنا احدهما عن اليمين والثاني في مقابله فجعلا لابصارنا حداً معيناً . وكان الظل كثيفاً جداً والماء يجري بسرعة زائدة . ولما وصلنا في سيرنا الى قرب الجسر نزلنا من العربة وجلسنا في جانب الجسر المسمى « جسر الخردل » فتراآى لنا ذلك الجسر وهذا الماء وتلك المنظرة بشكل بديع ممتاز . فشاقهنا تلك البدائع الخفية والخضرة الزمردية والظلال الندية . ثم ثابرنا على خطتنا فقطعنا ذلك

الجسر الطويل وارسلنا الى البحر من هنا خالص التحايا مع مياه النهر التي تمتزج به على طريق صيدا وصور والتي يتبدل اسمها من هنا بعد ان تقطع جسراً طويلاً وتسمى « نهر القاسمية »

ثم اخذنا نتسلق الجبل القائم شرقي الوادي الممتد نحو الشمال والجنوب . فما الطف هذه المحلات واجملها ؟ انني لا اتذكر منظراً احلى من هذه المناظر . وخصوصاً المناظر الشائقة التي كانت تطبعها في حدائقنا الواح الرسوم للجبل الذي تقوم عليه قلعة الشقيف : تنقلب من صفرة فاقعة الى حمرة قانية الى زرقة قاتمة الى لون رمال كامدة . ثم تتبدل الى ارجوانية نضرة فترفع السدود الواقفة امام الابصار المرسلة . وكانت مناظر القلعة تتجلى حسناً كلما صعدنا في الجبل . ولا تزال القلعة مشرفة علينا من فوق رغماً عن سيرنا ساعات عديدة . وكنا قبلاً نقدر ان النظر من هذه القلعة الى الاطراف والاكناف منظر ليس له نظير . وكنا نعتقد ان كل جهة تظهر من اعلى القلعة فنهر الليطاني على مداه وامتداده نحو الشمال وسط ذلك المجرى الزمردي وعلى ضفافه سلسلة القرى التي لا تنتهي وجبل الشيخ « **M. Hermon** » بعظمته وقصر (السيبيه) في الجهة الشرقية وسلسلة جبال نفتالي « **Naphtali** » التي تمتد من الجنوب حتى صفد وجبل الريحان واطراف صنين في الجهة الشمالية الشرقية

لم تبرح هذه المناظر الخيالية من فكرنا ونحن نصعد في الجبل الى ان وصلنا قدام القلعة فتبدلت منظرتها حالاً الى شكل فضي ناصع . . . ثم اخذت تتضاءل امامنا تتضاءل القمر الى ان غابت عن اعيننا واصبحت مستترة لا ترى . وكنا لا نزال مثابرين على السير قاصدين قصبة جديدة فنمر طوراً بين اشجار التين وطوراً بين بساتين تلك الانحاء . دام الطريق على هذه الحطة مدة طويلة الى ان ظهرت علينا قلعة الشقيف مرة ثانية . ولكنها كانت بعيدة عنا جداً . وكانت متحجبة وراء خيوط الضياء الحريرية في المساء . وكلما تقدمت عربتنا كان يختفي عنا كل شيء . ولكن جبل الشيخ يظهر لنا من بعد بذروته المهيبة ذات الوقار . وقطعنا مسافة بعيدة في ارض حجرية . وكان الليل قد ارخى تماماً سدوله . وظهرت علينا قصبة الجديدة قائمة وكانها فاتحة ساعديها عن بعد تدعونا اليها

- ٩ -

الجديدة

١ ـ وضعية الجديده ومنظرها

ان اسم هذه القصبة التى ليس لها مزية سوى اتخاذها مركزًا للقضاء منذ عشرين او ثلاثين سنه مطابق لحالتها. فترى قصبة الجديدة مضيئة جدًا وهي قائمة على قطعة جبلية ممتدة من الشمال الى الجنوب بميلان خفيف عن اليمين وعن اليسار. يبدأ البناء من الجهة الشرقية في الجبل. وبعد ان يأخذ شكلًا محدودباً في الوسط يعود الى الانحناء نحو الغرب. ولكن البنايات في هذا المنحني متباعدة عن بعضها ولو كانت متلاصقة لكانت القصبة ترى صغيرة جدًا لان عدد الدور فيها يقرب من الخمسمائه

واذا اردنا تعريف وضعيتها الحاضرة باختصار يمكننا ان نقول انها تشبه مستطيلًا محدودب النصف وبعبارة اصح فهي نصف اسطوانة. وفي جوار القسم الشمالي للمستطيل تقوم قريتا (دبين) و (بلاط) ويترآى ان الاولى ملاصقة تماماً للجديدة

وفي المنحني الشرقي (وادي الخوخ) والكرم المسمى بهذا الاسم. وتخرج فيه مياه (عين الهبابري) و (نبع الحمام). اما في الجهة الجنوب فترى قرية (قليعة) عن بعد. وفي الجهة الغربية يقوم وادي « الليطاني » على طول وتنتهي تلك الجهة بقرية « بو بقه »

وانني ارى ان المحيط الذي تطل عليه قصبة الجديدة جميل مثل « قلعة الشقيف ». فان جبل الشيخ وذرواته المغطاة بالثلوج ترى من الجهة الشرقية وجبلي الريحان والبقاع يظهران من الجهة الشمالية و « جبل الارتون » و « قلعة الشقيف » يظهران ايضاً عن بعد من الجهة الغربيه ومن وراء ذلك تتلألأ مياه البحر الابيض. اما في الجهة الجنوبية فيرى « جبل صنين ». وتترآى عن بعد كالخيال بحيرة « الحوله » منبسطة وسط الوادي. فاذا اضفت الى هذه الحالة مناظر القرى اللطيفة مثل قرية « الخيام » وامثالها. تفهم حسن المناظر الطبيعية في الجديدة

٢ ـ داخلية الجديدة

[١] — ازقة الجديدة وابنيتها — تنتهي في وسط الجديده طريق الشوسه التى تبتدأ من

صيدا التي لا تنتهي ارتفاعاتها ومنحدراتها وعدودباتها وتقوم في نهاية الطريق باحة صغيرة . وفي وسط هذه الباحة الصغيرة يرتفع عمود حجري مرتكز على قاعدة حجرية ايضاً . ويقال انهم كانوا يعلقون مصباحاً كبيراً في حديدة مقوسة وسط العمود . ومن الغريب ان اهالي الجديدة الفاقدين كل شيء من الآثار يتهكمون على هذا العمود ويسمونه « قبراً . . . » . وتقوم دار الحكومة وجامع الجديده في هذه الباحة . اما الطريق الغربي في القصبة فضيق وغير منتظم . وتقوم على هذه الطريق حوانيت القصبة وهي ما بين سبعين او ثمانين حانوتاً . وفي القصبه سبعة طرق او ثمانية ولكنها جميعها غير مستوية ولا تشبه شيئاً سوى كومات من الاحجار . وقد سميت هذه الطرق كافة باسماء المحلات التي تقوم بها

وتسمى محلات القصبة باسماء الجهات الاربعة . فمحلة المسلمين في الجهة الشمالية من القصبة . وقد بنيت كافة الدور في الجديدة على طرز الابنية في لبنان فهي طبقه واحدة وعبارة عن غرفه مستطيلة او مربعة الشكل او غرفتين صغيرتين بينهما باحة صغيرة قد فرشت بالبلاط . وبالنظر لان الجديدة قائمة على سطح منحن ومتدرج فان كثيراً من اسطحة الدور المبنية من التراب والمحدولة بحدلة حجرية تقوم بوظيفة المنطلق للدور الاخرى التي تعلوها . ولا يقل عدد الدور من هذا الشكل

بنيت جميع الدور بحجارة كبيرة صخرية حمراء . ولاكثر الدور اغطية خشبيه ذات جناحين ينفتحان نحو الخارج . ولبعضها اجنحة من بلور ادخلت فيها قضبان حديدية طولانيه وتفتح من الداخل . ولكل غرفة نافذتان اوثلاثة حسب العادة وعلاوة على ذلك فلها فتحات مستطيلة الشكل في اعلى نقطة منها ويسمونها (قمرية) وتغطي هذه الفتحات بالبلور . وقد بدأوا يجعلون الابنية الجديدة التي يقيمونها حديثاً على شكل جديد وهي فسحة مبنية من الحجارة المروفة وعليها عدة غرف . ومن الغريب ان الدور هنا فاقدة للمنتفعات التي لايستغني عنها مطلقاً فترى الاهلين يركضون الى ظل شجرة او تحت جدار . وهذا من اهم الامور التي يجب اصلاحها خاصة في الجديدة

وتشبه دور الجديدة المزارع ولذلك كانت بعيدة عن بعضها . ففي حدائقها اشجار التوت وامثالها . وربما كانت هذه الجنائن حداً فاصلاً بين الدور كما ان كومات من الاحجار تكون حداً فاصلاً ايضاً . ويعرف وقت انشاء الدور الحديثة من الآجر (القرميد) الذي يوضع على سقوفها اما الدور الصغيرة فعبثاً تحاول وجود مطبخ او ما يماثله فيها . ويصنعون طعامهم على الغالب في الجنائن اما ايام الشتاء فيطبخونه داخل الدار

واما الابنية في دور القصبة البالغة خمسمائة تقريباً فمتوجهة نحو الشرق او نحو الغرب . ويغلب

ان تكون متوجهة نحو الشرق

لا يوجد في داخل القصبة بنايات كبيرة . غير ان كنائس الكاثوليك والارثوذكس وغيرها من الطوائف المسيحية فانها تستجلب النظر . وبهذا الاعتبار فان الجديدة قصبة جديدة ومختصرة. ومما يستجلب النظر طراز التزيين في الدور . فتوجد في اكثر الدور وخصوصاً دور المسيحيين رسوم رؤساء الحكومات الاجنبية معلقة على الجدران . وبالطبع فانه لم ينظر بهذا العمل الى وجهة تاريخية او لانتظام او لمقصد مرجح . ويوجد علاوة على ذلك رسوم افراد العائلة موضوعة وسط اطارات مصنوعة من ازهار مشغولة باليد . ويهتمون هنا بصورة خصوصية بالرسوم الدينيه فترى اكثر الجدران مزينة برسمي يسوع ومريم وعلى رأسيهما الهالات . وقد اصبحت هذه الرسوم مبذولة لدرجة ان القروية تتقاطر من انحائها . وفي كل غرفة مصباحان ومرآة وثريات ملونه . ويتم عقد الزينة بالازهار المصنوعة على شكل غريب

[٢] — ماء القصبة — تذهب نسوة القصبة شابات وشيخات صباحاً ومساء الى (عين الكبيرة) في الشمال الشرقي من القصبة ويستقين منها . وهذا النبع مغطى ويجري ماؤه من ميزابين . ويوجد منبع آخر لسقاية الحيوانات ولغسيل الثياب ويسمى (عين الصغيرة) . واطيب ماء في القصبة هو ماء (عين الصفصافه) في الجهة الجنوبية من القصبة . والاهلون يشربون من هذا النبع وهو مستور ايضاً

وعلاوة على ذلك فيوجد في دور القصبه عدة آبار عذبة المياه صالحة للشرب . ويوجد عشرون او ثلاثون صهريجاً تملأ من مياه الشتاء التى تسقط على الاسطحة المصنوعة من القرميد

يفهم من هذا ان الجديدة لا تتضايق من جهة الماء . نعم ان مياه الينابيع تقل ايام الصيف ولكن مياه الآبار تسعفها . وعلى كل فان القصبة لا تبقى بدون ماء . وقد امتازت قصبة الجديده بحفظ مياهها وبجودة هوائها

٣ — الاحوال العمومية

[١] — قضاء مرجعيون — يقوم قضاء مرجعيون في الجنوب الشرقي من مركز الولاية ويحده شمالاً قضاء جزين من ملحقات جبل لبنان وشرقا قضاآ حاصبيا والقنيطره من ملحقات ولاية سورية . وغرباً قضاء صيدا وجنوباً قضاء صور وقضاء صفد من ملحقات لواء عكا

واراضي القضاء ذات موانع ما عدا اطراف بحيرة الحوله فهي سهل وقد امتد نهر

الشريعه في الحدود الشرقيه والجنوبيه الشرقيه من القضاء فتشكلت منه بحيرة الحوله وتوجد عدة انهر صغيره تصب في نهر الشريعه وفي بحيره الحوله · والمياه في القضاء كثيرة

ويؤخذ من القيود الرسمية في الطابو ان مساحة القضاء السطحيـــة تبلغ « ٥٤٠ » كيلو متراً منها ١٠٤ كيلو مترات اراضي الدور ومتمماتها وجنائنها وكرومها و ٠٣٥ كيلومتراً مربعاً اراض اميرية وهي حجرية خالية صالحة للتحريش او غير منبتة · ويفهم من هذا ان الارضي الاميرية الصالحة للفلاحة والزراعة هي « ٣٠١ » من الكيلو مترات · اما نفوس القضاء فـ« ٣١١١٥ » منهم « ٢٢٠٣٥ » مسلماً ما بين ذكور واناث « ٤٧٦٥ » ارثوذكسياً و « ١٤٦٧ » كاثوليكياً و « ١٣٠٤ » موارنة و« ١٠٧٥ » بروتستانتياً و « ١٠٠ » لاتيني و « ٢٧٠ » يهودياً وقــد بلغ عدد المواليد في عموم القضاء عام ٣٢٥ — « ١٠٤ » وعدد الوفيات « ٧٥ » وعدد المواليـــد عام « ١٣٢٩ »—« ٢٢٧ » وعدد الوفيات « ١٢٦ » وعددالمواليد عام ١٣٣٠—« ٢١٩» وعدد الوفيات « ٧٢ » وعدد المواليد عام ١٣٣١ « ٢٥٦ » وعدد الوفيات « ١٠٣ »

ولا تعلم دائرة النفوس المقدار الصحيح الذين هاجروا من ابنـاء القضاء الى اميركا والى غيرها من الجهات ولكن يؤخذ من التحقيقات الخصوصية انه بلغ عـــدد الذين هجروا قضاء مرجعيون من ابنـاء الوطن حتى الآن اكثر من « ١٠ » آلاف شخص وقد ذهبوا الى اميركا الشمالية والىالبرازيل والى المكسيك.ولقد فقدت بهذه الواسطة قصبة الجديدة فقط « ٢٥٠٠ » شخص.ويقدرون ان ثلث العشرة آلاف مهاجرهم من المسلمين : وقد هجر القسم الاعظم من هؤلاء وطنهم الاصلي تماماً واستوطنوا الارض الجديدة بصورة دائمة

ويقدرون ان القضاء هو من انحاء نهر الشريعة التي اشتهرت ايام العبرانيـــين وقد كانت زراعته مترقية في زمن الفينيكيين · ولا ريب انه مرت على هذه الاراضي الانقلابات التي طرأت على البلاد الفينيكية ثم انتهت بانضمامها الى الممالك العثمانية مع القطعة السورية

[٢] — قصبة الجديدة — مركز القضاء هو قصبة الجديدة وهي واقعـــة في الدرجة ٣٥ والدقيقة ٢٤ من العرض الشمالي والدرجة ٣٣ والدقيقــه ١٥ من الطول الشرقي وقائمة على ذروة جبل موازية لذروة جبل الشقيف وتبعد عن مركز الولاية ٢٢ ساعة وترتبط بقصبة صيدا بطريق معبدة يبلغ طولها ٥٥ كيلو متراً · وترتفع عن سطح البحر ٧٠٠ متر · هواؤها جيــد نظراً لارتفاعها.ومنظرها جميل جداً لاطلالها على جبل الريحان وعلى جبل الشيخ وعلىسهل مرجعيون

تبلغ نفوس مركز القضـاء ٣٧٥٢ منهم ٢٩٧ مسلماً ما بين اناث وذكور و ٢١٩٥ من

الروم و ٨٩٠ من الكاثوليك و ٣٧٥ من البروتستان . وقد بلغت المواليد عام ١٣٣١ (٥٠) والوفيات (٢٣)

ولم تتمكن بلدية قصبة الجديدة التي لا تزال في حالتها الابتدائية من اظهار شيء يستحق الذكر من حيز القول الى حيز الفعل . وليس للقصبة خريطة منتظمة وازقتها مملوءة بالغبار والاحجار الصغيره ولا يتمكن الغريب ان يعرف مطلقاً تقسيمات الازقة ولو اقام فيها عشرين او ثلاثين يوماً وقد كانت الواردات في ميزانية البلدية عن واجب عام ١٣٢٧ (٢٩٢٥٠) غرشاً ومن واجب سنة ١٣٣١ (١٤٦٩٩) غرشاً . اما هذا العام فهي (٣٤٨٨٥) غرشاً . واما مصاريفها فكانت عام ١٣٢٧ (٤٠١٧٥) غرشاً . وفي السنة الماضية كانت (٢٠٨٧٦) غرشاً . وقد ظهر لنا من تدقيقاتنا ان دائرة البلدية في القصبة هى احط دوائر البلدية على الاطلاق . وهي في اشد الاحتياج للاصلاح

[٣] — امور المعارف — في مركز القضاء مكتبان رسميان احدهما للذكور والآخر للاناث . ومكتب ابتدائي ذو شعبتين للروم الارثوذكس . ولقصبة الجديدة حالة غريبة جداً في امر المعارف كما هي الحالة فيها بامور البلدية . وبسبب حرمان مكتب النمونه الذكور من الاساتذة ارباب الاقتدار والاهلية فقد اصبح مجمعاً للبلداء ولا اثر للعلم والتحصيل بين المائه وعشرين طالباً المداومين عليه . اما مكتب الاناث فهو اشد انحطاطاً ولا يتجاوز عدد الطالبات فيه الاربعين

ويقوم امام هذه المؤسسات الرسمية المنحطة مكتب ابتدائي للروم في غاية الجودة والترقي وقد اعطى المكتب قبلاً للحكومة الروسية بموجب رخصة رسمية وكانت الجمعية الفلسطينية الروسية تدفع رواتب المعلمين والمعلمات . ويزيد عدد تلامذته على الاربعمائة ما بين صبيان وبنات . وقد اشادت الطائفة الرومية البناء ولكن الحكومة الروسية استحصلت على رخصة المكتب ولهذا السبب اغلقته مديرية المعارف في العام الماضي . وقد عطل مكتب البروتستان الذي يبلغ عدد طلابه الثلاثمائة ما بين ذكور واناث لانه لم يكن حائزاً على رخصة رسمية . ولقد كان اغلاق هذه المكاتب وتعطيلها مضراً جداً للاهلين حتى بات جميع المسيحيين الذين يقرأون ويكتبون بدون مكاتب . اما مكاتبنا الرسمية فانها عاجزة عن تلافي هذا النقص . ولا ريب ان نجاح المكاتب ورقيها متوقف على وجود معلمين ومعلمات من ارباب الاهلية والاقتدار واننا لم نوفق حتى الآن ويا للاسف لاحراز شيء من هذه المزايا البعيدة عن اساتذتنا الرسميين . واذا كانت حالة المعارف في مركز القضاء مختلة بهذه الدرجة فمن العبث حينئذ البحث عن مكاتب القرى . فحالة التربية بيننا محتاجة للاصلاح من اولها الى آخرها .

وباعتقادي ان ربع المبالغ التى تصرف هنا من صندوق المحاسبة الخصوصية على امور المعارف وتبلغ (٢٣٠٠٥) — لم تستثمر كما يجب. ومن الممكن استحصال نتائج حقيقية مفيدة بهذه المبالغ ايضاً ولكن بشرط الجد والعمل المتواصلين

[٤] — المحاصيل الزراعية — ان قضاء مرجعيون باجمعه ذو محاصيل واننا ننشر ادناه التقرير الرسمي الذي عثرنا عليه من المحاصيل الزراعية فيه :

المقادير المستحصلة (كيلو)		الاراضي المزروعة في العام (دونم)		جنس المزروعات
٠١٢٠٠٠٠		٣٠٠٠٠		قمح
٠٤٠٠٠٠٠		٥٠٠٠٠		شعير
٠٠٣٠٠٠٠		١٠٠٠٠		ذرة بيضاء
٠٠١٥٠٠٠		٠٣٠٠٠		ذرة صفراء
٠٠٠٢٥٠٠		٠٠٥٠٠		فول
٠٠٢١٠٠٠		٠٧٠٠٠		عدس
٠١٧٥٠٠٠		٢٥٠٠٠		حمص
٠٠٠٦٠٠٠		٠٢٠٠٠		جلبانة
٠٠٢٠٠٠٠		٠٠٥٠٠		توتون
٠١٠٠٠٠٠	اوقة زيتون	٢٠٠٠٠	شجرة	زيتون
١٠٠٠٠٠٠	كيلو	٥٢٦٥		عنب

٤ — الاحوال الاجتماعية في الجديدة

اذا نظرنا لقيد النفوس نجد ان نفوس الجديدة كانت عام ١٣٣١ (٣٧٥٢) شخصاً منهم ٢١٩٥ ارثوذكسياً و٨٩٠ كاثوليكياً و٣٧٠ بروتستانتياً و٢٩٧ مسلماً . وبسبب مهاجرة النصف من الاهلين تقريباً ومكثهم في مصر واميركا فان الجديدة اصبحت قليلة النفوس جداً وتراها ساكنة هادئة هدوءاً مطلقاً وهو امر يستلفت النظر

ان المسلمين في القصبة سنيون ويشتغل اكثرهم بتجارات بسيطة وهم على وجه العموم غير مرفهين في حياتهم ويمكن ان يقال انهم يعيشون بقناعة وفقر. وهم كتلة صغيرة لاتتجاوز الخمسة وعشرين داراً ويكاد ان لايكون لاحد منهم زراعة او فلاحة

ولهذا السبب يمكننا ان ننظر الى قصبة الجديدة بعين انها بلدة مسيحيه ونعرف من هذا بسهولة ان طائفتى الارثوذكس والروم الكاثوليك اصحاب نفوذ . نعم ان في الجديده مركز المطرانخانة : ومطران الجديدة ينظر بشئون اقضية حاصبيا وراشيا وصيدا وصور . ولكنه يمضي اكثر اوقاته في الجديده وحاصبيا . وقد ذهب هذا المطران الى اميركا والبرازيل ليجمع شيئاً من الاموال . ويتألف مجلس المطرانخانة من سبعة اعضاء ومن كاتب وهو ينظر باعمال الطائفة الارثوذكسية وتنفذ اكثر الاعلامات التي يضعها المجلس . ويوجد صندوق للايتام ملحق بالكنيسة وهو يدعف المحتاجين من ابناء القصبة ولا يتجاوز عدد هؤلاء المحتاجين العشرة او الخمسة عشر . وللكنيسة اوقاف وفي صندوقها ثروة مالية . وفي الجديدة ثلاثة او اربعة من الرهبان وهم يستوفون مخصصات مقننة عن الزواج والعماد والوفاة والخطبة والسلام والمرض وللمطران واردات خصوصية ايضاً . ويقال ايضاً ان دخل المطران سنوياً يبلغ الالف ليرة . والطائفة الروم في الجديدة مكتبان احدهما للذكور والآخر للاناث وتأتي رواتب المعلمين والمعلمات من روسيا ويقال ان جمعية فلسطين الروسية تقوم بتأدية هذه المبالغ . اما عدد الطالبين والطالبات في هذين المكتبين فيبلغ الاربعمائة وبالطبع فان للطائفة هنا كنيسة ومقبرة تقوم في الجهة الشرقية من القصبة

ويروى انه لايوجد احد بين شباب وشابات الطائفة الرومية لايقرأ ولا يكتب . والحاصل ان هذه الطائفة تعرف المطرانخانة مرجعاً لها في جميع الامور . ولا ريب ان مستقبل الفين من النفوس مرتبط بميول المطرانخانة وبافكارها

وفي الجديدة (مطرانخانة) للكاثوليك ومركز المطران في الجديدة ولكن ابرشيته تشمل اقضية حاصبيا وراشيا والقنيطرة وقرى مرجعيون . ولهذه المطرانخانة املاك واراض ومطاحن تبلغ وارداتها الالفي ليره . وللكاثوليك في قصبة الجديده كنيسه وثلاثة رهبان (خوارنه) . وبسبب ان هؤلاء موظفون فان وارداتهم هي اقل من واردات الرهبان الارثوذكس . ولهذه الطائفة المسيحية مكاتب وامثالها من التشكيلات وهم يجارون الروم الارثوذكس في خطتهم

فاذا قابلنا بين هاتين الطائفتين يظهر لنا ان الكاثوليك هم اكثر رقياً . وقد تعممت معرفة الالسنة الاجنبية بينهم اكثر من بين اولئك

وللبروتستانت في الجديدة كنيسة وقسيس

ويمكننا تقسيم الطوائف المسيحية ذات التشكيلات المذكورة في الجديدة الى ثلاث طبقات باعتبار حالتها الاجتماعية :

الطبقة الاولى — هم اصحاب الثروة من ثلاثة الاف الى ستة آلاف ليره ولا يتجاوز عدد

هؤلاء الخمسة او الستة . احدهم تاجر والاخر محام والثالث مزارع · ومعيشة هؤلاء عالية بالنسبة لمعيشة الاهالي . فإن دورهم نظيفة وصحية · مفروشات دورهم جيدة وقد اعتادوا ان يفرشوها بدكات عالية يضعون فوقها سجادات ويزينون الغرفة بالمنضدات وبالمرايا وبالثريات وبالخزائن ويفرشون الارض بالسجاد ويعلقون على الجدران سجاداً ايضاً . وابناء هذه الطبقة اصحاب ذوق ويعرفون طرق الحياة

الطبقة الثانية — هم في درجة ابناء الطبقة الاولى من حيث الثروة ولكنهم احط من اولئك من حيث الذوق والحالة الفكريه ومن حيث الدور وطراز فرشها . ويبلغ عددهم قدر الطبقة السالفة . ويمكننا ان ندخل طبقة التجار في الجديدة بعداد هؤلاء ويقال ان الضيق في الدور امر مدرك في حالة القصبه الاجتماعية

الطبقة الثالثة — هم الاصناف والمكاريه · ومن هؤلاء قسم قد اسس حوانيت المبيع ويشتغل قسم آخر منهم بمعاملة العربان المجاورين فحوانيتهم فوق ظهور بغالهم . وثلاثون في المئة من نساء هذه الطبقة وتسعون في المئه من رجالها يقرأون ويكتبون

اما حياة العائلة في الجديدة فهي ارقى بدرجة بسيطة بالنسبة لباقي المحلات : يحسنون المعاملة مع بعضهم داخل البيوت وهو امر عام بين جميع السكان . تشتغل النساء باشغال البيوت فقط اما الرجال فيتاجرون و يجلسون في الحوانيت او يخرجون الى محلات العربان فيعاملونهم · ويقيم اصحاب الثروة في دورهم · ويستثمرون اراضيهم بواسطة المزارعين من ابناء القرى . واراضيهم خارج الجديدة

تغلق الحوانيت ايام الاحاد في الجديدة · ويتبادلون الزيارات ذلك اليوم ويخرجون للنزهة فيه · ويغلب انهم يخرجون الى جنائن قرية دبين التي تبعد ربع ساعة عن القصبة في الجهة الشمالية منها . واراضي القرية هناك مغروسة خضراء تتخللها المياه الجارية · ويخرجون احياناً الى نبع الحمام او الى عين القصير البعيدتين عن القصبة ربع ساعة في الجنوب الشرقي منها ويمتعون نظرهم بمنتزهاتها الزمرديه او انهم يخرجون الى حقول العنب باطراف القصبة فيأكلون العنب والتين

اما المسلمون في الجديدة فانهم يتنزهون ايام الجمعة . ولا يوجد انهماك بالمشروبات في الجديدة . نعم ان جميع الاهالي تقريباً يستعملون المشروبات الكحولية ولكنهم يعتقدون انهم لايتجاوزون الدرجة المعقولة

وقد اخذ اللباس هنا شكلا مسيحياً . فالمسيحيات في الجديده لايخرجن الى الازقة متحجبات مثل المسيحيات في حيفا وفي سائر المحلات فلباسهن اقرب للباس القرويات فيلبسن (وسطية) ومن

فوتها قميص او منتان وجميعها من ذات الالوان الزاهية المؤثرة في الابصار ويسترن رؤسهن بتنديل او بغطاء ملون ... وهذا هو لباس اكثر البنات والنساء في الجديدة

اما الرجل فيلبس غنبازاً قصيراً يميل الى السواد بلونه وقد فتح الغنباز من قدام وقص من اطرافه مقدار خمسة عشر سانتيما ويلبسون بارجلهم قلاشين سوداء ونعالاً سوداء و يلبسون احياناً تحت الغنباز سروالاً وربما لبسوا السروال بدون غنباز . و يلبسون فوق الغنباز اوالسروال (جاكت) و يشدون في اوساطهم زنانير سوداء ويسترون رؤوسهم بطرابيش لونها قريب من السواد وعليها شراريب كبيرة . و يضعون فوق رؤوسهم الطربوش والشرابة بشكل مائل . وتظهر الرجال امامك في جميع انحاء القصبة كأنهم هياكل مهيأة للرهبنة . امام ملابس الطبقات المثريه فقد استغربت (اي اصبحت غربية) نوعاً ما

يكاد ان لايكون في قصبة الجديده طبقة من ارباب النفوذ . نعم انه يوجد اناس اثروا واصبحوا اصحاب مراكز بسلوكهم طرق المفاسد ولكن ذالك لايحسب شيئاً بنسبة مراكز بقية الاقضية . ومهما يكن فانه يمكننا ان نقول ان عدم وجود نفوذ لاحد في هذه القصبة ناشيء عن اسباب وهي قلة المسلمين هنا ووجود المراقبة من قبل الرؤساء الروحيين على الطوائف المسيحية وعدم وجود ثروات ممتازه

ان السبب بخراب الحالة الاجتماعية في الجديده هي مسئلة المهاجرة . فلا يوجد اليوم من الالفين او الثلاثة آلاف مسيحي المقيدين في نفوس الجديده اكثر من الف نفس . واما الباقون فهم في اميركا . واغلب المسيحيين الذين يهاجرون الى اميركا لايعودون منها . ومع هذا فانهم لاينقطعون عن ارسال الدراهم لاهليهم الى ان يتيسر لهم نقلهم الى ديار الهجرة . وقد بنيت اكثر دور الجديده بالاموال التي جيء بها من اميركا . ويوجد قسم من المهاجرين يجمعون شيئاً من الثروة ويعودون الى هنا فيبنون بها دوراً ويأخذون باستهلاك ماbايديهم من المال . وحينما تخلص ثروتهم يرجعون الى اميركا ولا يعودون منها

وفي الجديدة كثير من النساء يقمن بلا رجال وعدد كبير من الدور التى ظلت اطفالها وبناتها ونساؤها بلا رؤساء . ومن الغريب ان المرض الاجتماعي وهو المناسبات غير المشروعة الذى يرى في المحلات القريبة من الجديده هو نادر جداً هنا حتى لايكاد يذكر

وربما كان السبب بذلك وحدة العنصر هنا وعدم وجود عناصر اخرى . ترى ابناء الجديده وهم سكان الجبال ذوي بصيرة وفكرة في مسائلهم الحياتية . يميلون الى الاجتهاد والعمل فترى بنات الجديده لا يتركن من ايديهن الاشغال اليدوية فيصنعن الدانتلا والقلاشين والاحزمه

والقمصان الصوفية . وبسبب المراقبة والتشويق فقد حافظ ابناء الجديدة على كيانهم وبسبب انزواء محيط الجديده الجبلي فانه لا يمكننا تشبيه ابناء الجديده بالصيداويين او بالصوريين . واذا اضفنا الى ذلك خلق القناعة العام في الجديده وعرفنا ان كثيرا من الاسر القروية تكتفي سنوياً بصرف الفين من القروش — تظهر للقاريء صحة الفكرة التي قلناها .

٥ — اللغة والادبيات

قلنا حين الكلام عن الحالة الاجتماعية في الجديده ان قسما من المسيحيين القاطنين هنا قد تعلموا الالسنة الاجنبية . واذا استثنينا من هؤلاء المهاجرين الذين عادوا من اميركا فان الباقين يعرفون الفرنساوية هنا . ولكن عدد المتكلمين بها غير كثير . اما الذين يعرفون اللغة التركية من الوطنيين فهم اثنان او ثلاثة . واما الباقون فيتكلمون ويكتبون بالعربية . ومع هذا فانه من العبث البحث عن اللغة الفصحى هنا . فالاهلون في الجديدة يتكلمون اللغة العربية العامية . واما اللهجة فاثنتان : احداهما اللهجة اللبنانية ويتكلم بها الثلث تقريباً . واما الثلثان الآخران فيتكلمون بلهجة العربان لان اكثر الاهلين هنا جاءوا من حوران واستوطنوا الجديده

ولا حاجة للبحث مطولاً عن الادبيات وعن اللسان الادبي في الجديده . ومع هذا فانهم يطلقون على الاغاني والمواليات المستعملة في المحلات المجاورة اسم (عتابه و ميجانه)

اما عتابه فهي عبارة عن نشائد لوم وتعنيف على طريقة (ليريك) وموضوعها العشق . واكثر العتابيات مصنوعة على طريق المحاورة بين العاشق والمعشوق ويمكننا ان نذكر منها شيئاً :

— عتابه —

يابو زالف سواد المرجاناي
وخد البنت حب المرجاناي
يوم فراق ولفي المرجاناي
وصبحت خيال من تحت الثيابا

—« مقابل العتابه »—

حلى لى الشايله على الكتف غرفاي
وحي من الجهل يا ولف غرفاي
قصدت عيونهم وبشيل غرفاي
عمنوما من ماء الحيابا . . .

— عتابه —

يا رأس دوب نوبه ودوب سوساي

وحسه بضامري نقرات سوساي

انا لكيت ياخلق اداري الله وسوساي

وما لقيتش رفيق على الهم جابا

واما الميجانيات فانها مقطعات مهيجة للعواطف وقد سميت بهذا الاسم لانها توافق نقرات غنية (ميج يابو الميج) الخ . ويمكننا ان نذكر منها هنا شيئاً :

— ميجانه —

يا ظريف الطول حبك مطرحو

غمزات عينك في قلبي يجرحو

بتمون على خيك بسيفك تدبحه

بس العوازل ماتخشش بيننا

— ميجانه —

شوف ظريف الطول واقف على الشفا

والمحبة آخرتها للحفاء

واللي يوعد وعد حلو للوفاء

حلي وعدك والمقدر ربنا

— ميجانه —

يا ظريف الطول عيني ياظريف

لا ضمك ضم الحبق بجواض ريف

وان كان ياعمري لا عندي تضيف

جوه قلبي لا عمر لك مسكنا ...

وفي الجديدة كثير من (العتابيات) و (الميجانات) التى يترنمون بها اوقات الافراح وقد ظهر ان موضوعاتها القامة الظريفة والجبال والجمال وجرار الماء وغير هذا ... فهي بهذا الاعتبار ذات علاقة بالحياة . وقد اصبحت هذه الاغاني مظهراً للقبول والاستحسان في الجديده نظراً لدلالتها على حالة روحيه هنا



المؤلفات المكتوبة عن سوريه وفلسطين والتى تستحق التنبيه

المؤلفات التركية

١ — قاموس الاعلام	شمس الدين سامي بك
٢ — تاريخ سياسي	كامل باشا
٣ — مرآت حقيقيت	مدحت باشا [استانبول ١٣٢٥]
٤ — دولت عثمانية عصر حاضر تاريخي	على رشاد بك
٥ — خاطرات	سعيد باشا

المؤلفات العربية

١ — تاريخ دمشق	ابن عساكر [طبع بعضة]
٢ — ذيل تاريخ دمشق	ابن القلانسي
٣ — الروضة الغناء في دمشق الفيحاء	نعمان القساطلى
٤ — زبدة الحلب في تاريخ حلب	ابن العديم
٥ — الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب	ابن شحنه
٦ — تاريخ حلب	[بيشوف الالماني]
٧ — تاريخ اورشليم اى القدس الشريف	خليل سركيس
٨ — تاريخ يوسيفوس اليهودى	
٩ — تاريخ بيروت والامراء التنوخيين	صالح بن يحيى
١١ — تاريخ صيدا	احمد عارف الزين
١٢ — تاريخ زحله	عيسى اسكندر معلوف
١٣ — تاريخ سوريا	جرجي بن الطرابلسي
١٤ — تاريخ سوريا	مطران يوسف الدبس [ثمانية اجزاء]
١٥ — العقود الدرية في تاريخ المملكة السورية	الياس مطر
١٦ — تاريخ لبنان	الاب بطرس وتينوس
١٧ — اخبار الاعيان في جبل لبنان	طنوس شدياق

١٨ — كتاب ذخائر لبنان — ابراهيم بك الاسود
١٩ — تسريح الابصار في ما يحتوي لبنان من الآثار الاب لامنس
٢٠ — تاريخ بعلبك — موسى ميخائيل الوف
٢١ — تاريخ الاداب العربية في القرن التاسع عشر الاب لويس شيخو
٢٢ — طبقات الامم والسلائل البشرية — جرجي زيدان
٢٣ — العيشة الهنية في الحيوة النسكية — (القس افرام الديراني)
٢٤ — مجلة المقتطف — (القاهره)
٢٥ — مجلة الهلال — (القاهره)
٢٦ — مجلة المقتبس — (دمشق الشام)
٢٧ — مجلة العرفان — (صيدا)
٢٨ — دائرة المعارف — بطرس البستاني
٢٩ — تاريخ التمدن الاسلامي — جرجي زيدان

المولفات الفرنساوية

1 — V. Cuinet, Syrie ,Liban et Palestine.
2 — V. Guérin, La terre S.te Judée, Samarie et Galilée. (7 Vol.)
3 — Vigouroux. Dictionnaire de la Bible.
4 — Maspéro, Histoire ancienne des peuples d'Orient. (3 Vol.)
5 — Lenormand et Babelon, Histoire ancienne de l'Orient (6 Vol)
6 — Perrot et Chippiez, Histoire de l'Art dans l'antiquité, (vol III et IV « Egypte,Phénicie, Judée »
7 — Vernet et Danbonnu, Les Puissances étrangèrs dans le levant, en Syrie ot en Palestine.
8 — Lortet, La Syrie d'Aujaurd'hui.
9 — Heyd, Histoire du Commerce du levant.
10 — Elisée Reclus. L'Asie anterieure.
11 — (Pères Dominicaines.) Revue Biblique.
12 — G. Rey, Les colonies Franque en Syrie.
13 — G. Rey, Etude sur les Monuments de l'Architec ture militaire des Croisés.

14 — Vogüe (Nelchiorde), Les Eglises de terre Ste.
15 — Vogüe (Nelchiorde). L'architecture de la Syrie centrale.
16 — Marcel et yaneski, La Syrie.
17 — G. Lebon, La civilisation arabe.
18 — H. Guys, Beyrouth et le liban.
19 — H. Guys, Etat politique et commerciale de la Syrie.
20 — Mgr. Mislin, Voyage en terre Sainte (3 vol.).
21 — Le Journal Asiatique.
22 — Clement Huart, Littérature Arabe.
23 — Nouveau Larousse illustré. (8 vol.).
24 — Baedeker, (Palestine et Syrie).
25 — Ernest Renan, Vie de Jesus.
26 — Pirre Loti, La Galilée.
27 — Lamartine, Voyage en Orient.
28 — Chataubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem.
29 — Sckopoff, Les Réformes et la protection des chrétiens en turquie (Paris, 1904).
30 — Aristarchi Bey, Législation ottomane (Constantinople 1873 — 76).
31 — Engelhardt, La Turquie et le tenzimat (Paris 1883).
32 — d'Armagnac, Nezib et Beyrouth (Paris 1844).
33 — Edouard Blondel, Deux ans en Syrie et Palestine (Paris 1840).
34 — Caldavène et Barrault, Histoire de la guerre de Mohamed-Ali contre la Porte ottomane (Paris 1839).
35 — Perrier, la Syrie sous le gouvernement de Mohamed-Alie (Paris).
36 — Saladin et Migeon, Manuel d'Aart Musulman.
37 — Le conte, Les Arts et Métiers de la Turquie et de l'Orient.

المؤلفات الانكليزية

1 — The Survey of Western Palestine (9 vol.).
2 — Robinson, Biblical researches in Palestine, mont Sinaï and Arabia Petrea.
3 — Guyle Strange, Palestine under the Moslems.
4 — Thomson, The Land and the book.
5 — Quarterly Statement, Palestine Exploration Fund.
6 — Burton and Druke, Unexplored Syria.
7 — The modern Syria by an oriental Student. تأليف احد المستشرقين
8 — Churchill. Mont Libanon (3 vol.).

المؤلفات الالمانية

1 — Ritter, Erd kunde (XIII-XV).
2 — Zeitch, Morgenlandes gesellschaft.
3 — Zeitch, Palastina Vereins.
4 — Zeitseh, Kunde des Morgenlandes.
5 — Diener, Der Libanon.
6 — Prütz, Die Phenizier.
7 — Prütz, Kulturgeschichte der Kreüzzüge.
8 — Müller, Der Islam un Morgen-und Abendland.
9 — A. V. Kremer, Kulturgschichte der Orients unterden Khalifen.



فهرست القسم الجنوبي

التدقيقات والتتبعات المحلية



ان حضرة عزمى بك افندى ، والى الولاية العالى ، القانع بضرورة تأييد معارفنا بكتب مفيدة تدرس الاحوال العمومية فى بلادنا من الوجهة العلمية والمدنية وتطلعنا على حقيقة وطننا المقدس ، وتكون المرشد العلمى لاهل البلاد ومأمورى الحكومة ؛ قدانتدب للمرة الثانية مؤلفى كتاب (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) وهما (رفيق بك التميمى) مدير المدرسة التجارية و (محمد بهجت بك) مدير المدرسة السلطانية الثانى وسيرها يستأنفا الكرة فى البحث عن القسم الشمالى من الولاية . تجول المؤلفان فى انحاء [طرابلس الشام — حلبا — تل كلخ — برمانه — طرطوس — بانياس — جبله — صهيون — لاذقيه] رغماً عن قصر مدة التجوال وفقدان الوسائط التسهيلية واضطرا لتصفح بعض المصنفات العلمية والادبية المذكورة اسماؤها فى خاتمة كتاب (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) وفى خاتمة هذا الكتاب ايضاً ؛ واختص منهما رفيق بك بكتابة مباحث [الجغرافيا وخصائص الشعوب والتاريخ والآثار القديمة والمعارف والزراعة والتجارة والنافعة والصنايع] ودرس مسئلة [المهاجرة] ومذهب [النصيرية] ، واختص بهجت بك بمباحث [الاحوال الروحية والاخلاقية والاجتماعية والصحية واللغات ، والادبيات والفنون الجميلة] ودقق [الحركة العلمية وحيات الطباعة] و [احوال الاسماعيليين ، والتركمان] وضبط [المشهودات] فى القصبات والدروب و [الاوصاف العمومية] واوجدا هذا الكتاب الثانى المتضمن القسم الشمالى من ولاية بيروت .

هذا وان تكن الابحاث المتعلقة بجميع ملحقات الولاية تمت بهذا الكتاب ؛ بيد ان مقام الولاية الجليل مزمع على المثابرة لتصنيف مجلد ثالث يتضمن البحث الدقيق فى بلدة (بيروت على حدة . وبه تتكون فى برهة وجيزة سلسلة من الكتب تطلعنا على احوال الولاية ، فندرأ بها احتياجنا الى مرشد علمى وادبى .

المدخل

ان الناحية المأهولة منذ القدم فى سورية . هى الاسياف البحرية الكائنة بين خليج اسكندرون ، وارض مصر البحرية التى ينتهى بها حد البحر المتوسط . وهى منطقة ضيقة ، مملوءة بالعوارض الطبيعية وقد رسمت يد الطبيعة حدودها الشمالية والشرقية بصورة بارزة. وترسم هذه الحدود خطاً طبيعياً فى الجهة الشرقية من ضواحى حلب ، يبتدأ من وادى الفرات الغربى ، ويمتد الى الجهة الجنوبية حيث تقاطعه الصحراء بشواطئها ، ورمالها وصخورها الصلدة . وسلسلة الجبال شرقى بحيرة لوط تتعالى ، ثم لا تلبث ان تتدرج بالانخفاض حتى تنقلب فى الجهة الجنوبية الى سهول رملية ، وتنتهى على سواحل بحرالاحمر فى زاوية تفرق بين بحر السويس وخليج العقبة .

لا يفوتنا ان البلاد السورية الممتدة من (المادانج — *Amanus*) الى سيناء على طول يقرب من الف كيلومتر ، وعرض مائة وخمسين ؛ تنقسم الى بضع مناطق من حيث العوارض الطبيعية والاقليم والتكامل التاريخى . فتوجد فى الشمال ضواحى العاصى ، وفى الوسط وادى الشريعة ، وفى الجنوب شبه جزيرة سيناء . وان هذه البلاد الطويلة الضيقة لم يأهلها السكان على نسبة واحدة فى كل مناطقها ، ولا فى كل ناحية من تلك المناطق. حتى ان سكانها يفترقون منذ القدم باعتبار الامزجة والمعتقد الى اقسام متعددة . وقد احتفظ سكان سورية بكيانهم فى الازمنة الغابرة لما كانت بلادهم مصونةً من التحكم الاجنبى ، اما فى حكم ما اسسوه من دول متفرقة واما فى حكم دول مجتمعة .

اما سكان السواحل الذين هم اقل نفراً من سكان الداخل فقد اقعدهم العجز عن رد غارة الفاتحين الذين اكتسحوا بلادهم طمعاً فى ثروتها الطبيعية ، فخسروا استقلالهم ، وخضعوا للسلطة الاجنبية ، وكانوا اسرى قوانينها .

ان الدول اللاتى تأسست فى ضواحى دجلة والفرات ، وفى انحاء بلاد العجم ، وفى مصر السفلى ، واليونانيين ، والرومانيين لم يهملوا امر سورية لما اسسوا بنيان سلطانهم وعظمتهم فى المشرق والمغرب . ولذلك يمكننا ان نقول بان وحدة الادارة فى هذه البلاد لم تكن الا من قبل الاجانب .

اما شبه جزيرة سيناء ؛ تلك السهول الرملية المحرومة من الحياة لفقدان المياه لم تحرك طمع احد من الفاتحين بارضها القاحلة الجرداء ، وصخورها الصماء .

ومن العبث ايضاً ان نرتاد المياه فى الصحراء الفاصلة بين خليج البصرة ووادى الشريعة والعاصى ، ولهذا السبب كانت بادية الشام على حظ يسير من كثافة النفوس لا يكاد يذكر .

من المعلوم ان الانسان منذ خلقته ينتقى الانحاء الخصبة الريانة ويرجحها على سواها ، ويؤسس فيها الامصار والقصبات . وقد نشأت البلاد السورية تبعاً لهذا القانون . فسورية على اعظم درجة من الاهمية لانها نقطة ارتباط مصر السفلى، بسهول العراق الخصبة ، وهى من اصلح البلاد فى المناسبات البحرية لكثرة خلجانها ووفرة مرافئها .

انتهز الفينيقيون فرصة استعداد بلادهم بما هى عليه من الجدارة المحلية ، والمواهب الطبيعية ، وسلكوا سبيل الملاحة منذ ابتداء القرون التاريخية ؛ ولم تكن الزراعة مهملة فى ذلك الزمن على ما يظن ؛ بل ان البحث عن الآثار القديمة الان اظهر انقاض طواحين ، ومخازن ، ومجارى مياه محفورة فى الصخور ، مما يدل على ان القوم اشتغلوا فى الزراعة . ويحتمل انه لم يكن لسواحل سورية فى الازمنة القديمة مرافئ مصونة من تأثير الانواء . صالحة للتجارة البحرية . ولذلك فقد شعر الفينقيون بضرورة تأسيس مرافئ امينة على بعض نقاط ذلك الساحل الذى ما زال هدفاً للارياح العاصفة والامواج المتلاطمة . واليوم نشاهد فى اكثر المرافئ الموجودة ، بعض سدود للامواج من آثار اولئك القوم العاملين .

ان الفينقيين الذين عملوا على اعمار الساحل باصلاح بعض المرافئ الموجودة فيه ، او بانشاء مرافئ جديدة اسسوا ميناء آرادوس ، تريپوليس ، بهريت ، سيدون على هضاب مرتفعة ، حيث لم تكن المسافة بين كل منها اكثر من يوم واحد ، بصورة اوجدت للملاحين حين تفاقم الانواء ملاجئ عن اليمين وعن الشمال . وقد بالغ الفينقيون فى العمل لانهم على غالب الظن عالجوا الانهار الكبيرة التى تصب فى البحر الابيض وجعلوها صالحةً لسير السفن .

ان هذه الموانى والمرافئ التى اسست منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة لم تزل للان قابضة على زمام التجارة السورية بالرغم عن غارات الفاتحين ، وهجمات الجيوش الضخمة ، والحروب الاهلية ، وما نتج عنها من المحن والنكبات . وان الزلازل الصادعة التى ما زالت تستهدف هذه الاقطار فى بعض الاحايين . لم تستطع تقويض تلك الآثار القديمة . وهذا البرهان المجسم يدل على نفوذ نظر القوم ، واصابة آرائهم فى تأسيس البلاد .

ابتدأ الفينيقيون من الطفيف ، فكانوا يكسبون معاشهم ببيع محصولاتهم الزراعية ، ولكن ما لبثوا ان توسعوا بالعمل فمدوا ايديهم الى محصولات العراق ولم يهملوا البلاد المصرية التى هى بلاد بحرية . واصبح بتدال الازمان ملاحو سورية يتجولون فى جميع الانحاء . ولم تعذب عن دهائهم التجارى بلاد انكلتره وبروسيا ، والقوقاس ، وخط الاستواء لاسيما وان الامتعة العراقية كانت مضطرةً للمرور من طريق سورية لتصل الى مصر . وتجار بلاد مصر المحرومة من الغابات والاحراج ، مضطرون الى تسليم بضاعتهم الى الملاحين

الفينيقيين . وبما ان الالواح التى تصنع من شجر الارز اللبنانى هى على اتم ما يرام من المتانة ، واصلح ما يكون لانشاء المراكب ، كان اولئك الملاحون يستثمرون هذه الهبة الطبيعية على غاية الاعتناء والدقة .

كان الفينيقيون الذين هم سماسرة الشرق الادنى كاتمين سر حرفتهم لا يذيعونه . لاسيما تجاه رقبائهم اليونانيين . فما من احد يعلم الى اين يذهب هؤلاء البحارة الذين يشقون عباب الامواج ، ويخوضون غمار البحار ومن اى البلاد يجلبون هذه المعادن وتلك الذخائر النفيسة ؟

ما لبث الزمن الا ونبه الاقوام المجاورة ، وخلق الرقباء للفينيقيين ارباب الملايين . فتطاول اليونانيون ثم القرطاجيون على التجارة البحريه ، واحرزوا قسماً منها . فذاع السر المكتوم ، وشرع باقى الاقوام باستعمال تلك الوسائط التى كانت الحجر الاساسى فى بنيان المدينة . حتى ان اليهود لم يملكوا انفسهم دون الانخراط فى هذا السلك رغماً عما هم عليه من بساطة العيش والحياة الابتدائية لتجنبهم مخالطة الناس ، ذلك لانهم مشغوفون باستقلالهم القومى ، وهم يعتقدون ان الله خلقهم اعلى واعز من جميع الناس . نعم علم تلامذة الفينيقيين تباعاً ان للانسان وظائف دنيوية كوظائفه الدينية ، واصبحوا اليوم وفى قبضتهم ازمة تجارة العالم على الاطلاق .

وقصارى القول ان سورية — رغماً عن كثرة المعارضين — هى فى الدرجة الاولى بين الاصقاع التى عملت على انارة الادمغة البشرية . ولا يستطيع احد ان ينكر ما لهذه البلاد التى احتوت على القدس والشام من الشأن العظيم ، فى تاريخ البشرية .

ما زال المتدينون من النصارى موجهين افكارهم الى جبل (غولغوتا — *golgatha*) يشغلون ادمغتهم المخمرة بالاعتقادات العويصة بقدسية تلك البقعة المباركة التى تعذب فيها آلههم الجليل ، وكل البلاد التى قطنتها أسباط بنى اسرائيل هى ارض مقدسة لديهم . ولذلك ان الناصرة ، وبيت لحم ، وطبريا وجبل الطابور وبئر يعقوب وجبل الزيتون وغيرهم من المحال المقدسة هى على جانب عظيم من المكانة فى نظر النصرانية .

وفى عصرنا ايضاً ، ما من نصرانى ، ولو كان من اكبر اصحاب المصانع ، واغنى ارباب الملايين ؛ بل وادهش الملوك المستبدين ، حتى واعدل القضاة الحاكمين ؛ الا وتعروه هزة دينية وهو على عرش سلطانه ، او فى منتزه روضته المرصعة بابهى البدايع المدنية ، فيخضع خاشعاً لذكرى تلك الارض المقدسة .

والمسلمون ايضاً يلصقون بسورية اهمية عظمى . لان السكة الممتدة الى الحرمين تبتدأ من الشام ، وبقية البلاد المقدسة التى كانت مهبط الوحى ، وموضع تجلى شرائع الانبياء العظام ، ما عدا مكة والمدينة ، هى فى هذه القطعة .

صنف الآن الوف من الآثار بشأن هذه القطعة المهمة التى خلفت فى تاريخ الانسان انفس الذكرى ، وكانت معرضاً للآثار التاريخية ، والعرقية الموروثة عن امم ، وشعوب لا تحصى ؛ ومسرحاً لمختلف الامزجة والعادات وشنشنة الاديان والمذاهب ؛ ولكم جست من حسيات المبدعين اوتاراً فابدعوا اشعاراً تلمس الارواح ، وتنفذ لمدب الراح .

لا نريد هنا ان نعالج تدقيق تلك الآثار والمآخذ ؛ المصنفة بلغات مختلفة ؛ بل نكتفى بذكر اسماء اهمها منها فى آخر صحيفة من كتابنا هذا .

ولنذكر ؛ بما ان وظيفتنا هذه مع خطورتها — كما اعترفنا سابقاً — هى على درجة عظيمة من الاهمية العلمية ، لا جرم يعسر على مساعينا فى هذا السبيل ان تتكلل بالنجاح الكامل . بيد اننا بهذا المصنف الذى نافت صحائفه على الالف ؛ هيأنا للخلف سبيل حركة ممهداً ، واحضرنا لهم خطة مدمثة . ويسعدنا ، ان نرى الاخصاء الافاضل ، تلحظ مسعانا هذا بعين العناية ، وتجزى خلوص نيتنا فيه بالجزاء الاوفى .

— بيروت فى ١٩ ايلول سنه ١٣٣٣ ، ١٩١٧ —

المدير الثانى فى المدرسة السلطانية	مدير مدرسة التجارة
محمد بهجت	رفيق التميمى

المباحث العمومية

—١—

موقع لوائى طرابلس واللاذقية وحدودهما ومساحتهما

١ — الموقع والحدود

ان لوائى طرابلس الشام، واللاذقية الكائنين فى الجهة الشمالية من ولاية بيروت محدودان من الجهة الشمالية بولاية حلب، ومن الشرق بلواء حما، ومن الجنوب بلواء لبنان، ومن الغرب بالبحر المتوسط.

بينا فى القسم الاول من كتابنا ان جبل لبنان يفصل ولاية بيروت الى قسمين كادا ان يكونا متساويين. وطول القسم الشمالى الذى نبحث عنه الان اعتبارا من قصبة طرابلس الشام الى الحدود الشمالية من قضاء صهيون فى لواء اللاذقية ١٩٠، وعرضه ٣٠ — ٥٠ كيلومتراً.

٢ — المساحة

ان مساحة هذين اللوائين على رواية ويتال كينه *V. Guinet* هى ١١٧٧٩ كيلومتراً مربعاً.

—٢—

الاحوال الطبيعية فى القسم الشمالى

بحثنا فى عين الفصل من كتابنا الاول عن الاحوال الطبيعية بالنظر لجميع الولاية، بحثاً شافياً. ولذلك لا نرى لزوماً للزيادة؛ على انه لا يمكن توسيع هذا الموضوع، اكثر من هذه الدرجة فى كتاب مخصص لدرس الاحوال العمومية؛ وما زلنا معترفين باننا فى اشد الحاجة الى درس التكونات الارضية، والاحراج، والاقاليم، والحالات الجوية فى بلادنا، والتنقيب عنها. وهذا يحتاج الى اخصاء بهذه الفنون مجهزين باحدث الالات والوسائل، فما بالك بنا. ونحن ما لدينا من الاجهزة الا نظرة مجملة. ولذلك نكتفى هنا برسم الخطوط الاساسية فقط.

١ — الجبال

ان سلسلة جبال آلماطاغ التى كادت ان تكون مبدأً لجبال سورية، والتى يسميها الاقدمون (آمانوس *Amanus*)، ما هى الا فضالة من جبال آسيا الصغرى. تمتد من

الشمال الشرقي ، الى الجنوب الغربي، موازيةً لجبال طوروس، وآتي طوروس حيث تتصل بجبل بركت ، بيفاع فيه بحيرة كاوور . ويبلغ ارتفاعها في بعض النقاط الى ٢٠٠٠ متر ، اما سفوحها المطلة على البحر فهي مستوية ، تستقر على الساحل برؤوس بارزة .

ان الممر الصلد الكائن في شمال قصبة اسكندرون، وسع من قبل ژوستينيان ايمبراطور البيزانسيين ، حتى اصبح مساعداً لمرور العجلات الحربية ذات الدراجتين . وهناك توجد انقاض معبد قديم ، بني من المرمر الابيض . ويذهب الاهلون ان هذا المحل هو المكان الذي لفظ الحوت فيه يونس النبي كما جاء في الكتب المقدسة . ولذلك يسمونه « مسند يونس » ومن الروايات الخرافية ايضاً ان جنازة اسكندر الكبير مدفونة فوق هام القوس المذكور ، لتكون ذكرى لارباب الفتوحات الذين يمرون منه، تذكرهم بصغر شأنهم .

ان الطريق المار من جنوب اسكندرون يتطاول متنحياً عن الجبل الاحمر المسرد ، وعن جبل موسى الذي ينتهي في رأس الخنزير ، ثم يقطع جبال الماداغ من ممر « ابواب سورية » ويصل الى سهول انطاكية . وحدود سورية تبتدأ من الساحل الايسر لنهر لعاصي الذي يخترق تلك السهول من الشرق الى الغرب . ثم ينصب في لبحر المتوسط ، وتوجد هناك ما عدا نهر العاصي بحيرة انطاكية وبضع جداول تجري من الشرق وتنتهي فيها . وفي الجهة الشرقية سهول حلب المسورة بهضاب لا يزيد ارتفاعها عن ٤٠٠ متراً من جميع انحائها . .

اما جبال النصيرية التي تبتدأ من جنوب انطاكية ، وتمتد من الشمال الى الجنوب فهي مسماة بأسماء ما تمر عليه من البقاع . وجبل الاقرع *Casius* الذي هو من الجبال المقدسة لدى الفينيقيين ، هو على ارتفاع ١٧٦٩ متراً ؛ وذروته بشكل اهرام . وتشاهد من اعلاه جزيرة قبرص ، وجبال بلغار الكائنة في الجهة الشمالية الغربية عن بعد ٢٠٠ كيلومتراً . ويعتقد قدماء اليونانيين ان هذا الجبل موطناً « لزهؤس — *Seus* » رئيس الآلهة . وهو على زعمهم من العلو بدرجة يكون في احد سفوحه الليل ، وفي الآخر النهار وجبال الاكراد ، دريوس ، عمامره ، الكلبيه ، صقره ، نواصره ، بوري قراحله ، قدموس من جبال النصيرية ما هي الا السلسلة التي سماها الاقدمون (*Baraylus*) وهذه السلسلة تفترق عن بادية الشام بنهر العاصي ، وعن جبال عكار في الجنوب بوادي النهر الكبير . وارتفاعها على الحد الوسطى ١٠٠٠ متراً ، وجبل شمر (١٥٠٠ متراً) الذي هو في ناحية الكلبية من قضاء جبلة . هو النقطة العليا في تلك السلسلة . وهذه الجبال تتركب من صخور رمعية منفصلة عن بعضها بشقوق ، قسمت تلك الاراضي الى قطع كثيرة وليس هناك من رابطة تصل تلك القطع ببعضها ، وهذا السبب جعل النقليات ،والمراسلات

صعبة متعذرة . وبه استطاع سكان هذه الجبال من النصيريين محافظة استقلالهم ، وحريتهم مدة مديدة . وجبال عكار المعدودة من سلسلة لبنان تبتدأ من يسار النهر الكبير .

أن جبال لبنان المحاذية للبنان الشرقي ، والممتدة من الشمال الشرقي ، الى الجنوب الغربي ، ترى من جهة البحر على غاية العظمة والمهابة وتركيبها من فحميت الكلس ، والكلس ، والحجارة الرملية ، والكلس الصلصالي . ولها منظر ناصع البياض بسبب الثلوج التي تدوم على ذراها اكثر من عشرة شهور ، وبسبب ما تتركب منه من الكلس . وهذه الجبال تتدرج بالتعالي اعتباراً من الشاطئ فتوجد انواعاً من الدكك ، والسدود وتنتهي على ارتفاع ٣٠٠٠ متراً بسد يسور يفاعاً واسعة الارجاء ، مستوية السطح مملوءة من الحفر المسماة « دولين » . اما الجانب الشرقي من لبنان فهو ينحدر بغتة ، وينساب بسرعة الى الغور حيث يبيد .

ما اخطأ الذين يدعون لبنان كاسويجره بالنظر لسورية ، او للشرق . لاسيما ان هذه الجبال اللطيفة هي مصطاف لبلدة بيروت . والبيروتيون منهم من يذهب الى عاليه التي تبعد عنهم مسافة ساعتين ونصف . ومنهم من يتسلق الجبل الى صوفر المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ١٢٥٠ متراً . ويصعد على هذا الجبل بسكة حديدية مسننة . كما يصعد على جبل (كولم) القريب لبلدة لوسه رن في اسويجره . وهذه المشابهة ليست في المناظر الطبيعية فقط ، بل هي محسوسة في الكد والكدح ايضاً . وهنا تتخذ الدكك ، والمصاطب على الصخر فتردم بالتراب ، ثم يغرس فيها ، او يزرع ؛ وهو عين الحال الموجود على سواحل بحيرة جنوه . لمو (له مان).يتسلق الخط الحديدي الواصل بيروت بدمشق . جبال لبنان الى موقع ظهر البيدر الذي يبلغ ارتفاعه (١٤٨٠) متراً ثم ينحدر بهبوط ليقطع السطح الثاني . وهناك يرى الناظر ابهى المناظر من وادي البقاع ، وانتي لبنان . ويصادف من الحرارات ، والشلالات الصغيرة ما تلذ به النواظر . ويوجد في القرى ، كما في اسويجره فنادق على اتم المراد من النظافة والمعدات . وقد كان قبل الحرب كثير من المصريين ، والامريكانيين ؛ وحتى الاوروبيين يؤمون لبنان لاجل النزهة .

٢ — الانهار

ان المياه المنصبة في البحر المتوسط هي وديان تغيض في اكثر ايام السنة . ثم تفيض بتوالي الامطار . او بذوبان الثلوج .

ومن اهمها [نهر العاصي *L'Oronte*] فهو ينبع من امام بعلبك ، ويجري في واد ضيق عميق ، ثم يحدث مستنقعات ، وبحيرات صغيرة ، ويمر بحمص ، وحما ، وينعطف الى الجنوب الغربي بين جبال النصيرية ، وللماء فيحدث وادي انطاكية . وياخذ هناك ماء

بحيرة العمق التى اوجدها نهر عفرين الناشئ من جبل بركت . ثم يمر بفيضه المزبد على عارضة صخرية فيتخطاها حيث يندلق فى البحر المتوسط . وهذا هو أهم نهر يوجد فى القسم الشمالى من سورية

ان الجداول الموجودة فى لوائى طرابلس واللاذقية هم على ما يأتى :

قنديل — ينصب فى البحر قريباً من قرية صليب التركمن عن مسافة ثلاث ساعات من اللاذقية .

فرشيش — منبعه فى جبال باير ؛ وينصب على البحر فى (راس البسيط) الكائن فى منتهى الحد الشمالى للواء اللاذقية .

النهر الكبير — ينبع من جبل الاقرع فى قضاء جسر الشغور التابع لولاية حلب . ويمر بناحيتى باير ، وبوجاق من اعمال اللاذقيه ، وينصب فى البحر بمسافة ساعة عنها .

صنوبر — يخرج من جبل الكلبيه ، وينصب فى البحر قريبا من قرية صنوبر فى قضاء جبله .

المضيق دروس — يخرج من هذه الجبال وينصب فى البحر قريباً من جبله .

برغل — يخرج من محجر يسمى بالشيخ حسن فى قرية كفرون من توابع ناحية خذور ، وينصب فى البحر جنوب جبلة .

نهر السن ، او الابتر — يخرج من جبل الكلبية ويلاقى البحر قريباً من قرية عرب الملك التابعة لجبله ، وبناء على وفرة مائه ، يمكن ان تسقى منه جميع الاراضى المجاورة له .

حريصون ، ومرقبه — يخرج من جبال الكلبية ، وينصب فى البحر قريباً من المتن ، وزمزين شمالى بانياس .

النهر الكبير — ينبع من الجانب الشرقى لجبال لبنان ، ويفصلها عن جبال النصيرية وينصب فى البحر بين طرطوس وطرابلس الشام ، وان مجرى هذا النهر هو اصلح ممر يدخل منه من ساحل سورية الى الداخل .

نهر ابو على — يخرج من جبل لبنان ويدنو انحاء طرابلس الشام ، ثم يمر من قصبتها فيفرقها قسمين وينصب فى البحر .

— ٣ —

الاقليم

ان القروى الجاهل عندنا ، يظن ان استعداد الانبات فى اراضيه لا يتناهى . ويعتمد على اقليمه اعتماداً اعمى . مع انه يهاب الجدب ، ويعده من نقم القضاء . ولكن لا يحفز

لوسيلة تخفف مصابه . فيثابر على صبره الجامد ، وتوكله الباطل ، مهما توالت المصائب ، واخذ الجدب المميت بخناق بلاده . اذ من رأيه القائل ، ان القضاء لا يدفع ، والطبيعة لا تحارب .

يدعى ذوو الآراء الصائبة من المؤلفين ان الاحوال الاقليمية فى سورية لا تزال تتبدل قائلين :

يشاهد اليوم فى ضواحى الشريعة مجارٍ شتى لانهار غائضة ؛ وقد برهن الفحص الفنى على ان سطح الماء فى بحيرة لوط لا يزال على تخفض متوالٍ . ولا يسوغ ان يعطف هذا الحال على كثرة التبخر فى المياه . بل يجب ان يحمل على قلة الأمطار ؛ نعم ان الرى فى سورية وعلى الاخص فى القسم الوسطى منها هو على نقص متتابع . وهذه التحولات الجوية اوجبت نقص مقدار المحصول السنوى من الحبوب فى قطعة فلسطين . ولكننا نرى غير هذا الرأى : لان المحصولات النباتيه فى بلادنا كانت موجودة فى زمن مهاجرة العبرانيين ، اى فى منتصف القرون الاولى . والتحولات الاقليمية التى يدعيها علماء الطبقات لا جرم كانت قبل ما هو معلوم لدينا من التاريخ البشرى . وعليه يجب ان يحمل نقص المحصولات الزراعية وانحطاطها ، على عدم مساعدة الاقليم من جهة وسقامة اصول الزراعة من جهة اخرى . لا ننكر ان عين الاصول ونفس الالات الزراعية كانت تستغل محصولاً اكثر مما تستغل اليوم ولكن لا ننسى ان هذه الاراضى التى ما فتئت تستعمل على وتيرة واحدة منذ زمن العبرانيين قد اضاعت قسماً عظيماً من المواد العضوية ، والمعدنية اللازمة للنبات . فاذا لوحظت هذه النقطة ينكشف سر التفاوت الموجود بين محصول اليوم ومستغل العصور الاولى .

تفصيل الوجهة الفنية من الاقليم :

الحرارة — ان الدرجة الوسطى من الحرارة تزداد بنسبة الابتعاد عن الساحل ، وبالاقتراب من رمال الصحراء المسعرة ، اعتباراً من سهول البقاع .

تبلغ الحرارة فى يافا ايام الصيف الى ٤٢ درجة على الاكثر . ولا ينقص حدها الوسطى عن ١٢ درجة . اما فى بلدة بيروت الكائنة فى الجهة الشمالية تكون الدرجة العظمى من الحرارة ايام الصيف ٣٥ درجة ؛ واصغر ما تكون فى ايام الشتاء ٣ درجات ، والدرجة الوسطى من حرارة السنة الماضية هى ٧ درجات .

ان الشتاء فى سهول البقاع يكون شديداً . ويدوم الثلج هناك اكثر من ثلاثة شهور . وربما تحرم هذه البقعة من كمال الربيع ولطافته . ولهذا يزرع حب السليط (السمسم) فى اكثر انحاء سورية ، ولا يستطاع زرعه فى السهول المذكورة . لان ارتفاعها بمقدار ٨٠٠ متراً اوجب هذه الوضعية الطبيعية .

اما سهول الشام المرتفعة بمقدار ٧٠٠ متراً، تفترق عن فلسطين باعتبار المواسم. لان شتاءها اشد من شتاء بيروت، وكثيراً ما تصعد الحرارة فيها ايام الصيف الى ٣٨ درجة. اما حوران فهي اشد شتاءً وصيفاً من فلسطين، وتفترق عنها كالشام، في مواسم الزراعة. وهنا تبلغ درجة الحرارة في الصيف ٤٠ وتنخفض الى ٨ ونصف في الشتاء.

ولهذا نجد سورية تنقسم باعتبار الحرارة الى منطقتين، توجد في القسم الاول ديار فلسطين، ويفاع حوران، وسهول الشام. وفي الثاني سهول البقاع وحدها. والمفرق لهاتين المنطقتين عن بعضهما، هي قابلية زرع السمسم.

الامطار — لاسعادة لمن له اراضي تسقى من القرويين الا بنزول الغيث بصورة منتظمة، فاذا امسكت السماء، او كان المطر غير كاف؛ يزعمون ان ويلهم منه؛ وانهم لمخطئون؛ اذ قد يمكن الانتفاع من المكان العطش بحسن التدبير، والاهتمام. فكم من مواد تستحصل في هكذا بقاع، لاتوجد في الانحاء الريانة. وسكان هذه الاقاليم يستبدلون تلك المحصولات النادرة بما يحتاجون اليه من المواد الغذائية، وذلك بتوسط التجار. ولا نرى لزوماً لايضاح ما لتلك المحصولات من الاهمية والرواج في ميدان التجارة.

ومن جهة اخرى، ان القحط الذي يصيب سورية في بعض السنين لايكون عن عدم كفاية الامطار، بل هو عن عدم الاقتدار لاستخدام تلك المياه على وجه نافع لان مقياس المطر يرينا ان كمية الامطار التي تهطل في الانحاء السورية تتراوح بين ١٨٠،٠— ٢،٢٥ متراً. وبهذه الدرجة لاتكون بلادنا ادنى رياً من اكثر البلاد المشهورة بوفرة الري. ولكن المياه لاتغيض فتنفذ لبطن الارض، بل تتراكم وتبقى على سطح السهول الصلصالية *Argileuses*، حتى تقتحمها حرارة الصيف فتستحيل بخاراً، وينحرم النبات من الانتفاع بها.

ان لبلادنا التي هي معرض للغرائب، حالاً خاصاً بالنظر للامطار. فان سعادتها ورفاهية ابنائها لاتكون الا بتوزيع المياه المطرية على الاراضي؛ والمياه عينها تكون الطامة العظمى على الصحة العامة، بما تحدثه من المستنقعات الوبيلة.

لاجرم ان موسم المطر في سورية غير متناسب مع الشهور. فلا تغاث حروثنا الا من اول تشرين الثاني الى منتصف نيسان؛ ثم تبتدأ اليبوسة، وتزداد بصورة متوالية ولقد يمر اكثر من نصف السنة وسماؤنا خلو من السحاب. وهذا التشوش لايزال يستلفت انظار ارباب الفن. على ان الاشكال ليس بصعب الاقتحام كما يرى لاول وهلة. فان سهول الشام سالمة بعناية الله من هذا الجدب. وان الامطار الغزيرة، المشفوعة بالمياه لوافرة هناك، خلقت في تلك السهول الرياض الزاهرة، والحدائق الغلب.

اما في المناطق الاخرى؛ يمكن اذلال الجدب المذكور، بتبديل نوع الزرع. وهذا

التدبير ينجح فى سهول البقاع نجاحاً كاملاً. وفى حوران يمكن ان يكون ٥٠—٦٠ فى المأة. ويشكل تطبيقه فى سواحل فلسطين ويتعذر فى جبالها. لان ارض البقاع وحوران مكونة من طبقات خفيفة عميقة. تحتها طبقة كثيفة من الاحجار الكلسية الصلبة. ومياه الامطار تنفذ الى تلك الطبقة وتجتمع فيها، حيث تكون خزينة للنبات يستمد منها ايام الصيف الرى الذى ينشؤه ويحييه. اما فلسطين، فان ارضها البور، وطينتها الصلصالية محرومة من تلك الخصيصة، ولذلك يبيد جميع ماء المطر فيها بالتبخر.

ان علو القطاع الحورانية والبقاعية يخفف وطئة اليبوسة بحالين. الاولى؛ ان الثلوج التى تسقط على هاتين المنطقتين لغاية فصل الربيع، لا تلبث ان تذوب بتأثير الحرارة؛ فيجرى ماؤها على وجه السهول حيث يودى بيبوسة التراب.

والثانية؛ ان الرياح الباردة التى تهب من شواهق الجبال القريبة، ربما اقلت بخاراً مائياً، واوجبت نزول القطر، فى ذاك القطر. اما فى فلسطين فما من رى، ولا نسيم بليل، لان الحرارة هناك، فى الدرجة العظمى.

— ٤ —

طبيعة التراب فى سورية

ينقسم قشر الارض باعتبار التشكلات الطبيعية الى طبقات متنوعة. وجوهر هذه الطبقات ليس من مادة واحدة؛ بل لكل مواد معدنية تتركب منها على حدة. ولقد يشاهد هذا الحال فى نقاط مختلفة لارض واحدة لدى فحصها. مثلاً يكون التراب يرمعيا (تباشيرى) فى نقطة ويكون فى الاخرى رملياً، وفى غيرها يتركب من الحصباء، والمرمر وغيرها من الاحجار وهذه من الحقائق التى برهن عليها الفحص الفنى.

ان ما تتضمنه الاراضى من المواد المعدنية، يكون تارة افقياً، واخرى عمودياً، وآونة منحنياً، واكثر ما ترى على شكل طبقات مرتبة بعضها فوق بعض. وهذه هى الصخور الارضية.

هذه الصخور اما ان تتكون من مادة واحدة، كالحجر الكلسى، وصخور الملح. او من مواد متعددة كتركب حجر غرانيت من معادن قوارس، فلدسيات، وميقا. وعليه ان الصخور اما تكون بسيطة او مركبة، والطبقات المتنوعة التى تحدثها هذه الصخور تكون على اقسام متعددة من حيث التربة. واشكال هذا التراب معروضة للتبدل الدائم. والسبب هو تأثير الحرارة، والهواء بصورة متنوعة ودائمة.

فالتراب الزراعى الذى هو اساس هذا البحث؛ ما هو الا ذرات لتلك الصخور — تجزأت، وتفتتت بتاثير الحراره والهواء —.

لا تكون طبيعة التراب على نسق واحد فى كل مكان ؛ بل يختلف تأثيره على النبات باختلاف كمية المواد المعدنية التى يتركب منها وكيفية خواصها الحكمية والكيموية .

يمكن تقسيم اراضى سورية بالنظر لطبيعة التراب والتشكلات الطبيعية الى ثلاثة اقسام مستقلة .

الاراضى البرمعيه (تباشيريه) *Terrain cretacées*

الاراضى البركانية « « *Volcaniques* .

اراضى الدور الرابع « « *quaternaires*

يندر ان توجد فى اراضى سورية آثار للدور الثالث ، وان تلك الاتربة التى توجد مبعثرة فى الانحاء الشمالية والجنوبية مؤلفة من الكلس والسيليس يعثر عليها فى تلال الجليل والسامره من اعمال فاسطين .

الاراضى البرمعية (تباشيريه) —. تتألف هذه الاراضى من سلسلة تلال حصبائية ، محدودبة الطبقات ؛ ممتدة من الشمال الى الجنوب . ويوجد فى منتصف هاتيك التلال وادى الشريعة المعروف بخصبه ، وجودة انباته ؛ وهناك سهول منسوبة للدور الرابع ، على غير انتظام بالتشكل ، تقطع هذه المنطقة عرضاً . وتوجد شرقى هذه السهول قطعة حوران الخصيبة ، وغربها سهول معوجة تنتسب الى الادوار الحديثة . اما سهل الجليل فهو محاط بسهول البقاع من الجهة الشمالية ، ويختلط من الجنوب بالسامره بواسطة منطقة جودا التى تنتهى على حدود صحراء التيه المرملة .

يندر فى الجليل والسامره وجود الطبقات البرمعية (تباشيريه) التى تشاهد فى منطقة جودا الجبلية . وجبال هذه الانحاء على الاطلاق تتكون من طبقات الحجر الكلسى ، والصلصال الكلسى الابيض .

اما الصوان الذى يندر وجوده فى الجهة الشمالية والوسطى ، يوجد منه فى الجهة الجنوبية مقدار وافر . وبينما لا يوجد منه شئ فى جبال الناصرة ، تراه فى جنين يملأ السهل والوعر .

ان حجر الكلس الابيض يوجد احياناً مخلوطاً بفحمية الكلس ، او بالكلس الكثيف وربما تدخل فى التركيب الاول بعض مواد قارية فتحيل اللون الى سواد لطيف ، ويسمى هذا النوع بحجر موسى . وهذه عناصره .

فحمية الكلس	٦٨٫٧٣
فحمية الماغنزيه	٠٫٢٧
القار	٢٥٫٠٠
الرسوب الترابى	٦٫٠٠
	١٠٠٫٠٠

للصخور الكلسية احجار من غير هذا النوع كثيفة تميل بلونها للزرقة ، تحتوى على محجرات من صغير النبات والحيوان ، كما يصادف منها فى انحاء نابلس . والاحجار الكلسية فى منطقة جوده ، عظيمة الحجم ، تتفتت لدى الكسر ، كثيرة المحجرات . والهضاب المطلة على خليجى ، عين الغوير ، وعين ترابه هى من نفس هذا التركيب . ويعثر على خطوط صوانية فى ذرى جبل الزيتون المؤلف من الاحجار الكلسية. وخلاصة القول : ان الاراضى البرمعية (التباشيريه) فى سورية تتأسس على احجار كلسية صلداء ، ثم فوقها احجار كلسية لينة ، تميل بلونها الى البياض ، ثم تعلوها طبقة برمعية تخالطها حصى الصوان وفوق كل هذه الطبقات طبقة من احجار الكلس ، اما بحالة التراب ، او بشكل صفائح

ان امحاء الاحراج ، جعل تلك الربى جرداء ، حيث لا حائل للجبس الترابى . لدى تساقط الامطار ، اذ يجره السيل من اعالى تلك الربى ، ويهوى به الى الاودية ، فتنكشط الطبقة الترابية ، عن الصفائح البرمعية ، وتصبح قرعاء جرداء ، لا شجر ولا ماء . على ان التراب الكلسى الذى يتراكم على اذيال الجبال ، لا يلبث ان ينهال على الاودية فيزيد استعداد انباتها . ويعوض جدب الذرى ، بخصب الاذيال .

الاراضى البركانية — بدأت الاندفاعات النارية فى الدور الثالث ، ودامت فى الادوار البدائية للتاريخ ايضاً كما ورد فى التوراة . وان الزلازل التى ما زالت تحدث فى هذا العصر ، والينابيع الحارة المعدنية التى ما فتئت تفور ؛ تدل على ان السيال النارى فى قلب الارض لا يزال على هياج .

ان الاراضى فى الجهة الشرقية من وادى الشريعة هى من هذا النوع ، وهى واسعة جداً ؛ ومنطقة حوران كلها اراضى بركانية . اما فى الجهة الغربية من هذا الوادى لا يوجد الا مقدار محدود من هذه الاراضى فى منطقة الجليل ويدخل فى هذه الفصيلة من الصخور جبال صفد ، وهضاب الشاغور فى قرب طبريا ، وجبل الطابور الكائن على طريق الناصره — طبريا .

ان المواد النارية المتصلبة التى تملؤ تلك المناطق البركانية ، هى من نوع البازالت . وعناصرها ، على ما رواه الدكتور آندرسون — *Anderson* هى :

آلومين	١٤،٦٢
متحمض الحديد	٢٣،١٥
فحمية الكلس	١٢،٧٠
ماغنزيه	٠٧،٠١
سيليس	٣٨،٤١
القالى	٠٣،٤٢

وبما انه يوجد فى تلك الاراضى ، ما عدا هذه المواد . حامض الفوسفور ، والبوتاس ، والكلس . تكون هاتيك الانحاء صالحة لزرع النبات المنسوب للفصيلة النجلية ؛ واكبر سبب لجودة القمح الحورانى كثرة هذه المواد .

ان صخور البازالت التى هى اكمل نموذج للاراضى البركانية ترى على شكلين :

(١) صخور منطقة جولان ؛ يسيرة الجروف *Scarie* بذرات كثيفة . ولونها اسود يقرب من الزرقة ، ويوجد فيها كثير من بلور الزبرجد الاصفر ؛ ولا تأثير لها على الابرة المغناطيسية .

(٢) صخور حوران ؛ تفترق عن الاولى بجذب الابرة المغناطيسية فقط .

وهذه الصخور ، اما ان تزيد استعداد الانبات ، او تبيده ، وذلك باختلاف كيفية تشكلها .

ان طبقات الاراضى الجرداء المحصبة الواقعة بين طبريا وبانياس . هى عبارة عن صخور بازالتية صماء . لا تصلح لان ينتفع السكان من استثمارها . على ان البازالت يكون فى السهول قطعاً تختلط بالتراب الناعم ، فتصبغ الاديم بالسمرة ، وتجعل تلك الاراضى غنية بالمواد المعدنية . مستعدة للانبات على غاية ما يرام . والانحاء المزروعة من دبار الجا الصخرية فى ولاية سورية ، هى من نوع هذه لاراضى . ويفاع حوران . هى حسن نموذج للاراضى البركانية فى سورية .

اراضى الدور الرابع — لقد يعسر تبيين هذه الاراضى وتشخيصها . اذ لا يعثر على محجرات تنسب اليها من جهة ؛ وتاريخ حدوث التحول الاقليمى . الذى يحد ذلك الدور ويعرفه مجهول من جهة اخرى ولا تزال الافاعيل الاقليمية التى تفصل الدور الثالث عن الدور الرابع ملتبسة . غير واضحة . الا فى بعض الانحاء . مثلا ان تلك الافاعيل هى على اتم الوضوح . فى الاراضى الرملية الحمراء المغروسة فيها بساتين الليمون فى يافا ؛ وفى السواحل الشمالية ، والجنوبية لقصبة بيروت المكونة من الاحجار الكلسية . وكثيراً ما يعثر على نشوز حيوانانية قديمة . تشاهد حيواناتها اليوم .

نرى ان سواحلنا لا تزال تتعالى ؛ وتحاذيها ارصفة تتركب من صخور الرمل الصلبة فالصخور الموجودة امام يافا وعكاء وطرابلس الشام هى من هذا النوع . اما الكثبان التى لا تزال تتكون على الساحل ، كادت تصل الى درجة تجعل القصبات تحت خطرها

وقد قلنا فى كتابنا (القسم الجنوبى) [يذكر ارباب المعرفة والوقوف من المتتبعين للتاريخ انه كان شرقى قيسارية محلات للاستراحة على مسافة سبعة كيلومترات او ثمانية وكانت النساء الرومانيات يخرجن اليها ويمضين مدة القيلولة فيها ويلتجئن الى تلك الظلال اتقاء من الحر وقوارص الشمس ، وكم للادباء من المدائح والتخيلات فى تلك

الظلال . ولو نظرنا اليوم الى تلك الجهه لا نجد فيها الا اكثبة رملية متجمعة . ويؤخذ من المنقولات التاريخية ان الاكثبة التاريخية الممتدة على عرض ستة او ثمانية كيلو مترات على طول السواحل الفلسطينية هى نتائج الفين من السنين . وقد ثبت بالارقام المحققة ان المساحة السطحية للاكثبة السيارة فى فلسطين يبلغ مليون دونم وتبلغ مساحة الارضى التى تستولى عليها الرمال سنوياً . وتحرم الزراعة منها الا اقل من خمسة آلاف دونم] . (*)

وقد غرست احراج الصنوبر قريباً من بلدة بيروت لتكون حائلاً لتلك الكثبان السيارة .

يعلم من هذه الابحاث ان اراضينا تتنوع فى موادها . وان تلك الاراضى التى تكونت بتأثير مؤثرات متنوعة يمكن فصلها الى قسمين ؛ فالقسم الاول يغلب فى تركيبه الصلصال، والقسم الثانى يكثر فيه حمض سيليسوم . فالاراضى اللحقية *Alluoion* فى سهول البقاع والشام المعروفة بخصبها ، هى على طبقات لينة بعكس ارض فلسطين فانها صلبة ، وخاصية الانبات فيها ضعيفة .

وقصارى القول : ان ارض فلسطين تختلف عن ارض سورية بالنظر لتربتها ، وتكوينها الطبيعى ولقد يحس فى ارض كنعان بوطئة اقليم البحر المتوسط المعروف باليبوسة الدائمة ابان الصيف .

تنقسم ارض فلسطين الى قسمين :

(١) سيف البحر : وسهوله مكونة من حمض سيليسوم . والصلصال *Argileuse* .

(٢) الاراضى البرمية . وهى عبارة عن تلال كلسية .

اما قطعة سورية الاصلية ، فهى تنقسم الى ثلاثة اقسام .

(١) وادى الشام المتكون من الاراضى اللحقية ، الذى يسقى معظمه من نهر بردى .

(٢) اراضى حوران البركانية ، التى هى اقل يبوسةً من فلسطين .

(٣) سهل البقاع ، المؤلف قسماً من اراضى تركيبها الصلصال وحمض سيليسوم ، وقسماً من احجار كلسية منسوبة للدور البرمى ويكون موسم الشتاء فيه شديداً للغاية ، بسبب ترفعه عن سطح البحر .

(*) (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) ص : ٤٨

— ٥ —

النفوس

ها نحن نبين مقدار عموم النفوس فى القسم الشمالى ، على ما نطقت به القيود الرسمية .

١٧٦٥٢٥ — لواء طرابلس الشام	مركز قضاء طرابلس الشام	٦٦٥٤٨
	« « عكار	٤٢٣٦٣
	« « صافيتا	٣٧٩١٣
	« « حصن الأكراد	٢٩٧٠١
١٤٧٦٩٨ — لواء اللاذقية	مركز قضاء اللاذقية	٥١٢٥٩
٣٢٤٢٢٣ يكون	« « مرقب	٣٤٨١٦
	« « صهيون	٣٢٩٧٢
	« « جبله	٢٨٦٥١

بالنظر لكون المساحة العمومية ١١٧٧٩ كيلومتراً مربعاً ، والنفوس المخمنة ٣٢٤٢٢٣ نسمةً ، فيكون نصيب كل كيلومتر مربع ٦١و٢٧ نسمةً . واذا اضفنا اليه مجموع نفوس القسم الجنوبى (*) وهو ٥٧١٣٧١ نحصل على ٨٩٥٥٩٤ وهو العدد الذى ينطق بمجموع

(*) وقع خطأ فى جدول النفوس المقيد فى الصحيفة ٨٨ من الجلد الاول ، وهذا صوابه :

٢٧٦٦٣٩ — لواء بيروت	مركز قضاء بيروت	٥٠٠٠٠
	« « صيدا	٥٤٠٠٠
	« « صور	٤١٢٤٠
	« « مرجعيون	٣١١١٥
١٣٩٢٦٩ — لواء عكا	« « عكا	٤١٣٢٢
	« « حيفا	٣٠٧٣٠
	« « صفد	٣٢٢٣٧
	« « طبريا	١٤١٩٠
	« « ناصره	٢٠٧٩٠
١٥٥٤٦٣ — لواء نابلس	« « نابلس	٧٧٦٤٩
	« « بنى صعب	٣٥٨٠٩
	« « جنين	٤١٩١٥
٥٧١٣٧١ يكون		

نفوس الولاية.

ان سكان الولاية كما فصل فى البحث الخاص هم عبارة عن المتاولة ، والدروز ، والاسماعيليين ، والنصيرية ، والروم الاورتودقس ، والمارونيين ، والقاتوليك ، والبروتستان ، واللاتين ، والارمن ، والسريان ، والكلدانيين ، واليهود ، والسامريين .

فى القسم الشمالى :

٢٥٤٧٧٢	المسلمون (*)
٧٣٣٧٩	النصارى
٧٢	اليهود
٣٢٦٢٢٣	يكون

وفى القسم الجنوبى :

٤١٥٧٥٦	المسلمون
١٤٠١٠٤	النصارى
١٥٥١٣	اليهود والسامريون
٥٧١٣٧٣	يكون

بناءً على هذا ، يكون المسلمون ٧٤٫٨ والنصارى ٢٣٫٥٥ واليهود ١٫٧ فى المائة بالنسبة لمجموع عدد النفوس .

وعدد غير المسلمين فى الالوية هو على ما يأتى :

١١٣١٥٠	لواء بيروت
٥٩٤٨٨	« طرابلس الشام
٣٨٥٨٩	« عكا
١١٩٦٣	« اللاذقية
٣٨٧٨	« نابلس
٢٢٧٠٦٨	يكون

ان هذه الارقام المنقولة عن دوائر النفوس ، وان لم تكن جديرة بالاعتماد ، غير انها تخدم لانارة ذهن القارئ بكمية منتسبي الاديان فى الولاية . ان معظم اليهود على قلة عددهم، يسكنون فى لوائى بيروت وعكا . ويوجد منهم فى قضاء صفد ٦٠٧٥ وفى قضاء طبريا ٤٢١٠ وفى بلدة بيروت ٢٧٨٤ وفى قصبة حيفا ١١١٧ نسمةً . وما بقى منهم يسكن من الولاية فى انحاء متفرقة .

(*) الدروز والنصيرية معدودون من المسلمين .

جاء فى سالنامة الولاية التى طبعت سنة ١٣٢٤ ان مجموع نفوس الولاية هو « ٦٨٠٠٦٥ » منها ٥٥٣٥٢٥ مسلمون ذكوراً واناثاً ؛ و٥٥٢٠٧ من الروم الاورثوذوقس و٣١٤٤٦ مارونى و٢١٦١٢ قتوليك و٢٢٨٢ پروتستان و١٢٤٤ لاتين و٤٥٧ ارمنى قتوليك و٨٤٠ ارمنى قديم و٤٢٢ سريانى و٢٠ كلدانى و١٢٨٣٢ من اليهود و١٧٨ سامري . وعليه تكون نفوس الولاية ، ازدادت من ذلك التاريخ للآن مقدار ٢١٨٥٤٩ نسمةً فاذا طرحنا منها الوفيات التى حدثت فى تلك السنين الثمانية ، بموجب الأرقام التى اطلعنا عليها وهى ، ٩٥٢٥٦ نسمةً ، يكون حاصل الطرح ١٢٢٢٧٢ وهو مقدار زيادة النفوس، وبذلك يكون ربح الولاية منها ١٥٢٨٤ فى كل سنة . ومع الأسف ليس فى امكاننا الآن ان ندعى وثوق هذه الارقام .

— ٦ —

السكان

سبق ان بينا فى الجلد الاول ان سكان سورية تنقسم من حيث القومية الى عرب وترك وسريان ، وجركس ، ويهود ، وفرانك ، وقد تكلمنا هناك عن جميع هؤلاء ماعدا الاتراك . والآن نبحث هنا عن التركمان المتوطنين فى القسم الشمالى من ولايه بيروت . والمنتسبين فى العرقية الى الجنس التركى . ونتكلم عن اصلهم ومنشأهم . وكيفية . وزمان قدومهم الى البلاد السورية.

التركمانه

[١] — **اصل التركمانه ومنشأهم** —التركمن : هم اقوام يقطنون صحراء التركمن الواقعة بين بحيرة آرال ، وبحر خزر ، واكثرهم من سكان الخيام ؛ وهم من اكبر قبائل الترك . من الضرورى ان نسلم بان التركمان من صميم الاتراك ؛ وان نعد تاريخ هؤلاء القبائل المعروفين باسم (الاتراك الغربيين) لسبب توطنهم فى الجانب الغربى من بلاد الترك فى آسيا الوسطى ، قديماً كتاريخ بقية الاتراك.هذا وان ادعى بعض المؤلفين (*) ان التركمن هم من القبائل التى اتت من بلاد فارس وتوطنت فى تركستان ، وانهم ليسوا من صميم الترك ، بل هم من المتتركين ، والمتشبهين بالاتراك ، بدليل ان كلمة تركمان ، وتوكمنان معناها ، بالفارسية « شبه الترك » . بيد انه ليس لدينا دليل يبرهن على صحة هذه الرواية وبالعكس ان لنا من البراهين ما يدل على عدم صحة هذا الادعاء وبطلانه . ومما يجدر بالذكر من الادلة فى هذا المقام لغة التركمان واوصافهم الطبيعية . انه وان يكن توالى الازمان

(*) راجع كلمة Turcoman من (Bibliothèque Oriental d'Herbelot) .

احدث فى سحنائهم ، وهيا كلهم بعض التبدل والتحول فابعدهم عن المغولية ، وقربهم من العرق القوقاسى لكنهم لا يزالون مجهزين باظهر خصائص الاتراك ، واوصافهم ، مثلاً (*) بالرغم عن طول قاماتهم ، ان جماجمهم كروية ، ووجوههم واسعة ، وعظامها ناتئـة ، وعيونهم براقة ، وانوفهم قصيرة فطساء ، وشفاههم غليظة ؛ صفر البشرة وشعرهم اسود كث خفيفو شعر اللحى ، وآذانهم متنحاة ؛ وزيادة على هذا ان تقارب جواهر الالفاظ فى اللغة التركمانية لكلمات اللغات التركية ، بل وعينيتها مما لا يدع شكاً فى ان التركمان هم من صميم الجنس التركى . ومع ذلك ، يجب ان نمعن النظر فى درس هذه المسألة وان لا ننسى ان هؤلاء القوم لا يزالون حاملين هـذا الاسم . من المعلوم (**) ان الاتراك كانوا ، فى القرون التى لم تدخل حوزة التاريخ ساكنين جبال الطاى ؛ المعروفة عندهم بجبال الذهب ثم انتقلوا من هناك وجعلوا يتجولون فى صحراء تركستان ؛ تلك الاصقاع المتسعة التى تحاط من الجهة الشرقية بخطاى ، اى الصين الشمالى ، ومن الغرب ببحيرة آرال و (خوارزم *Kharezm*) ومن الشمال بسبريا ، ومن الجنوب بتيبت ، وبخـارا الكبيرة . ثم لم يلبثوا ان اتخذوها موطناً وسكناً لهم .

ان قدامى الفرس الذين جعلوا اسم (ايران) لبلادهم ، مقابلاً لتعبير (آنيران) ، اى غير ايران . وضعوا اسم (توران) للانحاء الواقعة على يسار نهر جيحون المعروفـة الان بتركستان . لا جرم ان الاسهاب فى تاريخ الاتراك والتورانيين القاطنين بلاد توران لايدخل تحت بحثنا الآن ، ولكن نضطر لان نأتى بنبذة منه لنعلم كيفية انشعاب التركمانيين من الاتراك .

فالتورانيون ذوو الصيت الطائر فى وقائعهم وجسارتهم اقتحموا المسافات الشاسعة فى قارة آسيا على طولها ، وكانوا اصدق ناقل لمدنية الصين والبيزانسيين ، وامهر ناشر لحضارة العرب . وتاريخ حياتهم يجب ارجاع النظر فيه الى بضع آلاف سنة .

اشتهر الاتراك فى تلك القرون الخالية ، باسماء مختلفة . لدى مشارق الارض ومغاربها ؛ وكانت حكوماتهم اذ ذاك نموذجاً فى السلطان ؛ وقوة الشكيمة .

ان الامم العظيمـة التى ذكرها هيرودوت ، المؤرخ اليونانى باسم (تارژيتـاوس) ، و (توغارما) التى ذكرت فى التوراة ، و (هيونغنو) ، (توكيو) و (توكونه) المعروفة لدى الصينيين القدماء ما هى الا من الامم التركية . و (الهون) الذين زلزلوا اوروبا ايضاً كانوا من التورانيين .

فاذا لاحظنا ان « الحتيين » الذين يروى انهم افتتحوا آسيا الصغرى فى الازمنة القديمة اتراك ، واطلعنا على ما جزم به علماء خصائص الشعوب من ان المجريين والبلغاريين اتراك

(*) راجع كلمة تركمان من [Nouveau Larousse illustrée] .
(**) مترجم ها مر . محمد عطا ج ١ ص ٥٠

الجنسية ايضاً ؛ نحصل على مسكة من الفكر باهمية هؤلاء القوم الذين هم من اقدم واعظم امم الكون . لاسيما ؛ اذا علمنا ان النفوس التى تدخل فى اسم الامم التورانية تجاوز فى العدد مائة مليون ، تجلى لنا مكانة هؤلاء القوم وقيمتهم التاريخية .

على اننا لا ننكر ان تاريخ التورانيين ما هو من الوضوح على درجة تليق بهذه المكانة. وان رادلوف،طومسون ، وامبەرى وامثالهم من علماء العصر الحديث لم يألوا جهداً فى التنقيب عن تاريخ الاتراك ، واستنباط بعض اقسامه ولكنهم ما استطاعوا ان يقشعوا عنه غياهب الابهام ، ولذلك يعسر ابداء الرأى الصادق فى حقيقة شعوب الاتراك ، وفى كيفية انشعابهم ودرجة مناسباتهم ، وعلى الخصوص فى مدنيتهم القديمة . اذ ليس لدينا من الحقائق ما نستطيع بها انتقاء اصدق الحديث من اقوال المؤلفين المتضاربة ولهذا السبب اننا سنتوخى الظنة حين جمع الروايات المختلفة التى تبحث عن مركز التركمان ، تجاه الاتراك وعن مناسباتهم .

يقول ابو الغازى مؤلف الشجرة التركية « ان شعوب الاتراك القديمة عبارة عن قبچاق ، اويغور ، قانقلى ، قال آچ وقارلق » فالاسمان الاولان هما اساسيان . ولفظة « قبچاق » هى كلمة قديمة تتركب من هجاء واحد ومعناها « بلقع » . وكلمة (قوبى) التى يستعملها المغوليون هى من عين المنشا . اما كلمة (اويغور) فهى باللغة التركية القديمة ، ولغة المغول ومانچو مشتقة من مصدر (اويمق) ، الذى معناه (التوحد والتجمع واتباع نظام واحد والارتباط بالقانون) . وعليه تكون كلمة قبچاق مختصة بسكان السهول الخالية ، واما (اويغور) اى (المتمدن) فهى لقوم مجتمعين متحدين يخضعون لقانون . وكلمة (قانقلى) معناها « ذوو المركبة » . اما كلمة « قالاچ » يصعب تعيين معناها الحقيقى لانها مكتوبة باشكال مختلفة فى نوعى الكتابة التركية وقد كان الاروام يكتبونها فى العصر السادس من الميلاد بصورة (خلياته . ونرى ان كلمة (قيليچ) التركية ظاهرة فى هذا اللفظ . ولفظة (قار) الموجودة فى كلمة (قارلق) لا تزال اليوم مستعملة فى اللغة التركية .

من المحقق ان الانسال التركية تنقسم الى خمسة شعوب . منها ثلاثة سموا انفسهم او سماهم جيرانهم باسماء معناها (البادون والمتمدنون،ذوو المركبات) . وهى ليست باسماء رؤساء ولا اسماء شعوب . لاسيما هذه الاسماء الثلاثة فانها تدل على نسق عيش القوم وعاداتهم القديمة . (*)

لقد بين جهانتما اشهر قبائل الاتراك على ما يأتى :

(١) — الاوغوزيون ، وهم من خطاى اى الصين الشمالية .

(*) تورك تاريخى لنجيب عاصم ص ٣٩

(٢) — قبيلة قايى ، وقد اتت من سارى الى ارمينيه . واصل الاتراك منها .

(٣) — قبيلة ساريخ ، وقد سكنوا جبل (ايمانوس) الشاهق لما جاهروا خاقان الترك بالثورة .

(٤) — القايماقيون .

(٥) — قبيلة بهچنك . وكانت فى حرب دائم مع قبائل (طولازى) و(غاز) او (غوز) و(اوز) .

(٦) — قبيلة ماهريقا او موهاريقا ، كانت ساكنةً بين نهرى (وولغـا) و (دون). وكانت الخصم لالد للروسين والسلافيين.

(٧) — الخزريون ، وهم على شواطئ بحر خزر .

(٨) — السلافيون .

(٩) — الروسيون (*) .

اما وامبهرى *Vambéry* . المستشرق الشهير ، فقد قسم الاتراك بالنظر الى اللغة الى خمس شعب .

١ — اتراك سيبريا ؛ ويفترقون اربعة عشر قسماً :

(١) قاراقالموقيو طومسق .

(٢) الالطائيون ، او قالموقو آلطاى .

(٣) شورج ، او قوندوج

(٤) اوريانق

(٥) قوماندي كيش

(٦) القيزيقيون (يتألفون من تاتار تەلوت ، قوبول ومن الاوستاقيين)

(٧) تاتار جوليم

(٨) ساغايەن

(٩) قاجنتس

(١٠) القيباليون

(١١) قاراغان

(١٢) سوئى يوت

(*) دولت عثمانية تاريخى (مترجم عن ها ممر) ، محمد عطا ج ١ ص ٣٠٢ : على ان هـا ممر بعد ان اعطى هذا التفصيل قال (مما يستلزم العجب تفريق الإغوزيين عن الغوزيين ، او الاوزيين لانهم امة واحدة كما يدعى ده كينى Deguines) . فكيف يمكن اعتبار السلافيين والروسيين من الاتراك انه لم يتكلم عن هذا بشى .

(١٣) قاماسينيج
(١٤) تاتار بارابا
٢ — اتراك آسيا الوسطى ، البادون او شبه البادين ، وهم ستة اقسام :
(١) قيرغيز — قازاق
(٢) قارا قيرغيز
(٣) اويغور ، او اتراك تركستان الشرقي او الكاشغريون
(٤) اوزبك
(٥) قاراقالپاق
(٦) تركمان
٣ — اتراك وولغا ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار القازاق [ينشعبون من القيچاق]
(٢) باشقير — مهچجه رياق
(٣) چواش او الفينواليون المتتركون .
٤ — اتراك بحر الاسود ، وهم ثلاثة اقسام :
(١) تاتار قريم او قيريمچاق
(٢) نوغاى
(٣) قوميق او قاراچاى
٥ — اتراك الغرب وهم :
(١) اتراك قاوقاس ، وايران ، وآزاربايجان
(٢) الاتراك العثمانيون .

اذا صرفنا النظر عن هذه التفصيلات الثانوية ، واضربنا عن التقسيمات التى اوردها مؤلفا (شجرهٔ تركيه) و(جهانما) يمكننا ان نقول ان الاتراك ينقسمون منذ القدم الى قسمين . (الاتراك الشرقيون) و(الاتراك الغربيون) . (*)

فالشرقيون ينقسمون الى بضع قبائل مثل : اويغور ، قال آچ ، قارلق ؛ والغربيون الى عشر قبائل مثل : اوغوز ، قيچاق ، پهچهنك ، قيرغيز ، قانقلى وغيرهم .

ان قبيلة اويغور التى هى من اشهر اتراك الشرق ، تقطن الاصقاع الكائنة بين قرهقروم ، وطورفان . ولغتهم هى افصح واقدم لغة تركية . ثم دعيت هذه اللغة باسم چغتاى السلطان ابن جنكيز خان . ولغة اويغور هذه التى يسميها العثمانيون بالتركية القديمة ، هى الاخت

(*) لهجهٔ عثمانى . احمد وفيق باشا

الكبيرة للغة التركمان وفى القرن الخامس عشر للميلاد بلغت هذه اللغة حد كمالها. ثم شرعت تنحط، بعكس اللغة العثمانية التى انبثت عنها فانها اخذت بالرقى.

اما اشهر الاتراك الغربيين فهى قبيلة «اوغوز» التى كانت تقطن ما بين سيحون وجيحون فى تركستان، وكانوا يحاربون الاكاسرة والعرب. ويروى ان (سالور خان) من اولاد (طاغ خان) (**) قد اعتنق الدين الاسلامى، بعد وفاة النبى «صلعم» بثلاث مائة وخمسين سنة مع الفين من الاسر، ومن ثم بدل اسمه بجناق خان. او قره خان، وسمى قومه «تركمان» ليميزهم عن الاتراك الوثنيين وقد ارتقت اللغة التركمانية فى ايام السلجوقيين الذين هم من نسل اوغوز، واقتبست من اللغة العربية، ما اقتبسته لغة اويغور من الفارسية.

ان عشيرة قايى خان الاوغوزية غادرت فى الزمن الاخير بلادها، وهاجرت حيث اسست الحكومة العثمانية، وافترقت لغتها عن التركمانية، وتكون اللسان العثمانى المؤلف من اختلاط الكلمات العربية والفارسية. يفهم من هذا التلخيص ان التركمان هم من الاتراك الغربيين، ولهم ارتباط قوى بالعثمانيين والسلجوقيين بالنظر لكونهم من نسل اوغوز، وان اسم (تركمان) لم يكن الا بعد العصر الرابع للهجرة. ويزعم كما ذكر فى (جهانما) لمؤلفه (نشرى) ان كلمة تركمان مؤلفة من «ترك» و «ايمان». وقد اطلق هذا الاسم على من آمن بالدين الاسلامى منهم. ولكن اكثر المؤلفين ينكر هذا التأويل. والبعض منهم يدعى ان لفظة (مان) و (من) فى آخر كلمة (تركمان). بمعنى الرجل كما هو الحال فى

(**) وعلى رواية قديمة للاتراك ان اوغوزخان ابن قره خان هو الذى ايد بفتوحاته، وقوانينه سلطان الاتراك ومدنيتهم. فارق اوغوز قره خان جبال قره قروم التى هى مشتاه، وجبال اورطاغ، وقورطاغ التى هى مصطافه، وتوجه الى الجنوب حيث جعل مقامه فى بلدة (ياس)، اشهر بلاد تركستان. والتى كانت مركزا لمدينة الاتراك، وسلطتهم مدة مديدة وكان لاوغوز خان ستة اولاد. هم: كون خان وآى خان، ويلديز خان وكوك خان وطاغ خان ودكز خان. وكان مشغوفاً بالصيد. فارسلهم ذات يوم الى الصيد — مؤملا ان كل واحد منهم يأتى بما يكون دليلاً على حالته فى المستقبل — فاصابوا قوساً وثلاثة اسهم وآبو، فعرضوهم عليه. فاعطى السهام الى كوك خان وطاغ خان ودكز خان؛ والقوس للثلاثة الاخرين. وهؤلاء كسروا القوس ليقسموها بينهم. فاعطى لاولئك، السهام الثلاثة — اوجوق او (اوج اوق)، وللاخرين (بوزوق) السهام المكسرة. ولما وفى قسمت بلاده فأخذ الجناح الايمن والجناح الايسر عشائر الشرق والغرب. ويزعم ان قد ولد لكل خان اربعة اولاد، فكان منهم اربعة وعشرون رئيساً لعشائر الاتراك. ان امراء «بك» الجناح الايمن، وبوزوقلر الذين كانوا قاطنين فى بلاد تركستان، هاجموا بلاد ما بين النهرين وسخروها، ثم اخترقوا تلك الحدود وساروا الى ان وصلوا بفتوحاتهم الى فروق، ثم الى نهر الدانوب. وان قدماء مؤرخى الاوغوزيين، والسلجوقيين، والعثمانيين يضبطون انساب سلاطينهم، ويصعدونها الى الاجنحة الثلاثة اليمنى، ويعتبرون الاغوزيين من طاغ خان والسلجوقيين من (دكزخان) والعثمانيين من (كوك خان).

هامهر. ج ١ ص ٥٤ — ٥٥

الالمانية والانكليزية . فيكون معنى كلمة (تركمان) هو (الرجل التركى) وهكذا (قرهمان) فان معناه (الرجل الاسود) .

وعند البعض ان كلمة تركمان معناهـا (الترك الصميم)، الترك الكامل) ، (الترك المتين)، وذلك لانهم على احسن ، وامتن الاوصاف الجنسية بين الاتراك (*) . والا فان الرواية المتضمنة ان كلمة (تركمان) مؤلفة من (تارك) و (ايمان) . لهي هذيان محض(**)

ان بعض المؤلفين الذين يبحثون من الاتراك الساكنين بين بحيرة آرال وبحر الخزر، المعروفين باسم تركمان . يزعمون انهم عبارة عن « الهونيـين البيض » و (تى — لو) سكان السواحل و (غوز) او (كه ز) . (***)

[٢] **اقسام التركمان** — يمكن تقسيم التركمان القاطنين الاصقاع الكائنة بين بحرالخزر وبحيرة أرال وبين خيوه وجيحون، ووادى اترك الى عشرة اقسام كبيرة (***)

١ — قبيلة (يومود *Yomouds*) يعيشون تحت الخيام فى الناحيـة العليـا ، وعلى سواحل بحر الخزر الشرقية .

٢ — قبيلة (تكه *Tekkese*) . تقطن فى انحاء مرو ، تهجين قيزيل آرواد.

٣ — قبيلة (سـاكار—*Sakar*) تقطن بين (قاباقـلى) فى الشمال ، و(جارجوى) فى الجنوب ؛ وفى الساحل الايسر من نهر امدريا .

٤ — قبيلة (چودور—*Tchoudors*) . هى فى الجانب الشمالى من خيوه .

٥ — قبيلة (ئەمرالى—*Emralie*) . هى فى الجهة الجنوبية من خيوه .

٦ — قبيلة (غوقلان—*Goklan*) . تسكن فى خراسان وتتصل باليوموديـين من الغرب .

٧ — قبيلة (ئەرسارى—*Ersari*) . هى على ضفاف امدريا فى انحاء كليف .

٨ — قبيلة (سالار —*Salar*) تسكن فى انحاء مرو .

٩ — قبيلة (آليلى—*Alili*) . تقطن سهول تركستان الافغانية .

١٠ — قبيلة (ساريق—*Sariks*) . تعيش تحت الخيام فى اطراف (بادكيز) .

يعيش هؤلاء القبائل متفرقين ، ولكنهم لا يجهلون بعضهم . ومنهم قبيلة ساكار ، وامرالى وغوقلاند ، وسالار وسـاريق هم على غاية من وفرة العـدد . لاسيما وان معيشتهم لم تزل تحول من البداوة الى الحضارة .

(*) آنسيقلوپەدى الكبير

(**) لغات تاريخيه وجغرافيه : احمد رفعت

(***) ترك تاريخى . لنجيب عاصم . يرويه عن (وقايعنامهٔ نستور) ، وترجمة له زه ن ص ١٩٥،٦٩

(****) راجع كلمة Turcomans من La grande Encyclopédie (ج،٣١)

ان اعظم قبيلة فيهم هي قبيلة تكه . لان عدد نسماتها يقرب من ثلاثمائـة الف ثم الوفرة من بعدها لقبيلة آلبلي . ومقدار افرادها لا يقـل عن مائتين وخمسين الفاً . وبعد هـاتين القبيلتين تأتي قبيلة يومود وقبيلة ئەرساری وهما اكثر عدداً من بقية القبائل .

وقصارى القول ، ان مجموع نفوس التركمان في الديار التركية لا يزيد عن مليون ونصف من النسمات رغماً عن اتساع اقطارهم واراضيهم وتباعد اطرافها .

وقد اختلط التركمان مع من يجاورهم من القبائل كقبيلة قيرغيز ونوغاى . ولا يزالون الان خلطائهم .

وللتركمان اقسام من الدرجة الثانية ، ما عـدا الاقسام العشر التي عددناهـا آنفاً . ولكن يتعذر علينا تعداد تلك الاقسـام لهؤلاء القوم الذين غادروا اواسط بـلاد الترك وانبثوا في بلاد متفرقة كآسيا الصغرى ، والعراق ، وسورية وسواحل البحر المتوسط .

على اننا نصادف في بعض انحـاء الاناطول عشائر تنتمي لتركمان (رمضان او غللرى) ابناء رمضان كعشيرة بيات ، قاچار ، ابناء رجب (رجب او غللرى) ، كوچكلي . عبالي اوردكلي . وامثالهم ؛ وتوجد في ايران والاناطول عشائر كبيرة كالافشاريين . والبعض من هذه العشائر تسمى باسم البلاد التي تسكنها ، كالعشائر الموجودة في ولاية بيروت ، فانهـا تدعى باسم تركمان باير ، وبوجاق ، وحذور ، وكواچره .

[٣]— **احوال التركمان الاجتماعية** — اشتهر التركمان ذووا القامات الطويلة . والابدان القوية المتينة . بالشجاعة والفروسية . ولهذا السبب آثرت الدولة العباسية ان تستخدمهـم في امر المحافظة . ولم يؤسسوا حكومة الا وكانت مثالاً للقدرة والبسالة . لاسيما ان خصائصهم في الخضوع لمتبوعهم ، والاذعان لاولي الامر تتجاوز الحد المعروف .

يلبس رجال التركمان قميصاً طويلاً ، وفوقه جبة طويلة ، ويشدون اوساطهـم بالمناطق شداً وثيقاً ، ويحتذون الامواق « جزمات » او الخفاف المتخذة من جلود الجمال ، او الخيل ويلفون ارجلهم بالصوف . ويلبسون في رؤوسهم قلانس من جلود الخرفان ، اما نساؤهم فيقنعن رؤوسهن بقنع دون ان يسترن وجوههن ، ولهن شغف زائد بالحلي ،

وقدماء هؤلاء القوم كانوا يعيشون تحت الخيام ؛ وخيامهـم مدورة الشكل ، سهـلة التقويض ، مجللة باللبود . وكثيراً ما ترى شاة . او عنز مربوطة في جانب كل خباء . وهم يذبحونها في ايام مخصوصة ، فيجعلون اللحم قديداً ، ويحتفظون به ، اما العظام فيغلونها على النار ، ويفرقون المرقة على الجيران والاصدقاء . وحظ الاطفال من الذبيحـة امعاؤها ، وهم يشوونهـا على النـار ويمضغونها [*] .

---

[*] دائرة المعارف . لبطرس البستاني .

التركمان مطبوعون على القناعة ، ونساؤهم يقنعن من الطعام بكسرة من خبز مع قليل من الثريد .

ان دواعي المعيشة فى التركمان جعلت لكل من الرجال والنساء وظائف على حدة . فالرجال يشتغلون بالزراعة ؛ فيحرثون ، ويبذرون ، ويحصدون ، ويرعون الماشية ، وايضاً يفتلون الحبال بأيديهم ، ويعملون السروج ، ويصنعون القلانس والخفاف ، ويتعاطون التجارة اوقات فراغهم ، ويلعبون على الحبال ، ويتغنون ، ويأخذون نصيبهم من السرور . ويكثرون من التدخين وشرب الشاى .

اما نساؤهم فعليهن مشاغل ، واتعاب باهضة حملهن الرجال اياها . ولهن كامل الحرية ولا يعاملن من قبل الرجال بسوء ؛ ويتجولن حيث شئن على اتم الاستقلال والحرية . واذا وجدن مع الرجال يكن موضع رعاية واحترام .

لا ينقطع نساء التركمان عن العمل ، بل دأبهن السعى ، ولا بد ان يخلقن لانفسهن مشغلة . فطحن القمح ، وغزل الصوف والقطن ، ونسج السجاد ، وتلبيد اللبود ، وجلب الماء ، هى من وظائف النساء . فتراهن يثابرن على القيام بهذه الوظائف ولو كن حاملات او مرضعات . حتى انهن يشتغلن بالغزل اثناء الزيارات ايضاً . ولا من متعب لهن مثل تدوير الرحى ، ولا يفتئن يتألمن منها .

التركمان ، رجالاً ونساء ميالون لعمل الخير ، واغاثة ابناء جنسهم ، ويندر ان يصدر منهم لبعضهم كلام سيء ، او سب ، وانهم يشنون الغارة على بعضهم ، ويسمونها غزواً فتحدث بين العشائر المتجاورة مقاتلات دموية . على انهم معذورون بذلك ، لان هذه من دواعي البداوة . والمثل التركى يقول (داخل البلد للتركى سجن) . ولذلك نجد فيهم ميلاً قوياً لتلك الحياة . وهم مشغوفون بحب جيادهم ، وافراسهم ، وقسيهم وسهامهم . ويحبون ان يكونوا على حياة راحلة كقدماء الاتراك . ومما امتازوا به من الاوصاف الحسنة اكرام الضيوف . يتزاورون فى خيامهم نساء ورجالاً . والرجل يحيد بنظره لدى فتحه باب الخيمة ، فتتقنع المرأة ، وتتنحى للداخل ، ثم يدخل . وبعد ان يسلم وتنتهى مراسم الترحيب ، لا تلبث النساء ان تأتى وعلى ايديهن الطعام . ويسارعن لبذل انواع الاكرام والاحترام .

النساء عندهم يحترمون الرجال احتراماً فائقاً ، ويتكلمن همساً اذا وجدن قريباً منهم ولا يردن ان يسمعوهن . ويسترن اسفل وجوههن فى حضرتهم . ومع ذلك انهن على اتم ما يرام من الحرية . فلا يخجلن من محادثة الغريب ، ولا يصدفن حياء اذا سلم عليهن .

ولهؤلاء القوم ارتباط عظيم فى الدين . وهم اول من اسلم من الاتراك ، والحكومات

التى اسسوها لم تأل جهداً فى حفظ بيضة الاسلام ، والذب عن حوضه فى احرج الظروف ، واخطر الاحوال . وهذا اكبر دليل على فرط احترامهم للدين ومحبتهم له . وكلهم مسلمون وسنيون ، وقلوبهم صادقة لهذا الدين ، غير انهم فى اشد الاحتياج الى هدايه العلم وارشاده .

٤ — *ملخص تاريخ التركمان* — ها نحن نسرد نبذة من اشهر وقايع التركمان على ما يأتى :

١ اول ملوك التركمان

سبق ان بينا ان اقوام الترك البادية الساكنة فى الانحاء الشرقية من بحر الخزر ، اعتنقت الدين الاسلامى فى اواسط القرن الرابع للهجرة ، وتسمى سازوخان بـ (جاناق) او (قاره) خان بعد ما اسلم ومعه الفان من الاسر ، واستأصل شأفة الوثنية من بلاده . ثم لم يلبث ان هاجر قسم منهم الى الانحاء الغربية من ارمينية ، وسكنوها وبذلك انقسموا الى قسمين « تركمان الشرق » و « تركمان الغرب » . ولم تزل تلك الانحاء مأهولة بهم حتى الان (*)

ثم صار الامر من بعده الى ابنه « موسى خان » . فشيد الجوامع واسس المدارس ، وبنى التكايا ، ووجه عنايته الى العلم والعلماء ، وشد ازرهم واعلى منزلتهم . ثم جاء من بعده « بغراخان هارون » ابن عمه وخليفة سليمان خان ، ففتح البلاد ووسع الملك ، حتى بلغ الى ما وراء كاشغر و « بالاساغون » من حدود الصين . وفتح بخارا فى تاريخ « ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م » وانتزعها من ايدى السامانيين الايرانيين . ثم جاء من اخلافه « احمد خان ابن ابى النصر بن على » فاكره الاتراك الوثنيين على الدخول فى دين الاسلام . ثم افضى الامر من بعده الى اخيه « آرسلان خان ابو المظفر بن على » فاستولى على ما وراء جيحون من البلاد وكنى نفسه بشرف الدولة « ٤٠٩ هـ — ١٠١٨ م » . وبعد وفاته « ٤٢٣ هـ — ١٠٣١ م » اخلفه « قدر خان يوسف » ابن بغراخان ، وكان مشهوراً بكرمه وجوده بين الاتراك المسلمين . اما ابنه « قرهخان عمر » فقد مات مسموماً مع اخيه محمود الجوسى « ٤٣٩ هـ — ١٠٤٧ م » وهنالك انتقل ملكهم الى « طاغماج خان » سلطان سمرقند ثم من بعده لابنه « شمس الملك » . وهذا الملك قد تزوج ابنة آلب آرسلان سلطان السلجوقيين وزوج اخته « طورخان » من السلطان « ملكشاه » . وبهذا اصبحت القرابة بين التركمان ، وبين الاسرة الحاكمة من السلجوقيين مزدوجة .

(*) مترجم هامر ، محمد عطا ج ١ ص ٥٥ — ٥٦

٢ . حكومة السلجوقيين والتركمان

من المعلوم ان السلجوقيين الذين هم من اقوى قبائل الاتراك ينتسبون الى دكزخان ابن اوغوزخان . وفى القرن العاشر للميلاد كانوا يسكنون قريباً من بخارى فى بلاد بغراخان . وبعد ثلاثين سنة من هذا التاريخ تسلط عليهم « محمود » سلطان غزنه وفاتح الهند ، فاجلاهم الى ما وراء نهر جيحون من خراسان .

ان السلطان محمود ، ورث الملك عن ابيه « سبكتكين » . وهذا كان من مماليك احد افراد الاسرة السامانية الايرانية . وقد كان والياً . وما لبث ان سخر البلاد ، وجعلها فى قبضته ، واقتدى بما فعله طولون ، واخشيد من مماليك الاتراك وولاة الخليفة فى مصر . فجاهر بالاستقلال ، واسس حكومة « آل سبكتكين » . ومحمود هذا هو اول من سمى نفسه سلطانا . وهذه الحكومة دامت مقدار عصر ونصف ، ثم اضمحلت ، واكتسحها السلجوقيون .

فالسلجوقيون — الذين جلبهم السلطان محمود من وراء جيحون — دوخوا البلاد الممتدة من بحر الخزر الى البحر المتوسط ، وتسلطنوا عليها مقدار ثلاثة قرون . ثم انقسموا الى خمسة اقسام : وهم سلجوقيو « فارس » ، « كرمان » ، دمشق » ، « حلب » « آسيا الصغرى » .

١ — سلجوقيو ايران دامت حكومتهم من سنه ٤٣٢ الى ٥٩٠ هجرية ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً

٢ — سلجوقيو كرمان ، دامت حكومتهم من سنة ٤٣٣ الى ٥٨٣ ، وحكم منهم تسعة سلاطين .

٣ — سلجوقيو حلب . دامت حكومتهم من سنة ٤٧١ الى ٥١٠ ، وحكم منهم خمسة سلاطين .

٤ — سلجوقيو دمشق ، دامت حكومتهم من سنة ٤٨٨ الى ٥٤٩ ، وحكم منهم تسعة سلاطين

٥ — سلجوقيو الروم دامت حكومتهم مأتين وعشرين سنة من سنة ٤٧٧ الى ٦٩٩ ، وحكم منهم خمسة عشر سلطاناً .

ان نجاح السلجوقيين فى ادارة تلك الاصقاع الفسيحة ، ودوام سيطرتهم عليها لاجرم يستند معظمه على ما ناله اولئك القوم . من نصرة التركمان وموآزرتهم لهم . وقد جاء فى « سياستنامه ص ٦٥ » ان التركمان وان لم يخلص السلجوقيون من معاكستهم ، فان

لهم اليد البيضاء في تاسيس تلك السلطنة وتأييد سلطتها وعليه لا يسوغ انكار ما لهؤلاء لقوم من الخدمة لهذه الحكومة الذى هم اقرباؤها .

٣ . مهاجرت انتركمان

نضطر هنا ، قبل البحث عن مهاجرة التركمان ، لان نبحث عن مهاجرة الاتراك . ذلك لانهم اصل لهم .

من المعلوم ان الصينيين كانوا يستخدمون الاتراك فى الجندية منذ القدم . وفى القرن الاول للهجرة ، لما تسلط مجاهدو العرب على تركستان ، واكتسحوا بعض انحائها ، جند « سوچونغ » بالاجرة كتيبة من الاتراك وسماها « كتيبة البحر الاحمر » ، ولكن التانغيين اوصدوا فى وجوههم ابواب السد . وحملوهم على الاتجاه الى بلاد العراق ، وارض الروم. وان استيلاء العرب على تلك الانحاء كان سبباً لتحويل وجهة المهاجرة فبينما كان السيل التركى المنحدر من جهات « اوقسوس » و « الخزر » على طريق « سيت » القديمة متجهاً الى الشمال الغربى ؛ الى بلاد قبچاق ؛ يابيق « اورال » ؛ ايديل « وولغا » اصبح مستهدفاً بتياره الجهة الجنوبية الغربية ، وانصب على انحاء آزربايجان ، وجنوب القوقاس ، وآسيا الصغرى وبلادسورية ، وارض الروم [*] وبعد مهاجرة الاتراك بمدة طويلة ؛ اخذالتركمان ايضاً بالهجرة فكانوا ينخرطون فى سلك الجندية لدى بعض الحكومات تارة ، واخرى ينتهزون الفرص فيؤسسون حكومات مستقلة .

ما من حكومة تركية تأسست فى آسيا الصغرى ، او سورية او مصر الا وكان للتركمان فى تأسيسها ، وتشييد دعائمها [**] الحظ الاوفى . وسبق لهم فى زمن العباسيين مآثر حسنة ، ومثلوا فيه أدواراً خطيرة . وقد اتوا من اقاصى بلاد « بهلو » او «خوارزم » ، وكانوا من قبائل « قانقلى » و « قال آچ » و « الهون البيض » ، او من تركمان السواحل [***] ثم ما لبثوا ان اظهروا من البسالة والشجاعة ، ما جعل لهم عظيم المكانة فى نظر العباسيين .

وفى زمن المستعين بالله العباس عظم سواد الاتراك فى الولايات ، كما هو فى المركز ، حتى اصبحت قطعة سورية ومصر فى ايديهم ، والحجاز واليمن تحت ادارة ولاة منهم [****] واسسوا لأنفسهم حكومات مستقلة كبنى طولون ، والاخشيديين وامثالهم. وقصارى القول ؛

(*) تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ١٣٤ ، ١٥٣ ؛ ٢٠٣

[**] لا ننسى هنا الاتابكة فى سورية وحلب والمماليك البحرية فى مصر ، و«آل ينال» فى ديار بكر .

[***] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢٠٥

[****] تورك تاريخى ، لنجيب عاصم ص ٢١١

ان كثيرا من الاتراك ، وعلى الاخص التركمان الذين دخلوا الجندية فى خدمة العباسيين ، ما انفكوا يهاجرون الى جهة الغرب الجنوبى وانتشروا فى انحاء مازندران وكيلان وطبرستان وآزربايجان من شمالى بلاد العجم ؛ وانبثوا فى بلاد ارضروم وديار بكر ، وتخطوا منها الى بلاد الاناطول ايضاً . وفى زمن العثمانيين والسلجوقيين — كما سنبينه بعد — توطن منهم اناس كثيرون فى قطعة الاناطول والروم ايلى. فالاتراك المتوطنون فى انحاء بغداد وارضروم وفى بعض جهات آزربايجان وايران ، وفى بلاد القوقاس هم من صميم التركمان ، ولغتهم لا تختلف عن تركية الاناطول الا يسيراً . ولهم لهجة خاصة. وبناء على امتزاج هؤلاء القوم واختلاطهم بغيرهم من الاقوام فى بلاد العجم والمملكة العثمانية ، سواحل بحر الخزر ، تبدلت سحنائهم وفقدوا اكثر السمات والشعائر التورانية . [*]

٤ — الحكومة العثمانية والتركمان

سبق ان قلنا ان التركمان لهم اليد البيضاء فى تأسيس الحكومات القوية ، وان الحكومة العثمانية لهى انطق برهان لتأييد هذا الادعاء.

من المعلوم ، لما اكتسح جنكيز خان ذاك الصرصر الاسيوى حكومة «خوارزم» التى كانت سداً محكماً لرد طغيان المغوليين اضطر سليمان شاه ابن «قياآلپ» المنسوب لاسرة «قالى من الاغوزيين الى ان يغادر ربوعه فى خراسان قرب بلدة «ماهان». وتوجه مع خمسين الفاً من عشيرته الى ديار الارمن حيث خيم فى جوار ازربايجان ، والاخلاط ٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م .

ولنذكر هنا على سبيل الاستطراد ان عشيرة سليمان شاه لم تكن من آل خوارزم[**] لان بلاد خوارزم التى يحدها نهر جيحون من الشرق وبحر الخزر من الغرب ، وخرستان من الجنوب وديار التركمان من الشمال هى قطعة ضيقة طويلة مأهولة بسكان مختلفى الجنسية يفترقون عما يجاورهم من الاقوام باخلاق وطباع مختصة بهم وبلغتهم المركبة من التركية والفارسية . وعليه يجب اعتبار قبيلة سليمان شاه من التركمان — كما ذكر فى جهان نما لمؤلفه نشرى — هذا وان يكن الخوارزميون من التركمان كما جاء فى هذا مر ، ولكن لا يكون هذا سبباً لاعتبار جميع القوم من تلك القبيلة . وعليه فان نسبة الخوارزميين للتركمان واعتبار قبيلة سليمان شاه خوارزمية لا يكون صحيحاً . توفى جنكيز خان بعد ان اقام سليمان شاه فى الاخلاط سبع سنين . وتمزق شمل الخوارزميين بعد ان غلبوا من قبل علاء الدين

---

[*] قاموس الاعلام . لشمس الدين سامى .

[**] مترجم هامر ج ١ ص ٧٥

السلجوقى سلطان قونية ، ولذلك آثر سليمان شاه ان يرجع بعشيرته الى وطنه فمشى يتبع ساحل الفرات وعشيرته معه الى ان قدموا قلعة جعبر ، فاقتحم سليمان النهر بفرسه ليقطعه امام عشيرته ولم يلبث ان سقط فيه وغرق . وكانت وفاته سبباً لانحلال العشيرة التى كانت مجتمعة تحت كلمته . وبقيت منهم الى اليوم بقية تسمى بتركمان سورية وتركمان الروم [*]

كان لسليمان شاه اربعة اولاد : سنغور — تكين ، كون طوغدى . دوندار وارطغرل اما الاول والثانى فقد عادا الى خراسان . والاثنين الاخيرين ذهبا ومعهما اربع مائة من العائلات الى الجانب الشرقى ونزلا اغوار « سورمه‌لى » الفسيحة المسورة بالجبال الشامخة التى تلمس آفاق ارضروم . وتوجهت شرذمة منهم الى سهول باسين وتوطنت فيها . ثم ما زال ارطغرل واخوه دوندار يرتادان المواطن حتى ساقهما الحظ الى علاء الدين السلجوقى فاقطعهما ارضاً اسس فيها السلطان عثمان ابن ارطغرل بك الحكومة العثمانية — على النسق المعلوم — وذلك بعد انقراض الحكومة السلجوقية » ٦٩٩ هـ — ١٢٩٩ م . وبه يكون مؤسسو الحكومة العثمانية هم من التركمان الاوغوزيون ايضاً

٥ . التركمان فى آسيا الصغرى

تأسست الحكومة العثمانية كما قدمنا على انقاض الحكومة السلجوقية . وكانت قطعة الاناطول حينئذٍ مأهولةً بكثير من عشائر التركمان ؛ كما ان الحدود الشرقية ايضاً كانت بتمامها تحت سيطرة هذه العشائر . وبعض هذه العشائر ولاسيما الحكومات الصغيرة والامارات « بكلك » التى اسست من قبلهم . لم تنقطع عن معاكسة العثمانيين ، وارهقتهم العسر الامر . فمنهم القرمانيون الذين جاهروا بالثورة فى زمن السلطان مراد خداوندكار وجمعوا تحت رايتهم كثيراً من سفلة التركمان والتاتار وضموا اليهم عشائر ارساق وطورغود وبايبورد ، واشغلوا الحكومة زمناً طويلاً [**] وفى زمن السلطان مراد الثانى خرج اربعة اخوة من تركمان قيزيل خواجه وعاثوا فى انحاء آماسيه وتوقات بعد ان استحوذوا عليها . وتطاولوا الى سبى النساء وسلب السابلة ونهب القرى واوغلوا فى الفساد . وندب يوركج باشا لكبح جماحهم واستئصال شأفتهم فارسل لهم كتاباً وعدهم فيه بانه يقطعهم اراضى اورتوق آباد ، اذا رضوا بان يساعدوه على عشيرة « اولاد آلپ آرسلان » الذين تسلطوا على سواحل جانيك واستولوا عليها — وقد تيسر لخضر بك ابن يوركج باشا القاء القبض على اكثرهم فجلبهم الى آماسيا حيث زجهم فى السجن ثم عقد الابواب عليهم بالحجارة .

---

[*] مترجم هامر ج ١ ص ٨٩

[**] مترجم هامر ج ١ ص ٢٣٩

واضرم النار حول ذلك السجن فاهلكهم خنقاً . ثم اعاد الكرة بالهجوم على بقية عشائر جورزم فمزق شملهم واستولى على خزائنهم ؛ والجأهم الى الفرار ، والانجلاء عن الملك العثماني . فلاذوا بتركمان منتشا فى بلاد امراء «ذى القدر» و«آق قويوق» . وبعد مدة وجيزة سخر يوركيج باشا حصن جانيك ، الذى هو لحسين بك رئيس عشيرة اولاد «آلب آرسلان» التركمانية «٨٣١ هـ — ١٤٢٧ م» .

* * *

اما الحكومات والامارات التى اسسها التركمان فى الاناطول ، فاننا نذكر منها اسرة «ذى القدرية» و«رمضان اوغللرى» وحكومات «آق قويونلى» و«قره‌قويونلى» .

٦ . اسرة ذى القدريه

ان هذه الامارة اسسها «زين الدين قره‌جه ذو القدر» التركمانى فى اراضى قادوقيا القديمة التى تسميها اليوم بلواء مرعش (*) وزين الدين هذا مؤسس تلك الاسرة ، فتح بلدة مرعش والبستان سنة [٧٨٠ هـ — ١٣٧٩ م] وشيد دعائم امارته . ثم ان اخلافه استولوا على بلدة خربوط وبهسنى وملاطية ووسعوا ملكهم بها .وقد اثبت هامر فى جدول انسابه عشرة امراء لهذه الاسرة ، وعددهم على الوجه الآتى :

١ — [زين الدين قره‌جه ذو القدر [٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م] هو مؤسس هذه الامارة .

٢ — ابنه [خليل بك] قتله التركمان سنة ٧٨٨ هـ — ١٣٨٦ م

٣ — سولى بك [هو اخ لخليل بك] قتله باطنى من المصريين بايعاز من برقوق سلطان مصر سنة [٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م]

٤ — ناصر الدين محمد بن خليل بك . توفى فى الثمانين من عمره سنة «٨٤٦ هـ — ١٤٣٩ م» .

٥ — سليمان بك ابن ناصر الدين . وقد زوج اخته «ستى سلطان» من «السلطان محمد الثانى» وتوفى سنة «٨٥٨ هـ — ١٤٥١ م»

٦ — آرسلان بك .

٧ — شهسوار بك و٨ — بوداق بك و٩ — علاء الدولة بك وهؤلاء تتابعوا وراء بعضهم بالامارة .

(*) مترجم هامر ج٢ ص١٨٦

١٠ — شهسوار زاده على بك ، وهو الذى ختمت فيه تلك الاسرة بعد ان دامت مأة وعشرين سنة قمرية . اما سبب انقراضها فهو : [*]

حنق السلطان سليم ياوز على امير ذى القدرية بسبب مسئلة مصر وعزم على الايقاع به ؛ فرجع الى سيواس بعد ما سخر كماخ فى ثمانية ايام « ١٣ ربيع الاخر ٩٢١ » . وارسل من هناك وزيره الاعظم سنان باشا ومعه شهسوار زاده على بك ورفقهما بعشرة آلاف يكيجرى . وسلطهم على « علاء الدولة » . فوصل سنان باشا الى البستان وعسكر على ضفاف « اينجه صو » وكان علاء الدولة فى تلك الاونة فى محل اوردكلى . فما كان منه الا ان سارع بنقل نسائه وخزائنه الى شواهق جبل طورنه ؛ وعمد الى مضايق الجبل فاستولى عليهما مع من معه من التركمان . اما سنان باشا فانه قطع سهول كوكصو . وزحف الى ذيل جبل طورنه الذى تحصن فيه امير ذى القدرية . وهناك اضطره الى قبول الحرب .

ولم يطل الامر الا وقتل علاء الدولة ، ونصب على بك شهسوار والياً على بلاده . وبه ختمت انفاس تلك الاسرة « ٩٢١ هـ — ١٥١٥ م » .

٧ — آل رمضان

اسس آل رمضان حكومتهم فوق شواهق جبال طوروس الكائنة بين آسيا الصغرى وسورية ؛ ودامت مقدار مأتى سنة اى من « ٧٨٠ هـ — ١٣٧٨ م » الى « ٩٧٠ هـ — ١٥٦٢ م » وكيفية تكون هذه الاسرة كان على الوجه الآتى : [**]

لما قضى سليمان شاه جد السلطان عثمان الذى اسس الحكومة العثمانية غرقاً فى جوار « حصن جعبر » . ذهب اولاده الى ناحية الشمال وذهب سبعة من رفقائه مع عائلاتهم وكلهم من قبيلة اوجوق « اوچ اوق » الى « چقور اووه » وتوطنوا فيه . وهؤلاء هم « بور كر » ، « قوسون » ، « وارساق » ، « قره عيسى » ، « اوزر » ، « كوندوز » ، « قيش تيمور » . فترأس عليهم بور كر . ونال المذكور من الارمن المتوطنين هناك حق رعى ماشيته فى انحاء آطنه ومسيس وطرسوس . ثم انتقل هذا الحق منه لابنه رمضان . وخصص رمضان جبل « آسارلق » مشتى لقوسون وجبل « كولك » مصطافاً .

وكانوا يرعون ماشيتهم تارة فى السهول وأخرى فى الذرى . فكان « قيش تيمور » يصيف فى طرسوس ويشتى فى جبل « بلغار » و « كوندوز » فى سهول مصيص وفى جبالها اما رمضان ففى اغوار اطنه ونجودها . وبهذا كانت جميع السهول فى قبضتهم . ولم

---

[*] مترجم ها مىرج ٤ ص ١٤٨
[**] ايضاً ، ج ٤ ص ١٣

يكن لديهم قدرة تمكنهم من اجلاء الارمن من القصبات والبلاد . وبعد خمسين سنة عزم « داود » من آل « اوزر » على تحقيق تلك الامانى ، فاستعان بالشيخ احمد سلطان مصر . فلباه وارسل له الجنود ، فسخروا تلك الاصقاع باسم السلطان . ولم يكن حظ داود منها الا عنوان الامارة ، وكان عمل داود منشطاً لبنى عمه على الاقتداء به .

ثم ترك اولاد « كوندوز » قلعة آياس لعساكر السلطان ، وذهبوا الى مصر، ولم يلبث ابراهيم بن رمضان ان استنجد بالمصريين ، وساعدهم على امتلاك آطنه وسيس . وضبطت طرسوس ايضاً بمعونة احد اولاد قيش تيمور . وبهذه الكيفية تمكن الشيخ احمد من امتلاك ستة قلاع من احصن ديار الارمن « كلكيا » ، دون ان يتكبد حرباً تستحق الذكر . وهذه القلاع هى : قلعة اياس ، كولهك ، سيس ، مصيص ، آطنه ، طرسوس . ثم مد يده الى عدة حصون هناك فاستولى عليها وجعلها مراكز دفاع عن ثغور سورية .

وبهذا تمكن آل رمضان من احراز عنوان الامارة فى تلك الانحاء ، ودام سلطانهم فيها مدة تقرب من قرنين وحكم منهم ثمانية امراء لم يذكر منهم « هزارفن » الا اربعة :

١ — احمد بن رمضان ، تأمر فى انحاء اطنه وسيس وآياس وبياس . ٢ — ابنه ابراهيم بك . ٣ — ثم خلفه فى الامارة محمود بك ، وهذا الامير اطاع السلطان بايزيد ، ورافق السلطان سليم فى سفره الى مصر ، وتوفى وهو معه . ٤ — پيرى بك ابن خليل بك وهو آخر امراء آل رمضان . وقد اندرست هذه السلالة فى تاريخ « ٩٧٠ هـ — ١٥٦٢ م » كما بينا آنفاً ولهم بقية مبعثرة فى انحاء حلب وآطنه وبلاد الاناطول تكونت منهم عشائر مختلفة الاسماء كعشيرة « پهلوان اوغللرى» و« بيات » و« قاچار » و« رجب اوغللرى» و« كوچكلى » و« عبالى » و« اوردكلى » . [*]

٨ . حكومات « قره قويونلى » و « آق قويونلى »

ان « قره قويونلى» و« آق قويونلى» [**] اسمان لعشيرتين من التركمان ، غادرا السهول التى كانوا فيها ، وتحولا من الشرق الى الغرب حيث توطنت احداهما — آق قويونلى — فى « قبادوقيا » ، والثانية — قره قويونلى — « بين النهرين » . وذلك فى القرن الثامن للهجرة واواخر القرن الرابع عشر للميلاد فى زمن آرغون ملك المغول المنسوب الى جنكيز خان . وبعد مرور قرن ، اى بعد ان بادت حكومة المغول الايرانية بمدة طويلة ، استطاع هاتان العشيرتان لاول مرة تأسيس حكومتين، الواحدة جنوبية فى بلاد ديار بكر ، والثانية شمالية

---

[*] نقلاً عن جهانما ص ٥٩٣ ، مترجم هامر ج ٤ تذييلات ص ٣١٦ .
[**] راجع (Bibliothèque. Or. d'Herbelot)

فى بلاد سيواس.

فسلالة قره قويونلى، لم يكن لهما الا اربعة سلاطين فى ظرف (٩٧) سنة. وتأسست هذه الحكومة سنة «٧٧٧ هـ — ١٣٧٥ م» من قبل «قره يوسف» ابن «قره محمد التركمانى» وجاء فى تاج التواريخ ان هذه الحكومة دامت الى سنة «٨٧٤ هـ — ١٤٦٩ م». اما هامر فقد ذكر منهم اربعة، وعدد لهم فى جدول انسابه اثنى عشر اميراً فى العراق وآذربايجان وهم على ما يأتى:

١ — قره محمد. ٢ — قره يوسف بن قره محمد. ٣ — الامير اسكندر بن قره يوسف. ٤ — جهانشاه ميرزا بن قره يوسف. ٥ — الامير پيربوداق بن قره يوسف. ٦ — الامير ابو السعود بن قره يوسف. ٧ — الامير شاه محمد بن قره يوسف. ٨ — الامير آسيان بن قره يوسف. ٩ — پيربوداق بن جهانشاه ميرزا. ١٠ — حسن على بن جهانشاه ميرزا. ١١ — محمد ميرزا بن جهانشاه. ١٢ — ابو يوسف ميرزا بن جهانشاه.

*
* *

اما حكومة «آق قويونلى» فقد اسسها «قره يولوق» او «قره سلوك» سنة «٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م» وهذه الحكومة تعرف بالبايندرية ايضاً. ومن هذه الاسرة «حسن الطويل» الذى كانت له حروب طاحنة مع العثمانيين. ودامت هذه الحكومة تسع وتسعين سنة ثم درست سنة «٩٠٨ هـ — ١٥٠٢ م» كما جاء فى تاج التواريخ. اما هامر فانه ذكر منهم تسعة امراء، وابلغ عددهم فى جدول انسابه الى اثنى عشر وها هى اسماؤهم:

١ — قره يولوق «قره سلوك»	وفاته «٨٣٩ هـ — ١٤٣٥ م»
٢ — حمزه بك بن قره يولوق	« «٨٤٨ هـ — ١٤٤٤ م»
٣ — جهانكير بن على بن قره يولوق	« «٨٧٢ هـ — ١٤٦٧ م»
٤ — اوزون حسن بن على بن قره يولوق	« «٨٨٣ هـ — ١٤٧٨ م»
٥ — خليل بن اوزون حسن	« «٨٨٤ هـ — ١٤٧٩ م»
٦ — يعقوب بن اوزون حسن	وفاته: «٨٩٦ هـ — ١٤٩٠ م»
٧ — بايسونغور بن يعقوب	« «٨٩٨ هـ — ١٤٩٢ م»
٨ — رستم بن محمود بن اوزون حسن	« «٩٠٢ هـ — ١٤٩٦ م»
٩ — احمد بن اوغورلى بن اوزون حسن	« «٩٠٣ هـ — ١٤٩٧ م»
١٠ — محمد بن يوسف	
١١ — الوند بن يوسف	« «٩١٠ هـ — ١٥٠٤ م»
١٢ — مراد بن يعقوب	« «٩١٤ هـ — ١٥٠٨ م»

وبهذا نكون انهينا البحث عن حكومات التركمان فى حوالى بحر الخزر، وآسيا الصغرى وعرفنا كيانهم . ولهذه العشائر بقية متفرقة نراها الان منتشرة فى ساحة فسيحة تمتد من سهول التركمان فى الشرق الى آذربايجان وارزنجان والاناطول وبلاد سورية .

[٥] — **تركمان بيروت** — يمكن تفريق التركمان الموجودين فى ولاية بيروت لاربع مناطق :

١ — تركمان قضاء عكار فى لواء طرابلس الشام
٢ — « « حصن الأكراد « «
٣ — تركمان ناحية حذور « «
٤ — تركمان نواحى خزينه وباير، وبوجاق فى لواء اللاذقية

وها نحن نبين القرى التى يسكنها هؤلاء القوم ونذكر عدد نفوسهم ايضاً [*]

١ — تركمان عكار : يسكن التركمان الموجودون فى عكار، قرى (١) كواشره و(٢) عيدمون و (٣) الجديده و (٤) الدوسه، الكائنة فى الشرق الشمالى من القضاء فوق الجبال الوعثة . ويوجد منهم فى كواشره « ٣٠٠ » وفى عيدمون « ١٥٠ » وفى الجديده « ١٠٠ » وفى الدوسة « ٥٠ » فيكون مجموعهم « ٦٠٠ » نسمة .

٢ — تركمان حصن الاكراد : هم فى الجهة الغربية من هذا القضاء ، ويسكنون فى قرى « زاره » و « حكيه » و « حصرجية » اللاتى يتراوح عدد نسماتها بين « ١٠٠ » و « ١٥٠ » . وان مجموع عددهم « ٤٠٠ — ٥٠٠ » نسمة .

٣ — تركمان حذور : يسكن التركمان فى هذه الناحية اربع قرى مبعثرة فى جهات تلك الناحية بين قرى الاروام والمارونيين والنصيرية . وهذه القرى هى «١» بساتين و«٢» بيت ارسلان و«٣» متراس و«٤» عين دابش . ويوجد فى قرية بساتين «١٠٠» وفى بيت ارسلان «٢٥٠» وفى متراس «٢٥٠» وفى عين دابش «٣٠٠» فيكون مجموعهم فى هذه الناحية «٩٠٠» نسمة .

٤ — تركمان اللاذقية : يمكن تفريقهم الى ثلاثة اقسام . فالقسم الاول تركمان ناحية الخزينة التابعة للواء اللاذقية . ويسكنون منها انحاء «١» برج الاسلام و«٢» الصليب . ونفوس كل واحدة منهما تتراوح بين « ١٠٠٠ — ١٥٠٠ » . ويكون المجموع قريباً من «٣٠٠٠» نسمة

والقسم الثانى ؛ تركمان ناحية « باير » التابعة للاذقية ايضاً . ويسكنون فى قصبة

(*) اننا سنبحث عن احوال تركمان ولاية بيروت الاجتماعية والروحية والادبية . اثناء البحث عن عكار وحصن الاكراد وحذور واللاذقية

« كبليه » مركز الناحية ، وما عداها فى قرى « كبره ، شرهن ، جوقورجاق ، قوجوق و كه بير ، قاراجغز ، شمروران ، آقجه باير ، قلابه ، آره نلك ، مصيبن ، قاپاقليه ،حزبة ثولاث ، والى ، قيزيل جورة عبود ، قيزيل جورة ازهرى ، ياماديه ، قيزيل » . وعدد نفوس كل واحدة من تلك القرى يتراوح بين «٢٠» و « ٤٠٠—٥٠٠ » ، فيكون المجموع على التخمين مقدار ثلاثة او اربعة الاف نسمة من التركمان ، ولهذا تكون هذه الناحية تركمانية محضة . والعرب لا يشغلون هناك الا قليلاً من القرى .

والقسم الثالث ؛ تركمان ناحية « البسيطة » او « بوجاق » من اعمال اللاذقية ايضاً وهم ساكنون فى قصبة « كشيش » مركز الناحية وما عداها فى قرى « بدروسيه ،فاقى حسن ، عيسى بكلى ، طورنجه ، بوزاوغلان ، كسلهجك ، زيتونجق ، سراى ، زاغرين شقروران ، الماليه ،مران » ، ويتراوح عدد نفوس كل واحده من هذه القرى بين «٢٠» و« ٤٠٠—٥٠٠ » . فيكون مجموع نفوس التركمان هناك قريباً من اربعة آلاف نسمة . والقرى التى يسكنها العرب هنا قليلة ايضاً ، فاذا اجملنا هذه التفصيلات نعلم ان مقدار التركمان فى ولاية بيروت يقرب من «١٥٠٠٠» نسمة .

[٥] — **منشأ تركمان بيروت ، وابداء رأى** — يجب علينا قبل انهاء هذا الفصل ان نبحث عن منشأ التركمان المبثوثين فى عدة انحاء من ولاية بيروت ، الذين لا يقل مقدارهم عن ١٥٠٠٠ نسمة ، وتحرى زمان ورودهم الى بيروت ، وبالاحرى الى بلاد سورية وكيفية تمكنهم فى هذه البلاد .

اولاً — ان التركمان انفسهم لا علم لهم بزمان مغادرتهم لسهول التركمان ، او لديار تركستان ، ومهاجرتهم لهذه البلاد ؛ ولا بكيفية تلك المهاجرة ولا غايتها ، حتى ولا بكيفية انتقالهم من بلاد الاناطول بعد ان مكثوا فيها برهة من الزمن الى بلاد سورية .

ثانيا — لم يتيسر لنا الحصول على حجة تاريخية ، او دليل يهدينا الى كشف الحقيقة ، رغماً عن بحثنا وتنقيبنا الذى عالجناه فى قرى التركمان ومحلاتهم .

ثالثا ؛ لم نكد نظفر فى الكتب التاريخية التى تبحث عن الترك والتركمان ، او سورية والاناطول الا بالنذر من المعلومات التى تطرق هذا الموضوع . وعليه لا تخلو آراؤنا التى سنبديها فى شأن منشأ التركمان البيروتيين من نقاط تحتاج الى حجج وبراهين مؤيدة .ولهذا آثرنا هنا ان نستند على ما سمعناه من التركمان انفسهم ، وعلى ما رأيناه فى بعض المؤلفات ومن جهة اخرى على آراء بعض المتجولين فى آسيا الصغرى ورواياتهم ، ونسعى ماستطعنا لايضاح هذه النقاط والتقرب من الحقيقة ان لم يمكن ادراكها بذاتها .

وها نحن نشرع بعد هذه المقدمة الوجيزة بنقل كلامهم وآرائهم بهذا الخصوص :

يقول تركمان عكار : انهم اتوا الى هذه البلاد من انحاء جولان وسوريه فى قضاء القنيطرة من اعمال الشام . وذلك قبل « ١٠٠ — ١٥٠ » سنة وان بعض اقاربهم يسكنون الآن فى انحاء حمص . وان شجرة نسبهم لاتزال محفوظة عندهم . وهذه الرواية ، وان كانت تدل على ان لتركمان عكار اتصال بتركمان سورية ولكنها لاتزيل الابهام والغموض عن وجه الارومة الاساسية .

اما اقوال تركمان حصن الاكراد ، وآراؤهم فى هذه المسئلة ، كادت ان تكون عين اقوال تركمان عكار ، وهى على عين الدرجة من الابهام ، وعدم الوضوح .

اما تركمان حذور فأن اقوالهم شتى ، ومتضاربة . فبعضهم يقول انهم جاؤا مهاجرين من جهات آطنه ، قبل « ٣٠٠ — ٤٠٠ » سنة . وبعضهم يدعى انتماء العشيرة الى قبيلة « قايى » . وهذه الاقوال المتضاربة تذهب بنا الى الحكم بأحد امرين . ١ — ان هؤلاء من الذين هاجروا مع سليمان شاه ، ولكنهم لم يعرجوا على بلاد الاناطول ٢. — انهم بعد ان اقاموا فى بلاد الاناطول ، او فى جهات آطنه ، هاجروا لهذه الديار . واننا سنبين رأينا على ترجيح احدى هاتين الفكرتين فى الابحاث الآتية .

واما تركمان خزينة وباير . وبوجاق ، فأن اقوالهم متضاربة ايضاً اذ منهم من يقول انهم اتو من توقات ، وآطنـه فى بلاد الاناطول ، وذلك فى زمن يجهلونه . ومنهم من يدعى بأنهم اتوا من بلاد ارضروم ، وكماخ . وبعضهم يقول ان السلطان سليم جلبهم ، واسكنهم فى انحاء لبنان ولبنان الشرقى ، وفى جوار جبل الاقرع . والبعض يدعى ان فرهاد باشـا ، جاء بهم ، واسكنهم هنا فى زمان السلطان سليمان وذلك بعد حادثة « جانبرد غزالى » وليس لهذه الاقوال المتنوعة من حجة تاريخية يؤخذ بها ، ولهذا نضطر لان نمزجها مع المعلوم من الاساسات التاريخية ، لنتمكن من استنباط الحقيقة .

١ — يجب ان يكون قدوم تركمان سورية . وبالاخص تركمان بيروت الى هـذه الديار قبل بضع قرون . وبرهاننا على هذا هو كثرة عددهم ، واتساع نطاق مواطنهم ، ومن جهة اخرى ابتعاد لغتهم ، ولهجتهم عن اصل اللغة التركمانية ، وقربها من اللغة التركيـة ، وامتزاجها بالكلمات العربية ، ولا سيما بالعربية العجمى . كل هذا مما يدلنا على انهم قدموا الى هذه الاصقاع قبل ثلاثة او اربعة قرون . ولا سيما اذا نظرنا الى مارواه هامر بأن « جانبرد غزالى » الذى خرج على السلطان سليمان . قد استصحب معه خمسة عشر الفاً من فرسان التركمان والمماليك ، وثمانية آلاف من الرماة ، وذلك لما خرج من الشـام متوجهاً لاستانبول فى تشرين الاول سنة ١٥٢٠ ميلادية الموافق لذى الحجة سنة ٩٢٦ هجرية .

نعلم ان التركمان كانوا موجودين هنا فى ذلك الزمن ايضاً .

٢ — اما قبل هذا التاريخ ، فقد كانت اسرة « آل رمضان » دارسة ، وممزقة وتبعثر

اتباعها من التركمان فى انحاء حلب — كما بينا آنفاً — والان يوجد منهم جم غفير فى ناحية (اوردو) من قضاء جسر الشغور التابعة لولاية حلب . وبما ان ناحية اوردو متاخمة الى نواحى باير وبوجاق يحتمل ان يكون سكانها من احفاد آل رمضان ايضاً ؛ وانهم جاؤوا من بلاد آطنه .

٣ — وقبل هذا التاريخ — كما بينا سالفاً — يذكر هامر انه قد تشتت شمل عشيرة قايى لما سقط سليمان شاه فى نهر الفرات اثناء هجرتهم الى بلاد الاناطول ، وتبعثر افرادها فى انحاء متعددة ، وفى سورية ايضاً . ولهذا يحتمل ان يكون تركمان هذه البلاد من اخلاف قبيلة (قايى) .

***

لقد بحثنا عن هذه المسألة بصورة خصوصية ، واستطلعنا فيها آراء بعض المتجولين فى سورية والاناطول ، وانحاء ارضروم وها نحن نذكر هنا ما اطلعنا عليه من تلك المعلومات الشفاهية .

يجب — على رأيهم — تقسيم تركمان سورية الى قسمين كبيرين فيشمل القسم الاول تركمان باير ، بوجاق ، خزينه اردو ، والقسم الثانى تركمان حمص ، حما ، حصن الاكراد ، عكار ، حوران . فاذا قابلنا بين تركمان بوجاق وخزينه وباير وبين تركمان الاناطول ، نجد فيهم مشابهة تامة لتركمان ارضروم وارزنجان .

اما تركمان حذور ، عكار ، حمص ، حوران الخ فهم يشبهون تركمان (افشار) الموجودين فى الاناطول ، والذين ينوف عددهم عن عشرات الالوف . نعم اننا نجد النساء واهل القرى من التركمان المتوطنة فى بلاد ارزنجان ، اكين وكماخ كادت تكون كالقريبين والنساء فى باير وبوجاق لاسيما المماثلة فى اللهجة الكلامية فهى على جانب عظيم . وهذه اللهجة لا تبعد عن اللهجة العثمانية .

ويقول مخاطبنا علاوة على ذلك :

« ان السلطان سليم استجاب من اكناف خراسان مقدار « ٨٠ — ٩٠ » الف عائلة ، اى « ٥٠٠ — ٦٠٠ » الفاً من التركمان واوطنهم ذرى جبال لبنان وحلب وسفوحها . ولكنهم ما زالوا يتناقصون حتى اصبحوا لا يزيدون عن خمسة عشر الف . هذا ولو سلمنا بان تركمان باير وبوجاق قد اتوا من خراسان ، لا بد ان نعترف بانهم لبثوا مدة فى انحاء ارزنجان . ويثبت هذا ما يرويه بعض امراء التركمان فى كماخ ، ان احد اجدادهم دعى واتباعه من قبل احد السلاطين ليحضر حرب حدثت فى بلاد العرب ، ثم لم يرجع منهم الا القليل ، وتوطن الباقى فى تلك البلاد وليس للكماخيين علم بمكانهم . وتركمان بوجاق وباير ايضاً يروون بالتواتر عن اجدادهم انهم من الكماخيين . فاذا قابلنا هاتين الروايتين ،

يلزمنا الحكم بان تركمان باير وبوجاق هم من تركمان ارزنجان . . . »

اما القسم الثانى ، اى تركمان حصن الاكراد وعكار وحذور فانهم يشبهون « الافشاريين » فى نضرة وجوههم ، وقوة اجسامهم وبما فى لغاتهم من الغموض وقربها من اللهجة التركمانية .

وقد جاء فى قاموس الاعلام عن قبيلة افشار :

« انها احدى قبائل الاتراك القدماء ، ويسكن منها قسم كبير فى انحاء العراق العجمى من بلاد ايران ، ولها فى جهات الاناطول بضعة فروع ، واحدهم فى لواء يوزغاد فى ولاية آنقره . » وخصص « اليزه رهقلوس — *Elisée Reclus* » احد متخصصى الجغرافية حين تكلمه عن لاناطول فى كتابه الشهير ، بحثاً ضافياً لقبائل آفشار . (*)

نعم ان مقدار الافشاريين الموجودين فى شمالى آطنه ، وبين سيواس وآطنه وحلب ، وفى قضاء العزيزية ، ولواء يوزغاد يناهز (١٠٠) الف من النسمات . وانهم اليوم من اهم العشائر التركمانية بالنظر لاحتفاظهم بخالص سجايا قومهم .

ولهم شغف عظيم بلغتهم . ونساؤهم على جانب عظيم من الحرية والاستقلال ، وهم من الاصالة والنجابة الروحية على ما يجعلهم قدوةً لغيرهم من عشائر التركمان .

فاذا لاحظنا ان تلك الشمائل موجودة فى تركمان حذور وعكار وجوارها ، وشاهدنا جمال نسائهم وبهائها ، يحصل لدينا غالب الظن بانهم من الافشاريين . وهم يتقاربون فى زى اللباس ايضاً . وعليه يمكن ان يكون الافشاريون تخطوا الى جهة سورية حين مهاجرتهم الى الاناطول .

هذا وننا نشكر لمن حبانا بهذه المعلومات صنيعهم ؛ ونعترف بان الآراء التى بيناها فى ايضاح منشأ تركمن بيروت لا تكفى لتنوير الصحائف التاريخية . بل يجب على المجهزين بالوسائط الكافية من ارباب العلم والاطلاع ان يتحفونا بما ينفذ الى كبد الحقيقة فى هذه المسئلة .

— ٧ —

الاديان والمذاهب

يمكن تفريق السكان فى القسم الشمالى من ولاية بيروت ، من حيث الدين الى (مسلمين ونصارى ويهود . فالمسلمون منهم (السنيون ، والاسماعيليون ، والنصيرية) . اما النصارى ففيهم « الكاثوليك ، والاورتودقسى ، والمارونيون ، والبروتستانت . . . الخ » . وبما اننا

(*) راجع قسم L'Asie Antérieur من كتاب Géographie universelle ص ٥٣٩

بحثنا عن هؤلاء الاقسام فى المجلد الاول ما عدا الاسماعيلية والنصيرية ؛ نصرف النظر عن تكرارها ، ونكتفى بالبحث عن هاتين الفرقتين الاسلاميتين .

١ — الاسماعيلية والاسماعيليون

يجب علينا فى البحث عن ظهور مذهب (الاسماعيليين) الذين عرفهم التاريخ منذ الف ومائتى سنة ، واحرزوا من قوة النفوذ الفكرى والسلطان الادبى ما جعل لهم مجالاً من غرب الشمال لافريقا الى اقصى حدود العجم الشرقية والتنقيب عن عوامل انتشاره وتفشيه ، إن نرجع بالنظر الى عصر الاسلام الذهبى ، ونضبط الخطوط الاساسية لما ارتسم تباعاً على صحائف التاريخ من « الفرق الاسلامية » التى نافت بعددها عن ستمائة . لانه لا يمكن العثور على الفروق الاصلية بين المذهب السنى المعروف ، وبين العقائد الاخر التى سنفيض فى تشريح ماهيتها ؛ الا فى معتقدات تلك الفرق التى ربما تنزع الى ما لا يتوقع من الغايات . وبهذا نتمكن من تحليل تلك الفروق وايضاحها . والا فان رابطة المذهب الاسماعيلى بالاعتقادات الاسلامية تنخفض لدرجة لا يكاد يحس بها .

ولهذا نضطر لان نبحث على سبيل الاجمال عن الفرق الاسلامية :

[١] — *الفرق الاسلامية* — ان القرآن العظيم هو اس الديانة الاسلامية . وقد نزل بلسان مبين على اقوام هم من الفصاحة فى الدرجة القصوى ، فلم يكن ليحدث اختلاف فى فهم معانيه واحكامه ؛ ومن جهة اخرى كانت الاحاديث النبوية تمزق ما يخالج الاذهان من الشكوك وتجلى غياهب الظنون الباطلة ، فاصبح سيد الكونين محاطاً بهالة من الوحدة الاسلامية امتن من البنيان المرصوص . ولم يكن هنالك داع لتشكل الفرق وتأسسها :

وكانت احكام الدين الاسلامى فى عصر النبوة سهلة التلقى لدرجة لم نر فيها تلك المعتقدات الخاصة التى خلقت الفرق الاسلامية فى الازمنة المتأخرة ، خالجت فكر احد من الصحابة الكرام ، ولم يحدث لديهم حادث يخل بالوحدة الاسلامية . وما سبق لهم تردد يستلزم السوآل عن نصوص القرآن الناطقة « بالصفات الازلية » — كما ذكر المقريزى — بل ان صفة « العلم ، والقدرة ، والحياة ، والارادة والسمع ، والبصر والكلام ... الخ » كانت مفهومة لدى جميعهم بحسب التعاليم القرآنية ، ولذلك لم يحدث بينهم اختلاف فى هذا الشان قط . والمناقشات التى اخذت تحدث منذ عصر النبوة الى خلافة على رضى الله عنه لم تكن الا اختلافات اجتهادية [*] ؛ ولم تتجاوز العشيرة بعددها فى مدة نصف قرن واكثرها كان يحسم فوراً . فمنها

(*) كتاب الملل والنحل — لابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى

١ — الاختلاف الحادث بسبب حديث النبى فى مرضه الاخير (ائتونى بدواة وقرطاس فاكتب لكم كتاباً لا تضلون من بعدى» [*] . ولم يلبث ان حسم فى الحال

٢ — ما كان من امر رسول الله (صلعم) بشان تجهيز جيش اسامه . وهذا الاختلاف لم يطل ايضاً بل حسم على الفور .

٣ — ما كان من هياج عمر رضى الله عنه عقب وفاة النبى (صلعم) حيث قال [من قال ان رسول الله (صلعم) مات علوته بسيفى هذا . . .] ، وهذه الحدة من عمر لم تلبث ان خمدت بقرائة ابى بكر رضى الله عنه آية (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ؟] .

٤ — الاختلاف فى تعيين موضع دفن النبى (صلعم) وقد حسم بهذا الحديث (الانبياء يدفنون حيث يموتون) .

٥ — الاختلاف فى مسئلة الامامة والخلافة . وقد حسم بما كان من البيعة لابى بكر رضى الله عنه . ومع ذلك لم يزل هذا الاختلاف آخذاً نصيبه من التأثير فى النفوس .

٦ — ارث النبى (صلعم) وقد حسم بالحديث الشريف الذى نصه (نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة)

٧ — الاختلاف بشأن (الزكاة) فى زمن ابى بكر ، ولم يدم كثيراً

٨ — الاختلاف الناشىء عن نصب ابى بكر لعمر خليفة من بعده ، وبعض اختلافات فى خلافة عمر بشأن الارث والحدود الشرعية ، وما لبثت ان حسمت على الفور .

٩ — الاختلاف الذى نشأ عن الآراء المتخالفة بشأن (الشورى) اثناء انتخاب عثمان رضى الله عنه للخلافة . وقد حسم ايضاً .

١٠ — آخر ما حدث من الاختلاف ، وأهمه ، كان فى ايام خلافة على رضى الله عنه وموضوعه كيفية انتخاب الخليفة وشرائط الاهلية فى الخلافة ، وهذه المسئلة اوجبت تكون كثير من الفرق الاسلامية . نعلم من هذا الايضاح الاجمالى ان اهم اختلاف حدث بين المسلمين هو مسئلة (الخلافة) .

ان مسئلة الخلافة اخذت بعد وفاة النبى (صلعم) دوراً مهماً ، وكانت من اهم المسائل الخلافية ، على انها لم تحدث فى زمن الخلفاء الثلاثة. وقد تكونت فرقة الخوارج فى زمن على (رضى الله عنه) ، واعقبها اتحاد المتحزبين له فاسسوا مذهب الشيعة . وكان موضوع هاتين الفرقتين هو على رضى الله عنه ، اذ كانت الاولى ترى وجوب قتاله ، والاخرى غايتها الدفاع عنه ، ولهذا السبب كانتا فى بادئ امرهما كفرقتين سياستين ، ولكن لم يطل

(*) روى هذا الحديث محمد ابن اسماعيل البخارى . منسوباً لعبدالله ابن عباس

الامر حتى انغمستا فى المسائل الدينية فاصبحت صبغتهما مزيجاً من الدين والسياسة . وما لبث بعض الشيعيين ان اغرقوا فى المسائل الدنية وبالغوا بالغلو فقالوا بحلول الالوهية فى على بن ابى طالب ، وانتقالها من بعده الى الخلفاء الذين هم من نسله . وان اكبر سائق لهذا الغلو فى الدين ؛ هو تأسيس قدرة دينية تقابل الوحدة الاسلامية ، وتكون حجاباً تدس المقاصد السياسية من ورائه . وما كان هذا الا بتسلط الروح الايرانية ، تلك العجوز الشمطاء . وما كادت شخصية على رضى الله عنه تدخل التاريخ ، الا وانعقدت حولها هالة من العقائد ، واخذت تربو ، وتتكاثف بتوالى الادوار ، وفى مدة ثلاثة قرون او اربعة ، نتجت بالعقائد المتباينة عند (الاسماعيليين ، والنصيرية ، والدروز) . ويمكننا ان نقول ؛ لا تنطوى القرون التاريخية على شخصية اضطربت لها الاسلامية كشخصية على رضى الله عنه):

ثم تأسس فى زمن الصحابة — غير الفرق التى ذكرناها — مذهب « القدرية » لمبدعيه (معبد الجهنى) ، (غيلان الدمشقى) ، (يونس الاسوارى)

وبعد عصر الصحابة اسس (جهم بن صفوان) مذهب (الجهمية) (وواصل بن عطاء) مذهب (المعتزلة) ، وتأسس مذهب (المشبهة) لقاء المعتزلة وبعد هذا مذهب (الباطنية).

ان الانهماك فى مطالعة الكتب الفلسفية التى ترجمت عن لغاة مختلفة فى زمن (المأمون) سابع خلفاء العباسيين فى القرن الثالث للهجرة ، ونتيجة الميل المفرط للاساطير القديمة. اوجدا الطرائق المتباينة . اشتدت وطأة (غلاة الشيعة) المعتقدين بالحلول والتناسخ وعلا امرهم فى زمن الدولة (الفاطمية) فى الغرب ، (وآل بويه) فى الشرق ، واحتدم الجدال بينهم وبين اهل السنة ، ثم مالبث ان استحال الى حرب طحون . واصبحت مآت من الفرق الاسلامية كالقدرية والجهمية والمعتزلة والخوارج والشيعة والباطنية . . . الخ تنفث فى البلاد الاسلامية سموم الاختلاف والعدوان . وزج بالاسلامية الى مهاوى البوار .

لا بأس ان نجمل هنا العوامل والمؤثرات الدينية التى ادت الى تكون هذه الفرق الاسلامية — بصرف النظر عن المطامح السياسية — .

يمكننا ان نحصر المسائل الاصولية التى كانت سبباً للاختلافات فى اربعة اسس . (*)

الاساس الاول — مسئلة الصفات والتوحيد . والاختلاف فى اثبات الصفات الازلية ، او نفيها ، ثم فى (صفات الذات) و(صفات الفعل) . وأى هذه الصفات واجبة لله ، او جائزة ، او مستحيلة . وهذا الاختلاف هو بين الاشعرية ، والكرامية والمشبهة ، والمعتزلة .

الاساس الثانى — مسئلة العدل والقدر . وهى عبارة عن اثبات ، او نفى القضاء

(*) الملل والنحل — للشهرستانى

والقـدر ، والخير والشر ، والمقدور والمعـلوم وهذا الاختلاف بين القدرية ، والجبريـة والاشعرية والكرامية .

الاساس الثالث — مسائل الوعد والوعيد والاسماء والاحكام : وقد اختلف هنا في اثبات ، او نفى الايمـان والتوبة والوعيد والارجاء والتكفير والتضليل . وهذا الاختـلاف كائن بين المرجئة والحرورية والمعتزلة والإشعرية .

الاساس الرابع — مسائل السمع والعقل ؛ والرسالة والامامة : والاختلاف هنـا فى خصوص التحسين فى النبوة والتقبيح ، والصلاح والاصلح واللطف والعصمة ، ثم فى شروط الامامة ، وكيفية انتقالها أبالنص ، او بالاجماع . وهذا الاختلاف هو بين الشيعة والخوارج ، والمعتزلة والكرامية والاشعرية .

ما لبث (علم الاصول والفروع) الذى اخذ يتأسس فى القرن الرابع للهجرة . ان تقرر على شكل قويم ، بهمة الائمة الاربعة اصحاب المذاهب وآخرين معهم . وبه عصمت عقـائد (اهل السنة والجماعة) من الخلل ، وعليه انحل اكثر الفرق المتغالية . وانحصر الاختلاف بين فرقتين عظيمتين « السنية » و « الشيعية » فى مسائل محدودة كالامامة والاجتهاد والتفسير . وانحصر غلاة الشيعة فى فرقة (الدروز) و (الاسماعيلية) و (النصيرية) . ومع هذا فان بذر الشقـاق الذى زرعته مئات من الفرق التى نوهنـا عنها آنفاً ما فتئ ان اثمر بالويـل والخراب ، واخذ بتلابيب الامة الاسلامية يجرها الى مهاوى السوء والانحطاط .

*
* *

لنتكلم بعد هـذه المقدمة المجملة ، على الفرق بصورة خصوصيـة . لا يستطاع قطعياً تعيين عدد الفرق الاسلامية باعتبار فروعها . ولذلك يتحتم علينا ان نرجعهـا الى اصول جامعة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ستفترق امتى على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة والباقون هلكى) .

فقيل من هى الناجية يا رسول الله فقال (اهل السنة والجماعة) وسئل عن اهل السنة والجماعة فقال :

« ما انا عليه اليوم واصحابى » .

ثم قال :

« لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الحق الى يوم القيامة » .

واننا نعتبر ان اول فرقة اسلامية هى فرقة (اهل السنة والجماعة . اما ما بقى من الثلاث وسبعين فرقـة فالبعض يرجعهم الى اربع (القدرية ، والصفاتية ، الخوارج ، والشيعـة) . والبعض يعتـبرهم عشرة : (المعتزلة والمشبهة والقـدرية والجبرية والمرجئة والحروريـة

والنجارية والجهمية والخوارج والشيعة). واننا سنأخذ فى بحثنا هذا بالتصنيف الثانى، ونعتبر الفرق المذكورة عشرة اصول. وان لبعض هؤلاء معتقداً يقارب معتقد (السنيين) فى بعض نقاطه، ويخالف الاسس الاسلامية عن بكرتها فى نقاط اخرى، وها نحن نفصل تلك الفرق على الوجه الآتى :

١ — المعتزلة

اشتهر منتسوبو هذه الفرقة باسم (اصحاب العدل والتوحيد) ايضاً وانهم يقولون بنفى الصفات والتشبيه ورؤية البارى. ويعتقدون بان القرآن مخلوق؛ وان العبد هو خالق فعله، وانه لا يجوز اسناد الشر والظلم الى الله، وان الحكيم يعمل الصالح، وان المؤمن يستحق الثواب اذ مات عن توبة وطاعة. وان الكبيرة اذ لم تعقب بتوبة توجب الخلود فى النار، وانه تجب المعرفة والشكر على النعمة قبل ورود السمع، وان الحسن والقبح مدرك بالعقل، فيجب اعتناق الحسن واجتناب القبح... الخ. وقد اتفق جميع فرق المعتزله على هذه المسائل، ولكنهم افترقوا فى مسئلة الامامة

ان المعتزلة عشرين فرعاً. واننا نذكر هنا اسمائهم مع اسماء مؤسسيهم :

١ — الواصلية (واصل بن عطان حذيفة العزال) ٢ — (عمرويه) (عمرو) ٣ — الهزيليه (ابو هزيل محمد بن الهزيل العلاف) ٤ — النظامية (ابراهيم بن سيار النظام) ٥ — الاسوارية (ابو على عمر بن قائد الاسوارى) ٦ — الاسكافية (ابو جعفر محمد بن عبدالله الاسكافى) ٧ — الجعفرية (جعفر بن حرب بن ميسرة) ٨ — البشرية (بشر بن المعتمر) ٩ — المزدارية (ابو موسى عيسى المزدار بن صبيح) ١٠ — الهشامية (هشام بن عمر الفوطى) ١١ — الحائطية (احمد بن حائط ١٢ — الحمارية (هى شعبة من معتزلة عسكر مكرم) ١٣ — المعمرية (معمر بن عباد السلمى) ١٤ — التمامية (تمامه بن اشرس النميرى) ١٥ — الجاحظية (ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) ١٦ — الخياطية (ابو الحسين بن ابى عمرو الخياط) ١٧ — الكعبية (ابو القاسم عبدالله بن محمد بن محمود البلخى الكعبى) ١٨ — الجبائية (ابو على محمد بن عبد الوهاب الجبائى) ١٩ — البهشمية (ابو هاشم عبد السلام بن ابى على الجبائى) ٢٠ — الشيطانية (محمد بن نعمان المعروف بشيطان الطاق)

وللمعتزلة فروع اخرى ما عدا هذه الفروع التى عددناها وهى : التنوية، الكيسانية الناكتية، الاحمدية، الوهمية، البترية، الواسطية، الواردية، الحرقية، اللفظية :

وهى على مكانة عظيمة بين الفرق الاسلامية ونطاق تأثيرها واسع جداً. ولكننا اضربنا عن تفصيل طرائقها واحدة واحدة ذلك لان علاقتها مع «الاسماعيليين» الذين هم من غلاة الشيعة قليلة

٢ . المشبهة

ان هذه الفرقة تتغالى فى اثبات الصفات الآلهية على خلاف الشيعة ومنها من يبلغ به التفريط الى ان يصور للخالق تمثالاً . وتسمى هذه الفرقة « صفاتية » ايضاً. ولها فروع كثيرة نعدها مع اسماء مؤسسيها على الوجه الآتى :
١ — الهشامية او الحكمية (هشام بن الحكم) ٢ — الجولقية (هشام بن سالم الجوالقى) ٣ — البيانية (بيان بن سمعان) ٤ — المغيرية (المغيرة بن سعيد العجلى) ٥ — المنهالية (منهال بن ميمون) ٦ — الزرارية (زراره بن عين) ٧ — اليونسية (يونس بن عبد الرحمن العتمى) ٨ — الكرامية (محمد بن كرام السجستانى) . ولها احزاب غير هؤلاء كالسابية والشاكية ، والعملية والمستثنية ، والبدعية والبشرية والاثرية والهيضمية ، والاسحاقية والجندية .
وان بعض فروع هذه الفرقة ، هو فى عين الزمن فرع للشيعة ، ولذلك سنبحث عن عقائدهم بصورة خصوصية .

٣ . القدرية

تتغالى هذه الفرقة باثبات قدرة للعبد ، على الخلق والايجاد . ويقولون لا يحتاج العبد الى معونة الخالق . وبعض هؤلاء من المعتزلة .

٤ . الجبرية ، او المجبرة

وغلو هذه الفرقة هو فى نفى استطاعة العبد قبل الفعل وبعده ، ومع الفعل ، ومنهم من لم يقبل بكسب العبد واختياره . وتفترق هذه الفرقة الى ثلاثة احزاب . وها هى اسماؤهم واسماء مؤسسيهم :
١ — الجهمية (جهم بن صفوان الترمذى) وهذه الفرقة تقول بنفى الصفات الالهية ايضاً . ٢ — البكرية « بكر » . وهذا الرجل يحرم بعض المأكولات (كما هو عند النصيرية) . ٣ — الضرارية (ضرار بن عمرو) ولها فروع غير هؤلاء كالنجارية ، والبطيخية والصباحية والفكرية والخوفية .

٥ . المرجئه

ان ارباب هذه الفرقة يرجون من الله ثواباً لذوى المعاصى ، ويعتقدون ان المعصية مع وجود الايمان لا توجب معزةً ، وبالعكس ان الطاعة مع الكفر لا تجدى نفعاً . ويرجئون حكم ذوى الكبائر الى الآخرة ، وانهم لعلى غلو فى اثبات الوعد والرجاء ونفى الوعيد والخوف عن المؤمنين .

ينقسم هؤلا الى ثلاثة اقسام : القسم الاول — هو اعتقاد غيلان من بنى ضيفه ، وابو شمر . ويجمعان بين الرجا والقدر . والثانى — اعتقاد (جهم بن صفوان) وهو يجمع بين الارجا والجبر. والثالث — اعتقاد الارجا المحض . وله اربعة احزاب . ١— اليونسية (يونس بن عمرو) ٢ — الغسانية (غسان بن ابان الكوفى) ٣ — الثوبانيــة (ثوبان) ٤ — التؤمنية (ابو معاذ التؤمنى) . ولهم غير هؤلاء . المريسية ، والصالحية ، والجحدرية والزيادية والشبيبية والناقضية . ومن هؤلاء من يصل فى الغلو الى انكار نبوة عيسى عليــه السلام .

٦ . الحرورية

وتسمى با(لوعيدية) . وارباب هذه الفرقة تسلقوا جبل (حروراء) لقتــال على بن ابى طالب . وغلوهم فى اثبات الوعيد والخوف على المؤمنين.ويعتقدون بامكان الخلود فى النار مع تحقق الايمان ، ويفترقون عن المرجئةبالوعد والوعيد ،والنفى والاثبات.وباعتقادهم الشرك فى مقترفى الكبائر ويفترقون عن الخوارج الذين يعتقدون بكفرهم .

٧ . النجارية

وهؤلاء هم حزب (حسن بن عبد الله النجار) يتحدون مع اهل السنة فى مسـائل القضاء والقدر . والوعد والوعيد وامامة ابى بكر رضى الله عنه . ومع المعتزلة فى خلق القرآن . ونفى الصفات ورؤية البارى . والبرغوثية والزعفرانيــة والمستدركة هى من توابعها .

٨ . الجهميه

هم حزب (جهم بن صفوان) . ومن ذكرهم مع الفرقة (المجبرة) . وارباب هـذه الفرقة يتحدون فى مسئلة القضاء والقدر مع السنيين مع ميل قليل للجبر . ويعتقدون بخلق القرآن ، وينفون صفات البارى . ورؤية الله :

٩ . الخوارج

ويسمون با (لنواصب) . ويتغالون فى حب ابى بكر وعمر وبغض على رضى الله عنهم . ويفترقون الى عشرين فرقة كبيرة .

١ — الحكمية ؛ خرجوا على على رضى الله عنه فى حرب صفين ويعتقدون ان لا حكم للرجال . والحكم مختص بالله وحده . ٢ — الازارقة . وهم اتباع (نافع بن الازرق) . وخرجوا فى زمن عبد الله بن الزبير فى البصره . ٣ — النجدات . وهم اتباع (نجد بن

عويمر) وهذا خرج فى نجد واليمامة ثم ارسل (عطية بن الاسود) الى سجستان. وجاهر بمذهبه فى (مرو) . ٤ — الصفرية (زياد بن الاصفر) ٥ — العجاردة (عبد الكريم عجرد) ٦ — الميمونية (ميمون بن عمران) ٧ — الشيعية ٨ — الحمزية . وهم اتباع (حمزة بن ادرك الشامى) الذى خرج فى زمن خلافة الرشيد العباسى فى خراسان ٩ — الحازمية . ١٠ — فرقتا المعلومية والمجهولية ١١ — الصلتية (عثمان بن الصلت) ١٢ — الاحسنية ١٣ — المعبدية ١٤ — الشيبانية وهم اتباع (شيبان بن سلمة) الذى خرج فى زمن ابى مسلم الخرسانى . ١٥ — الشبيبية (شبيب بن يزيد بن ابى نعيم) الذى خرج فى زمن عبد الملك بن مروان ١٦ — الرشيدية ١٧ — المكرمية (ابن المكرم) ١٨ — الحفصية (حفص بن المقدم) . ١٩ — الاباضية (عبد الله بن اباض) الذى خرج فى زمن مروان ٢٠ — اليزيدية وهم اتباع (يزيد بن ابى انيسة) . ويعتقدون ان الله سيرسل رسولاً من بلاد العجم وينزل عليه كتاباً ينسخ فيه الشريعة المحمدية . وللخوارج اقسام اخرى ماعداهذه كالحارثية. والصومية والبهيسية. واليعقوبية والفضلية والشمراخية . والضحاكية .

١٠ · الشيعية

ان اشياع هذه الفرقة يحبون علياً بن ابى طالب محبة عظيمة . وسموا بهذا الاسم لأنهم اشياع لعلى .

ولما حصل التردد فى اسناد الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لابى بكر اوللعباس بن عبد المطلب ، او لعلى بن ابى طالب او لعثمان بن عفان ... الخ كانت هذه الفرقة تدعى بانها لعلى .

ويعتقدون ان الخلافة والامامة لعلى جلياً وخفياً ، معناً ووصايةً ولا تنفك بعده عن اولاده واذ انفكت فاما عن تقوى منهم واما عن ظلم من غيرهم [*] ولا تترك الامامة للرأى العمومى بل هى اساس يرتكز عليه ركن الدين ، ولا يسوغ للنبى عليه السلام اغفال او اهمال الامامة او تفويضها لاحد . والأئمة معصومون عن الكبائر والصغائر .

ان جميع الفرق الشيعية على اتفاق فى هذه المسئلة . ولكنهم اختلفوا فى مسئلة الامامة بعد على رضى الله عنه وافترقوا الى اكثر من ثلاثمائة حزب .

فبعضهم يقول ان الخلافة والامامة تعينت بالنص لعلى ، ومن بعده للحسن والحسين ، واما الذى بعدهم فيكون بالانتخاب ، والبعض يقول بانها محصورة فى على فقط . ومنهم من يقول انه نص على على بالوصف لا با « العين » و « الاسم » ، والآخر يقول بان النص

(*) كتاب الملل والنحل — الشهرستانى .

يخص الائمة الاثنى عشر الذين سيكون آخرهم « المهدى المنتظر »

على ان هؤلاء الذين قالوا بخلافة على واولاده وامامتهم لم يلبثوا ان اظهروا الغلو واخذوا يسبون بعض الصحابة ويشتمونهم ثم سرى اليهم من اساسات الرافضة اعتقاد « الغيبة والرجعة ، والبدأ والتناسخ والحلول والتشبيه » وكانت الفرقة التى تسمى (غلاة الشيعة) او (الغالية) ، ولم يقفوا عند هذا الحد ، بل اعتقد بعضهم بنبوة على ، وحتى بالوهيته . ولهذا تنقسم الشيعة اولاً باعتبار الامامة ، وثانياً باعتبار الغلو الى اربعة اقسام :

١ — الكيسانية ، يعتقدون بان الخلافة بعد على لمحمد بن الحنفية .

٢ — الزيدية ، يعتقدون بانها لزيد بن على .

٣ — الامامية ، يعتقدون بانها للحسن والحسين .

٤ — اما (غلاة الشيعة) فانهم معروفون بالغلو والمبالغة فى الامامة واشهرهم (الخطابية والسبائية والكاملية والبيانية والمغيرية والهشامية والزرارية والجناحية والمنصورية والغرابية والذمية واليونسية والرزامية والنعمانية والبسلمية والجعفرية والصباحية) وهم سبع عشر فرقة . ووجد فى الفرق الثلاث الاصلية ايضاً من اتبع الغلو . ولهذا يمكننا ان نعتبر عدد فرق الشيعة عشرين فرقة . وها نحن نذكر اسماء هذه الفرق مع اسماء مؤسسيهم على الوجه الآتى :

١ — الكيسانية :

هم اتباع (كيسان) مولى على بن ابى طالب ، وهم يقولون بان الخلافة لمحمد بن الحنفية بعد على ، ويختلفون فيمن بعده فقسم يقول بانها رجعت الى اولاد الحسن والحسين وقسم يقول بانتقالها لابى هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية . ومن هؤلاء فرقة (الكربية) التى تعتقد بان محمد بن الحنفية لا يزال حيا وهو الامام المنتظر .

٢ — الزيدية :

هم اشياع زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب . ويعتقدون بامامة زيد ويرضون بامامة من جمع فى نفسه هذه الستة شروط ، العلم والزهد والسخاء والشجاعة وجمال الطلعة ؛ وكان من اولاد فاطمة حسنياً او حسينياً ، ويتفق اشياع هذه الفرقة مع المعتزلة فى جميع المسائل ما عدا الامامة . ولهم اربعة اقسام :

١ — الجارودية ، هم اشياع (ابى الجارود) او (ابى النجم زياد بن المنذر العبدى) ويعتقدون ان صاحب الشريعة نص على امامة على بالوصف — لا بالتسمية — ويحكمون بكفر من امتنع عن البيعة لعلى والحسن والحسين .

٢ — الجريرية . وهم اتباع (سليم بن جرير) . ولا يعتقدون بكفر الناس الذين لم

يبايعوا علياً ، ولكنهم يقولون بأنهم مخطئون لتركهم الافضل وهو على ٣ — **الابترية** ، وهم اشياع (حسن بن صالح بن كثير الابتر) ويزعمون ان علياً هو الأفضل ، والاولى بالامامة . ومع ذلك فأن ابا بكر امام ، ولم تكن امامته خطأً ولا كفراً ، بل ان علياً تركها له . ٤ — اليعقوبية هم اتباع (يعقوب) ويقولون بأمامة ابى بكر وعمر ويتبرؤن من الذى يتبرأ منهما . وينكرون رجوع الاموات الى الدنيا قبل يوم القيامة ويتبرؤن ممن يأخذ بهذا الاعتقاد . وانهم يفضلون علياً على ابى بكر وعمر دون ان يتهمون احداً من الاصحاب بالفسق او الكفر ، ولا يطعنون فى احد منهم ولا يلعنون .

٣ — الامامية :

يعتقدون بأن الامامة بعد صاحب الشريعة منصوص عليها لعلى واولاده ، وبعضهم يقول بأرتداد الاصحاب الكرام ماعدا على والحسن والحسين ، وابى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى ، وبضعة اشخاص من الصحابة .

وهذه الفرقة تتفق على امامة الائمة من على الى (جعفر الصادق) اى [على بن ابى طالب ، حسن بن على ، على بن حسين، محمد بن على ، جعفر بن محمد الصادق]. ويختلفون فيمن بعدهم . لان لجعفر الصادق خمسة ، وعلى رواية ستة اولاد [*] . محمد ، اسحق عبد الله ، موسى ، اسماعيل ، على . واختلف فى من يجب ان تنتقل اليه الامامة بعد هؤلاء الستة . وبعضهم يعتقد بتوالى الامامة وتتابعها فى اشخاص معينة، ومنهم من يقطع السلسلة ويقف بها على حد . ولم يلبث ان طرأ عليهم الغلو وتفرقوا فرقاً كثيرة ؛ منها فرقة « القطعية » ، وهى تعتقد بتسلسل الامامة فى « على ، والحسن والحسين ، وعلى بن الحسين ومحمد بن على وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر ، وعلى بن موسى » ثم تنقطع السلسلة وتقف على هذا الحد .

(التاوسية) تعتقد بأن جعفر بن محمد لم يمت ، وهو لم يزل حياً .

(الشميطية) اتباع يحيي بن شميط الاحمس ، ويعتقدون ان الامامة انتقلت بعد جعفر لابنه محمد و اولاده .

(المعمرية) اتباع معمر ، يعتقدون ان الامامة انتقلت بعد جعفر لابنه عبد الله ومنه لاولاده .

(الموسوية) : يعتقدون ان الامامة كانت بعد جعفر لابنه موسى ، وان موسى لم يزل حياً ، وهو الامام المنتظر .

(الزرارية) اتباع زرارة بن اعين ، يذكرون ان الامامة بعد جعفر كانت لابنه عبدالله ،

---

[*] كتاب الملل والنحل ، للشهرستانى

وانه سؤل عن اسئلة فعي عن الجواب ، فكانت لاخيه موسى ، ويقولون ان عبـد الله اقر بذلك .

(المفضلية) : اتباع المفضل بن عمرو ؛ يعتقدون بأن الامامة كانت بعد جعفر لابنـه موسى ثم انتقلت بعد وفاته لابنه محمد بن موسى .

(المفوضة) ؛ يعتقدون بان الله خلق محمداً ، وفوضه خلق العالم وادارتهم .

(الاثنى عشرية) ، وهم يقولون بانتقال الامامة من جعفر الصادق الى موسى الكاظم ثم الى على بن موسى الرضا ، ثم الى محمد بن على النقى ، ثم الى على بن محمد النقى ، ثم الى الحسن بن على الزكى ، ثم الى محمد بن حسن العسكرى المعروف عندهم بالمهدى . ويعتقدون انه اختفى فمنهم من يقول بوفاته ومنهم من يعتقد خلافها ، وينتظرون رجوعه .

(الاسماعيلية) وهذه شعبة من الامامية . تعتقد بان الامامة بعد جعفر الصادق هى لابنه اسماعيل بن جعفر . وقد طرأ الغلو على معتقد هذه الفرقة . وخرجت عن شكلها الاساسى . واننا سنبين هذه النقاط على وجه التفصيل . ومن هذا نعلم ان الاسماعيلية هى من الامامية باعتبار الاصل . ثم انقلبت الى (غالية) ومن فروعها (المباركية) التى تعتقد بامامة محمد بن اسماعيل بعد ابيه و(الباطنية) وهم يقولون بانتقال الامامة بعـد محمد بن اسماعيل الى ائمة خافية وباطنية : فالاسماعيليون الذين هم من غلاة الشيعة هم هؤلاء [*]

٤ — الخطابية :

هم شيعة « ابى الخطاب محمد بن ابى زيب الاسدى الاجدع » ومذهبه الغلو فى محمد بن جعفر الصادق . وهو من المشبهة ايضاً . وتنقسم هذه الفرقة الى خمسين شعبة كلهم متفقو الرأى فى المواد الآتية :

« ان علياً واولاده من الائمة » كلهم انبياء . ويجب ان يكون لكل امة رسولان ، الواحد « ناطق » والآخر « صامت » . فمحمد كان رسولاً « ناطقاً » وعلى رسولاً « صامتاً » . وان جعفر بن محمد الصادق نبى ايضاً وانتقلت النبوة بعده الى « ابى الخطاب الاجدع »

اما فرقة « المعمرية » من الخطابية . تقول بان الامامة انتقلت من ابى الخطاب الى « معمر » . وان الدنيا ليست بفانية . وان الجنة هى التنعم بخير الدنيا . وجهنم هى الحرمان منه . ويستحلون من المحرمات الخمر والزنا . ويقولون بجواز ترك الصلاة . ويعتقدون التناسخ . ويزعمون ان الانسان لايموت . ولكن تنتقل صفاته واحواله الى غيره .

وفرقة « البزيغية » . تقول ان « جعفر بن محمد آله » . وهو على غير الشكل الذى يرى فيه . وهو تراءى بهذا الشكل . وان الوحى ينزل على كل مؤمن . وكل فرد من اتباع الفرقة

---

[*] ان الفرقة التى سنبحث عنها على وجه التفصيل هى هذه

هو خير من جبرائيل وميكائيل ومحمد ، ولا بد لمن مات ان يظهر »

ويدعى هؤلاء ان جعفر بن محمد الصادق ترك لهم كتاباً يسمى « الجفر » ، وانه يحتوى من « علم الغيب » و « تفسير القرآن » على جميع ما يحتاجون اليه .

ويذهبون الى ان المراد من كلمة « بقرة » فى آية « ان الله يأمركم ان تذبحوا بقرةً » هى عائشة ام المؤمنين ومعنى « الخمر والميسر » هو ابو بكر وعمر .

٥ — السبائية :

هم اشياع عبدالله بن سبا . وسبق لهذا ان خاطب علياً رضى الله عنه وقال له « انت آله » ،

٦ — « الكاملية » :

هم اشياع ابى كامل ، وهذا يكفر جميع الصحابة لامتناعهم عن البيعة لعلى ، ويكفر علياً ايضا لانه ترك قتالهم. وهو يقول بانتقال الانوار الالهية الى الائمة على طريقة التناسخ .

٧ — البيانية :

هم اتباع « بيان بن سمعان » ، ويعتقدون بحلول الروح الآلهية فى الانبياء ، ثم فى على ، وبعده فى ابنه محمد بن الحنفية ، وبعده فى ابنه ابى هاشم عبدالله بن محمد ، وبالنهاية فى « بيان بن سمعان »

٨ — المغيرية :

هم اشياع « مغيرة بن سعيد العجلي » . ومغيرة هذا ادعى ان الامامة بعد محمد بن عبدالله بن حسن انتقلت له . ولم يلبث ان تنبأ وادعى ان معجزته علمه بالاسم الاعظم ، وانه يقتدر على احياء الموتى . ويزعم ان الله لما شاء خلق العالم ، كتب اعمال عباده باصابعه ؛ فاغضبته المعاصى ، وعرق ، فكان من عرقه بحران ، الواحد عذب ، و لآخر أجاج فخلق من العذب « الشيعة » ومن الاجاج « الكفار » ؛ وان المهدى الذى هو محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على بن ابى طالب سيظهر بعد .

٩ — الهشامية :

على قسمين . الاول اشياع « هشام بن الحكم » ، والثانى اتباع » هشام الجولقى » . وهم يعتقدون ان العصمة لا تجوز فى الائمة ، وتجوز فى الانبياء ، ويزعمون ان محمداً عصى ربه بقبول الفدية من اسرى بدر ، وهذه الفرقة من « المشبهة » ايضا .

١٠ — الزرارية :

هم اتباع « زرارة بن اعين » ، وهذا يعتقد ان الله لم يكن عالما وقادراً ، بل احرزها بالكسب .

١١ — الجناحية :

هم اشياع « عبدالله بن معاوية ذى الجناحين » . وهذا يزعم انه آله ، وان العلم ينمو في قلبه ، وان الروح الالهية تجلت فى الانبياء ، ثم فى على واولاده ، ثم انتقلت اليه . واحل الخمر والميتة ، ونكاح المحارم ، وانكر القيامة ، ودليله على هذا قوله تعالى [ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فى ما طعموا اذا ما تقوا وآمنوا وعملوا الصالحات] الآية . ويعتقدون ان الميتة والدم ، ولحم الخنزير فى الآية هى رموز للكناية عن الذين يجب بغضهم . وهم ابو بكر وعمر وعثمان ومعاوية . والفرائض التى امر بها القرآن . هى ايجاب موالاة من تجب موالاتهم كعلى والحسن والحسين واولادهم.

١٢ — المنصورية :

هم اتباع « ابى منصور العجلى » . وهذا يزعم ان الامامة انتقلت اليه من محمد الباقر بن على بن زين العابدين بن حسين ، بن على بن ابى طالب . ويعتقد ان على بن ابى طالب واولاده هم من اهل الجنة ، وان ابا بكر وعمر وعثمان ومعاوية هم من اهل النار .

١٣ — الغرابية :

يزعم اشياع هذه الفئة ، ان جبريل بعث بالرسالة الى على فأخطأ وذهب بها الى محمد ، ولهذا لا يزالون يلعنون « صاحب الريش » اذا خلوا بانفسهم ، ويقصدون من « صاحب الريش » جبرائيل .

١٤ — الذمية :

يزعم اشياع هذه الفئة ان الله بعث علياً بالنبوة ، وارسل محمداً ليصدع بامر على ولكن محمداً ادعاها لنفسه ، وارضى عليا بتزويج ابنته اياه ، وباقداره بالمال .

ومنهم « العليانية » من اتباع « عليان بن زراع السدوسى » يفضلون علياً على محمد ، ويذمون صاحب الشريعة ، ومنهم من يدعى بالوهيـة محمد وعلى معاً ويرجحون محمداً فيها . وتسمى فرقتهم « الميمية » . ومنهم من يقول بالوهية « محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين » معاً ويعتبرونهم « شيئاً واحداً » ، وان روح الالوهية حلت فيهم على السوية ، وليس لاحدهم افضلية على الآخرين .

١٥ —اليونسية :

هم اتباع « يونس بن عبدالله القمى » من غلاة المشبهة . ويزعمون ان الملائكة تحمل العرش ، والعرش يحمل الرب .

١٦ — الرزامية :

هى فرقة « رزام بن سابق » وهذا يقول بان الامامـة انتقلت بعد على لابنه محمد بن الحنفية . ثم لابنه ابى هاشم ، وبوصاية منه الى على بن عبدالله بن عباس ، ومنه لابنه محمد

بن على ، وبالوصاية لابنه ابراهيم . ودعوة ابى مسلم الخرسانى كانت باسم ابراهيم هذا .

١٧ — النعمانية :

وتسمى بـ « الشيطانية » ، وهى من المعتزلة ايضا .

١٨ — البسلمية :

ان اشياع هذه الفئة تقول بانتقال الامامة بعد صاحب الشريعة الاسلامية الى على ، ثم على الترتيب الى الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وابى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، وبالوصاية الى على بن عبد الله بن عباس ثم الى ابى العباس السفاح ، ثم الى ابى سلمة . وقد ظهر فى ناحية « كش » فى ما وراء النهرين شخص يدعى هاشم من اهالى مرو ، وادعى الوهية ابى سلمه ، وان الالوهية انتقلت من ابى سلامة اليه . ولما رأى انطلاء خدعته تغيب برهة حيث جعل لنفسه نقابا من ذهب ، واتخذ مرآة من زجاج ، تعكس اشعة الشمس ، فكان يسلط شعاعها على بعض مريديه ويحرقهم بها . وبهذا استطاع ان يتسلط على مخيلتهم فاعتقدوا فيه الالوهية ، وزعموا ان النظر لا يستطيع اقتحام رؤيته :

١٩ — الجعفرية ؛ ٢٠ — الصباحية .

ويعتقد هؤلاء عدم وجود النص فى امامة على ولهذا لا ينكرون امامة ابى بكر . بل يعتقدون ان علياً افضل منه .

*
* *

وقصارى القول : اذا اضفنا لما بحثنا عنه من الفرق . فرقة « الكرمية » و « الزيدية » التى ظهرت فى انحاء اليمن ، وفرقة « الوهابية » التى انتشرت فى نجد ودرعيه ، والفرقة التى عرفت بقدحها فى قريش ، وظهرت فى اصقاع عمان ، نطلع على حقيقة هذه الفرق التى ما زالت تزج بالاسلامية منذ بدايتها فى تيار التهلكات حتى اهوت بها الى حضيض الوهن والضعف .

وبهذا تمكنا من تدميث خطة نتطرق عليها اثناء الفحص عن اساس مذهب « الاسماعيلية » والنصيرية » الذين هما من غلاة الشيعة ، ونستعين بها على ارجاع هذه الفروع لاصول مستقرة ، ثم نتمكن من تعيين موقعهم بين الفرق الاسلامية الاخرى .

[٢]—*كيفية ظهور الاسماعيليين وانتشارهم* — سبق لنا ان ذكرنا اثناء البحث عن فروع الفرقة « الامامية » ان فئة « الاسماعيليين » هى من غلاة الشيعة التى تعتقد بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق واولاده . واشياع هذه الفئة يعتقدون — كما سنفصل بعد — ان الامامة انتقلت عن اسماعيل ، لابنه «محمد المكتوم» وثم لابنه « جعفر المصدق » وبعده الى «محمد الحبيب » وهو الذى انتشر فى زمانه مذهب الاسماعيليين ، وكثر رواجه.

كان محمد الحبيب يسكن قصبة « السليمية » القريبة من حمص فى سورية . وكان محباً للشهرة وسعى السعى الحثيث لنشر مذهبه بواسطة الدعاة والمبشرين . ودأب لتأييد سلطان دينه ومكانته . وانتدب لهذه الوظيفة فى العراق « عبدالله بن ميمون القداح » المنجم ، ويروى انه كان خادم مزار الحسن رضى الله عنه [*] وكان عبدالله هذا ابناً لميمون القداح من اهل العراق المتظاهر بالشيعية ، مع انه مجوسى فى الباطن .

اقبل ابن ميمون على تحصيل العلم منذ حداثته ، وما لبث ان توغل فى امور الدين ومباحث الفلسفة ، فاطلع على شنشنة المجوس المذهبية ، وعلى عقائد زردشت ، واحاط علماً بفلسفة قدماء اليونان ، ودرس مذهب الصابئين ، ودين المسيحيين . وقد كان له المام فى العلوم الطبيعية ومهارة فى الطبابة السينية . وكان مطبوعاً على خصائص المجوس لانه ولد مجوسياً وهو الرئيس السرى لفرقة « العبارية » من المجوس .

ذكر فى كتاب « شرح المواقف » ان قد التئم فى احد الايام مجلس هذه الفرقة تحت رياسة ابن ميمون ، وبحث فيه عن ما اصاب المجوس من الوهن والاضمحلال منذ ظهور الدين الاسلامى ، واتخذ فيه هذا القرار :

— « سخر المسلمون بلادنا ومزقوا حكومتنا وما لنا من سبيل لنقهرهم حرباً . بل نستطيع بث الضغائن ودس الشقاق بينهم بالحيل والخدع . فعلينا ان نتأول فى الدين لنخرج به عن جادة يقينه . ونضل الجاهلين من المسلمين بزخارف القول فنبث فيهم باسم الاسلامية روح المجوسية ، وهذه هى الطريقة المثلى التى نتذتم بها لانفسنا ونعيد بها للدين « الفارسى » مجده القديم وشنشنته الغابرة . [**]

واحيل انفاذ هذا القرار الذى اجمع عليه المجوسيون على الرئيس « ابن ميمون » . ورأى ابن ميمون ان مذهب « الاسماعيلية » هو نعم الوسيلة لتحقيق تلك الآمال ، فتقرب من محمد الحبيب ، واتفق معه بسهولة . وعليه نهض عبد الله بن ميمون فى اواسط القرن الثالث للهجرة [*] ورسم الخطوط الاساسية لطريقتيه الظاهرية والباطنية . وعمد الى اسس مبنه التى سماها « الدعوة » فجعلها على تسع مراتب . وذهب الى « الاهواز » من بلاد فارس واخذ يدعو الناس الى مذهبه باسم الامام « محمد بن اسماعيل ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن زين العابدين ، بن الحسين ، بن على بن ابى طالب » واولاده . ثم خيم فى « عسكر مكرم » حيث ظفر بالاموال الطائلة . والشهرة الرنانة وعظم سواد شيعته واتباعه :

---

[*] M. R. Memoire sur les trois plus fameuses sectes du Muslumanisme (Paris 1818)

[**] راجع (خرافاتدن حقيقته — م . شمس الدين)

ان مذهب « الباطنية » الذى اوجده « ابن ميمون » كانت اسباب نجاحه مهياة[*] من قبل . لان ابن ميمون اسس هذا المذهب المتظاهر بالشيعية على « حب على » ايضاً . وحصر الامامة فى اولاد على ؛ وفى هذا الزمن الذى مافتئت فرقة « الشيعة » و« غلاة الشيعة » تبالغ فيه بالدعوة لعلى واولاده . توفر لابن ميمون اناس كثيرون ممن اقبل على مذهبه واجاب دعوته .

وبما ان « عبد الله بن ميمون » « اسماعيلى » النزعة . كان مفترقاً عن الشيعة . ولا سيما عن فرقة « الامامية » لاول وهلة .

ان اشياع فرقة « الامامية » لم يختلفوا — كما بينا سابقاً — فى كون الامامة لعلى بن ابى طالب . ثم لابنه الحسن من بعده . وبعده لاخيه الحسين ولابنه زين العابدين ، ثم لمحمد الباقر . وبعده لجعفر الصادق. ولكن ينحصر اتفاقهم فى امامة هؤلاء الستة فقط ثم يختلفون : فيقول قسم منهم بنزع الامامة من اسماعيل بن جعفر الصادق لانه توفى قبل ابيه . ويخصون بها بعد جعفر اما ابنه موسى الكاظم ، او احد اخوته . ومن هؤلاء فئة يعدون اثنى عشر اماماً . ويقفون عند الأخير وهو « المهدى » الذى يعتقدون تغيبه . وهذه فئة « الاثنى عشرية » من فرقة الامامية .

ويقول القسم الآخر من الامامية :

« ان حق الامامة بعد جعفر الصادق ، هو لابنه اسماعيل بناءً على وصية ابيه . وهذا يقضى بحصرها فى اولاده ولو كانت وفاته قبل ابيه . لان الوصاية توجب ذلك » . وعليه يعتقد هؤلاء بامامة اسماعيل بن جعفر . وبانتقالها لابنه محمد من بعده . وهؤلاء هم « الاسماعيليون » احد اقسام الفرقة الامامية . وقد تمكن « ابن ميمون » بانتمائه لهذه الفرقة من جلب الشيعيين لطرفه . على انه كان فى اشد الحاجة الى عوامل تمكنه من الوصول الى غايته الاساسية . وتؤمن له النجاح فى طريقته الحقيقية . وبما انه جمع بين الفراسة والحنكة لم تعزب حالة المحيط الروحية عن تقديره . وعلم ان افكار العراقيين والايرانيين المنكبين على اساطير العجم وخرافاتهم الخياليه ، تتطلب عقيدةً خيالية ايضاً ، تطرقها مسالك الاضلال . ولذلك رأى من الضرورة ان يضيف الى عقيدة « الاسماعيلين » مقداراً من الخيال ، وشيئاً من الاسرار المبهمة وساعده على القيام بهذا العمل ، ان الائمة بعد اسماعيل بن جعفر لم يكونوا معروفين لدى الناس . فكان يقول بانتقال الامامة بعد وفاة جعفر الصادق الذى توفى ابنه اسماعيل فى حياته ، الى محمد (المكتوم ابن اسماعيل) . فيؤيد اعتقاد الاسماعيليين به من جهة وزعم ان الامام اما ان يكون (ظاهراً) او « مستتراً وباطناً » ، وبه يفتح اول نافذة من اوان الخفاء من جهة اخرى .

---

[*] جاءفى (La grande Encyclopédie) ان هذا كان سنة ١٨٦٤ ميلادية

كان يقول :

— الامام مجبور على « الاستتار » اذا لم يكن ذا قوة وسلطان ، اما الدعاة فيظلون ظاهرين ، ليكونوا دليلاً على وجود الامام . وقد يظهر الامام ، ويصدع بالدعوة متى حظى بقدرته وسلطانه ولهذا فان كلاً من « محمد المكتوم » خليفة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وابنه « جعفر المصدق » وابنه « محمد الحبيب » . امام مستتر . ولا بد لهكذا امام مهما تأخر . ان يظهر متى رأى مساعدة في الظروف — ان هذه العقيدة كانت موضع انجاب واستحسان لدى الناس ؛ لانها تهيج المخيلة . لاسيما وان الاعتقاد بالامام المنتظر . والمهدى والمسيح الموعود . — الخ كان متفشياً بين السواد الاعظم من الناس. ولا يزال السنيون ينتظرون المهدى ؛ واليهود المسيح الموعود ؛ والنصارى روح القدس . وبهذه العقيدة كان ابن ميمون متسرباً بالاسماعيلية الى طريقة جديدة . او بالاحرى كان مؤسساً طريقة « الباطنية »

وكان ابن ميمون مجبوراً على وضع اسس تجتذب جميع الطوائف الموجودة الى نقطة واحدة . لان هذه الشعوب المتباينة فى القومية . والآمال ؛ المنبثة فى العراق وبلاد العجم لم يزل اكثرها مشغوفاً بالاساطير والخرافات رغماً عن اعتناقها الدين الاسلامى .

فكان الناس مزيجاً من ملحدين لايدينون بدين ؛ ومن فضالة الايرانيين افنت الدهور وهى على عقيده زردشت ؛ ومن مانويين تناصفتهم المجوسية والنصرانية ؛ومن اناس استحوذت عليهم عقيدة الصابئة . وكان الجهل مخيماً على الجميع . وزد على ذلك ماشهده اولئك الاقوام من المسارح الدموية التى نفثت فى الطباع روح الثورة . وشحنت القلوب بكراهية هاتيك المؤسسات الاجتماعية والنفرة منها .ولهذا ما كان بالصعب جمع هؤلاء الى نقطة واحدة . وتلقيحهم بفكرة الالحاد التى توهن الاساسات الاسلامية وتودى بها .

اهتم ابن ميمون فى مسألة الاسرار والغوامض ؛ واستفاد مما اذاعته الخطابية وغيرها من احزاب « غلاة الشيعة » من الآراء فى معانى القرآن . فكان يقول :

— ان للقرآن مدلولين ، ظاهرى وباطنى ، فالمعنى الظاهرى واللغوى ليس هوالمقصود بالذات ، والتمسك بهذا المعنى يوجب العذاب والمشقة ، اما الاخذ بالمعنى الباطنى فهو يوجب الانشراح والسعادة لانه يقضى بترك التكاليف . والاعمال الظاهرة — وكان ابن ميمون يدس هذه الفكرة بصورة خفية . وباطنة . وما كان يتظاهر بها تجاه غير الاسماعيليين . ولذلك كانت هذه الطريقة مبالغ فيها بالباطنيةوهكذا تدرج مذهب الباطنية بالاتساع.ودخل فيه كل فاسدى العقائد . وجميع المستائين . ووجد فيه من دخل بسائق حب آل البيت . وآخرون تعلقوا بأهدابه تخلصاً من التكاليف الشرعية ؛ وكان معظم اشياعه ممن حركتهم العصبية القومية . واهاجتهم خواطر الاسلاف .

اضاف مؤسس (الباطنية) — كما سنفصله بعد — لمؤسسته الحديثة بعض اسرار من آثار المجوسية . وهذه الاسرار كانت محشودة فى عدد « السبعة » . ولذلك اضيف لاسم (الاسماعيلية) و (الباطنية) اسم (السبعية) .

وسبب تسميتهم بهذا الاسم ؟ هو انهم يعتقدون ان عدد الائمة (سبعة) كعدد ايام الاسبوع ، وعدد السماوات والكواكب ؛ وان عدد الرسل الناطقة ايضاً سبعة . ويزعمون وجود سبعة ائمة بين كل رسولين ناطقين لاجل اتمام الشريعة ؛ وان كل ناطق ينسخ شريعة الناطق السابق ، ثم يأتى الائمة السبعة فيتمون هذه الشريعة . ويسمون الائمة السبعة بالائمة (المستترة) وما عدا هؤلاء لا بد من وجود سبعة اشخاص يقتدى بهم فى كل زمان :

١ — الامام ؛ يستمد فيوضه من الله .

٢ — الحجة ؛ يستمد من الامام ، ويكون حجة لوجوده .

٣ — ذو المصة ؛ يأخذ العلم ، ويمتصه من الحجة .

٤ — الداعى الاكبر ، هو اعظم المؤمنين .

٥ — الداعى المأذون ؛ يأخذ « العهد » ممن يشاء ان يدخل فى الدين من اهل الظاهر ويدخله فى ذمة الامام ، ويؤذن ليفتح لهم باب العلم والمعرفة .

٦ — المكلب ، من علت مرتبته فى الدين ، ولم يؤذن « للدعوة » ، وهو يعاون الداعى .

٧ — المؤمن ، من اتبع الداعى ، وآمن بالعهد واستيقن به ودخل فى ذمة الداعى وحزبه ، اى فرقته .

فاعتقاد الاسماعيليين بسبعة رسل وسبعة ائمة وسبع مراتب فى المذهب ، كان سبباً لتسمية هذا الدين الذى ما زال يطرق المجهولات بالسبعية .

كان ابن ميمون — كما سنرى بعد فى البحث عن تعاليمه الدينية — يستعين بالنظريات الفلسفية ، والتعاليم الاشتراكية والخوارق للنواميس الطبيعية ، ويعمد الى تكاليف الشرع فيطمسها بمعنى باطنى ويهوى بها الى العدم . واخذ اللادينيون يدخلون فى دينه افواجاً وزمراً حتى تمكن من الاقتراب لنيل آماله ومقاصده .

وقصارى القول . ان تعاليم « ابن ميمون » كانت بالنظر للعقائد الاسلامية بمثابة القنبرة المدمرة . لان كل من دان بها كان ناشطاً من عقال الشريعة ، ومستحلاً حرماتها وراضخا لدستور الاشتراك فى الاموال والاعراض .

ظهر عبدالله بن ميمون فى اواسط القرن الثالث للهجرة فى « الاهواز » ، وخيم فى « عسكرمكرم » ، واخذ يجاهر فى الدعوة ، الى ان عظم سواد زمرته واشياعه ثم راى ان

يحى بالقوة على من خالف دعوته ، وتهيا للتسلط عليهم ، ولكن ما لبث ان باء بالفشل واضطر الى الفرار فقدم البصرة ومعه من شيعته «حسين الاهوازى» . ولم يلبث فيها الا قليلاً حتى شاع امره وصدف ان جاءه الامر بالحضور الى «السليمية» فلبى وذهب اليها واقام هناك يثابر على نشر الدعوة الى ان ودع الحياة .

لما توفى عبدالله بن ميمون ، اناب «محمد الحبيب» مكانه «حسين الاهوازى» وارسله الى انحاء العراق لكي يستأنف الدعوه .

ظهر فى العراق فى اواخر القرن الثالث للهجرة «حمدان» بن «الاشعث» الذى كان يلقب بـ «قرمط» لانضمام اطرافه وقصرها وتقارب خطوه ؛ (*) وتوفق لنشر الديانة الاسماعيلية ، والعقائد الباطنية فى انحاء الكوفة ، وكان ذلك بايعاز من «حسين الاهوازى» .

ما لبثت دعوة «حمدان بن قرمط» ان تفشت وانتشرت مسترسلةً فى اصقاع العراق والبحرين ، ذلك لان اهل العراق كانوا على غاية الضجر ونهاية الكراهية للهيئة الاجتماعية بسبب ما ينتابهم من الظلم ، وما كاد «حمدان» يجهر بتعاليمه الاشتراكية حتى تشيع له جم غفير من الناس . لاسيما وان مذهب «المزدكية» الذى انتشر فى ايران ، امال الافكار الى قبول هذه التعاليم بما لقنه من فكرة الاشتراك ايضاً .

ولهذا السبب سميت شيعة «حمدان بن قرمط» باسم «القرامطة» على ان الروايات فى منشأ كلمات «قرمط» و«قرامطة» لا تزال متعارضةً .

ان مجلة المشرق الصادرة فى «ايلول ١٩٠٧» ، بحثت عن كلمة «قرمط» وانكرت الرواية التى يزعم فيها انها اسم لقرية قديمة من اعمال واسط الواقعة بين بغداد والبصرة (**) وقالت انها كلمة «نبطية» بمعنى الخبيث والملوث :

اما ابن الجوزى المؤرخ ، فقد ذكر فى معنى كلمة «قرامطة» ستة اوجه :

١ — ان تسمية اشياع هذا الدين العراقى «بالقرامطة» ناشئة عن اسم مؤسس الدين وهو «محمد الوراق المقرمط» .

٢ — كان لهم رئيس نبطى يدعى «قرمطونه» ، ولذلك كان اسمهم «القرامطة» .

٣ — حل بعض اشياع هذا المذهب ضيفاً عند شخص يدعى «كرمتيه» فنسب اسمهم اليه .

(*) كتاب سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان — نوفل نعمة الله.

(**) راجع كتاب (J, de Goeje Memoire sur les Caramathes du Bahraïn et les Fatimides).

٤ــ ابتاع بعض « دعاة » هذا المذهب بقرةً من رجل اسمه « قرمط بن الاشعث » ثم ادخلوه فى دينهم فسموا بالقرامطة .

٥ــ ان قرمطاً كان عاملاً لاسماعيل بن جعفر ، وهو الذى اسس هذا المذهب ، فنسب الاسم اليه .

٦ــ وضع هذا الاسم نسبة الى « حمدان بن قرمط » من اهل الكوفة ، ويزعم ان حمدان هذا كان رجلاً زاهداً ، فادخله دعاة الباطنية فى دينهم .

ونرى ان اكثر المؤلفين يرجحون القول الاخير من بين هذه الاقوال المتعددة .
علمنا مما مر ان الاسماعيليين استحالوا الى (الباطنية) اولاً ، ثم الى (القرامطة) وقد قام (ذكرويه بن مهرويه) من رؤساء هذه الفئة ، واسس حكومة القرامطة التى كانت عبارة عن شرزمة ثورية ، فامعنت فى سفك الدماء ، واصبحت ترهق البلاد طغياناً ، وفساداً . (*)

عمد الاسماعيليون لنشر دينهم فى العراقين وايران بواسطة الباطنية والقرامطة ، ثم اتجهوا بانظارهم الى مصر وبلاد المغرب ، فبثوا من تعاليمهم فيها ما جعل لهم الاشياع الوافرة .

قام بالدعوة الاسماعيلية فى بلاد المغرب « ابو عبدالله الشيعى » الذى لا يعرف الكلل ، وقد ارسله اليها (محمد الحبيب) نزيل « السلمية » . فلم يأل جهداً ببث تلك الدعوة الى ان كثر اشياعه واستحكم نفوذه ، وقهر الاغالبة حكام المغرب فى موقع « رقاده » . فخلى له الجو وتمكن من طرح اساس الدولة العبيدية .

*
* *

يجب علينا البحث عن كيفية انتشار التعاليم الاسماعيلية فى انحاء العراق ، وما وراء النهرين ايضاً ، ليتم بها هذا الفصل :

ذكر المؤرخ (ابن خلكان) ، انه قد اشتغل فى نشر الديانة الاسماعيلية فى انحاء الاحساء بعد (حمدان بن قرمط) ، (ابو سعيد الجنابى) من اهالى (جناب) التابعة للبحرين . وفى انحاء توركستان وما وراء النهرين (ابو جعفر محمد بن على الشلمغانى) المعروف (بابن ابى الغراقر) ، وذلك فى ايام « المقتدر بالله » من خلفاء العباسيين ؛ وفى انحاء بغداد والعراق « حسين بن منصور الحلاج » المعروف بابى المغيث والمولود فى البيضاء من بلاد ايران . ثم عقبهم « ابو طاهر الجنابى » بن « ابى سعيد الجنابى » واصيبت الاسلامية من دعوتهم

(*) راجع تاريخ ابن الاثير جلد (٧ــ١٢) .

بما يكاد يزلزل مكانتها ، ولكن ما لبثت تلك الدعوة ان نكصت على عقبها بقتل بعض الدعاة ، واحراق البعض وضاق نطاقها ، وخمدت ثورتها .

*
* *

هكذا استطاع الاسماعيليون تعميم تعاليمهم فى برهة وجيزة، من اصقاع ايران الى اقاصى بلاد الغرب ، وعرفوا باسماء كثيرة ما عدا « الباطنية والسبعية والقرامطة » . فمنها « الملاحدة » لما كان لديهم من الالحاد ، و « التعليمية » منسوبة لتعاليم عبدالله بن ميمون المشهورة و « الخرمية » او « البابكية » نسبة الى « بابك الخرمى » الذى ظهر فى انحاء آذربايجان ؛ و « النزارية » بالنسبة الى « نزار بن المستضئ العبيدى » كما جاء فى تاريخ ابن خلدون ؛ و « الحشاشين » لان بعض مريديها كان يشرب الحشيش .

[٣] — **ملخص تاريخ الاسماعيليين** — سبق ان بينا كيفية ظهور الاسماعيليين فى القرن الثالث للهجرة ، وصورة انتشار مذهبهم . نعم ان ما كانت تنشره الفرق الشيعية من الاعتقادات العلوية فى انحاء العراق وبلاد فارس وما جبلت عليه طباع الناس من حب الخرافات والانشغاف بالاساطير هيء للمذهب الاسماعيلى وسطاً مساعداً لتفشيه شيوعه فما كادت تعاليمهم تندلق الا وسرت بسرعة البرق وانبثت فى ديار المغرب الى داخل بلاد العجم . وما مر عليهم قرنان الا وادركوا غايتهم ، واوجدوا هيآت سياسية لا بأس بمكانتها و حازوا قصب السبق باحداث الخلافة الشيعية وقوى سلطانهم وقهرهم لدرجة جرأتهم على مصارعة العباسيين ، ومعاركة الملاجقة والايوبيين ، وخضبوا القرون الاربعة بما اهرقوه من الدماء الى ان اخذتهم صيحة التاتار ، ونزل عليهم هلاكوخان بضربته القاضية (سنة ٦٥٤ هجرية) [*]

تمزق شمل الاسماعيليين بعد هذا التاريخ ، وفقدوا نفوذهم السياسى ، واضطروا لان يعيشوا شتاتاً ، وزمراً مبثوثة فى انحاء متفرقة .

ويجب بعد هذا الاجمال العمومى ان نبحث عن الحكومات التى اسسها الاسماعيليون، ونذكر بعض وقايعهم السياسية والدنية .

١ . الدولة العبيدية

ان اهم عمل سياسى قام به الاسماعيليون هو تأسيس (الخلافة الشيعية العبيدية) المعروفة (بالدولة الفاطمية) التى حكمت بلاد المغرب ومصر والشام وانحاء الحجاز ، ودام سلطانها مائتين وسبعين سنة (من ٢٩٧ الى ٥٦٧) هجرية) .

(*) راجع (Journal Asiatique) المؤرخة فى حزيران سنة ١٨٤٩

ذكرنا ان (محمد الحبيب بن جعفر المصدق) ارسل « اباعبدالله الشيعى » (سنة ٢٨٨ هجرية) الى بلاد المغرب ، وجعله مبشراً للدين الاسماعيلى . وكان « ابو عبدالله » رجلاً بعيد الهمة وخطيباً مصقعاً بيانه السحر الحلال . وما لبث ان سخر قلوب الناس وحببهم بنفسه وفى برهة وجيزة تمكن ان يصير اماماً لقبيلة « فطامه » فى بلاد الجزائر . وكان حكام تلك البلاد فى ذلك الزمن هم « بنو الاغلب » . تظاهر « ابو عبدالله » بانه مبشر بالمهدى الموعود ، واخذ يحرض الناس ويهيجهم على القيام ، والثورة ضد بنى الاغلب ليستولى على اموالهم واملاكهم ، وليحظى بوفرهم وثروتهم . وما طال الامد حتى اسعده الجد وظفر بآماله فانتزع من الاغالبه « رقاده » قاعدة بلادهم . ومتع مريديه بهاتيك الاموال الطائلة التى وعدهم بها .

كان الناس فى اشد الانتظار لقدوم المهدى ؛ وفى هذا الزمان توفى (محمد الحبيب) الذى ارسل (ابا عبدالله) الى افريقيا ، واوصى بالامامة لابنه (عبيدالله) وبلغ بانه «المهدى الموعود» . ثم ان « ابا عبدالله الشيعى » دعى « عبيدالله المهدى » ليحضر الى افريقيا . فما كان منه الا ان بادر للاجابة وخرج من السليمية فى زى تاجر . ولكن اطلع الخليفة العباسى « المكتفى بالله » على دخيلة امره ، فطير الاخبار الى جميع الانحاء بوجوب القبض عليه . فقبض عليه امتثالاً لامر الخليفة فى قاعدة بنى مدار وزج فى السجن . ولكن ما لبث ان وصل الخبر الى (ابى عبدالله) فمشى على بنى مدار بجيش عظيم ، واصدق مريدوه الحملة لانقاذ مهديهم من السجن ، واقتحموا قاعدة بنى مدار فاستولوا عليها ؛ واخرج المهدى من سجنه وبايعوه . وبها تأسست الدولة الفاطمية .

اما « ابو عبدالله الشيعى » فقد اراد ان ينتهز الفرصة . ويستفيد من ميل الناس « لعبيدالله » ومحبتهم له ، فيجعله ولياً ، ثم يصطفى السلطة لنفسه وآله . ولكن كان عبيدالله ادهى منه وايقظ فلم يمهله بل عمد اليه وخنقه ، فخلصت له السلطة وانتقل من بساط المشيخة الى عرش السلطنة ، [*] واسس دولةً عظيمة . [**]

اهتم عبيدالله واولاده فى الدرجة الاولى ، بادارة ملكه فى بلاد المغرب . ومع ذلك فان

---

[*] خرافاتدن حقيقته — م . شمس الدين .

[**] ذكر قاموس الاعلام كيفية تشكل الدولة الفاطمية على الوجه الآتى :

ولد فى قصبة « السليمية » من اعمال الشام رجل اسمه « سعد » وسمى نفسه « عبيدالله المهدى » وزعم انه من نسل محمد بن اسماعيل . سليل الاسرة العلوية . وان الخلافة له ، فتعقبه الخليفة العباس « المكتفى بالله » . فهرب الى بلاد المغرب . ولكن قبض عليه يسع بن مدار والى سجلماس بامر الخليفة وحبس هو وابنه محمد نزار ثم ظهر رجل يدعى « ابا عبدالله » الشيعى فقتل اليسع وخلص عبيدالله ونزاراً من الحبس . واعلن خلافة عبيدالله ، وكانت قاعدة بلادهم قصبة « المهدية » التى هى فى جوار القيروان .

المذهب الاسماعيلي ، لم يزل آخذاً حظه من الانتشار في انحاء افريقيا . حتى ان (يعقوب الكلس) وزير العزيز بالله جمع ما تلقاه من العزيز نفسه ومن (المعز لدين الله) من الاحكام ، والف كتاباً جمع فيه اسس عقائد الاسماعيليين (*) ، وكان كتابه المسمى « دعائم الاسلام » و « مختصر الوزير » على جانب عظيم من الاهمية .

وفي زمن « الحاكم بامر الله » من خلفاء الفاطميين (سنة ٣٩٥ هجرية) اسست مكتبة حافلة في القاهرة ، قريباً من القصر الغربي ، تماثل مكتبة « بيت الحكمة » العظيمة التي اسسها العباسيون في بغداد ، وسميت « بدار الحكمة » . او على رواية ابن خلدون « دار المعرفة » وخصص لها علماء من المنجمين والنحويين واللغويين والاطباء برواتب معينة ، وفتحت ابوابها للقراء والمستنسخين والمؤلفين ؛ وكانت جميع اللوازم تعطى من قبلها مجاناً . ولهذا السبب كان يعتبرها البعض ، نوعاً من المدارس .

وكان الحاكم بامر الله يحضر علماء هذه المكتبة الى مجلسه ويأمرهم بالمباحثة والمحاورات العلمية واذن لهم في اجراء المناقشات داخل المكتبة ايضاً . وقد اغتنم علماء الشيعة هذه الفرصة ، فاصبحوا يجاهرون بتلقين غايتهم الحقيقية لاسقاط الدوله العباسية في المشرق ؛ ويدرسون التعاليم الاسماعيلية المؤسسة على تسع مراتب ، والتي استنبطت من مبادئ عبدالله بن ميمون الذي كاد ان يكون مؤسس الديانة الاسماعيلية (**) ولهذا السبب كانت دار الحكمة مهمة جداً . وان « حسن الصباح » مؤسس الحكومة الاسماعيلية في الشرق كان متخرجاً فيها — كما سنبينه بعد — .

وقصارى القول ان « الدولة العبيدية » المعروفة بالعلوية نسبة الى علي رضى الله عنه ، وبالدولة الفاطمية لانتسابها الى اولاد فاطمة رضى الله عنها — كما يزعمون — وان تكن جعلت همها الاكبر، سياسة حكومتها وادارتها ؛ واهتمت بالدين في الدرجة الثانية ، فانها اليد البيضاء في تاريخ الاسماعيلية من حيث تعميم الدين ونشره . وهي السبب لظهور مذهب الدروز الذي هم من غلاة الشيعة. (***)

٢ . حكومة القرامطة

ذكرنا اثناء البحث عن سبب تسمية الاسماعيليين (بالقرامطة) ، ظهور (زكرويه بن مهرويه) من دعاة الاسماعيلية المنسوب الى « حمدان بن قرمط » . وان زكرويه هذا اخلص الدعوة باسم الاسماعيليين ، واستطاع تزييد اشياعه وتكثير اتباعه (****) وكاد ان

(*) راجع تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان.
(**) اننا سنشرح هذه التعاليم التسعة ، اثناء البحث عن اسس الدين الاسماعيلي.
(***) راجع الصحيفة ٢٦ من كتابنا « ولايت بيروت — القسم الجنوبي» ، في بحث الدروز.
(****) راجع دائرة المعارف لبطرس البستاني.

يكون بل كان المؤسس الاول لحكومة القرامطة .

هذا وان تكن حكومة القرامطة ، او بالتعبير الاصح حكومة الاسماعيليين ، اخضعت لسلطانها انحاء خوزستان والبصرة ، والكوفة والاحساء وتطاولت على بلاد الشام والحجاز ودامت الى سنة ٣٧٢ هجرية . ولكنها ما كانت حكومة حقيقية ؛ بل طائفة دينية ثارت فى وجه العباسيين والمسلمين وكونت شرزمة تتألف من ثوار دينية ، سياسية واجتماعية . (*)

انكسرت شوكة القرامطة بعد ان فتك بمؤسسهم (زكرويه بن مهرويه) (سنة ٢٩٤ هجرية) ، ولكن لم يتقاعس اشياعه عن العمل ، بل واصلوا السعى الحثيث الى ان ردت قوتهم اليهم . وتأسست يومئذ حكومة العبيديين فى ديار الغرب على اشد ما يكون من المكانة . ووجفت من سطوتها قلوب العباسيين . فانتهز القرامطة هذه الفرصة ، ونهضوا الى استرداد مكانتهم الاولى ، فنجح مسعاهم وعظم كيدهم ، وما لبثوا ان اوغلوا فى اهراق الدماء ، وغلوا فى الفساد وما ادخروا وسعاً فى تخريب البلاد .

وقد ظهر منهم فى انحاء الاحساء رئيس اسمه (ابو على حسن بن احمد) . فتجول فى بلاد خوزستان ، والبصرة والكوفة . وبعد ان حصل على اشياع وفيرة ، جاهر بالقيام فى العراق العربى ، فاستولى على البصرة والكوفة ، ثم زحف على الشام ايضاً وامتلكها .

ومنهم « ابو طاهر بن سعيد الجنابى » الذى مر ذكره فقد ذهب الى الحجاز ، وصد المسلمين عن اداء فريضة الحج ، وفتك فيهم الفتك الذريع ، ثم اقتلع (الحجر الاسود) من جانب الكعبة ، وحمله الى البصرة .

ونهض بعض رؤساء القرامطة فى جهة البصرة والعراق والبحرين ، وحكموا فى تلك البلاد وجرعوا الخلفاء العباسيين انكد العيش .

وقد ازدادت شوكتهم وقويت سلطتهم فى زمن (بابك الخرمى) الذى ظهر فى انحاء آزوربايجان ، ولم تزل دولتهم الى اواخر القرن الرابع للهجرة حيث اخذتهم صيحة (بنى الاصفر بن نعلب) وانزلت عليهم تلك الضربة القاضية التى فرقتهم ايدى سبا ومزقتهم كل ممزق ،

٣ . الدولة الاسماعيلية الشرقية

ظل الاسماعيليون على ما هم عليه من الضعف والانحطاط منذ اندراس حكومة القرامطة الى اوائل القرن الخامس للهجرة . ثم تأسست الحكومة السلجوقية فى انحاء ايران (سنة ٤٢٩ هجرية ، وحملت على السلطة العباسية فابادتها فى تلك الاصقاع ؛ وعجز الخلفاء

(*) خرافاتدن حقيقته — م. شمس الدين .

العباسيون عن الدفاع فاصبحت البلاد عرضة للغوائل ، والانحلال . ولم يهمل الاسماعيليون هذه الفرصة بل جددوا الهمة فى نشر معتقداتهم، واخذوا يدأبون لتحقيق آمالهم السياسية ثم استولوا على قلاع العراق وايران ؛ وعادوا الى ديدنهم القديم فى سفك الدماء فقتلوا كل من وصلت ايديهم اليه . وفى زمن « ملكشاه بن آلپ آرسلان » ثالث ملوك السلجوقيين [*]

وصلت دولتهم من المكانة والقوة الى درجة تستطيع بها مقاومة الدول المعظمة. وسميت بالاسماعيلية الشرقية ، لتتميز عن دولة الفاطمية المسماة بالاسماعيلية الغربية .

اسس دولة الاسماعيلية الشرقية فى ايران (حسن بن الصباح *Sabbah*) سنة ٤٨٣ هجرية الموافقة لسنة ١٠٩٠ ميلادية .

اما كيفية تاسيسها فكانت على ما يأتى :

ان « حسن بن الصباح بن على بن محمد بن جعفر بن حسين بن محمد يوسف الحميرى » منسوب ليوسف الحميرى من امراء اليمن (**) وقد ولد فى بلدة « رى » من بلاد العجم ، وتلقى علومه من الامام « الموفق النيسابورى » مع « نظام الملك » المعروف و« عمر الخيام » الشاعر الطائر الصيت .

تمكن حسن الصباح ان يكون حاجباً لآلب ارسلان السلجوقى ، وذلك بايعاز من نظام الملك . ولكنه كان مفطوراً على حب الرياسة منذ حداثته ، فما لبث ان اختلف مع نظام الملك ، وهرب (سنة ٤٦٤ هجرية) الى « الرى » ومنها الى (اصفهان) ثم الى العراق وآذربايجان ، ثم الى مصر حيث لقى الحفاوة والاعزاز من المستنصر الفاطمى . لانه شيعى المذهب .

كان يتردد على « دار الحكمة » مدة اقامته هناك ويدرس مذهب الاسماعيلية ، ثم اوجد فى هذا الدين بعض احكام جديدة ، وقام يدعو الناس اليه فى سورية وحلب وديار بكر ، وبغداد وايران وما كانت ضالته المنشودة الا الحصول على السلطنة التى ما زال مشرأباً اليها . فجعل الدين حجاباً يعمل من ورائه ، وما انفك يصيغ الحيل ، ويرجع الى الدسائس حتى قيض له الزمن (ابا الفضل اللبنانى) فاعانه على تسخير قلعة « ألموت *Almout* » (***) « سنة ٤٨٣ هجرية » ، فاتخذها قاعدة للدولة « الاسماعيلية الشرقية » التى خلفها .

ثم استولى على بضع قلاع بعد « ألموت » . واستطاع ان يحتفظ بكيانه ، ويدفع كيد السلجوقيين عنه بمناعة موقفه ورصانته . لم يتخذ حسن الصباح لنفسه اسم « سلطان » او

---

[*] كانت حكومة آلب آرسلان السلجوقى (سنة ٤٦٥ — ٤٨٥ هجرية)

(**) M. R. Memoir sur les trois plus fameuses secte du muslimanisme.

(***) ألموت ، معناها عش العقاب « آنسيقلوپه دى الكبير »

« امير » ، بل تسمى با « لسيد » و « الرئيس » و « شيخ الجبل » ، ولم تكن دعوته لنفسه بل كانت لامام مستتر ، يزعم انه سيظهر فى الغد .

ما لبث حسن الصباح برهة وجيزةالا وعظمت سلطته وقويت شوكته ؛ وكثر اشياعه واستطاع جذبهم اليه وجمعهم حوله . واخضعهم لامره ونهيه. ومما يروى ان السلطان ملكشاه ارسل اليه رسولاً يدعوه لاطاعة الدولة السلجوقية والخضوع لامرها . فاستدعى بعض اتباعه على مرأى من الرسول

ثم قال لاحدهم :

اقتل نفسك ! ففعل :

وقال للآخر :

هيا ، اقذف بنفسك الى الواد ؛ ففعل .

ثم التفت الى الرسول فقال :

« بلغ ربك ، ان لى سبعين الفاً من هؤلاء » !

اقام حسن الصباح فى قلعة « ألموت » السنين الوافرة ، ولم يزل متظاهراً بالزهد والتقشف ؛ ولم يبرز من قصره الا مرةً او مرتين فى جميع عمره .

برهن حسن الصباح عن ذكاء حاد وبصيرة وقادة فى ما وضع من الاسس الدينية والسياسية وحشد حوله شرذمة من الفتاك فاصبح الاسماعيليون فى زمن حكمه الذى دام (خمسة وثلاثين سنة) على الدرجة القصوى من علو الكلمة ووفرة القوة . وقد فتك الاسماعيليون فى زمانه بكثير من الملوك والوزراء . منهم « المسترشد بالله » و «نظام الملك» وزير ملكشاه سلطان السلجوقيين وابنه « فخر الملك ابى المظفر » . وبهذا برهنوا على انهم من الفوضويين (نيهيلست *Nihiliste*) . واقتدروا على ارهاب ملوك السلاجقة . ويروى . ان مملوكاً « لسنجر بن ملكشاه » سلطان السلجوقيين ، دخل المذهب الاسماعيلي ؛ ولما ازمع على الفرار ، اخذ سكيناً وغرسها فى الارض قريباً من رأس السلطان وهو نائم ، ثم هرب والتحق بالاسماعيليين . فارسلوا الى السلطان سنجر كتاباً من ألموت ، يقولون فيه :

— لو شئنا قتلك ، ما غرسنا السكين فى الارض ، بل فى صدرك !

ومنذ اطلع السلطان سنجر على هذا الكتاب ، ارتدع عن حرب الاسماعيليين وهاب جانبهم ؛ ثم صالحهم ووصلهم بالعطايا الوافرة .

توفى حسن الصباح سنة (٥١٨ هجرية) بعد ان عاش تسعين سنة ،وحكم خمس وثلاثين عاماً . وكان كما قال محسن « الكشميرى» :

[لم ينتقل من دار الاسلام ، الى دار الرضوان ؛ بل كشط من وجه الارض التى جعلها

موطناً للفوضى، الى لعنة ربه] .

وقد كان سفاكاً ، وبلغ من حبه لاهراق الدماء . ان قتل اثنين من اولاده بلا سبب. دامت دولة حسن الصباح الى ان استولى هلاكوخان على قلاعهم وهدمها سنة ٦٥٤ هجرية و« ١٢٥٦ ميلادية » (*) ، وقد جاء من هذه الدولة المعروفة « بملاحدة الاسماعيليين» و« الحشاشين» ثمانية ملوك ، ها هى اسماؤهم. (**)

١ — حسن الصباح ؛ حكم خمس وثلاثين سنة «٤٨٣ هـ —٥١٨ هـ) .

٢ — كيابزرك اميدرودبارى ؛ صار رئيساً بوصاية حسن الصباح وحكم اربع عشر سنة «٥١٨—٥٣٢» .

٣ — محمد بن بزرك اميد ؛ حكم اربع وعشرين سنة (٥٣٢—٥٥٧).

٤ — حسن بن محمد ، عرف باسم حسن الثانى وذكرة الاسلام ؛ حكم اربع سنين (٥٥٧ — ٥٦١) .

٥ — محمد بن حسن ؛ حكم ست واربعين سنة (٥٦١—٦٠٧) .

٦ — جلال الدين حسن بن محمد ؛ حكم احد عشر سنة ونصف. وسمى «حسن الثالث» و« نومسلمان » . (٦٠٧—٦١٨) .

٧ — علاء الدين محمد بن جلال الدين حسن ، حكم خمس وثلاثين سنة (٦١٨— ٦٥٣) .

٨ — ركن الدين خاورشاه بن علاء الدين ، هو آخر رؤساء الاسماعيلية الشرقية ، وحكم سنة واحدة (٦٥٣— ٦٥٤) .

اذا تصفحنا الوقايع التى حدثت فى زمن « الاسماعيلية الشرقية » الذى امتد مقدار قرن ونصف ، نعلم ان سطوة الاسماعيليين بلغت منتهاها فى ذلك الزمن ، فى بلاد العجم والعراقين وسورية ، وقد امعنوا فى العسف والطغيان ، وتبين انهم من اجرأ الفتاك .

وهذا اجمال تاريخى نذكر فيه اشهر الوقايع التى حدثت فى ذلك الزمن :

٤ . مؤسسات حسن الصباح السياسية

رأى حسن الصباح ان يكون الاسماعيليون هيئة نشيطة فدائية تخضع لامره ، وتنقاد لمشيئته ؛ او جمعية فوضوية يمشى بها على اهوائه . فقسمهم الى عدة اقسام ، وخص كلاً منهم بوظيفة حتمها عليه . فما لبثت تلك الطائفة الدينية التى كانت اسيرة الاهواء فى حركاتها ،

---

[*] (Defrémery, Essai sur L'histoire des Ismaéliens ou Batiniens de la Perse.

(**) راجع Bibliothèque Oriental d'Herbelot.

الا واصبحت هيئة سياسية ذات وظائف معينة ، وبهذه الهمة من حسن الصباح تسنى لهم ان يعيشوا لحكومة مستقلة اكثر من قرن ونصف .

قضى نظام حسن الصباح بانقسام الاتباع الى ثلاثة صنوف . ١ — الدعاة ، ٢ — الرفاق ٣ — الفدائية.

فوظيفة الدعاة ؛ هى دعوة الخلق الى المذهب الاسماعيلى ؛ وارشادهم بتلقين التعاليم الدينية .

اما الرفقاء ؛ فهم الذين دخلوا فى المذهب ، او خضعوا لسلطة « الرئيس الاكبر » الدينية والسياسية .

والفدائيون ؛ هم الذين يعملون للفتك باعداء الاسماعيلية ويتقاضون من الروساء ما يسمونه الفدية — لقاء استماتتهم فى طريق المذهب —

اوجب هذا التقسيم وجود بعض مراتب اجتماعية بين الاتباع فكان منهم فى المرتبة الاولى الدعاة او المقدمون والاعيان . وهؤلاء كانوا يقيمون فى الولايات التى لها قلاع متينة كالشام وقهستان وكوهستان . وهم خاضعون لاوامر الرئيس الاكبر .

والمرتبة الثانية يوجد فيها الدعاة ورسل الدين والوكلاء السياسيون ، ثم مرشحو الرياسة .

والمرتبة الثالثة يوجد فيها « الرفاق » وتتفاوت درجاتهم بالقرب الى الرياسة بنسبة نجاحهم فى التعاليم السرية والباطنية .

ثم يأتى بعد هؤلاء فى الدرجة الرابعة ، الفدائيون وحراس المذهب والمحاربون والسفاحون . ثم يأتى فى المرتبة الخامسة ، حديثو العهد فى المذهب وباقى الاهالى .

ولا جرم ان الادعى للعجب بين هؤلاء الطبقات الاجتماعية والسياسية . هم الفدائيون وهم يمرنون على هذه الوظيفة منذ حداثة سنهم فى بيوت الرؤساء ، تحت رعاية الدعاة . يعلمونهم ان السعادة لا تكون الا بتضحية الحياة ، وان اقل مخالفة تكون سبباً للخلود فى الجزاء ، وانهم ينعمون بالجنة اذا اطاعوا وفعلوا ما يؤمرون به .

وقد هيئت لهؤلاء الفدائيين رياض مخصوصة لاثبات صدق التلقينات من جهة وليذوقوا نعيم « الجنة » فتقوى قلوبهم على ايفاء وظيفتهم الدينية والسياسية من جهة اخرى .

زينت هذه الرياض بنفائس اعلى من ان يتصورها الذهن ، وازدهت بانظم ما تبدعه يد المهارة ، واجمل ما تخلقه القدرة الطبيعية من الحسن الخالص بازهار ضمت جميع الالوان واشجار كأكلة الزمرد فى اخضرارها . وعيون ماؤها كمذاب اللجين وفوارات تنفث قضباناً من النور . وشلالات كانها من سيال الشمس . وقد شيدت فى تلك الرياض قصور عالية

صيغت من المرمر ، وفرشت باحسن سجاد العجم على الطراز اليونانى ، واقعمت بالاوانى الظريفة المصاغة من العسجد الاصفر او الفضة البيضاء ، او من البلور الشفاف . فكانت نموزجا للحسن ومثالاً للجمال الكامل مبثوث فى جميع انحائها الكواعب والولدان كانهم اللؤلؤ المنثور عليهم ثياب ارق من الهواء . يتجولون فى تلك الساحة الخضراء ، ويبدون من الغنج والدلال ما ينفذ لاعماق القلوب ، فيسحرها ويسخرها ، وربما يضحكن فتطير تلك الاصوات الرخيمة حيث تصافح الجدران الذهبية من هذا الايوان الغرامى ، فتمتصها انوار الافق ، وتوغل فى كبد الهوء الى ان تنطمس فى الخفاء .

لايحظى بهذا النعيم من الاسماعيليين الا كل سعيد تملك بتعاليم الدين ، وكان ممتازاً بالسجايا الطبيعية والادبية التى تسوقه الى الفادا بالنفس فى طريق الواجب الدينى .

اذا اراد « شيخ الجبل » ان يجزى احد السعداء ، او بالاجدر احد الفدائيين ويمتعه بنعيم جنانه ، يدعوه الى مائدته ، ثم يناوله المخدر (الحشيش) ، وبعد ان يستحكم فيه السكر ينقله الى احدى تلك الرياض ، ثم لايلبث ذلك الفدائى المحروم ان يصحو فيجد نفسه فى تلك الجنة ، وفيها ماتشتهى الانفس وتلذ الاعين ، فتعروه الحيرة ؛ ولكنه لايلبث ان يقتحم تلك الملذات ، وينغمس فى تلك العيشة الغرامية ، ويصيب منها مايشاء ، ثم يسقى من المخدر مايفقده الوعى ، ويرجع به الى مجلس الرئيس . على غير علم منه . ولا تزال ذكرى تلك اللحظة الهنية ، فى مخيلته كاحلام السعادة ؛ وان هذه السعادة التى انعم عليه بها «شيخ الجبل» فى الرؤيا الصادقة ، تضطره الى الاطاعة العمياء ، والخنوع الى العبودية المحضة . وتجعله يتضور انتظاراً لتخليد تلك السعادة الموقتة . وعليه كان يتلقى امر رئيس الجبل كالامر القدسى المحتم . ولا تزال ذكرى الجنة التى نقشت فى دماغه سطوراً مذهبة ، تشغل خياله ، وترسم على شفاهه ابتسامات ملؤها الحرص ، والشوق . وكان هذا الحرص على نيل تلك السعادة يؤجج فى قلوب الاسماعيليين نيران الشوق وجحيم الشغف .

ان تأثير هذه السعادة الخالب ، جعل قلوب الاسماعيليين معكساً لهذه الآمال :

— هل من فرصة ؟... الا من امر للرئيس ... ثم النعيم المقيم ...

اذا اراد شيخ الجبل ان يبطش بأحد ، يستدعى اياً كان من الفدائيين ، ويقول له :

— هل لك فى السعادة الخالدة ؟ هيا .. افلان ....

فيقضى امر الرئيس على الفور . وقد كان عند الرئيس حسن بن الصباح الوف من هؤلاء الفدائيين ، له عليهم الاطاعة العمياء .

احدث حسن الصباح بعض مراتب دينية ، وطبقات تعليمية ماعدا هذه الاسس الاجتماعية والسياسية ، وسعى بما فيه لاعلاء كلمة الاسماعيليين فى ذلك العصر .[*]

(*) سنفصل هذه الاسس الدينية ، اثناء البحث عن تعاليم الاسماعيلية

٥ . ملكشاه والاسماعيليون

ان زمن تأسيس الدولة الاسماعيلية الشرقية [٤٧٣] كان فى ايام السلطان ملكشاه بن آلب ارسلان ثالث سلاطين الدولة السلجوقيـة الايرانية [٤٦٥—٤٨٥] [*] ولذلك كان اول تألبهم ، وشروعهم فى زمن هذا السلطان

نعم ان اول اجتماع للاسماعيليين كان فى موقع (ساوه) (**) وقد شوهد ثمانية عشر شخصاً منهم اجتمعوا فى احد المحلات بعد صلاة العيد ، فاستلفت اجتماعهم النظر ، وقبض عليهم وسجنوا ، ثم اطلق سراحهم بعد مدة . وصدف ان دعوا مؤذناً من اهل (ساوه) ، مقيماً فى اصفهان الى الدخول فى دينهم ، فلم يقبل فخافوا من افشائه الخبر ، وقتلوه وهذه اول جناية اقترفها الاسماعيليون .

اهتم نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى فى المسئلة لما اطلع على قتل المؤذن ، وشدد الامر فى تحرى القاتل و القبض عليه . ثم علم انه رجل نجار اسمه (طاهر) ، فصلب ومثل بجثته وجرت على رأسها فى الطرق و الشوارع . وكان هذا اول قتيل من الاسماعيليين . ثم اقترف الاسماعيليون جنايتهم المعروفة ، فقتلوا (نظام الملك) . وقالوا :

— قتلوا منا نجاراً ، فقتلنا وزيراً .

اى واحدة بواحدة .

واول ما سخروا من البلاد ، هى قصبة قريبة من (قاين) . وكان مقدمها (رئيسها) اسماعيلياً ، فتجمع الاسماعيليون عنده ، وتعرضوا فى جوار تلك القصبة على قافلة مقبلة من كرمان فقتلوا جميع رجالها . ولم يسلم منهم الا رجل تركمانى ، استطاع ايصال الخبر الى اهل (قاين) ، فهبوا فى اثر الاسماعيليين ولكنهم لم ينجحوا .

وقد ازدادت سطوتهم ، وقويت شكيمتهم بعد وفاة السلطان ملكشاه السلجوقى ، واشتدت اطماعهم السياسية .

٦ . بركياروق والاسماعيليون

ورث تاج الملك السلجوقى فى خراسان بعد السلطان ملكشاه ، ابنه بركياروق (٤٨٥ — ٤٩٨) . واشتد فى زمانه ازر الاسماعيليـين ، وعلا شأنهم وعظمت قـدرتهم ، وشرعوا يسلبون اموال مخـالفيهم ، ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً . وقد اوغلوا فى التطـاول . وما كان

(*) هذا التاريخ هجرى، يدل على مدة السلطنة .

(**) راجع تاريخ ابن الاثير ، وابن الجوزى ومؤلف M. c. Defremery Neuvelles recherches sur les ismaeliens de Syrie.

الرجل يبطئ عن بيته هنيهة الا ويعتقد اهله ان قد اغتاله الاسماعيليون . وما كان احد يجسر ان يمشي وحده ، لان الاسماعيليين في المرصاد ، فلا يقبضون على احد الا قتلوه .

هذا ولما تفاقم خطبهم ، وجاوز بغيهم حد التحمل نهض احد الفقهاء ، وهو « ابوالقاسم مسعود بن محمد الخجندي » فأثار حمية الناس وهيجهم ، وحشد حوله جماً غفيراً واقتحموا الاسماعيليين واحرقوا منهم كل من وصلت ايديهم اليه . وقد قتل في هذه الحادثة من الاسماعيليين خلق كثير (سنة ٤٩٤ هجرية) .

ومع هذا فان معظم القلاع في ذلك التاريخ كانت تحت حوزتهم فمنها قلعة (اصفهان) وقلعة (الموت) الشهيرة ، القريبة من قزوين لم تزل لهم . وقد سخروا ما عدا هؤلاء قلاع (طبس ، خور ، خوسف ، زوزن ، قاين ، نون » وحاصروا قلعة (وسمنكوه) في انحاء (ابهر) ثمانية اشهر وفتحوها عنوةً . وقتلوا جميع من فيها .

ثم سخروا قلعة (خالنجان) التي هي على بضعة فراسخ من اصفهان وقلاع . (استونا نديين ، ري ، آمل ، اردهن ، كردكوه) ، وقلعة (ناظر) في خوزستان . وقلعة (الطنبور) التي سخرها (ابو حمزة السكاف) الارجاني ، وقلعة (فلادخان) الكائنة بين « فارس » و « خوزستان » ..

وجرت سنة ٤٩٤ هجرية حادثة ذات شان بين الاسماعيليين و « امير جاولي سقاووا » والي « ارجان » و « رامهرمز » . وهي :

لما استولى الاسماعيليون على القلاع الانفة الذكر ، في جوار « خوزستان » وقطعوا السابلة على المارين والعابرين ، تحتم وجوب التذرع بحيلة لقمع اولئك الطغاة . فبادر قسم من اتباع « جاولي » والتحق بالاسماعيليين وعملوا الى ان استوثقوا بهم . ثم اذاع « جاولي » ان امراء بني برسق مزمعون الهجوم عليه والاستيلاء على بلاده ، وانه لا قبل له بهم ، وقد عقد العزم على الذهاب الى (همدان) . فاخذ اتباعه يزينون للاسماعيليين معارضته والتضييق عليه الى ان اقنعوهم بذلك . فخرجوا ومعهم ثلاثمائة من اعيان الاسماعيليين ، وكمنوا في الطريق الى ان ظهر الامير جاولي فالتحقوا به ونزلوا بالسيوف على الاسماعيليين فافنوهم جميعا وغنموا ما معهم من الاسلحة وغيرها .

ومع هذا لم يزل الاسماعيليون على جانب عظيم من القوة في زمن بركياروق . ولقد اوجب سوء الظن به ان اكثر الذين قتلهم الاسماعيليون كانوا من مخالفيه ، واتهم بالميل الى هذه الفئة

ولكن ما كان اهمال بركياروق لامر الاسماعيليين الا عن معاناته لاخيه محمد الذي خرج عليه وعصاه . وما لبث ان هزم جنود اخيه وقتل وزيره . وكان مذهب الاسماعيلية قد انتشر بين العساكر وتفشى بصورة هائلة . فاصدر السلطان امره بقتلهم ؛ فقتل منهم عدد

وافر . وقد كان السلطان بركياروق ارسل « ابراهيم اسد الاباذى » مقدم الاسماعيلية سفيراً الى بغداد فاعدم هناك (٤٩٤) .

وفى هذه السنة ايضاً (٤٩٤) هجم (بزغش) من امراء السلاجقة على بلاد الاسماعيليين وهدم اكثرها وقتل منهم اناساً كثيرين .

٧ ـ محمد السلجوقى والاسماعيليون

تسلطن على السلجوقيين بعد السلطان بركياروق ، اخوه محمد بن ملكشاه وقد ثابر هذا السلطان الذى امتد زمن حاكميته من (سنة ٤٩٨ الى ٥١١ هجرية) على مناضلة الاسماعيليين ومقاومتهم .

ثار (سنة ٤٩٨) من الاسماعيليين جم غفير وخرجوا من (طريثيت) من اعمال خراسان ، ويمموا انحاء « بيهق » ، وامعنوا فى سكان تلك الانحاء نهباً وقتلاً . ثم تسلطوا على الحجاج فى الطريق فقتلوهم عن بكرتهم ، واستولوا على سلبهم واموالهم . وفى هذه السنة ايضاً ظهر الاسماعيليون فى انحاء الشام ، وسخروا حصن « قاميه » وقطعوا السابلة .

هجم السلطان محمد السلجوقى سنة « ٥٠٠ » ، على قلعة « شاهدز » من اعمال اصفهان التى استولى عليها الاسماعيليون قبل مدة ، وسخرها وقتل مالكها « ابن العطاش » وثابر السلطان محمد بعد ذلك على طريقة امحاء الاسماعيليين . وفوض هذه المهمة الى « انوشتكين بن شيركير » المشهور ، صاحب انحاء « آبه وساوه » . ووجهه اليهم .

سخر انوشتكين بضع قلاع للاسماعيليين ، واجلى سكانها الى قلعة « ألموت » ثم زحف عليها . وحصرها . وامده السلطان بالجنود والامراء ، والذخيرة ، وبنى دوراً يأوى اليها فيما اذا امتدت مدة المحاصرة . فضاق الخناق على الاسماعيليين ، واضطروا لان يرسلوا نساءهم واطفالهم الى « نوشتكين » يطلبون منه الامان ورجوه ان يفسح لهم الطريق ليخرجوا من القلعة . فأبى نوشتكين الاجابة ، وردهن الى القلعة . وقد ضاق الامر على حسن الصباح ، واشفى اهل القلعة على الموت جوعاً . وكان كل منهم يتجزأ فى يومه برغيف صغير ، وثلاث جوزات ولكن لم يطل الامر ، حتى جاء نعى السلطان محمد ، ونفس الكرب عن المحصورين ، لان اتباع نوشتكين عزموا على العود منذ جاءهم الخبر ، وقد اراد نوشتكين ان يمانعهم ، وافهمهم ان فى الرجعة خطراً عليهم ، واعلمهم ان تسخير القلعة سهل اذا شددوا الحملة . ولكنهم لم يعبأوا بكلامه ، وتركوه وانسلوا على غير علم منه فبقى وليس معه الا قليل من اتباعه . فهجم عليه الاسماعيليون وهزموه ، واستولوا على جميع ذخائره (٥١١)

٨ . سنجر والاسماعيلون

تسلطن ، السلطان سنجر بن ملكشاه السلجوقى سنة (٥١١) . واصدر امره (سنة ٥٢٠) الى الوزير (المخفى ابى النصر احمد بن الفضل) بان يوقع فى الاسماعيليين اينما حلوا ، ويصادر اموالهم ، ويجلى (ينفى) نساءهم . فجهز ابو النصر جيشين ، وجه احدهما الى (طريثيت) والثانى الى انحاء (بيهق) ، ثم جهز كتائب اخر ، وبثها فى كل جهة يوجد فيها الاسماعيليون ، واذنهم ان يقتلوا كل من لاقوه منهم . فسارت كل كتيبة الى وجهتها واقتحمت الجنود التى هاجمت انحاء (بيهق) ، قرية (طرز) وقتلت جميع من فيهاواضطرت مقدم القرية (حسن بن سمين) ان ينتحر قاذفاً بنفسه من اعلى المنارة . ثم اغتنمت جميع اموال القرية .

٩ . الاسماعيليون فى سوريا

ذكرنا ان الاسماعيليين قدموا الى انحاء الشام سنة ٤٩٨ . ثم اخذت سلطتهم تنمو وتزداد الى (سنة ٥٢٠) حيث قويت شكيمتهم وعظم سوادهم، وتسنى لهم امتلاك قلعة (بانياس) [*] التى هى على ستين كيلومتراً فى الجنوب الغربى من الشام .

وقد كان (لابن بهرام) اليد الطولى فى امتلاك هذه القلعة . و(ابن بهرام) هذا هو ابن اخت (لابراهيم اسد الاباذى) الذى قتل فى بغداد ايام السلطان بركياروق . وقد غادر بغداد بعد قتل خاله وقدم الشام . واخذ يدعو الى الاسماعيلية فجاب البلاد وحشد حوله كثيراً من اجلاف الناس الذين دخلوا فى دينه . ومع هذا فان ابن بهرام لم يزل متكتماً ومستتراً فى دعوته . ثم قدم حلب واقام فيها . وكان حاكم حلب فى ذلك الزمن هو « ايلغازى بن آرتق » الامير الثالث من « ابن الارتق » . [**] «٤٩٨—٥١٦» .

تجامل ايلغازى مع ابن بهرام واشياعه خشية شرورهم ، وبذلك تسنى له ان يقى الناس بغى الاسماعيليين وطغيانهم .

ثم ما لبث ايلغازى ان سير ابن بهرام لعين الغاية الى طغتكين مؤسس حكومة آل طغتكين فى الشام (٤٩٧—٥٢٢) [***] اذ قد استطار شر الاسماعيليين فى هاتيك الانحاء ، وظن طغتكين انه يستطيع اطفاء ثورتهم وردعهم عن الافساد اذا تجامل مع

---

[*] اسمها القديم (قيصرية فيليبس)

[**] حكم (بنو الارتق) (٣٣٤) سنة فى انحاء حلب وديار بكر . وجاء منهم (١٧) اميراً (سنة ٤٧٧—٨١١) .

(***) دامت حكومة بن طغتكين فى الشام من سنة ٤٩٧ الى سنة ٥٤٩ ، وجاء منهم ستة ملوك .

ابن بهرام ووالاه كما فعل ايلغازى . ولكن ابن بهرام تجرأ فى هذه الكرة واضرب عن التكتم والتستر ، وصدع بدعوة الاسماعيليين واخذ يسعى الى ان تكاثف عدد شيعته واتباعه وكان وزير طغتكين (ابو طاهر بن سعد المرغينانى) لا يزال يوآزر ابن بهرام ويجامله مفكراً انه سيستفيد من هذه الموالاة ، على ان ابن بهرام جعل هذا الاقبال وسيلة للقيام بالواجب الدينى ، وبالغ فى الدعوة حتى اصبح اتباعه ضعف ما كانوا عليه بالامس . وانذروا البلدة بخطرهم . والفت هذا الحال نظر اهل الشام ايضا . فادرك ابن بهرام خطر الامر وطلب من « طغتكين » قلعةً ياوى اليها فاقطعه قلعة « بانياس » فسار اليها وخف اليه الاسماعيليون من كل حدب ، واعتصموا بتلك القلعة . وكانت السيطرة الكبرى فى بانياس لابن بهرام . ولم ترق حالة الاسماعيليين فى اعين علماء الدين فى الشام وفقهائها ولكنهم كانوا يهابون السلطان طغتكين من جهة ، ويجتنبون كيد الاسماعيليين وشرهم من جهة اخرى ، ولم يكن لهم من الامر شئ ، فكموا افواههم ؛ والتزموا السكوت .

غادر ابن بهرام الشام وابقى فيها وكيلاً ، وعهد اليه بوظيفة الدعوة الى المذهب ولم يقصر الاسماعيليون فى انتهاز هذه الفرص بل بذلوا جهد الطاقة لتحقيق أمالهم فيها فتكاثروا ، ثم تسلطوا على بضع قلاع فى جبال (سوماق *Somāk*) القريبة من لبنان واستولوا عليها . وابتاعوا قلعة « قدموس » من صاحبها « ابن عمران » (سنة ٥٢٧) وتحصنوا فى تلك القلاع ، وشرعوا يكافحون من فى جوارهم من الاسلام والصليبيين .

وفى ذلك التاريخ « ٥٢٢ » كان « وادى التيم » موطناً لشلة من النصيرية والدروز ، ولبضع قبائل تتألف من مختلفى المذاهب ، يرأسها رجل يسمى « الضحاك » . فتحفز ابن بهرام للتضييق عليهم . ولكن الضحاك باغتهم بالهجوم مع الف من اتباعه فمزق جمعهم وقتل ابن بهرام وفر اتباعه واعتصموا بقلعة « بانياس » .

ترأس على الطائفة الاسماعيلية بعد ابن بهرام بوصايته رجل يدعى « اسماعيل » ولم يلبث هذا الرئيس الا برهة وجيزة حتى تمكن من جمع شتات الاسماعيليين واعاد لهم سابق مكانتهم فى الشام بهمة « المزدقانى » و « ابى الوفاء » من معتمديه ، حتى لقد اصبحت كلمة « المزدقانى » هناك اعلا وارجح من كلمة (تاج الملوك بورى بن طغتكين) سلطان البلاد وحاكمها [٥٢٢ — ٥٢٦] .

لم يطل الامر حتى اطلع (تاج الملوك) ان « المزدقانى » تواطأ مع الصليبيين على تسليم الشام لهم لقاء قصبة صور . وانه يسعى لانفاذ عهده ، فاستدعاه وقتله وعلق رأسه على باب القلعة . ثم امر بقتل (رمضان سنة ٥٢٣) جميع الاسماعيليين فقتل منهم ستةالاف نسمة . وقد خاف اسماعيل صدق هذا العزم ، فالتجأ الى الصليبيين وسلمهم قلعة «بانياس».

١٠ . ايام محمد الثانى . والاسماعيليون .

اشتد أزر الاسماعيليين ، وكثر جمعهم فى زمن « السلطان محمد الثانى بن محمود بن محمد بن ملكشاه » حادى عشر سلاطين السلاجقة فى ايران [٥٤٧ — ٥٥٥] . وتجمهروا [سنة ٥٤٩] فى انحاء « قهستان » وحشدوا بين فارس وراجل مقدار (٧) الاف رجلاً ، واغتنموا فرصة انشغال السلجوقيين فى حرب « الغزيين » وساروا الى انحاء خراسان . وقد صادفهم « فرخشاه بن محمود الكاسانى » من امراء السلاجقة اثناء مرورهم بانحاء « خواف » ولكنه هابهم ولم يجسر ان يتعرض لهم . غير انه اوصل خبرهم الى « محمد بن آنره » احد امراء خراسان ، ودعاه الى الاشتراك مع بقية الامراء وقمع هذه الفئة والتنكيل بها .

وعليه نشب الحرب بين الاسماعيليين وامراء خراسان ، ودام مدةً طويلة ونتج بفشل الاسماعيليين وهزيمتهم ، وقتل من اعيانهم عدد وافر . واضطروا لاخلاء اكثر قلاعهم .

وبعد هذه الواقعة بسنتين «٥٥١» هب الاسماعيليون للاخذ بالثار ، ودخلوا فى ملحمة كبيرة مع السلجوقيين فى موقع «طبس» ، واسروا عدة رجال من اعيانهم . ونهبوا اموالهم وسلبهم واجلوا اطفالهم .

وفى سنة «٥٥٢» حشد سلطان مازندران « رستم بن على بن شهريار » جنوده وهجم على قلعة « ألموت » . ثم اغار على قرى الاسماعيليين فهدمها وحرقها ، وقتل سكانها واستولى على اموالهم وشتت نسائهم واسترق اطفالهم .

وفى سنة «٥٥٣» تجمهر «٧٠٠٠» محاربا من الاسماعيليين ، فطرقوا قرى التركمان وهى خلوف ، فامعنوا فيها احراقاً وهدماً ونهباً . وما كادوا يرجعون الا وآب رجال التركمان ، وجدوا فى طلبهم فادركوهم وهم يتقاسمون الاموال ، فشدوا عليهم واسرفوا فى القتل ، فلم ينج منهم الا تسعة انفار . ولم يحدث بعد من المناوشات الا الطفيف .

١١ . صلاح الدين الايوبى والاسماعيليون

تعرض الاسماعيليون للملك الناصر ابو المظفر « صلاح الدين يوسف بن ايوب » مؤسس الدولة الايوبية فى مصر ٥٦٧—٥٨٩ (*) وارادوا قتله . فشد عليهم واحرق مواطنهم ،

(*) حكمت الدولة الايوبية فى مصر من سنة ٥٦٧ الى سنة ٦٤٩ . وجاء منهم عشرة ملوك . وما عدا هذه ، وجد لهم بقية حكمت فى حمص واليمن وحلب وحصن كيف وحما والشام فى تواريخ مختلفة .

وزحف على (مصياف) التى هى من احصن قلاعهم وحصرها ورماها بالمجانيق.
فلما ضاق عليهم الخناق، وعلموا ان لا مناص عمدوا الى امامهم اسمه «سنان» وارسلوه الى (شهاب الدين الحارمى) صاحب حماه، وخال لصلاح الدين وعزموا عليه ان يسعى بينهم بالصلح، والا فانهم يقتلونه. فقبل الوساطة، وراجع صلاح الدين فى ذلك فخلى عنهم.

١٢ · آخر ايام الاسماعيليين

لا جرم ان زمان (حسن الصباح) كان احسن ايام «الدولة الاسماعيلية الشرقية». اما الرؤساء الذين اتوا بعده كانت مزيتهم الوحيدة انهم لم يألوا جهداً فى اهراق الدماء. ولم يتسن للاسماعيليين تأسيس دولة قوية. بسبب الفوضوية الداخلة فى اساس دينهم، ومعارضة ملوك السلاجقة لهم من جهة اخرى اوجبت تفريق جمعهم وتمزيق شملهم. ولذلك كانت دولتهم فى الشرق عبارة عن ثلة فوضوية سفاكة؛ اما سيرتهم فهى صحيفة بطش وفتك يقطر منها الدم.

حكم «الغوريون» فى بلاد خراسان بعد ان بادت دولة السلاجقة الايرانية (٥٩٠ هـ) فقام الاسماعيليون الى مناهضتهم، وعادوا الى ديدنهم فى اهراق الدماء.

ثم ظهر «آيتغمش» — لعله آى طوغمش — من مماليك «جهان پهلوان» من اتابكه آذربايجان (٦٠٠—٦٠٨) فاكتسح بلاد الاسماعيليين فى انحاء قزوين (٦٠٢) وهدم لهم خمس قلاع وقتل كثيرا منهم.

تأسست شعبة من الغوريين فى «باميان» بعد ان درست حكومتهم الاصلية (٦٠٤) وعمد الاسماعيليون (٦٠٩) فقتلوا اميراً من امراء (جلال الدين) رابع وآخر سلاطين هذه الشيعة. فغضب هذا السلطان واقتحمهم بجنوده، فاكتسح بلادهم من «ألموت» الى «كردكوه» فى خراسان وهدم اكثرها، وقتلهم قتلاً ذريعاً (٦٢٨).

ثم جاء هلاكوخان الشهير (٦٥٤) واسر «ركن الدين خاورشاه» رئيس الاسماعيلية ثم قتله وهدم قلاع [آلاموت، ميمون ديز، لار، سروش، سرخ درنك، بتره، بهرام ديز، ايهن كوه، موران تاج، يمران، فردوس، منصور] (*) وانزل عليهم تلك الضربة القاضية التى كادت تقضى عليهم.

ثم جاء الملك الظاهر بيبرس من ملوك الجراكسة فانتزع منهم قلعة (مصياف) الشهيرة. واخذ جميع ملوك آسيا بعين هذه السيرة فلم يدخروا وسعاً فى قتل من وصلت ايديهم اليه

(*) راجع نسخة (حزيران ١٨٤٩) من Journal Asiatique

من الاسماعيليين وبهذا استؤصلت شأفة الاسماعيليين الذين رجفت من هول فتكهم البلاد؛ وبلادهم فى آسيا الغربيـة الممتدة من بحر الابيض الى داخل بلاد الترك، او بالاصح من جبال سورية وخراسان وبحر الخزر، الى المسواحل الجنوبية من بحر الابيض تمزقت ايدى سبا.

ومع هذا فان هذه الفئة لم تهلك بتاتاً. بل لا تزال اليوم لها بقيـة فى بلاد فارس وسواحل نهر «السند»، وفى ناحية قدموس وخوابى من قضاء مرقب من اعمال بيروت وفى انحاء مصياف وسليميه من لواء حماه التابع لولاية الشام، وفى دمشق ايضاً. اما عددهم فيتراوح فى اصقاع حماه بين (٨٠٠—١٠٠٠) وفى ناحيتى خوابى وقـدموس (٣٠٠٠—٤٠٠٠) نسمة. ويوجد منهم فى دمشق فى محلة الحشاشين من ثمن الميدان مقدار مائـة نسمة. ومجموع عددهم فى البلاد العثمانية يناهز خمسة عشر الفـاً وانهم الآن على غاية ما يكون من السكون.

٢ — النصيرية

[١] — *مقدمه تاريخ النصيريه* — ان الديانة النصيرية التى لها القسم الجلى من سلسلة المذاهب لم تتضح بعد، ولم تزل اتباعها معروفة بالاغراق فى كتم اسس المذهب والإبلاغ بصيانة شنشنته ومراسمه. وكان من المنتظر من علماء الغرب الذين عالجوا اعسر الكتابات واعمضها فى مختلف الانحاء من البر العتيـق ونفذوا لغورها واقتدروا على استنبـاط معانيها، ودونوا فيها الوفاً من المصنفات والرسائل ان يمدوا ايديهـم الى هذا الحجـاب الكثيف فيمزقونه، ويظهرون ما ورائه من الخبايا. ما لبث مذهب النصيرية الذى زادتـه اسنادات الفرق الدرزية والمتوالية والاسماعيلية تشوشاً واشكالاً، ان حرك شوق المستشرقين لدرسه والاقبال على استكناه حقيقته. وسنرى فى المبحث الخاص ان ابن تيمية وابن بطوطه وابن جبير وابا الفدا من العلماء والمؤرخين الاسلامية وقليلاً من خواص الاسماعيليـين، والدروز عالجوا معرفة عقيدة هؤلاء الجبليين وكتبوا فيها كتابات كثيرة.

ثم نهـض المستشرقون الاوروبيـون فى اواخر القرن الاخير، وبعد انتشار كتـاب «الباكورة — كما سيمر معنـا — وعمدوا الى المدونات الموجودة فرتبوهـا انواعاً، ووسعوا ميدان البحث والتدقيق، ثم نصبوا انفسهم لاستكناه ماهية هذه العقيدة.

لا يفوتنا ان موضوعنا هذا لا يزال فى اشد الحاجة الى البحث العميـق، والتمحيص الدقيق؛ ذلك لعدم كفـاية ما كان الى الان من الابحـاث العلمية وندرة الوثائـق اللازمة. وسيطلع القارئ على صدق هذا المقال، حينما يمعن بقرائة هذه المباحث فى كتابنا.

اضطررنا لان ندرس كثيراً من الكتب والرسائل المدونة بلغات مختلفة وان نلخص منها

ما يناسب حجم هذا الكتاب، ليتسنى لنا ان نكتب ما نكتب على الحياد ونقدر ان نبين للقارئ في مذهب النصيرية فكراً واضحاً يأخذ بالحقيقة. واكثر ما رجعنا اليه من المصنفات حين الجمع هو « تاريخ النصيرية ودينهم» للمستشرق الشاب *René Dussaud* من العلماء الفرنسويين. ومع ذلك فقد كنا نرجع الى الآثار الآتية كلما مست الحاجة.

١ . — كتاب الباكورة السليمانية في كشف اسرار الديانة النصيرية :

صنف هذا الكتاب « سليمان افندي الاذني » المولود في انطاكية سنة ١٢٥٠ هجرية . يقول الطبيب الحاذق « واندبك » من معلمي الكلية الاميركانية في بيروت : « ان سليمان افندي كان نصيرياً ثم انسلخ عنها الى اليهودية ثم اسلم ولم يلبث ان انتسب الى البروتستانية وألف كتابه في بيروت وطبعه على عهدته ».

ان ما تضمنته الباكورة من المواد هي عين الحقيقة كما يشهد لها كثير من الاخصائيين والمستشرقين. وكادت تجمع جميع الاعتقادات النصيرية . وقد حنق عليه ابناء النصيرية لانه اول من فضح دينهم واظهره ، ففتكوا به في قصبة طرسوس . وكاد هذا الكتاب يدخل في الندرة.

٢ — كتاب المجموع .

ان هذا المصنف الذي اثبتناه في كتابنا مع ترجمته يتألف من « ١٦ » سوره تبحث عن عقائد النصيريه وصلوتهم . وهو كتاب خطير كاد ان يحتوي على جميع الاسس في العقيدة النصيرية . ويتوقف فهم مضمونه على التضلع في الامور الدينيه والتوغل في تتبعها واختلف في مؤلفه فمنهم من يسنده الى « عبدالله بن حمدان الخصيبي » احد المقدسين لدى النصيرية. ومما راج من الخرافات عند النصيرية ان محمداً عليه السلام هو الذي رتب هذا الكتاب ، واهداه الى النقباء الاثنى عشر المذكورين في السورة السادسة في « وادي منى » القريب من مكة وذلك عن غير علم من المسلمين . وان لتفسير سور هذا الكتاب موقعاً عظيماً اثناء اجراء المراسم في نقل احد النصيريين من الطبقة العامة الى الخاصة بواسطة الشيوخ .

٣ — كتاب مجموع فيه الاعياد والدلالات.

وهذا الكتاب يبحث عن اعياد النصيرية وقد كتبه « ابو سعيد ميمون بن القاسم الطبراني» الذي يأتي بعد الخصيبي في الاهمية . وقال مؤلف الباكورة « ان ميمون الطبراني تلقى علومه من الشيخ « محمد على الجبلي » وقد افحش فيه بسب ابي بكر ، وعمر وعثمان ، وشتمهم .

٤ — كتاب الاسوس :

يزعم النصيريون ان مؤلف هذا الكتاب . هو « سليمان بن داود » عليهما السلام

وقد نقل سنة ١٢٠٦ هجرية عن نسخة وجدت فى قرية (رأس بعليه) فى منطقة عليقة الواقعة فى قضاء صافيتا . ويبحث فيه عن الله والخلق والملائكة ، وعن موجودات السماء والارض .

ويوجد ما عدا هؤلاء المصنفات اكثر من ثلاثين كتاباً ومجموعة تمكن الاستفادة منها فى البحث عن النصيرية وقد ازمعنا على درج اهمها فى جدول اسماء الكتب .

[٢] — **الديار والنفوس** — تنتهى جبال لبنان من الجانب الشمالى ، بنهر الكبير (*Eleuthère*) الذى يصل وادى العاصى بسواحل بحر الابيض ، ويجرى فى واد عميق . اما الجبال الموجودة وراء هذا الوادى فهى تمتد حتى انطاكية على ارتفاع متوسط يقرب من (٩٠٠) متراً وهى محرومة من السهول والنجود . ويجرى هناك نهر العاصى فى واد عميق . ويتصل جبل الاقرع (*Cassius*) فى هذه السلسلة من الجانب الشمال الغربى .

ان تلك الوعور التى يحدها نهر الكبير من الجنوب ؛ ونهر العاصى من الشرق والشمال وسواحل بحر الابيض من الغرب هى موطن النصيريين . ويوجد فيها قليل من الاردمن ، وفى انحاء قدموس وخوابى يوجد الاسماعيليون وفيها التركمان ايضاً مبعثرون فى انحاء مختلفة. وتسمى تلك الانحاء بجبل الاكراد . لان الزاوية الجبلية الكائنة بين النهر الكبير الشمالى ، واصقاع العاصى ماهولة بهم .

يوجد من النصيريين عدد وافر فى جبل القصير الواقع فى الجهة الشمالية من سورية ويفرق النصيريون القاطنون فى انحاء طرسوس ومرسين وآطنه ، بسعيهم وغنائهم عن سكان الجبل الكسالى والفقراء . وقد كان يوجد كثير من النصيريين فى الانحاء الجنوبية التى تبتدأ من النهر الكبير الجنوبى . ولكنهم اخذوا فى المدة الاخيرة بالهجرة الى الجهة الشمالية ، وذلك لضغط المارونيين ولاسيما الاورتودوقسيين عليهم بصورة غير محسوسة . وبسبب الزراعة ربما يعثر على قرى نصيرية فى الشمال من سهول البقاع والغرب من بحيرة حمص . اما النصيريون فى انحاء العراق فعلى غالب الظن لا يتجاوز عددهم بضع مئات . اما ما ادعاه « مسيو دهغوبينو *De Gobineaus* » بان خمس الاعجام نصيريون فذاك امر يقتضى التمحيص والدرس العميق . وعليه يجب قبوله مع الظنة :

يمكن ان يقال ان عدد النصيرية فى لوائى اللاذقية وطرابلس وولاية حلب يناهز ١٣٠٠٠٠ نسمة برواية رونه دوسسو — *Dussaud*) . والذين فى انحاء آطنه ومرسين منهم لا يقل عددهم عن (٢٠٠٠٠) نسمة .

[٣] — **منشأ النصيريين** — لا نبالغ اذا قلنا انه لم تتفق الآراء فى الحكم على هذه المسئلة . يقول بعض المؤلفين ان النصيريين نجوا عن اقتران الاهلين بالافرنج ؛ وهؤلاء المتمسكون فى هذا الادعاء مستندين على ما هو موجود بين النصيريين من شقر الشعور ، وزرق العيون ، وعلى بعض اسماء الاسر التى يزعمون اشتقاقها من الافرنجية ، لاجرم انهم مخطئون . والادعاء بان الافرنج تمكنوا من ايجاد هذا النسل الوافر بظرف قرنين ونصف بعد من السذاجة . والصليبيون فى هذه المدة التى تعد يسيرة فى جانب حياة الامم ، لم يتمكنوا من تخليد اثر مادى سوى بضعة مواقع تاريخية .

نهض موسيو هارتمان احد المؤلفين الالمانيين واذاع انه يريد البحث والتنقيب عن الاسر الكبيرة فى سورية التى هى من بقايا الافرنج ، ثم ما لبث ان نشر بعض آرائه (*) . وقد التبست عليه بيت الشامبور هل هى مشتقة من كلمة *Chambord* ام لا .

ويزعم العلماء « كارنست رونان » و« پهر لامنس » ان النصيريين كانوا يدينون بدين النصرانية ، وبعض من حذا حذوهم من العلماء يبرهن على هذا الراى قائلاً ان كلمة « نصيرى » هى مصغر النصرانى . وعليه تسوغ تسمية النصيريين ، بصغار النصارى — *Petites Chrétiens* .

وقد دخل هذا التوجيه فى كثير من الكتب الحديثة . على ان خطأ هذا الاشتقاق معلوم لدى كل من له ادنى المام فى القواعد العربية . لان مصغر النصرانى ليس بنصيرى ، بل هو نصيرانى . وما عدا هذا فقد تنقب « ابو الفرج » بطريق حلب ومن مؤرخى القرن (١١) الميلادى منشأ النصيريين ، ولكنه لم يزعم انهم من النصارى .

وقد كثر من تمسك بهذا الادعاء الغريب من مؤلفى الافرنج . فزعم مريتى *Mariti* الايطالى ان اليزيديين — الذين ينطق اسمهم عن دينهم — هم من الجزويت . وزعم آخر ان الدروز هم من احفاد *Dreux* احد الامراء الفرنساويين .

وقد برهن الفحص الفنى على ان اسم هؤلاء القوم منسوب الى « محمد بن نصير » الذى هو من اتباع « حسن العسكرى » من رجال القرن التاسع للميلاد وحادى عشر ائمة الشيعة . ومذهبهم يماثل مذهب الاسماعيليين . ولكن لا تزال العداوة والبغضاء مستحكمة بين الفريقين رغماً عن تلك المماثلة المذهبية .

ما كان محمد بن نصير ليشذ عن دأب صناديد الاديان ؛ بل اخذ بشنشنتهم ، وتطوق بهالة خرافية كدأب الذين من قبله .

(*) Das Liwa el-Ladkije und Naye Urdu, ZDPV.,

يزعم النصيريون ان محمداً هذا ، هو ابن « نصير » من وزراء معاوية وقد كان يدين بالنصيرية . وشاع فى تلك الاونة دخول رجل اسمه «احمد البنا » فى هذا المذهب فسعرت النار لاحراقه ، وعزموا على القائه فيها ثلاث مرات فكان ينقلب الى صورة يزيد بن معاوية فى كل مرة ؛ فيرتدع الخليفة عن قذف ابنه فى النار . واثر هذا الحال على عواطف الوزير النصيرى ، فاسترضى معاوية بتقديم ابنه الوحيد ليحرق مكانه ، وضم ذلك المظلوم اليه ، وتبناه . وكان يومئذ عمره (١٠٥) سنة ثم نزل عليه الروح الامين فبشره بغلام جزاء انقاذه النصيرى من النار ، ولم تلبث امرأته العجوز ان ولدت ذلك الغلام ، فكان هبة الله « محمد بن نصير »

اما « ابو شعيب محمد بن نصير العبدى البكرى النميرى » المذكور فى السورة الاولى والرابعة من كتاب المجموع فهو « الباب » الى «حسن الآخر العسكرى » حادى عشر ائمة الشيعيين . وعليه يكون ظهور رئيس النصيرية فى النصف الاخير من القرن التاسع للميلاد اى « سنة ٢٦٠ هجرية » . والغالب فيه ، انه اعجمى الاصل ، وكلمة عبدى فى الاسم تدل على انه كان مولى لاحدى القبائل العربية .

ويزعم ايضاً ان النصيريين ينتمون الى « نصير » مولى على بن ابى طالب ، وانهم عراقيون ، وعلى رواية اخرى انهم من انصار النبى ، ومهاجرى الحجاز وهذه الروايات — مع بطلان بعضها — لم تكد تستقر على يقين علمى . وسنتمكن من ايضاح هذه النقطة فى الفصل الآتى :

[٤] — **تاريخ النصيرية** — منذ ايام الرومانيين الى القرن الحديث — . كان النصيريون فى ايام الرومانيين ايضا . ويروى « استرابون » من مؤرخى يونان ان النصيريين حافظوا على كيانهم واستقلالهم تجاه الفنيقيين فى العصر الاول للميلاد . وشد ما امعنت النصرانية فى الانتشار والتعمم بين الوثنيين فى سورية ، ولكنها لم تستطع ولوج تلك الجبال على النصيريين ، فكانوا فى معزل عن تبشيرها . ويبرهن على صدق مدعانا مايعثر عليه فى انحاء سورية من انقاض البيع والكنائس المبنية على طراز القرن الخامس ، والسادس للميلاد التى لا اثر لها فى بلاد النصيرية .

ويغلب فى الظن ان المسلمين ايضاً لم يتمكنوا من اكتساح جميع هاتيك الشواهق فى القرن الميلادى السابع . واسم النصيرية لم يدخل التاريخ الا منذ القرن (١١) . وقد اخترقت جنود الصليبيين هذه الجبال من انحاء متفرقة ؛ وتمكن « صلاح الدين الايوبى » ايضاً من استمالتهم ، والاحراز على طاعتهم .

نهض الاسماعيليون فى القرن الثانى عشر للميلاد ، وارادوا ان ينتهزوا فرصة ما جنته

ايدى الافرنج على سورية من الارتباك والتشوش الادارى ؛ وعمدوا الى قصبة بانياس القريبة من الشام فاستولوا عليها . ولكن لم يقدروا على الاحتفاظ بها ، وعجزوا عن الدفاع ، ثم غلبوا وفروا الى جبال النصيرية . وقام رئيسهم « شيخ الجبل » ففتح قدموس وكهف ومصياد وقاهر ومانيقه وخوابى ومرقب من بلاد تلك الديار ، وادخل النصيريين فى طاعته .

ثم أخذ شيخ الجبل « رشيد الدين سنان » باستمالة الجبليين اليه . وتسنى له ادخال كثير منهم فى زمرته رغماً عما تكنه صدور الطائفتين — الاسماعيلية والنصيرية — من الضغائن والبغضاء لبعضهما .

وفى اوائل القرن التاسع عشر للميلاد نبغت عشيرة « بيت رسلان » التى هى من اعظم العشائر النصيرية ، وزادت بسطتها ، وقويت شوكتها واصبحت ذات السيطرة على جميع مشايعيها . وقد نهضت لقتال الاسماعيليين اعدائها وهجمت على قصبة « مصياد » حيث فتحتها وذبحت جميع من فيها . ولم تلبث « ايالة الشام » فى ذلك الزمن ان جهزت مقدار خمسة آلاف جندياً وسيرتهم اليها ، ولكن ما كان من هذا الجند الا ان نهب بضع قرى وعاد الى حيث اتى .

ولما اقبل « ابراهيم باشا » المصرى بجنوده ليفتح سورية (١٨٣٢ — ١٨٣٣) تحفزت لرده عشيرة « شمسين » الحاكمة على ضواحى « صافيتا » ، وحاولت ان تقف امام تياره ؛ ولكنه اناخ عليها بكلكله ، فبطش برؤسائها ، ودمر جميع حصونها .

وفى سنة (١٨٥٤) ميلادية . قام « اسماعيل بك » احد رؤساء النصيريين ، المنتمى الى عشيرة « المتاورة » والمولود فى قرية « لوكبه » القريبة من بلدة « حما » وانتهز فرصة انشغال الدولة العثمانية بحرب الروس ، فشق عصا الطاعة وجاهر بالعصيان ، وحشد حوله كثيراً من عشائر النصيرية ؛ ثم انتقل الى (صافيتا) وسمى نفسه « مشير الجبل » ، واخذ يشتغل بادارة تلك الاصقاع على وجه شبيه بالاستقلال . وقد كانت الدولة يومئذ مرتبكة فى الغوائل الخارجية فرأت ان تجنح معه الى السلم واقطعته تلك الانحاء ونصبته وال عليها .

ما لبث الوالى الجديد الا واغرق فى الترف ، وتسرب الى البذخ حتى كان قصره مختصر بلاط سلطانى . واصبح الرسلانيون والشمسيون ، والخياطيون ؛ اولئك الذين رجفت لسطوتهم قلوب الجبليين ، يدأبون لمرضاة هذا السيد الجديد ، وبذلك تسنى لهم الخلاص من الظلم ، والعسف الذى ارهب جميع الناس .

رأى اسماعيل خضوع (١٢٠) الفاً لحكمه المطلق ، ورأى فى نفسه من البأس والقدرة ما مكنه من جميع آماله ، فرنحه ذلك السلطان وغرته تلك المكانة ؛ فاستسلم الى

الطمع ، وطلب من الدولة ان تقطعه قلعـة حصن الاكراد يضيفهـا الى ما فى حوزته من البلاد ، وقد نجح طلبه ، واسعف ، ولكن نهض سنيو سورية واظهروا مخالفتهم على اقطاع تلك القلعة الخطيرة الى النصيريين ، وجاهروا بالثورة والعصيان ، وجرت بين الطائفتين حروب متعددة. اما الدولة فقد آزرت السنيين وامدتهم بخمسة الاف جندياً فانهزمت طائفة اسماعيل بك ، وجد « طاهر باشا » قائد الحملة فى طلبه ، حتى ادخله قرية « لوكبه» التى هى مسقط رأسه حيث قتله فيها احد النصيريين .

اخذت الحكومة ادارة النصيريين بعد ان قتل اسماعيل بك على عهدتها واسست فى بلادهم الاسس الادارية ، ومع هذا لم يخلص النصيريون من الظلم والعسف . ولم تكن ثوراتهم فى سنة ١٨٣٧ و١٨٧٠ الا من سؤ تلك الادارة .

كانت اللغة السريانية متفشة بين النصيريين قبل مهاجرة الاسماعيليين فى اوائل القرن الحادى عشر . ولم تزل بعض كلمات تلك اللغة موجودة فى لغة النصيريين الى الان ،ويستدل من كثرة الكتابات اليونانية الموجودة هناك ، على ان تلك اللغة كانت متفشيه عندهم قبل السريانية .

[٥] — **دين النصيرية** — تتالف احكام الدين عند النصيريين الذين عهد الينا البحث عن شؤونهم العمومية : من العقائد ، والصلاة ، ومراسم الدعاء ، ويسير من الاخلاقيات .

ان اول اعتقادهم هو تثليث الآلهة ، اى ايمانهم بثلاثة آلهة . ويسمون اول هؤلاء الآلهة « المعنى » والثانى « الاسم » والثالث « الباب » . ويقصدون الغيب المطلق من المعنى؛ والاسم الصورة الظاهرة للمعنى ، اما الباب فهو الطريق الموصل الى الغيب المطلق.وقد كان قدماء علماء النصيرية يسعون لايضاح هذا « الواحد المثلث » وتفسيره ويستعينون ببعض ما تمسك به النصارى من الادلة والبراهين .

يدعى المستشرق پهر لامنس احد معلمى المدرسه اليسوعية البيروتية الملغاة ، ان النصيريين كانوا على دين النصرانية قبل الاسلام . ويؤيد صدق مدعاه بما شاهده من انقاض البيع والكنائس فى محلات متفرقة فى تلك الجبال. ويجب على القارئ ان يكون على يقظة من امره تجاه هذا الادعاء . لان هذا المستشرق ينتمى الى فئة الجزويت التى لو مكنت لجعلت جميع سكان البسيطة نصارى . هلا نرى منهم « پهر شيخو » الذى حشد فى كتابه « شعراء النصرانية » كل غريبة ؟ الم يجعل اكثر شعراء الجاهلية من النصارى ؟

لم يخلص النصيريون من تاثير النصرانية فى مراسمهم الدينية . وسنتكلم عن هذه المسئلة ونفصلها بعد . وان المستشرق دوسو— *Dussaud* ينكر على من يزعم ان النصيريين

دخلوا فى النصرانية قبلاً ثم انسلخوا عنها . ويأتى بالبراهين الناصعة ، والحجج القاطعة فى تأييد مدعاه . ولا بد لمن يطلع على آراء هذين المستشرقين ان تعتريه الحيرة ، ويظن الظنون وهذه احدى المسائل المهمة التى لم تحسم بصورة يقينية .

ينقسم اشياع الديانة النصيرية الى اربع شعب :
الحيدرية ، الشمالية او الشمسية ، الكلازية او القمرية ، الغيبية . لا ننسى ان هذا الانقسام منحصر فى الفروع . وان « كتاب المجموع » المقدس جعل جميع افراد النصيرية مندمجة فى الوحدة الدينية .

يقسم النصيريون زمانهم الى سبعة ادوار ، كل واحد منها تمثال لا آه . وسبب هذا التقسيم هو انقسام الاسبوع الى سبعة ايام . ويزعم الاسماعيليون وجود نبى ناطق فى كل دور من هذه الادوار . وهو مكلف بتعليم اسس الديانة ونشرها . ويأتى بعد كل نبى سبعة ائمة لاجل اتمام شريعته ، والاول من هؤلاء السبعة يكون كالاساس . فآدم ونوح ، وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر ، هم انبياء صدعوا بالنبوة وجاهروا بها .

وتزعم هذه الفئة ان الائمة السبعة الذين ظاهروا النبى عليه السلام هم : [على بن ابى طالب « وهو اساس محمد الناطق » ، الحسن ، الحسين ، على بن الحسين ، محمد بن على ، جعفر بن محمد ، اسماعيل بن جعفر] .

ويعتقد الاسماعيليون ان قد جاء الائمة الستة المكلفون بتعليم الشريعة المحمدية ونشرها ودرجوا . ولذلك يجب الانتظار لبعثة مهدى آخر . والنصيريون يجحدون هذا الادعاء ويقولون : ان الدورة السابعه للزمن قد تشرفت بتجلى الالوهية فى على بن ابى طالب للمرة السابعة .

والباطنيون لم يفترقوا الا بعد وفاة اسماعيل بن جعفر . فمنهم من يعتقد ببقاء امامته بعد وفاته ، وانه سوف يكون مهدياً ويرجع الى عالم الظهور . اما الفرق الاخرى ، فتعتقد بانتقال الامامة الى موسى اخى اسماعيل (*) . وان كتاب « مجموع الاعياد » الذى هو من اهم الكتب لدى النصيريين يعدد الائمة ، ويذكر موسى بعد جعفر عوضاً عن اسماعيل . وبما ان « محمد بن نصير » كان من شيعة « حسن العسكرى » حادى عشر الائمة الشيعية ، لا يستغرب عن اتباعه النصيريين انكار امامة اسماعيل بن جعفر التى آمنت بها الاسماعيلية ؛ والاخذ بامامة موسى الذى هو جد « حسن العسكرى » . ومع هذا فان النصيريين يعتبرون الائمة سبعة ، كما هو منصوص فى السورة السابعة من كتاب المجموع .

(*) تاريخ النصيرية لرنه دوسسو (René Dussaud) ص ٤٢

يزعم النصيريون ان المعبود المقدس واحد، من جهة الغيب، ولكن يتعدد فى الظهور فيحل فى الاجسام، وما هذه الاجسام الا الكواكب السبعة التى تقلدت ادارة الكون .

حتى ان فرقة من الاسماعيلية تزعم ان على بن ابى طالب الذى هو اساس لمحمد عليه السلام قد باح بجميع اسراره الى النبي ولكن لم يطلعه على المعنى، او بالاوضح ان «المعنى» بقى فى نفسه وبهذا يكون هيء وسيلة تساعد على خلق دين آخر . والنصيريون يصعدون بعلى الى درجة الالوهية، ويلصقونها بكل «اساس» حاز عنوان «المعنى».

وتوجد فروق ظاهرة بين هاتين الفئتين:

يؤمن الاسماعيليون بان «الناطقين» الذين هم شكل متجسد «لعقل الكل» هم اول ممثل للمظهر الالهى وقد زعم كل من الحاكم بامر الله، ورشيد الدين سنان حين ادعائه بالالوهية انه «الناطق» السابع .

اما عند الدروز الذين هم اقرب الى الاسماعيلية من النصيرية، فالاساس يأتى بعد الناطق وبالنظر الى العقيدة الباطنية فى الاسماعيليين، ان علياً اكبر من نبى الاسلام [*] .

وان «للمعنى» الذى هو مرادف لكلمة «الله — على» قيمة خاصة فى دين النصيرية وكما ان «يسوع» عند النصارى، هو كلمة الله، فعلى ايضاً هو «المعنى» عند النصيريين ولهذا سميت هذه العقيدة بـ «المعناوية» .

ولكن الدروز يفترقون عن النصيريين فى هذه المسئلة . وقد بالغ حمزة بن على فى الطعن على هؤلاء قائلاً : لا جرم سينسلخ عن رحمة الله فى الدنيا والاخرة كل من اعتقد بحلول «المعنى» فى على بن ابى طالب، وعبده كالنصيريين . [**]

و«بن تيمية» من العلماء الاسلامية، شدد النكير فى فتاواه المشهورة على النصيريين بسبب هذا الاعتقاد وطبق عليهم بحملة شعواء

ولا ما اقترفه امراء الامويين من الظلم والجور على اولاد على، كان سبباً لاقبال اكثر الفرق الاسلامية عليهم، وحبهم لهم والاخذ بيدهم، وكانت تلك الافاعيل الروحية فى بلاد العجم من الشدة على درجة اصبحت منها الاسلامية على شفا الخطر

واخذ بعض الفرق الاسلامية كالشيعة والخارجية، وفروعهما يدينون بما يخالف نص الفرقان من الاعتقاد واضطر الخلفاء، وغيرهم من الحكومات السنية الى اختيار الشدة،

(*) يقول رونه دوسسو فى الصحيفة ٤٥ من كتابه «تاريخ النصيرية» ان هذا شاذ . وقد ذكرنا فى الصحيفة (١٠١) من كتابنا هذا ان الاسماعيليين يعتقدون ان «الاساس تحت الناطق»

(**) نسى على بن حمزة — اثناء الطعن — عقيدة الدروز

واستعمال القسوة ليلفتوهم عن ضلالتهم . ولكنهم لم ينزجروا ، واخذ مذهبهم يربو ويتفشى بسرعة هائلة .

قال «ابن حزم» اثناء البحث عن هذه الفرق والتنديد بها :

افرط بعض فرق الشيعة بالغلو الى درجة ، اعتقدوا فيها بالوهية علي ، والائمة من بعده . ومنهم من وصل في الغلو الى تحريف المعاني الظاهرة من القرآن . كزعمهم بان القصد من كلمة السماء هو «محمد» ، وكلمة الارض هي «الاصحاب» ، و«العمل الصالح والعدل» هو «علي» والمراد من «الجبت والطاغوت» هما «ابو بكر وعمر» ، والصلاة هي «الامام» ، و«الزكاة» هي الاموال التي تعطى له ، و«الصحبة» هي «زيارة الامام» .

انتشر دين النصيرية في اوائل القرن الخامس للهجرة ولم يزل الى الان محتفظاً على مكانته الاولى . ويعتقد ذووه بوحدانيـة الخالق ، ولكنهم يزعمون تجسد الالوهيـة في ذات «علي» ويضعون كلمة «علي الاعلى» بازاء كلمة «علي الله» .

ولا جرم ان الحاكم بامر الله الفاطمي ، استعان بهذه العقيدة النصيرية لما توسع في معنى ألوهية علي ، وادعى انه تمثال لها ، واسس الدرزية بمعونة وزيره «حمزه» . وهكذا فعـل «رشيد الدين سنان» ، واتبع عين الخطة .

يقول النصيريون ، خلافاً لما يعتقده المسلمون :

«ان علي بن ابي طـالب ، واحد لا يزول ؛ وهو حاضر في كل مـكان وزمان . وهو نور النور الذي ينير جميـع الكواكب . وان تفتت الصخور ، وتكون البحور ، وجميع الحركات ، هي تحت تصرفه وارادته ، وعلي الذي يبيد الكون ، غير مستور بحجاب مادي ، بل هو كامن في انوار الذرات الالهية وما «المعنى» الا هو ، وهو امام في الظاهر ، ورب في الباطن وابو بكر وعمر وعثمان ، هم تماثيل الشيطان . والجهاد المقدس يجب ان يكون على الفرق التي تزعم ان علياً وغيره من الانبياء ياكلون ويشربون كسائر الناس ، وانهم ولدتهم النسـاء [*] . ويجب تطبيـق الجزاء نفسه على من يخون عهـد النصيرية ، ويبوح باسرار العقائد ، [**] . »

يتضح لنا من هذا ، ان النصيريين يعتقدون بحلول الالوهيـة في علي ، ونرى في السورة الحادية عشر من كتاب المجموع هذه العبارة «اشهد بأن ليس آلهاً الا علي بن ابي طالب الاصلع المعبود» ، وهي تنطق بحقيقة تلك العقيدة واسسها . والائمة تمثل علياً في لارض ولعدم وجود الائمة اليوم ، كان من المحتم انابة المشايخ عنهم . وهؤلاء لهم السيطرة

(*) سور كتاب المجموع .
(**) كتاب الباكورة

التامة على دين الافراد ودنياهم . وكل نصيرى من اى طبقة كان مجبور على استشارة الشيخ قبل مباشرته بأى عمل كان

يقرأ النصيرى فى السورة الخامسة من كتاب المجموع « . . . واشهد بان السيد محمد خلق السيد سلمان من نور نوره وجعله بابه وحامل كتابه » .

ان ما فصله سليمان افندى مؤلف كتاب الباكورة هو افصح واوضح :

يعتقد النصيريون ان عليا « اب » ومحمداً « ابن » وسلمان الفارسى « روح القدس » ؛ وان سلمان الفارسى خلق الايتام الخمسة المولجين بادارة السكون . وخلق « مقداد بن الاسود الكندى » ، من هؤلاء الايتام « الرعد والزلزال والصواعق » . وامر « ابو ذر الغفارى » بتنظيم حركات الكواكب السيارة والثابتة ؛ و « عبدالله بن رواحه الانصارى » بادارة الارياح ، وقبض الارواح ، و« عثمان بن مطعون النجاشى » بتفقد حرارة الاجسام وتعهد الامراض البشرية ؛ و « قنبر بن كادان الدوسى » باعادة الارواح الى الاجسام . ونفثها فيها .

ويعبر عن التثليث برمز قدسى يسمونه سر (ع — م — س) . ولهذا الرمز موقع عظيم فى التقاليد الدينية عند النصيريين . ومدلول حرف ال « ع » هو « على » وال « م » ، (محمد) وال « س » ، سلمان الفارسى . وقد جاء فى السورة الرابعة من كتاب المجموع ما ينطق عن قدسية هذا السر ، وعظم موقعه : فقيل:

« احسن توفيقى بالله ، وطريقى لله ، واحسن سمعى واستماعى من شيخى ومرشدى المنعم كما انعم الله عليه بمعرفة « ع ، م ، س » وهى بشهادة ان لا آله الا على بن ابى طالب الاصلع ، الانزع ، المعبود ! ولا حجاب الا السيد محمد المحمود ؛ ولا باب الا السيد سلمان الفارسى المقصود . . . »

ويمكن اجمال هذه العبارة مع الجمل الآنفة بما يأتى :

ع	م	س
على	محمد	سلمان
معنى	اسم	باب

ويقول النصيريون « اتقدم الى الباب ، واركع امام الاسم ، واعبد المعنى » . وهذا يبرهن على اعتقادهم بان عليا اقدس من الجميع . ويزعمون ان الاوقات الخمسة يقصد بها الاشخاص الخمسة المقدسة لديهم . ويقيمون صلاة الظهر باسم (محمد) ، والعصر باسم « فاطمة ، او بتعبيرهم « فاطر » وصلاة المغرب باسم « الحسن » ، والعشاء باسم «الحسين» والصبح باسم « محسن » ؛ ويعتقدون ايضاً بان الالوهية تمثلت فى هؤلاء الخمسة ، كما تمثلت فى على . ومن اعجب العجاب ان النصيريين لم يختنفوا فى وحدانية الرب ويسمون

انفسهم « اهل التوحيد » ! !

[٦] — اقسام النصيريين — (فرقة الحيدرية) — ان اشتقاق هذا الاسم هو من كلمة حيدره ، وهي اسم للاسد . واشتهر منتسبو هذه الفرقة بعدم التصلب في العقائد القديمة ، وسهولة الاقبال على المعتقدات الاجنبية . وهم يتركون اعتقادهم بان محمداً « عليه السلام » هو الشمس ، وسلمان الفارسي هو القمر ، لغيرهم من الفرق . وقد سيطرت على فكرة اسلافهم في زمن الفنيقيين عقيدة « جزيرة ارواد » وشيدت يومئذ في جبالهم معابد خاصة لاسقالون *Ascalon* واستارته *Astarté* من الالهة . وما نراه اليوم من عبادة بعض القوم للشمس والقمر يطلعنا على ان الديانة الفنيقية لا تزال انها بقية من حياة ويوجد هناك « حصن سليمان » مقوض البنيان خاوياً على عروشه مرتكم بانقاضه فوق معبد بوتوسه سه *Boetocécé* الذى كان مبنياً على تلك الجبال باسم احد الالهة المحلية . اما المقام الذى في جانبه فهو محترم للغاية عند النصيريين . ولم يزل وقف البنات الكواعب والذكران من الحيوانات مالوفاً عندهم ، ويحتمل ان تكون هذه العادة من مخلفات الفنيقيين ايضاً .

(فرقة الشمالية ، او الشمسية) — يعتقد اشياع هذه الفرقة من النصيريين ان المعبود الاعظم ، « على بن ابى طالب » الذى هو السماء . يقطن في الشمس التي تمثل محمداً « عليه السلام » . وتوجد في السورة ١١ و١٢ من كتاب المجموع اشارة على ان علياً حل في قرص الشمس . وعقيدة الشماليين تتكون من امتزاج محبة علي التى بثها الاجانب في قلوب النصيريين ، مع الدين المحلى .

حذا الشماليون حذو الاقوام القديمة في سورية ، اذ كانوا يعبدون آلهاً مقامه الشمس *Helios* اسمه « بعل سامين » ؛ والشماليون يزعمون ان علي بن ابي طالب الذى هو آلههم — كبعل سامين — مقيم في الشمس ايضاً .

ان كلمة الشماليين يجب ان تكون مشتقة من الشمال . ولكن معظم السكان في القسم الشمالى من جبال النصيرية هم من الحيدريين . ولذلك لا يكون هذا الزعم صحيحاً .

ان محمداً « عليه السلام » — كما يزعم الشماليون — هو « اسم » على ومقره ، وله جميع بأسه وقدرته . وقد يتحدان في الليل ، ويفترقان في النهار . ومحمد هو عين الشمس وهذا السبب حدى بالشماليين الى عبادة الشفق .

يعيد النصيريون في ٣ ايلول و١٧ مارت و١٦ تشرين اول وفي شهر نيسان ، ويحرقون البخور في اعيادهم ، ويشربون النبيذ . ولم يقتبسوا هذه العادة من النصارى ، بل سرت اليهم من الاقوام الشرقية .

ومن المعلوم ان هؤلاء يحرمون اكل بعض الحيوانات . وهذا التحريم لم يكن من قبل الديانة الاسلامية. بل يزعمون ان المعنى «على» حرم اكل الجمل والارنب والانقليس (سمك الحيات) ؛ والاسم «محمد» حرم الخنزير والدم والذكور من الحيوانات ؛ والباب «سلمان» حرم سمك «السللور» الذى يوجد فى نهر العاصى وبحيرة انطاكية .

والصحيح ، ان تحريم هذه الحيوانات كان فى الاديان التى قبل الاسلامية . وعلى كل حال ان السوريين قيدوا انفسهم بهذه القيود قبل التوراة والقرقان ، وقصارى القول ان عقائد الشماليين اليوم كادت تنطبق فى اكثر المسائل على اعتقادات اقوام «حران» القديمة .

وما الايتام الخمسة الذين ذكرنا اسماءهم آنفاً ، والمعروفون عند النصيرية بميكائيل واسرافيل وعزرائيل ودردائيل وسالسبائيل ؛ الا الكواكب الخمسة «زحل والمشترى والمريخ والزهرا وعطارد» ، معبودوا الاقوام القديمة وآلهتهم . وكان الوثنيون من قدامى «حران» يعتقدون ان كلاً من هذه الكواكب هو مقر لاحد الآلهة ، وان كلاً من اولئك الآلهة كان يقوم باحدى الوظائف المختصة بالايتام الخمسة . ونرى ان المماثلة بين الاعتقادين ظاهرة جداً .

(فرقة الكلازية ، او القمرية) — يخالف اتباع هذه الفرقة ، الفرقة الشمالية . فيقدسون القمر ، مع ان الاولى تقدس الشمس . ويزعم هؤلاء ان الوحدة الصمدانية حلت فى القمر ؛ وان قدسية الاله التى بوركت فى سور كتاب المجموع ، تجلت فى القمر لا فى الشمس . لان علياً عرج الى القمر بعد ان لبث مدة فى الارض وحل فيه ، وكون القسم المطموس منه . وهو اليوم غير مرئى . وحينما ينصل النصيريون من الجسمية ويحلون فى السماء باجسامهم النورانية ؛ سيتراآى لهم «على» بانواره الياقوتية السماوية .

ينتقد بقية النصيريين على الكلازيين عبادة القمر ، وهؤلاء ينتقدون على الشماليين ترجيحهم نبى المسلمين على «على» بقرائتهم «اؤمن بالوهية محمد» .

ولهم اشعار ، وترنمات كثيرة فى النبيذ المعروف بينهم بـ «عبد النور» الذى يعده الكلازيون هبة «القمر» ويعتبره الشماليون عطية «الشمس» .

يظهر مما فصلنا ان النصيريين يقدسون السماء والشمس والقمر باسم على ومحمد وسلمان كما فعل الفنيقيون والسريان من قبل ، لانهم كانوا يعبدون «بعل شامن» باسم «الاله الاعظم» و«آلهة الشمس» باسم «مالابك» و«اله القمر» باسم آغليبول .

ان الاختلاف بين الشماليين والكلازيين كان فى تفسير «الباب» و«المعنى» ، لان الشماليين يزعمون ان المعنى هو السماء والباب هو القمر ، والكلازيين يعتقدون نقيضه اى ان عليا «المعنى» هو «القمر» وسلمان الفارسى «الباب» هو السماء : ويتفق كلاهما على ان محمداً

« عليه السلام » هو « الشمس » .

اما فرقة الغيبية ، او « عابدو الهواء » فتزعم ان الله كان مقيماً فى الارض ثم اختفى ، وما الزمن الحالى الا كرة من دور الغيب ؛ وان الله لا تدركه الابصار ، وهو حاضر فى كل مكان ، وانه عبارة عن « الهواء » . ولهذا فقد سماهم سليمان افندى مؤلف الباكورة بعباد الهواء .

يبالغ النصيريون بالتكتم واذا احوجهم الامر يتظاهرون بالاسلامية والنصرانية ، وحتى باليهودية . ولما كانت حياتهم بين المسلمين تجدهم يقيمون الصلاة ، ويتظاهرون بالقيام بجميع الفرائض . ويذهبون الى الجوامع فيركعون ويسجدون مع السنيين . وبما ان القراءة فى الصلاة لا تكون جهاراً . فهم يقرؤن من سور كتاب المجموع .

يرتكز اساس النصيريين على الانانية وحب النفس . ويزعمون ان الله لما كون العالم جعلهم كواكباً منيرةً . ولكن ما لبث ان احلاهم الى سطح الارض لاقترافهم السيئات . ويقول مؤسسو هذه العقيدة ، ان ارواح الاتقياء من النصيريين تنتقل بعد الموت من جسم الى آخر حتى تنشط من اوزارها ، ثم يكون النشور فترجع الى اصلها . اى انتقل من الجسمية وتكون كوكبا يلتحق بعالم « المجرة *Voie Lactée* » كما كان من قبل . اما ارواح العصاة فتنقلب فى اجسام كثيرة ثم تتمثل فى يهودى او مسلم او نصرانى . ويحيق بها العذاب برهةً حتى تطهر من ادران الذنوب وتكون كالفضة النقية ، ثم تنقلب كوكباً وتلتحق بابناء دينها فى السماء . اما المسلمون الذين لا يعبدون علياً فيصيرون حمراً والنصارى خنازير ، واليهود قردةً . وان الشياطين خلقت من معاصى الانسان ، وكانت النساء من خطيآت الشياطين . ولهذا السبب لا تزال النساء محقرةً فى نظرهم ، ولا يطلعوهن على شئ من عقائدهم ولا اسرارهم .

وقد جاء فى السورة الثانية من كتاب المجموع ، ان للروح سبع استحالات تمر عليها ريثما تتجرد من المادية ، وتنقلب الى كوكب منير . ويحتمل ان تكون هذه النظرية فى الاستحالة ، هى عين الاعتقاد الذى اسسه البابليون بعروج الارواح الى السماوات السبع ، وانتقل منهم الى الايرانيين ثم الى الرومانيين .

يستعمل النصيريون هذه الرموز والكنايات لمعرفة بعضهم . يسال الغريب من اهل القرية التى يدخلها . قائلاً :

— هل فيكم من يعرف عمى ؟

فيجيبه القرويون :

— ما اسمه ؟

— حسين

فيتم القرويون الجملة :

— ابن حمدان .

الغريب :

— الخصيبى

او يقول له القرويون :

— كم لعمك من البز ؟

— ستة عشر .

اين اروى عمك غليله ؟

— فى عين العلوية .

وتوجد عندهم بضع كنايات ما عدا هذه .

لا يجوز فى مذهب الفرقة الشمالية حلق اللحى ، واكل اليقطين والبامية والفلفل والبندورة ، ولا يجوز عندهم استعمال الدخان « اتبغ » ولكن الكلازيين لا يعبئون بهذا المنع .

[٧] — **تقاليد الدخول فى النصيرية** — تنقسم اتباع النصيرية بالنظر الى درجة الاطلاع على المسائل الدينية الى بضع طبقات ومراتب ذكرها كتاب المجموع فى الصورة « ٣،١١ » ولكننا آثرنا ان نجمعها فى اثنتين « اقتداءً بالمستشرق الشهير « قلهمان هو ر *Clement Huart* » . ينقسم النصيريون الى « خاص » ، اى الذى دخل فى الدين والى « عام » اى من لا له نصيب فى الدين . شروى الدروز بانقسامهم الى عقال وجهال : ويتوقف ارتقاء العامة الى الطبقة الخاصة على شروط وقيود كثيرة . ولا يكون ذلك الا بأرشاد الاستاذ والاطلاع على العقائد بالتدريج .

ان الاساتذة المعظمين والمحترمين عند النصيريين ، هم على ثلاث مراتب ؛ فمن كان فى المرتبة الاولى فهو « امام » ، والذى فى المرتبة الثانية هو « نقيب » . والذى فى المرتبة الثالثة هو « نجيب » ولكل منهم سلطة تخضع لها الطبقة العامة باسرها ، وكل الاحكام التى تصدر عنهم لا بد ان يعمل بها .

قلنا ان افراد العامه لا يدخلون الطبقة الخاصة الا بالتدريج . يدخل اولاً بمن يرشح نفسه لذلك الى حضرة الامام وذلك فى يوم معين يسمونه بالمشورة . وهناك يبرهن على اذلال نفسه بوضع نعل الاستاذ على رأسه ثم يشرب قدحاً من خمر حباً بسر الامام . وبعد

اربعين يوماً يحظى بالمثول فى يوم يسمونه « المليك » ويشرب القدح حباً بسر ع م س . ويؤمر بأن يتلو هذه الحروف الثلاثة على ثلاثة ايام فى كل يوم خمسمائة مرة . وبعد سبعة اشهر يأتى المرشح والنقيب على يمينه والنجيب على شماله فيشرب القدح الثالث ، ثم يقدمه احد الحاضرين الى الاستاذ الذى يسمونه « المرشد » . وهنالك يقرأ النقيب والنجيب بضع قصائد دينية . ثم ينهض المرشد ويقف متجهاً نحو الامام ويتلو بعض سور من كتاب المجموع . ثم تجرى بين الامام والمرشد محاورة مملة لا حاجة لتفصيلها وبعد ذلك يطلب المرشد تأديب المرشح .

يسأل الامام عمن ارشد المرشح ، فيجاوبه المرشد ، بانه مدفوع بهداية المعنى القديم والاسم العظيم ، والباب الكريم [اى: ع م س] . وبهذا الاثناء لا ينفك المرشح يتقدم ويتأخر ، ويشبع ايدى الامام وازياله تقبيلاً : وهنالك ينظر اليه الامام بنظرة ملؤها التهكم والجد ، ويساله هل يشترى الاحتفاظ بهذه الاسرار المقدسة بحياته . فيقول : نعم فيطالبه باقامة مأة كفيل ، ولكن يتوسط من حضر فى المجلس فيحطون المقدار الى اثنى عشر ؛ وهؤلاء يدعون الى حضرة الامام ويرضون بالكفالة ، ويقولون [عهدنا وميثاقنا على ان نقتل اخانا هذا الذى كفلناه ، اذا خالف الواجب واذاع السر] . ثم يقوم اثنان من الجمع فيكفلان هؤلاء الاثنى عشر ايضاً وحينئذ تنجلى العبوسة عن صحيفة الامام فيرحب بالجمع ، ويتلقاهم بوجه بشوش . ثم يوكد ايمان المرشح بتحليفه بكتاب المجموع تأميناً لصيانة السر ويجازفه فى الوعد والوعيد ويقف هنيهة . فيبادر الكفلاء ويضعون ايديهم على رأس المرشح ويأخذون بقراءة بضع سور من كتابهم المقدس ، ثم يسقونه قدحاً من نبيذ ، ويدعونه ليحفظ هذه الجملة [باسم الله وبالله وسر السيد ابى عبدالله (حسين بن حمدان الخصيبى) العارف بمعرفة الله سر تذكاره الصالح سره اسعده الله] .

وبعد انتهاء هذه التقاليد ، يأخذ المرشد [*] بيد الرجل الى بيته وبعد ان يطلعه على اصول الدين ، يشرع فى تعليمه كتاب المجموع المحتوى على ست عشرة سورة ، بادأً بسورة الشتائم التى تتضمن اغلظ السب على (ابى بكر وعمر وعثمان) الذين يسمونهم بالاضداد الثلاثة . وبهذا يدخل المرشح فى طبقة الخواص بعد ما يتكبد عذاب الامتحان ، ويقاسى مضض هاتيك التقاليد مدة طويلة .

يجب فى المرشح ان يكون نصيرياً عن اب وجد ، ويكون متجاوزاً فى العمر ثمانى عشر سنة ، ولا يكون من النساء .

ان سورة الشتائم تتضمن الشتوم الغليظة على [ابى بكر وعمر وعثمان وطلحة وسعد

(*) ويسمى عندهم « العم » ، وهو بمثابة الاب للمرشح . ولا يسوغ له نكاح ابنة المرشد .

وسعيد وخالد بن الوليد ومعاويه وابنه يزيد والحجاج وعبد الملك بن مروان وهارون الرشيد ، وعلى كافة المسلمين المنتمين الى المذاهب الاربعة ، واليهود والنصارى واحمد البدوى والشيخ احمد الرفاعى والشيخ ابراهيم الدسوقى والشيخ محمد المغربى والشيخ عبد القادر الكيلانى من المشاهير ، وعلى الجلند بن كركر واسحاق الاحمر وقيدار وحبيب العطار وغيرهم من المجهولين]. (*)

يفهم مما فصلنا ان العقيدة النصيرية لا يعرفها الا من كان فى طبقة الخواص، اما العوام « ولاسيما النساء اللاتى خلقن من اوزار ابليس » لا يزالون مبعدين عنها . غير انهم لا يرون بأساً باطلاع الرجال من العوام على بعض المعلومات الدينية البسيطة .

[٨] — **اعياد النصيريين** — ربما يؤمل القارئ ان بحث الاعياد يطلعه على شئ من العقائد . ولكن هذه الفرقة التى تقدس على بن ابى طالب لم تكترث فى اكثر اعيادها بالتقاليد الدينية مطلقاً .

كانت الطوائف التى تقطن الجبال الشمالية من سورية قبل الاسلام تعيش مختلطة بالنصرانية ، فحذت حذوها بانتقاء ايام الراحة . ومن المعلوم ان معظم اعياد النصارى كانت موجودة عند قدماء الوثنيين [**] . ثم جاء الاسماعيليون مهاجرين الى انحاء قدموس وكانوا سبباً لدخول كثير من اعياد العرب والعجم على الطائفة النصيرية جارتهم . وقد جمع هذه الاعياد « ميمون بن القاسم » احد مشايخ النصيرية فى كتاب سماه « كتاب الاعياد » .

لا يحتفل النصيريون باعيادهم فى الجوامع والكنائس كما يفعل المسلمون والنصارى بل يكون ذلك فى بيت « صاحب العيد » من بينهم . فيقرأ المشايخ فى تلك البيوت الادعية المندرجة فى كتاب الباكورة . ثم يشترك الجميع فى الوليمة المعدة .

ان اعظم اعيادهم ، هو (عيد الغدير) الذى يكون فى اليوم الثامن عشر من شهر ذى الحجة . وهذا العيد الذى اجمع عليه (سنة ٣٢٥ هجرية) فى العراق و (سنة ٣٦٢) فى الخطة المصرية انتقل الى النصيريين عن الشيعيين .

يزعم الشيعيون ان النبى (صلعم) كان قافلاً من الحج ، فنزل عليه الوحى وامر بالتبليغ فوقف بموكبه النبوى فى مكان اسمه « غدير خم » وقرأ على الجميع :

(*) كتاب الباكورة ص ٤٤

(**) من الجملة ، فقد ابدل النصارى عيد (Dies natalis solis invicti) المعروف عند القدماء بعيد ميلاد عيسى ، واقاموا اعياد سن جان باتيست مكان عيد التحول الصيفى . وهذه الاعياد تتراوح بين السنة الشمسية والقمرية كما هو عند النصيريين . فيكون بعضهم ثابتاً والآخر متحولا .

[يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، فان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس] . ثم قال :

[من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله] [*] وعليه لا يستغرب من الشيعيين الذين يؤمنون بصدق هذه الحادثة ان يعظموا يوم ١٨ ذي الحجة ويجلوه . وقد اختلف العلماء السنيون في عبارة هذا الحديث . والنصيريون يكثرون من قرائة الخطب والادعية في هذا اليوم العظيم . ويوجد في كتاب الاعياد التفصيل الممل عن هذا البحث الذي اضربنا عنه خشية الاسهاب .

ان كل عيد ، بل كل شهر عند النصيريين يمثل شخصاً من رجال الدين . مثلاً : ان عيد الفطر عند السنيين هو « عيد محمد » على زعمهم ! وعيد الاضحى هو عيد « اسماعيل بن هاجر » ويوم ٢١ ذي الحجة هو عيد « المباهلة » . وفي هذا العيد الاخير حصل نزاع بين النبي (صلعم) وبين نصارى نجران . وكان معه « علي وفاطمة والحسن والحسين » .

اما ٢٩ ذي الحجة فهو اليوم الذي دخل فيه (علي) فراش النبي (صلعم) ومكنه من الهجرة ليسلم من كيد المشركين ولذلك يسمونه (عيد الفراش)

ولا يتظاهر النصيريون بما يدل على اكتئابهم في يوم عاشوراء (١٠ محرم) الذي يعظمه الشيعيون ويخصونه بمظاهرهم الدينية المعروفة . وسبب ذلك هو عدم اعتقادهم بقتل الحسين بل يزعمون انه استتر . ويعتقدون عين الاعتقاد في عيسى (عليه السلام) .

ومن اعيادهم ايضاً يوم ٢٩ ربيع الأول و١٥ شعبان . ويزعمون في الاول ان النبي (صلعم) دعا فيه الى الحسن والحسين ولعن اعدائهم ، اما الثاني فهو يوم الحسين . يجتمع النصيريون ليلة هذا اليوم ويقدسون اسماء الله ويتباركون بذكرى « درجاته » و« ابوابه » . ويتعاطون الخمر الذي يسمونه « عبد النور » ويعدونه رمزاً لعلي ، على اتم السرور والصفاء .

ولهم ما عدا هذه الاعياد « عيد الميلاد » . ويكون ليلة (٢٤—٢٥) كانون الاول ، وتلقوا عن قدماء العجم عيد النوروز ، والمهرجان ويكونا في الاعتدال الربيعي والخريفي . ولهم عيد آخر في ١٧ مارت .

ان ليلة عيد الميلاد هي الليلة التي ولد فيها عيسى (عليه السلام) من مريم ذات الطهر والعفاف . ويزعم بعض العلماء ان النصيريين اقتبسوا هذا العيد من النصارى . ولكن رونه دوسو ينكر ذلك ويقول :

(*) كتاب الاعياد .

كثيراً ما يتعلق الاسماعيليون الذين كانت لهم السلطة النافذة بين النصيريين بشنشنة الاديان المحلية ثم يضيفون اليها رموزاً ومعان من عندهم . وان يوم الميلاد هو عين اعياد ميسترا *Misthra* وميلقار *Milquart* عند القدماء . وكان معدوداً من الايام المعروفة عند الرومانيين .

وقد اخذ النصارى هذا العيد ، وكثيراً من ايام الوثنيين ، وقدامى الاقوام الحرانية ايضا ما انفكوا يعظمون هذا اليوم ويقدسونه الى ان تسلط عليهم الغرب . ولذلك لا نخطئ اذا حكمنا على ان النصيريين الذين اقتبسوا كثيراً من عوائد الحرانيين ، اخذوا يعظمون يوم الانقلاب المشتوى ، او بالاجدر يوم « ميلاد الشمس » . (*)

لم يبحث كتاب الاعياد الا عن هذه الاعياد التى ذكرناها . ولكن للنصيريين اياماً دينية فى الدرجة الثانية مثل عيد البربارة *Ste Barbe* (١٦ تشرين الاول) المعروف عند النصارى ، وعيد القداس المصادف لعيد القصب (*Dimanche des Rameaux*) .

[٩] — **الطعن فى النصيرية** — قبل ان نختم هذا الاجمال التاريخى فى الديانة النصيرية ، نريد ان نبحث نبذةً عن تعرض المسلمين والنصارى على هذه الفئة ، وما يلصقون بها من العادات الذميمة . من المسلم لدى المتوغلين فى تاريخ الاديان ان العقيدة الدينية اذا كانت قليلة الافراد ، مسورةً بالخصوم والمخالفين لا بد لها ان تكون عرضة للطعن والقدح .

لذلك كانت النصرانية فى بادئ امرها هدفاً لتعرض الرومانيين ومفترياتهم . ثم ان النصارى ما كادوا يؤسسون الدول القوية في القرون الوسطى الا وتسلطوا على من يخالف معتقدهم باسلحتهم ومظالمهم وملوكهم المستبدة .

ما زال النصيريون الذين استطاعوا الاحتفاظ بكيانهم رغماً عن قلة عددهم بالنسبة الى السنيين والشيعيين فى سورية ، عرضةً للطعن والتشنيع ، والصاق التهم منذ القرن الخامس للهجرة . فهل صحيحة يا ترى تلك التهم ؟ ها نحن نطرق هذا البحث من الوجهة العلمية ، ونفحصه باسم الحقيقة وعلى اتم الحياد .

ما زالت فلسطين ، او بالاصح سورية تعتبر مهد الاديان . ولم تزل دفاتر اعمال سكانها وافكارهم محشوة بمسائل الاديان والمذاهب . حلت النصرانية بادئ امرها فى انطاكية . ثم اخذت تتخطى مركزها الى ان شملت اقطار المعمور ، وهكذا الاسلامية ما كادت تظهر الا وتسربت بسرعة البرق الى جميع الانحاء . ورغماً عن هذا لم يتسن لسورية ان ترى

(*) Histoir des Nosairie p. 148.

وحدة الدين حتى ولا فى يوم من ايام التاريخ . واكبر برهان على صدق هذه الدعوى، هو وجود اكثر من ثلاثين مذهباً بين السكان السوريين الذين لا يتجاوز عددهم ثلاثة ملايين من النسمات .

اول من طعن فى النصيريين هو « حمزة بن على » وزير « الحاكم بامر الله » الفاطمى (*) والرسالة التى ألفها لهذه الغاية كان لها الوقع العظيم ؛ ذلك لانها ذاعت بين العالم الاوروبى فى زمان لم يكن فيه غيرها من الاثار الباحثة عن النصيريين .

يقول حمزة [ان النصيريين لا يحرمون القتل ولا السرقة ، ولا الكذب ولا الافتراء ، ولا الزناء حتى ولا اللواطة . ولا يحجب عريقو النصيرية نسائهم وبناتهم عن بعضهم ، ولا يعبثون بكل ما يمكن حدوثه بين الرجال والنساء . والا فلا يكمل ايمانهم] وسليمان افندى مؤلف الباكورة السليمانية يقول فى الصحيفة (٥٨) من كتابه : [الزناء عند الكلازيين فرض لازم . فاذا حل الامام ضيفاً عند احد الاخوان، يكون من واجب رب البيت اكرامه بتقديم امرأته له . لان هذا التقديم فرض لازب ، وحق واجب . ومن لم يفعل ذلك فلن يدخل الجنة . اما الطبقة العامة فلا علم لها بهذه الامور] .

لعل هذه الاتهامات مختلقة . اذ لا يعثر فى كتب النصيرية ، ولا فى اغانيهم على ادنى اشارة تدل على صحتها . وقد اجمع كل من احتك بهذه الطائفة واختبرها على ان لا صحة لوجود تلك الرزائل الاخلاقية فيهم . ولعل مؤلف الرسالة الدامغة استهجن من النصيريين عدم الاحتجاب ، فضرب اخماسه باسداسه وتشفى منهم بهذه التهمة المشينة .

لا نبعد ، اليس كثيراً من السذج الذين يتتاؤن من عدم التحجب ويشنعونه ، يرشقون بعين التهمة من لا يحتجب من نساء الامم الراقية فى هذا القرن العشرين ؟

لم تحصر هذه الاتهامات فى النصيريين فقط ، بل لم تنج منها كل فرقة خالفت ولو قسماً من الفرائض التى امر بها القرآن الشريف بنص صريح . والنصيريون الذين ما زالوا عرضةً لاتهامات المسلمين ، وحتى النصارى ومفترياتهم يبالغون اليوم فى الامتناع عن الاجهار بحقيقة عقائدهم . ويقول سليمان افندى : [اذا لقى النصيريون المسلمين يتمسكون بالاسلامية ، ويدعون انهم يصومون ويصلون . ولكنهم لا يصومون ؛ ويصلون رئاءً اذا اوجبهم الامر ووجدوا فى احد الجوامع مع المسلمين ، فيركعون ويسجدون . ويلعنون « ابا بكر وعمر ، وعثمان » وغيرهم من الصحابة فى قيامهم وقعودهم [**] .

(*) الرسالة الدامغة للفاسق ، الرد على النصيرى .

(**) الباكوره ؛ ص ٨٢ .

لا يقتدر النصيريون اليوم على الدفاع ، ورد هذه التهم عن طائفتهم لانهم ما زالوا يخبطون من الجهالة فى ليل أليل . وقد يسمع عنهم من يتجول فى اصقاعهم من الغرائب والخرافات ما لا يدخل فى عقل ، ولا ينطبق على حقيقة . هذا ولتكن عقيدتهم شاذة ومنحرفة عن مسلك التوحيد . ولكن يجب ان لا تحتقر اخلاقيات هؤلاء القوم الجاهلين الذين رافقوا القرون القديمة بعددهم الوافر . بل من الضرورى الامعان فى البحث ، والابلاغ فى التدقيق .

—٨—

المهاجرة

و

تناقص السكان فى سوريه

لا جرم ، ان المهاجرة هى احدى المسائل التى لا تزال تشغل اذهان الوزارت ، وادمغة المفكرين فى هذا العصر . ولا ريب فى ان رقى البلاد وعمرانها وتمكنها من اشغال مقام رفيع فى نادى الدول ، يتوقف على كثرة سكانها ونباتهم ونجاحهم فى معترك الجدال الحياتى . لم يخطأ قدامى المؤلفين فى تشبيههم الامة بالشخص . لان الفرد القوى القادر يقتدر على ان يسعد ويرقى بعلو الهمة والعزم الصادق . وهكذا الامم فان سعادتها وشقائها وانتصارها فى الجدال الحياتى او عدمه ، يختلف باختلاف قدرة افرادها . اوضعفهم ، وكثرة اقويائها واذكيائها وعلمائها او قلتهم .

ولذلك نرى الدول الراقيــة لا تدخر وسعاً فى تحرى الوسائل الفنية والاجتماعية والاخلاقية التى من شأنها ترفيه عيش رعيتها ، او بالاحرى دعائم عزها وسلطانها ؛ وتزييد عددهم .

ان الدولة الفرنساوية التى قضت عليها بعض الاسباب الاقتصادية والاجتماعية بتناقص السكان ما فتئت منذ خمسين سنة وهى تسعى السعى الحثيث لايجاد ما يدرأ عنها هذا الوبل الحياتى من الوسائل . فتسن القوانين وتضع النظامات ، ولا يزال نسلها يرزح تحت ضغط ذلك البلاء القاهر حتى ان الامة الالمانية والايتالية المشهورتين بكثرة اللدات لم تقعدا قط عن التذرع بالتدابير القانونية والاجتماعية لاجل تزييد السكان . ومع هذا فان كثرة اسراب المهاجرين من البر العتيق الى البر الجديد لا تزال تعرقل مساعى الدول فى امر تزييد النسل .

بعد أن اكتشف فريستوف قولومب قارة آمريكا، واطلع الاوروبيون بتوالى الازمان على ما هناك من الثروة والوفر، وذلك فى القرن السادس والسابع عشر للميلاد . اخذت الوف من الاسر الانكليزية والالمانية والاسبانية والفرنساوية تبارح اوطانها وتتقاطر زرافات وافوجاً على ذلك المهجر الغنى حيث تستقر فيه وتتخذه مسكناً ووطنا . والكيان الاجتماعى لم يكن يومئذٍ على حالة يتأثر فيها من هذه الحادثة . لان الامم ما كانت تقتنى ما نراه اليوم من الجنود الدائمة وما كان نطاق المزاحمة الاقتصادية متسعاً بعد .

ثم جاء القرن التاسع عشر وحدث فيه التبدل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى حيات الامم الراقية . فنهضت كل دولة تحرى ما يؤمن بقائها ويؤيد تجارتها ويمكنها من تحكيم بسطتها بين باقى الامم .

على ان ضنك المعيشة ما زال يشدد الاقبال على المهاجرة . واخذ السكان فى هذه الايام ايضاً يتسربون من آلمانيا وايرلانده وايتاليا وروسية واوستريا الى القارة الجديدة افواجاً افواجاً . ولم يلبث هذا الحادث الذى كان غامضاً فى اواسط هذا القرن ، ان دخل اليوم فى دور حاد واستلفت انظار الرجال السياسة . ولا يحمل دخول مسئلة المستعمرات فى سياسة جميع الدول الغربية — ما عدا انكلترة — الا على امر المهاجرة الخطيرة . فاذا شئنا التنقيب عن سوائق « الغلو » فى السيطرة » (الايمپرياليزم) نضطر لأن ندخل فيها درس المزاحمة التجارية ، والمهاجرة ايضاً الذين هما من امهات المسائل الاجتماعيــة . لان الاولى بالايدى العاملة القوية من ابناء الوطن ان تدأب فى بلادها او مستعمراتها ، ولا تموت وهى منكبة على استثمار انحاء « سن لوران » ميسيسبى » و آمازون » .

هاجر فى القرن التاسع عشر للميلاد من بلاد آلمانيا التى تربح كل سنــة (٨٠٠,٠٠٠) من النسمات مـا عدا الوفيات (٦—٧) ملايـين . وفى سنة ١٨٨٠ غادر البلاد الالمـانية (٢١٠,٠٠٠) من المهاجرين يرتادون العيش الرغيد فى الاصقاع الاجنبية والبقاع الخصبة الغنية . ولكن ربما لبث هذا المقدار ان نقص بما تذرعت به الحكومة من التدابير الاقتصادية الاجتماعية . فكان فى سنة ١٨٩٠ (١٠٠,٠٠٠) وانخفض سنة ١٩٠١ الى (٢٠,٠٠٠) نسمة . ولم يزد عن (٢٠) الفاً فى السنة التى اشهرت فيها الحرب العامة . (*)

ومقابلاً لنجاح هذه الدولة فقد احدثت المهاجرة فى ديار الامة الايتالية خلواً ملموساً وفراغاً محسوساً . اذ ما زال يهاجر منها كل سنة مقدار (٦٠٠—٧٠٠) الفاً من النسمات منذ سنة ١٩٠٥ ويتركون الحـالة الاقتصادية ، والوسائل الدفاعية فى اوطانهم عرضة للمشاكل

---

[*] راجع كتاب « اهم حكومات الدنيا » لشراده روغاللويته ده ، ص ٢٦٥ پارس ١٩١٣

والغوائل . (*)

يقول المؤلفون الباحثون فى هذا الموضوع :

يمكن ارجاع اسباب المهاجرة التى كادت تكون الطامة الكبرى على الوطن الى اصلين :
الاول ؛ كثرة اللدات (**) وفقدان ما يقوم باعاشتهم من الاراضى المنبتة .

والثانى ؛ كون الاحوال الاقتصادية فى إيتاليا غير كافية لدرأ الحاجات العمومية .

لم تنج سورية ايضاً من هذه المهاجرة التى شملت جميع انحاء البر العتيق على درجات مختلفة . بل نهض اكثر اقوامها منذ ربع قرن ، بعد ما كانوا قبل ذلك العهد مربوطين باوطانهم ربطاً وثيقاً . واخذوا يهاجرون إلى إميركا مقلدين الاجانب الذين قصدوها صاحبا بالغنى وحصلوا على جانب عظيم منه . وإنهم لما ورثوا خصائل الفنيقيين الذين طبعوا على حب الاسفار الطويلة كان الميل للهجرة بين تلك الخصائل ايضاً .

اول من هاجر من سورية بضع عائلات من قصبة بيت لحم . وكانت حرفتهم فى مهجرهم بيع المسابح والصلبان وهياكل صغيرة لاعزاء الدين . وبدأت الهجرة قبل ثلاثين سنة بصورة خفيفة . ثم اخذت تتدرج بالتوسع حتى اصبحت فى السنين الاخيرة على درجة هائلة ذعر منها كل محب للوطن . وياللاسف لا علم لنا بعدد المهاجرين الذين مانفكوا يبارحون هذه الربوع العثمانية الثمينة منذ ربع القرن الى الان . وان دوائرنا الرسمية التى ما زالت بعيدة عن الاحاطة بمقدر نفوسنا ؛ اهملت هذه المهمة ايضاً . ويرى ذلك من الامور العادية . ونحن وان لم نعف عن هذا الاهمال ولكن لا يسعنا الا ان نقابله بماعهد فينا من عدم المبالاة والاناة ونعرض لانظار المدققين الذين رأوا قبل الحرب كثيراً من البيوت المقفلة فى القرى والقصبات والامصار وشاهدوا القرى الخاوية . واحيوا بنقص النفوس المتسارع ، ان قد هاجر من سورية الى البلاد المتحدة فقط سنة ١٩٠٥, (٤٨٢٢) وسنة ١٠٠٦ (٥٨٢٤) وسنة ١٩٠٧ (٥٨٨٠) وسنة ١٩٠٨ (٥٥٢٠) نسمة ، فيكون مجموع ما فقدناه فى هذه السنين الاربع « ٢٢٠٤٦ » نسمة .

ويقرب عدد المهاجرين الى اميركا الجنوبية ومصر واوربا وافريقيا الشمالية والانحاء الاخرى قريباً من ١٥٠٠٠ من النسمات . وبذلك يكون مقدار المهاجرين السوريين قريباً من ٢٠٠٠٠ من النسمات فى السنة (***) . وبهذا نطلع على ما يلم بحياتنا القومية والاقتصادية من البلاء .

---

[*] راجع كتاب « اهم حكومات الدنيا » لشراده روغاللوبه ده ، ص : ٣٠١ پارس ١٩١٣

[**] يوجد فى ايتاليا ١٢٠ نسمة فى كل كيلومتر مربع ، وفى بلجيقا : ٢٤٨ ، وفى انكلترة ١٤٤ وفى المانيا : ١٢٢ ، وفى اليابان : ١٠٣ وفى النمسة والمجر : ٧٦ وفى فرانسة : ٧٣ .

[***] مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ ، ص ٨٢٨

ان دولة المانيا التى مساحتها (٥٤٠٠٠٠) كيلومتر مربع ، ونفوسها مقدار (٧٠) مليوناً لا تفقد فى كل سنة الا مقدار (٢٢) الفاً من رعاياها . لم نقصد هنا ان نصل من الغرابة الى مقايسة بلادنا بالبلاد الالمانية التى ادركت منتهى الكمال فى الاحوال الاقتصادية وبلغت الدرجة القصوى فى الرقى التجارى والصناعى حتى اصبحت وهى اليوم من اغنى وارقى البلاد المعمورة ، ولكن سورية التى تضم من الاراضى ما يبلغ اتساعها (٢٩٦٠٠٠) من الكيلومتر المربع ، ولا تحتوى الا على ثلاث ملايين من النسمات ، هى ويا للاسف على عين الدرجة مع المانيا فى المهاجرة فيمكن ذكرها بازائها . وعلى كل حال ان ضياع عشرين الفاً من النسمات فى كل سنة من هذه القطعة العثمانية التى لا تتجاوز كثافة نفوسها العشرات والتى خيم فيها الجهل والفقر هو جدير بان يدعونا للافتكار والاهتمام .

ان سورية التى كانت تمير عشرة ملايين من السكان ما زالت تهيج اطماع الانام بما فيها من الكنوز الطبيعية ، والسواحل التى كونت كما تشاء التجارة ، وبجبالها اللطيفة ووديانها الخصبة ، وبارتكازها فى منتصف البر العتيق . وقد اصاب هذه البلاد باهالنا المعهود من الدمار ما جعلها تعجز عن اعاشة ثلاثة ملايين من اولادها . واضطر اهلوها المطبوعون على الذكاء والعزم والمفطورون على استعداد كامل فى الامور الفكرية والتجارية ، لان ينقبوا فى البلاد ويرتادوا سبيل العيش . فاقوت القرى واقفرت السهول وعطلت الارض عن الزرع وكان اولوا الغاية من الصهيونيين فى المرصاد ، فاهوى بهم الحرص على امتلاك ثروة البلاد فاغاروا على تلك القرى التى اضاعت اربابها ، وشروها بثمن بخس باسم مهاجرى اليهود الذين جلبوهم من البلاد الروسية والرومانية. (*)

كثرت الكتابات فى المهاجرة عليها ولها . فقال المحبذون :

اولى للمرء من ان يخلد الى ارض جفت نعمها ؛ ويرضى من العيش باجرة زهيدة ويطفأ حياته جراً وزحفاً ؛ ان يذهب الى اميركا ويشاهد ما هى الحياة المدنية ، ويحصل على الثروة الطائلة . والوطن من البلاد ما يعيش فيه المرء ناعم البال ، راغد العيش ، سعيداً ما استطاع . وليت شعرى هل يصدق من يقول « وطنى المحبوب ! » لبقعة لم ير فيها وجه الراحة ، ولم يكن له ولعائلته فيها ادنى سعادة ؛ ثم لم يجد فيها اماناً ولا انصافاً وعدلاً ؟ . ان كثيراً من السوريين الذين غادروا اوطانهم من المتربة ، وضنك المعيشة ؛ او لخلوها من الانصاف والعدل ، اصبحوا اليوم وهم من اشهر التجار فى نيويورق . او شيقاغو ، او ريودهجانيرو ، او بوئنوس آيرس . وان ما يملكه اليوم عشرة الاف من السوريين من الاموال المنقولة وغير المنقولة فى الخطة المصرية يقدر بثلاثين الف ليرة انكليزية . وان

---

[*] راجع المجلد الاول ، ص « ٣٠ — ٣٥ »

مجموع ثروة هؤلاء الوطنيين فى اميركا وغيرهـا من البلاد لا يقل عن ٢٠٠ مليون ذهباً انكليزيا (*) لا ينكر ان سورية فقدت الى الان سدس نفوسها العمومية ؛ ولكن لاننسى ان لو ظل هؤلاء فى اوطانهم لما استطاعوا الاستحواذ على هذه الثروة ، ولا فنوا حياتهم كما لى تزج بهم البطالة فى الذل والمسكنة .

وقال (آلن مكلولن) احد اطباء دائرة الصحة فى الولايات المتحدة ، فى كتاب الفه باحثاً فيه عن المهاجرة :

ان انجح المهاجرين بعد اليهود هم السوريون . وعدد من لم ينجح من مهاجرى اليونان ٦٨ ، ومن البولونيين ٦٣ ، ومن الايتاليين ٥٩ ومن السوريين ٣٤ ، ومن اليهود فقط ٩ فى المأة (**)

نضطر فى نقطة واحدة الى التسليم بقول هؤلاء الذين تكلموا عن المهاجرة مستندين على الماديات المحضة ، ان السوريين ولاسيما اولاد السواحل منهم لا يزالون معروفين بالعزم والاقدام ، ومشهورين فى عالم التجارة بنجاحهم ، و كثيراً ما تحدث الرقابة الاقتصادية بين التجار المعروفين فى بيروت او طرابلس الشام او يافه او غيرها من الثغور ، وبين التجار الاجانب فيكون الظفر فى اكثر المرار للتجار السوريين . والسوريون لهم اجمل الذكرى فى عالم التجارة المصرية وجميع المطبوعات هناك كادت ان تكون فى ايديهم . والمخازن العثمانية فى اهم ثغور البر الجديد ، هى من الانتظام والكمال فى درجة يحق لكل وطنى ان يفتخر ويباهى بها . وما عدا هذا فان هؤلاء المهاجرين غير منقطعى العلاقة مع اوطانهم ، وما زالت سورية تتقاضى من ابنائها المهاجرين فى كل سنة مقدار (١٤٠٨٠٠٠) ليرة براسطة الشعبة البيروتية للمصرف (البانق) العثمانى فقط .

حتى ان الربع منهم يرجع الى بلاده بعد ان يحصل على شئ من الثروة ، ويبدل شظفه القديم برفاهية حديثة ، ويعيش عمره دائباً فى احياء الاراضى الموات وزرعها . على ان جميع هذه الفوائد لا تصلح لتبرير المهاجرة والتحبيذ عليها . والاوطان لا ترقى وتعمر الا بهمة اولادها ومساعيهم . اما النقود التى تدخل البلاد فاكثرها يصرف فى تشييد القصور الشاهقة والابنية الجسيمة اما فى لبنان ، او جبل عامل ، او فى احدى قصبات الساحل ،

واكثر عائلات المهاجرين فى سورية تعيش عيشة الطير ، رزق جديد فى يوم جديد . فتدوم الحياة الزاهية ما دام الراتب الاميركى متصلاً ، اما اذا ابطأ ذلك المدد او انقطع فلا بد لتلك السعادة ان تنقلب الى الشقاء ، وتستحيل الرفاهية الى الشظف فى آن واحد . وهذا

(*) مجلة الهلال . جلد ١٣ ، ص ؛ ٣٠

(**) مجلة المقتطف سنة . ١٠ ؛ ص ٤٩٠

بحراننا اليوم هو انطق برهان على ما ندعيه . فعلينا ان نؤمل من الحكومة ان تدرس هذه المسئلة بعد الحرب وتضع الاسس المتينة التي من شأنها احياء البلاد والسكان .

— ٩ —

الآثار النافعة

ان اكثر البلدان والقصبات فى ولاية بيروت موصلة فى لوائي لبنان والقدس وولاية سورية ، بطرق معبدة يحتوى بعضها على خطوط حديدية . يتبين من تدقيق الجدول المرتب من قبل دائرة النافعة فى الطرق والمعابر ، الذى اثبتنا صورته فى كتابنا ان طول الطرق التى مهدت ؛ او مزمع على تمهيدها هو (٩١٠) من الكيلومترات و(٦٣٠) متراً . منها (٥٩٧) كيلومتر و٨٠ متراً تم عملها و٤٧ كيلومتراً و١٥٠ متراً تمت تسويته فقط اما الذى لم يشرع به بعد فهو ٩٠٠ — ٢٦٥ كيلومتراً .

طريق اللاذقيه — حما . — يبدأ من اللاذقية وبعد ان يقطع قضائى صهيون وجبله ، ويصل الى ناحية قدموس عن طريق بانياس ، مركز قضاء مرقب يدخل حدود سورية من المحل المسمى بدير الشامى . وبهذا يكون قاطعاً جبال النصيرية من الغرب الى الشرق. ولم ينتهى ربعه الى الآن مع انه شرع فى تعبيده سنة ١٨٨٤ . وقد قال مهندس الولاية الاول (سر مهندس) فى لائحة النافعة التى عرضها على المجلس العمومى باحثاً فيها عن طريق اللاذقية — طرابلس الذى هو الشكل الاخر لهذا الطريق :

— لقد خصص (سنة ١٣٣١) «٤٠٠،٠٠٠» غرش لاجل اجراء العمليات التعبيدية من جديد . ولكن لم يمكن عمل شيء بسبب الاحوال الحربية . وعليه اضيف الى موازنة (سنة ١٣٣٢) «١،٥٠٠،٠٠٠» غرشاً لقاء التعبيد ، وما يلزم من الاعمالات الصناعية .

لا تنقضى الاعمال بمجرد ادخال المبالغ الجسيمة فى الميزانيات . وليس بالعذاب الهين ما يتكبده الانسان من المشقة التى لا تخطر على البال فى قطع هذا الطريق الواصل الولاية فى لوائيها المهمين. لاسيما اذا اوجب الشقاء على احد التجار ، او المأمورين ان يتطرق هذا الطريق فى الشتاء . فهنالك تكبر المحنة والمشقة عن الوصف ؛ انهار شتى يمدها المطر فتسيل وتطغى . واكثرها خلو من الجسور . فما على المسافر الا الاستسلام بحياته وماله الى البخت الاعمى ، والانغماس بمركبه فى هذا السيل الطامى . وهنالك يأخذ الموت بخناقه ، وهو بخناق الموت ويتعاركا فى تلك اللجة الهائلة وربما يسعده الحظ فيصل الى الضفة الاخرى وهو غريق حى . لا يعلم المتجول فى تلك الانحاء انه فى قطعة سورية

اللطيفة ، بل يظن نفسه فى بلاد لم تصل اليها يد الانسان ، ولم تدمثها الخطى البشرية . نعم ان القسم الشمالى من الولايـة لم يجعل الاهمال له شيئاً من آثار العمران . ولا جرم ان النصيريين القاطنين تلك الاصقاع لم يقتدروا على الاحتفاظ بخشونة طباعهم وغلظة شمائلهم الا بهذا الاهمال العمرانى . فمن محتم الوظائف على حكومتنا المشروطة ان تجعل تعبيد الطرق فى مبدأ مسعاها الذى تريد صرفه لتأمين الامن ، ورقى الفلاحة الزراعية .

طريق طرابلس — حمص — حما . — يقطع هذا الطريق قضائى طرابلس وحصن الاكراد من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ويدخل الى ولاية سورية فى محل عين السوده الواقعة على الكيلومتر (٦٢) ثم يتطاول الى ان يصل حمص، ثم ينعطف فى هذه البلدة من الجنوب الى الشمال ويمشى الى حما . والمسافة من عين السوده الى حما هى (٧٩) كيلومتراً . وتنشعب شعبة من مصب نهر العرقا وتصل الى قصبة حلبا على مسافة (٢١) كيلومتراً . وقد احتفظت احدى الشركات بامتياز اجراء المناقلات على هذا الطريق . وكانت قبل الحرب ، ولاسيما قبل تمديد خط الحديد من طرابلس الى حمص، تسافر على هذا الطريق المركبات الجسيمة (ديليژانس) لنقل الركاب ، والعجلات لجر الاثقال . والتى انشأت هذا الخط هى شركة فرنساوية .

طريق بيروت — الشام . — حصل على الامتياز بفتح هذا الطريق (قونت پەرتويس *Comte de Perthuis*) سنة ١٨٥٩ واتم عمله سنة ١٨٦٣ . وما زالت هذه الشركة التى تأسست فى اوانها من حيث القيام بالانشاآت ، واجراء المناقلات ، تستفيد من هذا الامتياز الى سنة ١٨٩٢ . ثم اتفقت مع شركة فرنساوية اخرى ، وفرغت عن امتيازها . وقد كانت هذه الشركة حائزة على امتياز بتمديد خط حديدى (شمندوفر) (سنـة ١٨٩١) من بيروت الى الشام على طول ١٤٦ كيلومتراً . وفى عين التاريخ جاءت شركة بلجيقيـة وحصلت على امتياز بتمديد خط حديدى من الشام الى مزاريب . فاتحد الشركتان وكانت منهما (شركة الخطوط الحديدية الاقتصادية العثمانية فى سورية) .

ثم ما لبثت هذه الشركة ان حصلت على امتياز آخر بتمديد خـط عريض من رياق الى حما ومنها الى حلب . وهذا الخط مضمون على ١٥٠٠٠ فرنك ولكن متى اتصل بخط بغداد يتنزل هذا المقدار الى نصفه .

الخطوط الحديدية . — ان الخطوط الحديدية فى البلاد الغربية من اوروبا تأسست بعد تعبيد الطرق العمومية ، ولذلك نراها تتعقب هاتيك الطرق ؛ اما فى آسيا الصغرى فكان الامر معكوساً ، اذ خطت فيهـا الخطوط الحديدة اولاً ، ثم شرع بتعبيد الطرق . وهـذان الطريقـان من ضروريات بعضهما . لان الطرق المعبدة تنهض بالتجـارة ايضاً كالخطوط

الحديدية . ويجب فى هذه الطرق ان تكون صالحة لاستعمال احدث الوسائط النقلية .

كتب المهندس (ويلهلم فون پرەسسل) كتاباً مهماً جداً وبحث فيه عن الخطوط الحديدية فى آسيا الصغرى ، واوجد لائحةً فى ما سيؤسس فى الاناطول ، وبلاد الجزيرة من الخطوط الحديدية .

مما لا يخفى ان الخطوط الحديدية تفيد وتدوم فى الاصقاع التى يمكن ، او يحتمل اجراء المناقلات الجسيمة فيها . ولهذا يجب ان تكون الانحاء التى يمر عليها الخط خصبةً منبتةً ، وسكانها مستعدين للاشتغال بالتجارة . وعليه فالنقود التى تصرف لتمديد الخطوط فى الاراضى المقفرة لا جرم تذهب ضياعاً .

ومما هو جدير بالبحث مسئلة الخط المنفرد ، او المضاعف . والعريض بمقدار ١٫٤٤ متراً كما هو فى اوروبا ، ام الضيق الذى عرضه مترو واحد . فاى هاتين الطريقتين هى الراجحة يا ترى ؟

اذا صرفنا النظر عن الوجهة العلمية والفنية فى هذه المسئلة ، ونظرنا اليها من حيث التجارة نجد ان للخطوط المضاعفة منافع جمة . ولا جرم ان رأس المال فى الخطوط المضاعفة يكون على غاية من الجسامة . ولكنه يتلافى بما يحصل عليه من زيادة الوارد . اذ بهذا التدبير يمكن تضعيف عدد القطر . هذا وان كانت المسئلة تجاريةً ، فان الحكومات عليها ان تفكر حين تفويض الامتياز براحة الاهلين ومنافعهم ، وتأخذ بالشرائط التى تكفل لها السرعة الممكنة لكى لا ترتكم الامتعة بين منبع الحاصلات ومخرجها . فاذا كان الخط واحداً فان اقل مانعة توجب تعطيله الزمن المديد . وترتكم العجلات فى المواقف ، وتبلى الاموال فى المستودعات .

يرجح الخط المضاعف على الخط المنفرد بهذه الاسباب ؛ ولكن لا ننسى ان الخط المضاعف يحتاج الى المغرم الباهظ . ولهذا يمكن ان يكتفى فى بادئ الامر بخط واحد بشرط تأهيب الممر لاستيعاب خط آخر . فتشييد الجسور ، وتعد الانفاق ، وغيرها بالنظر لهذا الاحتمال . وبهذا تمكن حين اللزوم مضاعفة الخط على اتم السهولة لان الاساس يكون حاضراً ، فلا تحتاج الا لتمديد القضبان .

اما المسئلة الثانية ؛ فهى اخطر من الاولى . وان الحكومة العثمانية لم تؤثر الخطوط الضيقة فى بلاد الاناطول بل كل امتيازاتها كانت مشروطة بعرض ١٫٤٤ متراً ومع هذا فان الخطوط القديمة فى سورية كانت كلها ضيقةً .

على ان هذه الخطوط التى عرضها مترو واحد ، تقوم بعين الخدمة . ولاسيما انها اقل

مغرماً من الاولى . (*)

خط عكا — الشام . — احيل امتياز تمديد خط حديدى من عكا الى الشام (فى ٣٠ ايلول سنة ١٨٩١) الى رجل انكليزى اسمه پهللينغ Pelling ، ويوسف الياس من اهل هذه الديار . وان الحكومة لم تضمن هـذا الخط الذى طوله ٢٥٣ كيلومتراً على عرض ١٫٤٤ متراً بمبلغ ما . ولكن حصل اصحاب الامتياز لقاء هذا على رخصة من الدولة بتسيير السفائن فى بحيرة طبريا ، واذنوا بانشاء رصيف ومرفأ فى فرضة عكا او حيفا فى مدة اربع سنين اعتباراً من تاريخ الامتياز . فتأسست هذه الشركة بعنوان Syria Otoman Railooy واصدرت (٣٠٠٫٠٠٠) من الاسهام قيمة كل واحد (١٢) ليرة . واذنت باصدار (١٥٠٫٠٠٠) من الاسهام اذا اوجب الامر . ثم ما ابطأت ان شرعت بالعمل ، ولكن لم يتمكن المؤسس پهللينغ من الحصول على ما يحتاجه المشروع من المال لغاية (سنة ١٨٩٥) .

وعليه اعلنت الحكومة العثمانية انفساخ امتياز هذا الخط الذى كانت حصة ولاية بيروت منه ١٠٠ كيلومتر ، وصادرت الرهنية المودوعة فى المصرف (بانق) العثمانى . وهى (١٠٠٠٠) ليرة عثمانية . وما لبثت ان ردتها الى اصحابها بعد مناقشات ومدافعات طويلة وبهذ تخلى به لليننغ عن المشروع ، وغادره الى شركة انكليزية ما ابطأت ان شرعت بالعمل ايضاً . ولكن كان العمل على غاية من البطائة حيث دخلت سنة ١٩٠٠ ولم يبعد عن حيفا الا (٥) كيلومترات . وفى ذلك التاريخ ارتأت الحكومة ايصال السكة الحجازية الى حيفا فامرت الشركة بتعطيل العمل متمسكة بانفساخ امتياز پهللينغ منذ امد بعيد . فاحتجت الشركة على هذا العمل ، وراجعت سفارتها ، وبتوسط السفارة اتفقت الحكومة مع الشركة (١٩٠١) وابتاعت حريتها فى هذا المشروع ثم كان ذلك الخط الفرعى .

وفى اول سنة للحرب شرع باجراء المناقلات على الخط الفرعى الذى مدد من حيفا الى عكا بطول (١٧) كيلومتراً . ولكن لم يكن حظ سكان حيفا من هذا الخط اكثر من شهرين . ثم قلعت قضبانه وانشاء منها الفرع المصرى من السكة الحجازية . ثم عمد الى موقف عفوله من فرع حيفا ومدد الخط منه الى القدس . ثم الى بئر السبع ؛ واوغل به فى شبه جزيرة سيناء واخذ يستخدم فى النقليات العسكرية .

خط طرابلس — حمص .— هو على طول (١٠٢) من الكيلومترات . وقد قامت به شركة فرنساوية رأس مالها (٣٠٠) الف ليرة فرنساوية وذلك بمظاهرة شركة الشام — حما ، وانهته فى مدة سنة ونصف . وجميع الشركاء فيها من الفرنساويين . وقيمة السهم

(*) فائق صبرى : عثمانلى جغرافياى اقتصاديسى : صحيفه ٢٣٦ — ٢٣٨ .

فيها خمس ليرات . ومن جملة شرائط المقاولة ان لا يكون للاهلين حق بالاشتراك فى رأس مال الشركة . وقد قلعت قضبان هذا الخط ونقلت الى فرع رأس العين من سكة بغداد . وبذلك جردت بلدة طرابلس الشام من خطها الحديدى .

— ١٠ —

نبذة من تاريخ سورية (*)

١ — المماليك البحرية

المماليك البحرية . — كان المماليك من الجنود الخاصة لسلاطين مصر . وفى اواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، قام التاتار من آسيا ، واندفقوا على الانحاء الغربية حيث هددوا بخطرهم بلاد العجم ، واصقاع العراق ، وعمد الافرنج لانحاء سورية وتوفقوا فيها لاحياء حكومتهم البائدة . اما الخوارزميين الذين فروا من هول التاتار الى الجهة الغربية كانو يهددون البلاد الفلسطينية بخطرهم . وفى هذا الزمان الحرج جلس الملك الصالح سابع الملوك الايوبية على عرش السلطنة فى مصر ، فرأى من الصواب ان يختار لنفسه جنوداً خاصة ممن يثق بصداقتهم . وكانت افراد عشيرة القبجاق مشتتة عن اوطانها بسبب اكتساح المغوليين بلادهم وقد ابتيع منهم عدد وافر وقدم الى سلطان مصر باغلى الثمن . والملك الصالح الذى ما زال يتربص الفرص لم يهمل امر هؤلاء الافراد ، بل سربهم وقربهم اليه دون الاكراد الذين كانوا من دعائم جنوده . وكان عند هؤلاء الاتراك المهاجرين من المحبة والاحترام لسيدهم ما يفوق الحد المعروف . فبنى السلطان لهؤلاء الجنود ثكنة فى جزيرة الروضة الواقعة تجاه القاهرة واسكنهم فيها . وبما ان هذه الجزيرة كانت فى منتصف النيل سمى سكانها بالمماليك البحرية ، وكانوا يسمون بالحلقة لانهم يحيطون بالسلطان .

لم يكتف السلطان باقامة الاتراك فى الثكنة ؛ بل رتب لهم دروساً عن كيفية ادارة البلاد والجنود ؛ واعتنى بتدريسهم اياها . وكان الملك الصالح على غاية من السرور بنجاحه فى تأسيس

(*) يوجد فى القسم الشمالى من الولاية كثير من الجوامع والتكايا ، والمدارس ، والحصون والقلاع والقسم الاهم من الكتابات التى رقمت على جدران هذه المبانى التاريخية لم يزل على ما هو : فاثرنا اتماما للفائدة ان ننقل عين هذه الكتابات المهمة ، وندرجها فى كتابنا . وقد استندنا فى النقل على كتاب Corpus Inscritterium arab.ca n. للمستشرق المعروف (سوبيرنهايم Sobe nheim) وقد آثرنا درجها ايضاحا لما يمر فى هذه النبذة التاريخية ، وما سنراه اثناء البحث عن الصليبيين ؛ وما تتضمنه تلك الكتابات العربية من اسماء الاشخاص والوقوعات .

هذه المؤسسة التي اعدها قوة لتأييد سلطة اسرته وظن ان هذه القوة تكون سلاحاً لصيانة اخلافه من التجاوز والغدر . ولكن الحادثات التي كانت بعد وفاته كشفت عن درجة خطائه في هذا الاجتهاد .

جلس على كرسي السلطنة بعد وفاة الملك الصالح ابنه توران شاه ، ودعى بالملك الاعظم فعزل اكثر قواد ابيه ، وعقد هدنة مع سن لوئي ملك فرانسة دون ان يستشير بشانها احداً . وكان من شرائط هذه المعاهدة ان يسلم الفرنساويون قلعة دمياط التي استولوا عليها الى المسلمين ورضى السلطان المعظم بفك سن لوئي من الاسر بفدية باهظة ، فنهض الوزراء والقواد الذين لم ترق في اعينهم سياسة هذا السلطان الجديد ، واستمالوا رؤساء الحلقة اليهم ، واجمعوا على كيد السلطان .

وبينما كان السلطان راجعاً من الوليمة التي اقيمت بسبب المعاهدة بوغت بهجوم رتبه المملوك (ركن الدين بيبرس) الذى ستري تسلطنه على الديار المصرية . واصابته جريح في زنده . وقد علم السلطان ان هذه المكيدة كانت من المماليك وتحفز ليبطش بهم وينتقم لنفسه . ولكنهم عاجلوه قبل ان يقضي عليهم وعمدوا الى قصره فشبوا فيه النار . وحاول الملك المعظم ان ينجو بنفسه من هذا البلاء فما نجح ، واقتحمه مماليك ابيه فقتلوه . ومع ذلك فقد جددت المعاهدة مع الفرنساويين . ثم اجمع المماليك بعد قتل السلطان على امرأة ابيه (شجر الدر) واقعدوها على كرسي السلطنة . ثم تزوج بها (عز الدين ايبك) من المماليك ونصب نفسه وصياً لها . ولم يطل عليه الامر حتى استصعب ادارة الملك بالاشتراك فخلع زوجته من السلطنة واعلن سلطنته واخذ يدير البلاد لوحده . ثم احس اكثر الوزراء بشدة وطئة الفوضى ، وعمدوا الى موسى من احفاد السلطان الكامل واجلسوه على تخت الملك وهو يومئذٍ في الثامنة من عمره وسموه الملك الاشرف . وبعد اربع سنين (١٢٩٤م) انتهز عز الدين ايبك مساعدة الظروف ، ولم يطق الشراكة في السلطنة فخلع آخر بني أيوب واستبد في الادارة وحده للمرة الثانية . ثم قصد ان يتزوج بابنة بدر الدين امير الموصل ، فاغتاظت زوجته شجر الدر منه ، وساقتها الغيرة الى الجرأة على قتله فخنقته في الحمام . وبعد وفاته اجمع المماليك على تولية ابنه نور الدين علي ، فكان سلطاناً لمصر بعد ابيه .

ثم نهضت والدة السلطان الجديد للانتقام من شجر الدر ، ونصبت لها مكيدة فاغتالتها فيها . وقتلت تلك التي ابلت البلاء الحسن في ايام انحطاط السلالة الايوبية ، ولم تستطع الاحتفاظ بحسن سيطها لما طبعت عليه من حب الحرص والطمع ثم جردت من ثيابها وحذفت جثتها الى الكلاب في خندق القصر .

وبأثناء حدوث هذه الجنايات الغليظة كان الشرق معكساً للوقوعات الهائلة . لان هلاكو

كان مخيماً بجنوده من التاتار على ابواب بغداد ، ومحاصراً لخليفتها ، بعد ان اغرق آسيا الغربية فى بحر من الدم .

لما تقرب هلاكو من انحاء بغداد قابله الخليفة بجنوده وتحارب الطائفتان فغلب الخليفة وكر راجعاً الى بغداد . ثم طلب الوزير ابن العلقمى من الخليفة ان يذهب الى هلاكو ويدعوه دعوة حبية الى الدخول فى بغداد . وبرر على رأيه بان سبق لارطغرل بك ان قوبل بذلك وادخلها . ولكن لم يجسر الخليفة على هذا العمل ، فذهب بن العلقمى لوحده الى مخيم هلاكو وحصل على الامان لنفسه . ثم عاد الى الخليفة وخبره ان هلاكو يميل الى الصلح وانه يريد ان يزوج ابنته من ابن الخليفة ، واصر عليه بالذهاب . حتى وافقه وذهب ، واذاع بن العلقمى خبر النكاح واهاب بالناس لان يحضروا فى الاحتفال به ، واخرجهم الى خارج البلدة .

ولكن التاتار انتهزوا هذه الفرصة ، وحكموا سيوفهم فى الرقاب وابادوا جميع الناس ، ولم ينج ابن العلقمى ايضاً من هذا الظلم العادل بل جوزى بما كسبت يداه من الخيانة (١٢٥٥ م) .

ذاع بعد فجائع العراق ان التاتار يزمعون اكتساح سورية ومصر ايضاً . ولذلك وجب نصب وصى للسلطان المراهق لاجل التذرع بوسائل الدفاع ، والقيام بما يقتضيه الامر من التدبير . فانتدب لهذه المهمة سيف الدين قوطوز احد مماليك عز الدين ايبك واعلنت وصايته . وكان قوطوز قائداً شجاعاً ولكنه مفطور على الطمع والحرص .

ولم ترق فى عينه تلك السلطنة المشتركة فعمد الى نور الدين على فخلعه ، ونصب نفسه سلطاناً على البلاد باسم الملك المظفر . وكان قد جهز الجيوش ، فمشى بهم الى سوريه حيث التقى بالتاتار فى وادى غزة فمزق شملهم وغلبهم شر غلبة . ثم بالغ فى تنسيق ادارة سوريه وحكم ربطها بمصر . على ان هذا السلطان الذى امده الحظ ومشى فى ركابه لم يقتدر على ضبط « ركن الدين بيبرس » ، قاتل الملك المعظم . فانه وعده بعد الظفر ان يقطعه ولاية حلب ولم ينجز بوعده ، وما لبث ان تمثل بيد ذلك الخصم القاهر . وبهذا تمكن بيبرس الذى لم يستطع ان يقنع اولياء الامور بانه اهل للرياسة ، من الارتقاء الى عرش السلطنة المصرية ، واخضع لسلطانه جميع ولاة سورية ثم قفل الى قاعدة ملكه .

وظفر هناك باحمد احد امراء السلالة العباسية الذين مزقت سلطتهم بايدى هلاكو ، فتلقاه باحتفال عظيم ، وقابله بالحفاوة الكاملة . ثم لم يلبث ان اعلن خلافته وسماه « المستنصر بالله » ورأى الخليفة الجديد ان يجزى حاميه بيبرس ويقابله على احسانه ، فحباه بعنوان « السلطان » .

وقد كان بيبرس يقدر قيمة هذا العنوان الصادر عن مقام جليل ، لما يعلم من وقعه العظيم

لدى الناس . وما ابطأ بيبرس ان استصحب الخليفة وقصد سورية للمرة الثانية وبهذه السفرة فقد الخليفة فى الطريق ولم يعلم ما نزل به ، اقتل ، ام مات مسموماً ، او ضل عن الطريق فى ذلك المهمه القفر ؟

ثم عاد بيبرس الى القاهرة وبعد ان شيد فيها المبانى الجسيمة المزخرفة ، عمد لاشهار الحرب على الافرنج ، واستولى فى بادئ الحرب على قيسارية ، وما فى جوارها من القصبات وفتح قلعة صفد عنوةً (١٢٦٠ م) .

وبعد سنتين هدم يافا ، ونهب طرابلس ، ثم حاصر انطاكية وفتحها . وظل هذا السلطان الذى لا يعرف الكلل يهاجم الافرنج ويظهر عليهم مراراً عديدة . وفى سنة (١٢٨١م) عقد الهدنة مع ملك القدس ، ثم اندفع على حكومة الارمن فى شمالى سورية ونكل بها . وبعد اربع سنين استيقظ التاتار وعادوا الى ما عهد فيهم من ايقاع الفساد ، واصبحت البلاد ولا سيما سورية من توالى هجماتهم على شفا الدمار . وكان السكان فى اشد الحاجة لمن ينجدهم ، وينقذهم من هذا البلاء الذى جعل اموالهم وارواحهم تحت الخطر . ولم يطل الامر حتى قدم بيبرس بجيش عرمرم ، واقتحم جنود التاتار فمزقهم كل ممزق . وهذه العزيمة الصادقة والهمة العالية سخرت للسلطان المذكور قلوب جميع الناس واكسبته حبهم واحترامهم. وفى سنة ١٢٧٧ م توفى هذا السلطان النشيط فى مدينة الشام بعد ان اشغل تخت السلطنة مقدار (١٩) سنة ودفن فيها (*) . ولم يتسع نطاق حكومة المماليك التى اسست فى مصر الا بهمة هذا السلطان .

نعم ان بيبرس قوى مركز حكومة المماليك برد غارة المغوليين عن سورية ، وكبح جماحهم . واقتدر على تخليص اعظم القلاع والمعاقل كصفد وحصن الاكراد وانطاكية ، من ايدى الافرنج . وكانت مملكة المماليك حين وفاته ممتدةً من صحراء النوبه الى وادى الفرات . وكان قد عهد بالملك من بعده لابنه « بركه خان » . فلما مات صار الملك اليه وسمى بسعيد ناصر الدين . ولكنه عجز عن الادارة ؛ واستاء منه القواد فلم يمهل الا سنتين وخلع عن سرير السلطنة وانيب مكانه اخوه بدر الدين سلامش وسمى بالملك العادل ، ونصب القائد سيف الدين قلاوون وصى له « ١٢٨٩ » . وبعد سنة من هذا التاريخ خلع هذا السلطان الذى لم يتجاوز السنة السابعة من عمره واجلى الى قلعة حصن الاكراد ، منفى اخيه . ثم وقع الخلاف بين القواد بسبب السلطنة ، فقام الامير سنقر فى الشام وادعاها لنفسه ، وعارضه

(*) كان بيبرس من عشيرة قبجاق ، ومن مماليك الملك الصالح . وعنوان (الصالحى) الذى نراه فى الكتابات التى كتبت فى زمانه هو منبعث من هذا السبب .

قلاوون من امراء المماليك ايضاً ، فافضى امرهم الى الحرب ، حيث كان الحظ موآزراً قلاوون فقهر خصمه ، وانتهى الخلاف ، واذعنت جميع الامراء لسلطة هذا القائد المظفر (١٢٨٠م) .

ان قلاوون هذا الذى سمى بالملك المنصور كان من احسن ملوك المماليك وقد حذا بسياسته تجاه الافرنج فى سورية حذو الملك بيبرس . وبعد اربع سنين عمد قلاوون الى حصن « مرقب » الذى هو من عظم معاقل الافرنج وانتزعه عنوةً من ايدى صيليبي «سن جان» ، ثم استولى على بلدة طرابلس (١٢٨٩ م) . ونقلت البلدة الى مسافة ثلاثة كيلومترات عن الساحل وبنيت من جديد . وفى السنة التى بعدها توفى قلاوون الصالح على الطريق بينما كان قاصدا عكا ليفتحها . ودامت سلطنته احد عشر سنة وثلاثة شهور .

وكان خليفته ابنه « الملك الاشرف» صلاح الدين خليل . فعمد هذا الى محاصرة قلعة عكا عملاً بوصية ابيه . وقد بالغ صيلبيو (سن جان وتاميليه وتوتون » فى الدفاع ، واشتدت المحاصرة ودامت خمسة اسابيع ، ثم سخرت تلك القلعة التى هى آخر قاعدة لحكومة الافرنج بعزم السلطان خليل الاشرف وهمته (١٢٩٧ م) وفتحت بعدها قصبة صور وبهذا أجلى الافرنج عن الارض المقدسة .

وقد قتل الملك الاشرف الذى اباد حكم الافرنج من سورية ، اثناء انشغاله فى الصيد . (١٢٩٣ م) .

ثم اصبح الامر فوضى فى تلك الحكومة ؛ لان السلطنة لم تكن منحصرة فى سلالة خاصة ، بل كانت تتداول بين الامراء ؛ ومكثت مدة فى سلالة سيف الدين قلاوون سابع ملوك المماليك ولكن لم تجد فيهم اهلاً تستقر عليه . ولم ينج منهم من الخلع او القتل الا قلاوون . وقد اهمل فى دورهم امر العمران لسبب الفتن والمفاسد ، حتى اشفت مصر على الخراب . ثم انتهت دولة المماليك فى اواخر القرن الرابع عشر للميلاد (١٣٩٢ م) وانتقل الملك منهم الى ملوك الجراكسة وفى زمن هؤلاء الامراء كانت البلاد اشد تعاسة ، واعظم بلاءً ؛ وتجرعت اهلك الثورات ، ودام حكم الامراء الجراكسة مائة وخمس وثلاثين سنة (١٣٩٢— ١٥١٧ م) .

تحارب (قانصو الغورى) الثانى والعشرون من هؤلاء الامراء مع السلطان سليم ياوز فى مرج دابق فغلبه وقتل فى تلك الوقعة ، اما خلفه (طومانباى) فقد اسره السلطان سليم بعد مرور سنة من تلك الوقعة ، وصلبه فى مصر ، وبهذا دخلت سورية ومصر فى عداد البلاد العثمانية .

٢ — الصليبيون فى سوريه

كانت حومة التاريخ فى القرون الوسطى مجالاً تلعب فيه سلطة الامتين العظيمتين ، امة محمد ، وامة المسيح .

فكانت سلطة الاسلام فى آسيا وآفريقيا ، وقسم من اوربا ، وسلطة النصارى فى اوربا وقسم من آسيا .

وكانت الاحوال تدل على ان لا بد من تناطح هاتين الطائفتين المقادتين برياسة الخليفة والبابا السياسية ، وما لبثت ان وقعت تلك المصادمة باسم الصليبيين .

لماذا تصادم يا ترى هاتان الفرقتان اللتان تقاسمتا البشرية فى ذلك الزمن ؟ واى فرقة كانت اقدر على الظفر من هاتين الفرقتين لدى اول خطوة تجاوزية ؟ واى الطائفتين كانت على الحق ؟ لقد كتب مؤلفو الاسلام والنصارى من المؤلفات فى هذا الموضوع الواسع ما يكون المكتبات الحاشدة . ونحن لا نريد الآن ان نطرق هذا البحث المعضل ، ونبتعد عن موضوعنا الاساسى . بل اننا نعلم ان بلادنا ظلت فى ادارة الافرنج مقدار (١٩٥) سنة ولذلك نريد ان نطالع على كيفية ادارتها فى ايدى اولئك الاجانب .

يدلنا اسم الارض المقدسة على انها ما زالت البقعة المباركة فى نظر جميع اهل الكتاب لا سيما ان قيمتها وقدسيتها فى نظر النصارى عظيمة جداً ، لان عيسى عليه السلام هبط الى عالم الوجود فى هذه البقعة ، وصدع بكلام الله ، وتكبد الالام والعذاب الاليم فيها . ويزعم ان هيلانة والدة قسطنطين الكبير ، لما قدمت القدس بقصد الحج ؛ تحرت الصليب الذى صلب عليه المسيح ووجدته ووضعته فى الكنيسة التى بنتها فوق المغارة التى دفنت فيها. ومنذ ذلك الزمن كان الحج الى القدس من التقاليد الدينية عند النصارى .

لم يحس حجاج المسيحيين بوطأة انتقال القدس من ايدى النصارى الى ايدى المسلمين لان العرب لم يمانعوهم عن زيارة القدس ، ولم يعارضوهم فى تقاليد دينهم ، ثم لم يلبث الخلفاء الذين كانوا قواد عموم الاسلام ، ان تراخوا بايفاء وظيفتهم المقدسة فى زمن العباسيين ، واختلت شؤون الادارة منذ ولج امرها من قبلهم الى الامراء والوزراء الاحداث المتصلبين فى الدين . فغدوا يتقاضون من حجاج النصارى الضرائب والرسوم ولربما اصيب بعض هؤلاء الزائرين بكيد اللصوص .

ما لبث ان نهض البابا ، حامى المذهب النصرانى ، واخذ يدعو النصارى جميعهم ليتحدوا ويتفقوا على مهاجمة الشرق والانتقام من المسلمين بسبب بضعة افراد من متشردى النصارى فبدأت اول حملة للصليبيين سنة ١٠٩٦ ثم تكررت ثمانى مرات ودامت الى سنة ١٢٩١

وقد تمكن الصليبيون فى القرن الحادى عشر للميلاد من تسخير الرها *Edesse*) وانطاكية وفتح القدس ، وفى بداية القرن الثانى عشر استولوا على جميع انحاء سورية ما عدا القصبات والبلاد الواقعة على الخط الممتد من حلب الى الشام .

الاسس الادارية — تأسست حكومة ارمنية فى انحاء (سيليسيا) الواقعة بين جبال طوروس وساحل البحر ، والكائنة فى الجهه الشمالية من الاراضى التى استولى عليها الصليبيون ، وانحاء (الرها — اورفه — *Edesse*) الممتدة الى ضفاف دجلة كانت فى ادارة قائد يسمى بودوين *Baudouin*)كانها بقعة فرانساوية . وقد كان لهذه الايالة الاخيرة قيمة عظيمة فى نظر الصليبيين . لانها تكون حائلاً بين مسلمى سورية ، وبين ما يحتمل ارساله اليهم من الامداد من انحاء الموصل وبغداد .

ثم تأسست ما عدا هؤلاء ايالة انطاكية وطرابلس ، وفى الدرجة الثانية مقاطعة (قونتية) عسقلان ، يافه ، قيسارية ، ثم ايالة الجليل . اما فى الداخل فان انحاء حلب وحما وحمص والشام بقيت فى ايدى المسلمين ونجت من حكم الصليبيين وعليه تكون المستعمرة النصرانية فى سورية عبارة عن حكومة الارمن ، وايالة انطاكية وطرابلس ، وحكومة اللاتين فى الساحل ؛ وايالة الرها فى الداخل . فتكون الحدود الشرقية للحكومة النصرانية فى سورية عبارة عن جبال النصيرية التى تفصل ايالة طرابلس وانطاكية عن مسلمى حمص وحما ، وجبال لبنان التى تفرق نصارى لبنان عن مسلمى الشام ، وفى الجهة السفلى عبارة عن الخط المنخفض الذى يكونه نهر الشريعة وبحيرة لوط . فكانت المستعمرة الفرنساوية تمتد الى الجنوب الشرقى فتحتوى على المواقع الموجودة من الكرك الى خليج العقبة كالكرك مونتره آل ثملات . وتسمى تلك الانحاء باراضى ما وراء الشريعة *Outre Jourdain*

اما القسم الجنوبى من سورية فهو القسم الذى يكون الحكومة الاساسية . وكان من بلادها المشهورة بلدة القدس التى هى قاعدة تلك الحكومة ثم فى الداخل من الجنوب الى الشمال قصبات الناصره ، بانياس ، نابلس ، ايبه لين ، رام ، لدا ، جرون ، او قصبة ابراهم المقدسة . وفى الساحل ؛ عسقلان ، يافه ، آرسور ، قايفا ، آقر ، تير ، سابهت ، باروت وامثالها من الفرض الساحلية وكان ايتاليو ، ... جنوه ، والبندقيه الذين هم السواد الاعظم بين سكان تلك البقعة ، ممتازين عن غيرهم لانهم حسن بلاؤهم فى الحملة الصليبية الرابعة .

اما فى الحدود الجنوبية فتوجد صحراء التيه . وقد شيدت على تخومها قلاع روبر (هى فى جانب بحر لوط) ، سهموآ ، قارمهل . بيت جيبه لين . دازوق . ثم وراء هذا الخط الدفاعى توجد معاقل ثبه لين وبلانش غارد—*Blanche-Garde*.

وتوجد وديان كثيرة تمتد من الشرق الى الغرب بين منتهى الجنوب من لبنان وبين بحر

لوط . فكانت جيوش الاسلام تمكن من هاتيك الوديان ان تهدد الثغور الافرنجية. وقد شيد الافرنج فى هذه الانحاء قلعة الشقيف *Beaufort* و *Castellet* *Chateau-neuf* فى صفد، وفى جنوب البحيرة قلعة بووار *Beauvoir*. وما عدا هؤلاء فقد كان للافرنج فى الجهة الشرقية قلعة بانياس.

اما فى الجهة الوسطى فان الحدود التى تفرق مستعمرة النصارى عن بلاد الشام، هى جبال لبنان التى كان سكانها من المسيحيين ولذلك لاتحتاج الى القلاع والحصون. اما فى الجهة الشمالية فنهر ابراهيم (آدنيس الفنيقيين) الكائن بين بيروت وجبيل، الذى يصب على البحر من وادى عميق بعد ان ينبع من شواهق لبنان، هو فاصل الحد الشمالى للحكومة اللاتينية.

واعتباراً من ضفاف هذا النهر تبتدأ حدود أيالة طرابلس. وتوجد جبال النصيرية فى الجهة الشرقية الشمالية من هذه الايالة. وقد شيد الافرنج فى تلك الاصقاع قلاعاً وحصوناً عديدة ليتمكنوا من الدفاع عن كيانهم تجاه ما وراء العاصى من مسلمى حمص وحما. ويوجد فى جبال عكار حصار عكار، وان حصن عرقا الذى نراه اليوم خراباً، شيد لاجل الدفاع عن البلاد فى ممر النهر الكبير. وما عدا هؤلاء يوجد *Krah des Chevaliers* او بالتعبير الحالى حصن الاكراد الحاكم على الممر الذى يصل سيف البحر فى وادى العاصى، ثم فى الشمال منه قلاع آريمه *Areymeh*، برج صافيتا، سارق. قوله وهؤلاء مربوطون ببعضهم ببروج قيمتها فى الدرجة الثانية.

اما ايالة انطاكية فهى عبارة عن الانحاء الشمالية من جبال النصيرية، والجانب السفلى من وادى العاصى، ومن اشهر بلادها فى الساحل: موانى اسكندرن، پوربونهل *Port Bunnel*، زيبل، لاليش *Laodicée*، سودهن او سن سيمهؤن، وفى وادى العاصى: قصبتى الشغور وفهمى، وفى الجهة الشرقية بلاد البارا آرتهزى، قافاردان، روح اما انحاء قدموس، ليقا، ميعاد فكانت مسكونةً بالاسماعيليين الذين كانوا تجاه الافرنج على نوع شبيه بالاستقلال اما القلاع والمعاقل التى كانت فى جبال النصيرية، فقد اقطعها امراء الايالات الى جمعية الزهاد الصليبيين، لسبب اشكال المحافظة عليها والمدافعة عنها.

جمعية الزهاد الصليبيين — ان جمعية الزهاد المسلحة التى خلقت ابان حرب الصليبيين، كان لها اليد البيضاء فى تمديد حياة الحكومة المقدسية. وألف هؤلاء الزهاد ثلاث جمعيات: المعبديه *Les Chevaliers du Temple* وفرسان سرجان *Les Chevaliers de St Jean* والشركة التوتونية *Ordoe teutonique*.

فالمعبدية من هؤلاء تأسست سنة ١١١٨ من قبل هوك دوپهين ورفقائه بقصد الدفاع عن نصارى الارض المقدسة. وقد اهداهم الملك بودوين الثانى *Boudouin* بيتاً مجاوراً الى

معبد سليمان عليه السلام ، ليتخذوه مركزاً لجمعيتهم. ولذلك سميت بالمعبدية . وقد تمكنت هذه الجمعية بعد تأسيسها باقل من قرنين ان تحصل على مكانة تامة ، وتشغل مقاماً متيناً . وكان رؤساؤها *Grand Maître* بمثابة الامراء، لهم جنود وقواد وقلاع ويزعم ان دخل هذه الجمعية فى اوروبا كان يربو عن مائة مليون . وكان لها فى سورية ١٨ قلعة مع توابعها . وطرطوس — *Tortose* ، عتليت *Chateau Pelerin* كانتا من اهم تلك القلاع وكادت هذه الجمعية ان تكون على اتم الاستقلال فى الامور الحربية . وقد عقدت مباشرة مع المسلمين هدناً عديدة . ولم تنقطع المناسبات بين رؤساء المعبدية وامراء المسلمين ، وكان الامراء يطلبون كفالة المعبديين فى اكثر هدنهم مع اللاتينيين . وقد الغيت هذه الجمعية بامر البابا كلمان الخامس بايعاز ملك فرانسه وطمعاً بما عندها من الثروة .

امافرسان سنجان ، وتسمى بزهاد رودوس ومالطه ايضاً فقد اسسها ژرارطوم — *Gerard Tom* سنة ١٠٩٩ لحماية النصارى الذين يقصدون القدس لاجل الزيارة ، ولمداواتهم اذا مرضوا ، وادارة مستشفياتهم . ثم توسعت هذه الجمعية فى الموضوع ولم يلبث مريدوهاان شرعوا بالاشتغال فى الامور الحربية ايضاً (١١٢١ م) . ولما فتح السلطان صلاح الدين الايوبى بلدة لقدس ، نقلت هذه الجمعية مركزها الى عكا .

ومن ذلك التاريخ اخذت عكا اسم *St Jean d'Acre* . ولما طرد الصليبيون الطرد النهائى من سورية انتقلت هذه الجمعية من عكا الى قبرص ، ثم الى رودوس وبقيت هناك مقدار قرنين . ولما فتح السلطان سليمان القانونى تلك الجزيرة طردهم منها فذهبوا الى مالطه وظلوا هناك الى زمن ناپليون بوناپارت ، وكانت قلعة مرقب *Margat* وحصن الاكراد *Krak de Chevaliers* فى ايدى هذه الجمعيه ، وكان امر ادارتهما والدفاع عنهما مناطاً بها .

اما طريقة توتون *Ordre teutonique* فقد اسسها صليبيو الالمان سنة ١١٢٨ وقد كانت هذه الجمعية معرضة عن الامور الدنيوية ،ومنكبة على الحرب فى سبيل النصرانية وقد دخلت هذه الجمعيات تحت حماية البابا منذ تأسيسها لانها كانت بمثابة الآلة المتحركة بمشيئته يستخدمها فى اى امر اراده وقد حد البابا فى نظام مخصوص وظائف هذه الجمعيات وبين طرز لباسها ، فكانت علامة (السنجانيين) صليب ابيض على حلة سوداء ، والمعبديه، صليب احمر على لباس ابيض والتوتونيين صليب اسود على ثياب بيض . وهؤلاء كانوا معدودين من الصنوف الروحانية ولذلك ما كانوا مأذونين بالزواج . ولكن اهتمام البابا وعزم هؤلاء الزهاد ، ومفاداة الابطال الذين تقاطروا زمراً على حرب المسلمين فى القدس ليكفر لهم البابا سيآتهم ، ويعفوا عن ذنوبهم ، لم تكد لتنفع شيئاً فى محافظة حكومة

القدس . بل تمكن المسلمون بعد معارك دموية دامت ١٩٥ سنة، من طرد هؤلاء الغاصبين عن ملكهم ، واحتفظوا باوطانهم ، ولم تزل الارض المقدسة فى ايدى اصحابها المسلمين .

— ١١ —

الكتابات التاريخية

(١) (كتابة السلطان خليل) « ٦٩٣ هـ » فى الجامع الكبير لطرابلس — ان هذه الكتابة محفورة فوق باب الجامع الشمالى المبنى على الطراز الغوتى وعلى الحائط الذى هو على يسار ذلك الباب :

« البسملة . . . امر بانشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الاعظم سيد ملوك العرب والعجم ، فاتح الامصار ، ومبيد الكفار الملك الاشرف صلاح الدنيا والدين ، خليل قسيم امير المؤمنين بن مولانا السلطان المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى خلد الله ملكه ، فى نيابة المقر العالى الاميرى الكبيرى العزى ، عز الدين ايبك الخزندار لاشرفى المنصورى نائب السلطنة بالفتوحات والسواحل المحروسة عفا الله عنه وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستماية والحمد لله وحده » .

تولا عمارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير الى الله تعالى سالم الصهيونى بن ناصرالدين العجمى عفى الله عنه »

ومما يغلب فى الظن ان هذا الجامع كان كنيسة فى زمن الصليبيين . فحولها السلطان قلاوون الى جامع ، وبابه الذى كان مبنياً على الطراز الغوتى ، قلب فى زمن خليل الاشرف بن قلاوون وبنى على الطراز العربى . والقناطر الموجودة فى حريم الجامع ومنبره اللطيف شيد فى زمن سلطنة محمد الناصر ثانى اولاد قلاوون وهذه الكتابة تبرهن عنه :

(٢) — « البسمله . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . امر بانشاء هذه الرواقات ، تكملة الجامع المبارك مولانا السلطان محمد بن قلاوون خلد الله ملكه فى نيابة المقر الشريف العالى السيفى كستاى الناصرى ، كافل المملكة الشريفة الطرابلسية اعز الله انصاره باشارة المقر العالى (*) البدرى محمد بن ابى بكر شاد الدواوين (**) المعمورة ادام الله نعمته وكان الفراغ منه فى شهور سنة خمس عشر وسبعماية وصلى الله على سيدنا محمد و

(*) هى من المراتب العالية .
(**) المناظر على الدواوين .

تولا عمارته العبد الفقير الى الله تعالى احمد بن حسن البعلبكي. (*)

*
* *

(٣) — كتابة الامير قرطاى على المنبر (٦٢٦ هـ). — «امر بانشاء هذا المنبر المبارك العبد الفقير الى الله تعالى قرطاى بن عبدالله الناصرى اثابه الله فاقام به من ماله بكتوان بن عبدالله الشهابى ، تقبل الله منه وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ستة وعشرين وسبعمية».

حفرت هذه الكتابة باحرف صغيرة لطيفه. والامير قرطاى المذكور فى الكتابة هو من مماليك السلطان قلاوون. وقد نصب (مقدم الف). ووجد والى فى طرابلس من سنة ٧١٦ الى ٧٢٦. وقد توفى فى هذه البلدة بعد هذا التاريخ بثماني سنين. وقد خلفه فى الامارة الامير طانيال الذى سيمر علينا اسمه.

(٤) — صورة امر السلطان صالح (٨١٧ هـ) — نقش هذا الامر فوق الباب الواقع فى الجهة الجنوبية الى الشرق :

«الحمد لله . . رسم بالامر العالى السلطانى الملكى المؤيدى ابى النصر شيخ اعلاه الله وشرفه وانفذه وصرفه بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم ، والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ، ويبطل ذلك جميعه فى هذه الايام الزاهرة خلد الله سلطانها وادام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الاول سنة سبعة عشر وثمانمايه والحمد لله (**)»

يعلن فى هذا الامر ، وفى الكتابة المحفورة على الباب الشرقى الموصل الى حريم الجامع ايضاً . منع الاحتكار فى الحاجات الضرورية كالقمح ، واللحم ، والخبز . ويصرح فى تلك الكتابات ايضاً ، لغو كل ضريبة لم يأمر بها القرآن .

*
* *

(٥) — كتابة الامير ازدمير «٨٨٣ هـ» . — منقوش على احد محاريب الجامع الكبير:

«امر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ازدمير الاشرفى كافل المملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره فى ايام مولانا وسيدنا قاضى القضاة الشافعى الامام . فى مستهل ربيع الاخره سنه ثلاث وثمانين وثمانماية ، بمباشرة محمد الشاد»

نرى اسماء القضاة الذين كانوا على غاية من النفوذ فى اواخر ايام المماليك ، مكتوبة فى اكثر الكتابات المحفورة فى ذلك الزمن .

(*) هذه الكتابة مكتوبة على حائط يرمى الى الجنوب فى حريم الجامع .
(**) نقش عين هذا الامر على الحائط الشمالى فى جامع طوبا فى طرابلس ،

ويوجد اسماء قضاء كثيرة فى من هذا القبيل فى خرب بعلبك .

لم يكن اسم ازدمير معروفاً قبل تسلطن قايتباى « ٨٧٩ هـ ؛ ١٤٧٤ م » ولكن هذا كان من قرباء السلطان ، فنبغ بسرعة زائدة . ثم توفى وهو وال فى حلب « ٨٩٨ » بعد ان صار وال فى صفد وطرابلس . وشهد الوقايع الكثيرة .

*
* *

الكتابات فى المدرسة الشمسية — يوجد ثمانى انواع من الكتابات على الحائط الجنوبى لهذه المدرسة الملاصقة للجامع الكبير من الجهة الشرقية . وكانت الكتابة الاولى اثناء ولاية « سيف الدولة قصروه » من مماليك الامير تيمرار الظاهرى ، منع فيها الملك الاشرف برسباى فى طرابلس تسخيرحيوانات الركوب والنقل للاستخدام فى نقل البريد « ٨٢٦ هـ » ومنع فى الثانية الملك الظاهر جقمق اثناء ولاية برسباى الناصرى الظاهرى [*] ، جباية الضرائب والرسوم الباهظة التى كانت مضروبة على صانعى النساجة ، وعلى الكروم . « ٨٤٦ » هـ » ، والثالثة منع فيها الملك الاشرف ابو النصر قايتباى ، جباية « ١١٤ » درهم التى كانت تجبى كل يوم من مسلخ طرابلس باسم واليها « سيف الدين اينال الاشقر » . ثم فى زمن وال آخر لطرابلس اسمه « اينال الاشرفى » [**]

وايام سلطنة قايتباى حجر فى احدى الكتابات على الحكومة ان تبتاع من الاهالى الصابون والزيت والعنب . وغيرهم من الحاجات الضرورية بثمن بخس ثم تبيعه بثمن غال . وقد افصحت الكتابة عن ان هذا القرار كان بعد شكاية قدمها التجار الى الحكومة .

*
* *

(٦) — صورة منشور السلطان قايتباى (٨٨٩ هـ) — محفورهذا المنشور السلطانى على نفس الحائط بين النافذة الثالثة والرابعة :

« الحمد لله لما كان بتاريخ العشرين من شهر الله المحرم الحرام سنة تسع وثمانين وثمانماية ، ورد مرسوم الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الاشرفى السيفى ابو النصر قايتباى اعلاه الله وشرفه وانفذه فى الآفاق ؛ وصرفه بابطال مكس الدواليب الحرير ، والقصابة بالكهف

(*) كان برساى الناصرى من مماليك (السلطان الناصر فرج) . فاعان (جقمق) الذى رقى الى السلطنة بعد ان كان رئيساً لحجاب السلطان برسباى (٨٤٢ هـ) ، وآزره على تأييد سلطنته ، وعليه جزاه جقمق باقطاعه ولاية طرابلس .

(**) ان اينال الاشرفى كان وال فى طرابلس من سنة (٨٨٦) الى (٨٨٩) . ثم التحق بالامير (اقبازدى) الذى شق عصا الطاعة على (السلطان محمد الناصر) خليفة قايتباى ولكن ما لبث ان غلب مع سيده فى مرعش وقتل :

والقدموس وابطال مكس نحيرة البقر والجاموس وقطع الضأن، وقدم الاساكفة بالقدموس والخوابي على حكم ما بيدهم من المراسم الشريفة على جاري عادتهم بقصته بالخط الشريف المرفوعة عن اهل الكهف والخوابي والقدموس بتاريخ تاسع شهر رمضان المعظم قدره، سنة ثمان وثمانين وثمانماية ».

صرح في هذا الامر بالغاء الضرائب والمكوس التي كانت تجبى من تجار الحرير والقصابين في قلاع الكهف والقدموس، والمكوس التي كانت تجبى من اساكفة قدموس وخوابي، ومكوس نحيرة الحيوانات في هاتين القصبتين. وان بعض هذه المكوس تشبه (ضريبة النوافذ) التي تجبى اليوم في فرانسة. اذ كانت تطرح مبسوطة في التناسب مع نتيجة السعي. وقد جاء في الكتابة ان كثرة الوارد وقلته، يتبع كثرة معلمي الصنعة (قرم الاساكفة) وقلتهم. وعليه اذا كان في احد المصانع معلمان، وفي الآخر خمسة، يكون مكس الاول اقل من الثاني، ولو كان مقدار العمال في المصنعين واحداً.

اما الكتابة الثامنة فهي على نفس الحائط بين النافذة الثانية والثالثة وقد جاء فيها [ان الوالي « قنصوة اليحياوي» سمع بان ناظر القصر يدفع نصف ما يجب عليه دفعه من مخصصات الحرمين الشريفين في كل سنة، ويجبي النصف الآخر من قروى الاراضي الموقوفة. ويبين فيها ان هذا العمل اختلاس، وانه ممنوع البتة ويؤمر فيه بان لا يؤخذ من هؤلاء القرويين الا الجزية الشرعية، او المال المقرر (اي الخراج).

*
* *

جامع طايلان، وكتاباته — يوجد هذا الجامع على يسار « نهر ابو علي» خارج السور. وكان كنيسة من بناء الصليبيين. ولما فتح السلطان قلاوون البلدة (سنة ٦٨٨) بقي هذا المعبد مهملاً، ولم يزل الى سنة (٧٣٦) حيث حوله سيف الدين طانيال والي طرابلس الى جامع، وهو مستطيل الشكل يتألف من رواقين مسقوفين. وله غرفة على يمين الباب معدة للخطيب. ويفهم من الكتابة التي على المزار، انه كانت في الجانب الاخر من الباب غرفة اخرى. ويدخل اليوم الى غرفة الخطيب من باب خارجي. وتوجد على الرخام فوق الباب العام هذه الكتابة

« ٧ » — « البسملة ... امر بانشاء هذا الجامع الشريف بطرابلس المحروسة، اتماماً المبارك المقر الاشرف العالي المولوي الاميري نائب السلطنة في ايام الملك الناصر في شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعماية ».

وقفية الجامع. — ان هذه الوقفية المجملة محفورة بحروف ناتئة على الحجر الكائن في الرواق الاول على الناحية الشمالية الغربية من الباب :

(٨) — « البسملة . . . امر بانشاء هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مولانا المقر الاشرف العالى المولوى الكافلى ، السيدى المالكى المخدومى السيفى طينال الملكى الناصرى كافل الممالك الشريفة الطرابلسية بلغه الله آماله وتقبل فى الصالحات اعماله ، ووقف عليه لمصالحه المعينة فى كتاب وقفه جميع البستان المعروف بالحموى بظاهر طرابلس ، وجميع الحانوتين الملاصقين لبابه ، وجميع البستان المعروف قديما بالطنطاش بسقى طرابلس وجميع الحانوتين الملاصقين لسوق السلاح بجوار الحمام المعروف باسندمر ، وهى الان ملك الواقف وجميع ثلث الخان المعروف بدار الوكالة القديمة ، وجميع القرية المعروفة بارزونية من عمل عرقا بجون طرابلس وشرط انه مهما فضل عن ريع هذا الوقف عن ارباب وظائفه ومصالحه المعينة فى كتابه يصرف للفقراء والمساكين المقيمين بطرابلس ، والواردين اليها حسبما يراه الناظر فى ذلك من غير ان يرتب لاحد فى كل شهر او كل يوم ، ومن غير ذلك او بدله او رتب شيئاً مستمراً كانت عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . »

وعلى رواية الصفدى والمقريزى ان الواقف الامير سيف الدين طابيال مملوك السلطان محمد الناصر وحاجبه ، وكان قائداً لمائة من الجند ثم ولى ولاية طرابلس مرتين سنة ٧٢٦ و ٧٣٥ . وقد بنى الجامع المسمى باسمه اثناء ولايته الثانية . ويروى المؤرخون ان طاينال هذا كان من الولاة الاذكياء والمدبرين ولكنه عرف بالخسة والطمع . وقد توفى سنة ٧٤٣ اثناء مروره بالشام . ولكن لم يتضح مدفنه أفى طرابلس ام فى الشام ام فى بلدة صفد التى ولى امرها مدة . وتوجد فى الشام مدرسة تسمى باسمه .

وقد بنى هذا الامير تربة فى الجامع نفسه لتكون مدفناً له ، وحفر على بابها وقفية اخرى . عدد فيها من الاملاك والعقارات ما يجهل اليوم اكثره ، ووقف ريعها ليصرف على هذه التربة . وتوجد هذه الكتابة منقوشة على المنبر :

(٩) — « البسملة — انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلواة وآتى الذكواة ، ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . تكمل هذه المنبر فى شهر ذى القعدة سنة ست وثلاثين وسبعماية . »

ومنقوشة على المنبر هذه العبارة :

« عمل المعلم محمد الصفدى رحم الله من ترحم عليه » .

والكلمة المخطوط تحتها خط مكتوبة خطأ . لان المنبر مذكر فيجب ان يكون اسم الاشارة مذكراً ايضاً . ونظراً لاتمام انشاء الجامع فى شهر رجب كما مر فى الكتابة السابعة يكون الشروع فى المنبر بعد ثلاثة شهور من ذلك التاريخ .

قلعة طرابلس وكتاباتها — حاصر ريموند الرابع امير (قونت) طولوز طرابلس فى ايام

الصليبيين (١١٠٤ م) وبناءً على استبسال السكان فى الدفاع دامت تلك المحاصرة خمس سنين فعمد المحاصرون وبنوا لهم حصناً فوق هضبة جبل الحاج. وشرع فى بناء البلدة حول هذا الحصن فى زمن اسندمير الكرجى الذى ظل وال فى طرابلس من سنة (٧٠٠) الى (٧٠٩ ه) وسفح هذا الحصن من الجانب الشرقى عمودى يهوى الى اعماق وادى (نهر ابو على). وهذا الحصن يشبه اجمالاً حصون البابا فى اوينيون *Ovignon* احدى البلاد الفرانساوية.

(١٠) — منشور السلطان شعبان العسكرى — حفرت هذه الكتابة على باب القلعة الثانى، المطل على الناحية الشمالية «البسملة... لما كان بتاريخ العاشر من شعبان المكرم سنة ست واربعين وسبعماية للهجرة النبوية، برز مولانا السلطان الاعظم، المالك الملك الكامل سيف الدنيا والدين شعبان بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور قلاوون لا زال مراسمه نافذة فى الافاق، هاطلة سحب سماحها بالاغراق والاطلاق، ان يسامح جميع الجيوش المنصورة الاسلامية والامراء والمماليك السلطانية والجند بالحلقات والاصحاب والامراء والاتباع بما لعله يتعين للديوان المعمور على كل مفصل منهم من بقية خدمه او تفاوت ايام الديوان ما بين السنين الشمسية ما بين السنين الشمسية (تكرورت الجملة مرتين) والقمرية ويبطل تخريج ما قبل ذلك بديوان الجيوش المنصورة بالممالك الاسلامية بحيث يبقى الديوان المرتجع مدخل فى اقطاعات المقطعين ويكون جميع ما يتعين من الديوان محاسبات مسموحاته داخلاً فى هذا الانعام على توالى الايام مشتمل عليه العطاء الذى شمل جوده الخاص والعام. ومثوبة تحمد اجرها فى دار الكرامة وسنة حسنة له اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن تابر على الاقتداء فيه فيه (تكرورت الكلمة مرتين) حقق الله من الخير ظنونه، ومن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه، ومن نقصه او قصد نقصه على مر السنين فيكون الله عز وجل خصمه ونبيه محمد سيد المرسلين ويحقق عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ويبوء بالاثم الذى يخسر به الدنيا والاخرة وذلك هو الخسران المبين.... ومن... وهو خير الوارثين فى ايام ملك الامراء المقر الاشرف العالى الكافلى السيفى قمارى الكاملى كافل السلطنة الشريفة بالفتوحات الطرابلسية عز نصره..»

كتب هذا المنشور الباحث عن الميزانية العسكريه فى ايام شعبان بن محمد بن قلاوون من سلاطين المماليك (٧٤٦—٧٤٧ ه؛ ١٣٤٥—١٣٤٦ م).

وقد بحث المؤرخ المعروف ابو الفدا. وابن الوردى عن هذا المنشور وقال ابو الفدا وفى هذه السنة كتبت الكتابات على قلعة حلب وغيرها من الحصون.

وقد طمست هذه الكتابات فى قلعة حلب، والشام، وبصرى. اما فى حصن الاكراد

فهى على شفا . ولا تكاد تقرأ الا بصعوبة . واما فى طرابلس فهى على غاية من الوضوح ولكن اسلوبها معقد غير واضح ، والكلمات التى خط تحتها اما مكررة ، واما فيها خطاء، ولا يمكن الاطلاع على مضمون هذه النشرة البعيدة باسلوبها عن العربية ما لم تراجع الكتب التاريخية التى كتبت فى ذلك الزمان .

ويفهم من هذا المنشور ان الرواتب كانت مرتبة على الحساب الشمسى غير انها تدفع عند انتهاء الاشهر القمرية . وكانت الامراء والقواد ، والجنود تربح كل سنة راتب احد عشر يوماً ويكون هذا الربح عطية سلطانية . ويروى المؤرخون انه اذا توفى احد القواد او الجنود دون ان يتم مدته المقررة . يلزم وارثوه برد المبلغ الذى كان أخذه . ومنشور السلطان شعبان الذى نبحث عنه قضى بفسخ هذا الاصول ، واقال اسر منسوبى الجندية هم هذا الدين العسر .

لا يغرنا هذا المنشور بمضمونه الحسن فنحكم بسببه على بعد نظر السلطان شعبان فى الشؤون الادارية واعتنائه بتنظيم الامور العسكرية . بل ان شعبان هو الاجدر بالكراهية والنفرة بين سلاطين المماليك لانه كان منكباً على السفاهة ، وغارقاً فى اللهو والهوى . والغاية من اصداره هذا المنشور هى تطييب نفوس الجنود الذين كانوا على غاية الاستياء منه واستمالة قلوبهم نحوه . ولم يكن اعفاء أسر القواد من هكذا دين مبتكراً . وقد اسهب ابو المحاسن فى كتابه « المنهل الصافى » فى تفصيل ما ارتكبه السلطان شعبان من الظلم والجور على الرعية ، وما كان عليه من حب المال والحرص على جمعه .

(١١) — كتابة السلطان سليمان القانونى (٩٢٧ هـ) — . تقرأ على باب القلعة الاول المطل على البحر هذه الكتابة :

« البسملة . . . رسم بالامر الشريف العالى السلطانى الملكى المظفرى سلطان سليمان شاه بن السلطان سليم شاه لا زالت اوامره الشريفة مطاعة فى الامراء بان يجدد فى هذا البرج المبارك . ليكون حصناً منيعاً على دوام ، وكان الفراغ من عمارته فى شهر شعبان المبارك سنة سبع وعشرين وتسعمائة »

من المعلوم ان السلطان سليم الاول فتح سورية ومصر معاً ، واضافهما الى الملك العثمانى سنة (٩٢٢ هـ و ١٥١٧ م) . ثم خلفه السلطان سليمان القانونى «٩٢٦—٩٧٤» وبعد تسلطنه ببضع شهور جاء الى سورية ، وجمع ولاة الايالات فى مجلس تحت رياسته . وقرر فيه على اصلاح قلعة حلب وطرابلس . ونرى فى الكتابة انه اضيف لاسم السلطان عنوان « شاه » هو تعبير ايرانى . مع انه قد استعمل فى الكتابات العثمانية الموجودة فى مصر عنوان « خان » الذى يستعمله المغوليون . وقد نبه على الاغلاط فى هذه الكتابة برسم خطوط تحتها .

جامع السكركية فى طرابلس وما فيه من الكتابة — هو على الضفة اليسرى من نهر ابو على وقريب من جامع طانيال. وان هذا المعبد الذى قوض بنيانه، واشفى على الاندراس، هو الآن مسكن تقيم فيه احدى العائلات الاهلية، وله اوقاف كثيرة كشأن غيره من المؤسسات الدينية فى البلاد الاسلامية. وقد قيض الطمع له من سلبه جميع اوقافه من الايدى الجائرة، فاستبيح والخراب ينقصه من جميع اطرافه. وان وقفية هذا الجامع التى درجناها هنا، هى مما يدع العقل فى حيرة ووله. فكيف مكن اولئك الظالمون من الجناية على هذا المعبد، وسلب جميع مستغلاته التى تربو على المثل بجسامتها؟. وان هذا البنيان المقدس الان هو على ما ينفطر له الفؤاد من سؤ الحال والخراب.

(١٢) وقفية الواقف (٧٦٠ هـ) — مكتوبة هذه الوقفية على الصفحة الجنوبية من الجامع:

« البسملة . . . وقف الجناب الكريم اقطرق الحاجب هذا المكان المبارك مسجدا لله تعالى، وتربة للدفن ووقف على مصالحه وعمارة اثاثه وتطاويقه، جميع المزرعتين المتلاصقتين من عمل حصن الاكراد وهما مرج السلطان وقيمرة وجميع البستانين المتلاصقين بقرية رشعين من عمل طرابلس احدهما يعرف بمحمود والآخر بابن الافرمى، وجميع الحوانيت الاربعة المتلاصقات بالصف الشرقى من سوق الحلاويين بطرابلس وجميع الدار الملاصقة للمسجد، وجميع الآدر الثلاث المتلاصقات بخان المصريين بطرابلس وجميع الحصة الشايعة وقدرها. والنصف، والربع من جميع الدار شمالى خان المهندس بالجسر العتيق وجميع الفرن المعروف بكرخولد للمسجد المذكور وقفاً شرعياً يبدأ من ريعه بعمارته واصلاحه ويصرف منه فى كل شهر اربعون درهماً للامام بالمسجد المذكور وخمسون درهماً الى مؤذنين بالنوبة يؤذنان بمأذنة المسجد المذكور وثلاثون درهماً الى قيم المسجد والتربة وخمسون درهماً فى ثمن زيت وقناديل وآلة الكنس والاستسقاء. ويصرف فى يوم الاثنين من كل اسبوع ثلاثة دراهم فى ثمن خبز يفرق بباب التربة ودرهم واحد فى ثمن ماء وثلج وكذلك يصرف فى يوم الخميس من كل اسبوع، ويصرف فى كل شهر احدى عشر درهماً فى ثمن كسوة من قميص او لباس وقبع وغير ذلك للايتام والارامل والفقراء المسلمين وما فضل بعد ذلك يصرف الى من كان فقيراً محتاجاً من اولاد الواقف وانساله ومن عتقائه بالسوية فان لم يكن فيهم محتاج صرف لى الفقراء المسلمين فى باب التربة وشرط الواقف النظر لنفسه ثم للارشد من اولاده وانساله والى من كان امير حاجب كبيراً بطرابلس وشرط الواقف ان لا يؤجر وقفه باكثر من ثلاث سنين وليصرف هذا، ولا تقدر عليه مظالم ولا مكوس حسبما تضمن ذلك كتاب الوقف المؤرخ بمنتصف ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وسبعماية الثابت المحكوم به بمجلس الحكم العزيز بطرابلس المحروسة ونقش ذلك فى ربيع الاول سنة ستون وولاء لهذا المسجد من الماء

بحق واجب نصف وربع اصبع من قناة طرابلس.» (*)

المدرسة الخاتونية في طرابلس — سميت هذه المدرسة بالخاتونية لانها بنيت على نفقة (ارغون خاتون)، بمشارفة زوجها. وكانت على الضفة اليسرى من نهر ابو علي، قريبة من باب جامع طايلان. وهي الان خاوية مهملة. لا يقصدها الا ذوو الحاجة للمرحاض. وكان لهذه الدار الخيرية اوقافاً عميمة الدخل وهذه الوقفية تطلعنا على حقيقتها:

(١٣) — وقفية المؤسس عز الدين ايدمير الاشرفي (٧٧٥ هـ) — البسملة... الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد انشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الاشرف العالي المولوي المخدومي الكافلي العزي ايدمير الاشرفي مولانا ملك الامراء اعز الله انصاره في شركة آدره الكريمة الجهة المصونة ارغون، تغمدها الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة ووقفت جميع القيسارية المعروفة بالدهيشة.

وبساتين الحريرين والحوانيت التسعة والمقعدان لدى

ذلك خارجها ومعروفين بها ويعلق عليها باب

بالمقعد خارج الباب القبلي ملاصق له عن يمنة الداخل

منه ومن الحوانيت التسعة اربع حوانيت كبار ملاصقات لها عن

يمنة الداخل من بابها القبلي حانوتان وعن يسرته حانوتان

والخمسة اقباء ملاصقات القيسارية ايضاً وجميع الحوانيت

الثلاثه المتلاصقات تجاه باب القيسارية القبلي

وجميع الحوانيت المتلاصقين بوسط السوق الشرقي

بالصف الشرقي بالقرب من قيسارية التجار وموقع

ذلك جميعه بطرابلس المحروسة على نفسها مدة

حياتها ثم من بعدها يصرف ذلك على الوجوه الآتي شرحها فيه؛ وهو ان الناظر في الوقف شرعيا يقرر بالتربة التي عينت للواقفة، وتدفن بها اربعة حفاظ من القرآن العزيز، ويقرر لهم من المعلوم ما اقتضا رأيه على انهم يرددون كل يوم الى تربة الواقفة ويقرؤن بها ربعاً كاملاً من القرآن الكريم ويدعون عقيب القرائة للواقفة ومعتقها زوجها المشار اليه اعلاه ويترحمون عليها، ويسألون الله عز وجل لهما بالعفو والمغفرة ويهدون ثواب القرائة الى زوجها ويشركون جميع المسلمين في الدعاء ويختمون الدعاء بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجعلون ختم القرآن في كل ليلة جمعة بحسب

(*) لم نعثر في الكتب التاريخية على ما يعرفنا بهذا الواقف

انهم يقرؤن على قبرها فى كل سبعة ايام ختمة كاملة . فاذا كانت ليلة الجمعة يجتمعون بالتربة ومن حضر معهم من المسلمين ومساكينهم يختمون الختمة الشريفة على قبرها ، ويدعون ويترحمون كما تقدم وان يعمل الناظر الشرعى فى لونين من الطعام حسبما يقتضيه رأيه ويحضر قنطاراً من خبز الحنطة الطيب الصافى ويوضع بالتربة ويفرق على الفقراء والمساكين من امة محمد صلى الله عليه وسلم ويكون ذلك كل ليلة جمعة عند ختم القرآن العزيز وان يصرف بالتربة ما يحتاج اليه من فرش وغير شئ ومغاز قائم مقيم يقوم بها بكنسها وتنفيضها وفرشها وتنيرها وان يجعل لطرابلس كتاب ايتام يجلس لهم الفقيه على العادة يقريهم القرآن ويعلمهم الكتابة وكل ما ختم القرآن العزيز ؛ او مات او اعرض عن الحضور للتعليم يرتب الناظر غيره من ايتام المسلمين ' وان يقرر للمعلم فى شهر مبلغ ثلاثين درهم يصرف اليه وان يصرف الى كل واحد من الايتام كل يوم ربع درهم ويكسى كل منهم كسوة كاملة حسبما رآه الناظر من قميص وقبع ولباس وجبة ومتاع ومال هذا الوقف عند انقطاع سبله وتعدية جهاته الى الفقراء والمساكين من المسلمين والبدأة من ريع ذلك بعمارته ،وشرطت اليصرف لنفسها ولها ان تثبت وتوكل فيه وتسنده الى من شائت ثم من بعدها يكون النظر لمعتقها مولانا ملك الامراء المشار اليه اعلاه اعز الله انصاره ثم الارشد بالارشد من اولاده منها ، ثم الى من شرطته فى كتاب وقفها المؤرخ فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وتولى عمارة هذا المكان المبارك جميعه الفقير الى الله تعالى الامير جمال الدين يوسف بن المرحوم العزى غزان الشيفى اثابه الله تعالى بالاجر العالى اعلاه الله تعالى وكان الفراغ من ذلك فى سنة خمس وسبعين وسبعماية »

ان ارغون خاتون صاحبة هذا الوقف التى ذكر اسمها فى الوقفية هى معتقة عز الدين ايدمير الاونوكى الناصرى الاشرفى والى طرابلس ، وزوجته . وبنيت هذه المدرسة والتربة بهمتهما. وقد بحث ابوالمحاسن وابن حجار ، والعسقلانى ، والمقريزى من المؤرخين فى كتبهم عن ايدمير بحثاً شافيا .

وعز الدين هذا كان من مماليك (اونوك) ابن السلطان محمد الناصر قلاوون. ثم دخل فى الجنود الخاصة وعلت مرتبته حتى اصبح من المقربين. وقد اجلى الى سورية بعد ان قتل السلطان ولم يلبث الا قليلاً حتى صار (مقدم الف) فى القاهرة وبعد برهة وجيزة نصب وال على طرابلس . وبقى فيها الى سنة (٧٧٣) ثم بارحها ورجع اليها فى سنة (٧٧٤). وتوفى وهو مستشار الجيش (اتابك) سنة (٧٧٦) .

لا نعلم كيف استطاع الظالمون عباد الطمع اختلاس هذه المستغلات الوقفية ، وهضموا حقوق هذه المؤسسة الخيرية كما فعلوا بوقف السكركية ؛ واهووا بها من شامخ مجدها الى حضيض المهانة والذل .

وما لهذه الدنيئة من علة الا خلو الشرقيين من الحس . لاننا على اعجب العجاب من المهارة في سرقة الاملاك الوقفية واختلاسها. نسمع بمن يأخذ بيد الحكومات فى الغرب من المتمولين ويمدها بالاموال الطائلة لتنهض بامر معارف البلاد ، وبتشيد المؤسسات الكافلة لهذه المهمة فى قاعدة الملك ، وغيرها . فنحبذ على هذه الاعمال الشريفة ونتشدق بامتداحها ونظهر فى مظهر محبى البر والاحسان ، ولكن لا تاخذنا الاريحية لتأسيس المستشفيات التى تدرأ عنا الامراض السارية ، ولا لتشييد المدارس التى تقوم اعوجاج اخلاقنا . وليتنا نقف عند هذا الحد ؛ بل نجد اكثر ما شيده الاسلاف من الاوقاف الخيرية فى اربع اقطار البلاد الاسلامية اصبح اليوم منطمس المعالم ، دارس الاثار ، التهمته افواه اولئك المتغلبين الظالمين الذين ختم الله على قلوبهم فلم يعلموا انهم ياكلون ناراً تصهر ما فى بطونهم . ويدعى المدعون انه موجود فى طرابلس من الاوقاف اكثر من « ٣٦٠ » مؤسسة معدة لاغاثة الفقراء واليتامى والمساكين ، والايامى من النساء ، والتخفيف عنهم والقيام بجميع حاجاتهم الضرورية . وقد علمنا من دائرة الاوقاف فى طرابلس ان قيمة الاوقاف المضبوطة فيها اليوم تناهز سبعة ملايين غرشاً ، ودخلها السنوى (٢٢) الف غرش ولا يمكن ان نبين — ولو على وجه الاجمال — شيئاً عن الاوقاف غير المضبوطة .ولكن من المحقق ان هاتيك الاوقاف التى لم تزل تحت رحمة متوليها لا تقل عن عشرة امثال الاوقاف المضبوطة . فاين تذهب هذه الغلال يا ترى ؟

ومن العبث ان نرتاد فى طرابلس ما ينطبق على حقيقة المؤسسات الخيرية . ومن هذه الغلال التى تقدر بثلاثة ملايين من القروش لا يصرف ولو واحد من مائة فى ما وضع له . ونرى ان هذه الشائبة الاجتماعية والاخلاقية الموجودة فى جميع البلاد الاسلامية ؛ وصلت من الافراط الى درجة جديرة بان يهتم لها اولياء الامور وينظروا فيها ، بل كان من الواجب التوسل بالتدابير المؤثرة لقلب هاتيك الاوقاف الى ما تقتضيه المدنية من المؤسسات الخيرية او العلمية .

سبيل التينه فى طرابلس — يوجد هذا السبيل فى موقع مرتفع على الضفة اليسرى من نهر ابو على وتجاهه الجامع المعلق . وقد كتبت هذه الخطوط فى اعلاه :

« البسملة . . . انشأ هذا السبيل الفقير الى الله تعالى محمد بن المرحوم زين الدين مباركشاه العلاى فى مستهل سنة ست عشرة وثمنمئة » .

منقوش فى اربعة اطراف الكتابة على هذا السبيل الذى انشأه (محمد بن زين الدين مباركشاه العلاى) هذه الاشارة التى تشبه الكتابة الهيروغليفية : ونرى اكثر ملوك المماليك يستعملونها فى شعارهم .

وقد اسهب آرتين باشا فى تعريف هذه الشعر ووصفها فى كتابه : *Contribution à l'étude du Clasou en Orient.* ويعثر على مثل هذه الرسمة التى صورناها هنا فى الجامع الكبير فى الشام ، وعلى سبيل الدهيشة الذى بناه السلطان الناصر فرج فى القاهرة. وآرتين باشا ينسبها الى السلطان الناصر ، وسبيل التينة فى طرابلس لا يمكن ان يكون من آثار السلطان الناصر الذى كانت سلطنته من سنة (٨٠١) الى (٨١٥ هـ) ، لانه بنى سنة (٨١٦ هـ) .

(١٤) — كتابة المدرسة الرفاعية فى طرابلس (٨٧٠ هـ) — حفر السلطان خشقدم هذه الكتابة على الجدار الشمالى لهذه المدرسة الكائنة على الجانب الايسر من نهر ابو على قريباً من الطريق الكبير الذى يصل البلدة بالمينا :

« الحمد لله ، لما كان بتاريخ مستهل ربيع الآخرة سنة سبعين وثمانماية ، ورد المرسوم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى ابوسعيد خشقدم نصره الله تعالى وخلد ملك مالكها وادام اقتداره الى المقر الاشرف الناصرى محمد بن مبارك مولانا ملك الامرا كافل المملكة الطرابلسية المحروسة اعز الله انصاره من مضمونه ان لا يؤخذ من التجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهى على الالف عشرة دراهم لا غير من غير زيادة على ذلك وان لا يتناول الاجرة الا من باشر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة ولا يؤخذ شيء ممن باع سلعته بغير دلال ، ومنع من يعارض ابناء السبيل وابطال ما جدد على ذلك وهى الخمسة الزائدة على كل الف حسب ما شهد به المحضر الشرعى وان تسطر هذه المثوبة رفعاً للظلامة فى الصحائف الشريفة اقتناءً بقوله تعالى « فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب اليم » ورسم ان يستمروا ابناء السبيل فى السمسرة والترجمة . وملعون ابن ملعون من يغيره او يبدله او يسعى فى ابطاله او اعادته او يشا عنه كان عليه لعنة الله و الملائكة والناس اجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم »

ان الملك الظاهر خشقدم من ملوك المماليك حكم من سنة (٨٦٥) الى (٨٧٢ هـ) وكان والى طرابلس يومئذٍ من العرب لا من الترك خلافاً للعادة . وهذا المنشور يبحث عن التجار والسماسرة ، وهاتان المهنتان كانتا فى الشرق الادنى منذ امد بعيد . وكان التجار الافرنج الذين يأتون من اوروبا . ومن سورية فى زمن اهل الصليب يحتاجون الى ترجمان لعدم وقوفهم على اللغة العربية .

(١٥) — كتابة السلطان قايتباى فى جامع آرغون شاه (٨٨٠ هـ) . — حفر هذه الكتابة السلطان قايتباى فوق مدخل هذا الجامع الكائن على الضفة اليسرى من نهر ابو على بين جامع السكركية ، وباب جامع طايلان :

« الحمد لله. لما كان بتاريخ خامس عشر جمادى الاخرة سنة ثمانين وثمانماية وردمرسوم شريف مربع جيشى من الابواب الشريفة السلطان الملك الاشرف قائتباى خلد الله ملكه ، بان جهات وقف المرحوم ارغون شاه بالسقى بطرابلس المحروسة لا تؤجر لا لمتجوه ولا ذى شوكة واجهار الندى لزراع الاراضى بالحماية والرعاية ومنع من يعارضهم حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وتسليم الاراضى للسيد الحسيب النسيب السيد نور الدين محمود الحسينى الادهمى الناظر والشيخ بها بالزاوية المذكورة فاشار به المقر الاشرف العالى المولوى السيفى ازدمير الاشرفى مولانا ملك الامراء كافل المملكة الطرابلسية اعز الله انصاره ورسم بنقش ذلك على باب المدرسة حسب ما شرط به الواقف فى كتابه وملعون من يغير ذلك ويسعى فى تجديده . »

يظهر من الكتابة انها خطت فى زمن السلطان قايتباى (٨٧٢—٩٠١ هـ) وفى ابان ولاية ازدمير الاشرفى الذى ترجمنا عنه فى الكتابة الخامسة. وهذه الكتابة حفرها جيد وخطها واضح ومقرؤ .

(١٦) — مرسوم السلطان قايتباى فى جامع الدباغين (٨٨٢ هـ) .— ان هذا الجامع هو على الجانب الايسر من نهر ابو على قريب من الجسر الجديد ، فى جوار جامع الطوبا. ومحفورة هذه الكتابة على حجرين فوق الباب :

الحمد لله . لما كان بتاريخ ثالث وعشرين جمادى الآخرة من شهور سنة اثنين وثمانين وثمانمائة برز المرسوم المولوى السلطانى الملكى الاشرفى ابو النصر قائتباى خلد الله ملكه الشريف عند حلول ركابه بطرابلس المحروسة بابطال ما على جماعة الدباغين بطرابلس من المكس المقرر لديوان المواقف الشريفة وان لا يكلفوا الى الدرهم الفرد وان ينقش ذلك فى بلاطة على المسلخ بطرابلس لتسطر هذه المثوبة فى الصحائف الشريفة وملعون بن ملعون من يجدد ذلك او يغيره » .

وليس اليوم من اثر للمدبغة التى يجب ان تكون على الضفة اليسرى من نهر ابو على. تجول السلطان قايتباى سنة (٨٨٢ هـ — ١٤٧٧ م) فى سورية لاجل المشارفة على الاعمال ، والنهى المكوس التى كانت تؤخذ من الدباغين باسم الخزينة الخاصة :

وفى محل آخر من هذا الجامع ، توجد هذه الكتابة :

(١٧) — « جدد هذا المسجد المبارك (. . .) بن يوسف شيخ الدباغين بطرابلس المحروسة بتاريخ عشر شوال سنة ٩١٣ واوقف عليه بعد وفاته دكان وولد [*] ومخزن...»

(*) هكذا فى الاصل

اصلح هذا الجامع . . . بن يوسف رئيس الدباغين فى ايام الملك الاشرف قانصوالغورى الذى قهره السلطان سليم ياوز العثمانى وسلبه سلطنته وبلاده (٩٠٠٩—٩٢٢)

جامع المعلقه .— يصعد الى هذا الجامع بسلم ، ولذلك سمى بهذا الاسم . وهو فى موقع مرتفع عن طرابلس . وهذه الكتابة تدل على انه أنشأ فى زمن العثمانيين :

(١٨) — « البسملة . . . انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة ، وآتى الزكاة ولم يخشى الا الله فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين . انشأ هذا الجامع المبارك العبد الفقير محمود بن المرحوم لطفى الزعيم رحمه الله وكان تمام انشائه فى شهر ربيع الأول من شهور سنة سبع وستين وتسعماية . »

ومحمود بن لطفى الزعيم هذا ، كان فى زمن السلطان سليمان القانونى العثمانى (٩٢٦— ٩٧٤ هـ) . ورغماً عن هذا فان الجامع ، وما حفر عليه من الكتابة هو على الطراز السابق فى دور المماليك .

جامع الطوبا — هو قريب من جامع الدباغين ، وقد شيد سنة (١٠٢١) هجرية ، وهذه كتابته :

(١٩) — « الحمد لله الذى من على عبده من جريان فيض فضله ويسر هذا الخير على يده وهداه الى العمل بقوله سبحانه وتعالى ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله ، فجدد هذا الجامع الشريف لوجه الله الكريم بعد هدم جداره ومنبره ومحرابه ، وسبيل مائه من الفيضة الكبرى فى سادس عشر ذى القعدة سنة عشرين بعد الالف ، الواثق بالملك البارى احمد بن محمد الشرابدارى الانصارى كتخداى حضرة حسين باشا بن يوسف باشا السيفى امير الامراء بطرابلس ايد الله تعالى الدولة والسعادة عليهم وعفا عنهم وعن المسلمين اجمعين آمين ، وتم بناؤه فى شهر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين والف ختمت بالخير » .

يتميز هذا الجامع العثمانى عن المؤسسات الدينية التى كانت فى دور المماليك بوضوح كتابته وسهولة قرائتها . والفيضة التى ذكرت فى الكتابة كانت فى زمن السلطان احمد الاول (١٠١٢—١٠٢٦) ، وقد نسفت كثيراً من الابنية ، وهدمت جدار جامع الطوبا ومنبره ومحرابه وسبيله ثم اصلحه احمد بن محمد شربتدار عمدة حسين باشا بن يوسف باشا والى طرابلس وهذا كان معروفاً بالطمع والحرص ، والانهماك فى الحرب والجدال . وقد افنى عمره وهو فى جدال مع الحكومة ، ولاسيما مع فخر الدين امير الدروز المعروف .

مدرسة خيرية حسن — قريبة من جامع السكركية والخاتونية . ولا يوجد تاريخ فى هذه الكتابة .

(٢٠) — « وقفت جهة المرحوم قطلو المصبنه والمعصرة ، والربع فوق المعصرة وخمس

قراريط ، وربع بطاحون الداودية والسندمريه بارض كفرقاهل وبستان ظاهر طرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق اسندمير ، وثلث الدير يعرف بارض اصنون ، ومسكبة زيتون والقاعة والبحرة ، والطبقة جوار المدرسة ، نصف طاحون الجديدة بعردات وكرم زيتون فى بطرام وطبة ومخزن بقيسارية الافرنج » .

لم يذكر اسم صاحبة الوقف فى هذه الكتابة ولذلك لم تمكن الترجمة عنها : ويظهر من هذه الكتابة ان الوقف غنى وافر الغلة . وايضاً لم تنطق الوقفية عن غاية هذا الوقف . ولكن لا بد ان يكون مخصصاً الى مصارف المدرسة ورواتب معلمها .

جامع البرطاسى — هو فى جانب الجسر العتيق الكائن على نهر ابو على . وهـا هى كتابته التى يدل اسلوبها على انتمائها الى دور الملوك البحرية ، وان خلت عن التاريخ :

(٢١) — « البسملة . . . اوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسى عفـا الله عنه على المشتغلين بالعلم الشريف على مـذهب الامام الشافعى واقامة الجمع والصلواة المكتوبة وشرط ان لا يرسم فيها على احد ولا يسكنه من لا له الحق فى ذلك » .

جامع عكار العتيقة — كان يوجد فى قضاء عكار التابع للواء طرابلس حصن مبنى فى موقع هو على جانب عظيم من المكانة والجدارة الموقعية بالنظر للدفع عن البـلاد ، وذلك لسبب اطلاله على طريق طرابلس — حمص — بعلبك .

وقد اخذ هذا الحصن المسمى بحصن (فرسان سن جان) دوراً مهماً اثنـاء حروب الصليبيين . وبازائه خرابة جامع عكار العتيقـة ، حفر على مدخله السلطـان قلاوون هذه الكتابة :

(٢٣) — « البسملة . . . جدد هذا الجامع المبارك فى ايام مولانا السلطان العالم العادل الغازى المجاهد المؤيد المظفر المنصور سيف الدنيا والدين قلاون الصالحى قسيم امير المؤمنين خلد الله ملكه بمرسوم المقر العالى المولوى الاميرى الكبيرى السيفى اعز الله نصره بلبان السلاح دار ، كافل الممالك الشريفه باشارة الجناب العالى الاميرى الكبيرى العامى ادام الله عزه سنجار الجماق دار نائب السلطنة المعظمة بحصن عكار المحروس وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ست وثمانين وستماية بولاية العبد الفقير بكجرى » .

بنى هذا الجامع فى ايام السلطان قلاوون بامر والى الممالك المفتوحة سيف الدن بلبان السلاحدار فى شهر ذى الحجة سنة (٦٨٦) . وقد بناه من يدعى بكجرى برعاية الامـير الكبير سنجـار الجمقدار يقول ابو المحاسن فى كتابه المنهل الصافى اثنـاء البحث عن « بلبان بن عبدالله الطباخى المنصورى الامير سيف الدين » ، ان مولاه السلطان قلاوون ولاه ولاية طرابلس اولاً ، ثم ولاية حلب ، ثم دعى سنة (٦٩١) الى القاهرة حيث احل

فى منصب سام ، وبعد تسع سنين نصب قائداً على احد الفيالق . وسير الى سورية فتوفى على الطريق فى رملة اوغزة ، وقد حاز على الشهرة الرنانة بين الامراء بشجاعته وبسالته وكرمه وتقواه .

وجمقدار تتركب من كلة (جمق) التركية ومن ادات (دار) الفارسية ومعناها « ذو المقمعة » . ويشترط فيمن ينال هذه الرتبة ان يكون مهندماً ذا هيبة . وكان الجمقدار يقف فى الايام الرسمية على يمين السلطان وفى يده مقمعة من ذهب . وسنجر الجمقدار هذا هو من رجالى محمد الناصر ، واسم (بكجرى) مركب من كلة (بك) ومعناها الرئيس ومن (جرى) ومعناه العسكر . فيكون معنى التركيب رئيس العسكر .

كتابات حصن الاكراد . — ان هذه القلعة مبنية فوق الجبال التى تفصل وادى العاصى عن ايالة طرابلس . فى موقع يهددالطريق الواصلة حماوحمص بطرابلس وطرطوس وكانت فى زمن الصليبيين من اهم القلاع الموجودة فى حوزة فرسان سن جان . وقد استولى عليهاسنة «٥٠٣ هـ ١١١٠م » تنكريد *Tancrede* امير انطاكية بعد ان غلب مسلمى حمص عليها . وبقيت هذه القلعة فى ايديهم الى سنة « ٦٦٩ هـ — ١٢٧١ م » وذلك باستماتة فرسان سن جان فى الدفاع عنها . وفى هذا التاريخ هاجمها السلطان بيبرس من الملوك البحرية ، وحاصرها مقدار سبعة اسابيع ثم سخرها عنوة ، وطرد الصليبيين عنها واصلح شعثها ورأب صدوعها . وبرهاننا على صحة هذا الادعاء ، هى هذه الكتابةالمنقوشة على مدخلها :

(٢٣) « البسملة . . . « صورة اسد » [*] امر بتجديد هذا الحصن المبارك فى دولة مولانا السلطان الملك الظاهر العالم « صورة اسد » العادل المجاهد المرابط المؤيد ، المظفر المنصور ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وذلك بتاريخ نهار يوم الثلاثاء خامس وعشرين من شعبان سنة « ٦٦٩ » »

والكتابة الثانية محفورة فوق البرج الاسطوانى الذى بنى باسم السلطان بيبرس وولى عهده بركه‌خان فى الزاوية الغربية من السور الخارجى وهى :

(٢٤) — « البسملة » . . . « صورة اسد » امر بتجديد هذا الحصن المبارك مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين ابو الفتح بيبرس قسيم امير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ هـ « صورة اسد » .

---

*) ان كل الكتابات التى كتبت فى ايام السلطان بيبرس يصور عليها صورة الاسد التى كانت شعاراً له .

ومكتوب باسم السلطان بيبرس وولى عهده ايضاً ، على البرج الاسطوانى الواقع فى الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الخارجى هذه الكتابة :

(٢٥) — « صورة اسد » البسملة . . . امر بتجديد هذا الحصن المبارك فى دولة مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس اعز الله نصره وولى عهده السلطان الملك السعيد ناصر الدنيا والدين وذلك بتاريخ نهار الثلاثا خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ « صورة اسد » .

وهذه الكتابات الثلاث التى تنطق على ان قلعة حصن الاكراد اصلحت فى زمن السلطان بيبرس حفرت كما جاء فيها سنة ٦٦٩ يوم الثلاثا .

كتابة السلطان قلاوون — هذه الكتابة خطت على البرج المربع الكائن بين جدارى الحصن من الجهة الجنوبية :

(٢٦) — « البسملة . . . جدد هذا البرج السعيد فى ايام مولانا السلطان الاعظم السيد العالم العادل المؤيد المجاهد الغازى المرابط المثاغر المظفر الملك المنصور سيف الدولة والدين قلاوون الصالحى قسيم امير المؤمنين خلد الله ايامه ونصر اعوانه وكانت عمارته فى سنة ٦٨٤ » (١٢٨٥ م) .

اشتدت ثورة الصليبيين سنة ١٢٨٤ . وبلغت الى درجة جعلت حصن الاكراد تحت خطرها وتهديدها . ثم عمدت امارة طرابلس ، وجماعة « سن جان » واشهروا الحرب على السلطان قلاوون رغماً عن الهدنة التى عقدت بينهم فى السنة التى تسلطن فيها قلاوون (١٢٨٠ م) وعليه اراد السلطان ان ينزع من ايديهم حصن مرقب الذى هو اكبر معقل لهم مهما كلفه الامر . فحشد الجنود وولى امر قيادتها الى (بالابان الطباخ) (*) . ثم تفقد صدوع القلعة قبل ارسال الجيش فاصلحها وحفر عليها هذه الكتابة .

وكتب محمد بن قلاوون هذه الكتابة فى الزاوية الجنوبية الشرقية من السور الخارجى على ارتفاع عشرة امتار :

(٢٧) — « جددت هذه البدنة المباركة فى ايام مولانا السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الشهيد المنصور قلاون الصالحى قسيم امير المؤمنين وذلك فى ايام الجناب العالى الاميرى الكبيرى البدرى بيليك السديدى نائب حصن الاكراد المحروس فى شهور سنة ٧٠١ »

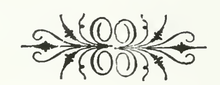
ويوجد فى حصن الاكراد من الآثار الاسلامية ما عدا هذه تربة بدر الدين البيدارى من مماليك بالابان الطباخ ، وكنيسة مهدومة حولها بيبرس الى جامع ، وتوجد انقاض

(*) راجع عدد « ٢١ » من الكتابات

المدرسة والزاوية التى انشأهما « بكتمر بن عبدالله الحر الاشرفى » نائب السلطان فى حصن الاكراد وخصص لهما الدخل الوافر سنة « ٧١٩ » . وانشأ بكتمر ما عدا هؤلاء مستشفى وخصص له اوقافاً كثيرة . وهذه الكتابة الموجودة فى احد البيوت القديمة فى حصن الاكراد تبرهن على وجود ذلك المستشفى :

(٢٨) — « البسملة . . . انشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى بكتمر بن عبدالله الاشرفى نائب السلطنة المعظمة بحصن الاكراد اثابه الله تعالى واوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك فى شهور سنة تسع عشرة وسبعماية » .

وقد عدد وقف هذه المؤسسة الخيرية فى كتابة منقوشة فى كوخ يسكنه اليوم شخص يدعى محمد عثمانى .



المباحث المحلية

المباحث المحلية

—١—

ربوع لبنان

١ — من بيروت الى البترون

سفر طويل ، فى حمارة الصيف . . .

لا مناص من هذا ، فانه واجبنا المحتم فى هذه السنة : وقد كنا على بصيرة مما تكبدناه العام الغابر من المشقة المبرحة اثناء التجوال فى الانحاء الجنوبية من الولاية ، ولا تزال قلوبنا واجفة من ذكراها لا من الرجوع اليها ، ولكن لا ندرى لماذا هششنا لاقتحام هذه الشقة واقدمنا على هذا المأزق الصعب ؛ لما قيل لنا :

— هلم الى القسم الشمالى من الولاية فادرسوه ، ونقبوا عنه !

من اعظم واجباتنا تصفح صحائف هذا الوطن العزيز ، وتعقب سطوره الكريمة قراءة ودرساً ؛ وان لنا لسعادة برشف هذا الرحيق الطيب من تلك الاكواب الفاخرة . فذلك الواجب الحق ، وهذه السعادة العظمى ، جعلت فى عزائمنا من القدرة ما تلاشت لعظمتها تلك العقبات ، وخرت امامها تلك الجبال الراسيات .

علمنا ان قد آن ان نرمق آفاق بيروت الهادئة بنظرة الوداع ، ونقطع ربوع لبنان الى الاصقاع الشمالية . فتناولنا كتاب « دليل سورية وفلسطين » لبدكر الذى لا يزال يتداول فى الايدى ، وفتحناه :

— ستون . . . من بيروت الى البترون؛ وثلاثون . . . من البترون الى طرابلس !

اذاً ، علينا لاول وهلة قطع مسافة تسعين كيلومتراً . ولو لم يكن الحجر على طريق البحر ؛ لتسنت لنا باخرة توصلنا الى وجهتنا بثلاث ساعات . ولكن اولى لنا من ان ننغمس فى لجة البحر ، ونرمق جمال ملاك لبنان على شاسع البعد ؛ ان نعتنق تلك الآلهة البديعة التى ما زالت يعبدها كثير من الاقوام منذ زمن الفنيقيين .

الآن تدرج مركبتنا بضجاتها على الجسر الهرم فوق نهر بيروت الذى سماه القدماء (ماغوراس *Magoras*) ، الفاصل حدود بيروت عن لبنان من الجهة الشرقية ، ولا نكاد نحس لهذه الرحلة الخيرية بوطئة ما .

بزغت الشمس، وتسنمت ذرى الفضاء فوق هامات تلك الربى الخضراء؛ ربى «برمانا» و«بعبدات»، كانها عين من مذاب الذهب، واخذت تعسجد بشعاعها الابريزي سطوح النهر والبحر عن شمالنا، واحراج الصنوبر التي التفت من البعد بدثار الابهام في انحاء «رستم باشا» عن يميننا؛ وكان نسيم الصبح كالمروحة القدسية، ينفحنا بهبة بليلة، تحف الارواح بنكهة ملاك الجبل العاطرة.

كانت مركبتنا على شفا الدخول بين اجمات القصب في الطريق، والتفتنا نتزود من بيروت بآخر نظرة، فتجلت وهي معكس للانوار الحافلة، كانها صيغت من قوارير.

فكنا نقول، ودمعة انبعثت من اعماق عيوننا تتدحرج على صحيفتنا كانها شرارة من نار:

— بيروت! ايتها العزيزة، هل لنا ان نرجع اليك...؟

ثم تغلغلت المركبة بين هاتيك الاجمات، وانطمس علينا ذلك المنظر النضير، فانقطعت مراسم الوداع لذاتها. ولم نلبث برهة، الا ودخلنا في بحر من العجاج... ها نحن نمر على قرى لبنان، بل نمشي في داخل بيوت لبنان. ما الطفها من قرى؟ روضة صغيرة، وبضع شجرات، ويسير من خضرة ثم البيوت المستطيلة المبنية بالاحجار، يفسح عن وسطها بقنطرة كبيرة، منضدة سطوحها بالقرمد الاحمر، او مطلية بالتراب، وكثيراً ما يكون الطابق الاسفل من هذه البيوت حانوتاً كبيراً، آخذاً نصيبه من النور؛ او مخزناً. ويكون البيت حينئذ متعدد الطوابق. اما البيوت التي هي عبارة عن طابق واحد، فلا بد ان يوجد في جانبها سلم من الخشب ثخين الدرجات وربما وجد تحت ظلال الاشجار بضع بقرات، او شياه ثم الدجاج، والاقواب مبعثرون هنا وهناك.

ترون امام البيوت، غادات لبنان سفعت وجوههن الشمس، والعجائز والرجال كل له مشغلة يثابر عليها. فالبنات في ايديهن المخرمات او قطعة من نسيج، والعجائز قبضة من صوف، والرجال في ايديهم المرور او المعاول، وربما ترونهم وهم منتدون باسمى المحيا. وان المحبة والوفاء والاخلاص والوقار لهي من الاوصاف الطبيعية لهؤلاء القوم لا تنفك عنهم. لا تملكون انفسكم أن تقولوا وانتم مارون بهم.

— يا للسعادة ما احبهم لبعضهم؟

جل ما ترون من المناظر، نظرة محشوة بالابهام والود من شاب، وصوتاً يتدفق سروراً من فتى؛ وسكوناً دون اكتراث من شيخ يعالج جمع قواه لينهض، وثم قهقهة الآنسات الرنانة... وهذا دائم ومطرد...

اذا وجد حانوت تحت البيوت، فيعرض المنظر اوصافاً اظهر وابرز. لان تلك الحوانيت مشهر الاضداد، او مجمع كل متاع. يجتمع فيها بصورة غريبة كل ما ليس له علاقة بغيره.

فترى هنا عنقوداً من عنب كانه اجراس الذهب ؛ ثم مكنسة ، وهناك سرج ، ويليه قطعة من نسيج . ثم الاحذية وبقربها ربطة المخرم معلقين جنباً لجنب . ولو امعنتم فى داخل هذا المحشر لوجدتم فيه الحبوب والحرير والاحجار والحديد ، والمشروبات والنعال ... والخضر، والواح الخشب ، وكل شئ . . . .

فى اللبنانيين الى وكونهم الحجرية المبعثرة فى انحاء الرياض، والحقول انجذاب قوى وميل لايرد . ولو تحادثتم مع ابسط الناس ممن يقطن الجبل لايلبث ان يطلعكم على سريرته ويقول :

لو تعلمون ما اشد ولوعنا فى بنيان البيوت ؛ لا نبالى بصرف جميع ما فى ايدينا لهذا الغرض . ولا نهتم للنقود كافية كانت او لم تكن . ولهذا ترون هنا نصف سلم ، وهناك بيتاً بلا سقف ، وبضع غرف غير مطلية . . . وعلى الاكثر اكواماً من الحجارة والتراب ، وغيرها من لوازم البناء . . . نهجر اوطاننا لنحصل على نفقة البنيان ونرضى حتى بالذهاب الى اميركا لهذه الغاية ، فنسعى هناك جهد الطاقة ، ونمضى السنين ثم نرجع ولدينا بضع مآت ؛ او الوف من الذهب . ونعلم ان من واجبنا اعمار بقعة من هذا الوطن العزيز ؛ فنعمد الى الارض ونجلى عنها الاحجار ، ونغرس البساتين والكروم على الدكك والمصاطب ، ونبنى البيوت . وهكذا الى ان تنضب الجيوب ، ونبذل كل ما فى اليد. ويومئذ نستأنف الكرة الى اميركا بلاد الذهب ونتوخى ان نجلب لبلادنا الوفر والحياة والراحة . واولادنا ونساؤنا لا ينقطعون ههنا عن العمل . بل يكسبون اقواتهم بمساعيهم... لا نرى مساغاً للحفظ على النقود والثراء ، بل نرجح كومة من حجارة ، على جراب من ذهب ، ورقعة من ارض ، على كدس القوائم .

ان هذه الاعترافات التى ينطق بها كل جبلى ، لا جرم هى عين الحقيقة . وها نحن الآن نسير على الطرق المعبدة فى هذا الجبل ، ونرى بلا انقطاع تسلسل البيوت التى شيدتها دنانير مهاجرى اميركا على عرض الدروب؛ ونسمع الاسماء الرنانة لتلك القرى التى تتألف من اجتماع بضع بيوت : مثل بوشريه . . . دوره . . . جديده . . .

وربما رأينا على قارعة الطريق صيدلية لوحدها ؛ او كنيسة صغيرة .

سرنا فى المقصبة مقدار نصف ساعة ، وقد كاد الطريق يتضح بسبب تزحزح العجاج.. فكنا نرى عن شمالنا البحر كصحيفة الاطلس الزرقاء ، وعن يمينا جبال لبنان الخضراء التى تكل الطرف ، ويرجع عن اختراق شواهقها البصر خاسئاً ؛ وابناء السبيل الذين كانوا يقفون اثرنا ، ثم يتحولون عن سبيلنا الى الانحاء متعاكسة . وكلهم يرمقنا بنظرة ملؤها الاستكناه والاستفسار . يقصدون بيروت وعلى كواهلهم صناديق البقول ؛ او قراطل الاثمار ، وكنا ننظر اليهم نظر الحيرة والعجب . ثم ما لبث رفيقى ان انهى اطراقه الذى كان عليه منذ مدة ، وقال ؛ كانه هب من سبات :

— لهؤلاء المنة الكبرى على حياة بيروت . . . ولو لم يكن هؤلاء الجبليون . . .
. عليه التفت نحو بيروت عن غير روية فرأيتها تربعت حضن البحر كملاك الجمال، يكاد وميضها ياخذ بالابصار، يسورها لبنان من جهاتها الثلاث . . ثم سمعت رفيقي يتكلم فحولت وجهي نحوه . فكان يقول :

— لسرعان ما استحالت ربوع لبنان ! . . .

نعم ان هاتيك الربوع قد استحالت بطرقها ، وبيوتها وسكانها ، وحتى باصغر وريقاتها.. ما كان انظم هاتيك الطرق ، وانظف تلك البيوت واهناها ؟ اين فتيان لبنان ، بلابل هذه الربوع ؟ واين كواعبه واترابه ، بل ازهار ربيعه . ام اين اشياخه ذوو الوجوه الطلق والمحيا الباسم ؟ ام اين كان شبان هـذه الديار الذين هم نموذج القدرة والسعادة بحمرة وجوههم ، وقوة اجسامهم ؟ . . . لا اثر لكل ذلك ؟

لم نزل نتحرى ما كنا نعهد في لبنان من الحسن الطبيعي والصناعي ، وتلك الحياة التي كانت تطفح ابتهاجاً وسروراً .

هذه مركبتنا تغور وتنجد في حفر الطريق الذي بعد عهده عن التفقد والاصلاح ، وتخترق بنا بحر العجاج الكثيف . وكنا نمعن النظر في ما حولنا من البيوت . فنرى اكثرها موصد الابواب والنوافذ . ولاجرم انه قد اناخ عليها صرصر التخريب ، فنخر ابوابها وجدرانها . واحالها اوكاناً للبوم بعد ما كانت كنسا للظبا . واصبح اولادهـ سود الوجوه تحسبهم قديداً من النحول ، ممددين على عرض الطريق ، لا حراك بهم ؛ وبناتها تلك الملائك اللطيفة ، يقفن على قارعة الطريق حفاة ، باطمارهن الرثة ، وشعورهن المبددة ، ووجوههن التي غبرتها الذلة والمهانـة ، ويمددن ايديهن الى ابناء السبيل ويصرخن بصوت خافت:

— يا للجوع ؛ بربكم... كسرةً من خبز...

اما الشيوخ فقد وصلوا ديار البقاء منذ امد بعيد . ان القذارة والفتور والمجاعة والفاقة نُعشت على تلك القرى التي كانت موطن السعادة والرغد ريحاً عقيماً لا يبقي ولا يذر ، فيبست الاشجار واقفرت الحقول وكلحت صحيفتها ، وغارت تلك المياه الفضية عن مجاري الطواحين، وجف ري الشفاه ، وانطفى سراج الالحاظ واخذ كل شيء يركض الى قصارى بلائه .

فكنت اقول لنفسي:

ماذا على الجبليين لو كانوا حازمين ومقتصدين ؟ ما اشد البلاء بعد بذل الوجد على تشييد الابنية ونضوب الوفر؟ يا له من راى قائل ! كيف لا يلامون على التسرع بافناء ثمرة سعيهم التي نقدوها بحياتهم ، وتكبدوا لاجلها في اميركا امر العمر ؛ كيف لا يلامون على عقد الاصابع تلقاء امانيهم السرابية في اميركا واتكالهم عليها ورضائهم بذميم العيش، واعتناق البطالة والكسل ، كيف لا يلامون على خلودهم في الجهالة المظلمة، ثم امرار الحيـاة على

خبط عشواء ؟ الا يرون ان هذا التراب يتطلب العمل ، هلا يعلمون ان جبلهم يحتاج لكدح مرتب وكد مثمر ، لا تسعد الا الايدى العاملة التي تجعل لبنان مثالاً لسويسرة . ام يحسب اللبنانيون الناشطون عن كل قيد ومعرفة ، البعيدون عن الحزم والتبصر ان ميزان الذهب لايزال خالداً بينهم وبين امريكا ؟

ها هي « الحرب » ؛ تلك الطامة الكبرى ، ما لبثت ان مزقت سراب امانيهم المذهبة . وها هي اطفالهم ونساؤهم وكهولهم اصبحوا يتامى، ايامى لا كافل لهم وازحين تحت اعباء الرزايا .

ما عادت تعدهم امواج بحر الابيض بالسعادة ، وامسكت عن ايصال الاخبار والبشائر . ولا قبضة من ذهب ، حتى ولا طيف سلام يقر العيون من اولئك الآباء والاولاد ، او الاخوة والاخوات . وعجز لبنـان بحجارته وصخوره عن تأمين حياة ابنائه ، فاخذ الدم الفياض الذى اعدته الايام السعيدة يتدرج بالجفاف قطرةً قطرةً .

كنا نقطع تلك المسافة وقلوبنا تمض تجاه الايدى الممدودة من اولئك الاشخاص الذين اكل الجوع لحومهم وشرب دماءهم ، ونتحرى على اقل وسيلة تمكننا من الفرار من امام هذا المنظر الفجيع .

اخذت اشغل نفسي بتدقيق ماعلى طريقنا من العوارض الطبيعية : فها نحن نجتاز جدولاً صغيراً [نهر الموت] ، وهذا جدول آخر [عين برشلو] . وترائت عن يميننا شواهق «ديك المهدى» بعد جبال « برمانا » .

ما لبثت شمس حزيران ، المحرقة الا وتسلقت الافق، واخذت تسلق بشعاعها النارى ، ما كان على حفاف الطريق من شجر الليمون .

اجتزنا بيوت « جل الديب » ووصلنا الى موقف (آنطلياس) الكائن على السكة الحديدية بين بيروت والمعاملتين وهنا رأينا شيئاً من آثار الحياة .

ومن هنالك اطردت المنـازل ، فكان البحر عن يسارنا والجبال البعيدة عن يميننـا وبين ايدينا الطريق الفـاسد بغباره ، ثم الجداول الصغيرة ، وسلسلة مقطعة من كوم الاشجار .

ان هذا الاطراد فى المشهودات اهاب بذكرى الماضى ، فبعثها من مرقدها وتحركت فى فكرتى كانها تطلب ان تحيا . ما ترائت ادغال موقع (ضبيه) من بعيد الا ونفخت فى هاتيك الذكرى روح الحياة ، اذ كنت اعهد :

ان هذه الربوع وهـذا الطريق ، ولاسيما موقع (ضبيـه *Debayé*) كان من انعش مقاصف بيروت والطفها . مآت من المركبات كانت تندفع الى هذا الساحل الجاذب فى كل يوم ، والوف من المترفين كانت تنفض على هذه الآفاق من سرورها ، وتملئ عباب جوها

قهقهةً وطرباً . اما اليوم فالساحل خلو من نور الحياة ، وها هو يتدرج بالانطفاء ولا يسمعك ركزاً ولا همسا .

قربنا من الضبيه فتراآى لنا خلال الاشجار العظيمة معمل شركة الماء المسماة — (*Beyrouth vvater vorks Company Limited*) ، التي تسوق الماء العذب الى مدينة بيروت في انابيب من حديد . ثم لم نلبث ان اجتزنا شلالات الضبيه التي لا تزال تسحر ارواح البيروتيين بلطافتها . ومررت مشجرة الضبية ايضاً ثم اقفر سبيلنا فكانت الجبال الوعثة عن يمننا وعن شمالنا البحر والرمل، ثم سكة الحديد السوداء الممدة . وبعد ربع ساعة وصلنا الى (جبل مار يوسف البرج) العالي، وبعد عطفة صغيرة اتينا موقع (نهر الكلب) .

ان هذا المكان هو ابدع المواقع في لبنان . تصوروا واد يتغلغل في البعد حيث تطلع الشمس ويتلوى يمنةً وشمالاً ، محصوراً بين اطواد تنطح السحاب بشواهقها الخضراء ، يسيل فيه سيال كمذاب النور حيث ينغمس في زرقة البحر ويتلاشى بهدو وسكينة ؛ وضعو روضةً خضراء في حضن البحر بشلالاتها ، واشجارها ومروجها لتكون مصطافاً بديعاً . ثم ابعثوا من اعلى تلك الذرى نسيماً يمشط الغابات ويماشي الوادي على امتداده ، واجعلوا العواصف الطائشة تنبعث من كبد البحر حيث يلتقيان في تلك الجنة البديعة ويعتنقان نحراً لنحر .

هذا هو نهر الكلب . . . كان محشراً للبدايع الممتازة . وقبل بضع آلاف سنة عمد قوم من عباد الجمال الى هذه الدمنة الخضراء واقاموا فيها تمثالاً عظيماً . وكانت عواصف هذه البقعة تندفع في جوف ذلك الهيكل فتصيت مثل الذئب ، وعلى رواية مثل الكلب . ولكن (ليقوس *Lycos*) الذي سماه الاقدمون بنهر الذئب اوبنهر الكلب اصبح اليوم في معزل عن ذلك الصدى الذي انغمس في بحر التاريخ .

وقفت اسائل (ليقوس) عن ذكرى ماضيه فاتحف روحي بنكهة عنبرية ثم قال :

— كم من ذكرى ثمينة دفنت في هذا الوادي الذي ما زالت تعوى فيه الرياح الطائشة . وان صدى الاجيال الغابرة لا يزال يصرخ فوق هام تلك الذرى التي ترونها تخترق السحاب . اذا شئتم ان تروا آثار المصريين والاثوريين واليونانيين ، والرومانيين ، والصليبيين في هذا المدخر التاريخي ، فانظروا في ناصية جاري ، هذا الجبل الهرم . . .

حولنا النظر الى ذلك الجبل ، واخذنا نمعن في نقوشه :

ما ابلغها نقوشا من عبر تاريخية نطقت بذكرى الملوك كسيزوستريس او رامسه‌س الثاني وسالماناسار واسرحدون وامثالهم :

هذا نقش آثوري : ملك رافع يمينه . ويقربه منظر رأس فقط ، وهو الاثر الثاني

الآثوريين . وهذا آثورى ايضاً . وتلك كتابات اللاتينيين واليونانيين ، ثم هناك رسم مصرى : فرعون يقرب قرباناً لرا آلهة الشمس ، وعلى غلوة منه ذكرى آثورية وثم فرعون وآله آخر ، ثم صحيفة ذكرى حرب المصريين مع الآثوريين ... الخ [*]

مشيت على الطريق الذى مهده (قاراقاللا *Caracalla*) امبراطور الرومانيين بعد الميلاد بقرنين ، ومررت على تلك النقوش والكتابات الذى يناهز عددها الاحدى عشر ، وكان دماغى يطأطأ تجاه هذه الخاطرات الخالدة تعظيماً واجلالاً لقدرها . وكأنى اسمع التاريخ يهتف بهذه الاسماء السامية التى اختارتها حافظة الكون من مشهر الاقوام الخالية . وهذا جسر قديم ايضاً يتحفنا بذكرى ايام السلطان سليم ياوز .

وقد سكرت فكرتى من تصفح تلك الآثار القديمة واصبحت تأبى ان تشتف ولو قطرة تاريخية فقط ،

ثم سارت مركبتنا على الجسر الجديد الذى شيده السلطان السابق (عبد الحميد) وامعنت فى الاسراع فكنا نرى على يميننا فوق قمة الجبل قرية (سوق مصبح *Souk Misbeh*) وبضعة بيوت بعدها وما كان اكثر من ساعة الا ومرت علينا جبال [دكان الصنوبره ، ذوق حريصا] وقرى « درعون ، غستا » وموقف (قاسليق) وجبال (سوق ميكائيل *Souk Mikail*) من ورائها موقع (بكركه) الذى فيه البطريركية المارونية . . . ثم قرية (صربا *Sarba*)

وبعد برهة . اشرفنا على مينا « جونية » مصدر الحركة النصرانية فى لبنان ومورده وتراآى لنا تمثال « سيدة لبنان » فوق قمة الجبل .

لا جرم ان هذا التمثال الذى يمثل محيا العذراء ، هو رمز النصرانية فى هذا الجبل . كانهم يريدون ان يقولوا بهذا الهيكل المطل على المرآة الزرقاء فى جونية التى هى اصلح مدخل بحرى فى لبنان ؛ وعلى بيوتها الرخامية البيضاء التى تجملت بالطف الذوق الصناعى وعلى جميع لبنان وحتى على بيروت ايضاً :

— ان فى لبنان روحاً مسيحية .

ونحن ايضاً قد الهانا الامعان فى هذا الرمز النصرانى ، فما كنا نشعر بمن يساور مركبتنا من مطاعين الجوع ، ولم نكد نسمع صراخهم الموجع .

---

[*] يقال ان الكتابة التى حفرت هناك تذكاراً لدخول الجنود الفرنساوية هذه الديار (١٨٦٠ — ١٨٦١) قد محيت بعد الحرب العام .

ما زلنا نتبع الساحل بعد ان بارحنا شوارع جونيه المنتظمة ، وبعد برهة وجيزة وصلنا موقع « المعاملتين » التي هي آخر محطة للسكة الساحلية . ورأينا على يميننا من بعيد قرية (شنين نعير) ، ثم على غلوة منها قرية (غذير) . ومن هناك كان على يسارنا ساحات الرمل ، يعقبها البحر ، وعن اليمين مررنا على جسر قديم روماني ، ثم صعدنا المرتفع وجزنا (رأس الرامية) الى وادي الرامية ، ثم وصلنا قريتها . وهناك قرية « وطأسبلالان » على الساحل ، و « فرسيللان » على اعلى الجبل ، وبعد ان بارحنا « البرجه » او « طبرجه » التي كانت ملجأً لسفن الفينيقيين بمدة وصلنا الى وعثاء « بلاطة الغربه » وبعد منحدر قليل الى « مرصوفة » ثم الى قرية « بوار » الكائنة على الطريق ، ومن اليمين الى قرية « صفره » التي هي في ذيل الهضبة ، ثم الى مغارة « عين ماحوز » وبئرها ، وآخر الامر وصلنا الى موقع « نهر ابراهيم » .

***

هذا النهر هو الذي سماه الفينيقيون « آدونيس » . وكان لهم آله يتصورونه على هيئة شاب ويدعونه بهذا الاسم ايضاً . وبينما كان آدونيس يجول في انحاء لبنان اعترضه آله حسود فقتله ، وقد كانت زوجته « عشتروت » تحبه محبة عظيمة ، وقامت تطلبه في الجبال . فرأته يتخبط في دمه ، فرمت بنفسها عليه واخذت بالبكاء والعويل ، ولم يلبث الآله بضعة شهور الا وردت روحه اليه . وقد كان من تقاليدهم ان يرتبوا في موسم الصيف من كل سنة احتفالاً يحيوا فيه ذكرى تلك الحادثة . لا سيما في أواخر ايام الخريف حينما تهطل الامطار على تلك الانحاء فتجرف التراب الاحمر وتلقيه في النهر حيث يتخضب الماء بالحمرة ، او على زعم الفينيقيين بدم « آدونيس » . وهنالك يجددون المأتم ، ويثابرون على النحيب سبعة ايام ، وفي اليوم الثامن ينقلب العزاء سروراً فيحتفلون به ايضاً .

كنت امتع النظر بنهر « آدونيس » المسمى بنهر ابراهيم نسبة الى الامير ابراهيم احد امراء لبنان الذي بنى عليه الجسر ، واشاهد كيف يجري محاذياً لساحل البحر ، ثم ينعطف على ارض بيضاء حيث يقطعها ويمتزج في البحر . فلمعت في فكري ذكرى الشاعر الانكليزي « ميليتون » عاشق القرون الخالية . يحكي ميليتون في مؤلفه « الجنة المفقودة *La Paradie perdu* » الذي هو اجمل مؤلفاته عن غانيات سورية كيف كن يأتين الى ضفاف « آدونيس » في حلل ارجوانية ، ويصف بكل ما يملك من القدرة الشاعرية هذا المأتم ، وبكاء تلك الآنسات .

بارحنا تلك البقعة ولا يزال صدى ذلك الشاعر الاعمى يتموج في صماخي بجميع بدايعه .

***

مررنا بعد برهة بـ « مغارة العصفورية » وغادرناها عن يميننا ، ثم جاوزنا قرية « حالات »

وبعدها « بيت البوق » و « حروف الفيدار » ؛ وعن الشمال انقاض قلعة « برج محاج » ، ثم نهر « فيدار » وجسره ، ثم عن اليمين قرية « مستيتا » على الربوة ، قريبا من «حروف» وبعد ان قطعنا عقبة وعرة ، رأينا عن اليمين سلسلة من القرى . ثم حرج الصنوبر ، وقرية « ارطبون » ووراءها قرية « بلاط » . وها نحن داخلون بين بيوت جبيل ذات القرميد الاحمر .

سمى التاريخ قصبة « جبيل *Djébeil* » باسماء مختلفة . ويروى [*] ان هذه البلدة القديمة الفنيقية التي كان اسمها « افايا » ، يسميها العبرانيون « جبال — *Gébal* » ، واليونانيون « بيبلوس — *Byblos* » والصليبيون « جبله — *Giblet* » ثم عربت فكانت « جبيل » . ولأول نظرة الى هذه القصبة يعلم الانسان انها غنية بالآثار التاريخية بما فيها من البروج القديمة ، وغيرها من آثار الأدوار الاولى . ولا سيما « قلعة جبيل » التي هي من آثار الصليبيين ، فأنها موجودة بأكثر اقسامها في حجر البحر .

فارقنا جبيل ، وقطعنا واد صغير ، ثم « جسر الجبيج » ثم مرتقى قطعناه في ساعة . ومررنا من قرب عمشيت التي هي اغنى بلاد الجبل ، وسرنا بجانب كروم التين برهة ، ومن هنا اصبحت القرى منفصلة عن بعضها . وبعد نصف ساعة ترائت لنا قرية «حصرائيل» و«ريحانه» من بعيد . وبعد مرورنا بجسر التروه وقرية «بعشته» ونهرها ، وجسره ، مرت عاينا قرية « حلوه » و« برباره *Berbara* » وبالنهاية شاهدنا « البترون » من بعيد على رأس الشاطئ . وكان يلزمنا سير ساعة حتى نصل اليها .

وبما اننا كنا نتوقف لأجل الراحة في اكثر المواقع التي نمر عليها ، ما كدنا نصل لهذا المحل الا وكادت الشمس تغرب . والآن كانت شمس آفاق الفنيقيين المحرقة متأهبة للانغماس في مغربها ، وتنثر انوارها الذهبية على تلك الاصقاع وغدت اعشاب الطريق تصفر ، ثم شرعت تحمر ، ثم طبق ظل العشى واخذ يتسرب الى منتهى الآفاق رويداً رويداً وبهذه البرهة كانت قريه « طحوم — *Tehoum* » و«جسر المدفون» و «نبع طحوم» تفر من امام انظارنا . ثم قطعنا قرية « فدعوس » كفرعبيتا — *Kafr Abita* ومشجرة الزيتون التي هي على يميننا ، ووصلنا البترون — *Batroun* » وقد هدلت عليها استار الظلمة .

٢ — من بترون الى طرابلس

مانجل لبنان على ارواحنا ببدايعه ، ولا بآثاره التاريخية ، في هذا اليوم الذي مر بعجره وبجره ريثما وصلنا الى البترون . ولكن لم يزل صماخنا يطن بصدى اصوات النساء والاطفال الجبليين التي اخفتها الجوع ، وخنقتها الفاقة . ولا سيما ان تدحرج المركبة زلزل

قوانا ، وجعلنا لانبغى حراكاً من الونى .

اما نزلنا الذى يمثل بيتاً كبيراً من بيوت بيروت ، فكان يمدنا براحة ثمينة . ورغماً عن هذا فقد ازمعنا على ان نلبث هنيهة فى البهو المطل على بيوت البترون البيضاء التى عامت فى بحر من نور القمر ، وعزمنا على التمتع بهذه المناظر الشعرية ، ولكن لم تمهلنا ربة النزل العجوز ، بل جائتنا واخذت تشكوا لنا ما ألم بها بصوت مرشح للانطفاء فأضرمت فى افئدتنا ناراً حامية . كانت تلك البائسة تكفكف دمعها وتقول :

— اناشدكم الله ، نبئونى ، متى تنتهى هذه الحرب الطاحنة ؟ ايجدر بأصابعى هذه التى كانت تلعب بمآت ، بل بالوف من الدنانير ، ان تبحث فى فضلات البيوت على قارعة الطريق ، ام اكون مثل العود اليابس كهؤلاء الذين عرقتهم الرزايا ثم اسقط ممددة فى الشارع واودع الحياة ؟ كانت هذه البائسة تجهد للافصاح عن دائها ، وقبضتها مدفوعة الى الامام تشير بأصبعها اشارة اليائس الى ماوراء الآفاق ، كأنها تريد اميركا ، وتقول :

— اولادى هناك .... لو كانو لدى ...

اما نحن فكنا نستعيض عن جمال ليل البترون ، بتهطال الدموع ، ثم اضطررنا للانسحاب الى غرفتنا وقلوبنا كادت تنفطر . ذهب اكثر من نصف الليل ، ولم نزل نسمع فى الخارج صوتاً يقول بلهجة جبلية :

— جيعان ، جيعان ....

وكان هذا النداء من صغار الفقراء يمزق احشاء ذلك الليل المقمر ، ويملؤ بذلك الصدى الفجيع ، انحاء الآفاق .

* * *

هببنا من النوم بعد ما اغرقت الشمس بضيائها هاتيك البيوت الناصعة ، فى تلك البلدة الفنيقية التى سماها اليونانيون ببلدة « بوتريس — *Botrys* ». وما كان الطف منظر هذه البلدة القديمة التى يعزى تأسيسها الى « ايتوبعل » ملك صور وذلك قبل الميلاد بزهاء خمسة عشر قرناً .

كان نظرنا يزلق بين تلك البيوت البيضاء ، البسامة ، ويتغلغل فى البعد الى ان يصل الى الشاطئ ، ثم يقف ويرمق ماهناك من الآثار القديمة . وفكرنا مازال باهتا بما رآه من آثار القرون الخالية .

ثم عدنا الى مركبتنا بعد ما جاملنا ربة النزل بما يدل عن فوأدها شيئاً من الاكدار . وها نحن الآن نسير بين اشجار التوت ، واجمات القصب ، وبعد ربع ساعة مررنا بقرية « كبه *Kobbé* » ومن ورائها قرية « مسيلحه *Mseilha* » على راس قمة الجبل . ثم واصلنا السير فى ارض مرملة قفراء واتبعنا شاطئ البحر ، وصرنا عن اليمين الى « برج

العتيق » وعن الشمال الى « حنوش » التى تتألف من بضعة بيوت. وهنالك تراآى لنا « رأس الشقعه » على بعد ، بكامل سموه وعلوه .

شرعنا الآن بقطع الاقواس القصيرة ، والمشى على السكة المحدودبة ، واخذنا نتسلق فى جبل شاهق وعر : وكانت المركبة تسير بصعوبة فى هذا الطريق ، ثم بعد نصف ساعة وصلنا الى سفح منحدر .وهذا الموقع هو« رأس الشقعة »

لاريب فى ان « رأس الشقعة » هو ارهب موقع فى سورية على شاطئ البحر الابيض. وهذا الموقع يماثل فى الارهاب والادهاش الفضالة الجبلية الكائنة بين عكا وصور ، المسماة بـ « رأس الناقور »[*]

تصوروا فوقكم شاهقاً يخترق السحاب ويكاد يهوى عليكم من علوه ، وتحتكم على عمق « ٣٠٠ » مترا خضماً رهيبا تضطرب وتقصف امواجه الهائلة ، وانتم تسيرون فى نقب « طريق الجبل » كلسى مائل ، لايكاد يستوعب المركبة من ضيقه . ولا جرم ان مجرد تصور العثور هناك يبعث الدوار فى الدماغ :

مكثنا برهة من الزمن تقابل العيوق وجها لوجه على ذلك المنبر المعلى الذى لازالت تنطحه الخافقات الطائشة . وهذه الفضالة الجبلية التى سماها الاقدمون ، وابن السمعانى المؤرخ بـ «وجه الحجر » وسماها الادريسى المؤرخ بـ « انف الحجر » من العظمة فى درجة يصغر لديها الانسان الذى انطوى فيه العالم الاكبر . ولم يخطئ قدامى اليونانيين فى تسميتهم له بـ « تثوبروسوبون *Tyoouprosopon* » اى « وجه الله » .

ها نحن الآن نطل على ساحة واسعة شحنت بأبهى البدائع تنتهى من الجنوب فى بيروت ، ومن الشمال على ازيال « رأس الناطور » و « رأس المينه » . ونرسل الطرف يرتاد كل ناحية من هذا الموقع الذى ما زال يسحر مخيلتنا بلياليه النيرة ، وعشاياه المعندمة. فارقنا هذا المنبر السامى ونسيمه المعطر بنكهة الآس لا يزال يسكر البابنا ، وقد تراآى لنا على هام الجبل دير (سيدة حنوش) المارونى ، وفى جانبه دير « النورية » للروم الاورتودوقس .

دخلنا فى بضعة انفاق ، ثم اتبعنا منحدراً يرمى الى ساحل البحر فقطعناه بنصف ساعة وكان امامنا قوس ساحلى يمتد الى موقع « انفه » . وكنا نمشى قريباً من ماء البحر لدرجة لم تكد مركبتنا تخطو الا على كسارة الامواج بين الرمال البيضاء .

وصلنا الى (الهرى)وهى قرية للمسلمين بعد ان اجتزنا مشجرة من الزيتون على شاطئ البحر . ثم قطعنا جسر الهرى ، فكانت على يميننا اشجار الزيتون والتوت وبعض اشجار

---

[*] راجع (ولاية بيروت — القسم الجنوبى) صحيفه ٢٨٢ .

السماق ، وما لبثنا ان وصلنا الى قرية « شكا *Chakkha* » . وكان لها منظر لطيف بقصبها الاصفر . ورأينا ان نمكث هناك هنيهة ريثما نستريح . لاننا لا نلبث بعد هذه السياحة اللطيفة ان ندخل فى اوعر الطرق الجبلية ، لا سيما ان الطريق الساحلية بين (شكا) وطرابلس كانت فاسدة لا سبيل لسير المركبة فيها . ولذلك كنا مضطرين الى التحول عن طريق [انفه — زكرون — رأس الناطور — فالامون] الى طريق اطول منه بضعفين :

ومع هذا ما كدنا نلبث الا وغادرنا شكا وانعطفنا نحو الشرق ، واخذنا نتسلق الجبل وكنا كلما اوغلنا فى التسلق نزداد انشراحاً ونشاطاً بدلاً عما توقعناه من المشقة والالم . كنا نرتقى معارج الجبل ومنعطفاته المتوسطة ونرى تحتنا فى حضن البحر ، شكا ، وقريباً منها انفه ، ونتمتع بتلك المناظر التى لا تتيسر رؤيتها الا لحائمات الجو . ووددنا ان لو طالت هذه المنعطفات زمناً مديداً :

امتد هذا المرتقى بعد خرابة « شكا العتيقة » اكثر من ساعة ونصف . وكانت الشمس فوق هاماتنا تزج على الافاق سهاماً من نار بشعاعها . على ان النسيم العليل فى ذلك الجبل العالى كان يخفف وطأتها ، ولم نستوحش اليوم من هذه الجبال المسماة بجبال « عين كمين » رغماً عن اطراد منظرها الذى هو عبارة عن سلاسل متتابعة من الطبقات الكلسية . ولكن لم يطل الامر الا وانقلب ذلك المنظر القاحل الى منظر خصب منذ اشرفنا على قرية « فرحه زير » .

تراءت لنا عن اليمين من بعيد قرى « آميون *Amioun* » و « كسبه *Kesba* » ثم المشجرات الزيتونية فى انحاء « الكورة » ، وعلى غلوة منها قرى « كفرعكا *Kafr Akha* » و « كفرسالون » ، وعلى يمينها من بعيد قرى « كفرحوتا ومقبورا » ، وكفتتون . وقد لمع وراء هؤلاء جبال « ارز لبنان » . ثم اخذنا بالانحدار ، فتتابعت على انظارنا اشجار الزيتون الخضراء ، واشجار التين والحقول والمشجرات . وبعد ان جاوزنا عن اليمين قرية « بشمزين *Bchemzin* » شاهدنا على يسارنا من بعيد قرى « عفصديق » و « فيع » و « الحاد » .

وبعد يسير وصلنا الى « البتورون *Btourran* » . ويوجد هناك اخصاص لدود القز تخص اغنياء طرابلس الشام . سرنا بين شجر الزيتون مقدار نصف ساعة ، وأخذت تبدو لانظارنا عن الشمال قرى « طراطيش وغابه » وعن اليمين « بصرما » وبعدها قرى « دير سيدة النجا و كفرقاهل وبشنين وعول » فوق هضاب عالية ، ثم « داريه و كفرفو ورأس كيفه و كرم سده ، وسبعيل ، غيطو » ثم « جبال الاربعين » التى حشرت فيها هذه القرى الظريفة اللبنانية الخضراء . وكان بين طريقنا وبين هذه القرى

« نهر ابو علي » الذي ينبع من « وادي اهاب » و « بشرى » الذي وراءه ، ثم ينصب عليه جدول « نهر رشعين » و « نهر جوعيت » ويجري ميمماً طرابلس الشام . ولهذا كان منظر هذه البقعة لطيفاً جداً .

قطعنا مكان « دكانة خضر » الذي يتألف من بضعة بيوت ووصلنا الى قرية « كفتين *Keftin* » . وهناك ظهر لاعيننا البحر بلونه الازرق بعد ان فقدناه منذ بضع ساعات . لم يبق بيننا وبين طرابلس الا مسافة ساعة واحدة . فاخذت مركبتنا تسير على التراب الاحمر الى ان وصلنا الى قرية « ظهر العين » . ولم يبق لنا من الطريق الا مسافة ربع ساعة . ومع ذلك لم نزل في ارض لبنان وكانت هضبة « ابو سمره » لا تزال حائلة بيننا وبين البلدة . فما كنا نراها رغماً عن قربنا منها .

كنا نمعن النظر في « جبل تربل » الذي كان قريباً منا ، وذهننا لا يزال مشغولاً بخيال الجسور والوديان ، والنجود والاغوار ، والكبير والصغير من القرى التي شاهدناها في الطريق . ثم هرولنا في منحدر ووصلنا الى « جسر البحصاص » الذي تنتهي على ازياله حدود لبنان . وبدأ من هنالك مشجر الزيتون الطرابلسي .

ثم بعد برهة كنا امام بيوت طرابلس البيضاء حاملة النجم والهلال وكانت الشمس بعيدةً عن الغروب بعد .

—٢—

لواء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان لواء طرابلس الشام الكائن في القسم الشمالي من ولاية بيروت يحيطه من الجنوب لواء جبل لبنان ، ومن الشرق لواء حما ومن الشمال لواء اللاذقية ، ومن الغرب البحر المتوسط . ومساحته ٥٩٦٩ كيلومتراً مربعاً .

٢ — الاحوال الطبيعية

[١] — **الجبال والانهار** — يتكون لواء طرابلس الشام من سهول « جون عرقا » الخصبة ، التي تمتد على طول الساحل . ومن مرتفعات صغار تتسلسل متقطعة ، واراضي ذات عوارض في الداخل . وجبال النصيرية التي تفصل هذا اللواء عن ولاية سورية من

الشرق تمتد من الشمال الى الجنوب حتى تكون قريباً من مركز قضاء عكار فينقلب اسمها الى « جبال عكار » ثم تنغمس فى سلسلة لبنان. ويفترق هاتان السلسلتان عن بعضهما بوادى النهر الكبير .

اما الجبال الموجودة وراء بلدة طرابلس تتعالى حتى تبلغ بارتفاعها عن سطح البحر (٣٠٥٠) متراً ، وارتفاع « ظهر السودا » من « جبال ضنيه » يبلغ (٣٠٤٧) متراً ، وارتفاع العقدة التى تتصل فيها جبال عكار بجبال لبنان هو (٢٠٩٠) متراً . وتتألف هذه الجبال من الصخور البرمعية المنتمية الى الدور الثالث . اما جبال حذور التى هى من اعمال مركز القضاء فهى مركبة من الطبقات البركانية الحديثة .

وانهار [ابو على ، البارود ، العميق ، العرقا ، العويق ، الشيخ زناد ، النهر الكبير ، الشلالات ، الابرش ، الصاروت ، الغمقه ، الحصين] كلها تنبع من جبال عكار وحصن الاكراد وتنصب فى البحر المتوسط .

فنهم نهر ابو على والنهر الكبير هما من الانهار الدائمة فى الجريان . اما الانهار الاخرى فهى تفيض وتغيض . ان نهر ابو على المذكور فى التوراة باسم « كاديشه » ينبع من جبل « مالكال » الواقع فى ناحية « بشرى » التابعة لقضاء « البترون » ، ويمر بجوار قرى « اهدن وزغرتا » ويدخل فى لواء طرابلس ، ثم يسقى اراضى قضاء طرابلس المخصبة . وطوله من منبعه الى مصبه يناهز (٣٨) كيلومتراً . اما (النهر الكبير — *Elefteri*) الذى يصب فى حوض « عرقا » فهو كما ذكرنا سابقاً اصلح مدخل يدخل فيه من الساحل الى داخل سورية .

[٢] — **الاقليم** — ان اقليم هذا اللواء الذى نبحث عنه هو معتدل وحار ورطب . ولكن ناحية الضنية التابعة للمركز التى هى على ارتفاع ٢٠٠٠—٣٠٠٠ متراً وقراها الكائنة على السفح الغربى فى « جبل القضيب » من سلسلة لبنان فهى باردة الاقليم بسبب ترفعها عن سطح البحر . والحرارة فى الدرجة الوسطى فى هذا اللواء هى ١٦٫٥ درجة « سانتيغراد » وتكون فى الصيف (٢٥) وفى الشتاء (٩) . والحرارة فى الربيع والخريف لا تنخفض عن (١٦) درجة . وفى كانون الثانى حيث تشتد سورة البرد تكون الحرارة (—١٫٥) درجة . ولا يندر بلوغ الحرارة الى (٣٦) درجة فى شهر اغستوس .

[٣] — **العواصف والرياح والامطار** — يوجد فى طرابلس الريح الشرقى الشمالى ، والغربى الجنوبى بصورة دائمة . اما رياح الجنوب والشمال والشرق والغرب الشمالى تهب بندرة . وفى اواخر الربيع يهب من الغرب الجنوبى ريح السموم وهو حار مخنق ، ولربما يكون العواصف والزوابع .

ان جبل القضيب الكائن فى الجهة الشرقية من بلدة طرابلس والمنقسم بين ولاية بيروت ولواء لبنان هو على ارتفاع (٣٠٣٥) متراً . ويدوم عليه الثلج ثلاثة او اربعة اشهر فى السنة ولهذا السبب لا ينقطع هبوب الريح هناك تارة من الجبل الى البحر واخرى من البحر الى الجبل. يسخن هواء البحر فى ليال الصيف فيصعد الى فوق بسبب خفته وفقاً لقانون التوازن ، وقبل بزوغ الشمس بساعة ونصف تهب من جانب الجبل ريح باردة كثيفة وتسمى عند المحليين بـ «ريح الجبل» ثم يعقبها الغربي ويهب نحو الجبل.

يزعم ان مقدار الامطار السنوية فى طرابلس هو (٥٥٠) ميليمتراً . وقد تشتد سورة الشتاء فى شهر كانون الثانى وشباط حيث تهطل الامطار متوالية دون انقطاع . ويسقط الثلج على اكثر انحاء اللواء ويكون بثخن (١٠—١٥) سانتيمتراً ، على انه يبلغ فى ناحية ضنية ولاسيما فى الانحاء العالية منها الى اكثر من ثلاثة امتار . وهنا يسقط الثلج منذ تشرين الثانى الى غاية شباط .

٣ — عدد نفوس اللواء

اثبتت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) ان مجموع عدد نفوس لواء طرابلس الشام من ذكور واناث هو (١٧٦٥٢٥) نسمة ، منهم ١١٩٠٣٧ من المسلمين والنصيريين وما بقى (٥٩٤٨٨) من غير المسلمين . وان هذا اللواء بالنسبة لالوية الولاية يأتى فى الدرجة الثانية عن بيروت بالنظر لازدحام خلقه ، وكثرة غير المسلمين فيه . ويكاد ان يكون ثلثا السكان المسيحيين هناك من الروم الاورتودوكس. اما المارونيون فيقرب عددهم من (١٥) الفاً . وبما ان مجموع مساحة اللواء يبلغ (٥٩٦٩) كيلومتراً مربعاً ، يكون نصيب كل كيلومتر (٢٩،٦) من النسمات اما تقسيمات اللواء الادارية فهى على ما يأتى :

النفوس		عدد القرى والمزارع	النواحى
٦٦٥٤٨	مركز قضاء طرابلس الشام	٩٦	اسكله، طرطوس، ارواد
٤٢٣٦٣	« « عكار	١٧٥	ضنيه ، منيه ، حذور
٢٩٧٠١	« « حصن الاكراد	١٧٦	—
٣٧٩١٣	« « صافيتا	٣٥٥	—
١٧٦٥٢٥		٨٠٢	

٤ — المعارف فى اللواء

« ان حياة الاقوام ، وخلود البلاد ودوام الامم فى هذا العالم البشرى يتبع عزائمهم وهممهم فى الاقبال على امر المعارف . اذا امعنا النظر فى ولايتنا التى اشتهرت بين الولايات

العثمانية بغزارة مادتها من العلم والمعارف نجد ويا للاسف تلك الشهرة معكوسة . وما ذلك الرقى العلمى الذى نرمقه اليوم بنظر السرور ونباهى به الا مفاسد اخلاق اجنبية يحتم علينا ان نعاجلها بالهدم والتخريب وعيوننا تقطر الدم لا الدمع ، وما التربية الاخلاقية التى نتلقاها من الاعداء ، الا سكينا مذهبة مسمومة النصل، اهديت الينا لنقتل انفسنا بها ، اوشكت فى اوردتنا لهذه الغاية . ان الانقلاب الفكرى والتربيوى الذى نتوخاه لرقى العثمانية واعلاء كلمتها ، او بالاجدر الاحتفاظ بهذه الهيئة التى اربت سنيها على ستة قرون لا يكون بهذه الوسائل القتالة . اننا اذا لم نخلق المعارف التى ترتكز على اسس عمومية ملية لا قومية ، لا جرم لا يكون لنا حظ من الحياة الاجتماعية .

اذا نظرنا فى حالة معارف الولاية قبل ما تأسست الادارة الخصوصية اى قبل سنتين، نجد مخصصات جميع المدارس المربوطة بادارة المعارف، والمدرسة السلطانية ايضاً لا تجاوز عشرة آلاف ليرة . وعدد المدارس قليلة ودرجتهم منحطة جداً . لم تعزب هذه المسائل عن نظر حكومتنا الحاضرة ، ولذلك اسست اصول الادارة الخصوصية لكى تتمكن من ازالة هذه النواقص ورفعها .

كان الاهتمام بميزانية المعارف سنة ١٣٣٠ — ١٣٣١ على قدر ما يستطاع ، وفى هذه السنة خصص لها (٣٦٥٠٨٢٥) غرشاً . ورغماً عن هذا فان النقص فى المعارف لا يزال ظاهراً ليس بخاف .

وبهذه المخصصات التى وضعت فى ميزانية السنة الحالية تمكنا من ادارة قسم واحداث قسم آخر من المدارس التى بينا اسماءها هنا .

المدارس الاعدادية — يوجد فى مركز الولاية من هذه المدارس ثلاث خارجية، وفى مركز كل لواء واحدة ما عدا مدرسة طرابلس الشام الذى قلبت الى سلطانية .

المدارس النموذجية « نمونه » — يوجد من هذا النوع مدرسة واحدة فى بيروت مركز الولاية ولم يتم ترتيبها .

المدارس ذات الستة صفوف — عندنا منها عشرة مدارس سبع للذكور ، وثلاث للاناث .

ذات الخمسة صفوف — عندنا منها ثلاث عشرة مدرسة كلها للاناث .

ذات الاربعة صفوف — عندنا منها ثمانى عشرة مدرسة ، اثنى عشرة للذكور وست للاناث .

ذات الثلاثة صفوف — لدينا منها اثنى عشرة ، ثمانى للصبيان واربع للبنات .

ذات الصفين — لدينا منها واحد واربعون مدرسة (٣٣) للذكور و (٨) للاناث .

وحيدة الصف — لدينا منها (١١٨) مدرسة منها (١١١) للذكور و (٧) للاناث .

فاذا ضفنا المدارس التى اسست منذ عشرين سنة فى قرى لواء نابلس بنفقة الاهلين . ثم الحقتها الحكومة حديثاً بادارة المعارف وعددها (١٤٣) مدرسة للذكور يكون مجموع وحيدة الصف من المدارس فى الولاية (٢٦١) مدرسة ، ومجموع المدارس التالية والابتدائية ٣٥٩ مدرسة [*]

وبما ان عدد الذكور فى الولاية (٤٠٤٦٦٠) وعدد الاناث (٤١٤٠١٠) يكون لكل (١١٢٠) [**] من النفوس مدرسة واحدة [***] »

اقتبسنا هذه المعلومات لنتمكن من اعطاء فكر اجمالى فى مدارس الولاية الحالية . وبما ان عدد نفوس لواء طرابلس (١٧٦٥٢٥) . وعدد مدارسها الحالية (٩٦) . يكون لكل (١٨٣٨) من النسمات مدرسة واحدة

اول ما يراجعه العلماء الباحثون عن التكامل الفكرى فى اى امة كانت . هو الاطلاع على عدد المدارس ثم على عدد السكان ثم النظر فى النسبة التى تقوم بين هذين المجموعين ليكونوا فى بحثهم على بصيرة . نعم ان الوطنية وحسن الخلق ومتانة العزم وغيرها من المزايا الاخلاقية والاجتماعية التى يناط بها الرقى البشرى لا تكون الا بنشر المعارف الحقيقية . ولا جرم ان درجة العلم تزيد وتنقص بنسبة عدد المدارس . وعليه نرى جميع الامم الراقية تتقصد تزييد هذه النسبة حين ترتيب ميزانية معارفها . ولا يقصدون من هذه المدارس الا ان تكون دوراً للتربية الاخلاقية والصحية تهذب ، اخلاق الامة وتبث فى نفوسها الافكار المتينة والضمائر الحية . ان المدرسة فى نظر الالمانى والانكليزى او السويسرى هى كناية عن مؤسسة تضم المعلمين الذين تخرجوا فى دور المعلمين واخذوا نصيبهم من التربية الفكرية والوطنية ، واختاروا مسلك التعليم براتب واف ، ثم ما جعل فى ادارتهم من البنايات المنتظمة التى جمعت كل شرئط التدريس ، وتالفت من الغرف الكافية . ولاادرى هل يكون صحيحاً اطلاق اسم المدرسة على مؤسسات لا حظ لها من هذه الشرائط .

نحن معشر العثمانيين لم نزل نحمل معنى المدرسة على غير حقيقتها فى جميع انحاء بلادنا لا فى ولايتنا فقط ، ولا نزال نتوسع فى ميزانيتنا العمومية والخصوصية على غير جدوى ، وذلك بتاثير هذا التفسير الواهى . اول ما يلاحظه الاقوام حين وضع التخصيصات

(*) نتيجة تتقبض لها نفوس انصار النساء : اذ من هذه المدارس « ٣١٨ » للذكور و « ٤١ » فقط للاناث

(***) ان هذا الحساب غلط : يجب ان يكون « ٢٢٨٠ » لا « ١١٢٠ »

(**) جريدة ضبط المجلس العمومى سنة ١٣٣١ ص : ١٦ — ١٨

المدرسية فى الميزانيات العمومية هى ابنايات التى تكون على اتم الشرائط الصحية وغيرها ثم المعلمون الذين جهزوا بالتربية الفكرية والوطنية . ومرنوا على التمسك فى الواجب ؛ اما نحن فلا نزال ناخذ بالنقيض .ولدينا ان تأسيس المدرسة الابتدائية؛ يكون بوضع مابتين او ثلاثماية غرشاً فى ميزانية الولاية لتكون راتباً لمعام او معلمين . ما زلنا لا نقدر على تأسيس مؤسسة تربيوية تضم جميع لوازم التدريس ، وتكفل راحة المعلمين فى قرانا التى لا يعثر فيها على الراحة . ثم تضمن لنا حياة فتيان الوطن بالتعليم والتربية . فما بالنا نصدع فى المجالس العامة ، او بالاجدر امام الامة ونقول : كان عدد مدارسنا بالامس كذا ، واليوم زدناها كذا ، ونزعم بهذا التصريح اننا نركض وراء الرقى بخطى واسعة :

تجولنا فى الولاية من باير وبوجاق . . . الى جماعين، فكم مدرسة رأينا يا ترى من اللاتى كملت فيها الشرائط المؤملة ؟ اولى بنا من ان نزيد فى عدد مدارسنا التربيوية الزيادات القشرية التى لا تجدى نفعاً ، ان نلغى بعضها ونعمد لما بقى منها فنعطيه حقه من الترتيب والانتظام بمعلميه ومبانيه ولوازم تدريسه . وهذا انسب التدابير التى تتطلبها حاجة الامة الى العلم والعرفان . ولا بأس ان يكون عدد المدارس قليلاً لمدة قصيرة ولان اتى الامر متأخراً خير من ان يكون صعباً .

٥ — الزراعة فى اللواء

[١] — **معلومات اجمالية** — ان سيف البحر فى لواء طرابلس صالح لزرع الحبوب بانواعها ، وغرس الاشجار المثمرة . لان ذلك الصقع يضم من الحرارة ما يبلغ «٣٩٨٠» درجة . وهذا المقدار يكفى لنمو الاشجار واقتدارها على حمل الثمر ، ويساعد ايضاً على انضاج الاثمار بعد دور الازهار . وتغرس هذه الاشجار فى اسياف البحر الابيض ابان اليبوسة اى ايام الربيع والصيف . وقد سمى بعض علماء النبات هذه الاصقاع بارض الزيتون . يمكن غرس شجر الزيتون فى لبنان فى الانحاء التى لا يزيد ارتفاعها عن «٤٨٨» متراً .

اما شجر التوت الذى تقطف اوراقه فى شهر مايس وحزيران ، يشترط فى غرسه وامكان الاستفادة منه ، ان لا تقل درجة الحرارة فى اقليمه عن ١٢٦٥ درجة فى ثلاثة شهور . اما الكروم فانها تحتاج الى حرارة كثيرة ولكنها لا تبالى بالبرد الشديد . ولذلك نرى اكثر من مائة كرم فى قرية « اهدن » اللبنانية التى لا يقل علوها عن (١٤٤٣) متراً . على ان هذه الانواع من المغروسات تصير لذيذة الاثمار فى الاقاليم التى يكون ربيعها يابساً وحاراً .

وقد توفرت جميع هذه الشروط فى القسم الشمالى من الولاية .

احسن ما يكون فى الاشجار المثمرة ان تغرس فى ارض كلسية *Calcaire* . لاسيما ذوات النوى من الاشجار فان ثمرها يكون فى هكذا اقاليم يابسة على الغاية من الجودة . وان معظم الاراضى السهلية والجبلية فى لوائى طرابلس واللاذقية هى من هذا النوع . واذا زرع شجر الزيتون فى الاراضى المنحدرة تكون حياته اوفر زيتاً واقبل. اما شجر السهول فيكون زيته قليلاً .

يختلف تأثير موقع الاراضى ، وما حوته من المواد العضوية والمعدنية على النبات باختلاف جنس ذلك النبات ، فشجر الليمون ينمو نمواً تاماً فى الاراضى المنحطة التى يمكن سقيها كما هى عليه سهول طرابلس . اما الكروم فانها اقل ارتباطاً بطبيعة التراب . ولهذا فان فرانسة اقامت فى كثير من اراضيها المتنوعة فى موادها كروماً على غاية فى الكمال .

اذا روعيت القواعد الفنية التى يقضي بها علم الزراعة فالنجاح محتم سواء كانت الارض طينية او كلسية . وان لمواقع الاشجار تأثيراً عظيماً على كمية المحصول . فاذا غرست اشجار الزيتون فى السفوح اليسرى من المرتفعات بحيث تكون قادرة على استنشاق ريح البحر كما هو الحال فى سورية ، لا بد ان نرى عظيم الفرق فى المحصول . ولو كانت جبال هذه الانحاء تقطع البلاد عرضاً لا طولاً ، اى لو كانت سفوحها تطل على الشمال والجنوب لا على البحر ، لا جرم تكون عرضة للريح الشمالى البارد والجنوبى الحار ، وحينئذ لا يتسنى لسورية ان تستحوذ على هذا الاستعداد الخاص باصقاع البحر الابيض ، وكنا نحرم من انفس اثمارنا ، العنب والزيتون والليمون .

[٢] — **الاموال والمحصولات الزراعية** — بما أن الاراضى فى مركز قضاء طرابلس خصبة منبتة ، قسمت الى اقسام صغيرة ، وغرس فى اكثرها شجر الزيتون والليمون . اما معظم الاراضى فى النواحى المربوطة بالمركز فهى منقسمة الى مزارع تزرع اما من قبل اصحابها ، او بطريق الايجار واما بشركة المناصفة . وللشركة شكل آخر ، وهو ان صاحب الملك يدفع اراضيه للشريك ، وهذا عليه البذر والعمل ؛ ويكون لصاحب الملك من الوارد ثلثه او ربعه اما العشر فيكون من المجموع .

ولهذه الشركة شكل آخر ايضاً وهو ان صاحب الملك يضع البذر والآلات والحيوانات ويكون على المزارع العمل فقط ، ويأخذ ربع الوارد لقاء عمله وهذا الشكل معروف من القديم وهو الشايع فى هذه الانحاء .

تتراوح الاجرة اليومية التى يدفعها صاحب الملك لمن يستخدمهم فى الحصاد بين خمسة غروش وعشرة ، اما فى الايام العادية فاجرة العامل او الحارس ، او الراعى تكون مقطوعة وسنوية . ومقدارها الوسطى ثمانية شنابل (١٨٠ اقه) من القمح وكيلان (١٤٥ اقه) من البرغل ، ويعطى لرئيس العمال والشحنة فى السنة (١٠—١٥) شنبلاً من القمح .

اما الاراضى التى تستعمل لزرع البقول فقد تثمر مرتين فى السنة بفضل الاعتناء والهمة التى تصرف عليها . اما السماد فانه يستعمل فى مشجر الليمون وبعضاً فى الزيتون ، اما الاراضى التى خصصت للزرع الخفيف فلا تسمد الا مرة فى كل ثلاث سنين .

اما الآلات الحراثية التى تستعمل فى اللواء فهي على حالة بدائية جداً . ومع هذا فقد شرع ارباب الزراعة يستعملون الآن آلة الغربلة و آلة الحراثة ذات السكك المديدة واخذوا يدركون فائدتها . ولم يكن فى جميع اللواء قبل خمسة عشر عاماً ولا آلة واحدة للحصاد . وفى سنة ١٣٢٩ مالية ابتاع الاهالى اكثر من مائة واحدة منها .

ان زرع المحصولات الصيفية « الذرة الصفراء والبيضاء والسمسم» يكون فى شهرنيسان ومايس ، وموسم المزروعات الشتوية يكون فى شهرى تشرين . اما الحصاد فى اللواء يكون فى اول مايس للشعير وفى اواخره للقمح والسمسم والذرة الصفراء تنضج فى اغستوس وايلول .

ان مستغلات اللواء السنوية هى على ما يأتى :

جنس المحصول	الاراضى المزروعة دونم	الغلال كيله
القمح	٢٩٠٠٠٠	٢١٨٠٠٠٠
الشعير	١٣٠٠٠٠	٩١٠٠٠٠
الذرة البيضاء	٩٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠
الذرة الصفراء	٤٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
الحمص	٢٥٠٠	١٥٠٠٠
الفول	١٩٠٠	١٥٢٠٠
السمسم	٣٠٠٠٠	٦٠٠٠٠
العدس	١٣٥٠٠	٣٧٥٠٠
الجلبان	٢٧٥٠٠	٥٣٥٠٠

جنس المحصول	الإراضي المزروعة	الغلال
	دونم	كيلوغرام
التنباك	؟	؟
الدخان « التبغ »	؟	؟
البطاطة	؟	؟
الكروم	١٢٧٩١	٢١٠٠٠٠٠ العنب ١٠٨٠٠ العرق

ثم ما عدا هذه المحصولات يوجد فى اللواء (١٩٠٠٠٠) شجرة زيتون يعصر منها فى كل سنة (٩٥٠٠٠٠) اقة من الزيت ، و٦٦٠٠٠ كيلوغرام من الشرانق القاء تربية ٢٢٠٠٠ علبة بذر .

٦ — الاحراج والمعادن

ان اهم الاحراج فى لواء طرابلس الشام هى احراج عكار وضنيه . تبتدأ هذه الاحراج التى تشغل قريباً من (١٥٠) الف دونم من قرى (غابات وتحفت) وتمتد الى اواخر حدود الضنيه . وتوجد على السفوح التى لا يزيد ارتفاعها عن ١٥٠٠ متراً . وان احراج قبابات عنفنت ، ارمون ، مرض الحريق ، روبر ، جورديرى ، وادى جهنم ، قاطر فريم ، ضنيه هى من فروع هذه السلسلة .

اما الاشجار التى توجد فى الازيال ، والسفوح القريبة من الاذيال فهى من نوع السنديان ، والصنوبر والعرعر وهى تصلح لاعمال الالواح والاخشاب القصيرة التى يمكن استعمالها فى الابنية البسيطة ، ثم يوجد فى الذرى وفوق مقاسم المياه من شجر الصنوبر ، والارز مايبلغ ارتفاعه عشرة امتار وقطره متراً ونصف ، وهى صالحة لان يستفاد منها فى جميع الصنايع . ويقطع من هذه الاحراج فى كل سنة مقدار «١٠٢٤٠» قنطاراً من الفحم و«٥٢٠٠» قنطار من الحطب . وقد يدخل ميناء طرابلس الشام على طريق البحر مقدار «٧٠٠٠» متر مكعب من اخشاب الاناطول والواحها فى كل سنة .

ولا اثر للمعادن الثمينة فى هذا اللواء ، وتوجد فى قضاء صافيتا وعكار مناجم الجبس ، والحجر الرملى . ويستعمل الطرابلسيون فى ابنيتهم هذه الاحجار ويعثر فى انحاء متعددة من هذا اللواء على المغرة الحمراء *Ocre rouge* والمغرة الصفراء *Ocre jaune*.

—٣—

مركز قضاء طرابلس الشام

١ — الموقع والحدود

ان هذا القضاء قائم فى القسم الغربى الشمالى من اللواء وهو محاط بلواء اللاذقية من الشمال ، وبقضاء صافيتا وحصن الاكراد وعكار من الشرق ، وبلواء لبنان من الجنوب ، وبالبحر الابيض من الغرب .

ويوجد فى هذا القضاء ستة نواحى منها ناحية ارواد وحذور الحقت بهذا المركز فى الدور الحميدى ، ولكن لا يزال الاهلون غير مرتاحين لهذا الالحاق بسبب بعدهم عن هذا المركز وعدم توافق موقعهم الجغرافى تجاهه ، اذ ليس بالهين على احد الحذوريين ان يغادر ناحيته ويتكبد اشق الالم فى قطع المسافة التى لا تنقص عن اربع عشرة ساعة ، على ذلك الطريق الفاسد ، ويأتى الى طرابلس لامر مالى او حقوقى . ومن الامور المحتمة ان يلتفت لهذه التقسيمات السقيمة الى لا نرى لواء فى الولاية يخلو منها .

٢ — المساحة والنفوس

ان مساحة هذا القضاء هى على التخمين الرسمى « ٦،٢٠٠،٠٠٠ » مربعاً بالذراع القديم . منها « ٥،٠٠٠،٠٠٠ » من الاراضى الاميرية و « ١،٠٠٠،٠٠٠ » من الاراضى المملوكة و « ٢٠٠٠٠٠ » من الاراضى الموقوفة . اما عدد نفوسه فقد كان سنة ١٣٣١ : « ٦٦٥٤٨ » من النسمات ذكوراً واناثاً . منها « ٣٥٤٧٠ » من الذكور و « ٣٢٠٧٨ » من الاناث وانقسام هذا العدد على النواحى هو على ما يأتى :

الاسماء	النفوس	عدد البيوت	عدد القرى
بلدة طرابلس	٢٤٠٣٦	٤٢١٤	.
ناحية المينا	٨٥٣٥	١٦١٢	.
ناحية طرطوس	٥١٦٩	٨٦٩	١١
« ارواد	٤٠٥٣	٨١٠	.

« منيه	٣٦٩٣	١٤٦٧	٢
« ضنيه	٩٨٠٧	٦٨٢	٣٦
« حذور	٤٧٣٦	٣٤٦	٣٧
القرى العشرة	٦٥١٩	١٤٧٥	١٧
يكون	٦٦٥٤٨		١٠٥

وعدد المسلمين فى هذا المجموع (٤٩٥٦٠) ، وفيه يسير من النصيريين . اما النصارى فمنهم الروميون فى الدرجة الاولى من الكثرة لان عددهم ١١١٢٤ والمارونيون ٥٦٥٧ واللاتينيـون (٢٠) والكاثوليك (٤٦) والبروتستانت (٦٩) واليهـود (٧٢) نسمة .

وقد كانت لدات القضاء سنة ١٣٣٢ مقدار ١١٥٨ ووفياته ٣١٢٨ نسمـة . وفى تلك السنة كانت الحمى النمشية « تيفوس » تفعل افاعيلها فى ذلك القضاء ، وقد جرعت القرى والقصبات الامرين وباد فيها خلق كثير . وكانت الوفيات « ٦٣٤ » نسمة فى سنة ١٣٢٧ و « ٣١٨ » نسمة سنة (١٣٢٩) . اما اللدات فكانت (١٢٠٢) سنة ١٣٢٧ و (٤٤٩) سنة ١٣٢٩ .

٣ — المعارف

يوجد فى مركز قضاء طرابلس (٧٦) مدرسة . منها (٣١) على نفقة الحكومة . وما بقى من المدارس الخصوصية تتفقدها المحاسبة الخصوصيـة بيسير من المعونة النقدية . وهذا جدول يحتوى على مفردات تلك المدارس :

المدارس الموجودة	ناحية حذور اناث	ناحية حذور ذكور	جزيرة ارواد اناث	جزيرة ارواد ذكور	ناحية طرسوس اناث	ناحية طرسوس ذكور	القرى العشرة اناث	القرى العشرة ذكور	ناحية ضنيه اناث	ناحية ضنيه ذكور	ناحية منيه اناث	ناحية منيه ذكور	ناحية الميناء اناث	ناحية الميناء ذكور	قصبة طرابلس اناث	قصبة طرابلس ذكور	يكون اناث	يكون ذكور	الاجمال
المدرسة السلطانية الداخلية الرسمية																١		١	١
المدارس الاعدادية الاميركانية الداخلية																	١	١	١
دار المعلمين الخارجي																	١	١	١
الرسمي															١		١	١	٢
المدارس الابتدائية الداخلية الخصوصية مارونية واميركانية		١																	
المدارس الابتدائية الخارجية الرسمية		١		١	١	١		٢		٢		٢	٢	٢	٥	١٠	٨	٢١	٢٩
المدارس الابتدائية الخارجية لغير المسلمين الخصوصية														٢	١	٢	١	٤	٥
مدارس الصبيان للمسلمين						١								١	٥	٣٠	٥	٣٢	٣٧
يكون		٢		١	١	٢		٢		٢		٢	٢	٥	١٢	٤٥	١٥	٦١	٧٦
جدل الطلاب		٦٠		٨٠	٣٠	٧٠		٨٠		٥٠		٣٠	٩٥	٢٥٠	٨٨٠	٢١٢٠	١٠٠٥	٢٧٤٠	٣٧٤٥

يتضح من هذا الجدول ان مجموع الطلاب فى قضاء المركز هو (٣٧٤٥) منهم «٣٠٠٠» — ٢١٢٠ ذكور و٨٨٠ اناث — فى نفس طرابلس والباقى اى ٧٤٥ طالب فى النواحى .

لا أدرى هل يجوز ان نسمى هؤلاء الفتيان الوطنيين طلاباً . ان النتائج التى ما زلنا نحصل عليها من مساعى المعلمين المتخرجين فى مدارس دور المعلمين — مع قلتهم — هى غير متناسبة مع ما تتكبده الأمة من المفاداة فى طريق تعليمهم و ارشادهم . وليس اكثرهم بقادر على ادارة مدرسة ابتدائية . اما المعلمون المتخرجون فى المدارس الرشدية اوالمدارس الدينية فابقائهم فى تلك المؤسسات التربيوية حرام . لانهم بعيدون عن ادراك آمال الامة التى لم تزل فى اشد الحاجة الى العلم والرقى . لا زلت اقول ان المدارس الابتدائية لا تقوم بنفقة ثلاثمائة او خمسماية غرش . بل الواجب ان نعتنى باعداد المعلمين الاذكياء الذين لا يعرفون الكلل فى سعيهم من المتشربين حب الواجب . لم يمكنا الاطلاع على حقيقة مدرسة دار المعلمين فى طرابلس الشام بسبب العطلة الصيفية وقد استطلعنا عن حياتها التدريسية فالفيناها بعيدة عن الغاية الشريفة التى اسست لاجلها . وان فى مركز الولاية ولاسيما فى البيئة الطرابلسية اندفاعاً محسوساً لتزييد عدد المدارس فى طرابلس . على ان الاولى بهذه القوة ان تدأب لاصلاح المدارس الموجودة لا لتزييد عددها ، فان ذلك انفع للوطن .

٤ — المستغلات الزراعية

هذه مستغلات مركز القضاء فى لواء طرابلس نثبتها فى هذا الجدول

جنس المحصول	الاراضى المزروعة دونم	الغلال كيلة
القمح	٥٠،٠٠٠	٥٠٠،٠٠٠
الشعير	٢٠،٠٠٠	١٤٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	١٠،٠٠٠	٣٠،٠٠٠
الذرة الصفراء	٠٠	٠٠
الحمص	٠٠	٠٠
الفول	٥٠٠	٤،٠٠٠
السمسم	٣٠٠٠	٦٠٠٠
العدس	٠٠	٠٠
الجلبان	٤،٠٠٠	٨،٠٠٠

الزيتون	١٢،٥٠٠	١،٥٠٠،٠٠٠	كيلوغرام
الشرانق		١٥،٠٠٠	
التبغ « الدخان »	؟	؟	
التنباك	؟	؟	

٥ — الآثار القديمة والمواقع المشهورة

[١] — **فى طرابلس والمينا** — من العبث ان نرتاد الآثار القديمة فى هذه المينا ان المرفأ محفوظ من الجانب الشمالى الغربى بحاجز قديم للموج يمتد مسافة ميلين. وان الريح الشمالية اليوم توقع السفائن التى تحط فى هذا المرفأ فى اعظم الخطر. وهذا السبب كثيراً ما يجر السفائن الشراعية فيحطها على الرمال. وتوجد سلسلة صخرية قبالة المرفأ. واقربها صخر « بكار » الذى يمتد مقدار (٣٠٠) متراً. وقد كان فى ايام الفينيقيين حاجزاً طبيعياً يحفظ مرفأ « مشتا » الفنيقى من سورة الزوابع وهناك ثغرة خاصة للسفائن والقوارب تسمى (فايلون).

وتوجد جزيرة « بيلام » بمسافة «٤٠٠» متر من بكار. ولا تزال آثار المخازن والمساكن القديمة مشاهدةً عليها الى الآن.

لا يوجد فى طرابلس من الاثار القديمة ما يستحق الذكر، ما عدا القلاع العالية التى ذكرناها فى المبحث الخاص (*). وهناك ستة حصون مبنية اعتباراً من قصبة المينا الى مصب نهر ابو على لم يبق الان الا انقاضها ويعثر فى بعض انحاء الساحل على اعمدة من الصوان الاخضر، يحتمل ان تكون مجلوبةً يومئذٍ من انحاء مصر. يوجد فى المينا من هذه البروج انقاض برج المشته وبرج المغاربه وبرج الشيخ عفان، وعلى ثمانى دقايق منهم برج القناطير. وعلى سبع دقايق برج السبع(**) الذى لا يزال محافظاً عليه. وفى الشمال اى عند مصب نهر ابو على يوجد برج رأس النهر. وهذا البرج يبعد عن طرابلس مسافة عشرين دقيقة بطريق وادى ابو على. وقد بنيت هذه الحصون فى زمن المسلمين.

[٢] — **ناحية ارواد وآثارها** — ان جزيرة ارواد، او بالتعبير القديم « آراد » التابعة الى قضاء المركز، هى فى الجهة الشمالية على بعد خمسين كيلومتراً عن طرابلس، وثلاثة

(*) راجع ص: ١٥٥—١٥٦

(**) كان يوجد فى مدخل هذا الحصن اسدان امكن الاحتفاظ عليهما الى بداية القرن الحالى، ولهذا سمى هذا البرج ببرج السبع.

كيلومترات عن طرطوس . والارواديون الذين هم من اعظم القبائل الفنيقية كانوا من رقباء صيدا وقد ظهروا عليها وتمكنوا من الاستحواذ على السواحل السورية الشمالية ، واسسوا بين طرطوس الحالية وأمريت القديمه مستعمرات بالتوس *Paltus* وبالانه آ *Balanea* وقارن *Carne* وايندروا *Endra* وامريت *Amrit* . وقد كان منهم ان اتفقوا مع القبائل القاطنة فى الانحاء الشمالية من سورية ، وتحاربوا مع طوطميس الثالث ورعمسيس الثانى والثالث من فراعنة الاسرة الثامنة عشر . ولما تحارب الاشوريون والمصريون حربهم الطويلة كان هؤلاء تارةً يطيعون الغالب ويظاهرونه واخرى يخرجون عليه ويعصونه .

ولما استولى الايرانيون والاسكندر الكبير على البلاد السورية كان الارواديون يتمتعون بما منحوا به من الادارة الشبيهة بالاستقلال . وقد ظلت التجارة البحرية فى القسم الشمالى من سورية مدة وافرة فى ايديهم . ولكن ورود الرومانيين صد الارواديين واخرهم لاسيما سكان انتارادوس او آنتى آرادوس « طرطوس الحالية » التى اسستها جالية الارواديين ما لبثوا ان زاحموا اوطانهم الاصلية فى التجارة ، واحرزوا فيها قصب السبق عليهم .

ان جزيرة ارواد التى طولها ٨٠٠ متراً وعرضها « ٥٠٠ » فيها اليوم « ٨١٠ » بيوت و٤٠٥٣ نسمة . والقصبة التى اسست فى الجهة الجنوبية منها كانت مسورةً بجدار عريض ليس فيه الا ثغرة واحدة من الجانب الشرقى توخى فيها ان تكون بمثابة المينا لهذه القصبة ولا يزال قسم من هذا السد موجود فى الناحية الشرقية على ارتفاع ٩—١٢ متراً وهناك مخازن محفورة فى الصخور . وايضاً انقاض القلعة التى شيدها العرب فى ارفع محل من الجزيرة وما عدا هؤلاء توجد مخازن للماء لم تزل محافظة على كيانها الى الآن . وايضاً توجد فى الجهة الجنوبية منها بنايات تحت الارض معلقة على جدرانها الكتابات .

ومن لغرائب الطبيعية انه توجد بين قصبة المينا وقرية طامون الكائنة فى الجهة الجنوبية بمسافة ساعة ونصف ينابيع الماء العذب تفور فى عباب البحر على بعد ٥٠—٦٠ متراً من الساحل . وايضاً يوجد هكذا ينبوع بين طرطوس وجزيرة ارواد على عمق ثمانية امتار من سطح البحر . وكان الارواديون يستقون ابان حروبهم من هذا الينبوع بواسطة انابيب من جلد يمدونها الى جزيرتهم . ولا يستكبر هذا الحال لان الماء يأتى من هضبة على الساحل يبلغ ارتفاعها (٢٥) متراً . وان قانون الموازنة فى الاجسام السيالة يقضى بترفع هذا الماء الى ان يبلغ سطح البحر .

ان مهنة الارواديين الذين معظم عددهم من المسلمين ، هى الملاحة واستخراج الاسفنج من البحر .

[٣] — **ناحية طرطوس . وآثارها القديمة** — يحد هذه الناحية من الشمال نهر الحصين وناحية خوابى ، ومن الشرق والجنوب قضاء صافيتا ويفصلها عن هذا القضاء نهر غمقه . وطولها اربع ساعات من نهر الحصين الى قرية عين الزرقه التابعة الى قضاء صافيتا وعرضها ساعة واحدة . اما مساحتها فتقرب من (١٦) كيلومتراً مربعاً .

ويوجد فى هذه الناحية التى غربيها الشمالى عبارة عن سهول ، وجنوبيها عن الاراضى الرملية ، انهار حصين وغمقه وقبله . وجبال الشيخ سعد والدوير والخريبات فى الجهة الشرقية منها . وينبع نهر الحصين من ناحية خوابى الكائنة فى الجانب الجنوب الشرقى من قضاء مرقب ، ثم يقطع مسافة ثمانى ساعات حيث يصب فى البحر شمال طرطوس بساعة . اما جدول الغمقة الذى يصب فى البحر عن نصف ساعة من العقبة فهو ليس بدائم الجريان . وطوله يبلغ خمس ساعات وينبع من جنوب قصبة برج صافيتا . ثم جدول القبلة فقد ينبع بمسافة ثلاثة ارباع الساعة من الساحل ويسقى زهاء «٢٠٠٠» دونم من الاراضى وينصب فى البحر عند خرابة امريت . وان هضاب الخريبات التى هى اهم مرتفعات هناك يبلغ ارتفاعها «١٥٠٠» متراً .

ان الناحية تتألف من «٦٥٫٠٠٠» دونم . ولا يستفاد الا من «٤٠٫٠٠٠» دونم وما بقى منها فهى اما اراضى رملية ، او اراضى موات . مع ان مؤرخى الصليبيين يذكرون ان انحاء طرطوس كانت محشوةً بالاحراج الكثيفة .

ها نحن نبين المحصولات العمومية السنوية لتلك الناحية

جدول سنة **١٣٣١**

جنس المحصول	كيلوغرام
القمح	٥٠٠٫٠٠٠
الشعير	١٥٠٠٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠٫٠٠٠
الفول	٣٫٠٠٠
الحمص	٣٫٠٠٠
الترمس	١٫٤٠٠

وتخمن الاراضى المغروسة باشجار الزيتون والتين فيها بمقدار ١٥٫٠٠٠ دونم . وغرس فيها قبل الحرب ثلاثة بساتين من الليمون ، ويستغل الآن من كل واحد منها «٥٠٠ — ٦٠٠» ليرة فى السنة .

ان ناحية طرطوس هى فى الجانب الشمالى بمسافة خمسين كيلومتراً من مركز اللواء ،

وتتألف من مركزها الكائن على الشاطئ والمسمى باسمها ومن اربع قرى وست مزارع. ومجموع نفوسها ذكوراً واناثاً (٥١٦٩) نسمة منهم «٣٨١٦» مسلمون و(٨٠٨) من الروم الاورتودكس و(٥٢٧) من المارونيين و(١٨) من البروتستانت. وبناءً على الفقر المدقع السائد فى هذه الناحية، ما فتئ سكانها يهاجرون الى اميركا منذ خمسة عشر عاماً. فذهب اولاً المسيحيون، ثم المسلمون والنصيريون. وقد بلغ عدد المهاجرين الى الآن، زهاء «٣٠٠» نسمة. ويرسل هؤلاء الى عائلاتهم فى كل سنة مقدار (٥٠٠٠) ليرة.

ان قصبة طرطوس، مركز الناحية هى من آثار الفنيقيين، اسسها جالية الجزيرة المذكورة تجاه الجزيرة ولهذا سميت باليونانية (انتارادوس) اى تجاه ارواد وكلمة طرطوس محرفة منها.

ولما حل الرومانيون فى سورية اخذت هذه القصبة تسرع فى الرقى وزاحمت جزيرة ارواد. ثم ان قسطنطين ايمپراطور الروم شيد جميع ابنيتها سنة «٣٤٦» ميلادية ولهذا سميت قسطنطينا برهة من الزمن. وقد حصلت هذه القصبة التى ردت الى اسم *Tortos* فى القرون الوسطى على موقع خطير والحقت بمقاطعة «قونتية» طرابلس. وفى سنة ١١٨٣ شيدها فرسان تامپليه وجعلوها فى الدرجة الاولى من التحصين. وفى سنة ١١٨٨ اضطر الفرسان «شواليه» لان يسلموا قسماً من قلعتها الى صلاح الدين الايوبى، بعد ان دافعوا عنها جهد الطاقة. ولم يلبثوا ان استردوها بعد وفاة ذلك البطل المجاهد ودامت سلطتهم فيها الى سنة ١٢٩١.

وفى هذه السنة قهر صلاح الدين خليل من الملوك البحرية فرسان طرطوس وغلبهم واستولى على هذه القصبة وجميع مشتملاتها وسلمها الى المسلمين، واضطر سكانها الى مبارحتها والانجلاء الى جزيرة قبرص. وهذا كان آخر حصن اضطر فرسان تامپليه الى تسليمه للمسلمين فى المحاربات الصليبية

تتألف هذه القصبة من الحصن، وسوره الذى شق خندقه فى الصخر. وان معظم هذا السور الذى كان على شكل رباعى غير منتظم مجهز بالبروج قد قضى عليه كر الادوار بالخراب ولم يبق منه الا الباب فى الجهة الشمالية. ويوجد فى داخل السور كثير من البساتين ودير طرطوس ايضاً «هو الان جامع». وهذا المعبد الذى هو اجمل نموذج لطرز البناء فى القرن الثانى عشر يمتد من الشرق الى الغرب على طول اربعين متراً، وعرضه (٢٧) متراً. وبابه الظريف الذى فتح فى الجانب الغربى هو على الطراز الغوتى وفوقه ثلاث منافذ، وتوجد فى جبهته دائرتان صغيرتان فيهما محراب. وداخل هذا المعبد عبارة عن مدخل يتخلله عمد متوجة تزدان جناحاها بالاوراق. ويزعم ان بانى هذا المعبد هو «سن بيير» ولذلك كان حجاج النصارى يخفون اليه من كل الجهات.

اما الحصن الكائن فى الجانب الشمال الغربى من القصبة القديمة فهو ينفصل عنها بخندق واسع، وعليه كان لا يمكن المرور اليه الا على جسر نصب فوق هذا الخندق. يدخل اولاً من البرج الكبير الى دهليز ذى قبة؛ ومنه يوصل الى سور القلعة . ثم يقطع السور الثانى من خندق مملوء الآن بالتراب الى ثغرة قائمة مكان الباب القديم ، ومنها يدخل الى صحن القلعة ويوجد على يسار الباب بهو فسيح . وهذا البهو الذى هو اجمل وافسح من جميع البنايات التى بناها الصليبيون على هذا الطراز لم يبق منه الآن الا قسم يسير . وطوله ٤٤ متراً وعرضه « ١٥ » متراً .

وتوجد فى الجهة الجنوبية الشرقية كنيسة . وفى منتصف صحنها باب . وكان يوجد فى موقع القصبة اليوم بيوت خاصة للفرسان . ويروى ابن الاثير ان برج القلعة المشاهد فى الجانب الغربى كان مجهزاً بمعاقل مربعة الشكل منها كان الفرسان يدافعون عن القلعة فى قيادة رؤسائهم لما هاجمتهم جنود صلاح الدين الايوبى . وقد كان يدخل الى المخازن الفارغة التى لا تزال اليوم موجودة من باب مطل على البحر . ومنه كانت تدخل الذخائر التى تقلها اليهم السفائن .

[٤] — **خرائب امريت** — ان هذه الخرائب موجودة فى الناحية الجنوبية من طرطوس على مسافة خمسين دقيقة . وتسمى عند الافرنج « ماراتوس *Marathus* » ولربما تكون هذه الكلمة مقابل امريت فى اللاتينية .

ان هذه البلدة التى اسسها الارواديون كانت غنية ومعمورة جداً اثناء تسلط الاسكندر الكبير على هذه البلاد . وفى سنة ٢١٩ الميلادية قطع اهلوها العلائق السياسية مع الارواديين . وقد نشبت بينهم حرب قبل هذا التاريخ فى سنة ١٤٨ والقت بينهم العداوة والضغائن . ثم ان هذه القصبة فقدت قيمتها فى زمن الرومانيين .

ان هذه الخرائب توجد الآن على ضفاف جدولى (امريت وقبله) وكانت قصبتها مبنية على هضبة صخرية ، ثم اخذت تتسع حتى امتدت الى السهل . واول خربة من هذه الخرائب تسمى المعبد وهى فى الشمال على مسافة كيلومتر واحد من مصب امريت . وهذه البناية عبارت عن صحن منحوت فى الصخر طوله ٥٥ متراً وعرضه ٤٨ وجداره فى الجهة الجنوبية لا يزال قائماً على ارتفاع خمسة امتار ويظن ان الجهة المطلة على الجانب الشمالى كانت محاطة بجدار فيه بضعة ابواب . وتوجد فى منتصف الصحن صخرة مربعة يبلغ ارتفاعها ثلاثة امتار ، شقت من الشمال بشق يحاذى الوادى ، وضربت عليها قبة . وترى آثار السلم فى جانبيها . يقول آرنست رنان فى بحثه عن هذه الخربة [هذه هى اقدم معابد الساميين . ولا يمكن العثور على بنيان غيرها يشف عن التقاليد الدينية لدى اولئك

الاقوام. وهذا المعبد يمثل بصورته «تابوت العهد» الذى يحفظ العبرانيون فيه مقدساتهم].

وفى الجانب الشمالى الشرقى من هذا المعبد، على ضفاف جدول امريت توجد خربة تعرف عند الاهلين باسم «المقلعة» محاطة من اربعة اطرافها بسلالم يتألف كل منها من عشرة درجات يبلغ ارتفاع الدرجة «٦٠» سانتيمتراً. وجانبها الغربى عبارة عن صحن على شكل نصف دائرة يبلغ اتساعه «١٢٥» متراً. ثم على غلوة منها صخرة فوقها كثير من الاجداث والدهاليز. ويوجد فى الجهة الغربية ثلاث فسحات تشاهد عليها آثار بنايات كثيرة.

والاجداث الموجودة قريباً من منبع «عين الحياة» المعروفة عند الاهلين باسم «المغازيل» يوجد فى الناحية الشمالية منها جدث عبارة عن هرم مخمس قائم على اسطوانة من حجر واحد وتحتها قاعدة مدورة. ثم على ستة امتار منه جدث آخر وهو عبارة عن اسطوانة يبلغ ارتفاعها مترين، قائمة على قاعدة تتألف من اربع احجار منقوش عليها صور اربعة اسود تدل على عدم مهارة الناقش. ثم فى جانبها اسطوانة اخرى على هذه الوتيرة. ولكنها على غاية من البساطة. ثم تحتها مغارة لدفن الاموات مسدود بابها بصخرة كبيرة منتظمة النحت.

وترى فى الجانب الشمالى من هذه الخربة الصغيرة بين الاحجار دار كبيرة طول جبهتها الغربية (٣٠) متراً وارتفاع جدرانها ستة امتار وعرضها (٨٠) سانتيمتراً. وكان داخلها منقسماً الى ثلاثة اقسام. وقد اقيم فى ناحيتها الشمالية حائط بنى من الاحجار المنحوتة.

— ٤ —

طرابلس الشام

١ — منظر طرابلس، وضواحيها

ان طرابلس هى ابهى بلدة فى ساحل سورية ...

لم تهمل يد الطبيعة الكريمة طرابلس حينما قسمت المحاسن بين البلدان، بل جادت عليها بقبضة من ابدع الالوان ... فالحمرة والبياض، والخضرة، والزرقة، ... وغيرها من الالوان اوجدت فى هذه البقعة ساحات تمور فيها امواج البدايع، وتسود عليها القدسية.

ولهذا يمكننا ان نقول: ان طرابلس معرض فخم للبدايع والمحاسن. وللاحجار الكريمة التى تجذب معجب الانظار ترصيع لطيف، فى تلك الارض الزاهرة، وتنسيق باهر.

اقترن فيها الياقوت والمرجان، والزمرد والزبرجد اقتراناً سعيدا، فكان ذلك المنظر البهيج الذى هامت ببهجته الانظار. وما اصدق الشاعر السورى [*] الذى اسكره رحيق هذا الانجذاب، حيث قال مترنماً بالوان طرابلس:

فالبحر والمرج الشهير ورملها
فيروزج وزبرجد، مرجان

وهذا الفيض اللونى المشهور فى طرابلس ما زال منذ القدم يحرك اوتار الشعراء بوصفه وقد قال ابن مامية الرومى:

باربعة سادت وساد مقامها
على سائر الامصار فى البحر والبر
بابيض ثلج واحمرار كثيبها
وخضرة مرج قد جلا زرقة البحر...

نعم ان طرابلس، كما قال مؤلف «تاريخ سورية» الفاضل [**] ببيوتها المطلية سطوحها وجدرانها بالكلس، هى كالحمامة البيضاء المرفرفة على نهر «قاديشا» القديم الذى يخترق تلك الديار من الشرق الجنوبى، الى الشمال الغربى

ان هذا النهر الذى يسمى الآن بنهر ابو على، ينبع من الجبال الجنوبية ثم يدخل بلدة طرابلس فيخترقها حيث يكون ربعها عن يمينه وثلاثة ارباعها عن شماله. وبعد ان يتلوى بين بساتين الليمون مقدار نصف ساعة، يسير الى الجانب الشمال الغربى من طرابلس وينغمس فى زرقة البحر.

اما الناحية الجنوبية والشرقية من البلدة فهما بشكل هضبتين ويمر النهر ماراً بحفافيهما فاذا اضربنا عن هذه البيوت التى يعلو بعضها بعضاً، تكون البلدة عبارة عن شكل (قطع ناقص) يمتد من الشمال الى الجنوب فى ساحة مستوية. فاذا فكرنا فى اشجار الزيتون الخضراء التى اشغلت فسحة عظيمة على امتداد طرفى قطر هذا الشكل الهندسى العظيم، وتلك البقعة الخضراء المكونة من اشجار الليمون وغيرها التى احاطت بالبلدة من الجانب الغربى، والشمال الغربى فى ساحة لا تقل مساحتها عن كيلومترين او ثلاثة تنتهى على رؤوس الامواج البيضاء من البحر الابيض، نعلم بداهة ان طرابلس ممنطقة بهالة من الرياض الخضراء

(*) عبد الغنى النابلسى.
(**) تاريخ سورية — جرجى ينى

لاسيما وقد قام فى جانب هاتيك الساحة الزبرجدية او الاكليل الزمردى لمحيا طرابلس الالماسى ، بحر يتغلغل فى البعد الى ما وراء مرامى البصر ، فكان كهالة من فيروزج لذلك التاج البهيج يزيده نوراً على نور .

وقصارى القول ان ضواحى طرابلس هى البقعة التى فاضت بالبدايع الحسية ، ثم ان الرمال الصفراء والحمراء التى غشيت هذه البلدة الفريدة من الجانب الشرقى والجنوبى لا تزال تلمع فيها ذكرى الكهرباء والياقوت . ولا بد للابصار ان تقمر حينما تبزغ الشمس من اعالى جبال « البعل » ، وتزج بنورها الفضى على تلك البلدة البهيجة . وما الطف مساء طرابلس ايضا . ما اجمل ما يراه الناظر الذى يتصفح تلك الانحاء من سنام الهضبة الشرقية او الجنوبية يرى عيناً من نور معلقة باهداب الزرقة الملتهبة فى الافق الاقصى ، ينزلق منها سيال ذهبى ينساب على اطلسة البحر ، وتتلاشى خيوطه النورية عليها . ثم يجعل « مينا » طرابلس القائمة فى حجر البحر كانها صيغت من مينا غريقة فى لج من نور ، ثم يجوس خلال هاتيك الرمال المرجانية ، ويتخطاها الى الرياض الزمردية ثم يندفق على البلدة حيث ينغمس بالماسها الساطع ، فيتموج بنوره الفضفاض والوانه الجوالة برهة وينتشر فى تلك الافاق الزاهرة من طرابلس العطرة ، وينقلب الى رقدة قدسية . فترقد طرابلس تحت ظلال ذلك اللحاف المفروش فى قبة السماء فوق تلك الساحة الفردوسية المرصع بلآلئ لماعة : هنالك تتعطر جميع هاتيك الانحاء بما تبعثه تلك المبخرة الصمدانية من النكهة المسكرة الى ان تودع الديجور مترقبة انفجار بركان النور من فوق هضاب « بعل » السامية . يا للعجب ما اجمل طرابلس ، وما الطفها !! ان كانت سورية فى ديوان جمال الكون ابدع قصيدة ، فلا جرم ان طرابلس هى بيت القصيد لتلك المنظومة الجمالية . لم يخطئ الذين يعتقدون بوحدة الحسن على اختلاف انواعه ؛ وعلى هذا المذهب ، ان طرابلس هى ابلغ نموذج للجمال .

لا بلدة فى سورية تستطيع ان تفاخر بمناظرها الوافرة كطرابلس ، ولا تكون غنية مثلها اما دمشق فوا اسفاه ليس لديها بحر . وبيروت ايضاً التى هى ملكة سواحل سورية لم تكن غنية بالبدايع بهذه النسبة .

اما الامصار الاخرى السورية ، فلا ارى ان ابحث عنها . وعلى كل حال ان طرابلس بهضابها الخضراء ، ورمالها الحمراء ، وبنهرها المقدس (*) الذى هو كحنية من سيال الجوهر وبابنيتها الدرية ، وبخضرتها التى لا تتناهى ، ثم بحرها الذى كأنه من مذاب الفيروزج ، وبلياليها الفضية ، وبلآلئ نجومها المبتسمة فى كبد سمائها ، وبمحاسنها المتنوعة هى اجمل بلدة فى سورية . وعليه فليقصر سكانها عابدو التواضع عن تسمية ذلك المشهر الجمالى بدمشق الصغرى .

(*) ان نهر قاديشا معناه « النهر المقدس »

حتى ان الفنيقيين ارادوا ان يقيموا فى هذه الساحة الزاهرة نموزجاً للبلدان ، فمزجوا اذواق الصوريين والصيداويين والارواديين واوجدوا هذه البلدة الكاملة المؤلفة من ثلاثة بلاد. وايضاً ان اليونانيين يعتبرون هذه البلدة التى يسمونها «تريبوليس *Tripolis*» معادلة لبضعة بلاد . وعليه يحق للطرابلسيين ان يفاخروا ببلدتهم التى جلت عن المثيل بين البلاد .

٢ — الخطوط الداخلية فى طرابلس

[١] — **سعة القصبة وبنيانها** — كانت الساحة التى اشغلتها طرابلس فى زمن الفنيقيين عظيمة جداً . وكانت البلاد الثلاثة المجتمعة التى اسمها الصوريون ، والصيداويون ، والارواديون تفترق عن بعضها بفراغ يسمونه مرحلة (ستاد) يمتد مسافة فرسخ . وحدود هذه البلاد كانت تبتدأ فى الشرق من موقع مقبرة الروم الارتودوكس القريبة من البلدة الآن فى حدود الجبل وتمتدفى الغرب حتى شاطئ البحر وتشمل مساحة بضعة كيلومترات. فاول هذه البلاد الثلاثة كانت على شاطئ البحر فى موقع « المينا » الحالية التى تبعد عن طرابلس مسافة نصف ساعة ، والثانية كانت فى محل الدلفتانية ، وهو محل مقبرة الروم الاورتودوكس اليوم ، والثالثة كانت فى موقع « البحصاص» وهو فى الجنوب الغربى من طرابلس .

اما قصبة طرابلس اليوم فهى تشغل السهل الكائن فى حفاف هضبة «جبل ابو سمره » وهى كما بينا اثناء البحث عن ضواحيها مطوقة باشجار الزيتون والليمون . وتكاد تكون على شكل « قطع ناقص » . وطولها من الشمال الى الجنوب يقرب من كيلومترين وعرضها من الشرق الى الغرب يزيد عن كيلومتر . اما ناحية قصبة المينا المربوطة بطرابلس والكائنة على شاطئ البحر ، فى نهاية البساتين التى تشغل بضعة كيلومترات هى فرضة البلدة ، وبمثابة فضالة لها . واذ ان خط الترام الذى يسير بين طرابلس والمينا يقطع تلك المسافة بظرف عشرين دقيقة اصبحت هذه الناحية من مشتملات تلك البلدة . لاسيما وان العمران على طريق الترام لا يزال يمتد فى طرابلس من الشرق الى الغرب ، وفى المينا من الغرب الى الشرق ، ولهذا السبب لا تلبث طرابلس ان تصل الى الشاطئ ، وتمتزج بمينائها فى القريب العاجل .

ولنذكر انه لايعثرالآن على شئ من آثار البلاد الثلاثة القديمة الا على بقايا من مجارى المياه التى لا تزال تشاهد فى خارج البلدة . اما البروج الموجودة على شاطئ البحر اعتباراً من مصب نهر ابو علي الى داخل المينا وهى بروج « رأس النهر » ، والاربعين ، السباع ،

المغاربه والمشتى ، الشيخ » هم من الآثار التاريخية التى كانت بعد الفنيقيين . وانما نتكلم عنهم حين البحث عن احوال القصبة التاريخية .

يتضح لنا من الابحاث المتقدمة ان طرابلس والمينا لا يفترقان ، ولذلك فان الاراء التى سنبديها على خطوط طرابلس الداخلية ، ولاسيما على بنيانها فهى تتناول عين الاحوال فى المينا .

لا يصعب علينا ان نقسم البنيان فى طرابلس والمينا الى قسمين ، ونفرق بين النسق القديم فى الانشاء ، وبين الحديث منه . ففى القسم الاول يغلب فى الابنية تقليد طراز الشام وطراز بنيانها ، والثانى يغلب فيه الطراز البيروتى.

ولنفصح عن هذه النقطة : من المعلوم ان بيوت الشام قائمة على ضفاف (بردى) وتوابعه من الانهار ، ولهذا كان من السهل ادخال المياه الى اكثر المساكن . وكثرة المياه هناك حدت بالشاميين لاعداد الرياض الصغيرة والسواقى والاحواض فى البيوت، وكثرة الاحجار هناك مكنتهم من اتخاذ الصحون فى دورهم ، وتبليطها بالرخام او الاحجار، واعداد الاحواض فيها . ويبنون اكثر اقسام تلك البيوت فى الطابق الارضى ليتسنى لهم التمتع بالمياه ومناظرها ، يتفننون فى ذلك فيشيدون الابهاء ، وفى منتصفها الاحواض والفوارات الرخامية .

والطرابلسيون ايضا اقبلوا على الاستفادة من مياه نهر ابو على ، واخذوا يقلدون الشاميين حذو القذة بالقذة ، وتراهم يفخرون بتسمية بلدتهم بالشام الصغرى . ولهذا السبب فان جميع البيوت القديمة فى طرابلس مبنية على هذا الطراز .

اما اليوم فنرى الطرابلسيين يحذون حذو بيروت فى البنيان ، ويشيدون بيوتهم على الطراز الحديث اى مسقوفة الدار ، ويمكن تفريق هذين الشكلين من الابنية بنظرة بسيطة فالطراز القديم منها له سطوح مستوية مطلية ومرشوشة بالكلس الابيض ، اما بيوت الطراز الحديث فهى مستورة بسطوح محدبة من القرميد الاحمر : وان اكثر بيوت طرابلس مبنية بحجارة سمراء تضرب بلونها الى الصفره ويؤتى بتلك الاحجار من المقالع الكائنة على الساحل قريبا من المينا . وقد اخذ الطرابلسيون منذ خمس عشرة سنة يطلون جدار البيوت بالملاط الابيض « سمينتو » لكى لا تنفذ الرطوبة من خلال الاحجار ويحددونها بخطوط شطرنجية ، ثم تركز على اعاليها اشارة النجم والهلال .

وقصارى القول ان بيوت طرابلس يغلب فيها الطراز البيروتى تارة ، والطراز الشامى اخرى ، او يمتزج هذان الطرازان فى بعضهما ، وكلهما تبنى بالحجارة ، ولا يصنع من الخشب الا سقوفها ونوافذها وغيرها من فروع البناء. وبعض البيوت من الطراز القديم ، واكثرها من الطراز الحديث تكون على طابقين .

وان ثلثى البيوت فى طرابلس التى يبلغ عددها عشرة لاف بيتاً هما من الطراز القديم وثلثها من الطراز الحديث . فالقسم الذى يبدأ من يسار نهر ابو على ويمتد الى الجانب الغربى من البلدة المسمى بالتل ، وطرابلس القديمة . هى عين دمشق القديمة . والبيوت فى هذا القسم وان وجد فى بعضها رياض صغيرة ، وبينها دروب ضيقة ولكنها متصلة ببعضها ومسورة بالجدران الطويلة المجتمعة . وان هذه الدروب فى القصبة هى على درجة من الضيق تذكرنا بالقرون الوسطى ، وعقدت فوقها الحنايا والقباب الرابطة المطحلبة [*] فزادتها ضيقاً على ضيق .

ثم ان الرطوبة التى احدثها رشح المياه من المجارى المارة فى اسفل الجدران ، والعفونة القذرة التى تنبعث من مجارى المراحيض تحت الطرق جعلت ممر ماتيك البيوت لا يسلك . وداخل تلك البيوت ايضاً هو على آخر ما يكون من الرطوبة وعدم تجدد الهواء . ومهما ادعى بعض مدافعى طرابلس بان بيوتهم الوسخة التى يظنها الانسان مهيأة للسقوط على رأسه ، هى نظيفة نقية من الداخل . فعندى لها الرأى الذى لا يتزلزل . وهو انها لمن الشوائب المدنية والصحية فى طرابلس . وعليه يجب ان تختم حياتها ، ولا يجعل لها نصيب بعمر اكثر من هذا .

اما البيوت من النسق الحديث فهى تشاهد فى موقع « القبة » العالى المتصل بالمحلات الكائنة على يمين ساحل نهر ابو على ، ثم فى انحاء « التل » من غربى البلدة .

ان موقع « القبة » فى طرابلس يطل على منظر متناه فى اللطافة والحسن ، يستقبل الهواء الطلق الذى يهب من الغرب ولهذا كان ارغب المحلات فى نظر الطرابلسيين ، واذا نظرنا الى البيوت التى شيدت فى اعالى هذا الموقع ورأينا تباعدها عن بعضها بصورة تفسح الى الهواء ان يسترسل فيها . ثم الى ابنيتها حيث تطل على جميع البدائع الطبيعية فى طرابلس . يسهل علينا ان نطلع على درجة رجحان تلك المساكن وتفوقها .

ثم ان نظارة موقع القبة من جهة البلدة لطيف ايضا . اذ يرى الناظر البيوت البيضاء تتدرج بالترفع بعضها فوق بعض بصورة تكون حبلاً من العمران ، ثم ان القسم الآخر من الابنية الحديثة هو فى الساحة التى عرفت باسم « التل » . وكان هذا الموقع من قبل ، عبارة عن سهل رملى . اما الآن فقد شيدت فيه كل البنايات الفخمة التى تفتخر بها طرابلس ثم ان دار الحكومة ، وبرج الساعة ، وروضة البلدة ودار البريد والقنصليات والمصارف والفنادق ، ومركز الترام ، واغنى المخازن كلها حشدت فى تلك الناحية ، ولهذا اصبح موقع التل له الوقع العظيم فى تلك البلدة . بما فيه من الشوارع الواسعة والمبانى الرصينة

---

[*] الطحلب خضرة تعلو الماء المزمن . م

وما زال يتدرج فى الرقى . ويمكن ان نقول ان طرابلس الجديدة عبارة عن هذا الموقع . ولا يفتأ الطرابلسيون يترنمون بامتداح ما كان من حسن هذا الموقع قبل نشوب الحرب العامة يزعمون انه كان يلتطم نهاراً بازدحام هائل من الناس والمركبات حتى لقد يعسر المرور منه . وان المركبات كانت تضطر كثيراً الى التوقف فى الطريق الموصلة الى الميناء حتى تتمكن من المرور . اما فى الليل فكان ينار فيه اكثر من ستين مصباحاً تجعله غريقاً فى لجة من نور . ولا يمكن تصوير تلك الضجات وجلبة الطرب والسرور من الناس الذين حشدوا فى تلك المسارح ومحلات اللهو المتعددة .

نعم لم تزل تبنى على حفافى شارع الترام الابنية المنتظمة ، التى تناهت فى الظرافة والمتانة فاذا ثوبر على هذا الاعمار ، وكثر عدد تلك المبانى ، تترشح طرابلس ان تكون اول بلدة فى سورية بخطوطها الداخلية ايضاً كما كانت فى مناظرها الخارجية .

ومع ذلك فان طرابلس بجوامعها العظيمة ، وكنائسها الكبيرة تشعر بانها بلدة «شرقية» ويوجد فى طرابلس مقدار اربع عشرة جامع منبثة فى انحاء البلدة بمنارات ظريفة ناصعة ، رفيعة الذرى ، وقباب بيضاء . منها « الجامع الكبير المنصورى ، التوبه ، العطار ، الطحام ، ارغونشاه ، المعلق ، طيلان ، عبد الواحد المغربى ، الاويسية ، البرطاس ، محمود بك السنجق التقاص — الحميدى »

ثم اذا علمنا انه يوجد فيها ما عدا هؤلاء الجوامع مقدار عشرين مسجداً ، ومدارس قريبة من هذا العدد ، واربع تكايا ومولوية (درويشية). نعلم ان طرابلس بلدة اسلامية دون شك . ولكن يا للاسف ان اكثر هذه الاثار الاسلامية مهملة لا يعبأ بها ، مشرفة على الخراب لدرجة توجب العار والخجل. ثم ان الملة النصرانية اوجدت هناك كثيراً من المعابد الخطيرة . مثل كنيسة « ملاك ميخائيل ، السيدة العذرا » للمارونيين ، و« جاورجيوس» للروم الكاثوليك و« مار جرجس ، مار نيقولا ، مار ميخائيل» للروم الاورتودوكس . ومجموع عددها اربع عشرة كنيسة . ثلاث منها للروم الاورتودكس وخمس للاتينيين [ومن هؤلاء الخمس اثنتان للفرنسيسكان والواحدة تخص « *Filles de la charité* » ، وواحدة الى اللازاريين ، وواحدة تخص « *Carmes* »] واربع للمارونيين ، وواحدة للروم الكاثوليك وواحدة للبروتستانيين . وكنيسة لليهود . وتوجد دار للايتام ومدرسة للبنات تخص « الأخوات » *Sœurs* « الفرنساوية . والجماعة » *Les frères des écoles chrétiennes* « دير ومدرسة (*) ويوجد مسكن يسكن فيه المبشرون الاميركانيون ، ومدرسة للبنات تخصهم وهذا يدلنا على درجة غناء طرابلس بالابنية .

(*) تسكنه اليوم المدرسة السلطانية .

نريد قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم على بعض المبانى التاريخية ، والرسمية والمخازن وما يماثلها . ولا مراء فى ان اهم بناء تاريخى فى طرابلس هى القلعة الكائنة فى الجانب الشرقى من البلدة . وبما اننا سنتكلم عنها اثناء البحث عن تاريخ طرابلس ، نضرب الان عن الدخول فى هذا الموضوع . ومع ذلك فان تلك القلعة التى جعلت اليوم سجناً للمحكومين هى على جانب عظيم من اللطافة . وقد كانت مشهورةً بمناعتها وحصانتها . ولما فتحها السلطان قلاون هنأه بهذا الفتح « مجد الدين الحيمى » لشاعر بقصيدة غراء مطلعها :

هنيئاً ايها الملك الهمام
بنصر لا يريم ولا يرام

ثم بعد ان هنأه بهذا الفتح العظيم ، انتقل الى بيت القصيد فقال واجاد :

وظنوا انهم قوم عظام
فها هم فى جوانبها عظام

والآن فان تلك القلعة المسيطرة على موقع طرابلس تشمخ كانها تريد نطح السحاب بما تحتويه من رميم العظام .

اما المبانى الرسمية فمنها دار الحكومة ، ودائرة البلدية ، وخان العسكر الذى كان ثكنة للجنود ، ثم خان الماء ، والمستودع العسكرى ، وبضع بنايات للمدارس . وكلها ليست من المكانة والرصانة بدرجة تليق بعظمة موقع طرابلس . ثم يوجد برج الساعة تجاه دار الحكومة ، وهو خلو عن كل مهارة وصنعة .

ولكن « مستشفى عزمى بك » الذى شيد العام الماضى فى الجنوب الشرقى من القصبة على هضبة عالية هو اثر عمرانى ثمين جداً ، نتعزى به الآن .

اما المخازن والحوانيت والحامات وما اشبهها فهى كثيرة فى هذه البلدة ، ويمكن ان يبلغ عددها الى الفين . ولا بأس بمخازن الامتعة والاقمشة الحريرية فى طرابلس . ولاسيما أبهاء الحلاقين فانها متناهية فى الزينة والترتيب وفيها سبعة او ثمانية حمامات وهى تماثل حمامات الشام . ويوجد بين خانات طرابلس التى يبلغ عددها الثلاثين ما هو حرى بان يسمى مجمع التجارات . اما الحوانيت الموجودة خارج هذه المحلات فانها عبارة عن زوايا للاوساخ .

هذا ولننقل البحث ، بعد ما اجملنا الخطوط العمرانية فى طرابلس الى المينا التى بينا سابقاً انها تتمة لهذه البلدة :

ان هذه القصبة التى تحتوى على قريب من الفى مسكن ، وثمانية آلاف من النسمات هى فرضة متوسطة فى الجسامة .

ما زالت هذه القصبة تمعن فى الرقى والعمران بفضل اهتمامها فى الامور البحرية ،

حتى دمتها الحرب ، فسقطت عن مركزها وغدت تتجرع اليم الاضمحلال وياللاسف . فالجمرك ، والرصيف ، ووكالات البواخر والمستودعات وبيوت التجارة والفنادق وامثالها من المؤسسات التي كانت معرضاً للبيع والشراء البالغ ، اصبحت اليوم وهي خراب ينعب فيها البوم والغراب ، واغلقت الحوانيت وفرغت البيوت واقفرت الشوارع ، وفقدت القصبة جميع حياتها ما عدا بضعة بيوت كبيرة لمتمولي طرابلس في الجهة الشرقية من القصبة .

اصبحت هذه القصبة التي لا يزيد عدد نسماتها اليوم عن الالف تتجرع غصص الاحتضار الهائل ببيوتها التي كانت ميدان الهمة والعزم ، او معاهد الذوق والطرب . وانها تنتظر زوال هذه الحرب اكثر من كل البلاد .ويتمنى القلب ان لا يطول انتظارها والا فالدمار محتم على هذه الفرضة الطرابلسية اللطيفة .

[٢] — **محلات طرابلس ، وطرقها ، وجسورها** — يجب علينا قبل البحث عن محلات طرابلس ان نعين التقسيمات التي اوجدتها العوارض الطبيعية. نعم ان نهر ابو على من جهة والهضبة الكائنة في الشرق الشمالي من البلدة من جهة اخرى قسمت طرابلس الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول ، هي الساحة الكائنة على الجانب الايسر من النهر ، وهي تضم ثلاثة ارباع البلدة ، والقسم الثاني الذي على الضفة اليمنى من عين النهر ، والقسم الثالث هو انحاء القبة » .

توجد على الضفة اليسرى من النهر ثماني محلات . تمتد من الجنوب الى الشمالي على شكل قطع ناقص ، وهي « بوابة الحدادين والمهاترة ، النورية ، التربيعه ، باب الحديد ، العدمه » ثم في الجهة الغربية من هؤلاء محلة (الرمانة) وبعدها (تل الرمل) ،

وان احدث هذه المحلات واجدرها بالبحث هي محلة (تل الرمل) التي مر ذكرها. وان توسع هذه المحلة واقبال الطرابلسيين عليها حيث يتخذون مساكنهم فيها وينقذون انفسهم من رطوبة البيوت القديمة وعفونتها ،هو من الاماني التي يجب الركض وراء تحقيقها،

اما في الجانب الايمن من النهر ،توجد محلة « الجسرين » و« باب التبانة » وفي الجهة الشرقية الشمالية توجد بيوت « قبة النصر».

ولا جرم ان احسن محلة بين هؤلاء المحلات من حيث جودة الهواء وجمال النظارة هي « القبة » . ولكن « التل » هي الارجح من حيث العمران وانتظام البنيان.

لم تتعين المحلات في طرابلس على طريق الاختصاص باحدى الملل المختلفة ؛ بل ان النصارى الذين هم خمس السكان يقطنون في محلات المسلمين ، ولا يزالون محافظين على هذه العادة . على ان عددهم في محلة التربيعة والرمانة والنورية كثير بالنسبة لغيرها .

اما الطرق فى طرابلس ، فهى تنقسم الى قسمين . لأن بين الطرق فى داخل البلدة وبين الخارج منها بون عظيم. ان الطرق الكائنة فى خارج البلدة وان تكن على غير كفاية من الاتساع ، لكنها تصلح للمرور . ولكن الطرق الموجودة فى الداخل فهى من القذارة، والعفونة بدرجة لايتصور اكره منها . وهذه الطرق بطحلب مقاسم المياه، وقذارة مجارى المراحيض المارة من تحتها، والمياه الوسخة التى تندفع من البيوت ، وبالاوساخ التى يطوح بها السكان ، هى لامراء بمثابة الامعاء المحمومة فى جسم تلك البلده اما الأقسام الموصلة الى النهر التى تصعد وتهبط فهى احط وادنى من انقاب الجبل . لاسيما وان المرور من الطرق التى تباع فيها المواد الغذائية فهو مما لايتحمله ارباب الذوق السليم . ومن اعظم خطأ الطرابلسيين لذى لايجوز الاغضاء عنه ، هو افراز اوساخهم ، وقذفها على الطرق . فهذا الاهمال لاينطبق على مايؤثر عنهم من نظافة بيوتهم .

لايمكن تعداد هذا النوع من تلك الارقة التى تعقدت فى بعضها وليس بنافع ايضاً ولذلك اننا نذكر الطرق الموجودة فى خارج البلدة ، ثم الطريق الوحيد فى الداخل :

فالطريق الاساسى فى الداخل يبدأ من جنوب البلدة من مقبرة المسلمين القريبة من محلة بوابة الحدادين ويقطع القصبة من مبدأها الى منتهاها . وله رصيف ، وهو معوج الوجهة وليس له اسم لانه يتسمى باسم المحلات التى يمر عليها . كبوابة الحدادين والحته وسندمر والعطارين والصاغة والبزركان ، والملاحة والجسر والتبانة . ومعظم ازقة طرابلس تتصل بهذا الطريق .

اما الطرق الموجودة فى خارج البلدة ؛ فأولها طريق الاسكلة . وهو طريق معبد يبدأ من تل الرمل وينتهى فى المينا . وطوله كيلومتران ونصف . اما عرضه فخمسة وعشرون متراً . و الترام الذى يجر بالخيل ويصل البلدة بالمياء يمشى على هذا الطريق

اما الطريق المعروف (بطريق البحصاص) ؛ فهو يبدأ من دار الحكومة ويمتد الى منتهى الجنوب من البلدة . وله فرع يمتد من تل الرمل الى محلة التبانة ، ثم يتصل بطريق حمص .

ويوجد الطريق المسمى « طريق عزمى بك » وهو يمتد من منتهى تل الرمل الى ساحل البحر . وطوله يقرب من كيلومترين وعرضه خمسة وعشرون متراً وكان يسمى قبل التوسيع والتعبيد بطريق الوزان .

ثم يوجد خارج البلدة — ما عدا هذه الطرق — الطريق الذى يبتدأ من البحصاص وينتهى فى بيروت وطريق طرابلس — حمص ، وطرابلس — ضنيه ، وطرابلس — طرطوس . ثم هناك فرع لطريق طرابلس — حمص يصل الى «حلبا» مركز قضاء عكار .

اما جسور طرابلس فهى قائمة على نهر ابو على . فنها « الجسر الجديد » الكائن فى محلة

« الجسرين » ثم « جسر العتيق » فى محلة التبانة ، والثالث « جسر الترامواى » الكائن فى اقصى الشمال من البلدة . والجسران الاولان هما على غاية من الوهن والتداعى.

[٣] — **ماء طرابلس** — يمكن ان يقال ان طرابلس غنية بالمياه غناءً كاملاً ،لان نهر ابو على الذى يقطعها من مبدأها الى منتهاها ، وماء رشعين — مع محاذيره التى سنتكلم عنها حين البحث عن الاحوال الصحية — الموزع على اكثر انحاء البلدة بانابيب الفخار لا زالا يفيضان الحياة الخضراء على تلك البقعة . ونهر ابو على هذا كان الاقدمون يسمونه « قاديشا *Kadicha* » كما بينا سابقاً . ويزعم الطرابلسيون انه كان على ضفاف هذا النهر مستشفى اسم صاحبه « ابو على » ، فنسب نهر قاديشا الجارى من هناك لاسمه : وكان نهر ابو على .

ينبع هذا النهر من موقع يعرف بالدواليب الكائن تحت « ارز لبنان » الشهير وفى جوار قصبة بشرى فى لبنان. فيتجه الى الجنوب الغربى، ثم يصب عليه جدول «رشعين» و«المخاضه» ويمر من طرابلس متجهاً من الشرق الجنوبى الى الغرب الشمالى ويصب فى البحر بعد ان يقطع مسافة كيلومترين منها .

يكون هذا النهر عرضة لكل وساخة حين مروره من طرابلس. وعليه فالذين لا تمكنهم الاستفادة من ماء رشعين لسبب علو بيوتهم يستعملون ماءه ، ولا جرم انهم ليضرون بها انفسهم على ان هذا النهر يروى بمائه بعد ان يفارق طرابلس ساحة عظيمة من الحدائق التى جعلت الحياة الفياضة فى طرابلس. وهو الذى اتحف تلك البلدة بجناتها الزمردية .

ان مياه طرابلس الاساسية تأتى من « رشعين» . وهذا الجدول ينبع من موقع فى جبل لبنان يسمى بهذا الاسم ، ثم بعد ان يصل الى قصبة (زغرته) يفترق عنه القسم الذى يقوم بحاجة طرابلس . ويؤتى به الى « تحت القلعة » حيث يوجد مدخر الماء ، ومقاسم التوزيع .

وقد يزعم ان القناة التى يجرى فيها الماء اليوم هى من زمان الصليبيين . وان تسمية بعض اقسامها بقناطر البرنس يدل على صدق هذا الزعم .

بعد ان يتكم ماء رشعين فى مدخر تحت القلعة يسيل فى انابيب الفخار الى جميع اطراف البلدة . وهذا الماء ينقسم بعرف البلدة الى اثنين وسبعين مقسما « قرية » ، ثم ان كل قرية تنقسم الى اثنى عشرة شاهية « مقسم صغير » . وعلى هذا الترتيب توزع المياه على بيوت طرابلس حسب الاستحقاق المعروف فى البلدة ، والمسجل فى دائرة البلدية . ويوجد لهذه المقاسم مقاسم اخرى فى داخل البلدة تنقسم فيها المياه مرةً ثانية .

ان اصل ماء رشعين هو صاف ونظيف، ولكن اسالته فى انابيب الفخار التى لا تمنع ترشح الماء

وتحليه اوجبت تعكير صفوه وتلونه بعد ان دخل البلد ، ولو كانت انابيبه مصونة صحية لافاض ماء الحياة الحقيقي على هذه البلدة . فيجب على الطرابلسيين ان يفكروا بهذا الامر الحياتي قبل كل شيء . وما عدا هذا يوجد في بعض البيوت الكبيرة آبار من الماء العذب . ولكن عددها قليل لا يستحق الذكر . ثم يوجد اكثر من مايسة صهريج اكثرها في محلة القبة ، تخزن فيها مياه المطر ، ولا جرم انها انظف ، واطيب المياه الموجودة في طرابلس .

[٤] — **المنتزهات والمقاصف** — ان ما مر علينا من البحث عن ضواحي طرابلس عرفنا بان جميع انحاء هذه البلدة الزاهية هي منتزهات ومقاصف .

نعم ان طرابلس الجديرة بان تفتخر على معظم البلاد بمناظرها البديعة الوافرة ، فيها منتزهات عديدة ومقاصف شتى . فالقبة التي حازت بارتفاعها على ابهى المناظر ، وهضبة « ابو سمره » هما بالنظر الى طرابلس من اجمل المواقع الشعرية التي تسل الهموم من القلوب ثم ان هالة الرياض التي توشحت بها تلك البلدة الطيبة فيها اهنأ الاندية الزمردية لاولى الاذواق والطرب . لاسيما تلك الساحة الخضراء ، اللطيفة القائمة بين طرابلس والمينا لا يكون ابدع منها عند المساء او في الليالي المقمرة ، وان تل الرمل وما في جواره ، بنسيمه الذي يتلقى الارواح بابتساماته المنعشة ، لا جرم هو من اهنأ البقاع وارغدها .

وان موقع الدرويشية في الناحية الجنوبية المطل على الوادي وما حوله هو لطيف ايضاً ثم « البداوي » في الشمال ، و « برج رأس النهر » مصب نهر ابو علي في الجانب الغربي ، وغيرها من البقاع هي على ما لا مثيل له بالجمال واللطافة .

يود القلب ان لو كانت الآثار الصناعية والمدنية في طرابلس موفرة وراقية تجاه تلك الثروة الطبيعية الممتازة . فتتمتع بالسعادة والعمران . نعم لو كان لها نصيب من البدائع المدنية ، وقامت فيها الشوارع الواسعة النظيفة ، ووسائط الجر الكهربائية والجسور المنتظمة والمياه النظيفة والمعامل الجسيمة والمدارس العظيمة ، والمؤسسات الخيرية العمومية ، واستعد نهرها لسير السفن ، وشيدت فيها التماثيل وحنايا الظفر ، ودور التمثيل ، ومعارض البدايع والمنتديات الحية ، والمطابع الضخمة وكان لها امة حية ، وادمغة كبيرة محترمة . لارتنا اتقان الانسان معززاً بابداع الخالق . ولكانت يومئذٍ جديرة بان تنحني امامها الرؤس اجلالاً .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — **قصبة طرابلس الشام** — ان هذه القصبة كائنة على ٣٤،٢٦ درجة من

العرض الشمالي و٣٣،٣٠ درجة من الطول الشرقي على شعبة من سلاسل لبنان تبعد عن شاطئ البحر مسافة عشرين دقيقة ، وهي في الشمال الشرقي عن بيروت بمسافة (٨٠) كيلومتراً ، وفي الجهة الجنوبية من اللاذقية بمسافة (١٣٥) من الكيلومترات وان نهر أبوعلى الذي سمي في التوراة «كاديشه» اي المقدس، يجري في وسط ثلث البلدة ويقسمها الى قسمين . وينبع هذا النهر من محل «الدواليب» حيث يوجد ارز لبنان فوق قرية البشري ، ويتجه الى الجنوب الغربي فيصب عليه جدول رشعين والمخاضة ، ثم يدخل طرابلس فيقطعها من الشرق الى الغرب ، ويصب على البحر عند برج رأس النهر.

تتالف هذه البلدة من قسمين، كما هو الحال في بعض المرافئ السورية . فقصبة الاسكلة القائمة على الشاطئ ، تبعد عن البلدة مسافة ثلاثة كيلومترات ، وهي مركز الناحية التي تدعى باسمها ، وهي مربوطة بالبلدة بخط ترام انشاء في زمن مدحت باشا .

[٢] — **عدد السكان** — كان عدد السكان في بلدة طرابلس سنة ١٣٣٢ (٢٤٠٣٦) نسمة وفي قصبة الميناء (٨،٥٣٥) نسمة هذه مفرداتها :

	بلدة طرابلس		قصبة الميناء	
	الذكور	الاناث	الذكور	الاناث
المسلمون	١٠٢٥٠	٩٧٠٤	٢١٣٦	٢٠٢٠
الروم الاورتودوكس	١٥٠٠	١١٤٣	٢٣٨٩	١٧٥٩
المارونيون	٦٢٨	٦١٤	١٢٤	١١٠
اللاتينيون	٩	١١		
الكاثوليك	٢٤	٢٢		
بروتستانت	٢٤	٢٧		
اليهود	٣٥	٣٧		
يكون	١٢٤٧٨	١١٥٥٨	٤٦٤٩	٣٣٨٨٦
	٢٤٠٣٦		٨٥٣٥	

كان عدد سكان طرابلس سنة ١٣٢٣ (٢٣٤٣٦) نسمة وعليه يكون مقدار الزيادة في عشر سنين قليلاً جداً .

اما الولادات فيها فكانت سنة ١٣٢٧ (٤٥٥) وسنة ١٣٢٩ (١٩٠) وسنة ١٣٣٢ (٤٤٨) نسمة . والوفيات سنة ١٣٢٧ كانت (١٧١) وسنة ١٣٢٩ (١٢٦) وسنة ١٣٣٢ بلغت الى (١٢٣١) نسمة .

ان الجدول الاخير يرينا مقدار بعد ارقامنا عن الحقيقة . لان الحمى النمشية التي انشبت مخالبها القتالة في طرابلس وفتكت بسكانها فتكاً ذريعاً سنة ١٣٣٢ ، لم تهلك ١٢٣١ نسمة فقط ، بل افنت خمسة او ستة امثالها . ان البحث عن لدات البلاد ووفياتها هي بمثابة الاستطلاع على حالتها الصحية . او بالاجدر هي وزن قدرتها وعظمتها . بيد ان الميزان الذى استعملناه مصنوع بايدٍ بعيدة عن الحس ولا تعرف قدر الوظيفة تراها لا تعبأ بجداول الاعداد زراعية كانت او صحية او اجتماعية . فالارقام الرسمية التى حررناها فى كتابنا الاول وفى هـذا الكتاب ايضاً ، لا ننكر انها خطأ . لانها ضبطت على غير علم وروية . يود القلب ان لو كانت ادينا ارقام واضحة وصحيحة فنطلع منها على هل ان طرابلس الشام احسن حالاً من بيروت ، وعكا ونابلس ، فى الامور الصحية والزراعية وغيرها ام لا ؟ ماذا علينا لو اعتنينا فى انتقاء الارقام الصحيحة كما فى الدول الراقية ، او على الاقل كبلغاريا وصربيه ويونان الذين لم يطل عهدهم بالرقى . ولكن من العبث ان نتطلب الانتظام فى قيود النفوس باسـنا الحالية ، وبهؤلاء المأمورين الذين لا يزيد راتبهم عن خمس ليرات ، ولا سيما المخاتيرة الجاهـلون الذين لا يعرفون معنى الوظيفة . فهل نحصل يا ترى فى الآتى على دواء لهذا الداء العضال ؟ ! ...

[٣] — *مجمل تاريخ طرابلس* — كانت هـذه البلدة موجودة فى القرون الاولى . ويزعم قدامى المؤرخين ان فنيقيو صور وصيـدا وارواد اسسوا مجلساً دائمـاً يلتئم فى طرابلس لاجل الاشتغال بالامور الخطيرة وقد كانت كل بلدة من هذه الثلاث ترسل مائة عضو الى هذا المجلس ، وقد كان اولئك المفوضون يسكنون فى محلات متفرقة ولهذا سميت (تريبوليس *Tripolis*) ومعناها ثلاثة بلاد . وكانت هذه البلاد فى موقع الاسـكلة اليوم ، والسلفتانية التى هى اليوم مقبرة للروم الارثودوكس وموقع البحصاص .

ويظن ان الهياج العام الذى اقامه الفنيقيون تجاه الايرانيين سنة ٣٥١ قبل الميـلاد كان بقرار من هذا المجلس . والفنيقيون الذين كانت حياتهم فى التجارة كانوا يبنون جميع بلادهم على السواحل ، ولذلك كانت بلدة طرابلس مبنية فى شبه الجزيرة الموجودة عليهـا اليـوم قصبة الميناء . وقد كانت كل واحدة من هذه البلاد الثلاثة محاطة بخندق يعصمهـا من كيد الاعداء وتجاوزهم .

والعرب الذين نهضت بهم قوة الايمان من مكة والمدينة ودفعتهم الى افتتاح سورية تمكنوا من تسخير طرابلس وقضوا فيها بالدمار على سلطة البيزنطيين ، التى لم تكن عبارة الا عن قدرة عمياء ملطخة بكل سفاهة ورزيلة . وهذا الفتح كان سببا لتأسس حركة علمية واقتصادية فى تلك البلدة . فنهض المسلمون بذكائهـم الوقاد ، ومشاريعهم العلمية والمدنيـة . واخذوا

يستفيدون من استعداد هذه البقعة ، وسلكوا بها سبيل الرقى المدنى والعمران . فكانت الزراعة والصناعة والتجارة فى آن واحد آخذة فى الرقى بنسبة متزايدة . وكان المسلمون لا يألون جهداً بنشر العلوم والسعى لانارة افكار السكان . ويشيدون الجوامع والتكايا والمدارس . واسست فى اكثر انحاء القصبة المكتبات التى كانت تعمل لتحرير الافكار من اسارة الفلسفة القديمة المضرة . وان المكتبة الجسيمة التى اسسها آل عمار فى طرابلس فى القرن العاشر للميلاد كانت كعبة للعلوم يحج اليها العلماء من كل فج ويحصلون فيها على ما يشتهون من المصنفات المفيدة . وقد تردد ابو العلاء المعرى شيخ الفلاسفة الاولين على هذه المكتبة زمناً طويلاً ، واستفاد منها ما شاء له ذكاؤه .

ولكن لم يطل زمن هذا الفيض العلمى ، بل رمت اوروبا هذه البلاد بشرذمة من جهلائها الصليبيين الذين هم إعداء العلم والمعرفة ، فكانوا المانعين لبقاء تلك النعمة العظمى . وقد كان موجوداً فى طرابلس ابان هجومهم زهاء اربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف ، فلم يدرك اولئك الافرنجيون قيمة تلك الثروة البشرية والطبيعية . بل كانوا يخربون كل ما وصلت ايديهم السوداء اليه من آثار العمران . فقلعوا اشجار الزيتون بقصد نكاية المسلمين ؛ ثم عمدوا الى الرياض المحيطة بالبلدة على مسافة بضعة كيلومترات فأبادوها قطعاً وقلعاً وجعلوها خاوية على عروشها . ولذلك فأن الزراعة والصناعة تقهقرت بعد استيلائهم على البلدة حتى اشفت على العدم .

سارع امير طولوز « قونت » [سن جيل *Reymond de Ss Gilles*] الى محاصرة طرابلس ، فاستبسل المسلمون فى الذب عن حياضها . ولكنه لم يفتر ، بل ثابر على ادامة الحصار وعمد الى هضبة الحاج *Mans Pelleginus* المسيطرة بموقعها على القصبة وشيد عليها قلعة لتشديد الحصار . ولكن عاجلته المنية ، فهلك وهو مشغول بالحصار (١١٠٥ م) . ثم قام الجدال على ساق وقدم بين ابن اخيه كييوم دوجوردەن *Guillaumede jourdain* ، وبين دعيه براتران *Bertrand* الطولوزى الذى جاء من فرانسه الى سورية لمجرد الاستفادة من الميراث ، وبعد وقايع دموية ، حصل بينهما اتفاق على ان يأخذ كييوم انحاء عرقا وطرطوس ؛ وبرتر ان يأخذ هضبة الحاج ، وطرابلس بشرط ان يسخرها وقصبة جبيل ايضاً (١١٠٩) .

لم يلبث كييوم ان قتل فى الحرب وانحصر الارث فى برتران . فقام هذا وفتح جبيل وطرطوس بمعونة الاسطول الذى ارسلته له جمهورية جنوه . وقبل هذا بمدة يسيرة فتحت بلدة طرابلس على يد «بودوين — *Baudouin*» . ويجب ان نعتبر هذه الحادثة التاريخية مبدأ لسلسلة الظلم والتجاوز المشؤمة التى ارتكبها الصليبيون فى الديار الاسلامية . وانحى جهل اولئك الافرنجيون الضالون على مكتبة آل عمار الثمينة فجعلوها ضحية لجهلهم انتقامهم .

فأكلت نارهم السوداء آلافاً من الكتب الفلسفية والعلمية الثمينة ، واحالتهـا الى رماد تذروه الرياح!!

هذا ولينكر الجزويتيون . ومتصلبوا الكاثوليك هذه الجناية التى استهدف فيها دماغ لعلم وقلب الفضيلة . ماشاؤا ان ينكروا . فنحن نقابلهم على التهمة فى مكتبة الاسكندرية الموهومة التى انكرها عليهم اصدق مؤرخى الغرب ، بهذه الحقيقة الناصعة التى يحمر لهـا وجه الفضل ، وينفطر منها كبد العلم . ولا نستشهد لهم بأقوال مؤرخى الاسلام اذ لابد ان يلصقوهم بالتحامل والافتراء . وهذه براهين تكفى لاقناع عشـاق الحقيقة الذين يرون بياض الابيض ، وسواد الاسود :

« ان الافرنج تسببوا لضياع كنز ثمين باحراقهم المؤلفات التى كانت فى مكتبات طرابلس وقد كان يوجد فى هذا المدخر العلمى كثير من كتب العجم والعرب ويونان وكان هناك كثير ممن يثابرون على استنساخ المصنفات الثمينـة . ويروى ابن طى ، المؤرخ العربى ان عدد هؤلاء الكتب كان اكثر من ثلاثة ملايين ، وعلى رواية اخرى انها كانت مائة الف وصاحب هذه المكتبة ؛ القاضى ابو الحسن طالب ، كان المتولى على طرابلس ، وقد الف كثيراً من الكتب النفيسة . وكان يرسل المراسلات الى اقطار البلاد ، ويبذل الاثمـان الباهظة ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة . وما من مؤرخ عربى الا وكتب وبحث بملئ الاسف عن ضيـاع تلك المكتبة الفظيع . اما متصلبو الكاثوليكيين الذين كتبوا تاريخ الصليبيين ، لم نرهم يحثون عن مكتبة طرابلس البتـة ، ذلك ليستروا على الافرنج ذنب التجاوز الذى لا يمكن تلافيه » (*)

وقد جاء فى كتاب لغة التاريخ والجغرافية الذى نشره موسيو بويه — *Boulleh* ان الصليبيين احرقوا تلك المكتبة الثمينة ؛ وذكر المستشرق الشهير رونه دوسسوفى مقالته التى كتبها برسم « انسيقلوپەدى الكبير *Grande Enciloqedie* » وبحث فيها عن احوال طرابلس الشام العمومية ، ان مستخلصى القدس من النصارى احرقوا تلك المكتبة العربية الطائرة الصيت .

انتقلت امارة طرابلس بعد الاسرة الطولوزية الى بوهموند السادس والسابع الذى قهره المسلمون فى انطاكيه وطردوه منها . وحاصر هـذه البلدة صلاح الدين الايوبى سنة (١٢٨٨م) ثم بيبرس سنة (١٢٦٦م) ، وتيسر للسلطان المنصور قلاوون فتحها وارجاعها الى الحكم الاسلامى (٢٦ نيسان سنه ١٢٨٩) ، ثم ضمت الى البلاد العثمانية فى زمن السلطان سليم ياوز مع غيرها من بلاد الشام وبقيت مدة طويلة وهى مركز ايالة :

(*) راجع تاريخ سورية لجرجى ينى

[٤] **بلدية طرابلس** — قلنا فى الصحيفة (٢٣٥) من كتابنا الذى نشر العام الماضى :

[وللاهلين الحق بأن يطالبوا بزيادة الهمة والعمل من البلدية التى تميل نحو رؤية الاعمال سواءً كانت سيئة او قبيحة . وجدير بمدينة حيفا التى تزيد فى كل عام لا اقل من خمسين داراً بالحساب المتوسط ان ترى بلديتها اكثر مدنية ، واوفر ثروة ، واعظم اهتماماً بوظائفها بنسبة الاهمية الموقعيه] .

تنطبق هذه الآراء على بلدية طرابلس ايضاً ، بدرجة اشد واوسع . ان فى طرابلس من الاسر التى ليست كالاسر الحورانية والجليلية فى البعد عن الوطنية ، بل هى لم تزل تتمتع من خير بلادها منذ مآت من السنين حتى تسنى لها الحصول على الثروة الطائلة ولهذا كانت طرابلس اغنى بلاد الولاية بلديةً بعد بلدة بيروت . لان دخل البلدية فى حيفا التى يعدها المستقبل بموقع تجارى خطير ؛ هى ٢٠٠٫٠٠٠ غرشاً . وفى قصبة نابلس «٢٨٧١٢٠» ، وفى صيدا «١٥٩٧٠٠» غرشاً اما دخل بلدية طرابلس كان «٧٣٧٫٢٨٤» سنة ١٣٣٣ . فمنها «١٥٠٫٠٠٠» من مكوس وسائط النقل ، و«١٣٣٩٢٥» من دخل تمهيد الطرق الذى يسمى « شرفية » و«٣٧٫٠٠٠» من الرسوم التى تتقاضاها البلدية بنسبة الضرائب على بدل ايجار الاملاك و١٠٦٠٠٠ من المكوس المختلفة فيها «٤٥٠٠» غرشاً من دخل بلدية المينا والباقى من الكوس وبدلات الايجار .

اما خرجها السنوى فهو يبلغ مقدار «٧٥٦٢٨٤» غرشاً ينفق منه «١٢٤٥٢٨» غرشاً على الرواتب و«٢٢٥٠٠٠» على الطرق العمومية و«٩٦٠٠٠» على التنظيف والتنوير . ثم ينفق مما بقى منه على المستشفيات واعانة الفقراء، وتجهيز امواتهم وتكفينهم ، وعلى حديقة البلدة وغيرها من النفقات المختلفة. وما عدا هذه النفقات تدفع بلدية طرابلس كل سنة مقدار ١٥٢٢٥٦ غرشاً لاجل القيام بامور البلدية فى قصبة المينا .

ونعلم من هذا ان بلدية طرابلس هى قادرة على القيام بالعمل اكثر من غيرها فى القصبات الاخر . ان هذا الدخل الذى ينوف عن سبعماية الف من القروش ، لو كان له رئيس مدرب ذكى ، عنده فكرة علمية وفنية ، لاقتحم فيها اعمالاً فى طريق اصلاح البلدة وتنسيق احوالها الصحية ، تقتضى مليوناً من القروش . فاذا كانت الاعمال عن بصيرة وحزم، لاجرم يكون نجاحها محتماً .

ان محلة التل فى طرابلس هى اظرف و لطف بقعة فيها . ولها منظر زاه جداً بمبانيها المتينة ودار حكومتها وملاهيها ، ولاسيما بمحلتها الجديدة المطلة على فسحتها وبرج ساعتها . وشارع البلدة لا يزال موقع الاستحسان والتقدير باشجاره المعمرة . اما داخل البلدة فهو فى اشد الحاجة الى الاصلاح والمبالغة فى السعى . وان الصحة العامة تتطلب عظيم الاهتمام وعاجله

فى اصلاح مجارى المراحيض التى نراها تماشى كل طرق البلدة وليس عليها حاجز. ثم ان الطرق الضيقة والاسواق المسقوفة التى لا تكاد تنطبق على الخير الصحى ولا على النسق المدنى، ولا يمكن تنظيفها ؛ ولاسيما السبلان التى تنفث عفونتها السم القاتل، وكل ما هنالك من مشينات البلدة هى من المؤثرات التى تدعو دائرة البلدية الى النهوض والنشاط الى العمل الاصلاحى.

[٥] — **بساتين الليمون** — ان الاراضى المحيطة ببلدة طرابلس تتالف من الترب الذى يجرفه نهر ابو على من الربوع اللبنانية ، وهى على جانب عظيم من قوة الانبات بسبب ما يرتكم فيها من فتات الاحجار الكلسية والصوانية وذرات الصلصال التى تنهال عليها من اصقاع لبنان . فاذا وقف المرأ على الهضبة المرتفعة حيث يوجد « مستشفى عزمى بك » الذى جرى تدشينه منذ زمن يسير يرى بساتين الليمون التى تمتد حتى ساحل البحر ، ويرى ان جميع المرتفعات هناك مستورة باشجار الزيتون . يبلغ اتساع بساتين الليمون مقدار « ٢٥٠٠ » فدان [كل فدان يشغل خمسة دونمات] ، وقيمة كل فدان تتراوح بين ٢٠ و٢٥ الف غرش . وقد كان يصدر من طرابلس قبل نشوب الحرب الى استانبول ، ورومانيا والى روسيه ايضاً « ٤٠٠،٠٠٠ » صندوق من الليمون فى كل سنة . فاذا اعتبرنا ثمن الصندوق ريالاً مجيدياً على الاقل نعلم ان طرابلس تربح من الخارج فى كل سنة ثمانين الف ليرة . وقيمة ما يصرف من الليمون فى بيروت وحما وحمص وغيرها من البلاد المزدحمة بالسكان تقرب من (٢٥ — ٣٥) الف ليرة ايضاً . وعلى هذا يكون ربح ارباب البساتين فى طرابلس مقدار (١٠٠ — ١٣٠) الف ليرة كل سنة .

[٦] — **اشجار الزيتون وطبخ الصابون** — ان مساحة مشجرات الزيتون فى طرابلس تقرب من « ٢٥٠٠ » فدان ، وقيمة كل فدان مقدار « ٥٠٠٠ » غرش ويستغل فى كل سنة من هذه الاشجار التى يناهز عددها ثلاثين الفاً مقدار « ١،٥٠٠٠٠٠ » اقة من الزيت . [*] وهذا المحصول الفياض من الزيت حدى بالطرابلسيين للاقبال على طبخ الصابون منذ امد بعيد . وكل سنة يطبخ من الصابون مقدار (١٢٠٠) قدراً (طبخة) . تنهى تلك القدور بالنطرون وقاربونات الصوده فى ظرف اربع وعشرين ساعة ، لا فى ثمانية او ثلاثة ايام كما هو الحال فى نابلس . وقيمة كل طبخة على الحساب المتوسط (١٢٠) ليرة ووزنها يقرب من عشرين قنطاراً . اما فى نابلس فان قيمة لطبخة (٢٨٧) ليرة ووزنها (٢٠ — ٢٢) قنطاراً . فاذا بيع القنطار بالف وخمسماية غرشاً وهو سعره المعتاد فى ايام

(*) عثرنا على جدول رأينا فيه ان حاصل الزيت فى مركز قضاء نابلس هو (١٥) مليون اقة ، لا (١٥٠) الف اقة كما بينا فى الصحيفة (١١٩) من كتابنا الاول . فايهما اصدق يا ترى ؟

السلم تبلغ قيمة الطبخه ٣٤٠٠٠ — ٣٥٠٠٠ غرشاً .ويكون ربحها المتوسط مقدار ٥٠ — ٧٠ ليرة [*] اما طبخة طرابلس ، فيزعم تجارها انهـا لا تربح اكثر من (٢٠—٢٥) ليرة [**] . وان ربع تلك الطبخات التى تبلغ فى عددها مقدار (١٢٠٠) واحدة يخص آل الذوق . والربع الآخر لاسرة عدره ، والربع الثالث لاسرة عويضة ، ثم ينقسم الباقى بين من يشتغل بتلك المهنة من التجار [***] .

وهنا ايضاً لا نرى اقبالاً على عمـل الصابون المعطر ؛ كما هو الحال فى نابلس . لو تباسر التجار الطرابلسيون الذين يسوقون الصابون الى مصر ، والاناطول ، وديار العجم والعراق ويحصلون على الارباح الجسيمة ؛ وجلبوا من اوروبا آلات تمكنهم من اعمال صابون الزينة باشكاله الظريفة لكانوا يربحون ضعف ربحهم اليوم .

[٧] -- **تجارة الحرير** -- ان صنعة الحرير هى من اهم منابع ثروة هذه البلدة وما زالت هذه المهنة معروفة فى طرابلس ولبنان منـذ القدم . ويروى انه كان موجوداً فى طرابلس قبل هجوم الصليبيين مقدار (٤٠٠٠) مصنعاً لنسج الحرير . اما اليوم فقد هبط هذا العدد الى (٢٠٠) .

تنسج هنا من الحرير المنـاطق الزرقاء الظريفة على تقليد الشال ، واقمشـة القمصان والحبرات الحريرية والمناديل والكلل (****) وغيرها من النسيج الحريرى . ومع ذلك فان مصنوعات الشام هى اظرف وامتن من هذه .

يحصل فى لواء طرابلس الشام والقسم الشمالى من لبنان كل سنة مقدار (٣٠٠) رزمة «بالية» من الحرير و(٢٧٠٠٠٠٠) كيلو من الشرانق . وكانت هذه البضاعة ترسل مباشرة الى معامل ليون . وقبل الحرب بسنتين شرع تجار الحرير ببيع عشر حاصلهم الى معامـل ايتاليا . وتباع فى فرنسة رزمة الحرير الطرابلسى الذى هو اقل ظرافة ومتانة من الحرير اليابانى والصينى بثمن يتراوح بين (٤٥) و(٦٠) فرنك .

وثمن الاقة من الشرانق يتراوح بين (١٨—٢٨) غرشاً . وتجـارة الحرير فى طرابلس هى فى ايدى الاسرتين الذوقية والعدرية . هذا وان اشتغل الطرابلسيون فى استحصـال الشرانق ؛ فان هذه الصنعة دانت لعادات لبنان وكادت تنحصر لهن . لان الفرنساويين الذين ادخلوا هذه الصنعة الى سورية ، اسسوا اكثر معاملهم فى لبنـان وعلموا اهليهـا

(*) راجع القسم الجنوبى ؛ ص : ١٢٠

(**) لا ننسى ان هذه الارقام تخص ايام السلم

(***) يزعم ويتال كينه ان مقدار الزيت فى طرابلس « ٢،٦٠٠،٠٠٠ » اقه ، ومقدار الصابون «٤٠٠٠٠٠» قنطارا فى كل سنة .

(****) جمع كلة ؛ وهى الستر الدقيق . م

تلك الصنعة . وان الصناعة الحريرية فى طرابلس اصيبت فى الزمن الاخير بالتقهقر والاهمال فاصبحت اليوم وهى على شفا التلاشى . وحماية هذه الصنعة التى تربح منها البلاد الارباح الوافرة ، هى من الوظائف المحتمة على الحكومة اليوم .

[٨] — خط الترام بين طرابلس والمينا — من المعلوم ان بلدة طرابلس تبعد عن فرضتها مقدار ثلاثة كيلومترات وكثرة المناقلات بين هاتين القصبتين قضت بلزوم تعبيد الطريق بينهما ليسهل النقل وعليه اسس هذا الطريق منذ نيف واربعين سنة . ثم ان مدحت باشا الذى كان وال فى الشام سنة ١٨٧٩ اراد ان يجعل نصيباً لطرابلس من آثاره العمرانية التى اوجدها فى عدة انحاء من سورية . ورأى لما مر بطرابلس اثناء تجواله كثرة الازدحام ، ووفرة المنقولات التجارية بين البلدة والمينا فشعر بضرورة تأسيس ترام يصل هاتين البلدتين. وعليه جمع اغنياء البلدة ، وجعلهم يؤسسون شركة لهذا المشروع رأس مالها عشرة آلاف ليرة ، فاصدرت تلك الشركة الفى سهم كل واحد بخمس ليرات . ومنحتها الحكومة امتيازاً بلا مدة . وان اغنياء المسلمين الذين وافقوا مدحت باشا على اقتراحه يومئذٍ لمجرد الاطاعة ، وكانوا على ريب من نجاح هذا المشروع ، ما لبثوا ان رأوا تلك المنافع العظيمة التى كانت لهم ولبلدتها ، فشهدوا بالفضل لذلك المصلح الشهير وقبل اشهار الحرب بمدة وجيزة كان يباع السهم من هذه الشركة بمبلغ (٣٧٠) فرنكاً . وكانت الشركة توزع على اعضائها كل سنة مقدار تسعة فى المأة من التمتع . وقد جلبت مهماتها ولوازمها حين التأسيس من بلاد انكلترة ، وبناءً على متانتها لم تزل تستعمل الى الآن .

نهض حضرة عزمى بك افندى والى الولاية العالى الذى هو تمثال العزم والهمة ، وعمد حينما كان متصرفاً فى هذه البلدة قبل خمس سنين الى توسيع نطاق هذه الشركة وقلبها الى ترام كهربائى . ثم ابلغ اسهامها من (٢٠٠٠) الى (٣٠٠٠) سهماً . واعلى قيمة السهم من مائة فرنك الى مائتين .

منحت ولاية بيروت تلك الشركة امتياز الكهرباء . وما لبثت ان عهدت بارسال آلات الجر الى معامل المانيا ودفعت نصف القيمة . ثم حملت تلك الآلات من مركبات على الطراز الحديث والاسلاك وقضبان الحديد على باخرة مخصوصة وسيرت من المانيا . ولكن ما كادت تصل تلك الباخرة الى الاسكندرية الا واشهر الحرب . فعطلت اسباب النقل البحرى ، ولم يتيسر لطرابلس ان تظفر بمشروعها الكهربائى . اما الاحوال المالية فى الشركة اليوم فهى على غير ما يرضى .

[٩] — **مستشفى عزمى بك** — ان طرابلس التى هى من ارقى البلاد السورية بلطافتها الطبيعية ، وبسعة تجارتها وصناعتها و كثرة حدائقها ورياضها كانت خلواً من مستشفى بلدى تتوفر فيه الشرائط الصحية ، وكان هذا نقصاً عظيماً فى تلك البلدة الكاملة . وعليه نهض حضرة ملاذ الولاية لما كان متصرفاً فى تلك البلدة لا كمال هذا النقص ، فرتب سباقين جمع فيهما مقدار ستمائة ليرة واعدها لنفقة تشييد ذلك المستشفى ولكن لم يلبث ان استقال من منصبه وغادر البلدة وعليه ادخل المبلغ المذكور فى ميزانية البلدية . ثم شرف حضرته بعد برهة الى طرابلس على سبيل الزيارة ، وآزر هذه المشروع بصورة غير رسمية حتى تمكن من طرح اساسه . ولكن ما كاد حضرته يغادر البلدة الا ووقف العمل على ما كان عليه ولم يشرع بتشييد هذه المؤسسة بصورة جدية الا قبل سنتين ونصف وقد امدت المحاسبة الخصوصية هذا المشروع الجديد بمقدار الف ليرة ، واشتركت بلدية طرابلس بهذا العمل على قدر وسعها المالى . فكان ذلك المستشفى اللطيف المنتظم ، ولم ينفق عليه الا « ٤٥٠٠ » ورقة نقدية . لا يمكن ان تزار تلك المؤسسة الخيرية التى اوجدها العزم المتين الجدير بالاجلال والتبجيل ، الا ويشعر القلب باحساس الامتنان والشكر الخالص لذلك الموجد المحترم ، ولمن آزر حضرته على القيام بذلك المشروع .

[١٠] — **المشاريع المالية والصناعية** — ما كان اصدق اقتصاديينا الفاضل اذ قال : اذا قنع اهل البلاد من فيض اراضيهم المنبتة بان يحصلوا بسعى يسير ، ونفقة طفيفة على ما يقوم سنة باحتياجهم الحياتى فلن يكونوا قادرين على الغنى بذاتهم ، ولن يغنوا بلادهم باعتبار المجموع ، ولا يستطيعون انقاذ انفسهم من الفقر والعجز ولا يرقون . وانهم لا جرم يعيشون ولكن عيش الذلة والمهانة . ولن يقدروا على تأمين الرفاهية لانفسهم ، ويكونوا على ضعف دائم ، وفى خسران وبيل بين من هو اقوى منهم من الاقوام الآخرين .

اما اذا استعمل اولئك القوم جميع وسائط الاستحصال ، وحصلوا على كل ما يمكن لهم الحصول عليه ، وخصوا انفسهم بما يقوم بحاجاتهم منه ، وبدلوا الباقى بما يستحصله غيرهم من الاقوام ، فحصلوا على كمالياتهم فلا يلبث وفرهم ان يتدرج بالازدياد وتكون لهم القدرة التامة فى الاقتصاديات .

ان المسلمين عموماً ، ومواطنينا خصوصاً . لم يزالوا مستسلمين الى العطالة الدائمة والكسل الاعمى منذ اربعة او خمسة قرون . ولا اثر اليوم لتلك المساعى البيضاء التى حفظها لهم التاريخ فى صدر الاسلام .

كل منا يرزح تحت اعباء ذلك الجهل الاسود الذى اخلده الى الارض وجعله لا يبغى حراكاً من الكسل . فما شأننا الا الاستهلاك فقط . اذهبوا الى اى بلدة اسلامية تشاؤنها ،

فترون سكانها يعيشون عيشة الطير ، ارزاقهم تجد بتجدد الايام. لا يفكرون بالغد مطلقاً ولو رمتم انذارهم يجيبونكم بان الله كريم ويلوون اعناقهم ، ويهزون اكتافهم كانهم يريدون اطلاعكم على وجوب التوكل . ولهذا لا ترون فى المحلات الاسلامية اثرا للعزم والنشاط. كلهم منغضون رؤوسهم فى جيوبهم كانهم يعدون دقائق حياتهم وان هذا الا بلاء عظيم . لان عصرنا بعيد عن المعنويات . هذه الحرب العامة التى ضمت حومتها العالم بامره واخذ فيها كل يحرص على الظفر بتضحية الحياة، لم تحمل بطون التاريخ الى الان مثيلها . وما كانت هذه المذبحة الانسانية الا لتأمين الظفر الاقتصادى وهذا صوت القيصر الالمانى يهتف بما قاله بعد نشوب الحرب ببضعة شهور ، بتلك الصواعق الحقة :

— الويل ، الويل لمن غلب ! !

يريد بهاتين الكلمتين ان يطلع ابناء وطنه على هول الموقف فى هذا الجدال الطاحن . تجولنا فى انحاء الولاية العام الماضى، وهذا تجوالنا الثانى ايضاً . فابكانا ما رأينا فى ابناء اوطاننا وجنسنا من الكسل وانفطرت افئدتنا لما رأيناهم ساهين عن الوظائف التى رمى بها هذا العصر الكادح كاهل البشرية اليوم . صعب على قومنا ما اظهرناه فى كتابنا الاول من التأثر الذى كان ناشئاً عن تلك الانطباعات المرة . وما كنا فى تلك الكرة الا منذرين لهؤلاء الذين اخذتهم غفوة الجهل وموقظين . وما اردنا بتلك الصيحة الشديدة الا تمزيق غشاء العطالة والمسكنة ، والصدع بتشريح ما حملنا اياه هذا العصر من الوظائف المعضلة الوافر . لكنها لم ترق فى عين بعض المستبدين ، ولم يستحسنها بضعة من المتغلبين الذين لا حظ لهم من الحق والحقيقة . لانها كانت عامةً تنصر الضعيف ، وتأخذ بضبع القرويين الذين هضمت حقوقهم وليس لهم من قوة ولا ناصر . دعهم يغضبون ويفعلون ما يشاؤن، فنحن دستورنا « قل كلمتك وامش » . نعم حملنا على العادات السخيفة حملة شعواء، وطعنا السيآت فى نحرها . ولكننا لم نضرب عن قيد المآثر الجليلة التى تلمحت لها افئدتنا وما زلنا نفرح بها ونفتخر .

ان الطرابلسيين مع انهم لم يخلصوا من تلك العطالة العقيمة ، لم يفتهم النجاح فى كثير من صفحات الحيات الاقتصادية فى بلدتهم. بل ان تجارة الحرير واعمال الصابون واستخراج السفنج ، وحتى ان المعاملات الصرافية ايضاً هى عندهم على ما يوجب الفخر والمباهات من الوسعة . ولا بأس ان نفصل نبذة من هذا الاجمال :

[١١] — **مصرف الذوق وعبد الواحد** — تأسس هذا المصرف سنة ١٨٩٣ برأس مال مقداره (١٠٠٠) ليرة فقط على شكل شركة متضامنة « قوللكتيف ». ولم يكن يومئذ غيره من المصارف فى طرابلس . فمشى المؤسسون بالصدق والامانة ، ولم يطل عليهم الامد حتى

توسعوا فى المعاملات الصرافية واحرزوا وكالة المصرف العثمانى وقره دى ليونه وقونتوار ناسيونال ده سقونت دوپارى ، ومصرف سلانيك وغيرهم من المؤسسات المالية . وعهدت اليهم الخزينة المالية وادارة الدخان وادارة المنارات (فنار) بنقل نقودها ايضاً .

تدوج هذا المصرف بالاتساع حتى اصبح وهو يدخل المشاريع التى تبلغ اضعاف رأس ماله . فكانت معاملاته سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ تبلغ فى كل شهر الى (٥٠) الف ليرة . وقد هبط هذا المقدار الى (٢٠) الف ليرة بعد ان اسس المصرف العثمانى ومصرف سلانيك فرعيهما فى طرابلس، ولكن ما زال ذلك المصرف مثابراً على عمله بتلك الهمة العالية وخادماً لمؤسسيه والتجار الوطنية معا .

كان مقدار القطع «اسقونطو» الوسطى فى هذا المصرف ثلاثة من المأة ، ومقدار الفائض فى الاقراض تسعة منها . ويمكننا ان نقول ان ثلاثة ارباع ثروة الاسرتين ، الدوقية والواحدية ، منقولةً كانت او غير منقولة هى من ارباح هذه المؤسسة المالية وريعها . وبما ان المصارف هى من المؤسسات الاعتمادية ، يجب فيها ان تكون محلاً للاعتماد بكل معنى الكلمة . والا فلا حياة للمصارف التى لا تكون حائزة على هذا الشرط. فالجدية والامانة والصدق هى بمثابة الروح لهاتيك المؤسسات . واقل شبهة توجب الشك ، او الاخلال بالقيام بالمهود يقضى عليها بالفناء العاجل . ان مؤسسى هذا المصرف كانوا على بصيرة من هذه النقاط . وعليه لم يألوا جهداً فى القيام بوجائبهم حتى فى احرج الظروف ولما استولى الارمنيون على المصرف العثمانى فى دار السعادة وذلك سنة ١٨٩٤ تنحى مصرف الذوق ودفع جميع ديون فرع المصرف العثمانى فى بيروت بظرف احد عشر يوماً رغماً عن البحران الهائل الذى كان سائداً يومئذٍ لسبب تلك الحادثة . وهذه الهمة التى تكللت بالنجاح كانت سبباً لسمو مقام هذا المصرف فى نظر التجار والاهالى ، ولاسيما المصرف العثمانى فانه ما فتئ منذ ذلك اليوم مجازفاً باعتماده على هذا المصرف وامنيته له .

[١٢] — **معمل الاثاث** — ان هذا المعمل الذى اسسه الشاب رفيق افندى الفتال للتنجيد والتجارة. فيه آلة تتحرك بالكاز بقوة عشرين حصاناً تتألف من محرك ، وعشرين آلة غيره . وقد جلبت هذه الآلات من اشهر المعامل الاوروبية وهى صالحة لعمل كل ما يلزم البيوت من الاثاث والفرش على اتقن وامتن طراز . ولهذا المعمل دوائر اخرى تشتغل بصنع الكراسى وصناديق الليمون . اسس هذا المعمل سنة ١٩١٠ برأس مال قدره (٣٠٠) الف غرش . ثم ضوعف هذا المبلغ وكان (٤٠٠) الف ووسع نطاق المشروع . ولكن لم يلبث ان اوقف عمله فى اول سنة اشهر فيها الحرب .

كان يوجد فى هذا المعمل اكثر من ستين عاملاً تتراوح اجوراتهم اليومية بين الخمسة

والعشرة غروش ومعظمهم كان من المحليين الذين تعلموا الصنعة بدوامهم على المعمل . ولكن لم يكن ذلك الا بعد سنتين من افتتاحه . اذ ما كان يومئذٍ في طرابلس عمال يحسنون القيام بتلك المهنة ، فاضطر صاحب المشروع الى جلب العمال الذين تخرجوا في معامل مصر وبيروت من اللبنانيين والبيروتيين .

بدأ صاحب المعمل ببيع مصنوعاته في طرابلس ولبنان . ثم توفق لسوقها الى اللاذقية قبل الحرب بسنة وحصل بذلك على ارباح لا باس بها . ثم شرع بتأسيس فرع في حمص وبوشر بالعمل فيه . ثم ترك لما وقف المركز عن العمل

وقد خدم هذا المعمل خدمةً مبرورة في بلدة طرابلس لان جميع صناديق الليمون كانت تصنع فيه ، والاثاث البيتية هناك ايضاً كانت تصنع فيه على احدث الطراز ، وبنصف القيمة بالنسبة الى مصنوعات البلاد الاجنبية . وبهذا دخل الذوق السليم في فرش البيوت في طرابلس ، ثم سرى هذا الانتظام الى المخازن ايضاً فكانت منه على حظ عظيم . فالمفروشات وخزانات البللور الموجودة في اعظم المخازن كانت من صنوعات هذا المعمل . وخدم هذا المعمل لرواج الصنعة لانه اقتنى كثيراً من العمال الذين كانوا محرومين من كل مهنة ، وعلمهم هذه الصنعة التي تكفل لهم الحصول على اسباب المعيشة ، وتخلصهم من البطالة والفقر . فيجب علينا جميعاً ان نحبذ على هكذا مشاريع صناعية . ويجب ايضاً ان نقبل على هذه المؤسسات ونفرش الدوائر والابهاء الرسمية من مصنوعاتها . لان الوطن لا يرقى الا بقيام ابنائه في هكذا مشاريع وتمتعهم بالربح الوافر .

***

يوجد في طرابلس ما عدا هذا المعمل معمل آخر للاثاث وآخر للثلج وواحد لصنع الكازوز . فمنها الاول يتألف من محرك بقوة اثنى عشر حصاناً ، ومن ثماني آلات مختلفة . وقد اسسه الشيخ محمد افندي الشهال سنة ١٩١٠ ، وكان رأسماله في بادئ امره ٤٠٠٠٠ غرش ثم ما لبث ان صار (١٠٠) الف . وان محمد افندي صاحب هذا المعمل لا يزال معروفاً باتقان صنعة الآلات والادوات الدقيقة وقد صنع بيده بعض آلات تفيد لتربية دود القز ، ومنح بالوسام الذهبي لاجل تلك المهارة . وله اليد الطولى بعمل الاشكال المتعددة من الصابون ، وصنع الآلات الدقيقة التي يحتاج لها المعمل . وما زال معمله مثابراً على العمل الى بعد اشهار الحرب بسنة ثم اضطرته الاسباب الاقتصادية على توقيف العمل .

اما معمل الثلج والكازوز فقد اسسهما رجل لبناني يدعى راجي افندي دانيال سنة (١٩٠١) ولم يزالا في العمل الى اعلان النفير العام . ثم ابتاعهما منه رفيق افندي صاحب معمل الاثاث . وكان هذا المعمل يتالف من محرك ابتاعته الادارة العسكرية قوته اثنى عشر حصاناً

ومن آلتين لعمل الثلج والكازوز وكل آلاته كانت كاملة وهى على اكمل واحدث نسق.وكان يصنع كل يوم مقدار اربعة آلاف كيلو من الثلج . وبناءً على فقدان الآمونياق (النشادر) والكاز اصبح اليوم معطلاً عن العمل .

٤ — الاحوال الاجتماعية فى طرابلس

[١] — **طبقات الاهالى ، ونسق المعيشة** — يمكن ارجاع الطرابلسيين الذين يبلغ عددهم ثلاثين الفاً ؛ الى ثلاثة اقسام من الوجهة الدينية ، الاسلام والنصارى واليهود . وبما ان اليهود لا يتجاوزون السبعين فى عددهم ، فلا يكون لهم موقع فى ذلك المجموع الضخم ، والنصيريون المعدودون فى القيود الرسمية من المسلمين لا يتجاوزون العشرات فى عددهم . ولهذا لا نجد لزوماً لاعتبارهم قسماً منفرداً .

وعليه نضطر فى تدقيق الطرابلسيين الى ان نرجعهم الى قسمين كبيرين ، المسلمين الـذين والنصارى الذين يتالفون من مختلف الطوائف .

ان المسلمين فى طرابلس ، كما مر علينا فى جدول النفوس هم اربعة امثال النصارى فى العدد او بالاوضح ؛ ان اربعة اخماس الطرابلسيين مسلمون ، وخمسهم نصارى .

ويمكننا تقسيم المسلمين الذين يتجاوزون فى عددهم عشرين الفاً الى ثلاث طبقات مستقلة ؛ ولقد يمكن تقسيمهم باعتبار الغنى الى اغنياء ومتوسطين وفقراء ، على ان الاوصاف الاساسية الظاهرة المستبينة تسوغ لنا مع قليل من التسامح لان نقسمهم الى تجار ، وزراع ، وصناع .

فالاغنياء الذين تتألف منهم الطبقة الاولى او قسم التجار ، وان كان لاسرهم عنوان لم تزل تتوارثه منذ احقاب وقرون ونسب طوق بهالة من الاصالة والشرف ، بيد انهم ليسوا على تصلب فى السؤدد كتصلب سكان البلاد المتحادة عن اقصى العمران بما انتقل اليهم من الرياسة التى مزجت بالظلم والجور . ولا بد لنا من البحث عن هذه النقاط وايضاحها مع بيان مؤثراتها .

نعم يوجد فى طرابلس بضع عشرة من الاسر العريقة فى القدم ، والمعروفة بالثراء الحقيقى . ويمكن ايصال سلسلة النسب فى اقدم هذه الاسر الى خمسة او ستة قرون — كما يزعمون — . ويوجد منهم مقدار اسرتين او ثلاث . ثم توجد ثلاث او اربع اسر من اللاتى اربت سنيهم على ثلاثة او اربعة قرون . ثم يأتى بعد هؤلاء من يرجع بنسبه الى قرنين ، ثم الى قرن واحد وبعدهم من لم يتجاوز عمر اصالتهم خمسين او ستين عاماً ويوجد بينهم بضعة اشخاص ممن لم تعرف لهم ذكرى الاصالة فى الماضى ، ولكنهم سعوا

بانفسهم وحصلوا على الثروة الطائلة فى هذه الايام ، وها هم مرشحون اسماؤهم لتكون لاخلافهم عنوان اصالة وشرف .

من هؤلاء المثريين الذين ابلغنا عددهم الى خمسة عشر ، من تتراوح ثروته بين (١٠٠) و(٢٠٠) الف ليرة ، ومنهم من لا تتجاوز ثروته بضع آلاف من الليرات وعلى هذا يمكننا ان نقدر ثروة اغنياء طرابلس ببضع مآة الف من الليرات.

ثم ان الاموال غير المنقولة التى يملكها منتسبو هذه الطبقة ليست بقليلة . فمنهم من تقدر املاكه بمائة الف ليرة ، واقلهم ملكاً لا تنقص املاكه عن قيمة بضع آلاف من الليرات . وان مجموع قيمة هذه الاملاك هو لا جرم اعظم بكثير من مجموع الثروة النقدية .

وقصارى القول ان من الاسر الغنية فى طرابلس من يكون دخلهم السنوى بمقدار عشرين الف ليرة ، ومنهم من له مبلغ الف او الفين .

ثم ان جميع هذه الاسر الغنية تشتغل بالتجارة والزراعة ، ولاسيما بالفائض . ولذلك يمكن ان نسميهم تجارا بالمعنى العمومى . لان الارباح التى تحصل من الصابون والزيت والحرير والغنم والحبوب وامثالها من المواضيع التجارية هى اعظم بكثير من ارباح الزراعة ودخل الاراضى . حتى انه يوجد فى طرابلس من اسس مصرفا ، واخذ يصطاد به الارباح الجسيمة .

ان هذه الثروة التى حصل عليها اغنياء طرابلس ، لم تكن ناتجة — كما يفهم مما اجملنا فى هذا البحث — الا عن المساعى البالغة التى اشغلت السنين الوفيرة . وليس من دليل يدل على انهم طغوا وبغوا على مساكين الفقراء ، وهضموا حقوقهم كدأب بعض الظالمين الذين تغالوا بالاعتساف والعتو ، ومثلوا ادوار القرون الوسطى حيث شيدوا بنيان عزهم وشرفهم على رفات المظلومين وبحياتهم . هذا وان شفت الرواية على اندماج عنصر الحرام فى رشم تلك الثروة ، وذلك بالتهام الاوقاف الطرابلسية التى ذهبت ايدى سبا ، فلا نكران لما كان من المساعى البالغة لتوسيعها وتزييد مقدارها اضعافاً مضاعفة .

ان طرابلس بموقعها الطبيعى والجغرافى ، هى بلدة خلقت للتجارة . ولذلك فقد سلك اكثر اسرها هذا السبيل . واذ ان التجارة هى اسهل من الزراعة ، يكون اصطفاء الطرابلسيين لها امراً طبيعياً ايضاً .

وبما ان اكثر المتنفذين فى بلادنا يكونون من ارباب الارضى ، ومنسوبى الزراعة . فلم تخلق فى طرابلس هكذا طبقة بالنسبة الى البلاد الداخلية . لاسيما وان طرابلس بلدة ساحلية تختلط جميع طبقاتها ببعض ، ويخدم هذا الاختلاط لتنوير الافكار اكثر مما عليها البلاد الداخلية . وبه لم نكد نجد فيها اولئك المتسلطين النافذين .

وهناك بعض اسباب اخر تصد ارباب الاراضى والزراعة فى طرابلس عن التسلط والاستبداد ، فمنها شدة الطبع التى فطر عليها اهالى الملحقات ولاسيما زراعهم . ثم وجود من يقتدر على التسلط والنفوذ فى الملحقات اكثر من الطرابلسيين ، واننا سنبين رأينا فى هؤلاء الزمر اثناء البحث عن قضاء عكار وحصن الاكراد .

وقصارى القول ان هذه الطبقة الاولى تختار الحياة الهادئة ، والعيشة الساكنة فى المنازل الفخمة البديعة ، وتبتعد عن كل ضجة وجلبة . وان لاكثرهم الرياض الغناء والحدائق اللطيفة فى جوار البلدة يمضون فيها سويعات اللهو والطرب . فيذهبون اليها حينما يشاؤون ويحصلون منها على بعض حاجاتهم البيتية ايضاً . وعليه فان علاقتهم بالتراب لا تزيد عن هذه الدرجة .

ان اكثر الاغنياء الطرابلسيين اقاموا لانفسهم القصور المشمخرة ، او المنازل الظريفة ، المشيدة على احدث نسق فى الطف البقاع من البلدة او المينا . ومنهم من لا يزال مقيماً فى القسم القديم من البلدة ، لاتؤلمه تلك البيوت الشامية بطرقها المعقدة . وبعفونتها المزعجة ، وبخلوها عن الهواء النقى .

وعلى الاجمال ان طرابلس بسبب وجودها فى الساحل ، وقربها من بيروت ، وكثرة الاختلاط ، لم تكد حياة اسرها الكبيرة تخلو من تحول محسوس — ولو كان قشرياً — وتجدد منظور . ويشاهد هذا التجدد فى مبانيهم وفى ترتيب داخل بيوتهم ، وفى لباس رجالهم ونسائهم . هذا وان يكن ليس لاكثر هؤلاء الاغنياء شىء من الانتباه الفكرى الذى يستند على العلم ، ولم يتمكن نور العلم من انارة طائفة نسائهم ؛ فلا ينكر على اولئك العريقين ميلهم فى الظاهر الى التجدد ، وبعضاً نجاحهم فى الوصول اليه .

ومن جهة اخرى — كما سنفصل بعد — وان لم يكن الشبان الذين تخرجوا فى المدارس وكونوا الحزب المنور فى تلك البلدة ؛ من منسوب الطبقة الاولى — ما عدا بضعة اشخاص — فهذا لا يسوغ ان يكون دليلاً على رغبة الاغنياء عن تعليم اولادهم وتنوير افكارهم ، يمكننا التسليم بانهم ميالون الى التجدد والتعلم . ونضطر الى الاعتراف بوجود الامساك والاقتصاد التجارى فى كمية ذلك الميل . ولا جرم لو شاء اركان هذه الطبقة ، لكان لهم النجاح الاعلى فى العيش المرتب والحياة العمومية الداخلية ، ولم يلبثوا ان يقبضوا على محور العلم والعرفان وينالوا الحياة المدنية الحقيقية ، كما بسطوا ايديهم الى محور التجارة منذ نصف قرن ، واستطاعوا الاستحواذ عليه بالجد والاهتمام . ولكن مع الاسف ان ذاك النور الذى ما زال يحوم فى آفاق طرابلس . ويرفرف على سنام قصورها ، لم يستطع بعد ان يلج هاتيك القصور ، او ينفذ الى تلك الادمغة . واننا لنرجو حصول هذه الامنية فى القريب العاجل .

*
* *

اما الطبقة الثانية : ويمكن ان نسميها « المتوسطة » او مع قليل من الاغضاء — كما بينا سابقاً — نطلق عليها « طبقة الزراع » .

نعم ان منسوبى هذه الطبقة هم الاوساط بالمعنى الحقيقى . ودخلهم السنوى اقله مأة ليرة ، واعظمه خمس او ستمائة ليرة ، وهم السواد الاعظم فى هذه البلدة . وان لهذا الدخل مصادر مختلفة ، فمنهم من يشتغل بطبخ يسير من الصابون وبيعه . ومنهم من يتاجر فى الحب او الحرير وغيره ، ومنهم من له مخزن يبيع فيه الاقمشة ، ثم الذين يشتغلون فى بساتين الليمون ، او بالاحرى فى الزراعة . وكلهم من المتوسطين .

ولا يفهم من تعبير المتوسط فى طرابلس ، الا هؤلاء الزراع ، اصحاب البساتين وتجار الليمون .

وهذا يدلنا على ان الطبقة المتوسطة تفترق عن الطبقة الاولى بان عنوان اسرها اقل اشتهاراً ، وهى اقل مالاً ، ومشاغلها التجارية متنوعة ومختلفة بصورة تستلزم السعى الشخصى . ولا جرم ان هذه الطبقة احط من الطبقة الاولى بمنازلها وكسوتها ، وبنسق معيشتها . واكثرهم يلبس فى رأسه طربوشاً قصيراً ويتعمم بعمامة بيضاء خالصة او منقوشة بالحرير . ولهم سراويل من الجوخ الرصاصى ، فوقه صدار من قماش ثم جبة من جوخ .

ومن العجب ان هذه الزمر المسرولة المتعممة ، هى ادنى واحط من ارباب الطبقة الاولى فى العلم والمعرفة ، ولكن الشبان الطرابلسيين المتخرجين فى المدارس ، وارباب الفكرة العلمية هم من اولاد هذه الطبقة . ولا جرم ان هذه الحركة العامة فى الناس ، وميلهم الى العلم هى جديرة بالاستحسان .

*
* *

اما الطبقة الدنيا التى تتألف من الصناع والعمال ، فهى صنف الفقراء . وهؤلاء يشتغلون فى النوتية وصيد السمك والحمل ، او يكونوا عمالاً فى الانشاآت ، او اعداد البساتين ، او يشتغلون ببيع البقول او غيرها من الاعمال التافهة التى يحصلون منها على اقواتهم اليومية بشق الانفس . ويبلغ عددهم الى قريب من ثلاثة آلاف .

وهؤلاء يسكنون فى اسوأ المحلات الطرابلسية . ويكونون فى حالة السعى الدائم ليتيسر لهم تأمين العيش . ويلبسون فى رؤسهم قبعات من صوف طويلة ترابية اللون ، وسرابيل باليات ثم السراويل ، وفى ارجلهم العراة حذاء ممزق . اما نساؤهم فانهن فى الحد الاقصى من سوء الحال والمذلة .

ومع هذا فان الفقير لا يعدم هناك تأمين معاشه ببذل بدل يسير ، لان البلدة ذات

فيض عميم وخير وافر . ولا بد ان يجد كل واحد منهم شغلاً يشتغل فيه ، ولهـذا لا نرى منهم احداً يسقط فى الذل والمهانة مهما كان فقيراً . وان الحرب التى حطمت بصولتها البلاد فى هذه السنين الاخيرة لم تدهمهم الا بقليل من ويلها .

اذا اردنا ان نجمل ما فصلنا الى الآن نقول ان فى حياة طرابلس الاجتماعية لطبقات المسلمين ، بعض آثار تطمن القلب ، وتعد اولئك السكان الذين اكثرهم من المتوسطين ، بآت ينطوى على آمال عالية مفيدة .

*
* *

بعد ان بينا رأينا فى الطائفة الاسلامية فى طرابلس ، نرى من الواجب نقل البحث الى الطائفة المسيحية . ان ثلثى المسيحيين الذين هم خمس السكان فى طرابلس ، هما من الروم الاورتودوكس ، اما الثلث الآخر فهو من المارونيين والكاثوليك واللاتين والبروتستانت . ويزعم بعض افراد الطبقة المنورة منهم ان تاريخ الطائفة النصرانية فى طرابلس قديم جداً . ويروى عن بعض الاسر النصرانية المعروفة انها من احفاد الغسانيين . ومع ذلك فان فى طرابلس من النصارى الذين جاؤها من الخارج وتوطنوا فيها ، ثم يوجد بينهم جالية اليونانيين الذين اختاروا الاقامة فيها ، وكادوا يكونون من الوطنيين .

يقيس بعض الباحثين الحالة الاجتماعية والتجارية فى نصارى طرابلس قبل خمسين سنة بحالتهم اليوم ويزعمون انهم اصيبوا بانحطاط محسوس . ويفيضون بتعليل هذا الانحطاط وتشريح اسبابه :

كانت التجارة قبل نصف قرن فى ايدى النصارى . وكانت ثروتهم فى ذلك الزمن بالغة جداً . اما المسلمون فكانوا ارباب حقول ومستغلات . ولم يكن لديهم شئ من النقد . ثم شرعوا باستقراض النقود من النصارى واخذوا يتعاطون التجارة . وما لبث اغنياء النصارى ان اهملوا التجارة مستندين على ثروتهم النقدية الطائلة وربحها الوافر ، وامعنوا فى اقراض النقود بالفائض الفاحش ، وانغمسوا فى مسائل الصرافة ، حتى غشيهم البحران المالى سنة ١٨٧٢ ودام خمس سنين ؛ ثم انضمت عليه اسباب أخر حتى خسر المسيحيون اموالهم ولم يبق لديهم طول للنهوض من هـذه العثرة . وكان عددهم قليلاً ، وغادر بعضهم طرابلس مهاجراً الى مصر . وبهذا خلى الجو للمسلمين وخلصت لهم امور التجارة فانفردوا فيها ، ومن ثم كانت فى ايديهم ولم تزل .

والان لا يزال بعض الاسر المسيحية من الطرابلسيين فى مصر يتعاطون التجارة ، ولديهم من النقد ما يفيض عن بضع مآة الف من الليرات . وان ما يرى اليوم من الثروة فى ايدى الاسر المسيحية فى طرابلس هو من الثروة التى تكتسب فى الخارج وتدخل الى طرابلس . والا فان عالم الصرافة الاسكندرية قد اباد ثروة نصارى طرابلس منذ امد بعيد .

يمكننا هنا ان ندقق ما يملكه المسلمون والمسيحيون فى طرابلس من الاموال المنقولة وغير المنقولة ، ونستنبط منهما اجمالاً ، او بالاجدر نعدل بينهما قياسا .

اذا كان مقدار الثروة النقدية ميليوناً من الليرات على التخمين فان عشرها اى مائة الف ليرة منها فى ايدى المسيحيين . على اننا لو نظرنا الى مقدار النفوس لرأينا من الواجب ان تكون تلك الثروة ضعف ما هى عليه . ولهذا السبب نلم ان المسيحيين على تأخر .

اما الاموال غير المنقولة يجب ان تقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول زيتون طرابلس ، والثانى البساتين ، والثالث العقارات والمسقفات .

اذا قدرنا قيمه الزيتون فى طرابلس بثلاثماية الف ليرة ، يكون منها مقدار ثلاثين الف ليرة ، اى عشرها فى ايدى المسيحيين . وهذا قليل ايضاً . اما قيمة البساتين فانها تقدر باكثر من نصف ميليون ليرة . وحظ المسيحيين منها مقدار عشرة آلاف ليرة فقط . وعليه تكون نسبتهم الى المسلمين واحداً من ستين . ولا حاجة للاشارة الى قلة هذا العدد .

اما العقارات والمسقفات ، فان قيمتها بالنظر الى القيود الرسمية ، هى نصف ميليون من الليرات ، ولكن حقيقتها تربو على ميليون ونصف . والذى فى حوزة النصارى منها يقرب من الخمس ، اى مقدار مائتين ، او مائتين وخمسين الف ليرة . وهذا يدلنا على وجود التوازن فى هذا القسم من الاموال بين المسلمين والنصارى .

*
* *

وبعد هذا الاجمال فى الحالة المالية بين المسلمين والنصارى ننتقل البحث الى طبقات النصارى وحالتهم الاجتماعية .

نستطيع تفريق النصارى ايضاً الى ثلاث طبقات ، كالمسلمين ، الاغنياء ، والمتوسطين والفقراء .

ان اغنياء النصارى عبارة عن ثلاث او اربع اسر . وتقدر ثروة كل منها بخمسين او ستين الف ليرة . اما حياتهم الاجتماعية والعائلية هى ارقى بكثير من حياة امثالهم ، وحتى من فوقهم بالغنى من المسلمين ولربما يكون اطلاعهم على اللغات الاجنبية هو الذى قربهم الى المدينة ، وربطهم بها .

اما موقعهم الاجتماعى فانه مكين وسعيد لان الرجال والنساء من منسوبى هذه الطبقة كل له نصيب من نور العلم والمعرفة .

اما الطبقة المتوسطة المسيحية ، فيكاد يدخل فيها جميع المسيحيين هناك . وهم يدأبون لتأمين معاشهم بتعاطى التجارة او معانات الحرف وغيرها من وسائط المعيشة . وهؤلاء ايضاً يرجحون على غيرهم من المتوسطين ، ان لم يكن بالعلم فبانتظام العيش .

وكسوتهم ميالة لان تكون غربية الشكل . على ان الغرائز الشرقية ما زالت مستأصلة فى طباعهم . وما كان نساؤهم يدخلن الاسواق الا بازر يسمونها الحبرات ، حتى العهد القريب والان ايضاً يعثر على بقية لهذه العادة . وهم مربوطون برجال دينهم ومعابدهم ربطاً وثيقاً .

ويمكننا ان نصف طبقة الفقراء منهم بهذه الاوصاف العمومية التى لا يشذ عنها نصرانى . على ان طبقة الفقراء بين النصارى محدودة . وفقراؤها قليلون جداً . وهم عبارة عن بضعة اشخاص من المارونيين وما زالوا يتدرجون فى التناقص .

ونفهم مما شرحنا ان نصارى طرابلس ايضا ليسوا على شئ من آلام الحياة والمعيشة . فعليهم ان لا يكونوا فى ريب من الآتى .

[٢] — *الارقام الاجتماعية* — نريد ان نثبت ما عثرنا عليه من الارقام الاجتماعية قبل ان نختم كلامنا فى البحث عن احوال طرابلس الاجتماعية والعمومية .

يجب فى هكذا ارقام ، يستند عليها فى القياس وابداء الرأى ، انتكون ذات قيمةعلمية ، او بالاوضح ، ان تكون محرزة بالوسائط الكاملة والصحيحةالمستندة على المعلومات الصادقة وتتناول مختلف الازمنة لتكون اساساً للمقايسات الاجتماعية . واننا نرى جميع ما عثرنا عليه من هذه الارقام لا يخلو من ان ينقصه شرط او شرطان ، او كثير من هذهالشروط المحتسة . ما جال فى خاطرنا الى الآن احصاء الحادثات الاجتماعية بالارقام . وما اثبتنا هذه الارقام — مع اعتقادنا بعدم صحتها — الا لسببين :

الاول — اطلاع القراء على بعض الارقام الاجتماعية ، ولو كانت ناقصة

الثانى — ايجاد جريان احصائى يكون وسيلة لدفع هذا النقص فى المستقبل ، وتمهيد السبيل له . وبهذين السائقين الذين يتناول احدهما المبدأ ، والثانى الغاية ، آثرنا ان نثبت هذه الارقام التى هى جزؤ من الاحصائيات الاجتماعية . على علاتها :

[القتل والقاتلون] — رأينا فى جدول حصلنا عليه انقد حدث فى طرابلس وتوابعها من هذه الجرائم (٢٢) ، سنة (٣٣٠) و (٩) ، سنة (٣٣١) و (٢٦) ، سنة (٣٣٢) . وان سقوط عدد هذه الجرائم من (٢٢) الى (٩) سنة (٣٣١) يمكن ان يفسر بالارتباك الحياتى الذى حصل فوريا بسبب اعلان النفير العام . ورجوع هذا العدد الى نسبته القديمة سنة (٣٣٢) يؤيد رأينا .

لم يمكن ايضاح اسباب حدوث هذه الجرائم . ولكن كان بالنظر لمجموعها فى السنين الثلاث ، وهو (٥٧) حادثة ؛ منها (٢٦) ناشئة عن العداوة و (٣١) عن اسباب متنوعة . ونرى ان هذين العددين مخنوقين بالابهام ، والبكم .

اما شخصية القاتلين فيمكن تعينها . ان (١٧) من (٥٧) فى السنين الثلاث كانوا من العزاب و (٣٦) من المتأهلين و (٤) من الارامل . ثم من جهة المهنة ؛ منهم (٤٢) من الزراع و (٧) من العمال و (٨) من ارباب الحرف ثم الذين يحسنون القراءة والكتابة بينهم (١٠) والاميون (٤٧) .

(الجنايات والجنح) — حدث فى لواء طرابلس سنة (٣٣٠) ، (١٤٤) وسنة (٣٠١) (١٦٠) وسنة (٣٣٢) ؛ (١٦٦) جناية . ونرى ان هذه الجرائم محافظة على نسبتها ، وهذا يدلنا على ان الجنايات تقع فى هذا اللواء فى كل يومين مرة .

اما الجنح — فعددها (٨٢٣)، سنة (٣٣٠) و (٩٢٠) سنة (٣٣١) و(٩٣٧) سنة ٣٣٢ وازدياد العدد على تداول السنين يجب حمله على كثرة السرقات بسبب ضنك العيش . وعلى هذا الحساب يكون عدد هذه الجرائم فى طرابلس كل يوم (٢—٣) . واذا نسبنا هذا العدد الى مجموع السكان نجد ان كل واحد من ثلاثين تصيبه جنحة فى السنة .

[النكاح والطلاق] — ان المسلمين فى مركز طرابلس الذين تزوجوا بعد استحصال الاذن من المحكمة الشرعية وفقا للقانون كان عددهم سنة «٣٢٨»، «٨٤»، وسنة «٣٢٩» ، «١٠٢» وسنة «٣٣٠» ، «٢٩» وسنة «٣٣١» ، «١٧» وسنة «٣٣٢» ، «١٢» . ونرى من هذه الارقام ان الزواج فى السنين الثلاث الاخيرة ، انخفض الى عشر ماكان عليه من قبل . ولا جرم ان هذا التخفض ناشئ عن وجود الشبان فى الخدمة العسكرية . اما الطلاق ، فقد حدث منه «١٩» حادثة فى سنة «٣٣٢» ، ولم يمكنا الاطلاع على حادثات السنين الاخرى ، ولذلك لانجد مجالاً للتكلم عنه .

[السجناء] — يوجد فى طرابلس «٢٦٠» سجيناً و«١٠» من النسوة السجينات . ثم لم يتكن الاطلاع على عددالسجناء فى السنين الاخرى . وهؤلاء السجناء يمكثون فى السجن، ويأخذون نصيبهم من البطالة والكسل .

[المتأهلون والعزاب] — لم نستطع ان نطلع على كمية المتأهلين ، ولا العزاب . ولكن يزعم ان «٤٠» فى المائة من الذين يتراوح سنهم بين «١٥» و«٢٥» ، هم متأهلون و «٦٠» فى المائة منهم عزاب .

[العائلات] — يظن ان سكان طرابلس تتألف من «٥٠٠٠» عائلة ، وربع هذه العائلات تتألف من سبعة اشخاص وا كثر ، وافراد الباقى اقل من هذا العدد .

[مايتعلق بالمدات] — وجد بين اللدات التى حصلت فى ظرف خمسة سنين «١٣» توأماً من الذكور و«٥» من الاناث .

اما عـدد اللدات المجهولى الوالدين فهو «١٠» من الذكور و«١٥» من الاناث انشاء خمس سنين .

[مايتعلق بالنفوس] — لم يمكنا الاطلاع على عـدد التجار والزراع ، والعمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية بين سكان طرابلس ، ولكن يزعم ان عد ارباب الاملاك هو « ٢٥٨٠ » وبهذا يكون عشر السكان من ارباب الاملاك .

[ذوو العاهة] — يوجـد فى طرابلس من العمى والصم والبكم ، عشرة من كل صنف

[اشياع الطرائق] — يروى عن وثوق ان فى طرابلس كثير من اشيـاع الطرائق المختلفة . فاتباع الطريقة « الخلوتية » [٤٠٠٠ — ٥٠٠٠] شخصاً ، واتباع الطريقـة القادرية مثلهم واتباع الرفاعية «١٠٠» ، والشاذلية « ٣٠—٤٠ » والنقشبندية «١٠—١٥» شخصاً . فاذا سلمنا بصدق هـذا الحساب ، يكون جميع الرجال فى طرابلس منتسبين الى الطرائق .

[٣] — العادات الاجتماعية — ان لكل من الطائفتين ،الاسلامية والنصرانية فى طرابلس عوائد ، وتقاليد اجتماعية تختص بهـا ، وهى منفصلة عن بعضها . وان هذه العـادات والتقاليد فى الفريقين مقتبسة عن غيرهم ؛ مثلا ان طرز المعاشرة ، وغيرها من المناهج الاجتماعية عندهم ، هى على عين ماهو معروف عند اسلام بيروت ، ونصارى القسم الشمالى من جبل لبنان المجاور لطرابلس ، او هى قريبة منها . وان المناهج الاجتماعيـة فى مسلمى سورية تنقسم الى ثلاثة اقسـام ، الاول يختص بسكان السواحل والمدن ، والثانى بسكان الداخل والقرى ، والثالث بالعشائر . ولهذا السبب فان العادات ، والتقاليد الموجودة فى بيروت وصيدا مثلاً . توجد مع يسير من الفرق فى طرابلس واللاذقية ، وحتى فى الشام ايضاً . وفى القرى الداخلية ايضاً يسود عين الدستور ، فترون العادات الموجودة فى احدها متفشية فى سائر القرى بفرق يسير بصورة تحصل من هذه المماثلة وحدة يمكننا ان نسميها « الخلال القروية » .

على اننا نجد العادات الاسلامية فى سورية مدنية كانت او قروية كلها تستمد اساسها من الشام ، تلك البلدة القديمة التى هى ام عوائد هذه البلدان . فاذا شئنـا استقصاء العوائد الاجتماعية فى سورية لانجد لها مصدراً اساسياً الا الشام . اما البـلاد الاخر فتكون بمثابة الفروع الكبيرة والصغيرة . وحتى ان عوائد القرى والقرويين كلها ملهمة من هذا المركز الحافل . واما الفروق التى يعثر عليها هناك فى هذا الخصوص هى من تأثير تقالـيد العشائر البدوية وعوائدهم لان عوائد تلك العشائر هى على بون شاسع عن العوائد العريقة فى المدنية . وخلاصة القول ان بين البلديين المدنيين ، وعشائر البدو من سكان سورية فروق اساسية

بالنظر الى العوائد الاجتماعية اما عادات القرويين فهى قائمة بين هاتين الطائفتين وهى الحد الفاصل بينهما ولهذا يكون لها نصيب من كلتى الجهتين .

لهذا السبب يجب حين البحث عن العادات الاسلامية فى طرابلس الشام ان نلتفت الى عادات الشام ، او على الاقل بيروت ؛ وننظر الى عادات بيروت ايضاً ، ولا سيما لبنان فى البحث عن عادات النصارى وتقاليدهم الاجتماعية . واننا الآن نرجئ التكلم عن هذه النقاط الى بحثنا عن عوائد بيروت الاجتماعية . ونكتفى الآن بقيد النقاط الخصوصية التى عثرنا عليها فى طرابلس .

*
* *

لا اثر فى طرابلس للاشكال بخصوص انتقاء الازواج . ولا تصلب بين طبقات الاهالى على بعضهم فى مسائل النكاح . وان وجد بضعة اسر لاتنكح الا من افرادها ، ولم يزل بعضهم يعتنى بمماثلة الطرفين وكفاءتهما لبعضهما فى النسب ودرجة الموقع الاجتماعى ، ولكن كون الطرفين من ارباب اليسر والغنى هو المرجح عندهم على الجميع . وعليه فان السن والصفة الاجتماعية ، وغيرها من اوصاف الكفاءة محكوم عليها بالسكوت تجاه هذا المقصد الاساسى .

ان من قصد الزواج فى طرابلس معرض — كما هو الحال فى اكثر بلادنا — للمفاداة بوجده ، وتكبد النفقة الباهظة فى المهر ، وتقاليد النكاح والازدواج ، وربما اوقعه سوء التدبير تحت الديون الجسيمة التى ترزحه السنين الطوال . يمكن ان يغضى عن الاغنياء ببذل تلك الثروة الطائلة فى هذا السبيل ، ولكن لايغضى عن قصور ذوى الثروة المحدودة باستسلامهم لتلك المظاهر الواهية ، وتكبدهم من النفقات ماهو فوق طاقتهم ، واحراجهم انفسهم. وايضاً ان حملهم على صرف النفقات خطأ اعظم .

اذا علمنا ان مقدار المهر فى طرابلس ربما يبلغ الى مائتى ليرة او ثلاثمائة نطلع على عظم مايجب انفاقه فى طريق الاحتفال ، وتقديم الهدايا وغيرها من موجبات البذل . ونرى من الضرورى ان نوسع هذا البحث ، ونفيض يسيراً فى شرحه :

ان الاحتفال بالعقد فى طرابلس جرت العادت فيه ان يكون فى بيت المخطوبة ، اما مايجب صرفه من المشروبات ، والهدايا وغيرها يكون من جانب الخاطب . ثم على الخاطب ان يرسل يوم العقد، العربون الذى يسمونه « العلامة» وهو اما خاتم ، او قطعة من الحليات . ثم يدفع المهر بعد العقد ، ويجب على العريس ان يقدم هدية حين اعداد الجهاز تبلغ قيمتها ربع المهر ، او يرسل نقوداً بهذه القيمة .

بعد ان يتم الجهاز وينقل الى بيت العريس ، يجب عليه ان يجامل احماته بارسال مقدار من السكر ، والقهوة والتبغ وغيره مما جرت العادت بتقديمه . ثم تكون وليمة العرس

فى بيت العروس . وبعد ان يأخـذوا نصيبهم من اللهو والطرب على حساب العريس ، تنتقل تلك الوليمة الى بيت العريس ، باعظم مما كانت عليه قبل . ولا حد لمقدار النفقة التى تصرف هناك على المآكل والمشارب ، وعلى المطربين ، والهدايا .

يدعى العريس ليلة الزفاف الى بيت احد اصدقائه ويمكث هناك الى بعد العشاء . وقد كانت عندهم عادة تقضى بان يقدم صاحب البيت الى العريس خلعة . وبعد صلاة العشاء ينعقد موكب الزفاف، فتتقدم الموكب الشموع والمصابيح ، ثم آلات الطرب ويلتف حول العريس قربائه واصدقائه ومعارفه ، ويوصلونه الى بيت الزفاف . واذا مر الموكب على احد الملاهى « القهوة » . ينثر امامه حب القهوة ، فيقابلهم بالعطايا ، وهكذا الى ان يوصل به الى البيت ، وهناك يختم نثر النقود ايضاً .

ثم فى الغد يجب تقديم هدية الى العروس يسمونها « الصباحية » . وهى قطعة من الحليات وهكذا تتوالى سلسلة البذل ، والانفاق ...

وقصارى القول ان احتفال الازدواج يكون على غاية من البذخ والاسراف ، ويعرض الرجال فيه الى تكبد ماهو فوق طاقتهم المالية من النفقات فعلينا ان نؤمل ازالة هـذه العقبات ، او تخفيفها على الاقل . والا فان هذا السبب يقضى بتقليل الازدواج ، فيمتنع النسل الذى فيه حياة الامة ، على ان لهذه الصعوبات فوائد غريبة ، بمنع تعدد الزوجات، وتقليل كمية الطلاق . اذ يندر تعدد الزوجات فى طرابلس ، والطلاق قليل جداً . هـذا وان يكن لطرابلس بعض خصوصيات تقف امام تعدد الزوجات ، ولكن لاينكر تأثير تلك النفقات الطائلة التى يجب بذلها حين الزواج . اما قلة الطلاق فيجب تأويلها بخضوع النساء الطرابلسيات لازواجهن وخنوعهن لهم من جهة ، ووفرة مقدار المهر المؤجل من جهة اخرى . لان كثر هذا المبلغ لاجرم يردع الرجال عن ايقاع الطلاق بلا سبب، ويكون اكبر مانع له .

***

يتأخر الطرابلسيون فى ختان اطفالهم، ولايكون ذلك لا بين السنة السادسة والعاشرة من عمر الاطفال ، ومن عاداتهم الاحتفال بهذه العادة ايضاً وعوامهم يكون احتفالهم عبارة عن اركاب الاطفال على الجياد المزينة ، والاغنياء يكتفون بايلام الولائم . فتعزف آلات الطرب ، وتجرى الالعاب المختلفة التى من شأنهـا تسلية الطفل . والعادة تقضى على المدعوين بتقديم الهدايا .

***

اما فى مسائل الوفات ؛ فمن عوائدهم اعلان وفات العلماء ، والمشايخ ، او احد افراد الاسر الاصيلة ، على المنارات بوجه مخصوص ، ولكن تشييع الجنائز عنـدهم يكون على

اتم السكينة والهدو ، والخشوع الدينى اما اذا كان المتوفى من اتباع الطرائق ، فقد يشيع مشايخ طريقته جنازته بنقر الدفوف ، او يكتفون بترتيل كلمة التوحيد امام الجنازة حتى يصلون بها الى المقبرة .

يوجد فى طرابلس اربع مقابر عمومية ، وخمسة عشر مدفناً خصوصياً للمسلمين: فاول المقابر العمومية هى مقبرة « باب الرمل » الكائنة فى جنوب طرابلس . وثانية « الزعبية » وهى فى الشرق قريبة من القلعة . ثم مقبرة « الشهداء » الكائنة فى محلة الحديد وهى الآن معطلة لايدفن فيها . وان لكل من الطوائف المسيحية مقبرة فى خارج البلدة ، واليهود ايضاً لهم مدفن يختص بهم .

يعتنى فى طرابلس بتزيين القبور ، وزخرفتها بصورة عمومية . ولقد يوجد فى المقابر مواقع تختص ببعض العائلات مشيدة بالرخام على طبقات متعددة ، اخذت الزينة فيها مبلغها ، مسورة بقضبان معدنية .

يهتم الطرابلسيون بقرائة القرآن فى الجوامع من الظهر الى العصر ، ومن المغرب الى العشا، كل يوم اعتباراً من يوم وفات الشخص الى سبعة ايام بعده . ويذهب اقاربه واصدقائه ايضا لزيارة جدثه .

ثم لانجد نساء طرابلس يركضن وراء الجنازة بالصياح والعويل ، وتخميش الوجوه ، بيد انهن يخرجن الى البرية بعد العصر ، ويسمونها بالعصرية .

٥ — الاحوال الروحية

[١] — **المزاج والاخلاق والطباع** — الطرابلسيون ؛ بصحائفهم المشربة بالسمرة ، الضاربة بلونها الى البياض وبعيونهم الشهل المبرقة ، وباجسامهم النحيفة ، وقد ودهم الربعة ؛ يمكن ان يقال انهم باعتبار الامزجة اربعة او خمسة فى المائة دمويون ، تجاه خمسة واربعين من العصبيين وخمسين فيها من العصبيين اللنفاويين .

ان المحيط الريان فى طرابلس اوجد هذا المزاج الاساسى من جهة ، واقليمها المتحول ومناظرها البديعة ، وسخاء الطبيعة مع رخاء العيش فيها من جهة اخرى اوجدوا فى الطباع الروحية والسجايا الاخلاقية خلالاً ملونة ، واوصافاً غير مستقرة .

لا جرم ان السعى لضبط تلك الاوصاف الابية المتموجة ، لاجل الحصول على مفهوم كلى والوصول الى كنه المؤثر الحقيقى ، والاطلاع على اوصافه الفرعية هو صعب ، بل مستحيل لدرجة تقضى بالحكم على ان الحالة الروحية العمومية هناك هى على عدم اطراد محسوس .

ولذلك لا يصح ان يوصف الطرابلسيون بالاصرار الجامد ، او العناد المفرط ، ولا يسوغ رميهم بحب النفع ولا خشونة الطبع ؛ بل هم اناس فخر ولهو ، واخدان اذواق ونشوة .

نعم انهم اناس فخر ولهو ، اكثر من كونهم ارباب حرص وطمع ، او اضلال وافساد . حتى ان هذه الاوصاف الخاصة تظهر على عنوان الاصالة في الاسر الطرابلسية .

وقصارى القول ان الحالة الروحية في طرابلس تمثل كتاباً ملوناً ؛ على غاية من الزخرفة والتذهيب ؛ وكل صحيفة بل كل سطر من هذا الكتاب النادر الغزير الصحائف ، مملوء بالرموز المتنوعة . ولذلك هو جدير بالدرس والتدقيق .

ان عنوان هذا السفر الروحي . هي كلمة « الانس والانسانية » الفصحى . تجدون كل من تعاشرون من الطرابلسيين على اختلاف طبقاتهم انيساً متقرباً يتبسم بوجه مسرور ، وتبرق عيناه عن اطمئنان ونشاط ، يقابلكم من رقة العواطف والتواضع بما يجعلكم تحترزون منه خشية ايصاله الى التملق والرياء ؛ وتعجبون لما ترون انفسكم دانت للتشبه بقرينكم عن غير اختيار منها .

يسحركم هذا المخاطب بطلاقة لسانه ، وبلاغة بيانه ثم لا ينفك يعدكم ولو بما يستحيل تحققه ولا يبعد عنه ان يستسلم لكم بجسمه وروحه ليظفر بآمال سرابية تكسبه فخراً وميزة هو على يقين انها فوق لياقته واعلى من استطاعته .

أما اذا علم بعد برهة اشكال الامر ، يحفز بكامل الحلم والسكينة الى الدفاع والاقناع بعين تلك الطلعة البسامة ، وهاتيك العيون البراقة . فتشعرون وقتئذ بلزوم تخفيف الوطئة عن مخاطبكم هذا المتواضع بصفاء قلب وانسية .

ومع هذا فان لتلك الشخصيات اللينة المطبوعة الانيسة بعض اوضاع غريبة ومعكوسة ، وارواح عصبية متهورة تجعلكم على غاية من الحيرة والعجب . على انه لايقنطكم هذا المظهر ولا يقلقكم . لان هذا العناد القاسي وقتي واضطراري . وكونوا على يقين ان مخاطبكم هو ابن الحس واسير الأهواء . فاذا اطلعتم على المهيج الحسي ، المدير ملكوت روحه في تلك اللحظة واستطعتم نقله الى غير هذا المحرك ، لا يلبث ذلك الهياج ان يخمد وينقطع اثره . ولا يبعد عن هؤلاء المخاطبين المجبولين بالعصبية ان يبقوا صادقين معكم . ولعين الاسباب لا يسوغ لكم ان تستسلموا الى الشكوك والشبهات مفكرين ان هذه الروح الجزلة ستنقلب بعد برهة الى روح مستائة فهي تابعة لكم قبل كل شيء . فاذا عجزتم عن ربطها بكم فاعلموا ان القصور منكم فقط .

ان الفكرة جيدة كانت او سيئة ، نيرة او محلولكة ، لا يكون لها صدى في آفاق طرابلس ما لم تدخل اليها من باب الحس ، وتستحوذ منها على الطف برج تستقر فيه .

ثم تكون بعد ذلك اعتقاداً راسخا ، فتجوس خلال الارواح وتمكث هناك الى ان تزاحمها فكرة اخرى تنتزع منها ما استحوذت عليه من عرش الحس ، وتقذف بها من حالق. ولذلك كثيراً ما نرى المتمسكين بتلك القناعات والمعتقدات ، وحتى المتصلبين بخصوصها يعيفونها بعد برهة ويكونون منها احراراً برآء فتتلاشى بسرور مخلفةً على تلك الانظار والوجوه الابتسامة المعهودة .

لا ننسى ان الطرابلسيين الذين هم اصدق ، واعشق اسرى للحس ؛ يهشون لدى المكارم ويميلون الى المعالى؛ فيوجدون من المآثر الجليلة والآثار الانسانية ما يكون بالعلو كالشواهق ينطح السحاب .

ان للطرابلسيين الذين لا يغادرون فرصة الا ويبرهنون فيها على انهم ذوو كرم وقرى بعض ذوات طاهرى النفوس يطعمون لوجه الله كل يوم مآة من الفقراء والمساكين حبا بالانسانية . ولهم بعض مآثر مدنية واجتماعية كالمصرف الاهلى ، وشركة الرصيف ...الخ مما يدل على ان ثروتهم المادية معززة بالثروة الروحية ايضا .

ولكن يا للاسف ؛ ان اقل تبدل فى العواطف يقوض تلك الشواهق فيذرها قاعاً صفصفاً ، ويحدث مكانها مهاو ووديان من الاهمال والنسيان متسعة الارجاء بعيدة الأغوار .

بسبب تلك العصبية الروحية ، والتقلب النفسى المحسوس فى طرابلس بصورة واضحة كانت الطباع كالفراش . ترفرف كل آن فى ساحة ، ثم تقف ؛ وربما تزج بنفسها وتذهاب فى ميادين غريبة ، وراء الآفاق الطبيعية المعهودة .توجد فى طرابلس مودات ومعارفات محسوسة ، وموالاة وصداقة غريبة . ان بعض الطرابلسيين يأبى الا ان يعيش مشفوعاً بقرين . ويلفت النظر عدم المماثلة فى السن بين هؤلاء القرناء الذين يتجولون ويتمشون ويقعدون ازواجاً . ويكونون من الالغاز المطاسمة فى نظر الغير لشدة ارتباطهم ببعضهم . لا يحتاج الانسان لذكاء حاد وبصيرة نافذة ليكشف ان الحدث من هذين الصديقين هو صاحب الكلمة العليا، والسلطة النافذة . لان الانجلاب المفرط المشهود فى الرجال هناك يتجاوز حد المجاملة والخلوص .

ان هذه الالفة والرابطة المشهودة بين بعض الاشخاص فى طرابلس تدوم على ما يروى مدة طويلة . ويقال ان سبب ذلك هى الروح القنوعة والنفوس الهادئة المنكبة على المحافظة فى بعض الطرابلسيين. فانهم لا يرضون بفراق صديقهم بعد ان يستيقنوا بحبه وخلوصه . ولذلك يريدون ان يكون معهم اينما كانوا وحيثما حلوا . وتعيين هوية الشخصين ودرجة اختصاصهما ببعضهما تدجل فى خواطر الطرابلسيين ، فى تلك الصحيفة الحية . وهذه الموالاة المعروفة قد تصل من المتانة والتأصل الى درجة يشاهد فيها بذل الاموال الطائلة .

الا وان ذكرى هذه الزمر فى الخارج لا تزال تلقى فى قلوب الغرباء ، وحتى فى قلوب

الطرابلسيين انفسهم ، آلاماً محضة .

وبالنتيجة نقول ان مريدي الصلاح ، لا يشتهون وجود هكذا صحائف في كتاب اخلاق الطرابلسيين . وعليه يكون تمني سعي الطرابلسيين لطي تلك الصحائف وازالتها وبذل الجهد والاستطاعة لامحائها ضرورياً .

[٢] — **الحالة الروحية** — اذا اردنا ان نطلع على درجة الرقي الفكري في طرابلس ونقف على مقدار نصيبها من العلم. يجب علينا ان نمعن النظر في افراد طبقاتها الاجتماعية.

سبق ان بينا اثناء البحث عن الاحوال الاجتماعية ، ان بعض اولاد منسوبي الطبقة الاولى المعروفين باسم الاغنياء في طرابلس ، درسوا اما في مدارس بيروت ، او استانبول ، او غيرها وكان لهم نصيب من العلم على ما امكن . ولكن المتقدمين في السن من اولاد عين الاغنياء لا نصيب لهم من هذا البتة ، ولا يتطلب هذا الادعاء اقامة البرهان لانه بديهي. انهم وان يكونوا على شيء من المكتسبات التقليدية ، ولكن لا تكون المكتسبات التقليدية من الجهاز الكافي للادمغة في هذا العصر . اما الذين لهم المام بالعلوم الصرفية والشرعية فلا جرم انهم يشعرون بخطأهم ونقصهم لسبب اكتفائهم بهذه الاجهزة الحياتية اليسيرة ولهذا فان الثروة الفكرية القديمة في هذه الطبقة لا تستطيع ان تستغل لطرابلس دخلاً توفرت فيه اسباب الكفاية والاستفادة .

اما منسوبو الطبقة الثانية ، فان عددهم كثير . يشمل السواد الاعظم من سكان طرابلس ، وبما ان الاكثرية في طرفهم فان جميع الشبان الذين اتموا دروسهم في مدارس مختلفة ، هم اولاد منسوبي هذه الطبقة . من الضروري ان نعترف بان التعلم يوجب التنور ولكن يلزمنا ان نحكم في الامر بالنسبة الى درجة ذلك التعلم. واذا شئنا ان نضع جدولاً نحصي فيه عدد الشبيبة الطرابلسية المتعلمة نرى ان عدد الذين تخرجوا في مدارس اوروبا من مسلمين ونصارى ، هو « ٩٥ » . ومتخرجي المدارس العالية في قاعدة الملك ، « ٧٠ » ومتخرجي المدارس التالية « ٣٠٠ » شاباً . اما الذين درسوا في المكاتب الابتدائية فقد آثرنا ان نعتبرهم من الذين يعرفون الكتابة والقراءة فقط ، لا من صنف المتعلمين .

وعليه ان زمرة المتعلمين الذين يبلغ عددهم الى «٤٠٠» كادوا ان يكونوا كلهم من الطبقة الثانية . واذا فكرنا بان ارباب الطبقة الثالثة ليسوا بقادرين على تعليم اولادهم ، يظهر لنا الدليل الكافي على صدق رأينا .

ويمكننا الان ان نمعن في التدقيق ونطلع على عدد المسلمين والنصارى من هؤلاء المتعلمين ونفرقهم عن بعضهم ونستنبط النسبة في العلم بين هاتين الطائفتين :

لن ادحا، كل من متنورى المسلمين والنصارى واتفاقهم ، يمكننا من ايجاد هذا الجدول :

	المسلمون	النصارى	يكون
المتخرجون فى مدارس اوروبا	١١	٤	١٥
» فى المدارس العالية	٥٥	١٥	٧٠
» » » السلطانية	١٠	٥	١٥
» » » الاعدادية	٢٣٠	٧٠	٣٠٠
يكون الجميع	٣٠٦	٩٤	٤٠٠

اذا امعنا فى هذا الجدول ، وعلمنا ان مقدار النصارى هو خمس مقدار المسلمين ، نجد ان درجة المسيحيين فى العلم كادت ان تكون معادلة للمسلمين ، وحتى راجحة فى بعض النقاط . ولذلك فان زعم بعض الطرابلسيين بان عدد المنورين فى المسلمين اكثر من عدد المسيحيين لا يخلو من المبالغة . والاصح فى ذلك هو الاعتراف بوجود التوازن بين هاتين الطائفتين .

بعد ان ذكرنا المتخرجين فى المدارس الرسمية ، نريد ان نبحث نبذة عن المشايخ الذين تخرجوا فى المدارس الدينية ايضاً :

يوجد فى طرابلس خمس عشرة مدرسة رافقت القرون بقدمها فمنها : السقرقية والخاتونية والطواشية ، ومدرسة العطار والقرطائية] . وقد كان عدد هذه المدارس التى خصصت لها الاوقاف الوافرة كثيراً جداً . ويروى انه كان فى طرابلس مقدار (٣٦٦) من المدارس ، وكان لها اوقاف غنية . فما زالت تلعب بها الايدى حتى لم يبق منها الآن الا خمس عشرة مدرسة مشرفة على الخراب ، اما البقية فلا يعثر لها على اثر .

ولو بحث عن هذه الاوقاف وانتزعت من ايدى الغاصبين ثم اسس بتلك المبالغ الجسيمة فى طرابلس بضع مدارس عامية ومدنية منتظمة تنطبق على المصلحة العصرية ، واصلحت بها المدارس المحلية ، لكان بها لطرابلس من المؤسسات العلمية ما يجعل لها الحظ الاوفر من العلم والمعرفة .

ولا ينكر ان طرابلس قد استفادت من هذه المدارس العامرة ، وان معظم ذوى الكسوة العلمية فى هذه البلدة له انتماء اليها . وقد سبق ان وجد فيها معلمون من فحول العلماء واعاظمها .

فاذا علمنا ان عدد الطلاب التى تنال الاجازات من هذه المدارس خمسة عشر فى كل سنة نعلم ان تلاميذها يتجاوزون المائتين فى عددهم . واكثر هؤلاء يستخدم الآن بوظيفة

القضاء في أكثر انحاء الولايات العثمانية . ويوجد بينهم مقدار خمسة عشر من العلماء المتضلعين في العلوم الشرعية ، ولا جرم ان اطلاعهم على العلوم العربية واسع ايضاً .

ولا يفوتنا ان هذه المدارس وان خدمت لتنوير الاذهان بالقرائة والكتابة خدمة لا تنكر ، غير ان دروسها تحصر في العلوم الشرعية والعربية فقط ، ولا تتعرض للعلوم والفنون الحديثة ، ولهذا فان متخرجيها يميلون بالافكار الطرابلسية الى ما هم مختصون به من العلوم ويهملون الجهات الاخرى ، ومنها كانت هذه النتيجة التي خالفت المصلحة العصريه .

ومع هذا فان هذه النتيجة لا تزال تخفض بتاثير همة الشبان المتخرجين في المدارس الرسمية ، الذين يزداد عددهم على تداول الايام . ثم ان كثرة المناسبات والمعاشرات التي اوجبها قرب طرابلس الى بيروت ، ووجودها على ساحل البحر ، وسهولة الطبع والاخلاق في الطرابلسيين ، الناتجة عن المؤثرات الطبعية المحلية ما زالت تعدل تأثير تلك النتائج ، وتخفف وطئتها .

لا جرم ، تنقبض نفوس الشبان الطرابلسيين لما يرجعون الى بلدتهم واهليهم ، من الجاهلين ، او غير المنورين من مواطنيهم ، على انهم يتعزون بما عند اولئك الزمرة من لين العريكة والتلون الروحي والحياة النشيطة ؛ وبما في طرابلس من البدايع الطبيعية والفيض العميم ، ولا يشعرون بلزوم مبارحة اوطانهم لهذا السبب .

نرى من الواجب قبل اتمام هذا البحث ان ندرس تجار الطبقة الأولى والثانية في طرابلس ونستطلع كيف امكنهم النجاح بغير علم ومعرفة ، وننظر الى ما يرمي اليه الطرابلسيون بظن ان هذا النجاح هو دليل على المزية العلمية والنور الفكري ، ونصحح ذلك الاعتقاد والادعاء .

لو سلمنا نجاح الطرابلسيين في مشاريعهم ، ولكن يجب ان يحمل هذا النجاح على ذكائهم المعلوم واستعدادهم الطبيعي اكثر ما يحمل على علمهم ؛ وعلى تجاربهم العملية ، اكثر من نظرياتهم العلمية . وهم يعملون على ما كان يعمل اسلافهم — دون ادنى تأثير علمي — فنجاحهم بتأييد الموجود وادامته لا يكون نجاحاً يفسح لهم عن طريق الرقي والكمال . ولو انهم اضافوا لهذا الاستعداد الفطري ، مديراً علمياً لكان نجاحهم اوفى واغنى ، ولاقتطفوا اثمار الرقي ، عوضاً عن احتفاظهم بالموجود .

بعد ان بحثنا عن الحالة الفكرية في طرابلس يجدر بنا ان نطلع على مقدار من يحسن القرائة والكتابة من المسلمين والنصارى فيهم ، ونقارن بين هاتين الطائفتين من هذه الوجهة .

ان الربع من رجال المسلمين ، وخمس في المأة من نسائهم — على التخمين — يحسنون

القرائة والكتابة . وعلى هذا الحساب يكون مقدار الرجال من هذا الصنف (٢٠٠٠ — ٢٥٠٠) ومقدار النساء (٥٠٠) فقط وباقل نفكر نعلم قلة هذا المقدار ولاسيما درجة الانحطاط الفكري في النساء ، وضعف الحالة الروحية فيهم . واذا اطلعنا على ان مقدار المتخرجين في المدارس الابتدائيه لا يزيد عن (٤٠٠ — ٥٠٠) في السنة ، نحصل على العلم القطعى بدرجة تعلم الذين يحسنون القرائة والكتابة في طرابلس .

اما الطائفة المسيحية ، فعلى زعم المتعلمين منهم ، ان تسعين في المأة من الرجال اى (٢٠٠٠) ، وثمانين فيها من النساء اى (١٥٠٠) يحسنون الكتابة والقرائة . وان ستين فى المأة من هؤلاء النساء متخرجات فى المدارس الاجنبية . لاجرم ان هذا الحساب مبالغ فيه . على اننا لو اخذنا نصف هذا المقدار على علاته ، بشرط مراعاة النسبة فى النفوس لرأينا ان الطائفة المسيحية ارجح وارقى من اختها الاسلامية ، وبما ان المسيحيين اميل الى اللغات الاجنبية واعرف بها ، وانهم غير مقيدين فى معيشتهم ببعض القيود الاجتماعية كانوا اعلق بالآثار الحديثة الاجنبية واوفر وسائلاً للتنور بسبب اختلاطهم وعشرتهم . وعليه فان سويتهم الفكرية ارقى درجة من سوية المسلمين .

[٣] — **مناقب الشيخ العمرى** — نرى ان نعزز هذا البحث بالتكلم عن « الشيخ على العمرى » الذى ما زالت شخصيته تشغل الاذهان الطرابلسية منذ السنين الطوال ، ثم تحول هذا الاشغال الى اطمئنان ، ثم الى عقيدة ، ولم يلبث ان كان تنشئة راسخة . ونروى شيئاً من مناقبه التى تتناقلها الالسن والافواه فى طرابلس .

يجب علينا ان نعلم اولاً ، ان تعبير « الشيخ » فى سورية يدل — فى نظر الناس — على من يلبسون الكسوة العلمية . ولذلك لا يشترط العلم لاجل احراز هذا العنوان .

اتفقت الروايات على ان الشيخ العمرى كان امياً حتى آخر نفس من حياته ، ولكنه استطاع جلب قلوب الناس اليه ، واكتسب حبهم واحترامهم .

وان امعانه فى الصلاح والتقوى ، واطمئنان الناس بشئ من قدسيته واعتقادهم ببعض مناقبه وسيره التى يتلقونها من قبيل الكرامة ، جعل له المكانة العظمى ، والسلطة التامة فى قلوب الناس .

اجمع القوم على ان الشيخ العمرى كان معدن الخير والانسانية . وان شخصيته التى هى تمثال الحسنى كانت محترمة وموقرة عند الكبير والصغير من طبقات الناس والمأمورين وحتى عند جميع الطوائف غير المسلمة ايضاً .

اعتاد الشيخ على عدم الخروج من بيته فاذا صدف وخرج مرة فى السنة لا يلبث ان تخف اليه الزمر من مسلمين ونصارى وغيرهم ، ويشبعون ايديه تقبيلاً :

لم يضق الشيخ ذرعاً بامر حياته بل كانت الاعانات التى يضعها الزائرون تحت سجادته

تكفي لنفقته وتزيد ، وانه كان جواداً على الفقراء ولهذا لم يترك شيئاً يذكر من الوفر بعد وفاته رغماً عما كان له من العطايا البالغة .

توفي الشيخ سنة (١٣١٩) ومشى وراء جنازته جميع الطرابلسيين يودعونها بالدمع الساكب . ودفن في مقبره الخاص في التربة القريبة من باب التبانة ويزعم اولاده انه عاش قريباً من مائة سنة .

وقصارى القول ان الشيخ العمري على ما يروون عنه من حب الخير ، والطلعة الباشة وبحركاته القدسية الخارقة للطبيعة وكراماته ، كان معتقداً عظيماً في نظر الطرابلسيين . ولا بد لكل من الطرابلسيين اذا حادثتموه ان يطلعكم على كثير من مناقب الشيخ التي لا تنتهي ويقول لكم باطمئنان كامل :

— انني مطمئن على ان « الشيخ العمري » « ولي » بكراماته . وانا اعتقد بذلك .

لاسيما اذا وجدتم في ناد يضم بعض افراد ممن يدينون بهذا الاعتقاد . تسمعون كثيراً من هذه المناقب . وتتسلسل الروايات بمآثر الشيخ . فتعلمون بتلك المنقولات التي تجعل الانسان في حيرة . انكم تشاهدون الاحوال الروحية قائمة على سوقها .

رمتنا الصدفة ذات يوم في مجلس ، حشد ارباب المناقب ، وحفاظ الروايات . فتقاطرت علينا جميع منقولات الشيخ ومآثره . وكان احدهم يقول :

— ركب الشيخ مركبةً في احد الايام ، واتى الى امام دار الحكومة في طرابلس فرآه شرطيان ، وارادوا ان يأخذوا بيده اجلالاً لقدره ، وينزلوه من المركبة . فاعطاهم يده وقال : اسحبوا ماشئتم ، وابذلوا جهدكم . فأنحى الشرطيان على يده جراً بجميع قدرتهم . ولكن لم يقدروا ان يحركوه .

ثم قال الآخر :

— كان الشيخ امياً ؛ ولكن كان اذا شاء اخذ عوداً وغمسه في فيه فكتب بمداد اسود خطاً كامل المعنى .

ثم ان احد المسيحيين قال :

— نقل لي رفيق هذه الحكاية : كان يساير الشيخ العمري فجلسوا في محل لأجل الراحة . وصدف ان قدم لهما قدحان من قهوة . فشرعا يشربان . ثم قدم الشيخ قدحه الى رفيقه قائلاً

— الا تشرب منه : فشرب الرفيق وشعر ان القدح يتضوع منه المسك .

ثم قال الآخر:

— اعلم روايتين عن الشيخ ، ولم اكد انساها . وها انا اتلوها عليكم :

— صدف الشيخ احد معارفه وهو سائر في الطريق . وسأله الى اين يذهب ، فأجابه

انه دعى هذا المساء الى مأدبة . فقال له الشيخ اياك ان تتأخر الى بعد الساعة السادسة «غروبية». ثم اخذ الشيخ سبيله وسمع وهو يقول لنفسه « حرق الله لحية من يغتا بك » و«ربما يقتل الله جملاً ليطعم بعوضة » . ثم ان ذلك الرجل رجع الى بيته فى الوقت الذى حده الشيخ ولم يلبث نصف ساعة حتى مات . وقد قصد الشيخ فى كلامه الآية القرآنية « ولا يغتب بعضكم بعضاً » وانه قصد فى الجملة الثانية ايضاح معنى هذه الآية ، واخبر سلفاً ان ذلك الرجل سيموت .

ثم يروى عن الشيخ انه دعى لعيادة مريض وقراءته . وكان المريض مشرفاً على التلف فدخل الشيخ الى البيت وقال للحاضرين « اذا وهبتمونى فرساً ، شفيت عليلكم » فرضوا بالشرط . ولم يلبثوا ان سمعوا فى الاصطبل صوتاً هائلاً .فاسرعوا اليه واذا باحد الافراس قد انفطرت . ثم شفى المريض .

ثم اجمل احد الحاضرين مناقب الشيخ العمرى وقال :

— ان اهم مناقب الشيخ انه يغمس القدح فى البحيرة فيكون الماء فيه شراباً ، ويأخذ عودا ، او ورقة ثم يبلها بريقه ويمسح بها العين الرمداء فيشفيها ، واعظم من هذا انه يأخذ عوداً فيذبح به شاة ويسلخها ....

ان هذه المناقب التى تؤثر فى طرابلس عن الشيخ العمرى لاتزال تكررها الالسن فى كل يوم.

وقصارى القول ان عقيدة الشيخ العمرى المؤيدة بهذه المناقب وامثالها ، هى على غاية من الاستقرار والتأصل فى النفوس . واننا لا نرى حاجة للتكلم عن هذه الروايات الخارقة او بالاحرى عن تلك الحالات الروحية الملموسة . ولهذا السبب اكتفينا بنقلها وتحريرها على علاتها .

٦ — الاحوال الصحية فى طرابلس

[١] — **الحالة الصحية** — بينا آنفاً ان طرابلس الشام ، هى بلدة لها اقليم معتدل ولطيف ، كباقى البلاد فى سورية . وبما انها محاطة بالرياض الواسعة التى تسقى من ماء النهر تكون الرطوبة فيها على ازدياد دائم . ولهذا كان هواؤها ارطب واثقل من هواء بيروت. ويزعم اطباؤها ان حرارتها فى الصيف لاتزيد عن ٣٣و٣٠ درجة سانتيغراد وفى الشتاء لاتنقص عن سبع درجات ولهذا تكون حرارتها الوسطى ٢٨,٢٧ درجة فى الصيف و١٥,١٤ درجة فى الشتاء .

بينا حين البحث عن الخطوط الداخلية فى طرابلس ، ان بيوتها القديمة متصلة ببعضها، وان الطرق بين تلك البيوت ضيقة ، واكثرها مستور بالحنايا المسقوفة ولهذا كانت البيوت والطرق محرومة من الشمس ، ومن جريان الهواء . ومع هذا فان الطرق التى فتحت

حديثاً هي واسعة ، والبيوت الحديثة — كبيوت القبة والتل — آخذة نصيبها من الهواء والشمس .

اما ماء طرابلس فهو كما قدمنا يفرق من جدول « رشعين » وهذا الماء باوصافه الخارجية . اى بصفائه ونظافته وطعمه هو صالح للشرب غير انه مكشوف المجرى اعتباراً من منبعه حتى يدخل البلدة . ويمر على بضع قرى من اعمال لبنان ولهذا اصبح ماؤه معروضاً للكدورة والاوساخ بنسبة ابتعاده عن منبعه . وعليه فان هذا الماء له التأثير العظيم بانتشار مرض القوليرا ، و مثالها من الامراض التى تمكن سرايتها بواسطة الماء . لاسيما وان المجارى فى وسط البلدة تمر ماسة بمجارى المياه القذرة وغيرها فتتلوث بما يرشح من هاتيك المجارى وتفسد ، ولهذا يجب على الذين تهمهم صيانة هذه البلدة وحفظها من الامراض القتالة ان يسعوا لاسالة هذا الماء بانابيب من حديد محفوظة من كل مدنث .

ويجب علينا حين البحث عن المسائل الصحية ان نعلم ان كثيراً من الناس فى طرابلس لا يقدرون قدر الصحة ، ولا يعلمون من التدابير الصحية شيئاً . هذا وان كان يؤثر عن الطرابلسيين ان داخل بيوتهم نظيف ، ولكن الشكل الخارجي غير منطبق على القواعد الصحية البتة . لاسيما وان السواد الاعظم من الطبقة الثانية ، وعموم افراد الطبقة الثالثة هم من الجهالة العمياء فى درجة جعلتهم يغضون عن التدابير الصحية بصورة واضحة . ثم ان اعتياد بعضهم على اكل بعض البقول او الاثمار دون ان يطبخوها ؛ والمستنقعات التى تحصل فى الرياض والبساتين ، بسبب السقى هى من الاسباب الضارة التى لا تزال الصحة العمومية فى طرابلس تحت خطرها وتهديدها .

[٢] — **امراض البلدة ، والامراض الطارئة** — ان اكثر ما يرى فى طرابلس من الامراض الموقعية هى « الحمى المرزغية » ولا يخلو بيت فيها من تسلط هذه الحمى على افراده بضع مرات فى السنة . واكبر داع لتأصل هذا المرض هى المستنقعات التى توجد فى البساتين ، ثم عدم انتظام مجارى المياه ، وعدم حفظها وصيانتها . ويقول اطباء البلدة ان هذا المرض يبتدأ فى اواخر الصيف ، وتشتد سورته فى فصل الخريف لدرجة هائلة . ومع ان هذا المرض ليس بقاتل ، ولكن اكثر المعروضين به يصابون بفقر الدم وبامراض الكبد والطحال .

اذا شئنا ان نرتب جدولاً لهذا المرض فلا نبالغ ان قلنا ان عدد المصابين به فى اليوم يتراوح بين الخمسة عشر والعشرين . ثم اذا علمنا انه يوجد من يصاب بعين المرض مرات متعددة فى السنة ، نطلع على ضرورة التذرع بالتدابير والوسائل الفنية التى يمكن بها تخليص حياة هذه البلدة من هذا الداء العمومى .

وباعتبار الكمية يأتى فى الدرجة الثانية مرض « ديزانتەرى » . ولربما يعثر فى طرابلس ايام الصيف على بضعة اشخاص من مصابى هـذا الداء فى كل يوم . ويشاهد تصاعد هـذا المقدار الى ثلاثين او اربعين ايضاً .

وسبب تفشى هذا المرض وتأصله هناك يحمل على عدم صون الماء من جانب ، وانهماك الطرابلسيين باكل الاثمـار والبقول بلا طبخ من جانب آخر . وهذا المرض يفتك بهـذه البلدة فتكاً ذريعاً . والجداول الرسمية (*) تنطق بان عدد الوفيات من هذا الداء كان سنة (١٣٣٢) مقـدار (٢٥٢) شخصاً . فاذا نظرنا الى هذه الكثرة فى الوفيـات نعلم ان الذين يصابون به هم اكثر من هذا المقدار واعظم . حتى ان عدد الوفيات من هذا المرض كان فى الشهور الاربعة الاولى من سنة ١٣٣٢ اى قبل حلول الصيف ، (٢٣) شخصاً . وعليه يجب التذرع بالتدابير العاجلة لدرأ هذا الخطر الحياتى عن طرابلس .

ثم ان اعم مرض فى طرابلس بعد مرض « ديزانتەرى » هى الحمى التيفوئيدية . وسبب سرايتها وتفشيها هو المـاء ايضاً . ومجموع الوفيات السنوية منها تقرب من مقدار وفيـات ديزانتەرى .

ويعثر فى طرابلس على امراض « ذات الرئة » ، و« الروماتزمه » وذلك لانها بلدة راطبة اما مرض « السل » فقـد كان فيها كثيراً قبل بضع سنين . ولكن تناقص مقداره فى هـذه الايام لاعتناء السكان بالامور الصحية لدرجة . وارتنا الجداول الصحية ان الوفيات من سل الرئة كان مقدارها (٢٨) ، سنة ١٣٣٢ اما فى الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ فلم يتوفى بهذا الداء الا شخص واحد .

ثم ان الامراض الكلوية والقلبية والمعدوية كثيرة جداً . ونرى فى عين الجـدول انه توفى سنة ١٣٣٢ من الامراض القلبية (٥٦) ومن الامراض الكلوية (٤٨) ومن الامراض المعدوية (٧٦) شخصاً . وفى الاشهر الاربع من سنـة ١٣٣٣ توفى بعين الامراض (٨) و(٢) و(٤١) شخصاً .

يجب ان لا ننسى حين البحث عن امراض طرابلس ، امراض الجـرب ، والامراض الافرنجية . ان مرض الجرب قد تفشى فى الايام الاخيرة بصورة هائلة ، حتى انه شمل جميع الطبقات الاجتماعية هناك . ويخمن مقدار المصابـين به اليوم يتراوح بين (٢٠٠) و(٣٠٠) شخصا .

اما الافرنجى فهو على اضعاف امثال الجرب فى مقدار المصابين وان هذا المرض الذى لم

(*) لم نتمكن من الحصول على شئ من الجداول الصحية ، الا على جدول وفيات سنة (١٣٣٢) ، وجدول اربعة شهور من سنة (١٣٣٣) فقط

يكن له اثر قبل بضع عشرة سنة اصبح اليوم متفشياً بنسبة عظيمة ، وعلى التخمين الموثوق ان نسبته تجاوز واحداً من ثلاثين بالنظر لمجموع السكان . ويوجد غير هذا من الامراض السمية الاخرى . ولكن لا تبلغ درجتها الى مقدار مرض الافرنجي . ثم يوجد المرض الذي حاولت افهامه حين البحث عن الاحوال الروحية ، وهو يتناول اكثر من نصف السكان . ومما يوجب الحسرة ان مقداره لا يزال في نقص متوال .

*
* *

اما الامراض الطارئة التي فتكت بالطرابلسيين بهذه الايام . فهي « الحمى التمشية » و« القوليره » .

توفي من مصابي الحمى التمشية سنة ١٣٣٢ مقدار ثمانية من المائة ، وفي الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ لم تجاوز الوفيات اربعة من المائة . ومجموع هذه الوفيات سنة ١٣٣٢ (٥٧) ، وفي هذه السنة (٥٤) شخصا .

اما القوليره فما كانت شديدة الوطئة في هذه السنين . وقد كان يتوقع منها ان تكون اشد مما كانت ، ذلك بسبب سوء الحالة الصحية في طرابلس . سبق ان دخل ذلك المرض هذه البلدة قبل خمسة عشر عاماً . فكان عدد الوفيات يتراوح بين الخمسين والمائة في كل يوم . على ان جميع الوفيات التي كانت سنة ١٣٣٢ من القوليرة لم تجاوز (٦٥) شخصاً . اما المصابون فعددهم اكثر من هذا بعشرين مرة . اما في الاشهر الاربع من سنة ١٣٣٣ فلم يحدث اصابات من القوليرة البتة .

ثم يجب علينا قبل اتمام هذا البحث ان نتكلم عن الذين يميتهم سوء التغذي ، او بالاوضح الذين افناهم الجوع . ومقدار هؤلاء بموجب الجدول الرسمي (٢٤٠) شخصاً سنة ١٣٣٢ ، ثم ازداد المقدار في الاشهر الاربعة من سنة ١٣٣٣ فكان « ٢٨٨ » شخصاً فاذا دام هذا الحال فان طرابلس ستفقد في السنة واحداً من عشرين من سكانها .

واذا اضفنا الى الوفيات التي بحثنا عنها مقدار الوفيات التي تكون بسبب الجدري ، والامراض التنفسية والدماغية فيكون المجموع سنة ١٣٣٢ مقدار (١٤٥٤) وفي الثلث الاول من سنة ١٣٣٣ مقدار « ١٥٤٣ » من النسمات . ثم اذا علمنا ان معظم الشبان منخرطون اليوم في سلك الجندية ، واطلعنا على ان هذه الوفيات كانت من القسم الباقي ندرك خطورة هذا المقدار على حياة البلدة ؛ لا سيما في هذا الزمن الذي تندر فيه الولادات . فلا ريب ان طرابلس اضاعت ربع ، او على الاقل خمس سكانها في هذه الثلاث سنين . وجسامة هذا المقدار جديرة بأن تدعونا الى التفكر والامعان .

[٣] — **الاسس الصحية** — من الضروري ان نحكم على عدم كفاية الاسس الصحية .

بعد ان رأينا جدول الامراض على هذا النمط . اذ لايوجد الآن سوى طبيبين رسميين الواحد فى بلدية البلدة ، والثانى فى بلدية الميناء . والاطباء الخصوصية لم يبق منهم الا خمسة او ستة . وبالنظر الى طرابلس التى كان فيها قبل الحرب ، معقلة الامراض أكثر من ثلاثين طبيباً . لاجرم ان هذا العدد من الاطباء قليل جداً ،

ويجب ايجاد المستشفيات ، ودور التجريد فى هذا البلدة ذلك لأن التوسل بالتدابير الجبرية تلقاء هؤلاء الاهالى الذين لايدركون معنى الصحة ، ضرورى وبديهى . وقد تأسس مستشفى للبلدية فى بناء العذرية ، وشرع فى تجريد مصابى الحمى المنمشة . على ان هذه التدابير الوقتية لاتقوم بهذا الواجب الحياتى .

وان المستشفى البلدى الذى شيد فى الطف بقعة فى طرابلس ، واعدفيه خمسين سريراً ، وسمى « مستشفى عزمى بك » هو بالرغم عن ضيقه اثر خطير جداً ، لانه يقوم بدفع قسم من هذا الاحتياج الحياتى العظيم . وان تأسس هكذا آثار فيها الخير العميم لحياة العموم هو من الآمال التى يرام تحققها .

اما « مستشفى يسار » الخصوصى المبنى فى مكان لطيف من البلدة ، هو بمثابة مستشفى جراحى ، وقد كان يوجد فيه اكثر من ثلاثين مريضاً . اما اليوم فموجوده لايزيد عن اثنين او ثلاث .

فاذا اضفنا لهذه المؤسسات الصحية خمس ، او ست صيدليات فى البلدة ، وثلاث فى الميناء ، ومأموراً للتطعيم ، وعلمنا ان تلك الاسس مع نقصها محرومة من كل الوسائط الصحية ، الفنية ، نطلع على نسبة احتياجنا الى تنظيم تلك الدائرة واتمامها ، ونعلم ان الانتظار لتحقيق هذه الامانى شديد جدا .

٧ — اللغة والادبيات ، والفنون الجميلة

[١] — اللغة — ان اللغة المستعملة بين الطوائف ، والطبقات المختلفة فى طرابلس ، هى لاجرم اللغة العجمى ، ومع هذا فان لهذه اللغة هنا بعض شذوذ . وهذا الشذوذ ، او تبدل اللهجة لا يظهر تماماً فى مسيحيي طرابلس ولكن المسلمين وخصوصا الطبقة الثالثة منهم ، لا تزال تنهج سبيله .

وبما ان طرابلس هى بلدة تميل باوصافها لتمثيل بيروت والشام معاً ، كانت لهجتها ايضاً منقسمة بين هذين المركزين السوريين . وغدت لغتها فى متوسط اللغتين ترمى بتضخيم الالفاظ الى البيروتية ، وبتخفيفها الى اللغة الشامية . ثم انها تميل تارة لهذه واخرى لتلك وآونة تبتعد عن كلتيهما . فاذا اردنا ان نفصح عن هذه اللغة ، يجب علينا ان نطلع على

الفروق الظاهرة التي تفرق اللهجة الطرابلسية عن البيروتية .

اولاً — ان الطرابلسيين يخففون الالفاظ ويرققونها ، مع ان البيروتيين يفخمون الكلمات وينطقون بها بصوت مفخم .

ثانياً — يقصر الطرابلسيون مد الحروف الصوتية ، والبيروتيون يطيلون مدها .

ثالثاً — ان البيروتيين يفرقون بين كلامهم ويفصلونه بايراد لفظة « نَهْ » ويقصدون بها الاستفهام . اما الطرابلسيون فهم يصلون كلماتهم ببعضها ، ولا يستعملون هكذا استفهام .

رابعاً — يلفظ البيروتيون حرف (أ) كالياء ، او يميلون بها الى الكسرة اما الطرابلسيون فيجعلونها كحرف « و » . مثلاً يلفظون كلمة (نار) بصورة « نور » .

خامساً — يبدل الطرابلسيون حرف « القاف » الى همزة .

ورغماً عن هذا الشذوذ الخصوصي فاللغة الطرابلسية ليست بلغة غليظة . بل هي لهجة رقيقة ، لطيفة الوقع على السمع .

لا سيما وان في طرابلس استعداد واضح للادب — كما ذكرنا ؛ وسنذكر — ولهذا نرى الطرابلسيين لا يألون جهداً بالسعي لتقريب لغتهم الى حدود الفصاحة ، ويوجد بينهم اكثر من مأة شخص يتكلمون بالعربية الفصحى . واكثر منسوبي الطبقة المنورة لهم نصيب من هذه المقدرة . ولا بد من التسليم بان للمدارس الطرابلسية اليد البيضاء في ايجاد هذا الميل .

ولا ينكر في هذا الخصوص تأثير المدارس الرسمية ايضاً . وما كان الاطلاع على اللغة التركية في طرابلس اكثر من غيرها الا بفضل هذه المدارس ثم وان لم يوجد بين خمسة آلاف من المسيحيين الا بضعة اشخاص لهم المام باللغة التركية ، غير ان اكثر المسلمين يتقنونها ، او يتكلمون بها . ويسهل علينا بيان السبب في ذلك . لان المسلمين ما زالوا لا يرغبون بوضع ابنائهم في المدارس المسيحية الخصوصية او في المدارس الاجنبية ، بل انهم يختارون المدارس الرسمية . ولهذا السبب فاننا نرى ما عدا مأذوني المدارس العالية والعالية ، ماذوني المدارس الابتدائية ايضاً الذين يتجاوزون في عددهم خمسمائة شخصاً كلهم يتكلم باللغة التركية على قدر الامكان .

اما المسيحيون فانهم يضعون لبنائهم في كل مدرسة ، ما عدا المدارس الرسمية ولهذا فان اللغة الفرنساوية والانكليزية متفشية بينهم . ويدعي منورو هذه الطائفة ان خمسة وسبعين في المأة من الرجال الذين يحسنون القرائة ، يتقنون اللغة الفرنساوية ، وخمسة وعشرين في المائة منهم يحسنون اللغةالانكليزية . اما نساؤهم فنهن خمس وسبعون في المائة يعلمن اللغة الانكليزية ، وخمس وعشرون منهن يتكلم بالافرنسية .

فاذا كان هذا الادعاء خال عن المبالغة يكون فى المسيحيين عدد العالمين باللغة الافرنسية «١٥٠٠» وباللغة الانكليزية «٥٠٠» من الرجال، ومن النساء «١١٢٥» ممن يحسن الانكليزية و«٣٧٥» ممن يتقن الافرنسية. وهذا المقدار يجب ان يلفت نظرنا الى مساعى المؤسسات الفرنساوية والانكليزية بتعميم لغاتهم، وحلولها فى الطوائف المسيحية الطرابلسية.

***

[٢] — *الادبيات والفنون الجميلة* — نريد بعد ان رسمنا خريطة اللغة الطرابلسية، وبينا خطوطها على وجه الاجمال، ان ننقل الكلام الى ما لديها من الثروت الادبية ونصور خطوطها على صحيفة مجملة.

ان السكان ذوى الذوق السالم، وعاشقى الجمال من طرابلس التى شحنت بالبدايع الطبيعية، يظهر فيهم استعداد الادب منذ حداثتهم، ومازلنا نقول ان لهؤلاء المغرسين بالاذواق البديعة، ثروة روحية من نكهة تلك الحدائق العاطرة، ولهم خيوط حريرية من نور قمرهم المنير. وان الالحان الموسيقية التى تسحر الارواح، والنفثات الشعرية التى تسحر الالباب هى عندهم على اعظم قيمة بديعية. ولهذا فلا بد للطرابلسيين ان تحدو بهم تلك المنح الطبيعية لابداع فسطاط من الادب منسوج بالاصوات والالفاظ. وعليه فان الشعر والموسيقة يعتبران فى طرابلس بتجليهما الساحر الخالب مصدرى وجد ثمين للقلوب المغرمة. ثم ان بقية الفنون الجميلة هى على استعداد لان تكون ذات فيض محسوس لدرجة. ولا نكر ان الفنون الجميلة الاخرى هى كالفدفد الساكن بالنسبة الى ما شيده الطرابلسيون من شواهق الادب، لدرجة لو اوجدت يد الطبيعة فى ذلك المهمه شيئاً من كثبان البدايع فلا يمكن اعتبارها تمثالاً للصنعة.

وقصارى القول ان الشعر فى طرابلس، مستحوذ على جميع الديار الروحية. ولاجرم ان الذوق الادبى لم يبلغ رشده لدى الناس، ولهذا كثيراً ما نراهم يترنمون بالغناء الذى تتغنى به المتبرجات على مسارح الشام وبيروت. بيد ان هذا الخطأ عمومى. وسنذكر اثناء البحث عن مدينة (بيروت) ان الاغانى [*] التى تتردد على السن الناس فى سورية. ولاسيما فى بلاد الساحل ومدائن الداخل، مرتبة على نسق يناسب شأن الرقاصات اليهودية، والنصرانية. وهى خلو عن المعنى، والذوق، والشعور البديعى، ولهذا لا يسوغ اعتبارها معكساً للبدايع السورية، ولا نموذج ابداع منبعث من روح سورية. لا نرى لزوماً للاسهاب فى ايضاح تأثير تلك الاهازيج التى تشبه الاهازيج القديمة فى

---

[*] اننا سنبحث عن ماهية هذه الاغانى فى المجلد الثالث، المصمم على تاليفه

استانبول ، والتى لايتغنى بها الا اثناء الرقص ، ومنافاتها للاذواق السليمة . على ان هذه القطع تجلب النظر من حيث كونها شعوراً انامياً يشف عن سوية اذواق الناس .

ولو قنعت طرابلس بهذه الاغانى المبرجة التى هى مصدر اذواق ، وطرب لطبقة كثيفة من الناس لما كان لمحيطها نصيب من الشعر ، والصفة الادبية البتة . ولكن لها رجال يهيمون بمحاسن الشعر ، ويعالجون ان يكون لهم انجاح بالتعبير عن شعورهم الذكية الطاهرة ، بالفاظ نزهت عن كل شائبة وشين . ويجب الاعتراف بأن الطبقة المنورة فى طرابلس مشغوفة بحب تلك الآثار وعندها لها الاقبال العظيم .

اذا تنقبنا عن ماضى طرابلس فى الادب نرى ان شعرائها ، ومن انتمى الى الشعر فيها كلهم من منسوبى الطبقة العلمية . ولو صرفنا النظر عمن ضاعت اسماؤهم فى طى الاجيال الغابرة ، وبدأنا من القرن الخامس للهجرة ؛ من « ابن المنير الطرابلسى » حتى نصل الى القرن الثانى عشر وفيه « يوسف افندى الذوق » ثم شعراء القرن الحديث ، « الشيخ عبد الغنى افندى الرافعى » و« الشيخ حسين افندى الجسر » ، وحتى شعراء اليوم نراهم جميعاً من رجال العلم :

فاذا علمنا ان هؤلاء الرجال تخرجوا فى المدارس العلمية ، وكان بعضهم يعد من فحول العلماء فى عصره ، نطلع على مايجب ان تختص به آثارهم من الاوصاف المميزة ، بنظرة بسيطة . وها نحن نتصفح كتاب « البدر التمام فى مولد خير الانام » الذى نظمه المرحوم الشيخ حسين افندى الجسر ، ونتخذه ذريعة لايضاح المقام . ونكتفى بتحليل موضوعه و اظهاره .

ان هذا المؤلف الذى الفه افحل علماء طرابلس ونشره سنة (١٣١٥) ، هو كما يدل عليه اسمه يتضمن قصة المولد النبوى بعبارة منظومة ، وله قيمة عالية من حيث الشعر لانه منبعث عن انجلاب ووجد دينى .

مهما كان موضوع الشعر معلوماً وعمومياً ، فان النجاح باتقان الافادة والتعبير هو الذى يكسبه الميزة والحسن . لاسيما وان النجاح فى هكذا مواضيع فكرية يتوقف على ترفيق الموضوع بعواطف حازة وشعور حية . ويمكننا ان نسلم بنجاح « الشيخ حسين افندى الجسر » اذا نظرنا فى مؤلفه من هذه الوجهة : ان فاتحة مقال هذا المصنف ؛ هى :

حمداً لمن بعث النبى رحيما
بالمؤمنين وزاده تكريما
أنشاه من اصل زها تفخيما
وانار فيه الكائنات عموما
صلوا عليه وسلموا تسليما

وهذا التأليف المخمس الذى بدأ بهذه القطعة؛ لا يزال يتسلسل حتى النهاية على هذا النمط من الاسترسال، وسهولة الاداء.

ان هذه المنظومة التى تتألف من مائة وخمسين قطعة لا جرم صدرت عن شعور حى يتدفق بالوجد والهياج.

ثم حكى عن المشهودات التى تجلت أثناء الولادة النبوية وقال:

ورأت كأن جناح طير ابيضا
مسح الفؤاد لها بمسى مرتضى

وقد ابدع الناظم فى هذه القطعة التى جعل مطلعها هذين البيتين، فبينما كان يترجم عن شعور «آمنه» رضى الله عنها؛ نفث الروح الحقيقى فى هاتيك الازمنة الخالية، واحياها بسلسبيل رحيقها، وبهيف نسائها وبملائكتها المنتظرين قدوم النبى وفى ايديهم اكواب الفضة وبطيورها التى تخفق باجنحة من الياقوت والزمرد.

ثم قال بعد الولادة:

اهلاً بشمس الكائنات وبدرها
اهلاً ببهجتها وغرة فجرها
اهلاً بحكمتها ونقطة سرها
اهلاً بختم المرسلين عموما

ما اوضح قناعته الدينية التى بينها وهو يرحب بقدوم النبى، ويعرف انه شمس الكائنات وبدرها، وحكمتها وسرها.

وقصارى القول؛ ان «الشيخ حسين افندى الجسر» بتأليفه هذا طرق موضوعاً فكرياً لم يزل يطرقه الشعراء منذ الف وثلاثة عشر قرناً، فشحنه بالشعور الحى الحار مع انه مستعد لان لايهيج الحس لاعتياد الاذهان عليه. ولهذا نرى الناس فى طرابلس وغيرها مقبلين على هذا المؤلف اقبالاً عظيماً، ويحبونه محبة شديدة.

وقد اضاف المؤلف الى مصنفه قدوداً اعدها لتنشد اثناء تلاوة المولد. ويوجد بين هذه القطع الصغيرة، ما هو جدير بالاستحسان: ولاسيما خطابه لآل النبى، حيث يقول فيه:

اضاءتم شموسا بافق الحجاز
وفيكم انارت قلوب العباد
هداكم دعانا لخير المجاز
ففزنا جميعاً ونلنا المراد
اليكم شكونا صروف الزمان
وجور الرزايا وظلم الطغام

وفيكم رجونا بلوغ الامان
ونيل الامانى بدار السلام
فيا آل طه اغيثوا الدخيـل
ومنوا بوصل شفاء القلوب
بجاه التهامى العظيم الجليـل
شفيع البرايا بيوم الكروب

وهذه الابيات تمتاز عن غيرها، من حيث الوقع والمضمون. والمسحة الشعرية. ويروى ان للمرحوم مؤلفات لم تطبع، غير هذه القطع، وعليـه لم نر مساغاً لابداء الراى دون ان نطلع عليها. ولكن لا بد ان تكون مشحونـة بالحسيات الدينية كبقية مصنفاته.

ولا ريب ان الوصف الدينى والعلمى له نصيب فى «الشيخ حسين افـندى» اكثر من السجية الشعرية.

ونرى هذا الوصف الخاص يتجلى فى اشعار جميع العلماء الطرابلسيين، ممن يضاهى الشيخ المرحوم، او يقاربه فى الوصف.

اما شعراء اليوم فاننا نخص بالبحث منهم «عبد الحميد افندى الرافعى»، وهو اشهرهم واعرفهم:

ولد عبد الحميد افندى فى طرابلس سنة (١٢٧٨). ووالده «عبد الغنى افندى الرافعى» كان من اشهر علماء الثغر وشعرائه. وينتهى نسبه الى «عمر الفاروق» رضى الله عنه. وكان يتلقى علومه عن الشيـخ حسين افندى الجسر منذ حداثته، وكان الشيخ لا يخـلو من الاعجاب بذكائه الحاد لانه كان يحفظ القصيدة المؤلفة من عشرات البيوت بتكرارهـا مرة او مرتين. ويبرهن عن قوة حافظته وفرط ذكائه. وان السليقة الشعرية التى ورثها عبـد الحميد افندى عن ابيه الشاعر كانت تنمو بتأثير البدايع الطرابلسيه من جهة؛ وتنكشف بما يتلقنه بين الارشادات الادبية من والده وشيخه من جهة اخرى. ثم ان اشتغاله بالتحصيل المدرسى مقدار اربع او خمس سنين احدث له علاقة فى العلوم الشرعية واللغوية. ثم سافر الى مصر ودرس العلوم فى الكلية الازهرية مقدار اربع سنين، ثم قفل الى وطنه. وقـد صقل المحيط المصرى سجيته العلمية والشعرية.

وبعد رجوعه الى طرابلس استخدم فى بعض الوظائف العدليـة، ولم يلبث ان سافر الى دار السعادة سنـة (١٣١٥)، فالف كتابه (مدح السيد الرفاعى) وقدمـه الى ابى الهدى افندى الذى كان من مقربى السلطان عبد الحميد. وعليه نال القائمقامية ورجع الى سورية. وكانت مأموريته فى قضاء عجلون والناصرة والحصن. ثم احيل على التقاعد.

برهن عبد الحميد افندى عن ذكائه ودرايته فى كل وظيفة تقلدهـا ، ومع ذلك فانه كان محكوماً لسجيته الشعرية . وقد بدل اللباس العلمى بعد تقلده القائمقاميــة . ولكنه لم يزل متمسكاً باوصافه العلمية . وهو على غاية من حسن الخلق والتقوى ؛ وله الميزة الحقيقية بفضله وعلمه ، وهو شاعر قبل كل شيء . ويعرف لدى منتسبي الادب بشاعر الفيحاء . وهو اليوم لا جرم اعظم شاعر عصرى فى سورية . وقد كان فى الدور السابق ينشر اشعاره بواسطة ابى الهدى افندى ، اما بعد الدستور فشرع ينشرها فى مجلات مختلفة . وانه لم يجمع اشعاره المتفرقة ، ويطبعها فى ديوان آخر .

لقد ابدع عبد الحميد افندى كل الابداع . واقتدر على اظهار براعته ورقته الشعرية فى ديوانه الذى اتحف به ابا الهدى افندى ؛ ومع ذلك فان انفس اشعاره ، هى التى نشرت فى مجلة الزهور المصرية . ومنها قصيدة « المشيب » التى مطلعهـا :

يا شيب عجلت على لمتى
ظلماً فيابن النور ما اظلمك
بدلت بالكافور مسكى وما
اضواه فى عينى وما اعتمك

ان هذين البيتين الناطقين بتألم الشاعر من معاجلة الشيب له ، فيهما الدلالة الكافية على رقة شعوره ، ونزاهة خياله . ثم قال بعد هذين البيتين :

من يقبل الفاضح من ساتر
فهات ليلاى وخذ مريمك

وهنا ايضاً قد نفخ من روحه فى خياله حتى جعله حياً محسوساً .
ثم قال فى آخر القصيدة :

يا رب ما طال زمان الصبى
كانه طيف سرى وانهمك
وهكذا الايام تطوى بنـا
سبحانك اللهم ما اعظمك
رضيت يا ربى بما ترتضى
فـلا تخيب مذنبـاً يممك
وانت ياشيبى خذ بى الى الـ
تقوى عسى الرحمن ان يرحمك

وهنا تسلطت القوة الدينية على الشاعر فنقلته الى الديار الفكرية ، ولكنها لم تسقطه عن عرش شاعريته .

وله قصيدة عنوانها « دعاء الحبيب » نشرتها مجلة الزهور ايضاً ، وهى من قصائده الغراء. وقد قال فى مطلعها :

سلوها لماذا غير السقم حالها
ترى شغفت حبا والا فما لها

ثم شرع يبث الى محبوبته ، ارق شعوره ، وانزهها . فقال :

وكم غربة قاسيت من اجل حبها
اجوب الفيافى سهلها وجبالها
ولولا الهوى ما هام فى الكون واحد
ولا فارقت اسد العرين دحالهـا

ويمكن ان يقـال ان الشاعر توفق فى هذه القصيدة الى التعبـير عن جميع اضطرباته الغرامية ، بلسان رقيق ومؤنس .

وله قصيدة اخرى نشرها فى المجلة عينها وسماها (سجن الهوى) ، ومطلعها :

اصل سقمى من العيون السقيمه
وانحنائى من القـدود القويمه

وقصيدته التى عنوانها « الى شاعر الامير » . وقد خاطب بها احمد شوقى ، اشهر شعراء العصر فى مصر . ومطلعها :

خلق فكرى فى سماء الخيال
وساح فى سوح المعانى وجال

وهما من غرر قصائده .

لا بد ان اذكر بضعة ابيات لعبد الحميد افندى قالهم متحمساً كبقية الطرابلسيين فى خال بين حاجبين :

الخال

قلت لخال بين حاجبيهـا
انت الذى تلعب بالسيفين
فقال لا لكننى عنبرة
تمد من دخانهـا قوسين
اصون بالبخور حسن وجهها
خوفاً عليه من سهام العين

وهذه القطعة هى نموذج للشعر الشرقى بحثهـا عن اللعب بالسيف ، واستعمال البخور ، ونظرة العين ، من العوائد الشرقية وقصارى القول ان الصفة الخاصة فى شعر عبد الحميد

افندى ، هى الرقة والانسة . ولا حرج على الطرابلسيين مهما افتخروا بهذا الشاعر الفرد. ولهذا فان اشعاره لا تزال تهفوا اليها القلوب فى طرابلس وسائر الاقطار والامصار .

واسرة « الرافعى » التى ينتمى اليها عبد الحميد افندى لم تزل مصدراً للشعراء المجيدين، ولهذه الاسرة شعبة فى مصر، نبغ فيها مصطفى افندى صادق الرافعى ابن عبد الرزاق افندى الرافعى، المولود سنة ١٢٩٨ فى قرية بهتيم من اعمال مصر، وهو اليوم من الطبقة الاولى بين شعراء القطر، وله ديوان اشعار جمعه فى ثلاثة مجلدات. وله تأليف آخر سماه « النظرات ». (*)

***

علمنا من هذا الاجمال فى ادبيات طرابلس ان محيطها البديع نال الحظ الاوفى من هذا الفن الجميل . ولها اليوم عدة شعراء من الشبان ، ينتظر الآتى منهم النجاح الكامل . وعليه فان القلب مطمئن من آتى الادبيات فى هذا الثغر ، ولكن فن الموسيقى لم تنجلى عنه الغشاوة الاهالية هناك ويا للاسف .

هذا وان كان اكثر من نصف الطرابلسيين رجالاً ونساءً يحنون الى اعوادهم ، ويحبون انين ارغنهم « بيانو » واكثرهم يستمد سروره من صوته المطرب . ولكن لم نعثر على دليل يبرهن لنا عن ابداعهم شيئاً فى هذا الفن الجميل . والرقص ايضاً لا يزال مهملاً كالموسيقى ، وهو على حال ابتدائى . اما الفنون الجميلة الاخرى ، فلا اثر لها فى ذلك القطر ولو ان الطرابلسيين غمسوا مرسمهم « فورشاية رسم » فى الوان محيطهم البديع لتسنى لهم ابداع صحائف لا مثيل لها . اما الفنون الباقية ، كنحت الهياكل والتماثيل ، وفن المعمارى فلا ادرى باى حق نستطيع ان نتحرى عليهم ، وانه اولى لنا واسلم ان نسكت على مضض ونكتفى بالوجود ونقنع به .

٨ — النهضة العلمية ، وحياة الطباعة

[١] — *النهضة العلمية* — اذا اردنا الاطلاع على درجة النهضة العلمية فى طرابلس يجب علينا اولاً ان نلتفت لفحص المؤسسات التى هى مصدر العلوم ، ثم ندقق المؤلفات الموجودة ، اى نضطر للاقبال على تدقيق النتائج المادية والمعنوية .

سبق لنا ان بحثنا عن المؤسسات العلمية التى هى اقوى المؤثرات فى النهضة العلمية . فاذا اجملنا ما فصلنا هناك ، نصل الى اساسين :

(*) شعراء العصر — محمد صبرى .

(١) — المدارس العلمية ؛ (٢) — المدارس الرسمية .

ان قيام المدارس العامية فى طرابلس بنهضة علمية ، هو مما لاينكر . ولكن يجب علينا ان نختبر ماهية تلك النهضة . من المعلوم ان العلوم التى تدرس فى هذه المدارس هى العلوم الشرعية واللغوية فقط ، ولهذا تكون ماهية النهضة منحصرة فى تعلم التفسير والحديث والفقه . وعلم الكلام من العلوم الشرعية ؛ واللغة والصرف والنحو ، والبديع والبيان وغيرهم من العلوم اللغوية والادبية .

ثم اذا علمنا ان اكثر المتخرجين فى مدارس طرابلس ممن ايد النهضة العلمية باشتغاله بالتدريس ، وتأليف الكتب ، كان من المتخرجين فى كلية الازهر ، نعلم ان المؤثر الحقيقى فى النهضة الشرعية والادبية . هى المدارس المصرية .

ولا يدور فى خلدنا ان نؤمن بلا ترو بان هذه النهضة على شكلها المعلوم خلقت الانتباه، والرقى الفكرى ، بل نجد من الضرورى ان ندقق الزمان ، وننظر الى ماهية العلوم التى كانت الروح الاساسية لتلك المدارس .

كانت اصول التعليم قبل العصر الحاضر الذى توجهت فيه العلوم والفلسفة الى غايتها الكمالية ، مبنية على النظريات القديمة ،وعليه فان النقائص والخطيئات التى غشيت اصول التدريس فى ذلك الدور ،هى جديرة بالعفو والاغضاء ، اما بعد الآن . او بالاحرى فى هذا العصر الحديث ، فلا يسوغ للمدارس ان تحافظ على نقائصها القديمة . لاسيما اذا علمنا ان العلو الدخيلة والآلية كانت تلعب الادوار الخطيرة فى المدارس القديمة الراقية ، فبماذا نفسر اليوم عدم تمكين العلوم العصرية من انارة هذه الحجرات التى خنقتها الظلمة ، ام كيف يمكن الانتباه والرقى ، اذا اكتفينا بالعلوم الشرعية ، ودراسة الادبيات على شكلها المدفون فى بطون القرون الخالية ، وأهملنا العلوم المثبتة والتجربية ، واغضينا عن الاصول الحديث وهى من امهات المؤثرات فى حصول اليقظة ، وتطرق منهاج الكمال . . ؟

ولهذه الاسباب لا يجوز لنا ان نلوم العلماء الذين سجلت اسماؤهم فى تاريخ العلم الطرابلسى قبل هذا الدور اما منتسبو المدارس فى هذا العصر فلا يعذرون على ابتعادهم عن الرقى العصرى ، ولا يجدر بهم ان يمكثوا واقفين على علوم بلغت كمالها فى القرون الماضية ، ويجهدوا انفسهم لتأليف كتب لا يمكنهم ان يبلغوا بها كعب الفطاحل من العلماء الاقدمين، ان سعيهم هذا لمردود فى الحافرة . وانهم عليه لملومون

هذا وان يكن وجد بينهم علماء تضلعوا فى علومهم التى اختصوا بها ، ونالوا الشهرة العظيمة بتدريسهم العلوم فى المدارس ، وبمؤلفاتهم المطبوعة وغير المطبوعة ، مثل «الشيخ درويش التدمرى » و « الشيخ عبدالله الصفدى » و « الشيخ عرابى » و « الشيخ محمود النشابه » و « الشيخ عبد الغنى الرافعى » وغيرهم من العلماء الاجلاء . على ان النهضة

العلمية التى قام بها هؤلاء العلماء فى طرابلس ، كانت ناقصة النتيجة لانها لم تستهدف المثل العصرية ، حياتية او علمية ، ولم يمازجها شيء من فلسفة العصر الحديثة . ولهذا فان هذه النهضة لم تكد تحدث شيئاً من الانتباه واليقظة التى تناسب هذا العصر .

نريد قبل ان نتم بحثنا عن المدارس ؛ ان نبحث عمن ادرك هذه النقائص ، وحاول تلافى الامر ، بمزج الاحكام الدينية ، بالاحكام الفنية والفلسفية .

ما لبث هؤلاء ان نهضوا وشرعوا بالسعى لتحقيق امانيهم ، ولكن عدم اطلاعهم على الفلسفة ، والعلوم العصرية اوقعهم فى اعسر الاشكال. ومع هذا فاننا لا ننكر انهم توفقوا الى تبديل الحركة القديمة — وان لم يستطيعوا توجيهها الى هدفها الحقيقى — واوجدوا فى محيطهم استعداد التوجه فى الآتى الى هذه الغاية المثبتة .

نخص بالذكر منهم « الشيخ حسين افندى الجسر » الذى بحثنا سابقاً عن منظوماته .

ولد هذا العالم فى طرابلس سنة (١٢٦١) هجرية . ومنذ حداثته اخذ يتلقى مبادئ العلوم من «الشيخ عرابى» الذى كان من اشهر العلماء فى عصره ، ومن صهره « الشيخ عبد القادر افندى الرافعى » . ثم سافر الى مصر سنة (١٢٨١) واقام هناك الى سنة (١٢٨٦) يتلقى علومه فى الكلية الازهرية من « الشيخ الانبابى » ومن « الشيخ عبد القادر افندى الرافعى » مفتى الديار المصرية . وبعد ان اتم الدراسة قفل الى وطنه فى هذا التاريخ . وشرع يشتغل بالتدريس فى المدرسة « الرجبية » ، وخف اليه كثير من التلاميذ . وكان يدرس العلوم الشرعية ، والآلية ، والدخيلة ، وعلم الكلام . ويلقن مسلك الامام « فخر الدين الرازى » ايضاً .

اسس الرهبان « فرەر » مدرسةً فى طرابلس سنة (١٢٩٧) فرأى الشيخ حسين افندى ضرورة تأسيس مدرسة اسلامية فى هذه البلدة ، ونهض فأسس « المدرسة الوطنية » وكانت تدرس فيها العلوم الشرعية وغيرها ، واللغة الفرنساوية . وقد حصلت هذه المدرسة على الرغبة العمومية لانها كانت تقبل التلاميذ من غير المسلمين ايضاً . حتى انها حصلت على تقدير مدحت باشا الشهير ، واعجابه . ولكن لم يطل امر هذه المدرسة ، بل عطلت سنة (١٢٩٩) ثم بعد سنة اسست المدرسة السلطانية فى بيروت ونصب الشيخ حسين افندى مديراً لها . ولكنه لم يلبث فيها الا مدة وجيزة ، ثم استقال منها ورجع الى طرابلس وعاد الى تدريساته المدرسية . ثم نشر رسالته الدينية المشهورة المسماة بالرسالة الحميدية التى ترجمها اسماعيل حقى افندى المناسترلى الى التركية ، وفسر مضمونها احمد مدحت افندى . ويروى ان هذا الكتاب نقل الى الفرنساوية ، ولغة « اردو » ايضاً .

ان هذا المؤلف اظهر الى الناس علو مقام الشيخ حسين افندى ، واعلى رفعته . ثم دعاه السلطان عبد الحميد سنة (١٣٠٩) الى العاصمة ، فذهب اليها والف كتاب التوحيد

الذى سماه « الحصون الحميدية » فى قصر ييلديز . وقد بحث الشيخ فى هـذا الكتاب عن الشبهات الدينية ، وتوخى فيه التأليف بينها وبين الاسس الفلسفية والفنية الحديثة . ونقل هذا الكتاب الى التركية بقلم « يابان زاده مصطفى ذهنى باشا » .

اقام الشيخ حسين افندى فى العاصمة مقدار تسعةاشهر ، ثم رجع الى طرابلس ،وعاود الكرة الى العاصمـة مراراً عديدة ولكن كان يمضى اكثر ايامه فى طرابلس وكان يشتغـل بتدريس العلوم فى جامع (طينال) [*] ، ونور كثيراً من الطلاب بهذه الواسطـة . ولم يزل منكباً على هذه المهنة حتى عاجلته المنية سنة (١٣٢٧) هجرية .

والف الشيخ حسين افندى كتاباً سماه « مهذب الدين » بحث فيه عن ازاحةالشبهات الدينية بلسان عامى ، وله فى جريدة (طرابلس) مقالات عديدة ، دينية واجتماعية .وقد جمعت ادارة الجريدة جميع هذه المقالات ودونتهـا فى كتاب مخصوص ، وسمته « رياض طرابلس » .

ومن مصنفات الشيخ المطبوعة منظومته المولدية المسماة بالبدر التمام فى خير الانام ،التى مر علينا بحثها فى فصل الادبيات . ويروى ان له ديوان اشعار غـير مطبوع حشد فيـه اكثر من ستـة آلاف بيت من الشعر وتأليف آخر فى البديع والبيان اسمه « الجوهر المكنون » وهو لم يطبع بعد .

فاذا امعنا فى مصنفات الشيخ حسين افندى ، بصرف النظر عن قيمتها الادبية التى مر ذكرها فى البحث الخاص ؛ نجدها مبنيةً على فكرة دينية . وعليـه فان الافكار ، والاسس الاجتماعية والفلسفيـة التى وجدت فى تلك المصنفات ، ما هى الا واسطة لاظهـار تلك الغاية الاساسية . ولهذا نرى من الضرورى ان نضرب عن ابداء الرأى ، وبيـان الفكر عليها :

ولا بد لنا ان نعترف بعلو مدارك الشيخ حسين افندى الذى اطلع على احتياج الناس ، واطلق العنان لقلمه على ما يناسب المقام مع شدة تمسكه بمحافظة القديم . ونحج بان القى بمقالاته فى المحيط ، وعالم الطباعة حركة محسوسةً . وأسلم بمزيته العلمية وفضله .

* * *

ها نحن ننقل البحث الى المدارس الرسمية و الحديثة، بعد ان بحثنا عن النهضة العلمية فى المدارس الشرعية او القديمة .

نعلم ان هذه المدارس خلقت لاجل افهام الناس ضروريات المدنية ، وتعليمهم الفنون الحديثة واللغات الغربية ، واخذت على عهدتها اكمال نواقص المدارس القديمـة ، واعداد

(*) يعرف عند الطرابلسيين باسم (طيلان)

نهضة علمية ، وتكوين محيط منور يضم الحرية والمدنية . ولهذا فاننا سندرس هنا المدارس الحديثة التى اسست فى طرابلس ، ونسعى لنطلع على درجة انطباقهـا على هذه الغايات .

ذكرنا سابقاً ان المدارس الحديثة الرسمية او الخصوصية تنقسم الى ابتدائى وتال ، ثم رتبنا جدولاً حررنا فيه عدد الذين تخرجوا فى هذه المدارس ، والحقنا بهم المتخرجين فى مدارس بيروت واستانبول واوروبا . ومن هـذا نعلم ان قد وجدت فى طرابلس طبقـة منورة ، عندها المام بالفنون الحديثة ، ومعرفة بالمدنية واسباب الرقى ، وانها لا تزال تتدرج بالازدياد والتكاثر .

ولكن ما رأينا الى الان احداً من هذه الطبقة التى تقلد اكثرها بوظـائف الدولة ، اوجد مصنفاً مادياً يخدم به العلم والعرفان . وهذا يدلنا على ان هذه الحركة العلمية التى كان الواجب فيهـا ان تستهدف النور المحض ، لم تجد قدرةً للمثابرة على سيرها فى هـذا الزمن ، ولهـذا السبب لم ينضج لهـا ثمر . ومع هذا فلا بد ان ياتى يوم ينبغ فيـه ذوو الاختصاص من ابناء هذه الطبقة ، وهنالك يكون للعلم ما يشاء من الحـظ الاعلى فى مساعيهم وخدماتهم .

لا بد لنا ان نستثنى من اجمالنا هذا رجلين جديرين باحسن الذكر من رجال طرابلس . وهذان الركنان هما من متخرجى المدارس الحديثة ، وهما بمثابة مبشرين للنهضة العلميـة فى طرابلس . وهما « نوفل افندى نوفل » و« جرجى افندى يني » .

اما نوفل افندى (*) فقد ولد فى طرابلس سنة (١٨١٢) ميلادية . وهو ينتمى الى اسرة مسيحية عرفت بقدمها . وابوه « نعمة الله » وجده « جرجس نوفل » . وقد اشتهرت هذه الاسرة بخدمتها فى الدولة العثمانية منذ اكثر من ثلاثة قرون .

درس نوفل افندى العلوم الابتدائية فى طرابلس ، وتعلم مبادىء اللغـة العربية ، وتلقى عن والده الخط والانشاء . ثم سافر والده الى مصر سنة (١٨٢٠) واخذه معه ، فدخل هناك المدارس الحديثة التى اسسها محمد على باشا . وبعد ان اتم تحصيله انتسب الى قلم التحريرات فى الديوان الخاص الذى كان ابوه مستخدما فيه ومكث هناك مدة .

رجع نوفل افندى الى طرابلس سنة (١٨٢٨) ورغمـاً عن حداثة سنه استخـدم فى مأمورية المحاسبة فى طرابلس واللاذقية مقدار سبع سنين . ولما قدم ابراهيم باشا المصرى — الذى قتل ابا المترجم نعمة الله افندى سنة (١٨٣٠) — الى سورية اراد ان يكفر السيئة التى اقترفها فدعى نوفل افندى اليه واحسن صلته .

تقلب نوفل افندى فى عدة مناصب ادارية ومالية فى انحاء سوريـة الى تاريخ (١٨٦٣)

(*) مشاهير الشرق — جرجى زيدان ج ٢ ؛ ص ١٣٦ — ١٣٩ .

ثم جاء الى بيروت ونصب ترجماناً فى القنصلية الالمانية، ثم فى القنصلية الاميركانية. ثم ادركته المنية سنة (١٨٨٧) ميلادية.

امضى نوفل افندى عشرين سنة من اواخر حياته فى سعى متصل. وكان يشتغل بمطالعة الكتب. وكان له مكتبة فيها مآة من الكتب التركية والعربية. وقد وقف هذه المكتبة الى المكتب الاميركانية، وعليه فقد سلمت بعد وفاته الى هذه المكتبة.

كان نوفل افندى يتصفح المصنفات من جهة، ويحرر المقالات والرسالات والكتب من جهة اخرى. وكان ينشر مقالاته فى مجلة «الجنان» وجريدة لسان الحال.

وكان يترجم فى بعض الاحايين كتباً عن التركية. وقد نقل الى العربية عن التركية «قانون المجالس البلدية» و«اصول الجراكس ومعتقدهم» و«الدستور العثمانى» و«حقوق الدول».

ولا جرم ان مصنفات نوفل افندى هى البرهان الناطق فى الدلالة على غزارة علمه، وسعة اطلاعه. اما مصنفاته فهذه اسماؤها:

١ — (زبدة الصحائف فى اصول المعارف). طبع هذا المصنف فى بيروت سنة (١٨٧٣). بحث نوفل افندى فى هذا الكتاب الضخم عن تاريخ العلوم القديم والحديث عند الامم المتمدنة. ثم عن تاريخ فلسفة الكلدانيين والفنيقيين والايرانيين والهنديين والصينيين والمصريين واليونانيين وعن فرق الفلاسفة، وبالنهاية عن فلسفة العرب. ثم نقل البحث الى اصول العلوم وتاريخها، وبحث عن المنطق واللغة وغيرها. وبعد ان بحث عن اصول العلوم الرياضية والطبيعية والطبية والتاريخية والجغرافية، انتقل الى العلوم الحديثة وبين الآراء الفلسفية والتاريخية فى علم الطبقات الارضية والكيميا والمعادن والنباتات.

٢ — (زبدة الصحائف فى سياحة المعارف). وهذا الكتاب يبحث عن استحالات الفلسفة والعلم وتداولهما.

٣ — (سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان). وهذا المؤلف عبارة عن تاريخ مفصل فى الاديان.

٤ — (صناجة الطرب فى تقدمات العرب). وهذا الكتاب يشهد لمؤلفه بتضلعه فى الادبيات العربية، وسعة اطلاعه على اخلاق القوم وعاداتهم.

بحث فى مقدمة هذا الكتاب عن الاحوال الجغرافية فى جزيرة العرب، ثم انتقل الى العرب فبحث عن اقسامهم واديانهم ومعابدهم، اخلاقهم وشجعانهم وفصحائهم، ثم ذكر اسلحتهم وحروبهم وتكلم عن الادبيات العربية. وذيل هذا الكتاب بفذلكة تاريخية بحث فيها عن الحكومات العربية منذ الخلفاء الراشدين الى العباسيين.

٥ — (الرد على الغضنفرى). وهو كتاب انتقادى.

وقصارى القول ان نوفل افندى من الذين لهم الموقع الاسمى فى تاريخ العلم السورى لا فى النهضة العلمية الطرابلسية فقط . وعليه فليفتخر الكيان العامى فى طرابلس بما خلفه هذا المبشر المبجل من الآثار النفيسة .

*
* *

ان المبشر الثانى للنهضة العلمية فى طرابلس هو « جرجى افندى ينى » كما ذكرنا سابقاً :

درس جرجى افندى مبادئ العلوم فى طرابلس، ثم دخل الكلية الاميركانية فى بيروت واتم تحصيله فيها . ثم انكب على مطالعة الكتب الفلسفية والاجتماعية والتاريخية ، واخذ يدأب لتأليف الكتب . وبعد اعلان الدستور اتفق جرجى افندى مع اخيه « سموئيل افندى ينى » واسس مطبعة « الحضارة » . وانشأ مجلةً شهرية سماها « المباحث » . وقد كانت هذه المجلة تضم المقالات التاريخية والاجتماعية ، والادبية والفنية . ودامت هذه المجلة الى اوائل ايام الحرب العامة . ان « لجرجى افندى ينى » مؤلفات عديدة نكتفى بان نذكر من مطبوعها « تاريخ سورية ». طبع هذا التاريخ سنة «١٨٨١» فى بيروت. وهو زبدة اتعاب جدية ، ونتيجة تدقيقات عميقة ؛ ويناهز ستماية صحيفة ، ويتألف من مقدمة تبحث عن الاحوال العمومية فى سورية ، ثم من مجمل تاريخ الامم السورية منذ الفنيقيين الى يومنا هذا ، ثم يتبعه اجمال تاريخى عن اشهر البلاد السورية ، وان الجدية التى تجلت فى هذا الكتاب هى جديرة بالذكر .

وقصارى القول ان جرجى افندى الذى اربى سنه اليوم على الخمسين، يعتبر من اركان النهضة العلمية فى طرابلس بمؤلفاته وسعة اطلاعه .

[٢] — حياة الطباعة — ان النهضة المدنية التى شوهدت فى طرابلس فى السنين الاخيرة ، كانت سبباً لايجاد الحياة فى الصناعة النشرية .

نعم اذا نظرنا الى ازدياد عدد المطابع والجرائد فى طرابلس على مر الايام ، وتلمنا ان النشريات الطرابلسية وغيرها تنفق فى ربوع طرابلس وتروج نحكم بأن للطباعة فى ذلك المحيط مستقبلاً حسناً . هذا وان كان اكثر الجرائد الموقوتة التى تنشر فى طرابلس، بعيدة عن المزية النشرية التى يمكن التعبير عنها — كما يقول الصحافيون — ، وعاملة لغاية التجارة التى يجب ان تكون من الدرجة الثانية ؛ مع الاغماض عن الغاية الاساسية فى الصحافة ، ولكن لا يسوغ لنا ان نطالب طفل الطباعة الحديث بهذا الكمال الذى يشترط فيه مرور الايام الطوال . ولا بد من هكذا ادوار ابتدائية يمر عليها هذا الطفل بحياته ، فى اى محل كان . وعليه فان طرابلس معذورة على هذا النقص .

ولنتكلم بعد هذه المقدمة المجملة عن المطابع الموجودة فى طرابلس ثم عن الجرائد التى فيها .

يوجد فى طرابلس ثلاث مطابع الاولى مطبعة «البلاغة» التى اسسها « محمد كامل افندى البحيرى » سنة «٣١٠» ، والثانية مطبعة « الحضارة » التى اسسها « جرجى افندى يني » بعد اعلان الدستور . والثالثة مطبعة « ناصيف افندى طوربای » التى اسسها صاحبها وسماها باسمه . اما الجرائد ؛ فها هى :

— جريدة « طرابلس » اسس هذه الجريدة محمد كامل افندى البحيرى صاحب مطبعة البلاغ سنة «١٣١٠» . وهذ الجريدة التى تصدر تارة يومية ، واخرى اسبوعية ناهزت فى عددها «١٥٠٠» . وهى جريدة دينية ، اجتماعية ، سياسية ، تاريخية وادبية .

٢ — مجلة « المباحث» اسسها جرجى افندى يني بعد المشروطية ودامت حتى اشهار الحرب ، وهذه المجلة الشهرية ، تاريخية واجتماعية وادبية .

٣ — « الوجدان » . هى جريدة اسبوعية ، سياسية اجتماعية ، اسسها « شامى افندى صادق » بعد اعلان الدستور .

٤ — « الحوادث » ، وهذه جريدة دينية تاريخية واجتماعية تصدر فى الاسبوع مرة واسسها « لطف الله افندى خلاط » .

٥ — « البرهان » ، هى اسبوعية اسسها « عبد القادر افندى المغربى » .

٦ — « البيان » ، هى مجلة دينية واجتماعية ، اسسها « جميل افندى عدره » لتنشر فى كل شهر مرة .

٧ — « الرغائب » هى اسبوعية اسسها « حكمت بك شريف » .

٨ — « المدلل » ، هى جريدة مزاحية ، اسسها « الشيخ منير افندى الملك » .

٩ — « الاجيال » ، اسسها « توفيق افندى اليازجى » .

١٠ — « السعدان » هى مزاحية واسبوعية ، اسسها « صلاح الدين افندى مراد .

٣١ — « شمس الاتحاد » ، اسسها « عبد الرحمن افندى عز الدين » .

يتضح لنا من هذا الجدول انه كان فى طرابلس اكثر من عشرة جرائد قبل ابتداء الحرب مع ان طرابلس لاتكفى سويتها لدوام حياة هذا العدد ، ويخطر للذهن امكان حياة الجرائد بقرائها فى الخارج ، ولكن هذا يتوقف على الظفر فى المزاحمة النشرية . وليت شعرى اى الجرائد فى طرابلس تستطيع احراز هذا الظفر . حتى ان قلة النسخ التى تطبع تدل على هذه الحقيقة . ولهذا يكون من الضرورى على طرابلس فى المستقبل ان تلتزم القناعة فى هذه المهنة ، وتمشى فيها بخطوات امينة ونافعة .

— ٥ —

الى حلبـا

مازلنا فى طرابلس منذ اكثر من اسبوع وان لهذه البلدة البديعة السورية من الحسن الفاتن مايمكننا من الهائنا زمناً طويلاً ، ولا سيما ان امامنا ساحة غشيها الخفاء ، وكمنت وراء الغموض والابهام بجبالها ، وانهارها ، وسهولها ، ورمالها ، وزد على ذلك المسافة التى لابد ان تأكل من عمرنا شهرين كاملين. كل هذه الدواعى كانت تقرب طرابلس من قلوبنا ، وتربطنا بتلك البلدة الساحرة ربطاً محكماً . هب رفيقى يوماً من تفكير متعب؛ وقال .

— الا يجب ان نستعد ؟

نعم ؛ يجب ان نستعد لعوم فى هذا البحر الذى لانعرف قراره ، ونجهل مقدار امتداده وسعته . وما كنا مرتاحين للسباحة فى هذه السنة لاننا ما كدنا نعين من اى جهة نزج بنفسنا على هذا البحر المجهول . وكانت قلوبنا تهتز بهذا التمنى .

— الا من مرشد يهدينا السبيل ...!

كنا نفهم بتداول الايام ، اننا نتمنى المحال . اذ لا كتاب فى ايدينا ، ولا دليل امامنا يرشدنا الى سواء السبيل . وكنا نعلم ان قلم التدقيق والبحث سيكون لنا عصا نسبر به مواقع خطواتنا العمى فى تلك البهماء [*]

سألنا من اشتهر بكثرة التجوال ، وعرف كثيراً ، من منورى طرابلس ؛

— من اين نبدأ بالتجوال ، وكيف نثابر عليه ؟

ولكن الاراء والاجوبة التى فهمناها ما كانت ترينا نوراً نهتدى به . بل كانوا يقولون:

— يجب ان تذهبوا اولاً الى « ضنيه » مركز الناحيه . هذا وان كان طريقها يتمد بضع ساعات . ولكن مصطافاً يزاحم اعلى نقاط لبنان بموقعه ، لا يستكثر فيه تعب الطريق لاسيما ماء ضنيه العذب ، واثمارها اللذيذة و ...

— ثم . . . ومن هناك ؟

— تعودون الى طرابلس ، وتاخذون حظكم من الراحة .

لا ننكر ، اننا استكثرنا ان نصرف ثلاثة ايام ، لنحظى برؤية مصطاف . ثم يقول المقتصدون فى الفكر :

— احرى بكم ان تتبعوا الساحل ، وتقطعون الرمال ، الى الشمال . . .

(*) الارض التى لا يهتدى فيها لطريق . م

لذا رأى لا يهمل . على اننا لا نقوى على قطع مرحلة تمتد اثنى عشر ساعة ، من طرابلس الى طرطوس . لا سيما على ظهور الخيل :

ولو سلمنا بوصولنا الى الشمال :

— وبعد . . . متى نتجول فى الداخل ؟

مع اننا كنا نهفوا الى تسلق الجبال ، واجتياز الانهار ، وقطع السهول ، او بتعبيرنا المشترك الى الانغماس فى عمان المجهولات .

— فاذاً الى حلبا . . . سفر فى المركبة لا يتجاوز بضع ساعات ، ثم من ورائه الداخل لبحث . . .

وهذا الاقتراح الذى لا يخطر لى الآن من هو صاحبه، كان فى نظرنا مناسباً ومقنعاً ، حتى لم نتردد بشأن قبوله البتة .

— المركبة ؛ ثم حلبا ، مركز قضاء عكار :

تربعنا فى الغد على مركبتنا ، والشمس كانت ناهضةً فى الافق ، قريبةً من الزوال.

كنا نسير على الطريق المحاذى لبقية الخطوط الحديدية المتروكة فى الجهة الشمالية من طرابلس ، ونمر على الجسر الجديد فوق نهر ابو على ، ونرى المنازل الجديدة فى طرفى الشارع تبتسم لنا . ثم بعد برهة تركنا طريق القبة على يميننا واخذنا نطوى المراحل الى الشمال . ها نحن نسير بين اشجار الزيتون الخضراء . ودام طريقنا على هذا النمط مقدار نصف ساعة .

وصلنا الى موقع « البداوى » الذى هو من الطف مقاصف طرابلس . وكان هذا الموقع عبارة عن بضعة بيوت واكواخ ، ثم يسير من الاشجار . ثم على يسار الطريق جامع صغير ، وصحن مبلط بالحجارة ، وبحيرة ينبع منها ماء كعين الديك ، ياخذ البصر ببريقه . وهذا الموقع الذى ضم مزارا لاحد الاولياء هو على غاية من القدسية فى اعتقاد القوم . واسماكه الكثيرة التى رافقت الاعوام لا تزال مصونة عن التعرض بتسلط ذلك الاعتقاد المتين .

ذكرتنا هذه الاسماك بمعتقد الاقوام القديمة . لانهم كانوا يتخذون الاحواض قريباً من تماثيل آلهتهم ، وان الحوض الذى اعد امام هيكل « عشتروت » كان فيه اسماك لا تعد ولا تحصى [*] .

بعد ان فارقنا موقع البداوى ، تحولت وجهة الطريق من الشمال الى الشمال الغربى .

(*) مجلة المشرق نقلا عن الصحيفة ٥٧٢ من المجلد الرابع من (Revue de l'Orient Chrétien) لمؤلفه ، يه (هانرى لامنس) .

وكانت الرياض تتراآى عن يسارنا من بعيد على امتداد الساحل . وعلى يميننا ربى «التربل» وكنا نسلك طريقاً صعداً ، وما لبث ان هب من جهة الغرب ريح زعزع ، خلق بحراً من العجاج تلتطم امواجه على امتداد الطريق . وكانت الشمس قريبة من الزوال ، وسلط علينا ذلك اليوم التموزى ثلة من ناره شوت اجسادنا ، وكبدتنا اشد العذاب .

مررنا الآن على الحقول المزروعة بالذرة ، وها هو البحر الازرق تتدفق امواجه وراء تلك الحدائق الخضراء .

انتهى منظر الرياض عن يسارنا بعد نصف ساعة ؛ وكنا لا نفتأ نطوى المسافات فى سكة طرابلس — حمص . وكانت على يسارنا كثارة الاحجار فى السكة الحديدية التى تمتد الى حمص كانها انقاض عمرانية ، وطريقنا ايضا كان مفعماً بها . ولهذا كانت مركبتنا تسير بصعوبة .

ثم بعد برهة تركنا مخفر (تعتور) على يميننا ، وابصرنا على يسارنا رأس (عبده) وكان بعيداً . ثم طفقت تتراآى عن يميننا القرى المتقطعة . فمررنا بقرية « دير عمار » القائمة فى جانب جبل التربل ثم بقرية « البرج » و « برج اليهودى » وغابت عن انظارنا بسرعة .

كانت وجهتنا دائماً الى الشمال . وكنا نقرب من قصبة (مينيه) التى احيطت بشجر الزيتون وكانت تتراآى لنا كميدان محشو بالخضار ، لا على شكل مركز لناحية .

لا تزال مركبتنا على سير متواصل وانقلب الطريق الصعد الى منحدر سهل ، والمنظر امامنا عبارة عن شئ من جبل ، وبضع حدائق مزروعة وطريق فاسد ، وانقاض السكة الحديدية ثم البحر . . . لم يدم هذا المنظر الا قليلاً ، ثم اجتزنا « نهر المخاضة » على جسر صغير . وها نحن بين البساتين المحيطة بمينيه .

استحال طريقنا بعد ان غادرنا بيوت القصبة الى ادغال خضراء . وكنا نرى بائعى الاثمار من رجال ونساء امام جميع ابواب البساتين التى افناها القدم ، مرتكمة امامهم على التراب اكوام الاثمار من ليمون وكمثرى وتفاح وبطيخ وخوخ وغيرها : وكل افراد العائلة يشتغلون بالبيع . ونساء المسلمين هنا يلفتون النظر بازرهم . مع ان نساء القرى فى القسم الجنوبى لا يعبئون بهذه الدنو .

مازلنا نسير على طريق طرابلس — حمص . وعلى يسارنا البحر وسكة الحديد ، وعلى يميننا الربى الصغيرة . غادرنا قرية « المحمرة » وبعد مدة اجتزنا جدول « النهر البارد » على جسر حجرى . ورأينا عن يميننا خرابة كانت محطةً لمركبات الجر الكبيرة « دهليزانس » ، ثم مررنا باراضى خالية ، ووصلنا الى محطة «عبده» الكائنة على الساحل الشرقى من مرفأ صغير . وهى عبارة عن خانين متداعيين ، وكوخ صغير للمحطة .

*
* *

لبثنا قريباً من ساعة فى هذا الظل الحزين من عبده ، تلك الروضة الخضراء الساحلية؛ ثم عدنا الى السير على الطريق . وبعد قليل تركنا سكة حمص ، و لوينا العنان الى الشمال الشرقى ، وسرنا فى طريق حلبا .

هذه سلسلة من القرى تراءت لنا عن اليمين . وهى ستمتد من قرية « تبنين » ، من « وادى الجاموس » متسلسلة الى حلبا .

كانت تلك القرى تظهر متوالية ، وكنا نحيد بسيرنا عن البحر الذى يعشى البصر ، ونركض نحو الداخل .

سرنا مدة بين الحقول ، ثم ابصرنا عن يسارنا من بعيد قرية « القليعات » ، وكانت الجداول الصغيرة التى تنحلب من الجبال تركض عن يميننا لتقطع علينا الطريق ، ثم تراءت على بعد قرى « القبة ، وادى السليم ، كفرمالكه ، ميرليا ، تل الحياة » عن يسارنا وانجلت عن يميننا قرية « بيت حداره » و « طنيعاره » .

وبينما كنا نمر على اليمين بقرى « ذوق الحصينه ، الحباصه ، الجرد ، المشالحه والحاكور » كانت الفسحة بين الجبال عن يمننا وبين البحر المرئى على بعد تتسع بحقولها المزروعة .

تسود السكينة اليوم على هذه الربوع التى استخدمها الفنيقيون السنين الطوال فى زرع حبوبهم . ومامن شىء يخل بهذا السكون الا ما يمر بنا من المكارية ارباب الجمال والحمير ، ثم على البعد فى بعض الحقول المحصودة يوجد بضعة جمال واقفين ترجمهم شمس تموز بشررها المحرق ؛ يستظل بهم قروى ملقى بنفسه على الارض ، او واقف يستريح وعصاه من وراء رقبته على كتفيه . قابض على طرفيها

ثم بعد الزوال بساعتين ، مررنا من « نهر العزقا » وهو يجرى فى واد بين هضبتى « الحاكوره » و « المينارا » .

بعد ان اجتزنا جسر العرقا ، انعطف طريقنا الى الغرب وبدأنا نسير فى مرتقى و ها نحن نتسلق جبل « ميريللا » .

عن يسارنا مرج لا تحيطه مرامى النظر من الاتساع ، يمتد حتى ساحل البحر وعن يميننا قرى « داردللوم ، كرم العصفور ، منياره » تتسلسل وراء بعضها .

ثم بعد ان تراءت قرية « الجديده » اصبحنا فى سهل مستو ، نطوى المسافات على يسار المرج . ثم بعد ثلاث ساعات من الزوال قربنا من حلبا الممتدة بهدوها فى جانب هضبة صغيرة . وهذه القرية الصغيرة المؤلفة من بضعة بيوت كانت تشعرنا لأول نظرة بانها بعيدة عن ان تكون مركزا لقضاء .

—٦—

عكار

١ — موقع قضاء عكار وحدوده

ان هذا القضاء عبارة عن اراض جبلية تمتد من الجهة الشرقية الى الشمال من مركز لواء طرابلس الشام . ويحده من الشمال قضاء صافيتا وحصن الاكراد ، ومن الشرق قضاء حمص ، ومن الجنوب لواء لبنان ثم البحر الابيض من الغرب . وطوله سبع ساعات ونصف من قرية « عدوه » الكائنة على حدود ناحية ضنية الى قرية « خربة الغزال » القريبة من قضاء صافيتا ؛ وعرضه من مرعى جردهيرى الى قرية شيخ زناد الكائنة على الساحل يقرب من تسع ساعات .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة قضاء عكار تبلغ «٣٧٦٨٤١» دونماً . منها (٢٨٥١٦٣) دونماً من الحقول و(٩٠٢٨) من مشجرات التوت والزيتون ثم (٢٥٦٢) من الكروم والبساتين . اما الباقي وهو (٣٠٠٨٢) دونما هو مخصوص لرعى الحيوانات .

اما عدد السكان فهو على ما يأتى :

جدول سنة ١٣٣٢

	الذكور	الاناث
المسلمون	٩٧٧٠	١٠٥٣٧
الروم الاورتودوكس	٦٩٦٧	٥٨٥٢
المارونيون	٤١٨٩	٤٠١٩
الكاتوليك	٣٥٦	٣١٣
البروتستانت	١٨٥	١٧٥
يكون	٢١٤٦٧	٢٠٨٩٦
	٤٢٣٦٣	

كان عدد عموم السكان سنة ١٣٢٣ (٣٠٩١٢) نسمة . فتكون الزيادة فى مدة عشر سنين «١١٤٥١» نسمة ومن العبث ان نحاول الاطلاع على اسباب هذه الزيادة . لان قيود

النفوس فى هذا القضاء الذى تكون اكثر انحائه من جبال عكار لم يعتنى بها كما يجب ، والاحوال الصحية ايضاً لم تعطى حقها من الدرس والتنقيب. ولهذا نرى ان اسهل الطرائق لحل هذا المعمى ، هو حمل هذه الزيادة على سقامة القيود الرسمية . اما المدات والوفيات فى القضاء فهى على ما يأتى :

كانت المدات فى هذا القضاء سنة ١٣٢٧ (٢٦٣) ، وسنة ١٣٢٩ (٥٢٥) ، وسنة ١٣٣٠ (١٨٠) والوفيات (٩٥) و(١٦٤) و(١٥٧) فى السنين الثلاث .ويجب ان لا نعتقد بقيام القرويين المبعثرين فى انحاء جبال عكار ، بوظيفة الاخبار عن حادثات النفوس . ومن المحقق ان هذه الارقام حررت فى سجلات النفوس بحسب الاهواء ورجم الظنون .

٣ — الاحوال العمومية فى القضاء

يمكن تقسيم القضاء الى ثلاثة اقسام حسب طبيعة التكون . فالقسم الاول عبارة عن السهول ، وطوله ست ساعات ونصف وعرضه ثلاث ساعات فقط ، واراضيه عبارة عن الاتربة اللحقية كما هو الحال فى سهول طرابلس وهو على غاية فى الانبات ، ولاسيما الانحاء الريانة منه . ويوجد على الساحل سلسلة من الهضاب تبعد عن بعضها مقدار ساعة ، وتوجد فوق كل واحدة منها آثار لقلاع منهدمة .

اما القسم الثانى فيسمونه « الوسط » ، والثالث « الجرد » وارتفاع الاول عن سطح البحر يتراوح بين (٣٠٠) و (٦٠٠) متراً . اما ارتفاع الجرد فهو يتداوز بين (١٠٠٠— ١٥٠٠) متراً على التخمين . وهذا القسم الثالث الذى هو اعلى نقاط هذا القضاء لم يزل مستوراً بالاحراج الكثيفة حتى العهد القريب . وشجر الزيتون والتوت لم يزرع الا فى قسم « الوسط » على سفوح الجبال . ولذلك فان قرويو تلك الناحية يشتغلون بالحرير ثم باستحصال الزيت .

ليس لهذا القضاء نواح رسمية ولكن السكان وحتى الحكومة نفسها يعتبرون اطراف (قيطع) التى تضم قرى (برقايل وفنيدق) واطراف « الجومة » التى تحتوى على قرى (منياره ورحبه وبينو) اللاتى يسكنها النصارى ، نوعاً من النواحى . ثم ان سكان هذا القضاء المؤلف من (١٦٨) قرية فيهم المسلمون ، والنصارى وثالثهم النصيريون . فالنصيريون يسكنون قرى (مصلى ، عين الزيت عين تدتا ، خربة الرمان) وقرية الزاهده فى الساحل . واكثرهم مزارعون فى تلك القرى .

وقرى [قبيات ، عندقيب ، بينو ، قيولا ، برج عيات ، عين يعقوب ، بزبينه ، العيون

بيت ملات ، تل الشطاحة ، الرحبة ، عكار العتيقه ، جبرائيل ، الخريبة ، الكوشه ، البلدة مزرعة البلدة ، الهد ، دير جنين ، كفرحاره ، حيزون ، الفنيدق ، القريبات ، الحرار ، المشمش ، المنجز] فى ناحية الوسط كاد يكون جميع سكانها من النصارى . وصنعة الحرير ارقى من غيرها فى هذه الناحية . وان ثمانية اعشار الواردات التى تحصل من هذه الناحية هى من تلك الصنعة . ويوجد فى قرية قبيات وعندقيب ستة مصانع للحرير . وكادت هذه الصنعة ان تنحصر فى مارونيي عكار .

ومن الصنايع الراقية فى هذا القضاء صنعة السجاد ايضاً . وتاريخ دخول هذه الصنعة الى البلاد السورية لا يزال مجهولاً . ومن المحقق انها انتقلت من الاتراك الذين يسكنون بضعة قرى من هذا القضاء الى من فى جوارهم من القرويين . وقد كان السجاد الذى يصنع فى هذه الانحاء مرغوباً كثيراً لدى السوريين . وسبب هذه الرغبة كان عن متانة المواد الابتدائية واستقرار الالوان على بهجتها مدة طويلة .

ثم ان السجاد الخفيف الرخيص الذى اخذت تسوقه اوروبا الى بلادنا اضر بمصالح هذه الصنعة اضراراً عظيماً ، وحكم عليها بالعقامة الدائمة . وكانت هذه الصنعة منحصرة فى اتراك عيدمون ، ولكن ما لبث نصارى عكار ان اقتبسوها وتعممت بينهم . وانشئت عدة مصانع لهذه الصنعة فى المغراقة والجديده والنهريه والرماح ، وكانت تصنع قطع السجاد من قبل على شكل مربع اى طولها مساو لعرضها . اما الآن فيجعلون العرض ذراعاً او ذراعين ، ويجعلون الطول على ما يشأون . والالوان اما قديمة او جديدة . وقد كان الاحمر والازرق من الالوان القديمة ثابتاً لا يتبدل ، ولكنه اهمل اليوم وندر استعماله . واكثر ما يستعملون اليوم اللون الاحمر الخفيف ، من عمل اوروبا وهو يتبدل سريعاً . ولهذا فان استعماله فى هذه الصنعة لمما يوجب الاسف . كان يباع الذراع من السجاد المصنوع بالالوان الثابتة باحد عشر فرانق ، اما الجنس الخفيف فكان يباع ذراعه بستة فرنكات .

اما شجر الزيتون فيوجد فى الوسط ، واكثره فوق السفوح المشرفة على قرية حلبا اما فى الساحل والجرد فلا اثر له . واحسن نوع من الزيت يكون فى قرى (الحاكوره ، برقايل ، الشيخ طابه . ومعظم اشجار الزيتون والتوت مغروس فى الاراضى التى اعدت لزرع الحبوب واكثرها فى حوزة النصارى . واشجار التوت تشغل عشر اراضى القضاء على التقريب . اما زرع الحبوب فهو شايع فى انحاء السواحل ، ويعثر على هذا المحصول فى انحاء الوسط والجرد ايضاً .

٤ — معارف القضاء

يوجد بين المسلمين خمسة فى الماة ، وبين النصارى خمسين فى المأة ممن يعرف القرائة والكتابة . وان مدارس البنات فى هذا القضاء ليس لها رواج ، بسبب غلو المسلمين فى التضييق على حرية البنات . ويوجد فى مركز القضاء مدرستان الواحدة للذكور والاخرى للاناث . وعدد الطالبين فى الاولى (١٠٠) وفى الثانية (٥٠—٦٠) . على ان ثمانين فى المأة من هؤلاء البنات لسن من المحليات ولا توجد المدارس الرسمية الا فى ست قرى بين (١٦٨) قرية . ولكل من هذه المدارس مقدار (٤٠—٧٠) طالباً . وان وظيفة التعليم و لادارة فى هذه المدارس ليست فى ايد قادرة على القيام بها كما هو الحال فى سائر الانحاء . اما المعلم الموجود فى مركز القضاء فهو نبيه ، قادر على ادارة التحصيل الابتدائى ، ولكن يؤثر عنه انه يشتغل بهذه الوظيفة بصورة وقتية . ولا يلبث متى زال مانعه ان يترك المدرسة ويرجع الى مسلكه الاساسى .

اما النصارى الذين لم يسبق لهم وضع اولادهم فى احد المدارس الرسمية لهم فى منيارة مدرسة و حدة للذكور والاناث . وقبل نشوب الحرب كان عندهم بضع مدارس اجنبية ومن الجملة انه كان للروسيين مدارس للذكور والاناث فى قرى « ديردلوم ، مينياره ، جبرائيل ، الرحبه ، بينو ، حاكور » . وكانت الجمعية الفلسطينية الروسية ترسل الى هذه المدارس المعلمين ، وتهيء للطلاب الكتب والدفاتر والاقلام وباقى لوازم التدريس بلا عوض ولاتكلف الاهالى الا باعداد مبانى المدارس . وقد كان يوجد فى كل واحدة من هذه المدارس خمسة او ستة من المعلمين و(١٥٠—٢٠٠) طالبا .

وقد اسس المبشرون الاميركانيون فى مينياره والحاكوره وبينو وجبرائيل وتل عباس مدارس تضم الذكور والاناث معاً . وهى الآن معطلة لانها اسست بدون اذن الحكومة .

ويوجد ما عدا هذه المدارس مدرسة خارجية فى عندقيت للذكور والاناث ، وفى دير منجز مدرسة داخلية ، وفى قرية «بيت» مدرسة خارجية وهؤلاء للجزويت . ثم توجد مدرسة ايتالية فى قرية قبيات . فالاورتودوكسيون من السكان يدخلون المدارس الروسية ، والمارونيون يرجحون المدارس الفرنساوية والايتالية . اما الاغنياء فيرسلون اولادهم الى المدارس الاميركانية التى يعتقدون انها ارقى من غيرها من حيث العلم والتربية .

والروسيون لم يتيسر لهم تعميم لغتهم البتة ، ولو لم تكن العلاقة الدينية لما وجدت مدارسهم الحالية عن كل مزية علمية حتى ولا طالبا .

أما اللغة الانكليزية فانها متفشية بين جميع السكان بسبب رغبتهم فى المهاجرة واقبالهم عليها .

٥ — الغلال الزراعية فى القضاء

ان أكثر انحاء هذا القضاء جبلية التكون ، ولكن يوجد قريباً من الساحل سهول جيدة ، تجرى فيها الانهار وهى منبتة خصبة . اما غلال القضاء فهى على ما يأتى :

جنس الغلال	الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيله
القمح	٧٠,٠٠٠	٤٩٠،٠٠٠
الشعير	٤٠,٠٠٠	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠,٠٠٠	٦٠,٠٠٠
الذرة الصفراء	١٥,٠٠٠	٧٥,٠٠٠
الحمص	١,٠٠٠	٦،٠٠٠
الفول	٤٠٠	٣،٢٠٠
العدس	٦،٠٠٠	١٢،٠٠٠
الجلبان	٨,٠٠٠	١٦,٠٠٠
السمسم	٢٥,٠٠٠	٥٠,٠٠٠
الزيت	٧٠,٠٠٠ شجرة	٣,٥٠٠,٠٠٠ اقه
البصل	؟	٤٢٥,٩٥٣ كيلوغرام
الفاصولية	؟	١٦,٤٣٢ «
الكروم	٤١١	١٠٠,٠٠٠ « عنب
		٢,٠٠٠ « عرق

وما عدا هذا ، يعتنى فى كل سنة بتربية ٦٠٠٠ علبة من بذر الحرير ، ويستغل منها ١٨٠٠٠ كيلو من الشرانق .

٦ — الآثار القديمة فى القضاء

توجد اليوم على هضبة امام قرية عكار العتيقه ، انقاض حصن عكار الذى كان يسكنه فرسان سن جان فى ايام الصليبيين . ويروى ان مؤسس هذه القلعة هو رجل يدعى «محرز بن عكار » . وان قد ظلت فى حوزة احفاده الى سنة (٤١٤) هجرية . واستولى عليها فى هذا التاريخ « صالح بن مرداس » حاكم حلب ، ثم بعد عشرة سنين ضمت الى السلطنة المصرية فى زمن « الزاهر » من الخلفاء الفاطميين .

وانتقل هذا الحصن سنة ٤٨٧ الى السلجوقيين فى زمن « تاج الدولة توتوش » وبعد

ذلك استولى عليه الافرنج بعد ان غلبوا صاحبه «اتابك طوغتكين».

لما استولى الصليبيون على طرابلس فى ١٢ تموز سنة ١١٠٩ عاهدوا اتابك على ان يحتفظوا على قسم من سهل البقيعة، وحصون منيتره وعكار. وان يتركوا مصياد وحصن الوادى وحصن الاكراد الى المسلمين ويتقاضوا منهم لقاء ذلك فى كل سنة مبلغاً معيناً والكن لم يلبث «طانقرەد — *Tancred*» امير «قونت» انطاكيه ان اخل بهذا العهد، وحصر حصن الاكراد وفتحه.

ويغلب فى الظن ان المسلمين استردوا حصن عكار فى زمن نور الدين. على ان هذا الظفر لم يتمادى لان الصليبيين استردوه مرةً ثانية سنة ١١٧٠. ثم ان السلطان بيبرس الذى كان عالماً بمكانة هذا الحصن الحاكم على طريق طرابلس — حمص — بعلبك وقيمته الحربية، لم يلبث ان هاجمه بعد ان فتح حصن الاكراد واستولى عليه (١٢٧١ م) وبعد ان فتحت طرابلس فى ايام السلطان قلاوون، نقل والى تلك الانحاء مركزه من حصن الاكراد الى حصن عكار.

وكان هذا الحصن فى زمن العثمانيين فى ايدى آل «بيت سيفا». ولما سخره فخر الدين امير الدروز، هدم جامعه وتكيته. ثم انشئت التكية من جديد سنة (١٦١١). وقد نقلنا عين الكتابة التى كتبها السلطان قلاون على مدخل جامع عكار العتيقة فى المبحث الخاص [*].

ويوجد فى قضاء عكار ما عدا هذا الاثر التاريخى ثلاثة خرب تسمى «عروبه» و «مرجحين» و «قلتعات» هى من بقية آثار الفنيقيين والرومانيين. وانقاض قصبة «عرقا» القديمة. وهذه القصبة هى على مسافة ساعة من «نهر البارد» القديم، وعلى الجانب الايمن من طريق طرابلس اليها؛ مبنية على هضبة تدعى باسمها، وكانت معروفة فى ايام الصليبيين وحاصر قلعتها رەيمون، ثم سخرها الفرسان المعبديون.

بنيت هذه القصبة على بلدة قديمة من بلاد الفنيقيين. ويوجد الآن بعض آثار من هيكل الزهراء الذى شيده الاسكندر الكبير فى هذه القصبة التى كانت تسمى قبل دخول الرومانيين بقصبة «سه زار ليبانى *Caesarea Libani*». و«اسكندر سه وه روس» من الملوك الرومانيين ولد فى عرقا (**).

(*) راجع ص : ١٦٥

(**) ولد سنة (٢٠٩) ميلادية. وتسلطن فى الرابعة عشر من عمره. وقد اصلح البلاد، واقبل على حماية العلوم والصنايع وقد اشهر الحرب عليه، اردشير من الاكاسرة الايرانيين ولم يحصل على فائدة منه. ثم عمد الى اصلاح جنوده وتربيتهم ليتسنى له اخضاع الجرمانيين. ولكن قتله اولئك الجنود بدسائس ماقسيمين؛ وصار الملك الى رقيبه من بعده (٢٣٥).

اما حصار القليعات فقد كان يسمى فى القرون المتوسطة « قوليات Coallth » ثم سلم « يونس » امير طرابلس هذا الحصار الصغير الى « Hôpital du Mont-Pelerin »
ولم يطل الامر حتى فتحه السلطان بيبرس عنوةً (١٢٦٦). وقد كانت سهول القليعات التى يوجد فيها هذا الحصار مسماة فى القرون الوسطى بملك الخليفة. وهذه السهول تسقى من ماء نهر عرقا.

ويوجد فى قرية عين يعقوب التى تبعد ثلاث ساعات عن مركز القضاء مقام يعقوب عليه السلام، وفى قرية عياش التى هى على عين البعد من المركز مقام الخضر عليه السلام. وفى عكار القديمة التى تبعد مسافة خمس ساعات، ضريح الشيخ جنيد، ثم على ساعة منها فى اراضى ميناره ضريح الشيخ بدر، وعلى ساعة ونصف منها ضريح الشيخ زعبي.

٧ — موقع حلبا، ومنظر ضواحيها

ان قصبة حلبا، مركز قضاء عكار من اعمال لواء طرابلس الشام مبنية فى السفح الغربى من احد الهضاب الصغيرة المتسلسلة من الشمال الى الجنوب. وهذه القصبة التى لم تجاوز بيوتها، او بالتعبير الاوضح اكوام حجارتها المائتين فى عددها. محاطة بما يماثلها من القرى، ففى شمالها قرية « الشيخ محمد » مبنية على السفح الغربى من هضبة صغيرة، ثم فى الجنوب على عين الوضع قرية « الشيخ طابه والزويره والجديدة ».

وهذه القرى الكامنة فى احضان تلك السلسلة الصغيرة، هى مختصر انموذج لصيفيات (لبنان) او بالتعبير الحقيقى، هى صورة لتلك الربوع خالية عن الاتقان والتهذيب.

على ان لتلك القرى الجبلية منظراً زمردياً، مملوءً بالانس واللطافة ولو لم تكن تلك الحجارة السوداء مطوقةً باشجار التوت والتين والزيتون، وبالخضرة المتنوعة ثم بصفائح الصبار بتلك الخضرة الخالدة، لكانت عبارة عن ركام صخرى وسلسلة احجار مصفوفة.

ما الطف واجمل ما ترون اذا صعدتم من الجانب الشرقى على « ظهر حلبا » وقربتم من قرية « عديل »، وطوحتم بنظركم الى تلك الهالة الزمردية التى طوقت حلبا واحاطت بها. هذا مستطيل منتظم يمتد من الشمال الى الجنوب؛ حشدت فيه الطبيعة صبرةً من الالوان تخسأ عن خلقها يد الصنعة والعمران، وجعلته مشهراً للنضارة والحسن.

يحسب هذا المستطيل الاخضر المائل من الشرق الى الغرب، انه قد اعد ليكون فاصلاً بين تلك الهضاب الصغيرة فى الشرق وبين الفضاء الواسع فى الغرب. وهذا الفضاء الذى امتد فى الجانب الغربى من القصبة على مسافة بضع ساعات، وانتهى على اذيال الساحل جعل حلبا تحكم على محيط فضفاض، اما فى الجانب الشمالى فتلوح جبال طرطوس من

وراء ذلك البعد الشاسع مغشاة بالابهام كانها خطوط من ظل . ثم هناك القرى الرابضة فى اكناف ذلك الفضاء ، والتلال الصناعية تلوح كانها اشباح ظلية .

لله هاتيك الربوع ما اغناها بالبدايع الفياضة ! وما اجملها من ساحة تتجلى فى عشاياها الطف المحاسن وازهى البدايع ! هنالك تنفجر عين من نور فوق هام البحر المصفر الذى ينساب وراء الافاق المرئية ، وتبعث سيالاً من النور الذهبى يغسل « القليعات » فى حضن البحر ، ثم « كفرملكه » و « ميرليبا » . فتتمتع حلبا بمشاهدة ذلك المنظر البهيج ، او اساطير الذهب التى تمثل بالحور الصفر . ويدوم هذا المسرح المذهب حتى تذوب نتف النور فوق ذلك المرج الاخضر .

ثم الشروق فى حلبا لا يقل اطافة عن الغروب . تتأخر الشمس فى البزوغ بسبب قيام الهضاب الصغيرة فى الشرق ثم تنهض فتهرق ذلك السيال الذهبى وترد لتلك الساحة فى الشروق ما اغتصبته من نورها ابان الغروب ويمشى النقص فى الظلال حتى يذوب وتنغمس تلك الميادين الزمردية فى بحر فضى . وقصارى القول ان حلبا اخذت نصيبها من جميع المحاسن المختصة بالسواحل السورية بتلك البقعة الفنيقية .

ويمكن ان يقال ان هذه القصبة — مهما كانت صغيرة — هى فى جمال المنظر ، حيفا او طول كرم ، وحتى انها جديدة ومرجعيون ، وصفد ايضاً . ولهذا لا يسوغ لها ان تتألم من فقرها بالعمران . لانها سورية ، نعم سورية حسناء

٨ — الخطوط الداخلية فى حلبا

من العبث ان نسهب فى ايضاح خطوط حلبا الداخلية ، من حيث انها مركز القضاء . لانها — كما بينا سابقا — قرية صغيرة تمكن الاحاطة بها بنظرة واحدة . اذا اغضينا عن المحاسن الطبيعية فى مستطيل حلبا المائل ، نجده عبارة عن ركام من الحجارة ، لا طلاء ولا كلس .

والبيوت التى رمى بها نحر الصخور المقورة فى الجانب الغربى من التل ، كل منها يتالف من قسم او قسمين . ولا يسوغ ان تسمى هذه الاقسام بغرفة ولا حجرة . وهى مرصوصة بالحجارة من فوقها وعن ايمانها وشمالها ، وارضها من التراب . ويندر فيها الطلاء او الرش بالكلس . فاذا كان فهو البيت المفتخر فى حلبا . والحلباريون يسكنون هذه الاوكان الحجرية مع الآلات الزراعية الحية جنباً لجنب . . . ولولا رحمة الاقليم بهم لصدأت تلك الآلات فى مقبرها ، ويبست تلك الايدى التى تديرها وتدبرها .

ويوجد بين ذلك الرديم الحجرى بضعة عمارات قرميدية تشبه البيوت ، ثم دار الحكومة

ودائرة البلدية ودار القائمقام بالمنافذ المصفحة بالبلور ، وليت شعري هل هؤلاء بيوت ؟ ام ماذا اقول ؟ . وعلى كل حال يتحتم علينا ان نسجل على اسم حلبا ومراً مدقعاً من العمران والانتظام . هذا وان كانت الاشجار الخضراء التى تتخلل ذلك الركام الحجرى توجب تسلية الفوآد وترينا حلبا بشكل محبوب ، بيد اننا نعترف بوجوب عدم الدخول الى بيوتها وعدم السير فى دروبها . وكيف يسوغ للانسان ان يطلق على تلك الانقاب الجبلة او المزلقات الصخرية الضيقة المعوجة ، اسم الطريق . ومن الغرائب ان الحلباويين يغضون ابصارهم عن الاصقاع المعمورة ، ثم تاخذهم غفلة الطفل فيزعمون ان بلدتهم العاجزة فيها اربع شوارع ! يسمون الطريق الممتد من الغرب الى الشرق « طريق الجومة » . ومرحى لهم اذ لم يتكبدوا مشقة الافتكار لانتقاء الاسماء للطرق الممتدة من الشمال الى الشرق ، ثم من الغرب الى الشرق . ولا ادرى هل يستطيع شخصان ان يمشيا مرتاحين فى هاتيك الشوارع ! ! .

واغرب من هذا انهم قسموا هذه القرية التى لا تتجزى الى خمس محلات و سموها « حارة الذوق » و « حارة الاسلام » و « حارة المسيحية » و « حارة الظهر » و « حارة الوسطانية » . ولا يستكبر على الحلباويين هذا الفكر ، لان كثيراً من المخلوقات تكون لديهم قطرة الماء بحراً خضماً .

هذا ولكى لا ينقصنا من تعريف حلبا شيئاً ، يجب ان تذكر بضعة حوانيتها المتداعية وجامعها الوحيد الابتر (لا منارة له) .

ولا ننسى ان ليس فى حلبا كنيسة مع ان اكثر سكانها نصارى . وهم يذهبون الى كنيسة قرية « الشيخ محمد » ليقوموا بوجائب العبادة . ويجب ان لا نعجب من هذه القرية التى لا ذنب لها الا كونها مركز للقضاء . لعدم تقربها من مرقاة العمران .

فالى متى يا ترى تحتفظ هذه القرية بمركز القضاء ؟ وهذه هى النقطة التى ما زالت تشغل فكرى ، وتقضى بعجبى .

٩ — الاحوال العمومية فى حلبا

ان مركز عكار هى قرية حلبا الكائنة بين (٣٤—٣٥) درجة من العرض الشمالى و٣٣٫٤٥ من الطول الشرقى . المرتفعة عن سطح البحر بمقدار ثلاثين متراً . ومجموع عدد سكانها من ذكور واناث (١١٧٠) نسمة منهم (٥١٧) من المسلمين و(٥٢٥) من الروم الاورتودوكس و(١٢٨) من المارونيين . وان الطريق الذى فتح من « خان العبده » الكائنة على طريق طرابلس—حمص والبعيدة عن طرابلس بمقدار خمسة عشر كيلومتراً ،

الى قرية حلبا ، كان واصلاً ذلك القضاء بمركز اللواء ، وسبباً لسوق كثير من الشرانق والحبوبات الى الخارج .

توجد دائرة بلدية فى هذا القضاء لهـا ملهى « قهوة » لم يكمل ودائرة مخصصة بهـا ودخلها السنوى عبارة عن (٤٥٠٠) غرشاً .

كان مركز القضاء قبل ثلاثين سنة فى قرية « ابرج » . ثم قدم محمد باشا والد على باشا احد متنفذى حلبا قائمقاماً لهذا القضاء ، فنقل المركز الى قريته . مع ان قرية برقايل ، فنيدق ، مينياره ، رحبه ، بينو كلها تفرق على حلبا بعدد السكان .

ومن شهر قرى القضاء بسهولة العيش هى قرية بينو التى سكانها نصارى ، ثم اعظمها بكثرة السكان هى قرية قبيات التى سكانها مارونيون . ونرى الافكار متضاربة بخصوص بقاء المركز فى حلبا او نقله لمحل آخر . ومن رأينا ان حلبا لا تصلح ان تكون مركزاً البتة . ويمكن نقل المأمورين الى قرية الشيخ زناد القائمة على الساحل ، او الى قرية الشيخ جابر الكائنة على حدود ضافيتا .

١٠ — الاحوال الاجتماعية

[١] — **الحياة الاجتماعية فى حلبا** — اذا ذكرنا بقلة عدد السكان فى حلبـا بحيث لا يتجوزون الالف الا بقليل ، نعلم عدم امكان وجود الطبقات المختلفة ، المتفاوتة بالاوصاف فى تلك الفئة القليلة . نعم ان الحلباويين هم على وتيرة واحدة من وجهة السجايا الاجتماعية ولا يمكن تفريقهم ، وبيان الرأى فيهم الا باعتبار الدين فقط .

نطقت قيود النفوس بان اقل من نصف الحلباويين مسلمون ، والباقى من المسيحيين . ولكن المسلمين اليوم فى حلبا لا يزيدون فى عددهم عن ربع السكان .

ويوجد بين المقيدين باسم الاسلام عائلتـان من الاسماعيليين يضمون بضع نسمات ، ثم الباقون كلهم من السنيين .

والآن بسبب وجود الشبـان فى الخدمة العسـكرية ولا يوجد فى حلبا اكثر من عشرين او ثلاثـين رجلاً من المسلمين . اما النسـاء ، فقد يصيب كل رجل اربع او خمس منهن .

ان حياة المسلمين وعيشهم فى حلبا هو على غاية من الفقر والحاجة وينذر فيهم من يكون دخله السنوى سبعة او ثمانيه آلاف غرش . ثم ما بقى منهم اما يشتغلون فى الزراعة بصورة محدودة ، واما يتخذون الحوانيت ويتعاطون البيع والشراء ويحصلون على اقواتهم اليوميـة بكل مشقة وعسر .

وربما يعالجون صناعة الحرير ، ويحاولون دفع عسرهم الحياتي بهذه الواسطة ولكن نجاحهم يكون محدوداً ايضاً . اما نساء حلبا فقد كان بعضهن لا يشتغلن قبل نشوب الحرب. اما اليوم فقد دخلن الحياة الاجتماعية واصبحن يعاون الرجال يداً بيد في الاعمال الزراعية وغيرها .

اما الاسماعيليون في حلبا فهم عبارة عن بضعة افراد ، وهم ينتمون الى شعبة «السويدانية» من الاسماعيليين (*) . ويزعم مسلمو حلبا ان هؤلاء يقومون ببعض المناسك الدينية ، ويشتركون في الصلواة الخمس ، وفي صلاة الاعياد . ويدعون انهم يصومون ايضاً . اما المسيحيون في حلبا فهم عبارة عن الروم الاورتودوكس والطائفة المارونية . وعدد رجال الاروام مائة او مائة وعشرون ، ونساؤهم على ضعف هذا العدد ، والمارونيون هم عشرون او ثلاثون رجلاً ، وثلاثون او اربعون امرأة .

فاذا قارنا بين هاتين الطائفتين المسيحيتين نجد الاروام اغنياء بالنسبة الى المارونيين وحتى بالنسبة الى المسلمين ايضاً . ويعثر بينهم على من تربو وارداته على خمسة عشر الف غرش في السنة . والباقون يعيشون كالمسلمين بحالة يرثى لها . وقسم من المسيحيين يشتغل بالحراثة والزراعة ثم منهم من يشتغل بمهنة المكاراة .

نفهم من هذا ان حياة الحلباويين الاجتماعية من مسلمين ونصارى هي على الغاية من الضنك . وهذا الحال يتضح بصورة ملموسة اذا ابصرنا داخل بيوتهم التي يأوون اليها . وقليل من هذه البيوت — كما قدمنا — مطلي الداخل بالطلاء الكلسي ، ثم معظمها اما ملطخ بالطين ، او متروك على حاله بحجارته التي بني فيها . ومن العبث ان نرتاد في حجراتهم الاثاث او سائر اسباب الزينة . بل اثاثهم عبارة عن حصير او سجادة او فراش . وكلهم على هذا النمط ، اما ضنك عيشهم فهو محسوس جداً . وان العائلات اللاتي لم ترزح تحت الديون الباهظة تعد هذا من الموفقية التي من واجبها الشكر عليها . لاسيما اذا كان الموسم غير مساعد في احد السنين فيكون الضنك العيشي على امر النتائج . ولنعترف بان الحلباويين على درجة عظيمة من القناعة ، وبما انهم معتادون على الترمق بخبز الذره والاكتفاء به ، اقتدروا على ادامة حياتهم بالاقتصاد .

ولباس الحلباويين ايضاً وضيع وبسيط . فاعظم من فيهم يلبس جبة يسمونها « بالطو » ثم سروال ، وصدار . وبعضهم يكتسي الاعبئة ، ويسترون رؤسهم بالعصابات السود «حطة» ويضعون فوقها العقل « بريم » ، وبعضهم يلبس في راسه القبعات الطوال ويسمونها «لبادة» ويسترها بعصابة سوداء ثم يجعل العقال فوقها . ويحتذون النعال « تاسومه » او الامواق

(*) سنبحث عن الاسماعيليين بحثاً مفصلا .

(جزمات) العربية . اما النساء فيمشين حفاة . ولباسهن من البز المصبوغ . والنساء المسلمات هناك لا يرين لزوماً للازر والاردية . وقصارى القول ان الحلباويين فى معيشتهم ولباسهم ليسوا الا من القرويين الفقراء .

[٢] — **العادات الاجتماعية فى حلبا** — ليس للحلباويين من عوائد محسوسة يختصون بها . وحلبا ليست من القيمة التاريخية على شيء ، وهى خلو من المزايا الاجتماعية فمن العبث ان ترتاد فيها الخلال الخاصة من حيث العادات . ومع هذا يمكننا ان نلحظ بعض النقاط ونشير اليها .

فمن عاداتهم فى الزواج ، ان يتكلم اهل الخاطب مع ذوى المخطوبة ، ويحصلون على رضائهم ، ويتفقون على بعض الشرائط الاولية، ثم يذهب شيوخ القرية ووجوهها الى بيت المخطوبة ويخاطبون اهلها فى هذه المسئلة جهاراً ويتفقون على المهر ايضاً . وحالة الفقر فى هذه القرية لا تمكنهم من الغلو فى المهر . بل ان الالف غرش فى هذا الامر تكون قيمة لا ترد وربما يعطون قطعة من الاراضى عوضاً عن المهر .

وتقضى عليهم العادة قبل المباشرة بالعقد بارسال التبغ والتنباك وغيره من المواد التى يجب صرفها فى هكذا نواد . والتقاليد عندهم فى العقد كادت ان تكون عبارة عن شرب الشراب فقط . ثم يدفع القسم المعجل من المهر ، او بالاصح ثلثاه . فيشترى اولياء البنات به للعروس بعض حوائجها . والثلث الاخر من المهر يبقى فى ذمة الزوج . وبعد اجراء النكاح بشهر او شهرين يشرع باعداد لوازم العرس . والاحتفال بالزفاف فى حلبا يكون ذا جلبة عظيمة . تركب العروس على جواد اخذ مبلغه من لزينة على النسق البدوى . ويمشى امام الجواد رجل فى يده قصبة طويلة معقود فى رأسها منشفة كبيرة . و بالتعبير الاوضح ، يرفع ذلك الرجل لواء الزفاف ، وتحيط بالعروس الاقارب والاصدقاء ويزمرون بزمارة من قصب ، او يدقون بالطبول ، ويضربون فى الابواق ويرقصون ، ويتسابقون على خيولهم ويلعبون بالسلاح حتى يصلوا بها الى بيت العريس .

تنزل العروس عن جوادها امام بيتها الجديد . ويناولونها قطعة من عجين تلصقها على جبهة الباب ، وتدخل الى البيت .

ثم يؤتى بالعريس على هذه الوتيرة . ولما يدخل البيت تكون العروس قاعدة فيأخذ بيدها ويذهب بها الى حجرة اخرى . وبهذا ينتهى الاحتفال .

* * *

وان للتبريك فى الاعياد عند الحلباويين تقاليد خاصة ايضاً يشترك فيها سكان القرى المتجاورة ، فيركبون الخيل نساء ورجالاً ويطوفون بالقرى وهم طافحون بالمسرة والنشاط

ويتهايدون على هذا المنوال . ويكرمون بعضهم بانواع الطعام .

[٣] — **الاحوال الاجتماعية فى قضاء عكار** — لا جرم ان الآراء التى ابديناها على مركز قضاء عكار لا تكون مقياساً للقضاء جميعه . ويمكن ان نقول بان لا يعثر على قصبة كحلبا ، بعيدة عن تمثيل حال قضائها . ولا يمكن فى قضاء كبير مثل عكار يضم اربعين الفا من السكان ومأة وستين قرية ان يخلو من الخلال الاجتماعية الخاصة . وعليه فاننا نجهد الان لأيضاح هذه النقاط وتفصيلها :

يرى من السهل لاول وهلة ان يقسم السكان فى هذا القضاء من حيث الدين الى مسلمين ونصارى . ونرى هذا التقسيم يكاد يكون طبيعياً لان المسلمين يقطنون فى الجهة الشمالية الشرقية من القضاء . والنصارى فى الجانب الشرقى، فى بقاع « الجرد » وفى الجهة الجنوبية منه . على ان لهذين القسمين الكبيرين اقساماً من الفروع الثانوية يجب تفريقها ويتحتم علينا ذكرها .

مثلاً : ان مسلمى عكار عبارة عن « العكاكرة » . امراء عكار « بك » . والعرب البادين م التركمان . والمسلمين من القرويين الاهليين . ويجب علينا فى البحث ان نذكر هؤلاء على الانفراد :

(امراء عكار « بك ») — يزعمون انهم جاؤا الى هذه الربوع من انحاء حكارى قبل مائتين ، او مائتين وخمسين سنة . وانهم من الاكراد ولكنهم اليوم مستعربون . اما عددهم ، فليس عليه اتفاق ، ويخمن ببضعة الاف من رجال ونساء . ويعثر بين هذه الثلة على اسماء اسر مختلفة . وكلهم قائلون بانهم من اسرة « مرعب » ثم تشعبوا وتفخذوا على مرور الأيام . ورجال العكاكرة حائزون على عنوان (**بك**) وهو سمة الاصالة ولهؤلاء الامراء احاديث فى الفروسية والشجاعة لا تزال تدور على السنة القوم من كبير وصغير ، وهذه الشهرة التى لا تزال تتكرر على مسامعهم زادتهم غروراً ، وخلقت فيهم ارواحاً متغلبة ، شان كل من رنحته الشهرة . وبين هؤلاء المتغلبة مقدار خمسة عشر ركناً هم على الدرجة القصوى فى السلطة والتحكم . ولهم لباس يتبعون فيه اسلافهم من قبعة طويلة فوقها عصابة مسورة بالعقال ، وجبة ، ثم سروال قصير ، والاحذية الطويلة السوداء فى ارجلهم . ويوجد بين هؤلاء المتغلبين من تمكن من الحصول على « الباشوية » فى الدور البائد .

وهؤلاء الذين تسلطوا على محيط عكار ، واخذوا نصيبهم من الاشتهار فيه بالتغلب والتحكم . جعلوا مراكز سطوتهم فى قرى « برقايل ، مجدله ، ببنين ، بيرى ، حوشيت ، عياد » واعظمهم غناً يقطن فى « برقايل » . ويوجد بينهم من تقدر امواله المنقولة وغير المنقولة بمائتين او مائتين وخمسين الف ليرة . واقنعهم فى المعيشة لا يقل دخله السنوى عن الفين

او ثلاثة آلاف ليرة . ويوجد فى قرى الاسلام من هؤلاء مقدار اربعين متغلباً تقاسموا حكم هاتيك الانحاء بخطوط معينة لديهم . واخذ كل منهم يجهد لنفسه فى داخل دائرته .

لو سألم احد القرويين عن تحكم هؤلاء الامراء ، لا يلبث ان يبثكم آلامه القلبية ويقول :

[لكل من هؤلاء المتغلبين الذين يناهزون الخمساية فى عددهم، رجال واعوان مجهزون بالسلاح الكامل . رهينون اشارتهم وامرهم . وقد يتفق بضعة منهم على آخرين فتتكاثف قوتهم وتقوم بينهم الحرب على سوقها . يكتسحون اشجار الزيتون ويقتلون بعضهم ويدسون اعوانهم فيسرقون الاموال ولا يدعون فرصة لاضرار بعضهم الا وينتهزونها ، وان كيد هؤلاء الاقارب لا ينحصر ببعضهم ، بل يتجاوزون على من حولهم ويرتكبون انواع الظلم والجور .

يرى احد هؤلاء المتغلبين جواداً يعجبه فيطلبه من صاحبه . فان ابى او تعلل ، لا يلبث ان يأتيه الموت من رجال ذلك المتغلب ، او يقطعون عنه الماء ، او يخربون امواله واملاكه . ولا ننسى ان الذين يطلعون على هذه الجنايات لا يتجاسرون على اداء الشهادة فى المحاكم اذا مست الحاجة ؛ والا فانهم يذوقون انكر العذاب .

ان الفقراء المزارعين الموجودين تحت رحمة اولئك المتغلبين هم فى حالة يرثى لها . لانهم يجهدون انفسهم سنة كاملة ، ثم لا يكون نصيبهم من ذلك السعى المبرح الا الخسران والحرمان . واذا اردنا ان نطلع على كيفية تطاول هؤلاء المتغلبين على المزارعين وكيف يغتصبون ثمرة مساعيهم ، فلننظر الى هذه الضرائب التى يتقاضونها من هؤلاء المساكين :

اولا — يأخذون ثلث المحصول من حيث انهم اصحاب الارض ، وعلى جرى العادة .

ثانياً — يأخذون عشر مجموع المحصول ، من حصة المزارع فقط .

ثالثاً — يتقاضون منهم مبلغاً معيناً فى السنة باسم « الدخانية » و« ثلث الضرائب » و« اجرة المسكن » .

رابعاً — يأخذون باسم (الشكاره) شنبلاً عن كل (جفت) من حصة المزارع .

خامساً — يقرضون المزارعين شيئاً من الحب ، ويحسبون عليهم ثمن الشنبل بستمائة غرش ، مثلاً . ثم يتقاضونه عند وجود الحب فيشترون منهم الشنبل بمائتى غرش ، وبهذا يكون ربحهم ثلاثة اضعاف الدين .

وقصارى القول اذا اضفنا الى ضرائب هؤلاء المتغلبين حصة من هم اقدر منهم واقوى فى التغلب ، ثم حصة بعض المأمورين الذين نبذوا الوظيفة والوجدان وراء ظهورهم ثم سهم المحصلين . وافراد الدرك (ژاندارمه) تتضح لنا حالة المزارع ، ونطلع على حقيقة امره . ولهذا يجب التسليم بان القرويين فى عكار لا يزالون يرزحون تحت اعباء

هذه القوة الغاشمة ،

ما اجدر هذه الصارخة المبكية بمغيث يضرب على ايدى اولئك الظالمين وينتصف لهؤلاء المظلومين !

لاسيما اذا فكرنا بنفقة تلك القصور المشيدة ، واولئك الحواشى والاعوان المحشدة ، ثم بتبذير هؤلاء المتغلبين الذين يقدمون الى بيروت وطرابلس لمجرد الاهواء والاذواق ، وباسرافاتهم المفرطة ينكشف لنا الغطاء عن المؤثر الحقيقى الذى يضطرهم لاتباع هذه الخطة فى ديار عكار .

ولا ننسى ان هؤلاء المتغلبين وان كانوا على الدرجة القصوى من البذخ والترف فى منازلهم ، ولكنهم يهملون كثيراً من الاحتياجات الاجتماعية . ومن العبث ان نتحرى فى ترتيب منازلهم نظاماً يرتاح له الذوق ؛ اما حياتهم العائلية فهى محشوة بكل نقص .

ومع هذا فلا يسوغ تطلب غير هذه الاوصاف من تلك الزمرة الطائشة لان الجهل الاسود لا يخلق فى هكذا محيط الا هكذا نتائج .

*
* *

ثم يوجد فى هذا القضاء — ما عدا العكاكرة — سكان الخيام من عرب البدو ؛ وهم يقطنون السهول من هذا القضاء وهم عبارة عن خمس قبائل :

١ — « عرب الهيب » . يسكنون قريباً من الجانب الشرقى من تل عباس وعددهم (١٠٠—١٥٠) ، وعدد بيوتهم (١٥—٢٠) .

٢ — (عرب الزريقات) ، يسكنون فى الانحاء الكائنة بين نهرى « العرقا » و « البارد » ولهم (٧٠—٨٠) من البيوت ، ويبلغ عددهم الى (٣٠٠—٤٠٠) نسمة

٣ — « عرب معاقل » ، يسكنون فى جوار « خان العبودية » ولهم « ٨—١٠ » بيوت وعددهم « ٥٠—٦٠ » نسمة .

٤ — « عرب الموالى » ، يسكنون فى انحاء « ديرين » و « سعدين » ولهم بضعة بيوت وعددهم « ٣٠—٤٠ » نسمة .

٥ — قبائل « نعيم الخير » و « الحديديين » و « الكعبين » ، يسكنون بين « الحريبة » و « نهر الكبير » ولهم « ٧٠—٨٠ » بيتاً وعددهم « ٣٠٠—٤٠٠ » نسمة .

ولا نحسب ان لهؤلاء الاعراب فرقاً فى الاوصاف والخلال عن غيرهم من العرب البائدة . لان ارواحهم المتشردة لا تزال مشربة بحب الخيام ولا ننسى ان هؤلاء كثيرا ما يتعرضون لاخلال الراحة العامة فى الانحاء التى يقطنونها .

*
* *

اما تركمان عكار فهم يسكنون — كما قدمنا فى البحث الخاص — فى قرى[الكواشره

وعيدمون والجديده والدوسه] وعددهم يناهز « ٦٠٠ نسمة »

وبما اننا سنبحث عن نسق حياة هؤلاء التركمان ، واحوالهم الاجتماعية اثناء التكلم عن تجوالنا فى « جبال عكار » فلا نرى لزوماً لتكرار البحث هنا .

*
* *

ثم ان بقية المسلمين فى عكار — ما عدا الذين بحثنا عنهم — يكونون طبقة القرويين . وهؤلاء لا يزالون تعساء رغماً عن استعداد اراضيهم ، وابلاغهم بالكد والكدح ، وذلك بتاثير الاسباب التى تقدم البحث عنها . ويشتغل ثلثا هذه الطبقة الكثيفة بالزراعة ، وسدسهم بالحرير ، اما السدس الآخر فهم لا مهنة ولا عمل ، يعيشون بالنقود التى ترسل اليهم من اميركا .

***

اما النصارى الذين هم اكثر سكان القضاء عدداً ؛ هم فى الحياة الاجتماعية ارقى واسعد من القرويين المسلمين . فقراهم اكثر اعماراً ، ومنازلهم اوفر انتظاماً ، وانظم ترتيباً واوفر اثاثاً . واغنى قرى النصارى قرية « منيارا » ؛ اما اعظمها عمراناً وارجحها مدنيةً هى قرية « بدنو » . وافقر العائلات المسيحية فى هذه القرية لها بيت مفروش بصورة منتظمة على قدر ما يمكنها .

ويعثر فى « منياره » و « القبيات » على بضعة اشخاص يتذرعون بمصاهرة بعض الاجنبيين ويتكئون على قدرتهم ، ويسعون لجلب المغانم بمختلف الوسائط . على ان سلطة هؤلاء لا تذكر فى جانب سلطة غيرهم ممن ذكرنا .

ثم ان للمهاجرة على نفوس هؤلاء المسيحيين سلطةً عجيبةً ، ونتيجة اقبالهم عليها جعلت اكثر من خمس سكان هذا القضاء فى الديار الاميركية . ويقولون ان نصف المسيحيين فى هذا القضاء كان يعيش بما يصل اليه من النقود الاميركية . ولذلك سقط ذوو هذه الطبقة الى حضيض الذل والفاقة منذ اشهار الحرب ولاسيما منذ انقطاع العلائق بين الدولة ، وحكومة اميركا .

اما افراد النصف الآخر من لمسيحيين فهم ارباب مشاغل ومهن . ويشتغل ثلثاهم بصناعة الحرير ، والثلث الآخر بالزراعة . ولقد تطلعنا الابحاث التى قدمناها ، عن سبب اقبال النصارى على الزراعة واهتمامهم بها . ولهذا لا نرى لزوماً لتكرار هذا البحث .

ولنذكر قبل اتمام هذا البحث ان الثروة النقدية فى هذا القضاء تقدر بمليونين ، والاموال غير المنقولة بمليون من الليرات . بيد ان هذه الثروة ليست عميمة النفع لانها منحصرة فى اشخاص معدودة ، ولهذا السبب لا تكاد تنتج بسعادة اجتماعية البتة .

[٤] — **الارقام الاجتماعية** — لاجرم اننا لا ندعى صدق هذه الارقام التى سنثبتها فى هذا البحث . ولا بانها حائزة على الشروط التى يمكن اتخاذها ركناً للقياس. بل رجحنا درج ما حصلنا عليه منها على علاته لانه لا يخلو من فائدة .

[القتل والجنح] — احيل على الهيئة الاتهامية سنة (٣٣٢) اوراق (١٤) من المظنون عليهم بالقتل فى هذا القضاء . منهم (١١) من الذكور و(٣) من الاناث اما الجنح ؛ فقد حكم على (٩٠) شخصاً فى هذه السنة بجرائم مختلفة . منهم (٢٦) حكم عليهم بالسرقة و(٢١) بالضرب والجرح . ومن هؤلاء التسعين (٤٢) شخصاً من الزراع و(٣٢) من اصحاب الاملاك و(٨) من العمال و(١٧) من العطال الذين لا عمل لهم . و(٦) من هذا العدد أناث و(٨٤) ذكور . ثم ان (٦٠) من الذكور عزاب ، والباقون من المتأهلين. ومن التسعين (١٧) شخصاً ممن يحسنون القرائة والكتابة . اما سنهم؛ فمنهم (٨) فقط بين الخمسين والسبعين والباقون بين العشرين والاربعين ومنهم (٣) سنهم اقل من العشرين .

(مقدار الكسب) — يزعم انه يوجد فى حلبا (٣٥) شخصاً يربو دخلهم السنوى عن (١٠٠٠) غرش وبينهم اربعة يربو دخلهم على (٥٠٠٠) غرشاً .

اما فى القضاء ؛ فان خمس النفوس دخلهم اقل من (١٠٠٠) ،ثم ان (٨٠) فى المائة منهم يزيد دخلهم عن هذا المبلغ .

(الصنوف الاجتماعية) — يزعم ان (١٣،٧٩٠) شخصاً من مجموع سكان القضاء يشتغلون بالزراعة ، ومقابلاً لهذا يوجد «١٣» شخصاً يتعاطون التجارة و« ١٨٥٧ » شخصاً يعيشون عطلاً بلا عمل ولا مهنة ولم ينبغ من عكار الى الان الا خمسة اطباء . وعدد اصحاب الاملاك هناك «٦٨٧٦» على التخمين. وهذا المقدار يقرب من خمس مجموع السكان وقد تجند من قضاء عكار فى هذه الحرب «٧١٥١» شخصاً . ويروى انه يوجد فيها «٢٠٠» من الرهبان.

١١ — الاحوال الروحية

يجب ان نتلقى سكان حلبا من حيث الاحوال الروحية كالطفل . لان هؤلاء الناس محرومون من السجايا النفسية التى يشعر بها، لدرجة تجعل الحكم على تبرأهم من السجايا ضرورياً . ولا نحتاج للاسهاب فى اقامة البراهين على ان هؤلاء المساكين المحرومين من كل نور ومدنية ، عبارة عن اجسام عضوية فقط . حتى ولا لزوم للامعان فى حياتهم الاجتماعية وتدقيقها وتحليلها ، وحسبنا نظرة واحدة فى تلك الوجوه والانظار لنطلع على بساطة ارواحهم وخلوها من كل معنى . وعليه ما لنا الا ان نعتبرهم اجساماً ناشفة براء

من كل علم وتجربة .

ولا جرم ان رأينا هذا يشمل جميع الطوائف الموجودة فى حلبا . وان ادرى هل الذين يحسنون القرائة والكتابة فى حلبا من مسلمين ونصارى يبلغون الى عشرة من مأة؟ وهذه القروية الشرقية البحتة يندر العثور عليها فى مراكز الاقضية . ولو صرفنا النظر عن مراكز الاقضية الممتازة فى القسم الجنوبى من ولاية بيروت كصيدا وحيفا ، ونظرنا الى جنين وامثالها نجد لها شخصية تناسبها . ولكن ليس كحلبا موقع مبرأ عن الشخصية. هذا ولنعترف ان تلك الثلة البشرية الهادئة ، المطيعة الخاضعة هى مستعدة للسوق والادارة اكثر من غيرها. فلو كان لهاقليل من الهمة لأثمرت بالنتائج الحسنة . وعليه فالتذرع بالوسائل التى تنفخ فى هؤلاء الاجسام العضوية قوى نفسية ضرورى ومحتم .

*
* *

اما الحالة الروحية فى قضاء عكار فليست على هذه الدرجة من الصفوة والفراغ . لان لكل من امراء عكار والتركمان والعرب البادين، ثم القرويين المسلمين . والطائفة المسيحية اوصافاً روحية متخالفةً .

ان معظم الامراء « بك » العكاريين ، اكسبتهم الشرائط الاجتماعية ارواحاً عصبيةً خشنة . وانهم بنسبة سرعة انفعالهم وشدة تأثرهم ، تشرأب ارواحهم الى الاصالة القصصية. فالحصول على السلطة النافذة ، وامتطاء الجياد الصافنات ، واقتناء الاتباع المسلحين ، ثم امتلاك الاراضى واستعباد القرويين ، والتمكن من الحصول على جميع الامال ، ثم الاحراز على لقب « بك » او « باشا » ، هى من امانيهم العالية ؛ وهى حالتهم الروحية الحقة .

لو تصفحتم جميع صفحات حياتهم لوجدتم هذه الآمال مسيطرةً عليهم ، فالذى يفتح ابوابهم للشارد والوارد ، ويوجد على موائدهم تلك الانواع المحيرة ، والذى يسلطهم على القروى والذى يغضبهم ويهيجهم ، والذى املاء منازلهم بالنفائس المختلفة ، هى تلك الاوصاف وهاتيك السوائق .

ويجب ان نعترف بان اصعاد هؤلاء على سلم الترقى سهل . وهذه السهولة ناشئة عن خضوعهم لحسياتهم . فكلمة « بك » او « باشا » ممزوجة بشئ من التواضع ، تنزل بشخصية هؤلاء الطبقة من الخشونة والعصبية الى اللين والانسية . وما عاش هؤلا القوم مربوطين بتلك الشنشنة الهرمة الا لانهم لم يجدوا النور الذى يحتاجون اليه . هذا وان يكن حصل فى الايام الاخيرة لدى اركان هذه الطبقة يقظة واضحة ، وكان منها ان جعلت فيهم بضعة اشخاص تخرجوا فى المدارس العالية ومثلهم فى المدارس التالية ، بيد ان هذا المقدار لا يكفى ، بل يجب الافتكار بالاسراع فى تنوير هذه الفئة التى لا يزيد مقدار من يحسنون القرائة والكتابة فيها عن نصفها . فاذا تنورت هذه الطبقة مع ما هى عليه من

الغنى فلا جرم انها تنجح ، ويكون لها فى محيط عكار الغنى بشرائطه الطبيعية انفع الاعمال.

*
* *

ان الروح الطائشة الناكبة على محافظة القديم فى التركمان والعرب الرحالة ، هى معروفة عند كل احد . ولذلك اننا نصرف النظر عنهم ، ونتكلم عن القرويين المسلمين وعن السكان المسيحيين فى عكار .

ان القرويين بسبب ما ينالهم من الظلم والتضييق الشديد ، ثم بتاثير الانحرام من وسائل التمدن والرقى ، كانوا فى الاوصاف الروحية اشبه الناس بالحلباويين . ومع هذا يجب علينا ان نفرق سكان السهول الساحلية عن سكان الجبال وانحاء « الجرد » . لان سكان القسم الاول مفطورون على الاطاعة والمسالمة ، اما سكان القسم الثانى فهم معروفون بخشونة الطبع وشدة الاصرار والعناد . وقد خرج منهم فى الايام الاخيرة شرذمة من اللصوص فى انحاء « الجومه وخربة الرمان وقيطع » وارهبوا سكان القرى الساحلية المسالمة . ولهذا فان اهالى « حلبا ومينارا والجديده والشيخ طابة » معروفون بالجبانة عند العكاريين .

اما السكان المسيحيون فى عكار ؛ فقد اضلتهم تلقينات الرهبان الذين هم اكثر من مائتين فى هذا القضاء ، وهم بالرغم عن تأخرهم بالرقى الفكرى ، ارقى من المسلمين من حيث العمل والحياة الاجتماعية . وان يكن فكر الهجرة الفت نظرهم عن وطنهم الى الخارج ، ولكن النقود التى ترسل من اميركا لا تزال تحدث العمران والانتظام فى القرى المسيحية ، لاسيما فى قرية « قبيات وبهنو » فانهما يزدادان عمراناً وانتظاماً على الدوام .

ولنعلم ان لو عالجنا تحويل تلك المساعى التى تصرف فى اميركا وارجاعها الى سورية ، وحصرها فيها فلا جرم ان بلادنا تستفيد استفادة اساسية لا قشرية .

ويزعم ان «٣٥—٤٠» فى المائة من نصارى عكار يحسنون القرائة والكتابة . وتصعد هذه النسبة فى قرية بهنو الى (٧٠) فى المائة . ويوجد بين جميع المسيحيين هناك مقدار (١٠٠) شخص من دارسى العلوم التالية .

اما الذين يعودون من اميركا فلا يبعدان يستصحبوا معهم بعض الخصائل الحسنة التى اكسبهم اياها التقليد ، ولكنهم يأتون مثقلة اعناقهم باحمال البطالة والكسل . ولاسيما ان المبالغ التى كانوا يرسلونها من اميركا تكون لهم ذريعةً لتأمين معاشهم مع العطلة . وهذا السبب خلق فى محيط عكار طبقةً من كسالى الناس . ولا ريب فى ان هؤلاء كانوا اشد الناس ضرراً وبلاءً من هذه الحرب العامة .

١٢ — الاحوال الصحية

نريد قبل التكلم عن الاحوال الصحية فى قضاء عكار ، ان نبحث نبذة عن الحالة الصحية فى (حلبا) . ان هذه القصبة مشهورة بعذوبة الماء ولطافة الهواء . فماؤها صاف من اصله ، وهو يجرى فى انابيب الحديد من منبع « عين الجرن » التى تبعد عن حلبا مقدار ربع ساعة الى حوض فى داخل القصبة . ولهذا لا يكون سبيل لترشح الماء وتحلبه . وتوجد فى الناحية الجنوبية قريباً من القرية « عين المملول » ثم فى الشمال « عين الوادى » . ويوجد فى اكثر البيوت الآبار المصونة . وعليه لا يكون للحلباويين هم بخصوص الماء ، لانهم يجدون الماء النظيف اينما طلبوه .

ولكن يا للاسف ان بيوت حلبا ، بالرغم عن طيب مائها وجيادة هوائها ، ليست على شئ من الخير الصحى . والخطأ الذى لا يعفى ، هو عدم وجود المحلات الضرورية فى تلك البيوت .

اما القضاء فقد يفرق من حيث الحالة الصحية الى قسمين :

الاول يشمل الاراضى الساحلية ، والثانى يضم انحاء الجرد . والاراضى فى الساحل تكون مستوية ، غنية بالمياه الجارية ، وتسقى منها تلك الاراضى ولهذا السبب تتكون المستنقعات ، وتجعل ذلك الانحاء مرزغة .

اما اطراف « الجرد » اى انحاء الجبال فهى يابسة الهواء . وان جبال عكار التى لا ريب فى انها الطف جبال سورية ، لم توجد فيها الدروب ولم تنتظم فيها القرى . ولذلك فلا يستفاد الآن من هذا المصطاف البديع .

ثم ان البيوت فى تلك القرى كلها على نسق بيوت حلبا بعيدة عن الخير الصحى .

اما الامراض المحلية فى حلبا وفى الانحاء الاخرى من القضاء ، هى « الحمى المرزغية وذات الرئة ، وذات الجنب » وامثالها .

ففى سنة (٣٣٢) اصابت الحمى المرزغية (٧٠—٨٠) شخصاً . وبه يكون هذا المرض تسلط على عشر السكان . اما الامراض الاخرى فى حلبا فقد اصيب بكل منها اربعة . او خمسة اشخاص . وفى عموم القضاء يصاب كل سنة مقدار (٥٠٠٠—٦٠٠٠) شخص بالحمى المرزغية ، وهذا المرض يكون على الاكثر فى القرى الساحلية . وايضاً يصاب « بالتهاب القصبات » مقدار (٤٠—٥٠) وبذات الرئة (٢٠) وبذات الجنب (٥—١٠) اشخاص . وعموم المصابين بمرض السل عبارة عن عشرة اشخاص فى جميع القضاء .

لا اثر للمرض الافرنجى هنا ، ولكن اصيب بالاخف منه مقدار (١٠٠)

من الاشخاص .

اما الامراض الطارئة،فقد اصيب فى حلبا سنة (٣٣٢) (٧—٨) اشخاص بالقوليرة، ومات خمسة منهم. واصيب بالحمى التمثية (١٠—١٢) شخصاً توفى منهم خمسة . ولم يدخلها مرض الجدرى فى هذه السنة .

وفى القضاء كانت الحمى التمثية والجدرى متفشيةً فى قرية «فنيدق» وقد اصيب بالاولى «٦٠» شخصاً مات منهم «٤٠» وبالثانية «٤٠» مات منهم (١٠) اشخاص .

وفى جميع القضاء اصيب بالحمى التمثية سنة (٣٣٢) ، « ٥٠٠—٦٠٠ » شخصاً مات منهم « ١٠٠—١٢٠ » واصيب بالقوليره (٣٥) مات منهم (٢٥) وبالجدرى (٣٠٠) مات منهم «٥٠» شخصاً . وعلى هذا الحساب يكون مجموع عدد الوفيات بهذه الامراض قريباً من مأتى نسمة .

وفى الثلث الاول من سنة « ٣٣٣ » لم يظهر مرض الجدرى البتة بسبب التلقيح الذى شمل اكثر من « ٢٠٠٠٠ » من الاشخاص . ولم يوجد اثر للحمى التمثية ولا للقوليرة لعدم ورود الافراد المأذونة من القطعات العسكرية

*
* *

ان المؤسسات الصحية فى قضاء عكار ناقصة جداً . وطبيب البلدية المكفل بالمشارفة على امور الصحة فى القضاء من جانب، ومعالجة المرضى من جهة اخرى — مهما كان جلداً متحملاً — لا يقتدر على الاحاطة بهذا الامر العظيم والقيام به . ويقول انه امضى فى السنة الماضية اكثر من الف ساعة على ظهر الجواد حتى استطاع تفقد القضاء غربه وشرقه . ثم ان فقدان الوسائط الصحية، والشرائط الحياتية تشعرنا بلزوم الاهتمام اكثر من هذا بحياة تلك القرى المظلومة .

ولا صيدلية فى جميع القضاء الا صيدلية البلدية الموجودة فى حلبا . وعليه اذا اوجب الامر لحضور طبيب، او لزم شئ من العلاج يضطر المريض لان يتربص الايام العديدة .

وقد كان يوجد قبل الحرب اطباء خصوصية فى قرى (به نو) و « قبيات » .وصيدلية فى حلبا والقبيات؛ ثم جراح ايطالى فى القبيات ايضاً . والآن فقد اقفلت تلك الصيدليات واجلى الاطباء . وفى هذه السنة نقل مأمور التلقيح الى محل آخر .

١٣ — اللغة والادبيات

ان اللغة العامة فى قضاء عكار هى العربية العجمى . وان الذين يحسنون القراءة والكتابة قليلون جداً ، وان علمهم بها ناقص . ولهذا السبب يندر هناك وجود من

يعلمون العربية الفصحى . اما اللغاة الاخرى ، فان التركية شايعة بين التركمان ، ولكن لا يوجد فى حلبا ولا فى بقية اقسام القضاء واحد من الف ممن يعلمون هذه اللغة . بيد ان من تخرج فى مدرسة العشائر التى كانت فى الدور البائد من الامراء العكاريين يعلمون قليلاً منها

اما اللغاة الاجنبية فقد يوجد فى القضاء ممن يعرف اللغة الفرانساوية « ٢٠ » وممن يعرف الانكليزية « ٣٠—٤٠ » شخصاً ، ويوجد بين الذين عادوا من اميركا « ١٠٠٠ » شخص يعرفون اللغة الاسبانيولية .

فاذاً ؛ ان اعم لغة فى قضاء عكار واروجها هى العربية العجمى . وان تسلط هذه اللغة على الطباع بلغ لدرجة انسى الامراء العكاريين اللغة الكردية ، ودخل اللغة التركمانية فاشغل موقع اكثر الكلمات التركية ، وكاد ينسخ اللغة التركمانية بتاتاً ويشغل مكانها .

ان اللهجة فى هذه العربية العجمى هناك لا تختلف عن اللهجة الطرابلسية . ويوجد فى هذه اللغة اناشيد كثيرة ، منها ما يتغنى به اثناء الرقص « الدبكة » من نوع الميجانه ، او العتابه [*] ، ثم التهميم ، وهو ضرب من الحداء [١] . وادبيات الناس فى عكار عبارة عن هذه الاناشيد والاغانى :

ونرى ان ليس فى هذه الاناشيد ما يشف عن حياة عكار . ويبحث عن تلك المناظر الطبيعية . ولكن ترديد عبارات الحب فيها يجعلها حرية بالذكر . وها نحن نأتى ببضع قطع من هذه الاناشيد :

— اغنية —

هلا بالورد يا يمى هلابا

تعذبنى وما طيق العذابا

ورميت سلام ما ردوا على

يا شوف الزين من تله لتله

هويت اثنين واحد ما حصللى ..

فاذا فكرنا بالتلال الموجودة فى السهل الكائن على الجانب الغربى من حلبا التى اقيمت لاجل المحافظة على بعض الآثار نعلم ان هذه الاغنية ليست بعيدة عن الحالة الروحية العكارية .

---

[*] راجع « ولاية بيروت — القسم الجنوبى » ، مبحث ادبيات الجديدة ص ؛ ٣٣٤)

(١) همت المرأة فى راس الصبى ؛ نومته بصوت ترققه له . م

ثم يوجد فى عكار غير هذه الأغانى من الاهازيج التى يسمونها الميجانه ؛ والعتابه. وها نحن نأتى لكل واحدة بمثال :

— الميجانه —

يا ميجانه ، يا ميجانا ، يا ميجانه
ضحكت حجار الدار لفيو احبابنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
ما بوس خدك ما تبوس يدنا
يا ميجانه ، يا ميجانه ، يا ميجانه
من بعد حق شو لفتنى بتحرما ...

وهذا النوع من الاهازيج يردد على نقرات « يا ميجانه ... الخ » .
اما العتابه :

— عتابه —

يا هل تجذع دلولك خذ معناى
سلام لا ريمة الغيت معناى
وحق البيت يا عابد معاناى
غبت عن فراقهم والنوم طاب...

ثم يوجد ما عدا هذه العتابات ، ما يتغنون به أثناء الرقص « الدبكة » من الاغانى لترديدية ويتغنى بها مع التصفيق .

اغنية « الدبكة »

بين السمره والبيضه فى قصه بدها ديوان
واللى بياخد النشميه بضل مقضى كيفيه
لقمتو بتضل هنيه لو كان تلتينه زيوان
واللى بياخود السمره عينو بتضل ابرا
والقعده معها مره لو عملت اكل الحكام ..

فما اوضحها من شكاية تتأفف من محيط عكار الذى يندر فى اهليه الجمال !

— اغنية اخرى —

مانى يا حبيب مانى
تولف والحق خلانى
مانى مدور طمايع
وعقلى من راسى ضايع

وشري محمل يابايع
خوخ وعنب ورماني ...

ان هذه الاغاني وغيرها من الاهازيج العكارية ناقصة من حيث المعنى؛ بيد ان لهاوزناً ينطبق على الرقص، وقافية كاملة، وهذه المزية فيها اوجبت كثرة استعمالها اثناء الرقص.

— الحداء —

هي وهي وهللـه
وشال الله يا رفاعيـه
جيطيتو بالمرجوحـه
خفت عليه من الشوحه
والله عليك صلوحـه
وهزى للبيو حتى ينـام
هى وهى وهلليتـو
شيخ احمـد يبريتـو
يا ربي يكبر ويسير
انا ربي وليداتو ...

ينطق هذا الحداء بالحالة الروحية في عكار من وجوه عديدة. لان طريقة «الرفاعية» آخذة مبلغها من التفشي في تلك الانحاء، ولها في كل من قرى «حيزوق وفنيدق وقرنه» تكية خاصة. ومن جهة اخرى ان العكاريين يعتقدون بكرامات بعض المشايخ، وها هم يبحثون لاولادهم في هذا الحداء عن شيخ مدفون في سهل عكار، ويستمدون من روحانيته التي يتصورونها.

∴

نرى قبل ان نتم البحث عن ادبيات عكار، ان نتكلم على طريق الاستطراد في ما كتب بشان «ضروب الامثال» هناك. كتب «انطون جميل» مجموعة تتضمن الامثال المتداولة في سورية، في نسخة حزيران سنة (١٩٠٦) من مجلة المشرق الشهرية التي يصدرها «الآباء اليسوعيون» في بيروت. ثم ذيلها «سليمان غانم اليسوعي» بمقالة طويلة تكلم فيها عن الامثال المتداولة في عكار.

ذكر في هذه المقالة مآة من الامثال التي تناسب الشهور والمواسم والايام والحادثات الطبيعية، ونسبها الى قضاء عكار. مع ان اكثرها معروف في الانحاء الاخرى، ومستعمل. نذكر منها:

«النار فاكهة الشتاء — القرش الابيض ليوم الاسود — الولد ان ما بكى ما بترضعه

امه » . وهذه الامثال موجودة فى كل محل ، وحتى فى كل لسان . مثلاً يقول التركى :
« مانغال كنارى ، قيش كونتك لاله زاريدر . — آق آقچه قارا كون ايچوندر — اغلامايان چوجغه مه ويرمزلر » :

وهذه الامثال هى عين العربية لا تختلف عنها شيئاً . ولا جرم ان الصاقها بالعكاريين وحصرها فيهم خطأ . يمكن ان تكون هذه الامثال معروفة لدى العكاريين ، ولكن لا يمكن ان تكون من مخلوقاتهم . ثم ان عدم ادخال هكذا امثال شايعة فى جميع الانحاء السورية ، ولاسيما فى مجموعة رشحت نفسها لجمع تلك الامثال هو من النقص الفاحش . ومن الضرورى على القراء ان لا تعزب عن انظارهم هكذا نقاط مهمة .

— ٧ —

لواء اللاذقية

١ — موقع اللواء وحدوده

ان لواء اللاذقية كائن فى الشمال الاقصى من الولاية على (٣٣٫٢٥—٣٤) درجة من الطول الشرقى و(٣٥—٣٥٫٥٥) درجة من العرض الشمالى . محدود من الشمال بناحية الاوردو من اعمال حلب ومن الشرق بلواء حما ، ومن الجنوب بلواء طرابلس الشام ، ثم من الغرب بالبحر الابيض . ومساحته تناهز (٥٨١٠) من مربع الكيلومتر .

٢ — الاحوال الطبيعية فى اللواء

[١] — **الجبال والانهار** — توجد جبال كثيرة فى هذا اللواء غير التلال الصغيرة . وان جبل الاكراد من الجبال التى تفرق اللواء عن ولاية حلب فى الشمال ، وعن لواء حما فى الشرق ينقسم فى الشمال الى قسمين الغربى والشرقى . فالشعبة التى تمتد الى الشرق تتصل بسلسلة دربوس وعمامرة . ثم ان جبال العمامرة والكلبية والشعرة والنواصرة والبودى والقراحلة وقدموس ليست الا مرتفعات لجبال النصيرية تمتد من اقصى شمال اللواء الى الجنوب . وان اسمى هذه الجبال هو جبل شمرة الذى يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر (١٥٠٠) متراً .

اما الانهار فى هذا اللواء فكلها تصب فى البحر الابيض، بسبب امتداد جبال النصيرية من الشمال الى الجنوب . واكثر هذه المياه ضيقة المجارى ، والاراضى التى تجرى فيها منحطة عن سطح البحر . ولذلك كان نفعها محدوداً . واشهرها :

انهار [الصنوبر والمضيق والرؤس ، وعرب الملك او نهر السن والمرقية ووادى قنديل وكشيش والكبير ونبع العشرة] .

٢ — **الاقليم** — ان لواء اللاذقية الذى يجب ان يعتبر بالنظر لموقعه الجغرافى من البلاد المعتدلة الحارة ينقسم باعتبار الاقليم الى ثلاثة اقسام :

فالقسم الاول ، هو الاقليم الغربى ، وفيه تهب الرياح البحرية ، فتعدل طبيعة المحيط وتجعل لكل من المواسم الاربعة امكاناً لاجراء حكمه بانتظام. ومعدل الحرارة فيه (١٧—١٨) درجة ، وربما تبلغ فيه الحرارة ايام الصيف الى (٣٥) درجة ولكن تتراوح على الاكثر بين (٣٠) و (٣١) درجة . اما فى الشتاء فتكون حرارته (٧—٨) درجات فوق الصفر . ويندر ان تهبط الى (٢) تحت الصفر ابان هبوب الارياح الشرقية والشمالية .

والقسم الثانى ، هو الاقليم المتوسط . وهو كناية عن التلال والوديان التى لا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠—٤٠٠) متراً . وهذا الاقليم شديد فى حره وبرده .

والقسم الثالث ؛ الاقليم الشرقى وهو عبارة عن الجبال والتلال التى يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر بين (٦٠٠) و (٢٠٠٠) متراً . وتهبط الحرارة هنا الى (٥—٧) درجات تحت الصفر . ويكثر الانجماد فى هذه الاصقاع ولهذا يمكن اعتبارها من البلاد الباردة .

اما من حيث الزراعة فالاقليم الغربى والمتوسط يصلحان لغرس اشجار الليمون والتين والكروم ، ولزرع الحبوب المتنوعة ، والنباتات الصناعية والزيتية . والاقليم الشرقى يصلح للاشجار غير ذات الثمر .

[٣] — **الامطار** — علمنا بالبحث ان مقدار الامطار يبلغ الى (٦٠٠—٧٠٠) ميليمتر فى السنة ، وبما ان القسم الغربى من اللواء مركب من الاحجار والصخور الرملية والكلسية ، وان الرياح التى تهب من الغرب تكون راطبة على الاكثر ، فارتفاع الامطار مقدار (٣٥٠ — ٤٠٠) ميليمتراً يكون كاف لرى تلك الاصقاع . ولا يسوغ ان يحمل الجدب الذى يكون فى بعض السنين على قلة الماء والرى . بل الاصح حمله على سقامة الطريقة المتبعة فى الزراعة ، وعدم انطباقها على قواعد الفن . فاذا استعملت الآلات الحديثة ، وتهيئ لماء المطر ان ينفذ الى كبد التراب ، لا جرم يقل احتمال الظماء وتؤمن سورة الجدب . حتى ان كثرة الامطار تضر بتلك الاصقاع لان معظم سهولها منخفضة

وترابها عبارة عن الصلصال المحض .

[٤] — طبيعة التراب — ان طبقة التراب فى هذا اللواء مختلطة لان اراضى تلك الانحاء بركانية ، وهى من الاراضى الزلزالية ايضاً ويمكن ان يعثر فى بقعة صغيرة على الاتربة التى تنتمى الى ادوار مختلفة ، ويجب ان نعلم ان الاراضى ذات الاتربة الكثيفة كالصلصالية ، او الصلصالية الصوانية ، او الصلصالية الكلسية ، هى اكثر فى هذا اللواء من الاراضى الرملية الخفيفة .

اما صخور التلال المرتفعة فانها عبارة عن فلدسپات ، وقووارس ولهذا تكون كثافة التراب فى السهول الرسوبية عبارة عن ثمانين درجة فى المأة . ويكثر فيه عدد التلال التى تصلح لزرع الحبوب المتنوعة ولغرس الزيتون والليمون واللوزمن الاشجار المثمرة .ولاسيما التبغ والتنباك فانهما ينبتان حتى فى رؤس الجبال العالية . والاتربة الملونة ذات حمض الحديد التى تصلح لانماء التبغ توجد فى جميع انحاء اللواء . ثم ان التراب الرسوبى المنبت الذى يكون على طرفى الانهار ، يشغل كمية وافرة فى اراضى اللاذقية ويصلح لزرع كل نوع من الزرع .

٣ — سكانه اللواء

نطقت القيود الرسمية لسنة (١٣٣١) بان مجموع سكان اللواء عبارة عن «١٤٧٦٩٨» من النسمات ذكوراً واناثاً . منهم «١١٩٦٣» من النصارى والباقون من المسلمين والنصيريين. اما النصارى فمنهم «٨٥» فى المأة من الروم الاورتودوكس والباقون من المارونيين والبروتستانت والارمن واللاتينيين . وبما ان مساحة اللواء عبارة عن «٥٨١٠» من مربع الكيلومتر ، يكون نصيب كل واحد منه « ٢٥،٢٥ » نسمة .

وهذه تقسيمات اللواء الادارية :

الاقضية	النواحى	عدد القرى	عدد السكان
مركز قضاء اللاذقية	باير وبسيط	١٨١	٥١٢٥٩
قضاء جبله	•	٣٠٦	٢٨٦٥١
قضاء صهيون	•	٤٣٤	٣٢٩٧٢
قضاء مرقب	قدموس وخوابى	٥٦٩	٣٤٨١٦
يكون		١٤٩٠	١٤٧٦٩٨

٤ — الامور الزراعية فى اللواء

[١] — **الاحوال العمومية** — جاء فى التقرير الذى حرره معلم فن الزراعة فى اللواء ان مساحة لواء اللاذقية تقرب من ثلاثة ملايين ونصف من الدونمات.

اما القيود الرسمية فانها كانت اعتبارية، ثم ان اكثر القرى لم تدخل اراضيها فى تلك القيود. ولهذا نرى مجموع الاراضى بالنظر للقيود الرسمية عبارة عن (١،٤٤٧،٧٠٠) من الدونمات. وتنقسم على الاقسام الآتية:

فى مركز قضاء اللاذقية	٣٧٤٨٣٤	دونم
فى قضاء جبلة	٢٥٣١٢١	»
فى « صهيون	٣٩٦٠٩٢	»
فى « مرقب	٣٨٦٩٥٣	»
المراعى	٣٦٧٠٠	»
يكون	١٤٤٧٧٠٠	

وتنقسم هذه الاراضى من حيث الزراعة الى الاقسام الآتية:

الاحراج	٢٧٠٠٠٠
انواع الاشجار المثمرة	١٢٠٠٠٠
اشجار الزيتون المطعمة	١٥٠٠٠٠
بساتين الخضرة	٤٠٠٠
الكروم	١١٠٠٠
ما خص لانواع الزرع	٨٩٢٧٠٠
يكون	١٤٤٧٧٠٠

يزرع فى هذا اللواء من الحبوب القمح والشعير والشوفان والذرة البيضاء والجلبان والشوفان الاسود. ومن البقول؛ الحمص والفول والعدس، ثم يزرع التبغ والتنباك فى جميع انحاء اللواء.

ومن عاداتهم فى الزرع، ان يخصصوا ثلث الاراضى المعدة لزرع الحبوب الى القمح. وبما انهم يبدلون المزارعين فى كل سنة، لا بد للمزارع الجديد أن ينتخب اصلح الاراضى ويترك الاخرى. وبسبب انحصار استفادته فى سنة واحدة لا يهتم بتسميد الاراضى البتة وبهذا تفقد تلك الحقول قدرتها الطبيعية فى الانبات، ثم ان السكة التى تستعمل فى الحراثة عقيمة جداً وغير صالحة. وقبل بضع سنين جمع الاهلون مقداراً من النقد بتشويق ابراهيم

افندى مأمور الزراعة ، وجلبوا بواسطة الولاية الجليلة عدة محاريث مختلفة الانواع بسكك متعددة واستحضروا من ازمير ومرسين سككاً حديدية وشرعوا يستفيدون من استعمالها. ولكن ما لبثت هاتيك المساعى ان وقفت بسبب الظروف الحالية .

لا يهتم فى هذا اللواء لاحياء الاراضى المواتية واحضار الحقول الزراعية . وهناك كثير من الاراضى التى لا تحتاج الا للتفجير فقط ويمكن ان تزرع فيها الاشجار على اختلاف انواعها . ولكن الاهمال جعلها ميتة متروكة . ولهذا السبب اضطر اولئك السكان الى استعمال السرقين بدلاً من المحروقات الشجرية .

[٢] — **الغلال الزراعية** — تنقسم الاراضى التى يزرعها المرابعون على عدة أقسام :

اذا كانت الاراضى مقدار ١٥٠—٢٠٠ دونم وخصص لحراثتها فدانان تسمى « الصمد » واذا كانت مقدار (٨٠—١٠٠) دونم وخصص لحراثتها فدان واحد تسمى « الجوز » . ثم اذا كان مقدارها (٢٠—٥٠) دونماً ولو حرثت بفدان واحد تسمى « شكارة » . وبما ان عدد الاراضى معروف ، ومقدار البذر الذى يزرع فيها معلوم ايضاً ، يمكننا ان نستنبط مقدار الغلال استناداً على هذه المعلومات على وجه تقريبى .

وهذا مقدار الغلال السنوى على التخمين :

جنس الغلال	على حساب الكيل
القمح	١،٠٠٠،٠٠٠ — ١،٥٠٠،٠٠٠
الشعير	٥٠٠،٠٠٠ — ٦٠٠،٠٠٠
الشوفان	٢٠٠،٠٠٠ — ٣٠٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠٠،٠٠٠ — ٤٠٠،٠٠٠
الجلبان	٥٠،٠٠٠ — ٦٠،٠٠٠
	على حساب الاقة
الحمص	٧٠٠،٠٠٠ — ٨٠٠،٠٠٠
الفول	٨٠٠،٠٠٠ — ١٠٠٠،٠٠٠
العدس	٨٠،٠٠٠ — ١٠٠،٠٠٠
البطاطه	٧٠،٠٠٠ — ٩٠،٠٠٠
الفاصولية	٥٠،٠٠٠ — ٧٠،٠٠٠

النباتات الصناعية والزيتية

الزيت	٦٤٠٠،٠٠٠
السمسم	٥٠٠،٠٠٠
القطن	٤٠،٠٠٠
التبغ والتنبك	٢٠٠٠،٠٠٠

الاشجار المثمرة

التين اليابس	١٠٠٠٠،٠٠٠
التفاح	١٠٠٠،٠٠٠
الجوز	٥٠،٠٠٠
المشمش	٥٠،٠٠٠
اللوز	١٠،٠٠٠
الكمترى	٤٠،٠٠٠
	عدد
الليمون	٥٠٠،٠٠٠
البرتقال	١٥٠،٠٠٠
الاترنج	٨٠٠،٠٠٠
متنوع	١٥٠،٠٠٠

هذا مقدار الحاصلات . ويصرف قسم منها فى الداخل ، ويساق القسم الآخر الى الخارج او الى الولايات والالوية العثمانية .

وهذا مقدار الصادرات التى صدرت من اللواء سنة ١٣٢٩ :

جنس المحصول	أقـه
البيض	٨،٢٢٨،٤٣٤ عدد
محة البيض	١٥،٠٦٠
زلال البيض	١،٧١٠
كبيس الزيتون	٥١،١٤٤
زيت الزيتون	٤٤،٠٠٨
التين اليابس	٦٢٣،١٧٣
الحمص	٥٦٩،٩٠٨
الذرة	٥٢،٢٢٤

العدس	١،٢٧٢
السمسم	٥،٩٠٤
الفول	١٠،٠٠٠

وزيادة على هذه المقادير فقد بيع فى الداخل «٥٠» الف كيلة من القمح و«٩٠» الف اقة من الذرة . واصدر من التبغ والتنباك الذى بلغ مقداره زهاء ميليونى اقة قسم عظيم الى اوروبا ، ثم الى سائر البلاد العثمانية ، بوساطة شركة التبغ ، وشركة ايمبريال . [*]

وان معظم الدخل الزراعى فى هذا اللواء يكون من التبغ والتنباك . واهم انواع التبغ الذى يستحصل هنا هو الجنس الاهلى الذى يسمونه « شك البنت » و « المهلوبى » . ثم ذو الرائحة الذى جلب بذره من صامسون ، وتكون كيفية استحصاله كاستحصال التبغ الغلوصى . ثم يستحصلون من تبغ « شك البنت » نوعاً يسميه الاهلون « ابو ريحه » يرغبه الانكليزيون . وكيفية استحصاله تكون على هذه الطريقة :

تسلك اوراق التبغ فى الاسلاك ، ثم يعلقونها فى سقوف البيوت ، الى ان يدخل موسم الشتاء . وهنالك يحرقون فى تلك البيوت حشيش « زندكين » ويبخرون اوراق التبغ بدخانه مدة . ثم يجمعونه ويكدسونه فى الاكياس . وبما ان هذه العمليات التبخيرية تكون فى داخل بيوت السكنى لا تخلو من الاضرار بصحة الاهلين . ولهذا لا يسوغ ابقاء هذا الاصول على هذه الكيفية . ومن المحتم على الحكومة ، بل على شركة الدخان التى تربح اضعاف ما تؤديه الى الحكومة من المقادير ان تلتفت الى هذا الامر وتؤسس لاستحصال «ابو ريحه» معامل خصوصية تراعى فيها القواعد والتدابير الفنية ، وتصون ثروة البلاد وحياة العباد من هذا الضرر الملموس .

ويمكن ان يكون التبغ الذى يستحصل فى اللاذقية احسن من تبغ ازمير ، وغيرها من البلاد العثمانية ، ولكنه اليوم لا يؤمن للقرويين دخلاً يستحق الذكر . لانهم محرومون من كافه الوسائط والتدابير الفنية التى يرجع اليها فى زرع هذا النبات واستحصاله . وهم يجهلون كيفية اعمال اللفائف ايضاً . ثم ان اهمال شركة الدخان من جانب ، وتحاملها على القرويين من جانب آخر جعل استحصال هذه المادة مشكلاً صعباً .

---

[*] نقلنا هذه الارقام من تقرير مأمور الزراعة عيناً ولو لم يمزج هذا المأمور الذى زعم ان هذا الجدول قريب من الحقيقة ، حساب الكيلة بالاقة ، لتمكن من اعطاء فكر صريح على مقادير غلال القضاء الزراعية . ثم ان هذه الارقام لا تخلو من الغرابة ايضاً كما هو الحال فى سائر الارقام التى درجت فى الصحائف الاخرى من كتابنا .

وقد وسعت الحكومة نظام هذه الشركة بمناسبة استقراضها منها مليوناً ونصف من الليرات وذلك بعد انتهاء الحرب الطرابلسية . واصدرت قانوناً موقتاً فى ٨ نيسان سنة ١٣٣٠ منعت فيه زرع جميع انواع التبغ فى لواء اللاذقية واستثنت منه نوع «ابو ريحه» فقط وقضت على القرويين باستحصال الرخصة قبل الزرع من شعبة الشركة فى اللاذقية . واعتبرت الشركة مختارة باعطاء الرخصة وعدم اعطائها . على انها تضطر لان تعلم صاحب الطلب عن سبب الرد ، وان لم تجده فعليها اعلام مختار قريته بالكيفية . ولا جرم ان الواجب فى هذا الامر الاقبال على استثمار هذه الاراضى الصالحة لزرع التبغ ، والتذرع بالتدابير الفنية التى تزيد استعدادها والا فان الحجر والتحديد يضر بمصلحة البلاد الاقتصادية ثم ان القدرة التى منحها هذا النظام الى الشركة بخصوص التخمين لا تنطبق على منفعة البلاد وهى تحتاج الى التخفيض . وقد جاء فى المادة «١٢» من هذا النظام ما معناه :

تتألف لجنة التخمين من مخمن تختاره شركة الانحصار ، وآخر تختاره ادارة الواردات المخصوصة فى دائرة الديون العمومية ، ومن آخر ايضاً يختاره مجلس ادارة القضاء ليكون مخمناً فى جميع ذلك القضاء . ويجب ان تعطى الى المخمن الذى اختارته ادارة الديون العمومية ثم الى الذى اختاره مجلس الادارة اجرة لا تزيد عن عشرين غرشاً فى كل يوم . ومجلس الادارة هو المولج بتقدير هذه الاجرة وتعيين مقدارها .

والزراع هم المكلفون بتأدية هذه الاجرة . ويسوغ لادارة الشركة ان تدفع هذه الاجرة بشرط التعويض . وعليه فان الشركة تنظر الى مجموع الخرج بعد اتمام التحرير ، وتوزعه على الزراع بنسبة مقدار اراضيهم . ثم تتقاضى من كل منهم حصته حين بيع المحصول» . وهذا يدلنا على ان الشركة تدفع الاجرة ثم تتقاضاها من الزراع .

ونصت الفقرة الثالثة من هذه المادة على وجوب تحليف المخمنين قبل الشروع بالوظيفة امام مجلس الادارة بان يتوخوا الحياد فى التخمين ، ولا ينقادوا الى سلطة او تأثير الا ما اوجبته عليهم الوظيفة ، ولا يتقصدوا اضرار الشركة ولا الزراع .

ثم على الذين لا يرضون بتخمين هذه الهيئة ان يبينوا اعتراضهم لادارة الشركة فى ظرف خمسة ايام اعتباراً من تاريخ تسليم اوراق التخمين الى مختار القرية . ويطلبوا منها تعيين هيئة ثانية . وما من فائدة لهذا القيد الذى يشف عن مساعدة الزراع . لان القروى المحروم من وسائط النقل ، والمجرد عن كل علم ومعرفة لا يطلع على طريقة هذه الاستفادة ولو ابلغ المهل الى عشرين يوماً — لاسيما سكان الجبال — .

ثم ان الفقرة الثانية من المادة (٢٦) جديرة بالنظر ايضاً . وقد جاء فيها ما معناه :

يسوغ للجنة التحقيق بعد وزن التبغ الذى يقدمه الزراع ، ان تحرى مساكنه وسائر اماكنه وما يجاوره من المحلات لتعلم هل يوجد هناك تبغ مكتوم ام لا ؟

وبهذا النص النظامى كان لمستخدمى الشركة حق الدخول على المساكن الخصوصية ايضاً .

واذا نقص مقدار ما يسلمه الزراع من التبغ الى اللجنة الخاصة عن مقدار التخمين ، يجبر الزارع على ان يدفع عن كل كيلوغرام ليرة جزاءً نقدياً .

ثم ان الزيتون هو من اهم الغلال الزراعية فى هذا اللواء . وله ثلاثة انواع «الخضيرى الدرملالى ، الحريصونى» . ويوجد منه فى قضاء المركز (٤٦٨٧٨) شجرة وفى جبله (٣٠٠٠) وفى صهيون (٦٠٠٠) وفى مرقب (٦٥٠٠٠) شجرة . ويقول مأمور الزراعة انه يوجد (٢٠٠٠٠٠) شجرة غرست او طعمت حديثاً . ويزعم ان مقدار الزيت الذى يعصر من هذه الاشجار فى كل سنة يبلغ الى (٦٤٠،٠٠٠) اقة .

ولو اختاروا قليلاً من الكلفة وقضبوا تلك الاشجار فى كل سنة ، ثم تفقدوها بالسماد لكانت اغلالها اوفر واكثر من الآن باضعاف مضاعفة .

٥ — الاحراج والمعادن

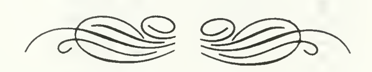
تقرب مساحة الاحراج فى لواء اللاذقية من (١٧٩٠٠٠) من الدونمات . ويتراوح محيط الاشجار التى توجد فى انحاء الساحل بين (٣٠) سانتيمتراً ومتراً واحداً . اما طوالها فيكون (٣—٤) مترات . وتعمل منها خشاب صغيرة للابنية ، الواح لاجل القوارب الصغيرة . وتوجد فى الانحاء المرتفعة اشجار الصنوبر الاحمر والابيض ، وخشبها يصلح للاستعمال فى الابنية ايضاً . واهم ما هنالك من الاحراج ، هى الاحراج الموجودة فى انحاء باير وبوجاق . وتبلغ مساحتها الى (٣٢) كيلومتراً مربعاً . وتسعون فى المائة من اشجار هذه الاحراج يتراوح محيطها بين (٣٠) و(٦٠) سانتيمتراً ، وطوالها لا يزيد عن (٤—٥) امتار . ويندر وجود الاشجار الجسيمة فيها . ويدعى بوتوق ان مقدار تلك الاشجار الحديثة يبلغ الى (٣٠٠،٠٠٠) بشرط ادخال ما تبعثر فى الانحاء المختلفة منها . ويقطع منها ما يقوم بحاجة تلك الانحاء ، القرى القريبة ، من اخشاب وغيرها ، ثم تعمل منها الالواح المسماة «ميريوم» ، وتساق الى الخارج ، وقد كان يقطع منها قبل الحرب مقدار (١٥) الف قنطار من الحطب وتساق الى بلدة بيروت .

ويوجد فى منتصف هؤلاء الاحراج على حدود اسكندرون قطعة ارض تسمى «توز» تقرب مساحتها من (١٠٠٠) هكتار وهى مطوقة باحراج الصنوبر .

والاشجار الموجودة هناك هى من شجر البقس الاسود والاحمر . ويمكن ان يعمل من هذه الاحراج مقدار (٣٠٠) الف مفحمة فى كل سنة دون ان يمس تلك الاحراج ضرر

يتذكر . ولكن بعد هذه الأنحاء عن اسكلة البسيط بمسافة سبع ساعات جعل هذه الاستفادة متعذرة .

ويوجد فى جبال اللاذقية معدن الحديد ، والفضة المخلوطة بالرصاص والنحاس والخشب المتفحم ، وعروق من معدن النيكل . وقد كان فى انحاء باير وبوجاق منجم لمعدن القروم يستخرج منه (٢٥٠٠) طون فى كل سنة ولكن لا اثر له اليوم .



— ٨ —

قضاء مركز اللاذقية

١ — موقع القضاء وحدوده

ان قضاء المركز الكائن فى الشمال الغربى من لواء اللاذقية محدود من الشمال بولاية حلب ، ومن الشرق بقضاء صهيون ومن الجنوب بقضاء جبله ومن الغرب بالبحر الابيض .

٢ — مساحة القضاء وعدد سكانه

ان مساحة هذا القضاء تخمن بمقدار (٣٧٤٨٣٤) دونم ، يناهز القسم المزروع منه (٢١٣٩٠٠) دونم .

اما عدد سكانه بالنظر الى القيود الرسمية فى سنة (١٣٣٢) هو كما يلى :

اسماء النواحي	الارمن		المارونيون		اللاتين		البروتستانت		الاروام		المسلمون		الاجمال		يكون
	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	
قصبة اللاذقية	٩٧	٨٦	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٦٥٩	١٥٢٤	٨١٩٦	٨٣٥٨	١٠٢٢٢	١٠١٦٥	٢٠٣٨٧
ناحية قرى الخزينة									١٤٨	١٤٩	٧٤٥١	٧٦١٧	٧٥٩٩	٧٧٦٦	١٥٣٦٥
ناحية البهلولية									٤١	٥٨	٢٢٢٣	٢١٢٩	٢٢٦٤	٢١٨٧	٤٤٥١
ناحية البسيط	١٦٤	١٣٥									٢٩٦٠	٢٧٢٤	٣١٢٤	٢٨٥٧	٥٩٨٠
ناحيه باير											٢٤٩٣	٢٥٨٣	٢٤٩٣	٢٥٨٣	٥٠٧٦
يكون	٢٦١	٢٢١	٢١٧	١٤٥	١١	٩	٤١	٤١	١٨٤٨	١٧٣١	٢٣٣٢٣	٢٣٤١١	٢٥٧٠١	٢٥٥٥٨	٥١٢٥٩

وبهذا يكون مجموع السكان «٥١٢٥٩» نسمة منها «٤٥٢٥» من النصارى و«٢٠٧٩٦» من النصيريين و«٢٥٩٣٨» من السنيين . وكان مقدار اللدات سنة «١٣٣٨ و «١٣٣٢» (١٩٣) و (٧٢٨) نسمة . ومقدار الوفيات فى هاتين السنتين «٢٩٧» و«١٤٩٣» نسمة . اما الأتراك الموجودين فى هذا القضاء الذين بحثنا عنهم فى القسم العمومى . فعددهم بحسب القيود الرسمية كما يلى :

فى ناحية قرى الخزينة	١٧٦٦
« « البسيط	٢٧٩١
« « باير	٣٠٢٧
يكون	٧٥٨٤

٣ — امور المعارف فى القضاء

ما من امة هبت لمناضلة الاستبداد الذى يودى بحياة البلاد ومنافعها ، ويجعل آتى الامم مدفوناً فى طى ظلمات رهيبة ،ويصل الى درجة تأبى الطباع لابية تحملها ؛ ونشطت لتقويض دعائمه ، ونقصته من اطرافه ثم اقامت مكانه حكم الجمهور ؛ الا وتضطر بعد ان تتكلل مساعى ثورتها بالنجاح الى الاقبال علي تنسيق الامور الادارية والاجتماعية ولاسيما امور المعارف. وان الحكم الانامى العصرى الذى نص عليه فلاسفة القرن الثامن عشر وعلماؤه ، ودان به الثوار الفرنساويون ، لا يسلم ويبقى الا بالمعارف وبالاطلاع على العلوم الاجتماعية والسياسة التى تنقش فى ادمغة الامم آيات هذه الحياة الادارية . ولهذا نرى الدولة الفرنساوية لم تهمل امر المدارس حتى فى سنة (١٧٩٢) حينما كانت منغمسة فى الحروب الدموية ، التى انذرت حياتها السياسية بالخطر فى داخل البلاد وخارجها ، بل نهض رؤساء الثورة وخطباؤها ، وبحثوا على منابر الخطابة فى المجالس الملية عن المدارس التى تهيئ لحكومة الجمهور آت بهيج وتجعل اسسها متينة لا تتزلزل . لم يخطأ المؤلفون الذين يشبهون الدستور بسيف ذى حدين . لانه يحمى حقوق الامة من تعرض المستبدين ، ويرمى كاهل الوطنيين بأثقل الوظائف . وان الحرية التى تتقيد بحقوق الغير يختلف تأثيرها باختلاف المحيط فهى اما تهيئ للوطنيين آت مطمئن زاهر ، او تجرهم الى مهاوى الدمار . فاذا كان القوم آخذين نسيبهم من التربية الفكرية والعلوم الاجتماعية فان الوظائف والحقوق بينهم تكون معينة ، ولهذا تكون الحرية فيهم كالدليل المرشد تأخذ بيدهم جراً الى السعادة والسلامة . ويتسنى لهكذا امة ان تستحوذ على الظفر فى الجدال الحيوى بسهولة . فتنكشف العلوم والفنون ،

وترقى التجارة والصناعة والزراعة بسرعة البرق ، ولا تجد احداً منهم يطغى على الآخر ، ويغضب كل منهم لما يخالف القانون ، ويعترض هكذا اعمال ويهب لاسقاطها . وهكذا فان الادارة الدستورية تقضى على الحكومة والامة معا بالتقيد ببعض القيود النافعة . فيسعى افراد الامة وهم احرار ضمن الدائرة التى ترسمها القوانين ، ويتوسلون بالوسائل الفنية لترقية زراعة البلاد وتجارتها ويجعلون لانفسهم وامتهم آتٍ بهيجا .

وهذه النتائج الصالحة التى اكتسبتها البلاد الراقية لا يسوغ حملها على تأثير المدارس العالية . فكم فى بلاد الغرب من الاغنياء واصحاب الاراضى ، وارباب المعامل الذين انخرطوا فى الاعمال العملية قانعين بما لديهم من التحصيل الابتدائى فقط . بيد ان المدارس الابتدائية التى اغنت الطبقة الامامية عن التحصيل التالى والعالى فى البلاد الراقية ، هى مدارس جدية بمعلميها العالمين المحنكين وبابنيتها الرصينة الصحية ، وبما فيها من آلات الدراسة الحديثة . ولا بد ان يدرك الذين يتخرجون منها جميع الحقوق والوظائف التى قضت عليهم بها حياتهم المدنية والاجتماعية . وتجدهم يهتمون لكل ما من شأنه تأمين سعادة امتهم وسلامة اوطانهم ويقبلون على الوسائل التى ترشدهم الى اصلاح اعمالهم ورقيها فيقرؤن الجرائد والرسائل والمجلات ويطلعون على تلك التدابير ، ثم لا يألون جهداً بارتياد الاخصاء وجلبهم والاستفادة من ملكاتهم العلمية والفنية .

منذ اكثر من عشر سنين ونحن فى ادارة دستورية . فلماذا يا ترى لم تقيض لنا تلك السعادة المنشودة ، ولم تحى فينا هاتيك الآمال المذهبة . وها نحن نعيش عيشة القرون الوسطى مع ان العالم يطوى المراحل الشاسعة بسرعة البرق فى اخلاقياته ، واجتماعياته ومدنيته الحقيقية ، وهذه بالامس فى العالم السياسى ، بلغاريا وصربية يظهران من العزم والانتباه ، ما جعلهما يسبقاننا بشوط بعيد ، وها نحن نتسكع ورائهما ، وهما اطفال السياسة بل اطفالنا .

لا جرم ان سبب هذا الحرمان ، بل خالق هذا الشقاء هو عدم وجود المدارس الابتدائية . وما كان انتصار الامة الالمانية على الدولة الفرانساوية سنة (١٨٧٠) ولا ظفر اليابانيين فى اصقاع مانچوريا سنة (١٩٠٥) ، وحتى ولا غلبة البلغاريين فى لوله بورغاز سنة (١٩١٣) الا بالمدارس الابتدائية التى تعلم اطفال الامة حقيقة الوطنية . اما نحن معشر العثمانيين فلم نهتم بمعارفنا بطريقة معقولة تناسب الزمان والمكان . ونرى جداول المعارف لا تزال تبحث عن المدارس التى اسست فى جميع انحاء الولاية ، او تقرر تأسيسها ولا جرم ليس فيها من مؤسسة يجدر ان تسمى مدرسة . لا سيما لواء اللاذقية الذى قام فى اقصى الشمال من الولاية ، ولم يزل يتخبط فى حالك اليم من ظلمات الجهل ، فهو مهمل بالكلية ونرى مفتش المعارف فى اللواء يبحث عن اسباب هذا الحال فى تقريره الذى عرضه على

مقام الولاية ، فقال :

[لم نتمكن فى هذه السنة (١٣٣٢) من تطبيق قانون التدريسات الابتدائية . اذ يجب بموجب هذا القانون ان تؤسس المدارس الابتدائيـة فى كل قرية . ثم يصار الى قاعدة التحصيل الاجبارى . بيد انه لم يمكن اعداد المعلمين القادرين ، الحائزين على الشروط والاهلية للمدارس التى كفلت نفقاتها ميزانية الولاية . وهذا السبب قضى بتعطيل اكثرها ، ولو عمدنا لتحصيل النفقات من الاهالى لاجل تأسيس هاتيك المدارس ، ثم لم نتمكن من ايجادها بسبب فقدان المعلمين ، لا جرم لا يتحقق النفع الذى يتوخاه القانون ، ولربما يحدث هذا الحال فى اذهان الناس تأثيراً معكوساً . ولهذا اضربنا عن النفقات التى تقوم بها تلك المدارس . ولم نطرحها على الاهالى كما امر القانون .

اما الاجبار على التحصيل ؛ فلم يمكن تطبيقه ايضاً . وذلك بسبب ما اصاب الاهالى فى السنة الماضية من ضنك المعيشة وضيق اليد ، ثم ان الآباء والاولياء الذين تحق عليهم المسؤلية اما هم فى الخدمة العسكرية ، واما هم فى الدرجة القصوى من الفقر والحاجة . ولهذا لا يمكن تطبيق الجزاء الذى رسمه القانون . حتى اننا نرى كثيراً من الطلاب قصرت ايديهم عن الحصول على الكتب والدفاتر وغيرها من آلات الدراسة ، بسبب ترفع الاسعار . ولا جرم ان اطفال المجاهدين ، والشهداء والفقراء الذين اعتادوا على شراء عشرين لوحاً من الورق بعشر بارات يعجزون عن شراء لوح واحد منه بعين الثمن] .

ان تألم لواء اللاذقية كائن بسبب فقدان الابنية ، وعدم وجود المعلمين المقتدرين على التدريس . ويجب على الذين يتألمون لاقفار هذا اللواء من المعاهد العلمية ان يعلموا ان هذا المرض يشمل جميع انحاء بلادنا . وما من احد فينا الا ويسلم باحتياجنا الى الدواء الحاسم العاجل .

٤ — الاحوال الزراعية فى القضاء

ان الغلال السنوية فى قضاء مركز اللاذقية ، هى كما يلى :

اسماء الغلال	مقدار الاراضى المزروعة	مقدار الغلال
	دونم	كيلة
القمح	١٠٠،٠٠٠	٨٠٠،٠٠٠
الشعير	٤٠،٠٠٠	٢٨٠،٠٠٠
الذرة البيضاء	٢٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠
الحمص	١٠،٠٠٠	٦٠،٠٠٠

الفول	١٠٠،٠٠٠	٨٠،٠٠٠
السمسم	٣٥،٠٠٠	٦٠٠٠٠
العدس	١٠،٠٠٠	٣٠،٧٠٠
الجلبان	٥٠،٠٠٠	٣٠،٠٠٠

ثم يستغل على الحساب المتوسط فى كل سنة مقدار (٥٠٠،٠٠٠) كيلو من التبغ فى اراضى تبلغ مساحتها (١٥،٠٠٠) دونم .

حصلنا على المعلومات الآتية من مديرية الزراعة بشأن زرع التبغ الذى هو من اهم غلال هذا اللواء:

[ان زرع التبغ فى لواء اللاذقيــة لم يزل معروفاً منذ قرن ونصف ، وقد تبين لنا بالتحقيق ان هذه المادة جلبت من ربوع الروم ايلى.

والتبغ الذى يستحصلونه اليوم لاجل الشرب ، له اوراق لينــة كبيرة وطويلة حمراء تضرب بلونها الى الصفرة ، ورائحته لطيفة ويسمونه « شك البنت » . هذا وان وجد بعض انواع من هذا التبغ ولكن لدى الحقيقة كله جنس واحد [*] ولا يختلف الا بعظم الاوراق وصغرها نظراً لاختلاف الانحاء التى يزرع فيها من سهل ووعر

وكان جميع هذا المحصول يرسل الى اسواق مصر وقد حدث سنة (١٢٣٤) انواء عظيمة فى البحر لم تمكن ارباب السفائن من اجراء السفر ، فبقى محصول التبغ فى ايدى اصحابه وبما انه لا يوجد عندهم مستودعات معدة لهــذا الخصوص اضطر اذ ذاك القرويون الى تعليقه بسقوف بيوتهم . ثم وافاهم الشتاء فشرعوا يوقدون النار فى تلك البيوت على جرى العادة . فاصاب الدخان قسماً من التبغ وبخره واعتقد القرويون انه فسد .

ولما استحوذوا على المحصول الجديد فى السنة الآتية ارسلوه الى مصر وادخلوا بينــه عن غفلة منهم بضعة اكياس من التبغ المبخر . ولما رآه المصريون ظنوه نوعاً جديداً وسموه « ابو ريحه » بسبب ما فيه من الرائحه الخاصة التى نشئت عن تبخيره . ولم يلبثوا ان اوعزوا الى تجــار اللاذقية باشتراء كمية وافرة منه فى الموسم الآتى وبهذا كان لزراع التبغ الدخل الوافر من هذا النوع الذى ظنوه فاسداً .

ان هذا النوع من التبغ يوضع فى بيوت بنيت خاصة لاجله . وهى مستطيلة الشكل ولا يوجد فيها من المنافذ الا باب فى جهتها الغربية على طول متر وعرض (٨٠) سانتيمتراً ، مركوزة فى داخلها من الارض الى السقف اعمدة رفيعة تبعد عن بعضها مسافة نصف المتر .

---

[*] يجب ان نستثنى التبغ الذى جلبته مديرية الزراعة من ازمير وصامسون قبل سنتين لاجل التجربة وهو ذو رائحة لطيفة . وكاد يتحتم نجاح هذه التجربة .

وهذه الاعمدة تنقسم الى اربعة اقسام اعتباراً من علو متر عن الارض، ثم تتصل هذه الاقسام بعوارض. وبهذا يكون داخل البيت عبارة عن اربع شبكات فوق بعضها. وهم ينشرون التبغ على تلك الشبكات ويخزونه.

كيفية التبخير وزمانه — يزهر التبغ اما فى اواخر تموز او بداية اغستوس فيعمدون الى تلك الازهار فيقطعونها بساقها ومعها الاوراق التى تحتها، ثم يقطعون من اسفل النبات ورقتين ايضاً، ويضمون الجميع بخيط ثم يربطون الخيط بعصاً رفيعة لكى لا يتدلى ويعلقونها فى الشبكة العليا من البيت، ثم لا تلبث تلك النباتة التى قطعت ازهارها بضعة عشر يوماً الا وتزهر مرة ثانية فيقطعونها على الكيفية الاولى ويعلقون الاوراق ايضاً. ثم بعد اسبوع من العملية الثانية يعمدون الى ما بقى ويقطعونه من اسفله بالسكين، ويفرقون اوراقه الى قسمين او ثلاثة متساوية ويعلقونه ايضاً.

وفى اول تشرين الاول ياتون من الاحراج بحشيش متوسط باليبوسة ويحرقونه فى المواقد المعدة فى تلك البيوت ويشرعون بالتبخير ببطئ. ثم يثابرون على هذا العمل فى كل يوم. وياتون بحطب متوسط فى اليبوسة بشرط ان لا يكون من شجر الصنوبر، ويرغب فيه ان يكون من الفصيلة البلوطية ويحرقونه فى المواقد، ويوصدون الابواب بصورة محكمة.

ويعرض التبغ الى دخان النار. وهكذا يدوم هذا التبخير مدة (٥ – ٦) اشهر. ويجب فى التبخير ان لا يكون اثناء الطقس اليابس. لانه يسود ورق التبغ ويجعل له رائحة كريهة.

ولهذا يجب الانقطاع عن التبخير ابان هبوب الرياح اليابسة كالريح الشرقية والشمالية والشمالية الغربية. ثم يجب ان لا يكون الحطب يابساً لكى لا يذهب اللهيب بابين الاوراق، ولا يكون سبباً لحدوث الحريق واحسن الازمان للتبخير هو الذى تهب فيه الرياح الغربية الرطبة وخصوصاً ايام المطر. وعلى هذا الحال تكون ايام التبخير عبارة عن «٩٠— ١٠٠» يوم.

وقد ثبت بالتجارب العديدة ان حاصل كل دونم يتراوح بين (٧٠) و(١٠٠) اقة من التبغ اليابس فى كل سنة. وينفق على كل دونم فى السنة مبلغ (١٠٠) غرش لاجل الحرث والغرس و(٥٠) غرشاً لاجل التبخير. ويتراوح ثمن الاقة بين (٤) و(١٢) غرشاً. وبه يكون الدخل الخالص فى السنة (٣٥٠—٤٠٠) غرش من كل دونم.

اما نفقة انشاء البناء فهى يسيرة. اذ يمكن قيام كل بيت من تلك البيوت التى تمكن محافظتها مدة (٤٠) سنة بشرط تفقدها اصلاحاً فى كل سنة بنفقه لا تزيد عن (١٠٠٠—

١٥٠٠) غرش . ويصدر اللواء فى كل سنة نحواً من مليون اقة من هذا المحصول . وبه يكون الدخل السنوى (٤٠—٥٠) الف ليرة] .

٩

اللاذقية

١ — موقع اللاذقية ومنظر ضواحيها

ان اللاذقية التى تقابل الانظار مبتسمةً بسمائها المضيئة وبحرها الاطلسى ، ورياضها الخضراء ، ومناراتها البيضاء ؛ تلك البلدة الطيبة التى كادت ان تكون فى حضن الامواج الزرقاء التى تكللت بزبد فضى على الساحل الشرقى من بحر الابيض . والتى اخذت مبانيها من فيض محاسن هذا المحيط الممتاز ، لا تفتأ تجود على قلب الادب والشعر بدم فياض ، وعلى ألباب الادباء والشعراء رحيقا من الابداع والذوق ساحراً .

اذا نظرنا الى الجدة والنضرة فى ذاك المنظر البهيج فى تلك البقعة المباركة التى تبعث بارجى الآمال الى كل روح منقبضة ، وتفيض بابهى الانوار على كل قلب اشجاه اليأس ، وخيم عليه ظلام الحزن . لا جرم نحتاج الى تكذيب الخيال واكراه النفس على ان نؤمن بان هذه القصبة هى بلدة « راميتا — *Ramitha* » الفنيقية القديمة .

يا للعجب ما اصدق هؤلاء الفنيقيين بالذوق والانتخاب ؛ وما اضل الذين يحسبونهم اناس بيع وشراء فقط ؛ وما ابعد هذا البهتان عن تلك الامة القديمة التى حطت رحالها وحطت بلدانها ، وطرحت غياضها فى اجمل سواحل الكون تجاه ابدع ما يكون من الالوان الغروبية ! ! الا يرون ان الحقايق الطبيعية فى هذه الديار الفاخرة ، هى اصدق انباءً من زخارف الصنعة واباطيلها ، الا يعلمون ان هذه المنظومة البديعة لذلك الساحل الذى لا مثيل له هى بنت دهاء تسجد لبلاغتها القصائد البليغة ، الا يسمعون فى هذا الاقليم المطرب سجع الطيور وتغريدها ، وقصف الامواج التى هى اطرب من كل نغمة ساحرة . لا جرم انهم لا يعلمون ولا يسمعون .

فبلدة (رامينا) القديمة بنت ذلك الدهاء الباهر ، هى جديرة بالتكريم والتعظيم . وهذا السبب حدى بالملك [سەلوقوس نيقاطور — *Seleucus Nicator*] الى تجديد هذه البلدة اللطيفة وتسميتها [لا اوديسه — *Laodicé*] باسم والدته .

ولكن يا للاسف ما تمتعت هذه البلدة قط بحسن الحظ فى طيات القرون الخالية . بل

ما زالت تطبق عليها الزلازل ، وما انفكت المحاصرات تشبعها هدماً وتخريباً . حتى قوضت عمرانها . ولولا هاتيك الكوارث لكانت هذه البلدة البسامة ابدع مما هي عليه الآن .

ومع هذا فان اللاذقية اليوم لا تزال تشف عن ابداع الفنيقيين وتتقلب كل يوم فى استحالة نورانية ، وتظهر فى طور جديد ولباس قشيب .

كانت اللاذقية من قبل منحصرة فى ساحة مستوية بعيدة عن الساحل اما اليوم فلها القصور المشيدة التى كانت بلطافتها كالازهار فى روضة البحر . وهى لا تزال تتسرب الى الشمال على امتداد الساحل ، وتكسب القصبة بهاءً وجمالاً .

وقد كانت من قبل فى شكل دائرة ، ونراها اليوم تشبه قطعاً ناقصاً ، وتميل لان تكون مستطيلة .

فالجانب الشرقى من هذا المستطيل محاط باراض مرتفعة ، ثم بقلعة الزيتون ، والجنوبى بحدبات « الطابيات » و « دوغردورده » ، والجهة الشمالية محدودة بحدبة « فاروس » . ولهذا تكون القصبة محاطة من انحائها الثلاث بمرتفعات ، اما ناحية البحر فيها فهى منخفضة وبه كان شكلها العمومى على ميل خفيف .

فاذا نظر الى القصبة من فوق احدى تلك المرتفعات تنكشف خطوطها الداخلية ، وضواحيها ايضاً بشكل واضح . ولاسيما اذا نظر اليها من الجامع « المغربى » الكائن فى الجهة الشرقية الذى هو اعلى محلات القصبة فيرى الناظر ابدع المناظر وانضرها . لان داخل القصبة الذى خطت فيه الشوارع المتجهة الى البحر مربعات متوازية مزدانة بالرياض هو على غاية من الجمال ببياض منازله الناصعة ، وقدود مناراته الظريفة. وخارجها ايضاً لا يقل عنه لطافة وجمالاً . فتوجد فى الناحية الشمالية منها اشجار الزيتون والتين والاثمار ، ثم الرياض من بعدها ساحة تمتد مسافة ساعتين مملوءة بالرمل الاحمر النقى . ثم من ورائها فضاء واسع انتشر فى ساحاته ، وعلى رؤس هضابه كثير من القرى مثل « برج القصب » و « دمسرخو » و « المغريت » و « القلوف » و « سنجوان » و « استوبين » . ثم وراء ذلك اراضى ناحيتى بابر وبوجاق ، ثم « جبل الاقرع » بشاهقته التى غشاها الثلج . وتوجد فى شرقيها وراء القلعة الحقول الواسعة من ورائها الغياض القائمة على امتداد ضفاف « النهر الكبير » . وبعدها جبال النصيرية . اما فى الجهة الجنوبية فتوجد سلسلة من القصبات النضيرة على ساحل بحر الابيض الذى يسبق شعاع البصر الى ما بعد الآفاق .فتتراآى عليه قرى [المتركية والصنوبر والبصة] وتتبعها قصبات [جبله وبانياس وقلعة مرقب] . وترسم الخطوط النهائية من ذلك الافق بظلها المبهم .

اما غربيها فهى عبارة عن بحر واسع لا حد له .

وقصارى القول يحق لهذه القصبة الفينيقية الاصيلة ان تفتخر مهما استطاعت لانها مشحونة الضواحي بابدع ما يكون من المناظر الزاهية .

فلتنم الروح الذكية الفنيقية ، ربة الآفاق السورية ، قريرة العين ومطمئنة الفؤاد في هذه السواحل البهيجة . لان هذه الامة النجيبة اختارت لنفسها افخر الديار مواطناً في حياتها واقدس الاصقاع مرقداً بعد مماتها . ولا جرم ان الفنيقيين لمغبوطون في محياهم ومماتهم ، ومشكورون .

٢ — الخطوط الداخلية في اللاذقية

ان قصبة اللاذقية التي تشغل ساحة واسعة بطول كيلومترين ومثله من العرض ،وتتألف من [٦٠٠٠ — ٧٠٠٠] مسكن ، تنقسم من حيث نسق البناء الى قسمين واضحين .

وقد كان النسق الشامي نموذجها الوحيد في البناء منذ العهد القديم ولهذا نرى اليوم اكثر مساكنهـا دمشقية النسق . وهي عبـارة عن صحن مبلط ، محاط بالغرف وجميـع سطوحها مطلية .

غير انهم شرعوا الآن بتقليد البيروتيين واخذوا يبنون جميع محلاتهم الحديثة على هذا النسق . ولا تزيد هذه المساكن الآن بعددها عن مئة ولكن لا بد للقصبـة ان تستقر على هذا الطراز بتداول الازمان .

ويمكن تفريق الابنية الحديثة في اللاذقية لاول نظرة . لان المساكن القديمة كلها مبنية بالحجر الاسمر الذي يسمونه «النارى» . اما الابنية الحديثة فانها تبنى بحجر ابيض يسمونه « الحجر الرملي » ، وتستر سطوحها بالقرميد الاحمر .

فمحلة (الكاملية) الكائنة على ساحل البحر في الشمال الغربي من القصبة تتألف من هكذا مساكن ، اما محلات [الشيخ ضاهر والعوينة] في الشمال و « القلعة والصباغين» في الشرق و « الشحاتين » في الشرق الجنوبي و « الصليبة » في الجنوب يتألف معظمها من المساكن المبنية على النسق القديم .

واكبر هذه المحلات التي عددنا اسمائها ، هي محلة « الشيخ ضاهر » اما ارقاها واجملهـا هي لا جرم محلة « الكاملية » ثم تأتي بعدها محلة « الصليبة » .

ونرى المسلمين والنصارى في اللاذقية يسكنون متخالطـين في محلة [الشيخ ضاهر والقلعة والصليبة والكاملية] اما المحلات الاخرى فيسكنها المسلمون وحدهم .

ويوجد فيها اكثر من (٤٠٠) حانوت يختص قسم منها ببيع الخضرة والفاكهـة . وهو المحل المسمى « سوق البازار » الكائن في محلة الشيخ ضاهر . والقسم الآخر يقطنه باعـة الاقمشة » وهو في محلتي الصباغين والقلعة . ويعثر بين المحلات على بعض حوانيت ايضاً .

وكان يوجد فيها قبل الحرب بضعة مراقص اما الآن فقد نابت مكانها ملاهي المحلات . وان هذه الملاهي وجميع الحوانيت في اللاذقية في حالة كثيفة وسخة .

وفيها من المؤسسات العمومية دار الحكومة الظريفة وبناء النادي ثم الثكنة . وهذه موجودة في محلة القلعة ، اما الاخريتان فهما في محلة الكاملية .

ويوجد هنا للمسلمين جوامع كبيرة خطيرة . واهم هذه الجوامع واكبرها هو جامع « المغربي » . ثم الجامع « الجديد » في محلة القلعة وجامع « الكبير المصوري» في الصباغين و« ارسلان باشا » في الشحاتين وجامع « الصليبة » في الصليبة وجامع « صوقان » في محلة العوينة وجامع « الشيخ ضاهر » في هذه المحلة وجامع « الاسكلة » في محلة الاسكلة وجامع « الشواف » قريب من دار الحكومة وجامع « الصغير » بين الصباغين والشيخ ضاهر . ويوجد فيها اثنى عشر مسجداً ايضاً .

وللنصارى فيها كنائس كثيرة . فللروم الاورثوذوكس واحدة في محلة القلعة واخرى في الكاملية واثنتان في الشيخ ضاهر وللمارونيين واحدة في الصباغين وللارمن واحدة في القلعة والمجموع ست . ثم ان للاروام فيها اسقفية في محلة القلعة .

وتوجد غير هذه من الابنية الضخمة تكية المولويين في محلة القلعة ومدرسة للاروام ، ومدارس « فرهر » ومدارس الشركات الاميركية والايطالية .

*
* *

وقصارى القول ان اللاذقية لا تبعد ان تلفت النظر بسعتها وابنيتها ، ولكن اتصال بعض الابنية المتداعية ببعضها ووساختها بسبب الاهمال وعدم الاهتمام جعل منظر هذا القسم من القصبة مستكرهاً تنفر منه الطباع وتمجه الاذواق .

نعم ان التجول في تلك الطرق الضيقة المستكرهة التي طبقت عليها الحنايا في القسم القديم من هذه القصبة لهو من العذاب الذي لا يطاق . ومع هذا فلا يسوغ لنا الطعن في هذه البلدة بسبب شوائبها القديمة . لان فيها من الشوارع المنتظمة ما يجعلها ارجح في الرقي من البلاد السورية الاخرى . وها نحن نذكر اسماء هذه الشوارع :

١ — الشارع الذي يبدأ من ساحل البحر ويمتد مشرقاً الى القلعة والى مقام الشيخ المغربي .

٢ — الطريق الذي يمتد من الجنوب الى الشمال ويصل الى الشيخ ضاهر .

٣ — الطريق الذي يبدأ من ساحل البحر ، ويمتد الى الشرق ويصل الى محلة الشحاتين ويسمى « شارع الحكومة » .

٤ — الطريق الذي يبدأ من الشمال ويمتد في الجنوب الى محلة الصليبة .

٥ — الطريق الذي يبدأ من البحر وينتهي في « سوق البازار » .

٦ — الطريق الذى يبدأ من البحر ويصل الى الصليبية من الجانب الغربى .
٧ — الطريق الذى ينعطف من وراء دار الحكومة الى الجنوب ويمر بين البساتين .
وجميع هذه الطرق التى عددناها لا اسم لها . وكلها معبدة منتظمة . مزدان طرفاها بالاشجار، واكثر التى تبدأ من ساحل البحر تكون محاذية لبعضها . ولهذا فان اللاذقية بهذه الشوارع المنتظمة حرية بان تنسينا سقامة الطرق القديمة فيها . ومع ذلك فان تملصها من تلك الطرق الوسخة المستكرهة لهو من الامانى التى يجب ان يسعى لها .

*
* *

ان المياه المستعملة فى اللاذقية كادت ان تكون جميعها من الآبار . وهذه المياه عذبة ونقية فى الاصل . ولكنها عرضة لترشح وتحلب ما لا يخلو من الاوساخ ، ثم انها تتدنس بالامتياح لعدم نظافة الدلاء . ولهذا السبب ربما تكون واسطة لتفشى الامراض فى البلدة وانتشارها .

ولا يخلو بيت فى اللاذقية من بئر ولكن الحصول على الماء يتوقف على اتعاب باهظة وعليه لا تكون هذه البلدة سعيدة من هذا الوجه. ويوجد فيها صهاريج تملىء من ماء المطر وليس فيها من منبع لا فى داخل البلدة ولا فى خارجها .

ويوجد فى الناحية الجنوبية فى محلة الصليبية منبع راكد ينبع فى داخل كهف يسمونه « ماء سندلكس » وماؤه نقى وعذب ولكنه قليل المقدار ، ولهذا لا يقوم بالحاجة .

وهذه الحاجة الشديدة حدت باللاذقيين الى التحفز لجلب الماء من موقع « تونيه » التابعة لناحية البهلولية الكائنة فى الشمال الشرقى من النهر الكبير . ولكن يحتاج هذا المشروع الى نفقة تناهز (١٠—١٥) الف ليرة . وهذا المبلغ العظيم قضى على المشروع بالبقاء فى التصور . على انه من الواجب المحتم على اللاذقيين الذين اشتهروا بغزارة الثروة ومضاء العزم ان لا يتوانوا فى حل هذه المسئلة الحيوية .

*
* *

وقبل ان تتم هذا البحث فى بيان الخطوط الداخلية فى اللاذقية ، نرى من الواجب ان نتكلم على مقاصف هذه البلدة ومحلات التنزه فيها .

ان هواء هذه القصبة لطيف ومناظرها جميلة ، ولهذا نرى كل بقعة فيها كادت ان تكون متنزهاً . على ان هناك بعض محلات معينة يقصدها اللاذقيون لاجل النزهة ويعدونها من مقاصف البلدة . فمنها جنينة البلدية على ساحل البحر وهى حديثة العهد .

وهذه الروضة الآن محتاجة للاصلاح والترتيب ولكن حسن موقعها جعلها مهيأة لتكون من الطف الرياض .

ويقصدها اللاذقيون عشية كل يوم ولاسيما يومى الجمعة والاحد . ويتجولون فى الشارع الممتد الى الشمال على طول الساحل . وربما يتجولون فى الشوارع الحديثة ليتمتعوا بمحاسن ما حولها . ثم ان موقع «الطابيات» فى هذه البلدة له منظر بهيج لانه عبارة عن هضبة عالية . ومشجرات الزيتون فى انحاء القلعة لا بأس بها . ورياض «الصليبة» و«عين سندلكس» او السهول الرملية الكائنة تحت القلعة كلها من المتنزهات التى يقصدها اللاذقيون .

***

ثم توجد فى اللاذقية حنايا الظفر القديمة ودعائم، وهى من انفس الآثار التى يجب ان ترى . وسنتكلم عنها حين البحث عن تاريخها وآثارها القديمة .

٣ — الاحوال العمومية

[١] — **قصبة اللاذقية** — ان هذه القصبة التى هى مركز ادارة اللواء الكائنة فى الدرجة (٣٥,٣١) من العرض الشمالى وفى الدرجة (٣٣,٣٩) من الطول الشرقى والمبنية على هضبة ترتفع عن سطح البحر مقدار عشرين متراً ، جميلة المنظر . والسهول الموجودة فى شرقيها وجنوبيها منبتة خصبة تسقى من النهر الكبير الذى يقطعها على امتدادها . وهذه القصبة تبعد من بابنا وجبله مسافة ثلاثين كيلومتراً .

[٢] — **عدد السكان** — كان عدد سكان هذه القصبة سنة (١٣٣٢) ٢٠،٣٨٧ نسمة من الذكور والاناث . ومفرداتها كما يلى :

	الذكور	الاناث
المسلمون	٨١٩٦	٨٣٥٨
الاورتودوكس	١٦٥٩	١٥٢٤
اللاتين	١٢	٩
المارونيون	٢١٧	١٤٥
البروتستانت	٤١	٤٣
الارمن	٩٧	٨٦
يكون	١٠٢٢٢	١٠١٦٥
	٢٠٣٨٧	

وفي سنة (١٣٢٨) و(١٣٣٢) كان عدد اللدات في هذه القصبة ١٩٣ و٧٢٨ نسمة، وعدد الوفيات ٢٩٧ و١٣٩٣ . وفكرة الهجرة الى اميركا متفشية بين المسيحيين الذين يبلغون بعددهم (٣٨٣٣) نسمة .

واليوم يوجد قريب من ربعهم هناك . وبعض النصيريين والارمن المتوطنين في قريتي « كسب » و« غنيمية » سرت اليهم هذه الروح واخذوا يقلدون انصار الهجرة الى العالم الجديد . واكثر هؤلاء المهاجرين الذين يختارون الانحاء الجنوبية من اميركا يتوطنون هناك ولا يرجع منهم الا ثلاثة في المائة . وهذا النوع من مهاجري المسلمين لا يتجاوز ثلاثة في المائة . ويقولون ان الاغنياء من هؤلاء الذين اقاموا في تلك البلاد الاجنبية يرسلون الى عائلاتهم (٥٠٠) ليرة في السنة ، اما الفقراء فيرسلون مقدار (٦٠—٧٠) ليرة . وعليه كان هذا اللواء قبل الحرب يتقاضى من ابنائه مقدار (٢٥٩) الف ليرة في كل سنة .

[٣] — **مجمل تاريخ اللاذقية** — سمى الفينيقيون هذه القصبة (راميتا *Ramitha*) او (رامانتا *Ramantha*) ولعل هذا الاسم مشتق من اسم (بعل رام *Baal Ram*) الذي كان له معبد في جبل الاقرع . ثم جاء (سلوكوس نيقاتور *Sileucus Nicatoor*) الذي جعل نفسه ملكا في سورية بعد وفاة الاسكندر الكبير . فجددها مع بضعة بلاد غيرها وسماها « لاؤديسه » *Leodieée* اضافة لاسم والدته « ٢٩٠ ق . م » .

ولما زادت بسطة الحكومة الرومانية كانت سلالة سلفقوس اخذةً بالانحلال ولم تلبث ان انقرضت وبادت . ثم وقع الخلاف بين هؤلاء الحكام الحديثين في اوائل الفتح وتجرعت البلاد بسببه بحراناً دموياً . وحينما كان الاختلاف قائماً بين العوام والخواص في الرومانيين نصبت فرقة الاعيان « قاسيوس » وعينت فرقة العوام « دولابلا *Dolabella* » والي على سورية ، وحضر كلاهما الى محل ولايتهما . ولما نشبت الحرب بين هذين الرئيسين كان السكان منحازين الى فرقة العوام . وعليه عمد قاسيوس وسخر اللاذقية عنوة وكبدها اضرارا عظيمة . واكتسح جميع كرومها التي كانت لها الشهرة الرنانة بنفاسة عنبها .

وبعد ان قتل « ژول سەزار » انقسمت بلاد الرومانيين بين انطونيوس واوقتابوس ، وكان انطونيوس لم ينس جميل اللاذقيين بمقاومة قاسيوس خصمه ولهذا ارتأى ان يجزيهم على حسن عملهم فأقال بلادهم من جميع المكوس والضرائب . ولما ثار « پسەنيوس نيژر *Pesceninius Niger* » احد القواد الرومانيين وطلب تاج القيصرية لنفسه ، قصد اللاذقية وهدمها . ثم لم يلبث رقيبه « سەوەر *Sevère* » ان استحوذ على الحاكمية في روما والتفت الى اللاذقيين الذين كانوا منحازين اليه فمنحهم بالامتيازات ، وشيد في القصبة كثيراً من المباني الضخمة اللطيفة ، وسماها « سبتيما سەورى » . اضافةً الى اسمه

(١٩٣—٢١١) .

وقد ارسل عمر ابن الخطاب (ر . ع) جيشاً فى قيادة يزيد سنة (٦٣٧) وفتحها فى زمن هراقليوس من قياصرة البيزنطيين .

وفى ايام الصليبيين سخر هذه القصبة (بوهموند) امير تارانت و« ريموند » حاكم بوهموند وطولوز (١١٠٩) ثم الحقت بايالة انطاكية بسبب صغر شأنها فى ذلك الزمن.

ثم فتحها السلطان صلاح الدين الايوبى سنة (١١٨٨) مع كثير من البلاد فى سورية الشمالية واقطعها الى اخيه الملك المظفر تقى الدين عمر . وقد عمر هذا الامير قلعتها واصلح شأنها . ولكن اعاد عليها الصليبيون الكرة بعد مدة وملكوها مرة اخرى . وبقيت فى ادارتهم الى سنة « ١٢٨٦ » حيث انتزعها السلطان قلاون منهم ، وبقيت منذ ذلك التاريخ الى الآن فى ايدى المسلمين . وقد منيت هذه القصبة بزلازل شديدة سنة ١١٥٧ و١١٧٧ و١٢٨٧ هدمت اهم مبانيها ،

وبالرغم عن تلك المصائب التى تجرعتها فى الغابر ، وانطماس كتاباتها التاريخية فان هذه القصبة لم تزل محتفظة بموقعها الخطير فى الآثار القديمة . فيعثر فى الناحية الشمالية والشرقية منها على كهوف منحوتة فى الصخر ، وعلى اجداث مزينة بالنقوش المتنوعة . وهناك مغارة قديمة تسمى « مارتوقله » لا تزال نصارى هذه الانحاء تدخلها للتبرك فى مولد « مريم » عليها السلام . وكان هذا النوع من المغارات التى اعدت لدفن الاموات ، وعد اجتماع للنصارى فى اوائل انتشار دينهم .

ثم يوجد فى الجانب الجنوبى من القصبة جدار لا يبعد ان يكون من بقية سورها اما الجامع الموجود فى الجنوب الشرقى منها فهو مبنى فى موقع الحصار المجهز بحنية الظفر ، الذى بنى فى ايام « سبتيم سيوير *Septime Sévère* » وكان عرض كل جدار من جدرانه الاربع (١٣،٥) متر . وكان له باب ضخم . اما الزوايا فانها مبنية على النسق القورنتى ومزينة بالاروقة الظريفة ، والقبة التى هى عبارة عن نصف كرة قائمة على مضلع مثمن يرى فى داخلها كثير من صور الآلات الحربية مرسومة بنقش نافر . ويعرف هذا المحل عند الاهلين بالكنيسة المعلقة . وتوجد فى جانب حنية الظفر اربع دعائم . يحتمل ان تكون بقية من انقاض معبد بنى هناك .

٤ — **بلدية اللاذقية** — ان الذين لا يعرفون ماهية الانحاء الشمالية فى سوريه يظنون ان اصقاع اللاذقية محرومة من المعارف والزراعة والطرق هى فى حالة ابتدائية خالية من معاهد العمران . ونحن ايضاً لما فارقنا طرابلس مستهدفين الانحاء الشمالية ، ورأينا تلك القرى الخربة التى لا نصيب لها حتى ولا من العمران الابتدائى كنا على عين

الرأى ، ودخلنا اللاذقية ونحن نتوقع ان نرى قرية على ذلك النسق غير انها كثيرة السكان ولكن مرجى لمحلتها الجديدة فانها ما لبثت ان اضطرتنا لتبديل هذا الظن . ومع هذا فلا نحسب ان لبلديتها همة فى اعمار القصبة .

وان الاقوام ، بل الامم التى تكون مثلنا لا نصيب لها من الرقى العصرى لا تجد بداً من ان تتبع فى حياتها الاجتماعية كبرائها وآمريها. فيكونون لها بمثابة الوصى الذى كملت عنده السيطرة .

ولهذا لا ترون وال ولا متصرفاً ، بل حتى ولا قائمقاماً يتبع خطة يتوخاها فى ادارة المحل الذى ولى امره ، الا وترون آثار تلك الخطة منطبعة فى ذلك المحل . وان ما تقوم به من الاصلاح والاعمار يكون فى اكثر الاحيان من آثار ميول وآراء شخصية محضة اكثر من كونه ناشئاً عن خطة منتظمة قرر عليها وثوبر على تطبيقها . ولهذا لا يسوغ لنا ان نعجب لعدم شمول ما نراه من الآثار فى بعض انحاء الولاية . وهذه اللاذقية هى اكبر دليل نستشهد به على صدق دعوانا .

وجد فى اللاذقية قبل بضع عشرة سنة متصرف نزيه الطبع ، بعيد الهمة ، محب للانتظام ، اسمه « شكرى باشا » فلم ترق فى عينه حالة هذه القصبة لانها كانت عبارة عن بيوت متلاصقة ، محصورة فى ساحة ضيقة ، وطرقها التى هى عبارة عن مضايق ، او انقاب كانت كلها مسقوفة ، حتى لا تكاد تنفذ الشمس اليها مملوءة بالعفونة والاوساخ بدرجة لا يمكن تحملها .

ومن جهة اخرى كان مأمورو الحكومة يسكنون فيها فى اوكان متداعية ضيقة لا يصل اليها الهواء . ولا تنطبق على حيثية الحكومة وشرفها . ولهذا فان هذه الحالة التى تمثل حياة الاجيال المتوسطة ، لم ترق فى عين هذا الهمام ، فعمد الى الساحة الفارغة الكائنة بين القصبة والبحر ، وخط فيها طرق المحلة الحديثة ، وازمع على تشييد دار للحكومة فى تلك الساحة لا يرى لها مثل فى بقية البلدان من حيث انطباقهـا على القواعد الصحية ونظافتها وحسنها . ولاجل الحصول على نفقة هذه البناية طرح على كل رزمة من تبغ «ابو ريحه » الذى يصدر الى البلاد الاجنبية ثلاثة غروش ، وطرح مكساً يسيراً على بقية الاموال الصادرة ، والواردة ، فتوفر له مبلغ كاف من هذا المكوس التى خف الى ادائها الاهلون بارتياح عظيم . فصرف منها (٣٣٠٠) ليرة وشيد دار الحكومة الحالية على احسن ما يكون ، ثم عبد من طريق اللاذقية — جسر الشغور مقدار (١٧) كيلومتراً ، وفتح طريقاً آخر بين اللاذقية وقرية « سرخو » التى تعتبر كمصطاف للاذقيين . وجميع هذه النفقات كانت من هاتيك المكوس .

وعوضاً عن ان يلتهم هذه المبالغ التى تقاضاها من افراد الامة كما كان شأن معاصريه،

لم يكتف بصرفها فى غايتـه الاعمارية بل عززها بانفاق مبلغ طائـل من ثروته ايضاً . ولا جرم ان الاوطان مديونة بالشكر لهكذا مصلحين نادرى الوجود ، لا يدخرون وسعاً فى طريق اعمارها .

وبلدية اللاذقية التى لا تفرق شيئاً عن بقية البلديات بعدم ادراك ماهية وظيفتها ، كان لها من الدخل سنة (١٣٣٢) مقدار «٢١٢٦٧٨» غرشاً ومثله من الخرج.

ولم تكن حتى العهد القريب لهذه القصبة البديعة فى منظرها حديقة عمومية . وعليه عمدت ادارة البلدية قبل سنتين وسعت لازالة هذا النقص واسست فى احسن موقـع من الساحل حديقة منتظمة انفقت عليها مقدار «١٥٥٠٠» غرش .

وهذه البلدية التى حاولت ان تثبت لها وجوداً باقامة هذا الاثر الذى من شانه تنمية الاذواق البديعة فى الخلق . فهى اما عاجزة عن تنظيف الاوساخ المرتكمة فى طرق القصبة الضيقة المتعفنة ، او متكاسلة فى ايفاء الوظيفة . مع انها قادرة بما لديها من الدخل ان تقوم بالاعمال المهمة التى تنفع السكان وتنطبق على مصلحتهم .

[٥] — **المعارف** — لا تزال معارف هذه القصبة تتقلب فى ادوار مهمة منذ اربعين او خمسين سنة . وبينما كنا محرومين من معاهد العلم والمعارف ، نهضت جمعية «بره سبيته رين» الاميركية سنة (١٨٥٩) وارسلت الى اللاذقية وفداً فى رياسة المبشرين «ميستر دودس *Dodds*» و«ميستر بيتى *Beattie*» لاجل تعميم البروتستانتية بين النصيريين والارمن . وهذه الهيئة التى ما فترت همتهـا منذ ذلك الزمن الى الآن ، تمكنت من تأسيس اربعين مدرسة فى قصبة اللاذقية ، وبذلت كل ما يمكن بذله فى طريق غايتها الدينية حتى تسنى لها تنصير ثلة من فقراء النصيريين ، وقسم مهم من سكان قريتى «بجمره وجندره» . وقد شعر «ضيا باشا» الذى كان متصرفاً فى اللاذقية قبل عشرين سنة بوجوب التذرع بالتدابير التى تقف امام هذا التيار البروتستانتى الذى لا ينطبق على الحرية الدينية المؤيدة بجميع القوانين الاساسية . فعمـد الى عشر قرى من قرى النصيريين واسس فى كل واحدة منها جامعاً ومدرسة ، وبعث اليها الواعظين والمرشدين . اما الآن فنرى تلك المعاهـد التى نشأت عن اندفاع ملى جدير بالاجلال والتكريم مهملة تداعى اكثرها واندثر .

وميزانية هذه السنة قضت بوجود (١٧) مدرسة ابتدائية فى جميع اللواء ، غير ان فقدان المعلمين اوجب الاكتفاء بتأسيس «١١» مدرسة كلها تدار بالوكالة . ولا نجد لدى الاهـالى رغبة فى هذه المدارس . فاذا علمنا ان مجموع الطلاب فى جميع هذه المعاهد العلمية لا يزيد عن (٢٥٠ نسمة)، لا جرم نطلع على درجة تأثيرهـا فى ذلك المحيط .

اما المدارس الاجنبية فكان لها قبل الحرب موقـع خاص . وكانت فى هـذه القصبة

مدارس للذكور والاناث تخص اللاتينيين ، والروس والاميركان والفرمر . وقد عطلت بعد اشهار هذه الحرب ولم يبق منها الا مدارس الاميركان . ويروى ان قد كانت لنصارى هذه الاصقاع رغبة عظيمة فى تلك المدارس . اما المسلمون فكان مقدارهم فى مدارس « الفرمر » خمسة فى المائة ، وفى مدارس الاميركان اثنان فى المائة . ويدعى بوثوق ان مدارس الفرمر كانت راجحة على جميع تلك المؤسسات الاجنبية بجدية دراستها . اما المدارس الاميركية فيوجد فيها مقدار (٤٠—٥٠) طالب وطالبة من قسم الداخلى المجانى و (١٠٠—١٢٠) من الطلاب الخارجية . ودرجة التحصيل فيها بسيطة للغاية . ولا يشتغل معلموها الا بدس الروح النصرانية البروتستانية . وبهذا يزيدون هذه الربوع المقفرة من العلم عمهاً وضلالةً .

[٦] — **الاحوال الاقتصادية فى اللاذقية** — اذا اردنا ان ندرس الاحوال الاقتصادية فى احد البلاد يجب علينا اولاً ان نطلع على مصادر حياة اقوامها ومقدار ما عندهم من القدرة الدماغية والعضلية . ويعتقد « راتزه ل *Ratzel* » العالم الالمانى بان البشرية وهممها هى من الحادثات الجغرافية . ويقول ان تلك الهمم لا تقوم الا بالآثار التى يثمر بها كالطرق ومجارى المياه ، والبلدان والزراعة والصناعة . ويرى ان لا بد من آثار فى التراب تدل على وجود ابناء البشر عليه .

ولهذا لا بد للاحوال الاقتصادية فى جميع البلاد ان تكون لها رابطة قوية فى الموقع الطبيعى والجغرافى فيها ، ولا جرم ان اهم الاسباب التى صعدت بانكلترا الى مقامها الباذخ فى التجارة ، هى ثروة بلادها الطبيعية ، وموقعها الجغرافى . وهكذا الحال فى الالمانيين الذين حركوا بعلو موقعهم الاقتصادى حسد الاقوام الساكسونية ، فان مناجم معادنهم ، واحراج بلادهم ، وانهارها لها الحظ الاوفى فى تلك المكانة الاقتصادية .

غير انه لا يسوغ ان نعطف اسباب الرقى الاقتصادى فى بلدة ، او اسكلة ما على الموقع الطبيعى فقط . ولهذا لا يصح ان نسند الرقى التجارى فى انكلتره الى حالة نهر التايمس ، او الى بحيرات اسقوجيا ، او الى سواحل بلاد الغال فقط . لان اسباب رقى انكلتره الاوروبية لا تنحصر فى اوروبا ، بل هى شايعة فى جميع اقطار الكون ، وهكذا لا يكفينا فى ايضاح غناء المانيا ان نطلع على حالة سواحل بومه رانيا ، وعلى كثافة احراج باويرا وعليه فان الاستناد على الاسباب الموضعية فى ايضاح الحالة الاقتصادية لاحد البلاد يكون خطاءً محضاً .

ثم يجب ان لا نسرع فى الحكم . ونقول ان الاستعداد الطبيعى فى المحل الفلانى كذا ، فيكون رقيه الاقتصادى كذا . وعلينا ان لا ننسى ان الاستعداد الطبيعى يختلف باختلاف

الاحوال السياسية والاخلاقية والاجتماعية فى الاقوام التى تقطن تلك الانحاء .

وامتزاج القوى الطبيعية بالمساعى البشرية هو الذى يخلق قوة البلاد وثروتها . وبانضمام سخاء الاولى وكرمها الى ذكاء الثانية وهمتها ، وسويتها العلمية والفنية ، يتسنى للامم ان ترقى الى ذرى العظمة والسلطان . وهذا يطلعنا على ان لا يمكن لكل امة ان تستفيد بدرجة واحدة من الثروة والاستعداد الطبيعى . فمنها من تستطيع تزييد هذا الاستعداد ، وتحظى بمنافع عظيمة كالسيونيست فى فلسطين ، ومنها من يتوسط فى الاستثمار ، ثم منها من لا يعلم قيمة تلك الثروة والاستعداد فيعيش عيشة سافلة . وهذه تختلف باختلاف الاوصاف الاخلاقية والسجايا التربيوية فى الاقوام والامم والحكومات . وهكذا فان لحسن المعاشرة والاتحاد السياسى فى تلك الاقوام التى وصفت بالصبغة السياسية تأثيراً عظيماً فى رقيها وانحطاطها .

لا تأثير لشكل الادارة فى الحكومات من حيث الوجهة الاقتصادية مشروطة كانت او جمهورية او مطلقة . بل الامر الذى تدرر حوله الشؤن الاقتصادية ، هو الامن والانتظام والتحابب والاتحاد والعدل والانصاف فى الداخل ، وجسارة تلك الامة وشجاعتها تجاه الخارج .

ويمكننا اجمال هذه الملاحظة العمومية وتطبيقها على بلادنا ، وحتى على لواء اللاذقية منها .

ان لواء اللاذقية الذى يشغل الاصقاع الشمالية من الساحل السورى ، هو من المواطن التى يجب ان لا تهمل من حيث التجارة والاقتصاد . ثم ان خصب تربته وكفاية مياهه الجارية لاسقاء حقوله ، ووجود السواحل المجهزة بالمرافئ الطبيعية فيه كلها تدل على كمال استعداده الطبيعى .

غير ان السكان التى تقطنه هى فى اشد الحاجة للتربية الفكرية والاقتصادية . وهؤلاء السكان الذين جملتهم الجهالة يعتقدون بخرافات ترفضها افكار الصبيان ، خصوصاً النصيريون منهم لن يستطيعوا استثمار تلك الاتربة المنبتة والاستفادة من ذلك الموقع البحرى الذى لا مثال له . وقد اخبرنا المؤرخون ان اسياف البحر اعتباراً من شمال اللاذقية الى اقصى الجنوب كانت فى القرون الاولى تدر بخير عميم . اما الآن فان ثلثى اراضى جبله ، ومعظم سهول اللاذقية وصهيون وبانياس محرومة من الزراعة . ويحمل البعض اسباب هذه العطلة على طغيان النصيريين وجورهم . نعم ان الانحاء التى تكون محرومة من الامن والانتظام لا يمكن ان ترقى فيها الزراعة ولا الصناعة ، ولا تنتظم فيها الاحوال الاقتصادية .

ولا استفادة لهذا اللواء اليوم الا من التبغ والبيض وقليل من الحبوب رغماً عما فيه من الارض المخصبة . وهذه الثروة التى تحيكها تلك الايدى الجاهلة الخرقاء لا يمكن ان ترقى ما لم يكن لها وصى مدنى يهمه خيرها ونفعها . والا فانها تبقى على ما كانت عليه من

قبل اربعين سنة . وهذه الارقام تفصح لنا عن صدق دعوانا .

السفائن التى مرت بمينا اللاذقية

		طون
سنة ١٣١٥	باخرة	٣٤٨٦٠
	شرعة	٦٤٦١
سنة ١٣٢٠	باخرة	٧٣٨٨٤
	شرعة	٦١٥٢
سنة ١٣٢٨	باخرة	١٣٥١٦٣
	شرعة	١١٧١١
سنة ١٣٣٠	باخرة	١٨٨٠٩٤
	شرعة	٧٦٥٣

ثم اذا لم يحور نظام (ادارة الدخان) — رزى — الذى مر ذكره اثناء البحث العام، وخفض من غلواء هذه الشركة المتغلبة ، لا يمكن اصلاح زراعة التبغ ورقيها البتة .

ومن اعظم المؤثرات التى تؤخر اقتصاديات هذا اللواء وتضر بصالحه ، عدم وجود الطرق الممهدة فيه . وفقدان المرافئ المحفوظة التى تسهل اصدار حاصلاته . ومن السذاجة ان نعتقد برقى تلك الاصقاع وفلاحها ما دام سكان جبال النصيرية لا يعرفون صديقاً لارواحهم الا السلاح ، وما لم يعدلوا عن فكرتهم التى تقول بلزوم افناء الحياة فى اشد العذاب بين تلك الصخور الصلداء التى لم ينفذ اليها نور العلم ولا مرشد المدنية منذ قرون كثيرة . فاذا مهدنا لهم الطرق وشيدنا المرافئ ، ثم اذا عمدنا الى افكارهم التى عشعش فيها الجهل فانرناها بالعلم ، فهنالك ترقى الزراعة والصناعة ويتسع نطاق الاقتصاد وتتوفر للبلاد كل سعادة .

[٧] — مرفأ اللاذقية — يوجد فى اللاذقية مرفأ طبيعى صغير مسور بسد ناقص لصد الامواج طوله ثمانون متراً وعرضه ثلاث مترات يبدأ من خربة القلعة التى بنيت عليها منارة المرفأ ويمتد الى الشمال الشرقى حيث يتصل بالساحل. ويستوعب مقدار [٤٠— ٥٠] شرعة يتراوح حجمها بين (١—٨٠) طناً . ومعظم ما يستوعب اربع باخرات يتراوح حجم الواحدة منها بين (١٠٠—١٣٠) طناً . ولكن لم يسبق ان دخله غير الاشراع ذلك لان

مدخله ضيق للغاية ، ولا يتجاوز عمقه (٣—٤) باعات ، مردوم بالاحجار التى سقطت من انقاض القلعة بمرور الايام .

وعليه يمكن للاشراع الصغيرة ان تدخل من هذا المدخل وتصل الى منتصف المرفأ ولكن لا يتيسر للضخمة منها ولا للباخرات دخوله ، وعليه لا بد لهذه السفائن من الارساء فى الجهة الشمالية بمسافة نصف ميل عن مدخل المرفأ .

وتمر بهذه الاسكلة فى السنة على الحساب المتوسط (٦٠) باخرة يبلغ مجموع حجمها (١١٥٠٠٠) طن و(٢٠٠٠) شرعة مجموع حجمها «٢٢٠٠٠» طن وبناء على وفرة الوسائط النقلية البحرية وسهولة شروطها يصار دائماً لاستعمال هذه الواسطة بالنقل .

ويجب لاجل توسيع التجارة البحرية فى هذه البلدة اولاً كرى المرفأ وتنظيفه من الرمال والوحول التى كادت تملئه ، وتعميقه بمقدار خمسة باعات على الاقل، واخراج الاحجار الموجودة تحت البحر فى ناحيتى المدخل . ثم ان ارتفاع السد ليس بكاف . ولا تزال الامواج تقتحم اعلاه عند حدوث الانواء ولهذا السبب تداعى اكثر اطرافه . وعليه يجب اتمام ارتفاعه واصلاح ما يوجد فيه من الخلل .

وبنى هذا السد سنة ١٣٢٦ ولكن لم يتم . ثم لم تطرح امامه من ناحية البحر حوائل من الاحجار الصناعية لكسر سورة الانواء وما زالت تنطحه الامواج حتى تصدع وتمزق من اكثر انحائه . وهو الآن متصدع فى وسطه من محلين ، وقاعدته متداعية ايضاً . ولا جرم ان تمادى هذه المؤثرات لا بد ان يزيد فى تداعيه .

اما عمق الماء فى داخل المرفا فهو مختلف . ففى المدخل يتراوح بين (٣،٥—٤) باعات وفى منتصف المرفأ يتراوح بين (٢.٥ —٣،٥) باعات . اما عمقه فى القسم الداخلى فيتراوح بين (١،٥—٢) من الباعات . ومقدار الماء فى موقع الاسكلة لا يتجاوز اربعة اقدام . وبما ان المرفا غير واسع . فلا يمكن ان تدخله بعد اصلاحه الا السفائن التجارية التى لا يزيد حجمها عن (١٢٠٠) اما السفائن التى يكون حجمها اكثر من هذا فلا بد من ان تتكبد المشاكل .

٤ — الاحوال الاجتماعية فى اللاذقية

[١] — *الحياة العمومية والاجتماعية* — اذا نظرنا الى الجداول الرسمية يجب ان نعتبر سكان اللاذقية نحواً من عشرين الف من النسمات . اما اذا اطلعنا على ما يدعيه بعض اللاذقيين الذين لهم المام بحقيقة الامر يجب ان نصعد بهذا المقدار الى (٢٥٠٠٠) نسمة . واربعة اخماس هذا المجموع تتألف من المسلمين السنيين والخمس الآخر من الروم الاورتودوكس

والمارونيين والارمن والبروتستانت واللاتين المسيحيين .

فينقسم مسلمو اللاذقية من حيث الحياة العمومية الاجتماعية الى ثلاثة اقسام : الاغنياء والطبقة الوسطى ، والعوام .

ان منسوبى الطبقة الاولى اصحاب الاملاك والاراضى والذين لديهم الثروة الضخمة هم عبارة عن سبع اسر . ويوجد بين افراد هذه الاسر اشخاص لهم من الثروة النقدية ما يتراوح بين عشرة الاف وخمسين الف ليرة ، ومن الدخل السنوى ما يتراوح بين (١٠٠٠ — ٤٠٠٠) ليرة .

ويوجد بين اصحاب الاراضى من يشتغل بالزراعة فقط ؛ ومن يتعاطى التجارة . فالذين يشتغلون بالزراعة يولجون باعمالها شركائهم من القرويون . اما التجارة فى اللاذقية فهى عبارة عن تجارة التبغ والبيض .

وتخمن الاموال المنقولة وغير المنقولة التى تملكها هذه الاسر السبع بمقدار نصف مليون من الليرات . وعدد افراد هذه الاسر يبلغ نحواً من (٥٠٠ — ٦٠٠) نسمة رجالاً ونساء . والبعض بين هؤلاء الاسر المسلمة يعيش عيشة منتظمة راضية . فمنازلهم المنسقة على طراز مدنى . ونسق عيشهم يدلنا على انهم لم يهملوا امر الانتفاع من ثروتهم بل اتخذوها ذريعة لرفاهيتهم وتحسين عيشهم . وجميع منسوبى هذه الطبقة فى اللاذقية يتوخون فى لباسهم الطراز الحديث .

غير اننا نجد جميع افراد هذه الطبقة الذين يظهرون بمظهر الترقى والتمدن، هم فى مترتبة من البضاعة العلمية . ويوجد بينهم اسرة واحدة لافرادها نصيب من التحصيل التالى، اما الآخرون فانهم محرومون من هذا الجهاز الحيوى. وهذا الانحرام حال بينهم وبين الاستفادة التامة من ثروتهم الوافرة . وجعلهم عاجزين عن خدمة بلادهم واعلاء شانها . لاسيما وان هذا الحال حدى بهم الى الانهماك فى اللذات والاذواق .

ومع هذا فان لهم فى الحياة الاجتماعية سيراً حسناً . لان المزارعين فى اراضى هذه الطبقة كلهم من النصيريين ، واملاكهم جميعها محاطة باراضى جبله وصهيون التى اشتهر اربابها بالخشونة والقسوة فى الحياة الاجتماعية .

ولهذا لم يجدوا سبيلاً يمكنهم من التسلط والاستبداد . وعليه كان ارباب هذه الطبقة على غاية من الانس والانسانية ، وهم اهل قرى ايضا غير ان فى حالتهم الروحية ميلاً للانهماك فى الاذواق والملذات .

وقصارى القول ان افراد هذه الطائفة لم يؤثر عنهم انهم ذوو شر وفساد ، او سيطرة ينتفعون بها باضرار غيرهم ، كما انهم ليسوا بارباب لطف وعناية بالناس ينفعونهم بوفرهم الطائل . فيجب ان نتلقاهم فئة تتألف من اناس هادئ الطبائع ، معتدلى السير يحبون

الاحتفاظ بالموجود .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثانية فى المسلمين فهى عبارة عن اوساط الناس . وعدد عائلات هذه الطبقة يربو على «٥٠» وعدد افرادها يتجاوز «١٠٠٠» نسمة .

فاذا علمنا ان ثروة كل عائلة من هذه العائلات تتراوح بين «٢٠٠٠» و«٦٠٠٠» ليرة ، ودخلها السنوى يتراوح بين «٢٠٠» و«٥٠٠» ليرة يتضح لنا ان مجموع قيمة اموالهم المنقولة وغير المنقولة لا يقل عن «٢٠٠—٣٠٠» **الف** ليرة .

وهذه الطبقة ايضاً تشتغل بالزراعة والتجارة . ولا تختلف معيشة هؤلاء عن معيشة ارباب الطبقة الاولى الا انها انقص منها بدرجة ، ولا يمكن العثور بينهما على فرق ملموس من حيث الموقع الاجتماعى . فاذا اغضينا عن كمية الثروة نستطيع ان نعتبر هاتين الفئتين طبقةً واحدة . بيد ان ارباب الكسوة العلمية ، والذين اشتهروا بدراسة العلوم الشرعية ، كلهم من افراد هذه الطبقة . ومع ذلك كان لهذه الطبقة اناس ارفع سوية من اناس الطبقة الاولى . وربما يعثر لديها على هكذا اوصاف من حيث المسعى ايضاً .

وبما انهم ليسوا على درجة من الرفاهية ورخاء العيش يضاهون بها الطبقة الاولى نراهم اشد اقتصاداً فى الحياة الاجتماعية ، واهدأ طباعاً فى الحالة الروحية . ثم اذا نظرنا فيهم نظرةً عامةً نجدهم من حيث التحصيل اشبه بسكان القرى ، كما هو الحال فى الطبقة الاولى .

*
* *

اما الطبقة الاجتماعية الثالثة فهى عبارة عن السواد الاعظم من الخلق . وهى تتألف من الذين يشتغلون بالنوتية او بيع الخضرة ، او من زراع البساتين ، او العمال وغيرهم من الصنوف الاجتماعية .

يكتسى ارباب هذه الطبقة الاردية والسراويل ، ويلبسون فى رؤسهم طرابيش. وعيشتهم منغمسة فى الفقر . واكثرهم يسكن فى محلة « الشحاتين » و« الصباغين ». ومع هذا لا يقل دخل احدهم عن (٢٠٠٠—٣٠٠٠) غرش فى السنة . اما الحياة فى اللاذقية فهى رخيصة هينة ، فيتسنى لافقر عائلة ان تعيش بدخلها عيشةً لا بأس بها . ويسهل على كل احد فى هذه البلدة ان يجد لنفسه عملاً . ولهذا يندر فيها وجود من يسقط فى درك الذلة والمهانة .

غير ان تحصيل افراد هذه الطبقة ناقص ، وعدد الذين يحسنون القراءة والكتابة فيها قليل .

وعدد الذين يحسنون القراءة والكتابة بين جميع مسلمي هذه البلدة يناهز عشرين من المائة في الرجال وخمساً منها في النساء. ثم يوجد بينهم ستة او سبعة اشخاص من متخرجي المدارس العالية، وقريب من مائة من دارسي العلوم الشرعية. اما الباقون فتحصيلهم يسير جداً. وهذا يدلنا على انحطاط السوية الفكرية في اللاذقية.

*
* *

اما نصارى اللاذقية؛ فان اربعة اخماسهم من الروم الارثودوكس، والخمس الآخر من بقية الطوائف. ومعظم الثروة يوجد في ايدي الاروام. ولهذا فان موقع بقية الطوائف المسيحية بالنسبة الى الاروام، موقع حرمان بحت.

والحياة الاجتماعية في هؤلاء الاروام تماثل حياة الطبقات الاجتماعية الاسلامية. ويوجد في طبقتهم الاولى اسرتان هما ارجح وارقى من نظرائهما المسلمين سواءً في الثروة او في نسق العيش. وثروة كل واحدة من هاتين الاسرتين اللتين حصرتا تجارة «ابو ريحه» في ايديهما تتراوح بين (٦٠—٧٠) الف ليرة، ودخلهما السنوي لا تقل عن (٦—٧) آلاف ليرة.

ثم ان حسن الترتيب والنظام في منازل هاتين الاسرتين والمدنيــة التي تتجلى في نسق عيشهما وحياتهما بارزة ملموسة. ولديهما شابان تخرجا في مدارس الغرب، ولهما مؤلف بالفرنساوية يبحث عن الصناعة والزراعة في سورية جدير بان يكسبهما ثناءً وتقديراً.

ويوجد في الطبقة الوسطى بين المسيحيين بضع عائلات افرادها من ارباب الاملاك، اما افراد الباقيات فيشتغلون ببعض المهن والصنايع. ونرى الطائفة المسيحية اسبق وارقى من جارتها المسلمة من حيث المزية العلمية والسوية الفكرية. فاذا قسنا هاتين الطائفتين ببعضهما مع مراعاة عدد افرادها. نجد عدد الذين يحسنون القراءة والكتابة من رجال المسيحيين اكثر من المسلمين. اما نساؤهــم فانهن ارقى بكثير من النساء المسلمات. لا نقصــد بهذا الرأي ان المسيحيين هناك هم على غاية من الرقي. ولكن لا بد ان نعترف بانهــم ارقى من المسلمين من حيث المعرفة بالقراءة والكتابه.

وان النصارى هنا لهم رابطة قوية بالدين ولربما كانوا متصلبين اكثر من المسلمين. وعليه تكون الطائفتان على عين الشاكلة من هذه الوجهة

*
* *

وقبل ان نتم بحث الحياة الاجتماعية في اللاذقية نرى ان نستطرد ونبحث نبــذة عن الحالة الاجتماعية في قضاء مركز اللاذقية.

اذا صرفنا النظر عن سكان قصبة المركز نجد ان عدد سكان هذا القضاء يربو على

(٣٠٠٠٠) نسمة . ونصف هؤلاء من النصيريين ، وثلاثة ارباع النصف الآخر من التركمان والسنيين . والربع الآخر من مختلفي الطوائف المسيحية .

فالنصيريون الذين يسكنون فى قضاء المركز ، يشتغلون بالحراثة والزراعة . ومنهم بضع عشرة من العائلات التى تملك اراضى تتراوح قيمتها بين (١٠٠٠)و (٢٠٠٠) ليرة . ودخلهم السنوى يتراوح بين (٢٠٠) و (٥٠٠) ليرة .

وهؤلاء النصيريون يشبهون سكان السواحل، او قطان الاسياف من بنى جلدتهم. ولهذا لا نجد فيهم تلك السجايا والخلال الموجودة فى قطان الجبال من اخوانهم.

وبما ان اكثرهم مزارعون فى اراضى اغنياء اللاذقية ، تكون السكينة وهدو الطباع امراً طبيعياً لهم . لاسيما وان ظلم النصيريين الصهيونيين اياهم ، وتعديهم على حقوقهم ، جعلهم اقرب قلوباً ، واميل نفوساً الى اللاذقيين .

ومن العبث ان نرتاد الرفاهية فى عيش هؤلاء النصيريين ، او الصلاح فى حالتهم الفكرية. لانهم ثلة من فقراء الناس ومساكينهم .

ثم ان النصارى فى قضاء اللاذقية ليسوا على شئ من الاوصاف الخاصة . اما السنيون الذين هم ثلاثة اثمان السكان ؛ فمنهم مقدار (٥٠٠) نسمة من العرب يسكنون فى قرى « البساتين والريحان وقيناص » . والباقون يسكنون انحاء « الحزينة وباير وبوجاق » وبما اننا سنتكلم عن التركمان الذين يسكنون تلك الانحاء فى مبحث خاص، لا نرى لزوماً الآن لتكرار البحث .

[٢] — **العادات الاجتماعية** — نريد هنا ان نبحث عن بعض العادات التى لها اوصاف خاصة عند اللاذقيين . ونبدأ منها بالزواج .

ان مسئلة المهر عند المسلمين هى من اهم مسائل الزواج . ولهذا يطول الشرح فيها حتى تحسم . وعندهم ميل شديد للتغالى فى المهر . وربما يبلغون به الى (٤٠٠) ليرة . وبعد حسم هذه المعضلة يهون الامر ، فاما ينتج اتفاقهم بما يسمونه (الخطابة) وهى عبارة عن ترسيم وتسمية ، او بمباشرة عقد النكاح . ومن عاداتهم اجراء العقد او الخطبة فى بيت العروس ، ثم لا يتغالون فى الاحتفال به بل تكون تقاليدهم عبارة عن قراءة المولد الشريف فقط ، وهذا اما يكون فى ليلة الاثنين او الجمعة . وتقضى عليهم العادة بعد الخطبة بارسال هدية الى المخطوبة من خاتم او قرط . وباعداد ليلة انس وطرب فاذا اكتفى فى بادئ الامر بالخطبة ، يكون عقد النكاح يوم العرس او قبله بيومين ، ويعقد نهاراً .

ويجب على الخاطب ارسال الصابون والقهوة والحناء ، والصلصال المطيب ، الى بيت

المخطوبة قبل الزفاف باسبوع ، ويسمون هذه الهدية « ميده » اى مائدة .

ثم تحتفل عائلة العروس بترتيب دعوة الحمام للنساء ، فيرسلون الى كل من يريدون حضورها فى الحفلة قطعة من الصابون تقوم مقام الدعوة . وتكون هذه الحفلة قبل العرس بيومين او ثلاثة ايام .

وهنالك يرسل الجهاز من بيت العروس الى منزل العريس . وكان من عوائدهم ارساله بضرب الطبول والزمور اما اليوم فقد هجروا تلك العادة .

وفى ليلة الزفاف يدعى العريس الى بيت احد اصدقائه . وتهيء له آلات الطرب هناك او يقرؤن المولد الشريف . وبعد ان يلبث العريس هناك حتى منتصف الليل . ينعقد موكب الزفاف فتتقدم المصابيح ، وآلات الطرب امام الجمع ويلتف حول العريس اقاربه واصدقائه ويوصلونه الى البيت ، وهناك توجد حفلة النساء . فيتلقين العريس بالاهازيج ويصرخن « لو ، لو ، لو » . وتقضى عادتهم على العريس وابيه واخوته ان يقدموا للعروس هدية صباح ليلة الزفاف .

وربما تتسلسل ليال السرور بعد ليلة الزفاف وتدوم فيها الافراح ، ويجب على الزوج ان يدعو الى بيته حماه وذويه وجميع اقارب العروس فى يوم مخصوص ، وتسمى هذه الدعوة عندهم « ردة الرجل » . وبعد العرس بشهر يجب على اب العروس ان يدعو صهره وجميع ذويه . ويسمون هذه الدعوة « بوسة اليد » . ولا بد من تقديم الهدايا فى جميع تلك الدعوات . والمهر المؤجل عندهم يكون بمقدار ثلثى المهر المعجل . او ثلثه او ربعه .

ويندر فى اللاذقية وجود تعدد الزوجات . وهو منحصر فى بضعة اشخاص . ويؤثر عنهم انهم اقاموا لكل زوجة منزلاً على حدة .

ويرغبون ان تكون اولادهم ذكوراً ، ويحتفلون بختانهم وختمهم القرآن احتفالاً عظيماً .

وتحمل الاموات فى اللاذقية بتابوت مكشوف ، ويكتفون بسترها بغاشية . ويروى عنهم انهم يتحاشون من استعمال التابوت المستور لئلا يشبهون النصارى الذين يضعون امواتهم فى هكذا توابيت .

ولا تمشى النساء وراء الجنائز . بل تشيع من قبل الرجال باتم الهدو والسكينة . ومن عوائدهم زيارة قبور الصالحين مثل « الشيخ محمد المغربى » و « الشيخ صالح الطويل » و « الامام البطرنى » و « الامير موسى » و « ابى الدرداء » و « الشيخ سعيد » . وكثيراً ما يبيتون مرضاهم فى تربة (الامام البطرنى) و « ابى الدرداء » . ويعتقدون انهم يبرأون من مرضهم بهذه الوسيلة . ثم عندهم مزار يسمونه (قاضى الحاجات) . تقصده النساء ،

وفي يد كل واحدة منهن حصبة تحصب الجدث بها ثم تتمنى من صاحبه قضاء حاجتها بصوت عال .

*
* *

ويخرج المسلمون ايام الربيع قبل شروق الشمس الى محلات النزهة نساءً ورجالاً ، ويأخذون معهم الحليب والقهوة ويخرج النساء دون الرجال في الايام الثلاثة من ابتداء نيسان الرومي وتسمى هذه النزهة في عرفهم « شم النسيم » . وهكذا يخرجن في آخر اربعاء من شهر صفر .

ثم تخرج النساء المسلمات الى خارج البلدة لاجل التنزه في عيد الفصح عند المسيحيين ويسمونها (طلعة عيد النصارى) . ويزعم ان هذه العادة تأسست لاجل التغيب من وجه النصارى . ولكن نرى هذه العادة قد تأصلت في نفوسهم حتى صار هذا اليوم لديهم مثل بقية اعيادهم . ونفقة الثياب التي تعد لاجل هذا العيد هي اعظم مما ينفق لاجل الاعياد الاسلامية .

٥ — الاحوال الصحية

ان الوسائل الصحية في هذه القصبة متوفرة . لان انفساح ضواحيها ، وخلوها من كل حائل جعل للهواء مهباً من جميع انحائها ، لاسيما الرياح الشرقية التي تهب في ليال الصيف فانها تحف اللاذقية بحياة طيبة . ولكونها بلدة معتدلة في اقليم معتدل لا تتجاوز فيها الحرارة ابان الصيف (٢٣—٣١) درجة ، ويندر انخفاضها عن الصفر في الشتاء واكثر ما ترى في ذلك الموسم بين (٥—١٠) درجات .

وماء القصبة صالح للشرب والاستعمال باعتبار الاصل ، وموافق للقواعد الصحية .

ومع هذا فاذا نظرنا الى تدنس مياه الآبار بالامتياخ ، وتحقق لدينا انها عرضة للترشحات الوسخة نعلم ان تلك المياه واسطة خطيرة لسراية الامراض وتفشيها . ويروى اطباؤها ان قد حل فيها قبل بضع سنين مرض القوليرة فكاد لا يبقي ولا يذر ، وكان لهذه الآبار تاثير عظيم في تأصله واستقراره فيها .

أما بيوت القصبة فقد ذكرنا في بحث الخطوط الداخلية ان اكثرها مما لا يسوغ ان يشتكى منه ، غير ان فيها من البيوت التي اكلتها الرطوبة وعشعشت فيها العفونة وهجرها الضياء ، ما لا ينطبق على الحيز الصحي ، ولا على الحالة المدنية . ولهذا يكون اصلاح هذا القسم منها من الامور التي لا يجوز اهمالها .

ويجب ان لا ننسى فى هذا البحث المستنقعات الموجودة قريباً من المدينة . لان النهر الكبير الذى يصب فى البحر فى الجنوب الشرقى قريباً من القصبة يحدث مستنقعات لا تنقطع الحمى المرزغية من هذه البلدة بسببها .

هذا وان قال طبيب البلدة ان مقدار الذين يصابون بهذا المرض لا يتجاوز (٥٠٠ — ٦٠٠) نسمة فى السنة . ولكن اذا نظرنا الى الحالة الاجتماعية فى خلقها واطلعنا على سويتهم الفكرية يتضح لنا ان مقدار المصابين اكثر بكثير من المقدار الذى بينه الطبيب . وعلى كل حال ان عدد مصابى هذا المرض يكاد ان يكون نصف مقدار ما يصاب بجميع غيره من الامراض .

ويقال ان هذا المرض يفتك فى ملحقات اللاذقية فتكاً رهيباً . ويروى ان عدد الذين يصابون به فى قضاء المركز يبلغ فى كل سنة نحواً من (١٥) فى المائة من مجموع السكان . ولا جرم ان السعى لتقليل عدد المصابين الذى يناهز (٨٠٠٠) نسمة فى السنة ، او بالاجدر اعمال الهمة لتحديد دائرة هذا المرض واطفائه فى زمن قصير ، هو من الوجائب الضرورية التى يحتم القيام بها .

ثم يأتى بعد هذا المرض ، مرض « السل » . وان تأثير هذا المرض هو اشد وافظع من الاول بكثير . لاسيما وقد كان هذا المرض قبل (٤٠ — ٥٠) سنة منحصراً فى بضعة اشخاص من المسيحيين ، واصبح اليوم فى درجة يقتل فى السنة (٤٠ — ٥٠) نسمة . وهذا جدير بالاهتمام ، وهذه النسبة لا تزال فى هذه الدرجة منذ سبع سنين . وعدد الاصابات منه فى كل سنة يبلغ نحواً من (١٠٠) نسمة .

ويقول المدققون ان اسباب تفشى هذا المرض بهذه الدرجة الهائلة ، هو عدم التعرض لبيع الاشياء التى تخص هاتين العائلتين اللتين مر ذكرهما ، وعدم تعقيمها على الوجه الصحى ثم الاغماض عن بيع اغراض مرضى اليوم ايضاً ، وعدم وجود آلة للتعقيم ثم عدم وجود دار للتجريد تحفظ فيها المرضى . ولا ريب ان تأثير هذه الوسائل لا ينكر ، وعليه يتحتم التذرع بهذه التدابير ، والسعى لانقاذ حياة اللاذقية من مخالب هذا الموت الهائل ،

ويأتى بعد مرض السل الذى يشغل عشرة فى المأة بين الامراض الاخرى ، مرض لا يقل عنه فى الخطورة والايحاء . وهو مرض الافرنجى . ويقول الطبيب انه اطلع على (٥٠ — ٦٠) من المصابين بهذا المرض فى ظرف ستة اشهر . وهذا يطلعنا على درجة هول هذا المرض القاتل . ثم اذا فكرنا بالذين يرجعون فى ازالة مرضهم الى السحرة والدجالين والذين يتداوون بالتبخير وغيره نعلم خطورة هذا المرض الذى خلقته الحرب ، ودرجة هوله على الصحة العامة . ويدعى ان اكبر سبب لتفشى هذا المرض هو عدم وجود المحلات التى تمكن مراقبتها ، ويسهل وضعها تحت الفحص . ولا نرى لزوماً لان نبين احتياج

هذا الامر الخطير الى التدابير العاجلة .

ثم تأتى بعد هذه الامراض بعض الحميات ، والامراض العينية والجلدية وبعض الامراض السمية . ولكن ليس لهذه الامراض سطوة بنسبة الآخرين . فاذا صرفنا النظر عن المصابين ببعض الامراض السمية نجد الباقين لا يتجاوزون العشرين فى عددهم .

*
* *

اما الامراض الطارئة التى حدثت فى السنين الاخيرة فهى عبارة عن الحمى التمشية والقوليرة . ويخمن مقدار مصابى القوليرة سنة (١٣٣٢) ببضع عشر نسمة . حتى ان الحمى التمشية ايضاً لم تشتد وطأتها فى هذه السنة . اما فى النصف الاول من سنة (١٣٣٣) فقد كان عدد المصابين بها (٢٠٠) نسمة ، توفى منهم ثلاثة فى المائة . اما القوليرة فلم يكن لها اثر فى هذه السنة .

*
* *

ان ادارة الصحة فى اللاذقية عبارة عن طبيب البلدية . وتفقد الناحيات الكائنة فى الجهة الشمالية على مسافة يوم من المركز ، منوط بهذا الطبيب ايضاً . وليس له معاون ، ولا عنده مستشفى ، وهو محروم من كل الوسائط الصحية . ويوجد فى المركز طبيب خصوصى وقابلتان لم تتخرجا فى المدارس . وصيدليتان . ولا نرى لزوماً لان نبحث عما تستطيع هذه الادارة القيام به من الاعمال الصحية وهى على هذه الحالة . ولا حاجة لتدقيق حالة الصحة العامة بعد ان اطلعنا على هذا التعريف البليغ .

٦ — اللغة والادبيات وحياة الطباعة

لا جرم ان اللغة العامة فى اللاذقية هى العربية العجمى . هذا وان تكن لغة اللاذقيين لا تفرق عن اللغة السورية شيئاً ولكن لهم لهجة خاصة تقضى عليهم بمد اواخر الكلم ، وتفخيمها وبهذا كانت لهجتهم غليظة . وهذه اللهجة توجد عند اهالى جبلة ايضاً ، اما فى الاقضية الاخرى فانها تنزع الى اللهجة الطرابلسية .

ويوجد فى اللاذقية من يتكلم باللغة التركية من متخرجى المدارس الابتدائية والتالية ويبلغ عددهم الى (٢٠٠) شخص . اما التركمان الساكنون فى انحاء باير وبوجاق والذين يناهزون فى عددهم (١٠٠٠٠) نسمة يتكلمون بالتركية بلهجة تركمانية . ثم ان اللغة الانكليزية والافرانسية معروفة عندهم . وبعض الذين يعرفون القرائة والكتابة من المسيحيين يعرفون هاتين اللغتين .

*
* *

نبغ فى اللاذقية بضعة رجال اشتهروا باتقانهم العربية الفصحى ، وباختصاصهم بالعلوم الشرعية . فمنهم (الشيخ مصطفى الحمودى) الذى توفى قبل خمسين سنة وهو من العلماء المحدثين ، ثم (الشيخ خالد الازهرى) الذى توفى قبل اربعين سنة ، و (عبد الرزاق افندى الفتاحى) الذى توفى فى ذلك الزمن . وهو عالم وشاعر معاً . ثم نبغ بعد هؤلاء (الشيخ عبد الفتاح المحمودى) و (الشيخ عبد الحميد المحمودى) والاول من هذين الاخوين يعد من فطاحل العلماء السوريين .

وكان عالماً شاعراً ، فقيهاً ومحدثاً . ومعظم الذين يتقنون العربية الفصحى الآن ، والمشتهرين باطلاعهم على العلوم الشرعية هم من تلاميذ « الشيخ عبد الفتاح المحمودى » .

وله مصنفات عديدة فى الصرف والنحو والبيان والعروض والفقه والتجويد ، مطبوعة وغير مطبوعة . وديوانه المسمى « سير الفوآد » ، وكتابه المسمى « تحفة الدارس » الذى يبحث عن علم الصرف وكتاب «الجريدة» فى علم النحو هم من مصنفاته المطبوعة

واخوه « الشيخ عبد الحميد المحمودى » ايضاً كان شاعراً وعالماً . وتوفى هذا العام قبل عشرين سنة ، اما وفاة اخيه فكانت قبل خمس عشرة سنة .

ثم ان « الشيخ صالح الطويل » ايضاً كان من العلماء المحدثين وله عدة مصنفات لم تطبع ووفاته كانت قبل ثلاثين سنة .

ثم منهم (الشيخ محمد سعيد الازهرى) . وقد توفى قبل خمس عشرة سنة وله اشعار، وبعض آثار دينية لم تطبع .

* *

ولا جرم ان اشهر رجال اللاذقية بالشعر هو (الياس صالح اللاذقى) الذى ولد سنة (١٨٣٩) ميلادية . وهو ينتمى الى اسرة مسيحية اصلها من غزه وقد تخرج فى الكلية الاميركية . وبعد ان تقلد وظيفة الكتابة برهة تركها واخذ يتعاطى التجارة . وفى سنة (١٨٧٢) صار قنصلاً لدولة اميركا ولم يلبث ان استقال منها ، ودخل فى خدمة الحكومة مرة ثانية واستخدم فى العضويات . وتوفى سنة (١٨٨٥) . وطبع ابنه اشعاره سنة (١٩١٠) فى مجموعة سماها (مراثى وديوان المرحوم الياس صالح اللاذقى) .

واكثر موضوع هذا الديوان المدحيات والمراثى والتواريخ . واهم ما فيها الاقسام التى تبحث عن بعض الوقايع التاريخية . وقصيدته التى بحث فيها عن قدوم مدحت باشا الى اللاذقية لاجل تأسيس المتصرفية حينما كان وال فى سورية ، هى من هذا القبيل . وقد استهلها بهذا المطلع :

مقل الورى اياك امست ترصد
يا كوكباً منه المطالع تسعد

يا مدحة العصر الذى بك فخره
ونتيجة الدهر الذى بك يحمد

ثم قال :

شرفت ارض اللاذقية منة
فشدا بها طير السرور يغرد
واخضرت الآكام فى ارجائها
زهواً واهلوها بوفدك عيدوا

وهذه الابيات الآتية تدل على انه كان عالماً بمزية مدحت باشا الحقيقية :

لا بدع ان احييت ميت قطرنا
واعدت رونقه له يتجدد
انت الخليق بفعل كل عجيبة
فنما لك الفضل الذى لا ينفد
وباحرف الذهب اسمك السامى غدى
فى صحف تاريخ الدهور يخلد

وله قصيدة اخرى مدح فيها راشد باشا والى سورية سنة (١٨٧٠) واخرى مدح فيها خورشيد باشا متصرف طرابلس سنة (١٨٦٧) ، وقد كان رشيد باشا قدم اللاذقية لاجل اصلاح جبال النصيرية ، فخاطبه الشاعر بهذه القصيدة :

قصد البوادى والجبال فذاق من
فيها تمرد طعم موت احمر
واستأنست فيها الذآب فاصبحت
معها ترى الاغنام ترعى فاشكرى . .

وخورشيد باشا ايضاً قدم الى هذه الديار لاجل اصلاح جبال النصيرية فخاطبه بقصيدة طويلة منها هذين البيتين :

وهب يصعد بالعليا الى جبل
لها طغت وبغت جهلاً عشائره
حتى محا كل عدوان ومفسدة
والله باليمن والبشرى يوآزره

وقصارى القول ان الياس صالح اقتدر على تثبيت حادثات زمانه المعلومة بخلوص ، وصفوة . واستطاع ان يترجم عن شعوره الدينى تجاه مريم العذراء بطبع قدير على النظم

وبقلب ملء من الايمان . فقال :

يا عذرا ام العجائب يا نجاتى فى النوائب
انت يا بكر ارحمينى وادفعى عنى المصائب
كل من فى مدح مريم قد تغنى وترنم
من خطوب الدهر يسلم آمنا كل المعاطب

ثم قال :

مدح ام الرب عندى فاق كل المطربات
وهى مأمولى وقصدى فى حياتى والممات
يجلى قلبى وصدرى فى مديحى للبتول
رافعاً نغمات شكرى راجياً منها القبول

ولا جرم ان هاتين المنظومتين انبعثتا عن شدة هيام ووجد دينى عميق . وقصارى لقول ان الياس صالح شعر فى حياته بكثير من الهياج وحاول جهده ليبثنا اياه ويطلعنا عليه . ولهذا يجب على اللاذقيين عامة ، والمسيحيين منهم خاصة ان لا ينسوا اسمه . لانه استطاع تحريك الاحساسات التى تخفق لها قلوبهم وتقريرها . واقتدر على نقل حالتهم لروحية وتثبيتها .

*
* *

حياة الطباعة — توجد فى اللاذقية مطبعتان . الاولى « المطبعة الوطنية » للشيخ سعيد افندى ، والثانية « المنتخب » لادوار افندى مرقس وانتشار عدة جرائد ومجلات فى برهة وجيزة بعد اعلان الدستور يدلنا على ان حياة الطباعة هناك دخلت منذ ذلك العهد فى دور جديد من الرقى . فكانت تصدر فيها جريدة « المنتخب » لصاحبها ادوار افندى مرقس ، وهى سياسية اسبوعية و « جريدة اللاذقية » للشيخ سعيد افندى سعيد وهى اسبوعية سياسية ايضاً ، و « الجريدة العربية » له ايضاً و « جريدة ماصنع الحداد » وهى اسبوعية مزاحية لعبد الحميد افندى الحداد و « ابو نواس » وهى اسبوعية ومزاحية ايضاً لصبحى افندى عقده . هذا وان كان جميع هؤلاء الجرائد اسبوعيات ولكن ما كان هذا التقدم النشرى ليقف عند ذلك الحد ، بل لا بد له ان يصل بهم الى تأسيس الجرائد اليومية ايضاً .

غير ان هذه الحرب الطحون ما لبثت ان طبقت على تلك الحياة الطباعية واخمدت جمرتها وهى فى مقتبل عمرها . ولا جرم اننا نود ان تعود هذه الحياة بعد الحرب ، وتكون احسن مما كانت عليه قبلها .

المؤلفات الجديرة بالذكر [*]

— المؤلفات التركيه —

١ — دولت عثمانيه تاريخى	(هامه‌ردن مترجم) — محمد عطا
٢ — تاريخ جودت	جودت باشا
٣ — تورك تاريخى	نجيب عاصم
٤ — تاريخ ابو الفاروق	مراد بك
٥ — خرافاتدن حقيقته	م. شمس الدين
٦ — لغات تاريخيه وجغرافيه	احمد رفعت
٧ — (تورك يوردى) مجموعه‌سى	(استانبول)

— المؤلفات العربية —

١ — تاريخ بن الياس ،	طبع بولاق ١٣١١ هـ
٢ — درة الاسلاك فى دولة الاتراك	لابن حبيب
٣ — برق الشام	لابن شداد

٤ — المواعظ والاختبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى ، طبع بولاق ١٢٧٠ هـ

٥ — المنهل الصافى	لابى المحاسن
٦ — نهاية الارب فى فنون العرب	للنويرى
٧ — السلوك لمعرفة دول المملوك	للمقريزى
٨ — البراق الشامى	لعماد الدين
٩ — حيات صلاح الدين الايوبى	لبهاء الدين

١٠ — كتاب الباكورة السليمانيه فى كشف اسرار الديانة النصيرية، لسليمان افندى الاذنى

١١ — كتاب المجموع ، لعبدالله بن حمدان الخصيبى

١٢ — كتاب مجموع فيه الاعياد والدلالات ، لابى سعيد ميمون بن القاسم الطبرانى

١٣ — كتاب الاسوس

١٤ — كتاب الصراط	تأليف المفضل بن عمر

---

[*] تابع للمؤلفات التى ذكرناها فى خاتمة كتابنا « ولاية بيروت ـ القسم الجنوبى »

١٥ — كتاب الاصيفر ، تصنيف الامام أبى عبدالله محمد بن شعبة الحرانى
١٦ — مسائل ابى عبدالله بن هارون الصائغ عن شيخه ابى عبدالله الحسين بن حمدان الحصيبى
١٧ — كتاب تعليم الديانة النصيريه
١٨ — الرسالة الدامغة للفاسق الرد على النصيرى لحمزه بن على
١٩ — الرحلة الشامية ، للامير محمدعلى باشا شقيق الخديوى (المطبعة الاميرية بمصر ١٩١١)
٢٠ — مشاهير الشرق ، لجرجى زيدان
٢١ — سوسنة سليمان فى اصول العقائد والاديان ، لنوفل نعمة الله نوفل
٢٢ — شعراء العصر ، لمحمد صبرى
٢٣ — فلسفة اللغة العربية ، لجرجى زيدان
٢٤ — كتاب الملل والنحل ،لابى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى (المطبعة الادبية بمصر)
٢٥ — كتاب الفصل فى الملل والاهواء والنحل لابى محمد على بن احمد بن حزم الظاهرى ؛ المطبعة الادبيه بمصر سنة ١٣٢٠ هـ
٢٦ — كتاب الفرق بين الفرق للامام الاستاذ عبد القادر بن طاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ؛ طبع اخيراً بمطبعة المعارف بمصر
٢٧ — صناجة الطرب فى تقدمات العرب لنوفل افندى نوفل
٢٨ — فصل من اللفظ الشريف هذه مناقب المولى راشد الدين (ژورنال آزياتيك ١٨٧٧ حزيران)
٢٩ — تاريخ الصحافة العربية ، لافيكونت فيليب دى طرازى
٣٠ — مجلة الزهور (مصر)
٣١ — مجلة المشرق (بيروت)
٣٢ — مجلة الكوثر (بيروت)
٣٣ — مجلة المباحث (طرابلس شام)

— المؤلفات الفرانساوية —

« المؤلفات العمومية »

1 — Archives des missions scientifiques et littéraires, Paris, 1re série, 1850—1859, 8 vol. ; 2e série, 1864—1882
2 — Revue archéologique
3 — Bulletin archéologique de l'Atheneun français
4 — Bulletin de la société de géographie de Paris
5 — Bulletin de l'institut egyptien. Alexandrie
6 — Bulletin de l'Œuvre des écoles d'Orient
7 — Année géographique, 13 vol. Paris
8 — Gazette archéologique. Paris
9 — Batissier, Histoire de l'art monumental dans l'antiquité et au moyen âge. 1 vol., 2e édition. 1860. Paris
10 — Chipier, Histoire de la formation des ordres grecs. 1 vol. Paris, 1875
11 — Maxime Du Comp. Egypte, Nubie, Palestine, Syrie, 25 liv. Paris, 1854
12 — Vigouroux. la Bible et les découvertes modernes. 4 vol. Paris, 1881
13 — I. Yanoski, Histoire de la Syrie ancienne. dans « l'Univers » 1 vol. Paris, 1848
14 — Bibliothèque Orientale d'Herbelot

« المؤلفات الخصوصية »

1 — F. de Saulcy, voyage autour de la mer morte et des terres bibliques, 2 vol. Paris, 1853
2 — Voyage en Terre Sainte, 2 vol. Paris 1872
3 — Numismatique de la Terre Sainte, 1 vol. Paris
4 — Le Temple de Jérusalem, 1 beau vol.
5 — Inscriptions sémitiques, Paris

6 — Syrie centrale, architecture civile et religieuse، du 1er au VIIe siècle، magnifique ouvrage, 2 vol. Paris

7 — Luynes (Duc de), voyage d'exploration à la mer morte, à Palmyre, à Pétra et sur la rive gauche du Jourdain, 3 vol. Paris

8 — Rey E-G, Familles d'outre-Mer et Du Cange، 1 vol. Paris, 1859

9 — Sommaire du supplément aux famille d'outre-Mer, 1 vol. Chartres, 1882

10 — Les colonies latines de la Syrie au XIIe et XIIIe siècle. 1 vol. Paris, 1882

11 — Voyage dans le Haourân et aux bords de la mer morte, avec atlas, Paris, 1860

12 — Essai géographique sur le Nord de la Syrie evec carteau $\frac{1}{50,000}$ (Bulletin de la Société de géog. 1873)

13 — Rapport sur une mission scientifique accomplie en 1864-1865 dans le Nord de la Syrie، 1 vol. Paris

14 — Essai sur la domination française en Syrie durant le moyen, âge, 1 vol. Paris، 1866

15 — Etude historique et topographique de la tribu de Juda, 1 vol. Paris, 1863

16 — E. Renan, Mission de Phenicie, bel ouvrage avec planches، 1 vol. Paris

17 — W. Waddington, Inscriptions greques et latines de la Syrie, 1 vol. Paris, 1870

18 — V. Guérin, description géographique, historique et archéologique de la Palestine، accompagnée de cartes, 1re partie Judée, 3 vol. ; Samarie, 2 vol.; Galilée, 2 vol. ; Paris, 1868-1880

19 — Clermont-Gannoau-Horus et St Georges

20 — Itinéraire de Jérusalem à Bîr el-main ; (Bulletin de la société de géog. Mai 1877)

21 — La Palestine inconnue, Paris, 1876

a 22 — L. Lartet، Essai sur la géologie de la Palestine et des contrées voisinantes, 1 vol. Paris، 1869

23 — Bertou (Le Cte de)، Essai sur la topographie de Tyr. Paris, 1843

24 — L. de Laborde, voyage dans l'Arabie Pétrée، 1 vol. Paris.

25 — Alph. Courtet، La Palestine sous les empereurs grecs, (326-632), thèse, 1 vol. Grenoble، 1869.

26 — G. Schlumberger, Les principautés franques du Levant، d'après les plus récentes découvertes de la numismatique، 1 vol. Paris، 1877

27 — Numismatique de l'Orient latin، 1 vol. Paris, 1878

28 — Lockroy، Route entre Tripoli et Hourmoul, dans le Tour du Monde, 1862

29 — H. de villefosse, Notice des monuments provenant de la Palestine et conservés au Musée du Lauvre, Paris, 1876

30 — Michaud et Poujoulat, correspondance d'Orient, 7 vol. Paris، 1880

31 — G. Pierrotti, La Palestine actuelle dans ses rapports avec la Palestine ancienne، 1 vol. Paris, 1865

32 — Cadalvene, Campagne d'Ibrahim-Pacha en Syrie، Paris، 1841

33 — Moritz Sobernheim, Materiaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum، Syrie du Nord, Le Caire, 1909

34 — Sacy (Le Bon Sylvestre de)، Exposé de la religion des Druses 2 vol., Paris, 1837

35 — Idem, Catéchisme des Nasairis, Paris

36 — Russeau، Les Vahabis, les Nosaîris et les Ismaëlis, Marseille 1817

37 — R. Dusseaud, Histoire et religion des Nosairis، Paris, 1899

38 — Idem, Influence de la réligion nosairi sur la doctrine de Rachid-al-Dine Sîman، Camnunication à la Société Asiatique, mai 1900

39 — Idem, Voyage en Syrie (Revue Archéologique، 1897)

40 — Léon Cahun, Les Ansariés, dans le Tour du monde, 1879

41 — Le P. Lammens, Les Nosairis (Etudese religieuses، 1899

42 — Filix Dupon, Mémoire sur les mœurs et les cérémonies religieuses des Nosseriés (Journal asiatique, 1er ser. v

43 — Cl. Huart, La poésie religieuse des Nossairis

44 — J. Hammer, Tableau généalogique des 73 sects de l'Islam (Journal Asiatique, 1re ser. t, vi)

45 — Baron Rey, Exploration de la montagne des Ansariés en Syrie (Bulletin de la Société de géog. 1865)

46 — Stanislas Cuyard, Un Grand maître des Assassins aux temps de Saladin, Paris, 1877

47 — P. du Damas, voyage en Orient

48 — Quatremère, Mines de l'Orient, Paris

49 — Reinaud. Extraits des Historiens Arabes, Paris 1829

50 — Edouard Saadé, l'Agriculture à Lattaquié, (thèse agricole soutenue en 1905 à l'université de Beauvais)

51 — Emil Catzéflis, Essai sur l'agriculture du Liban et du Littoral; Beauvais

52 — Les ruines de Palmyre ou Tedmor au désert, 2 vol. Texte et planches, Paris, 1829

53 — Rouvier, les ères de Tripolis, Paris 1898

54 — J, de Goeje, Mémoire sur les Caramathes du Bahraïn et les Fatimides

55 — Alfred Fouillée, Histoire de la Philosophie

56 — M, c, Defréméry, Nouvelle recherches sur les Ismaéliens ou Batiniens de Syrie

57 — M. Quatremère, Notice Historique sur les Ismaéliens

58 — M, R, Mémoire sur les trois plus fameuses sectes du Musulmanîsme; les Wahabis, les Nosairis, et les Ismaélis

59 — S. Guyard, Fragments relatifs à la doctrine des Ismaélis, dans la (XXII)me partie de Motions et Extraits; (Paris 1855)

60 — Defrémery, Essai sur l'Histoire des Ismaéliens ou Batiniens de la Perse (Paris 1867)

61 — Pavet de Courteille, Dictionnaire Turk-Oriental; Paris 1870

— المؤلفات الانكليزية —

1 — Ed. Robinson, Biblical researches, Londres, 1856

2 — Physical geography of the Holy Land, Londres, 1865

3 — W. Linch, Narrative of the United states expedition to river Jordan and the Dead Sea, 1 vol. Londres, 1852

4 — B. Tristram, The Land of Moab, travels and discoveries on the east side of the Dead Sea and the Jordan, 1 vol. Londres, 1874

5 — The Land of Israël, Journal of travels in Palestine, 1 vol. Londres, 1876

6 — Natural history of the Bible, Londres 1873

7 — A. Stanley, Sinaï and Palestine, in connection with their history, 1 vol. Londres, 1877

8 — Vilon et Warren, The Recovery of Jerusalem, a narrative of exploration and discovery in the City and the Holy land, 1 vol. Londres 1870

9 — Ch. Warren, Undergroud Jerusalem, vith a narrative of an expedition through the Gordan Valley and a visit to the Samaritans, 1 vol. Londres, 1876

10 — C. Conder, Tent work in Palestine, 2 vol. Londres, 1879

11 — H. Palmer, The desert of the exodus, 2 vol. Cambridge, 1871

12 — J.-L. Porter, Five years, in Damascus, with travels and researches in Palmyra, Lebanon, etc. Londres, 1870

13 — The Giant Cities of Bashan and Syria's holy places, 1 vol. Londres, 1870

14 — W. Besant et H. Palmer, Jerusalem, the City of Herod and Saladin, 1 vol. Londres, 1871

15 — The history of Jerusalem, Londres

16 — G. williams, The Holy City, historical, topographical and antiquarian, notices of Jerusalem, 2 vol. Londres, 1849

17 — Barclay, The City of the Great King, 1 vol. Londres, 1857

18 — Mac Gregor. The Rob. Roy en the Jordan, 1 vol. Londres, 1876

19 — C. Schick, Recent excavations at Jerusalem

20 — Rev. S. Lyde, The Ansyreeh and Ismaêleeh Londres 1853

21 — Smith, Dictionnary of Greck and Roman Geography, Londres, 1854

22 — Burckhardt, Travels in Syria and the holy Land 1 vol. Londres, 1822

— المؤلفات الالمانية —

1 — Dr Frass, Drei monate am Libanon, Stuttgard. 1876

2 — Geologische Beobachtungen am Nil, auf den Sinaï-Halbins und in Syrien, Stuttgard, 1867

3 — G. wetzstein, Reisebericht über Haouran und die Trachonen, 1 vol. Berlin, 1860

4 — Kotschy; Reise in den Cilischen Taurus über Tarsus, Gotha; 1858

5 — Van de Velde, Reise durch Syrien und Palestina, in den Jahren 1851 und 1852, 2 vol. Leipzig, 1855

6 — Georg. Ebers, Durch Gosen zuna Sinaï, 1 vol. Leipzig, 1872

7 — Brugch, wanderung nach den Turkis-Minen und der sinaï Halbinsel, 1 vol. Leipzig, 1868

8 — A, von Kremer, Die Heindengemeinden der Nosairyer im nordlichen Syrien und in Cilicien, Das aus Land, 1872

9 — M. Hartmann, Das Liwa el-Ladkidje und die Nahije und die Nahye Urdu, das Z.D.P.V., t. XIV

10 — Sachau, Reise in Syrien und Mesopotamien, Leipzig, 1883

11 — Chwolsohn, Die Ssabier und der Ssabismus, St Pétersbourg, 1856

12 — Brockelmann, geschichte der arabischen Litterature, weimar 1898

13 — Roehricht, Geschichte des Koenigreichs Jerusalem

14 — Zeitschrift für Egyptische sprache und alterthamskunde, Leipzig

15 — Zeitschrifs d. deutsche morgenlandische Gesellschaft, Leipzig

المواضيع	رقم الصحيفة